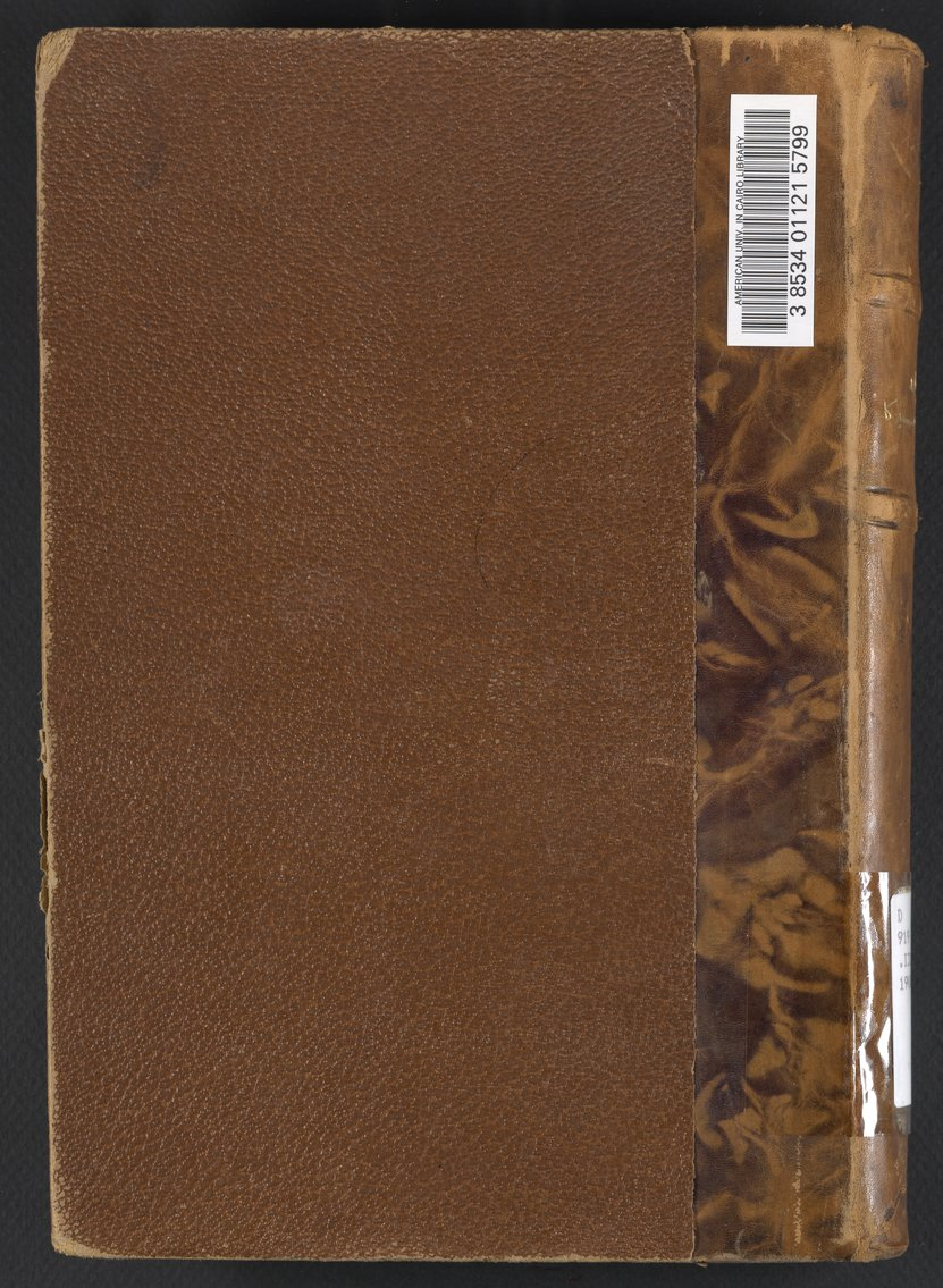
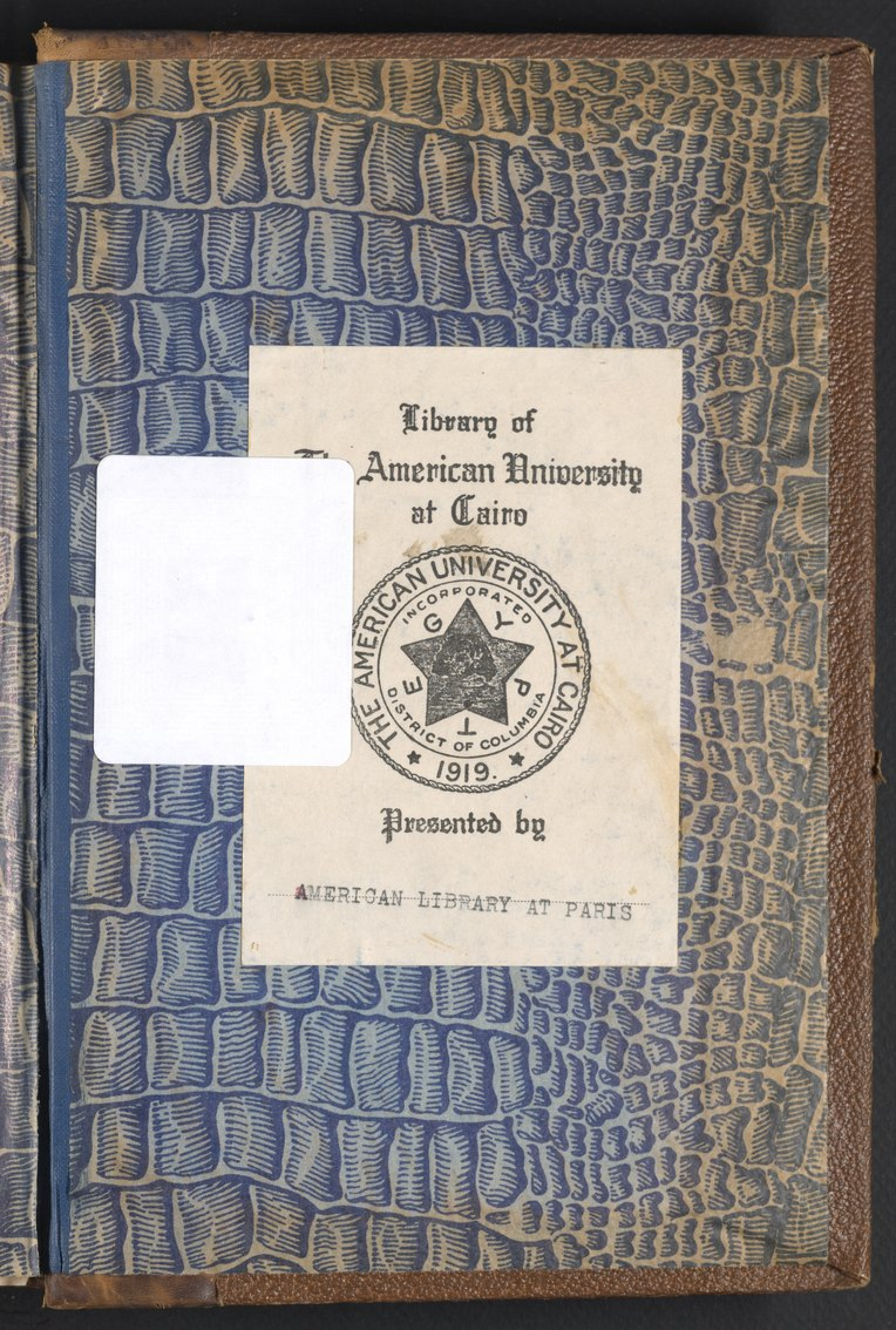
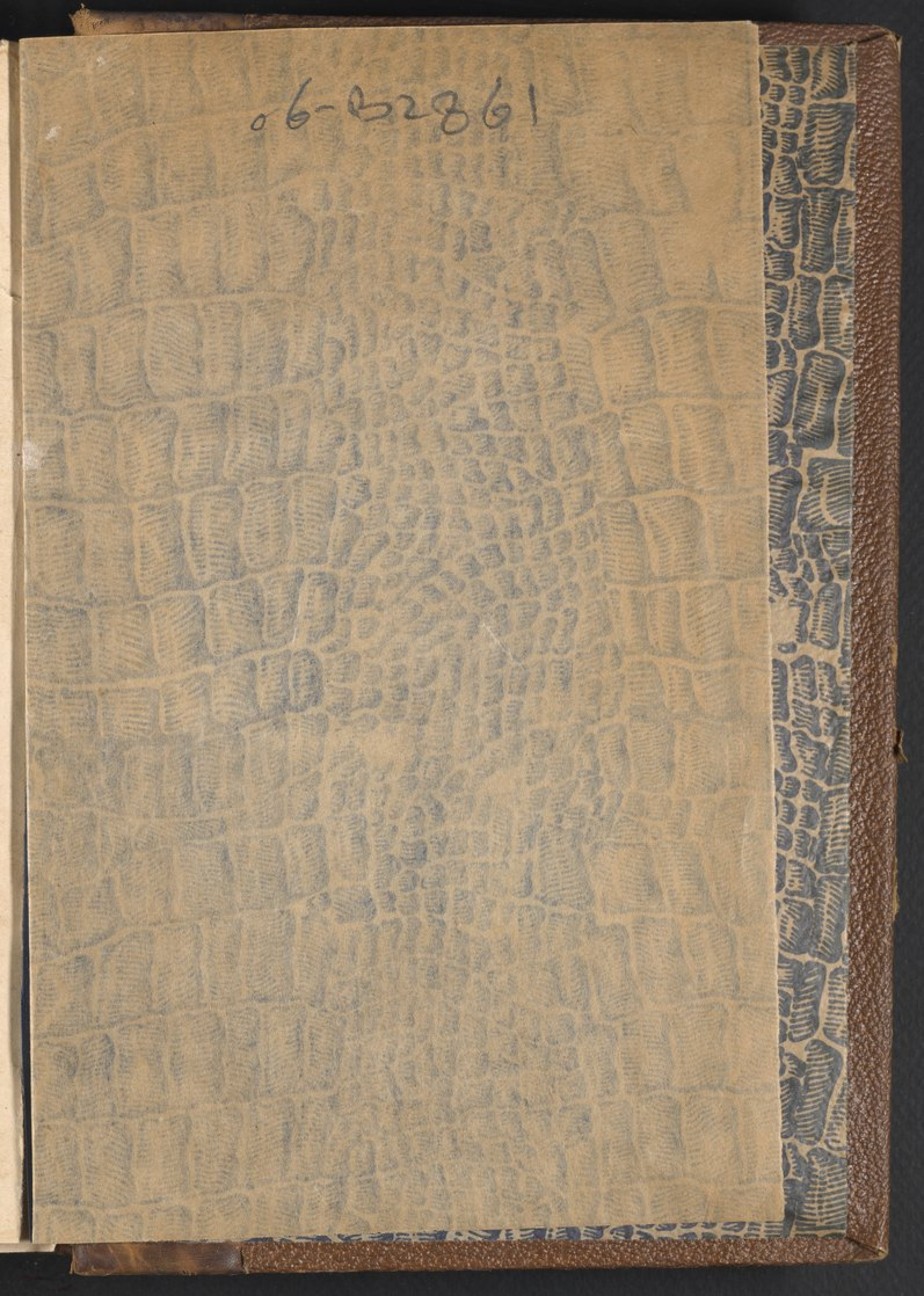



Library of
The American University
at Cairo
THE AMERICAN UNIVERSITY AT CAIRO
INCORPORATED
EGYPT
DISTRICT OF COLUMBIA
1919.
Presented by
AMERICAN LIBRARY AT PARIS





كتاب
مشاهد اوروبا واميركا

وفيهِ وصف مدائن اوروبا واميركا ومشاهدها المشهورة وآثارها ومعالمها وخلاصة تاريخها وخواطر في نظاماتها وعوائد اهلها واخلاقهم

تأليف
ادوار بك الياس
مفتش في نظارة الداخلية المصرية

طبع في مطبعة المقتطف بمصر
سنة ١٩٠٠

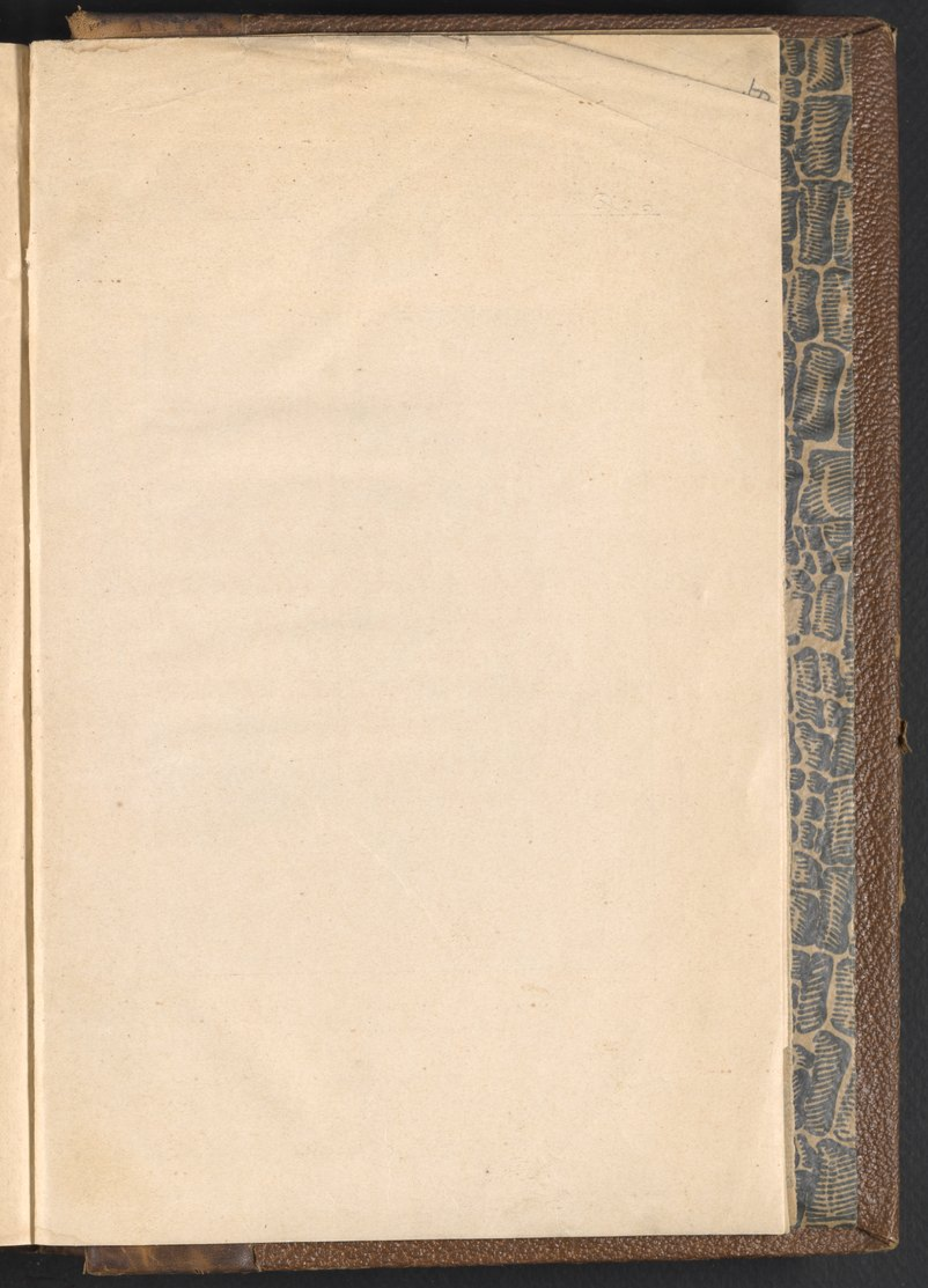


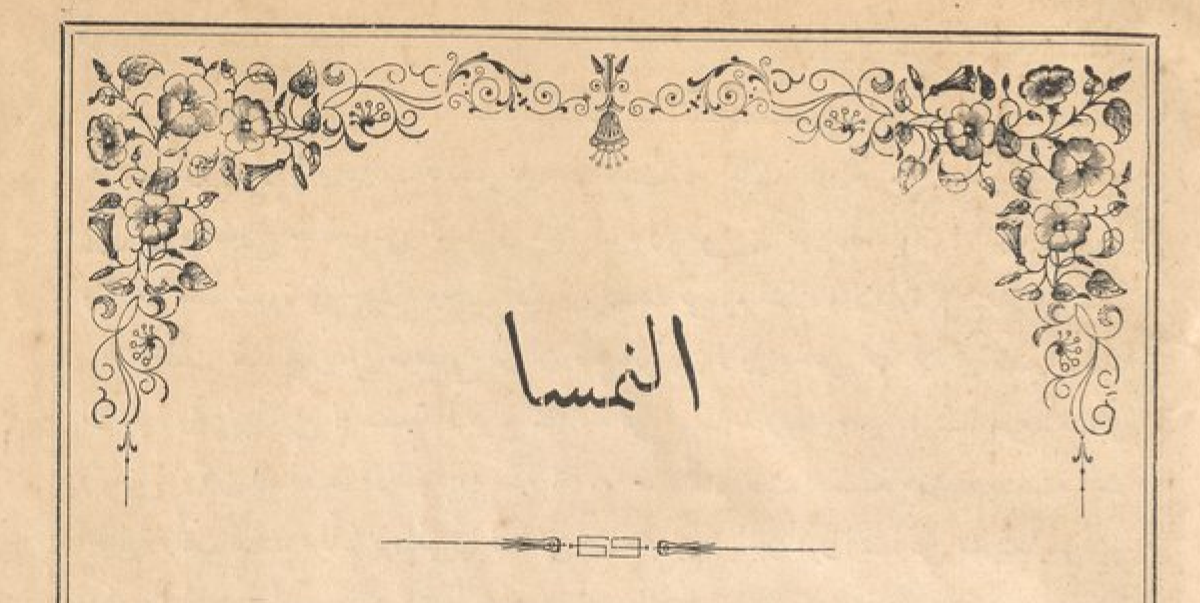
مقدّمة

اما بعد فاني لما علمت فوائد السياحة والعلم بما في البلدان من المعالم والآثار ورأيتُ ما عند الغربيين من كتب يكثر نفعها في وصف المدائن والمشاهد عوّلتُ على وضع كتاب شامل بالعربيةً في هذا المعنى وقصدتُ بلدان الغرب مرارًا كنتُ ادوّن فيها الحقائق والخواطر حتّى اني زرتُ اصقاعاً ما سمع بذكرها هنا الاكثرون مثل بلاد فنلاند وسواها فلما انتهيتُ من البحث وجمع المواد سطّرتُ فصول هذا الكتاب وجعلتُ الاختصار شأني في امور الانتقال والحكايات الخاصة فما اطلتُ الاّ حيث يفيد التطويل في وصف اخلاق الامم ونظامات الممالك والعوائد المميزة للشعوب وصدّرتُ كل فصلٍ من فصولهِ بخلاصة تاريخيةً تلزم للقارىء حتى يقابل بها ماضي الامم بحاضرها ويكون على بينةٍ من امر القصور والتحف والآثار التي تكثر الاشارة عند وصفها الى حوادث التاريخ الماضية وزيّنتُ صفحات الكتاب برسوم الملوك والكبراء وبعض المشاهد المعدودة فكان في ذلك كلهِ بعض مزيّة لهُ يكون من ورائها النفع ان شاء الله

ولما كان سموّ وليّ النعم مولانا الخديوي المُعظّم ذا فضلٍ على العلم والادب وقد كثرت معارف القطر على عهدهِ السعيد فاني جعلتُ الكتاب تقدمةً لسموهِ وصدّرتهُ برسم ذاتهِ الكريمة فتنازل حفظهُ الله الى قبول هذه التقدمة الوضيعة ولي امل ان يحظى هذا الكتاب باستحسان الجمهور والله الهادي الى الصواب

عباس الثاني خديوي مصر





النمسا

خلاصة تاريخية

معلوم ان هذه المملكة تضمُّ الآن ممالك عدة لكلٍّ منها تاريخ خاص بها فان بوهيميا وبولونيا وبلاد المجر والنمسا وكرواسيا وغير هذه من اجزاء السلطنة النمسوية كانت مستقلة ولا ينطبق تاريخها الخاص على تاريخ المملكة العام . واما النمسا فاسم أُطلق في ايام شارلمان على الممالك التي خضعت لهُ حول نهر الدانوب ونهر الانس في شرقي اوروبا وعُرفت باسم اوستريا او (اوسترك) اي المملكة الشرقية وكانت مؤلفة من معظم البلاد الواقعة الآن في حوزة المانيا والنمسا معاً وظلَّت تابعة لشارلمان وخلفائهِ حتى ضعف هؤُلاء الخلفاءُ وصار امراءُ الممالك الالمانية ينتخبون الامبراطور انتخاباً وكان الاساقفة في بعض الاحيان يقومون مقام الامراء في الانتخاب او ان البابا يعين امبراطوراً للسلطنة الالمانية. واشهر من انتخب لهذا المنصب بعد سلالة شارلمان هنري الاول ابن امير باقاريا ملك سنة ٩١٨ واصلح اموراً كثيرة في البلاد واشتهر بعدهُ فريدريك الثاني الذي انتخب امبراطوراً في سنة ١٢١٢ وكان رجلاً حازماً عاقلاً مدَّ سلطنتهُ في الشرق والغرب وملك اكثر جهات ايطاليا ولكنهُ كان عدو سلطة رجال الدين فحاربهم وحاربوهُ وانتهى الامر بفوزهم عليهِ لان الناس كانوا في تلك العصور آلات في يد رجال الكنيسة فلما مات فريدريك هذا في سنة ١٢٥٠ وقعت البلاد في اضطراب كبير وطُمست اخبار عزها فلم يسمع لها بشيءٍ يذكر الى عام ١٢٧٤ حين قام امير من اشراف سويسرا اسمهُ رودولف هابسبرج وعظم شأنهُ الى حد أنهُ صار اميراً لاوستريا او النمسا وهي يومئذٍ كما قلنا جزءٌ من السلطنة الالمانية . وكان رودولف هذا عاملاً في بلاط ملك بوهيميا فعسر على الملك ان يقرَّ

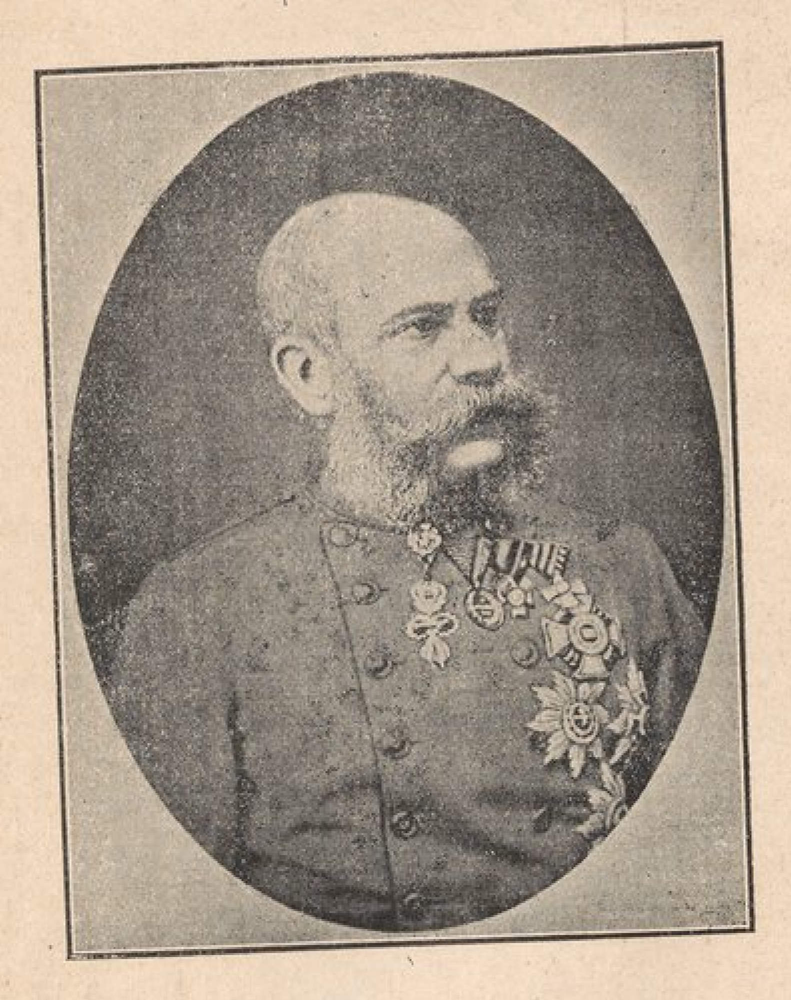
لهُ بالامارة وحاربهُ رودولف فانتصر عليهِ واستتبَّ لهُ الملك فاورثهُ من بعدهِ الى بنيهِ ولم يزل آل هابسبرج حاكمين على النمسا الى هذا اليوم وهم من اكبر العائلات المالكة في اوروبا واعظمها ولهم شهرة في الخيلاء وحب الابهة والتمسك برسوم الملك والامارة لا تزيد عنها شهرة

وظلّت النمسا في يد آل هابسبرج الى ان قام نابوليون الاول وجعل همهُ الاكبر تقسيم السلطنة الالمانية وتجزئتها حتى لا تنضمّ الاقوام الالمانية على فرنسا فحارب بروسيا والنمسا حروبًا متوالية وقوّض اركان السلطنة الالمانية في سنة ١٨٠٦ فأُبدلت تلك السلطنة القديمة بسلطنة النمسا الحالية ولُقّب الملك الحاكم يومئذٍ في ڤينا من آل هابسبرج بامبراطور النمسا على مثل ما هو اليوم ولكن نابوليون حارب بلاد النمسا هذه مرتين وانتصر عليها في موقعة اوسترليتز المشهورة سنة ١٨٠٥ وفي موقعة واجرام سنة ١٨٠٩ وبعد هذه الحروب اقترن بابنة الامبراطور مكسيمليان فصار حليفًا للنمسا وارتفع شأنها بين الممالك حتى انها ضمّت اليها في سنة ١٨١٥ بلاد لومبارديا والبندقية من اجزاء ايطاليا وبلاد كراكوڤيا في سنة ١٨٤٧ . ولكنها كُسرت سنة ١٨٥٩ في حربها مع فرانسا وايطاليا فتخلت للدولة الايطالية التي اسسها فكتور عمانوئيل عن املاكها في ايطاليا وفي سنة ١٨٦٦ شبت حرب مشهورة بينها وبين بروسيا بتدبير بسمارك الشهير فخُذلت في تلك الحرب ايضًا وتنحت عن الاتحاد الالماني فحلت بروسيا محلها في انها صارت اكبر الممالك الالمانية وهي بعد ذلك بقليل صارت رئيسة المانيا الى اليوم كما هو معلوم

وفي سنة ١٨٦٧ أُبرمت معاهدة بين النمسا والمجر على ان تكون البلادان سلطنة واحدة لكلٍّ منها نظام خاص بها واستقلال تام في الشؤون الداخلية ويربطهما حكم الامبراطور على البلادين وهو الى الآن لقبهُ الرسمي امبراطور النمسا وملك المجر ونتج عن هذا الاتحاد قوة كبرى للسلطنة النمسوية لا سيما وان قيصرها الحالي رجل حنكتهُ الايام واشتهر بالتروي والحكمة وحب القلوب بهِ لكثرة فضائلهِ فجعلت السلطنة تنمو وتتقدم في ايامهِ حتى ان اوروبا اتفقت سنة ١٨٧٨ في مؤتمر برلين على اضافة ولايتي بوسنيا والهرسك اليها وهما الآن من اجزاء السلطنة النمساوية . وابرمت معاهدة مشهورة بين روسيا والمانيا والنمسا سنة ١٨٧٩ ثم تنحت روسيا عن هذا التحالف فأبرمت المحالفة الثلاثية المشهورة بين المانيا والنمسا وايطاليا وهي معروفة ومقررة الى اليوم فزادت البلاد تقدمًا ونموًّا ونفوذًا واتسعت متاجرها وارتقت درجة العلم في انحائها

كل هذا تمَّ بتدبير ملكها الحازم الجليل الامبراطور فرانس جوزف الجالس على سرير النمسا الآن وهو محبوب من الامم الخاضعة لهُ حبًّا شديدًا ولولا مكانتهُ في النفوس وما لهُ من المهابة

لخشي على بلاده من التجزوء والانقسام لان رعاياه كثيرو الاجناس والمذاهب لا يضمهم راي غير التعلق به . ولد في ١٨ اوغسطس سنة ١٨٣٠ وارتقى العرش بعد تنازل عمه في ٢ ديسمبر سنة ١٨٤٨ واقترن بالاميرة اليصابات ابنة الدوك مكسيمليان البافاري سنة ١٨٥٤ . وقد قسم لهذا الملك العظيم ان يكون منغص العيش كثير الهموم فانه قتل اخوه مكسيمليان في بلاد المكسيك وسيجيء الكلام عنه في باب تريسته وانتحر ابنه وولي عهده رودولف سنة ١٨٨٨ فكدر صفو عيشه ثم قُتلت قرينته في جنيف في شهر سبتمبر سنة ١٨٩٨ من يد فوضوي اسمه لوكيني فتم بذلك كاس حزنه الشديد . وهو من اعظم ملوك اوروبا الحاليين مهابة واكثرهم خبرة واوسعهم في الفضيلة شهرة كما يعلم القارئون



فرانس جوزف امبراطور النمسا

تريستة

اني ركبت متن البخار من الاسكندرية في يوم راقت سماؤُه واعتلَّ هواؤُه من شهر يونيو عام ١٨٩٣ وكان بدء السفر على غير ما يوافق ذلك اليوم لان السفينة جعلت تتقلب وتميل ونحن لا نرى في البحر موجباً لهذه الحركة فسألنا ربان الباخرة في ذلك قال انهُ بقيةّ اضطراب في ما يلي سطح البحر من الماء من نوءٍ مرَّ وان الحال ستبقى على مثل ذلك خمس ساعات وصحَّ قول الرجل فانهُ لما انقضى الموعد الذي نوَّه بهِ هدأ اضطراب السفينة وتبدَّت حلاوة السفر فتوارد المسافرون الى ظهر الباخرة واجتمعوا يتحدثون على عادة الناس في مثل هذه الاحوال . ومررنا في الطريق بمناظر شتى تستحق الذكر منها جزيرة كريت المشهورة رأينا جبالها الباسقة الى ناحية اليمين في اليوم التالي من سفرنا وسرنا بعد ذلك بين جزر متعدّدة من جزائر الارخبيل الرومي مثل زانت وكلارنس وسفالونيا فكانت الباخرة في بعض الاحيان تقترب من الارض اقتراباً يمكّن المسافر فيها من رؤية مناظرها البهيَّة وما فيها من كرم وزيتون وشجر كثير . ومن هذه الجزر المعروفة كورفو مررنا بها في اواخر اليوم الثالث من بعد ان غادرنا الاسكندريَّة حتى اذا كان صباح اليوم الرابع القت السفينة رحلها في مينا برندزي وهي مدينة صغيرة في جنوبي ايطاليا لا اهميَّة لها الاَّ في انها مرسًى للبواخر ونقطة الاتصال بين الشرق والغرب في البريد فهي يُنقل منها واليها البريد المتبادل بين اوروبا والشرق واخصهُ ما كان بين انكلترا والهند فتجولنا في جوانبها حيناً ثم عدنا الى السفر ووصلنا تريسته في اليوم الخامس

واما تريسته فهي اشهر مين النمسا ولها فوق شهرتها الحالية تاريخ قديم فانها وصلها الرومان في سنة ٦٠٠ قبل المسيح وبنوا بها المعاقل والحصون ثم خربها اتيلا

وطُمست اخبارها زمانًا حتى قامت السلطنة الغربيَّة الجديدة على عهد شارلمان فتجددت اهميتها وأُلحقت بعد شارلمان بدولة البندقيَّة فاختلط اهلها بالطليان اختلاطًا بقيت اثارهُ فيهم وهم او معظمهم يتكلمون النمسويَّة والايطاليَّة معًا الى هذا اليوم . وانسلخت عن امارة البندقيَّة سنة ١٣٨٢ فضمَّت الى سلطنة النمسا وجعلها الامبراطور كارل السادس فرضة حرة حتى أُعفيت من الرسوم ثم أَصلحت فيها الامبراطورة ماريا تريزا شيئًا كثيرًا كان من ورائهِ ان التجارة ما بين الشرق والغرب تحوَّلت من مدينة البندقيَّة اليها والمدينتان متقابلتان في بحر الادرياتيك كما تعلم وهي الآن مقر تجارة النمسا البحريَّة مع الشرق وفيها مركز شركة لويد للسفن البخاريَّة اشهر الشركات المعروفة هنا واكثرها اتقانًا. وفي تريسته وضواحيها من السكان نحو ١٦٠ الفًا اكثرهم من الطليان ومنهم السدس مجر وخليط من الاقوام السلافيَّة ونحو ٥٠٠٠ من الجنس الالماني والوف من اجناس شتى اوروبيَّة فهي من اكثر المدن اشكالاً في اختلاف الجنس بين سكانها. ولا يقل عدد السفن التي تدخلها في السنة عن ١٤٠٠٠ منها ٥٠٠ باخرة معدل محمولها مليونا طونلاته وربع وصادراتها تبلغ في القيمة نحو ٢٤٠ مليون فرنك والواردات حوالي ٣٠٠ مليون ففي ميناها حركة كبرى بسبب هذه التجارة الواسعة وقد أُنفق على تحسين المينا نحو ثلثين مليون فرنك فجعلوا فيها الارصفة الفسيحة تستقرُّ البواخر والسفن الى جوانبها واشهرها رصيف (سان كارلو) يمتدُّ في البحر مسافة ٣٥٠ مترًا والناس يقصدونهُ بعد العصر من كل يوم لمشاهدة تلك الحركة التجاريَّة والتفرج على اشكال السفن الذاهبة والآيبة وهو من مناظر تريسته التي تستحق الذكر

وفي هذا البلد ساحة مشهورة تعرف باسم الميدان الكبير في وسطها بركة من الماء فيها تمثال نبتون اله البحر والامبراطور كارل السادس الذي مرَّ ذكرهُ وعمد

ذات شعب تنار بالكهربائية ومن حولها الخانات المتقنة والقهاوي البديعة يجتمع فيها
في كل مساء خلق كثير يدور بعضهم في جوانبها ويجلس البعض الآخر في هاتيك
الخانات والانغام المطربة تعزف من وسط الميدان فيسمعها الناس في كل الجوانب .
والى جانب هذه الساحة الرحيبة بناء المجلس البلدي والبورصة وشركة البواخر
ومخازن جميلة وحانات كثيرة اشهرها قهوة المرايا . ويمكن الوصول منها الى شارع
الكورسو وهو كثير المخازن تباع فيها نفائس الاشياء الى جانبيهِ وفي آخرهِ الحديقة
العمومية تصدح فيها الموسيقى الاميريَّة كل مساء وفيها من انواع الزهر والشجر
ومجاري الماء البهية ما يشرح الصدور حتى اذا استمرَّ السائر من تلك الحديقة شرقاً
وصل جهةً في اقصى المدينة تعرف باسم بوسكوتو ومعناهُ الغابة وهي عبارة عن
حراج فيها كثير من شجر الصنوبر يتخللهُ مطاعم منظمة وحانات متقنة وفيها تسمع
الانغام الشجيَّة ايضاً فتزيد ذلك المنتزه المشهور بهجةً وقيمةً لاسيما وانهُ يتصل بجبل
اسمهُ كاشاتوره ملئت جوانبهُ بشجر الصنوبر العطري وغيرهِ فكنا ونحن نرتقي قمتهُ
في طرق كثيرة التعرج نستنشق النسيم العليل يخالطهُ عطر الشجر المذكور حتى اذا
بلغنا القمة رأينا من دوننا القرى والعمائر والمزارع من كل جانب ولمجموعها بهاءٌ يقرُّ
الخواطر ويسرُّ النواظر

والى الجهة الجنوبية من الميدان الكبير الذي ذكرناهُ منتزه القديس اندراوس
في اقصى المدينة يمكن الوصول اليهِ من الساحة الكبرى التي ذكرناها في الترامواي
طولهُ نحو ثلاثة اميال والى يمينهِ البحر من اولهِ الى آخرهِ وفي طرفهِ الشمالي اكام
كسيت بالشجر والزهر على اختلاف الانواع ولها طرق جميلة رُصّعت ارضها
بالحصى او فرِشت بالرمل وهي منتزه العائلات ترى فيها الاولاد والبنات افواجاً
يسرحون في تلك الجوانب الرحيبة وليس هناك من المساكن غير منازل قليلة لبعض

اهل اليسار . وعلى مقربةٍ منها معمل السفن النمسوية دخلناهُ ووجدنا فيهِ اشكال العمل والترميم والصنع والتركيب ثم عدنا الى المدينة عن طريق ساحة جوزيه وفيها تمثال الامبراطور مكسيمليان ثم ساحة القديس جيوفاني وفيها كثير من الابنية الفخيمة

ومن اشهر ما يذكر عن تريسته قصر عظيم يقصدهُ كل مقيم في المدينة او نازلٍ بها اريد بهِ قصر ميرامار بناهُ الارشيدوك مكسيمليان اخو امبراطور النمسا الحالي وانفق مالاً طائلاً على زخرفهِ واعدادهِ حتى اذا تمَّ لهُ ذلك انتخب امبراطوراً لبلاد المكسيك في اميركا فسار اليها وحكمها زماناً ولكن قسماً من اهلها ثار على حكومتهِ والَّف حكومة جمهورية انتصر زعيمها جوارز على الامبراطور مكسيمليان هذا واسرهُ وامر باعدامهِ في سنة ١٨٦٧ . وكان مكسيمليان من امراء البحر في بلادهِ والنمسويون يحبونهُ كثيراً فاسفوا شديداً لما اصابهُ وجعلوا قصر ميرامار تذكاراً لهُ يجلون ذكرهُ والقصر باقٍ على مثل ما تركهُ صاحبهُ وفي قاعاتهِ الفخيمة رسوم الرجال والنساء الذين اشتهروا من آل هابسبرج وهم البيت الحاكم في بلاد النمسا وقد بني هذا القصر على مرتفع من الارض ولهُ حديقة غناء ومنظر من كل الوجوه بديع

ويقرب من هذا القصر في ارتفاع مركزهِ كنيسة القديس جوستو قصدتها قبل مبارحة المدينة حتى أُطلَّ منها على كل الانحاء فرأيت تريسته بكل اجزائها وضواحيها . وقد بنيت هذه الكنيسة في القرن الرابع عشر موضع معبد روماني قديم وفيها مدافن بعض المشهورين منهم الاميرتان ادلايد وفيكتوريا عمتا لويس السادس عشر ملك فرانسا الذي حصلت في ايامهِ الثورة الفرنسوية . هذا جلُّ الذي يحسن وصفهُ في مدينة تريسته وهي اول ما يمكن للشرقي ان يراهُ من مدن النمسا فنتقدم منها الى ذكر فينا عاصمة السلطنة النمسوية

ڤينا

برحنا تريسته بعد الاقامة فيها حيناً في سكة الحديد فطفقنا ندخل مواضع مختلفة المناظر بديعة الجمال حتى وصلنا مدينة جراتز قاعدة ولاية استريا من ولايات النمسا ولهذه المدينة شهرة بصنع نوع من البيرا يعرف باسمها وفي الولاية غابات وحراج مشهورة غضيضة الشجر تقطع منها الاخشاب وترسل الى سائر الاقطار . ويخترق جراتز نهر مور وقد بنيت منازلها على ضفتيهِ . وتقدمنا منها بين هاتيك المناظر فرأينا في الطريق حصوناً بناها النمسويون على عهد السلطان سليمان الثاني اتقاء لهجمات جنودهِ كما سيجيء وقد هدم اكثرها الفرنسويون سنة ١٨٠٩ ووراء هذه الحصون جبال ومرتفعات من الارض يسير فيها القطار صُعدًا بسير رويدٍ وقد كان النمسويون اول من مد خطوط الحديد في مثل هذه الجبال سنة ١٨٤٨ فان الطرق هنا متعرجة ملتفة تشبه الكاف العربيَّة في شكلها فضلاً عما فيها من اختراق الجبال والسير تحتها فان في هذا الخط وحدهُ ١٥ نفقاً تحت الارض. وهذه الجبال تعدُّ فرعاً من جبال الالب المشهورة يبلغ ارتفاعها عند سمرين التي وقف القطار بها قليلاً ٢٢٠٠ قدم وكلها ملأى بالمناظر الفخيمة زادها بهاء ورونقاً اكتساؤُها بحلل خضراء من شجر الصنوبر وغيرهِ وقد رُصِّعَت جنباتها بالمنازل المشيدة يقضي فيها كبراء النمسويين اشهر الصيف. ولا حاجة الى القول ان السفر في قطار كهذا يصعد الى قمة جبل شاهق من اغرب الامور واكثرها لذة فانك ساعةً تدخل جوف الارض والجبال من فوقك ثم تخرج فاذا انت في سفح جبل والى جانبك الحقول والجداول والمنازل ثم تصعد اعلى الجبل والقطار مسرع بك فكانما انت محلقٌ في الجوّ تطير ومن دونك الارض بواديها وسهلها وبقية ما فيها وفي ذلك نزهةٌ غريبة

يعرفها الخبيرون. تلك مناظر الارض ما بين تريسته ومدينة ڤينا التي نحن في شأنها والمسافة بينهما ١٦ ساعة في سكة الحديد لا يشعر المسافر بملل في خلالها

واما ڤينا هذه فهي قاعدة سلطنة النمسا والمجر ومن اشهر العواصم الاوروبية في حالها الحاضرة وتاريخها الماضي اسمها القديم ڤندوما وقد ورد ذكرها على عهد يوليوس قيصر القائد الروماني في القرن الاول للميلاد ثم كثر تردد الرومانيين عليها بعد هذا ومات فيها احد قياصرتهم ماركوس اوريليوس سنة ١٨٠ . وظلّت محطاً لرحال الفاتحين من تلك الايام حتى جعلها شارلمان حداً لمملكتهِ في القرن التاسع للميلاد فلما مات أُلحقت بمملكة المانيا وانفصلت عن فرانسا وصار يحكمها دوكات النمسا حتى قامت العائلة المالكة الحاليَّة على مثل ما ترى في الخلاصة التاريخيَّة . وقد توالت النكبات على ڤينا ولكنها لم تؤثر عليها تأثيرًا يذكر فانها حاصرها المجر سنة ١٤٨٥ اربعة اشهر وفتحوها ثم انقذها منهم سنة ١٤٩٠ مكسيمليان الاول من آل هابسبرج وجعلها قاعدة المملكة النمسوية الى اليوم . وحاصرها ملك بوهيميا مرة سنة ١٦١٩ فلم يفدهُ الحصار . وتقدم عليها الاتراك مرتين اولاهما على عهد السلطان سليمان الثاني سنة ١٥٢٩ والثانية على عهد السلطان محمد الثالث سنة ١٥٨٢ وكان قائد جنودهم يومئذٍ الصدر قرا مصطفى باشا المشهور فضيَّق على المدينة تضيقاً شديداً ولولا ورود النجدة اليها من بوهيميا تحت قيادة ملكها سوبيسكي لفتحها . وحاصرها نابوليون بعد ذلك على مثل ما تقدم في الخلاصة التاريخية وكان هذا الحصار الكثير داعياً الى بناء دائرة كبرى من الحصون داخل المدينة أُبدلت الآن بشارع رنغ ستراس ومعناهُ درب الحلقة لاستدارتهِ طولهُ نحو ميلين وعرضهُ ٦٢ مترًا بني على نظامهِ الحالي سنة ١٨٥٨

واني خرجت مع الدليل من فندق متربول الذي اخترت الاقامة فيهِ وبدأت

بشارع رنغ ستراس هذا وهو اعظم شوارع ڤينا وليس في اوروبا كلها شارع واحد بطوله تجتمع فيهِ محاسن البناء وغرائب الصناعة وادلة العزّ والترف متواليةً مترادفةً مثل هذا الشارع العظيم في عاصمة النمسا فان فيهِ غير المخازن الجميلة والفنادق المشيدة والحانات المنظمة بناءَ البورصة والتلغراف والبوليس والمجلس البلدي والمرسح الامبراطوري والمتحفين ومجلس نواب الامة والاوبرا الكبيرة ووزارة الحقانية وقصوراً اخرى تدهش الابصار بمحاسنها في كل جانب منهُ وحديقة ستاد بارك وغير ذلك من بدائع هذا الشارع العظيم . وقد قُسم هذا الشارع اقساماً ثمانية اولها رصيف يمشي عليهِ الناس من بعد الابنية المتقنة ثم طريق للعربات يليهِ طريق للتراموای فطريق للجياد وراكبيها وبعدهُ خط من الشجر الجميل يزدان بهِ وسط الشارع ثم طريق للعربات وطريق للتراموای وطريق للجياد ورصيف المارَّة يعني ان الشجر في وسط الشارع والطرق المختلفة صفان الى جانبيهِ صفًّا من هنا وصفًّا من هنا وفي ذلك نظام يمنع الزحام والاصطدام ومنظر لا تشبع العين منهُ ولو طالت مدة الامعان

وذكرنا ان في هذا الشارع بناءَ البورصة وهو عظيم الاركان شاهق الجدران في داخلهِ قاعات شتى بعضها للجلوس وبعضها للمطالعة وبعضها للاشغال والمداولات والمضاربات والمبايعات وغير هذا مما يدور في جوانب ذلك البناء وفيها من الحركة التجارية والجلبة الناشئة عن كثرة المركبات والمترددين ما يوجب الذهول ويشير الى نشاط اهل المتاجر والمضاربات من المتمدنين

واما مجلس النواب فانهُ قصر نخيم بني من سنة ١٨٧٤ الى ١٨٨٤ طولهُ ١٤٣ متراً ومنظرهُ من الخارج يدل الى الهيئة والوقار يصعد اليهِ على درج عريض من الرخام الابيض يتصل آخرهُ برواق قام على عمد من الرخام ايضاً لهُ شكل الهياكل

اليونانية ومن ورائهِ رواق آخر طويل قائم على ٢٤ عموداً من الرخام الاحمر مذهبة تيجانها وفي الجدران والسقف رسوم تشير الى حوادث فينا والنمسا التاريخية والناس يجتمعون في هذا الرواق البهي ريثما تفتح ابواب القاعة الكبرى التي يجتمع فيها النواب للنظر في سياسة المملكة والجدال في ما يلزم لها من النظامات والقوانين وفي تلك القاعة مقاعد امام كلٍّ منها منضدة صغيرة للنائب الذي يقعد اليها ومنصة للرئيس وكتابهِ ومواضع مرتفعة في جوانب القاعة خصَّ بعضها باعضاء العائلة المالكة والسفراء والبعض خصَّ بالمتفرجين والزائرين وبعض منها لأصحاب الصحف وجماعة الاخبار وغير هذا مما تراهُ في اكثر المجالس النيابية. وقد اشتهر نواب النمسا الحاليون بكثرة الاحزاب والانقسام وما يحدث في وسط هذا المجلس الفخيم من الفتن والشحناء بينهم. وفي هذا البناء ايضاً قاعة لمجلس الشيوخ مثل قاعة النواب في نظامها وغرف كثيرة للمداولات وللوزراء وللجنات التي يأمر المجلس بعقدها ومطعم فاخر مستعد في الليل والنهار لتقديم ما يطلبهُ الاعضاء الذين يكثر جلوسهم ٢٤ ساعة متوالية في جلسة واحدة اذا طال الجدال واحتدَّ الاعضاء بسبب امرٍ تختلف الاحزاب عليهِ

وسراي الحقانيَّة بنيت من ١٨٧٥ الى ١٨٨١ في وسطها تمثال القسطاس والعدالة وفيها غرف لمحكمة الاستئناف العليا وادارة النيابة العموميَّة وهي من الابنية التي تستحق الاعتبار. وعلى مقربة منها المجلس البلدي وهو قصر طويل عريض كمل بناؤُهُ سنة ١٨٨٣ بعد عمل ١١ عاماً وانفق عليهِ فوق ثلثين مليون فرنك وهو من اجمل المجالس البلديَّة في اوروبا واعظمها تولم فيهِ الولائم الكبرى وتعقد الاحتفالات العظيمة في قاعات فسيحة بديعة يُصعد اليها على درج من الرخام لهُ عمد من المرمر المذهب ولا يقل طول قاعة الولائم عن ١٥٠ متراً ينيرها ثلثة آلاف انبوبة

للنور لم أرَ لها نظيرًا في قصر الامبراطور ولا في غيرهِ ويقام فيها كل عام مرقص يشترك فيهِ اهل الترف والنعمة ومن امامها شرفة تطلُّ على الشارع الكبير الذي نحن في شأنهِ . واما القاعة التي يجتمع فيها اعضاء المجلس البلدي فعظيمة فسيحة تشبه قاعة النواب التي ذكرناها في الوضع والنظام وفي سقفها ثريًّا من الانوار قيل ان ثمنها ١٦٠ الف فرنك وعلى جدرانها صور الرؤساء السابقين لهذا المجلس والمتوفين وفي الدور الاسفل من هذا البناء الفخيم تحف ثمينة ونفائس تعدُّ من اثمن ما في مدينة فينا من ذلك مكتبة عظيمة فيها من نوادر الكتب ما يفخر بهِ اهل هذه المدينة وقد جمعت بنوع اخص ما فيهِ تاريخ فينا القديم والحديث . ومن ذلك ايضًا اثار وتحف كثيرة وصور تاريخيَّة تمثل الحوادث المشهورة من مثل هجوم الاتراك سنة ١٥٢٩ وهم بهيئاتهم القديمة وملابسهم المعروفة واستيلاء بونابارت على فينا سنة ١٨٠٥ و ١٨٠٩ . وهنالك ايضًا ادوات شتى كانوا يستعملونها للتعذيب في ما مرَّ من الزمان وهي باقية تدل على قسوة الايام الماضية وحرية هذه الايام ورايات واسلحة قديمة غنمها النمسويون في حروبهم الكثيرة وغير هذا مما لا يمكن الاسهاب في شرحهِ

واما التياترو الامبراطوري المشهور فهو مثل اكثر ما في هذا الشارع من الآثار العظيمة جديد البناء قام مكان مرسح قديم احترق برمتهِ ومات فيهِ ٢٠٠٠ نفس وهو اكبر حريق في المراسح العموميَّة حدث في الايام الاخيرة وقد انفقوا على هذا المرسح الجديد وزخرفهِ وفرشهِ مالاً طائلاً ولا حاجة الى القول ان فيهِ من السقوف المزخرفة والعمد المذهبة والجدران الملونة والفسحات المنظمة والذرى الفسيحة ما يستوقف الانظار وفيهِ نصب لمشاهير المؤلفين من اصحاب الروايات مثل شاكسبير ومولير وشلر وغيرهم. وتضم قاعتهُ الكبرى اكثر من ثلاثة آلاف نفس ولعلَّ اشهر ما في هذه المدينة واكثرهُ نفعًا للزائرين المتحفين العظمين وهما

قصران بديعان بني احدهما تجاه الآخر وبينهما حديقة صغيرة بهيَّة وامامهما الشارع الكبير الذي ذكرناهُ فكانما هما توأمان بنيا من سنة ١٨٧٤ الى ١٨٨٩ وجعلا متشابهين في الوضع والشكل فان طول كلٍّ منهما ١٧٥ مترًا وعرضهُ ٧٧ ولهما اروقة قامت على عمد ضخمة بديعة الصنع وفي تلك الحديقة الصغرى ما بين القصرين نصب للامبراطورة ماريا تريزا ملكة النمسا والمجر وهي من اشهر ملوك هذه البلاد من آل هابسبرج وقد اقام هذا النصب الامبراطور الحالي في سنة ١٨٨٨ على قاعدة من الرخام ارتفاعها ٤٣ قدماً وفوقها تمثال الامبراطورة وعلوهُ ١٩ قدماً وهو يمثّلها في السنة الخامسة والثلثين من عمرها باسطة ذراعها اليمنى وفي يسارها صولجان الملك والقانون الذي سنهُ كارل السادس سنة ١٧٧٢ بحصر الملك في البكر مثل قانون اكثر الممالك . والى جانب ماريا تريزا تماثيل المشاهير في الحرب والسياسة والعلم وهم لا يقلون عن عشرين عداً

وفي المتحف الاول من هذين القصرين آثار تاريخيَّة وتحف صناعيَّة ورسوم ونقوش شتى لا يحصى عديدها حتى ان فهرست هذه الاشياء ملأَت ثلاثة مجلدات كبيرة فيها ٣٠٠٠٠ نمرة ولكل قطعة في المعرض او جملة قطع نمرة معلومة في هذه المجلدات فاذا شاء المرء ان يطّلع على ما في هذا المعرض العظيم كلهِ لزم لهُ ايام واسابيع لان تاريخ الامم وبنوع اخص الامم الخاضعة لسلطنة النمسا الحالية جمع في تلك الآثار والنفائس . وقد قسم المتحف اقساماً كثيرة تسهيلاً للناس على روٴية ما فيهِ منها قاعات جُمعت فيها اثار الفينيقيين الاول ومعبوداتهم والى جنبها اروقة وقاعات ملأُوها بآثار نينوى واشور وتلك الاصنام صُنعت على شكل الحيوان ولها اجنحة الطير وراس البشر كان الاشوريون يعدونها رمز القوة العقلية والبدنية ويضعونها في اكثر منازلهم والاماكن العمومية . ثم قاعة اليونان وفيها من

رسومهم المتقنة واثارهم ونقودهم ما نقتصر على الاشارة اليهِ . ومن ورائها قاعات التاريخ الروماني وفيها صور قياصرة روميه وتماثيلهم وشيءٌ كثير عن القيصر ماركوس اوريليوس الذي مات في ڤينا . وهنالك ايضاً قسم خاص بالتاريخ المصري فيهِ اجسام محنطة وتمثال رعمسيس الثاني واوزيرس المعبود القديم وغير هذا مما يعرفهُ الذين رأوا بعض ما في متحف مصر ولكن في ذلك المتحف تمثالاً لابي الهول المصري باربعة رؤوس وهو بلا نظير في المتحف المصري

ويلي ذلك قسم السلاح في هذا المعرض وهو قسم كبير عظيم الاهمية جمعت فيهِ اسلحة البشر من اول عهدهم بالقتال اكثر ما فيهِ اسلحة النمسا وملابس قياصرتها وقوادها وقد زاد رونق هذا القسم بما فيهِ من اسلحة الجركس والارنؤوط المحلاة بالذهب والفضة و بعضها مرصعة بالحجارة الكريمة واشهرها ملابس اسكندر بك وهو امير الباني نشأ في القرن الخامس عشر وأُخذ اسيرًا على عهد السلطان مراد الثاني فربي على الدين الاسلامي في سراي السلطان حتى اذا كبر صار من قواد الجيش العثماني ثم تآمر مع بعض الرجال واستعان بقوتهِ على ارجاع ملك اجدادهِ فتمَّ لهُ ذلك ولم يمكن للسلطان ان يستردَّ البانيا منهُ مدة حياتهِ ومات سنة ١٤٦٧ . ومن هذا القبيل سيف من الذهب للامبراطور كارل الخامس وعصا المُلك للامبراطور فردينند الثاني وغير هذا كثير كان ملوك النمسا وامراؤُها يهدونهُ للمتحف او يتركونهُ ارثًا لهُ حتى اجتمع فيهِ كل هذه النفائس

وصعدنا بعد رؤْية هذا كلهِ الدور الاعلى من المتحف على سلم كلهُ من الرخام الابيض فوصلنا قاعات فسيحة بهيَّة جُمعت فيها الرسوم المتقنة من صنع اشهر الرسامين وهي تزيد عن الف صورة في عددها و بعضها كبير يملأُ الجدار كلهُ وقد قسمت هذه الصور الكثيرة حسب انواعها فترى في كل قسم منها الصور الفرنسيَّة

او الهولاندية او الايطالية او النمسوية وغير هذا واما مواضيع هذه الصور فيعسر على الكاتب عدها لانها مختلفة كثيرة الاشكال ولكن منها قسماً كبيراً يمثل حوادث التوراة والانجيل وبعضها ثمين كثير الاتقان من صنع رفائيل المشهور وسواهُ لا تقل قيمة الصورة الواحدة منهُ عن عشرة آلاف جنيه . وبعض هذه الصور خيالات واوهام يختلقها المصوّرون لتمثيل هيئة الحب او العفة او البسالة او السعادة او غير هذا مما لا يحتاج المتفرج الى شرح معهُ لان الرسم ناطق بالمعنى المراد ولهذا النوع قيمة عند العارفين فان اشهر الصور الحديثة ما كان من هذا القبيل. وبعضها يدلُّ الى مناظر طبيعية زائدة الجمال كأَن تكون مناظر السحاب والشمس من وراء الغيوم او مناظر الجبال والبحيرات والاودية واكثر ما يرى هنالك رسوم ضفاف الابحر والبحيرات التي تسحر الناظرين بجمالها ويتمنى الرائي لو يمكن لهُ ان يعيش في بقعة من الارض جميلة مثل البقعة التي تشير اليها تلك الصورة . وبعض الرسوم تاريخية رأَيت منها رسم واقعة بحرية كان امير البحر النمسوي تجتوف يحارب فيها الطليان على مقربة من جزيرة ليسا سنة ١٨٦٦ وفاز على اعدائهِ وبعض المعارك التي جرت بين الفرنجة والسلطان صلاح الدين ورسوم كثيرة لرودولف هابسبرج مؤَسس العائلة الحاكمة في النمسا الى الآن وماريا تريزا التي اشرنا اليها كثيراً واشهرها رسم هذه الملكة حين قامت عليها فرانسا وبروسيا تريدان محاربتها بعد موت زوجها وفرَّت بابنها الطفل الى بلاد المجر فاستعانت برعاياها المجريين على ارجاع المُلْك الى ابنها وعقد القوم مجلساً حافلاً للنظر في امرها فلما انتظم المجلس جاءَت هي وعلى ذراعها الطفل الصغير وخطبت في اعيان المجر خطاباً اثار حميتهم وحرَّك همتهم الى نصرتها ثم ختمت خطابها بالقول ان هذا ابن مليككم يا ابطالي نخذوهُ وافعلوا ما تريدون حتى اذا انتهت من الكلام صاح الجمع قائلين " لنمت جميعنا من اجل ملكتنا

ماريا تريزا" ونصروها واعادوا الملك اليها والى ابنها وكانت ماريا تريزا من اعظم ملوك النمسا والمجر

هذا مجمل ما في المتحف الاول. واما الثاني تجاههُ فانهُ خصَّ بالتاريخ الطبيعي اي بالقديم والغريب من اشكال النبات والحيوان والجماد ولهذا القسم بهاء القسم الاول ونخامتهُ من حيث البناء وهو ثلثة اقسام اولها لمملكة الجماد وثانيها للنبات وثالثها للحيوان وفي كل قسم اجزاء لما ظهر من هذه الموجودات في كل دور من ادوار الارض الجيولوجيَّة فترى في قسم الجماد احافير ومتحجرات شتى جاؤُوا بها من اقاصي الشرق والغرب بعضها لا قيمة لهُ الاَّ من حيث العلم بتاريخهِ القديم والبعض كثير الجمال غالي القيمة. وقد جعلوا الدور الاول من البناء لقسم الحيوان واكثر ما ترى هنا وحوش مصبَّرة وزحافات هائلة مثل الحيَّات الاميركية والهنديَّة على انواعها وبقية الانواع الغريبة. والثاني للنبات وفيهِ غرائب يعسر وصفها اكثرها مصبَّر ايضاً والثالث للمتحجرات وبعضها جميل الشكل غريب النوع والذين ينتابون هذا المعرض ويتعلمون مبادئ العلوم الطبيعية فيهِ ليسوا بالعدد القليل

وذكرنا الاوبرا الكبرى وهي من احسن ما بني من نوعها تضم خمسة آلاف نفس وفي سقوفها وجدرانها ما لا يحصى من الزخارف ورسوم رجال الموسيقى وقد بُنيت ما بين عامي ١٨٦١و١٨٦٩ وكانت يوم وجودي مقفلة في الصيف كالعادة ولكنني دخلتها بطريقة خاصة من باب صغير ورأيت جوانبها الفخيمة وقاعتها الكبرى حيث يجتمع الناس لسماع التمثيل والانغام وفي اعلاها ثريا هائلة المقدار لا يقل فيها عدد الانابيب التي يخرج منها النور عن اربعة آلاف

ويزيد هذا الشارع رونقاً وبهاء ان فيهِ حديقتين احداهما حديقة فولكس احاطوها بسور من الحجر والحديد وفيها المطاعم والحانات والموسيقى فهي يؤُمها اهل

ڤينا مئاتهم والوفهم عصارى كل نهار لانها في اوسط المدينة واشهر منها حديقة ستاد بارك هي من اعظم حدائق ڤينا واجملها تشرف على شارع الحلقة و ينتابها اهل الطبقة العالية من سكان ڤينا فهي ذات دروب نظيفة وجوانب بهية ومزروعات كثيرة الجمال ومناظر بالغة حد الانقان والفخامة وتمرّ في جوانبها قناة من الماء نصب في بحيرة صغيرة جمعوا اليها اكثر اشكال الطيور المائية وغرسوا الى جوانبها الازهار من كل نوع وكل لون على شكل بديع النظام حتى انهم كتبوا بالزهر المختلف الالوان على ارضها اسم الحديقة وكلمات اخرى فكانما انت هنالك على بساطٍ من العشب وفي البساط صناعة و كتابة واتقان عجيب

هذا اشهر ما يذكر في شارع الحلقة العظيم وهو اجمل شوارع اوروبا واحدثها نشأةً واكثرها مشاهد يتفرع منهُ دروب توصل الى غيرهِ من الشوارع الكبرى وما فيها من المشاهد المعروفة مثل الشارع الموصل الى كنيسة القديس اسطفانوس وهي اشهر كنائس النمسا واعظمها بدئ في بنائها سنة ١٣٠٠ وما زال الملوك ورجال الدين يزيدون في محاسنها الى الآن طولها ٣٥٥ متراً والعرض ٨٩ رسم شكلها مهندس اسمهُ جورك حُكم عليهِ بالجنون لفرط ذكائهِ ورسمهُ قائم في دار الكنيسة وهو في حالة السجن وبيدهِ الآلات الهندسيةَّ. والكنيسة نخيمة المنظر من خارجها بنيت على عمدٍ من الرخام وفي داخلها ما لا يمكن عدهُ من آيات الاتقان منها الهياكل الكثيرة بعضها قديم العهد وفي جملتها هيكل بني سنة ١٨٥٢ تذكاراً لنجاة الامبراطور الحالي من القتل. وفي ساحة الكنيسة مدفن لبعض القياصرة والكبراء ولكن العائلة الحاليةَّ جعلت مدفن افرادها في كنيسة الكبوشيين في ڤينا وهنالك دفن رودولف ابن الامبراطور واليصابات زوجتهُ وقد ذكرناهما في غير هذا الموضع والى جانب الكنيسة الكبرى التي نحن في صددها برج عظيم ترى منهُ معظم ڤينا وضواحيها

وليس يبعد عن كنيسة اسطفانوس شارع جرابن ولهُ شهرة ذائعة لانهُ ثاني الطرق الكبرى في هذه العاصمة وهو يحفُّ الشجر بجانبيهِ وفيهِ المخازن الملأَى بنفائس الحاجات فترى جماعات الناس تقصدهُ من كل جانب لمشترى بعض مافيهِ وهنالك نصب للثالوث الاقدس أُقيم في وسط الشارع على عهد الامبراطور ليوبولد الاول سنة ١٦٩٤ شكراً لله على زوال الطاعون من المدينة . ومن هذا الشارع يمكن لك الوصول الى قصر الامبراطور الذي يقيم فيهِ مدة الشتاء دخلناهُ وراءَ القيم عليهِ ورأَينا من غرائبهِ المشهورة قاعة عظيمة للاستقبال فيها ٢٤ عموداً من الرخام وقاعة الرقاد وفيها سرير كانت تنام عليهِ ماريا تريزا وقاعة المرائي دعيت كذلك لكثرة مرائيها وفيها ساعة لا يلزم لها تدوير غير مرة في كل ثلثة اعوام .

وكان الناس ساعة خروجنا من هذا القصر متألبين عند مدخلهِ يريدون التفرج على الكردينال وهو يومئذٍ قادم لامرٍ يقضيهِ في قصر الامبراطور فانتظرنا قدومهُ معهم ورأَيناهُ بملابسهِ الارجوانيةً وقبعتهِ المثلثة الجوانب ومن ورائهِ حشم ورجال الدين في عربات اخرى حتى اذا توارى عن العيان سرنا من القصر الى المكتبة الامبراطورية وهي من اكبر المكاتب العامة في الارض فيها نحو اربعماية الف مجلد نصفها كتب خطية وكثير منها عربي مطبوع او غير مطبوع ومجلدات من اول عهد الطباعة اكثرها دينيةٌ من اثمنها انجيل كُتب على جلد احمر بالحروف الذهبيةً والفضيةً في القرن السادس وكتب أُخرى خطَّت على ورق مصنوع من شجر التوت وشجر النخل وغير هذا كثير . والناس من طلبة العلم وسواهم يقصدون هذه المكتبة ويدخلون قاعة المطالعة فيها باذن خاص فيبحثون عن دقيق المسائل في كتبها القديمة واذا دخلت تلك القاعة اعجبت بما ترى من ادلة الاجتهاد وسيماءِ الوقار بين اولئك المطالعين

ويذكر بين مشاهد ڤينا قصر الخزائن وهو مستودع للتحف الامبراطورية القديمة والحديثة لاكثرها شأن في التاريخ عظيم من اهم ما يذكر بينها خوذة عسكرية من الفضة قدمها الشعب المجري للامبراطور الحالي عند تتويجهِ ملكاً للمجر سنة ١٨٦٧ وفي داخلها اوراق مالية بنحو ٧٥٠ الف فرنك اوقفها الامبراطور لاعانة اهل الحاجة من المجر . ومن ذلك التاج الامبراطوري والصولجان وبقية الحلي التابعة للبيت المالك منها الماسة وزنها ١٣٣ قيراطاً تقدر قيمتها بستين الف جنيه كانت من جواهر شارل الجسور اول ملوك فرانسا وراحت منهُ ثم قيل ان فلاحاً وجدها وباعها بفرنكين لامير توسكانا وانتقلت منهُ الى ملوك ڤينا . ومن ذلك ايضاً الوسامات المشهورة منها وسام فيليس فيهِ ١٥٠ حجراً كريماً في وسطها حجر وزنهُ ٤٢ قيراطاً . وتاج الامبراطورة ماريا تريزا وفيهِ ٥٤٨ حجراً ثميناً وحلي وجواهر اخرى غالية القيمة اودعتها العائلة المالكة وسواها هذا المتحف بعضها على سبيل الامانة وبعضها هدية للمملكة مثل ملابس شارلمان وتاجهِ وصولجانهِ وغير هذا مما لا يعدو لا يحصى

وقد علمت ان ڤينا يدخلها فرع من نهر الدانوب الشهير فلهذا كانت محاسنها متفرقة ما بين قسميها الشرقي والغربي وقد ذكرنا معظم ما يهم ذكرهُ في القسم الغربي واما القسم الشرقي فاهم ما فيهِ ليوبولد ستاد وهو حيٌّ كبير من احياء ڤينا كلهُ منازل فخيمة وطرق فسيحة ومخازن كبيرة ومن اشهر مشاهدهِ تمثال امير البحر تجتوف الذي ذكرناهُ والقوم يعتبرونهُ من اكبر رجالهم لانهُ احيى الامة النمسوية بانتصارهِ على الطليان مع تكاثر عديدهم فهم اعتنوا بتمثالهِ وجعلوهُ على مدخل حديقة براتر المشهورة وجعلوا ارتفاعهُ ٣٦ قدماً وهو على قاعدة تشبه مقدم السفينة صُنعت من النحاس والبرونز ومن تحتها رسوم خيل البحر تجرها وتذكّر الناس بالنصر في تلك المعركة البحرية

ولقد ذكرنا ان هذا التمثال في اول حديقة براتر والحق يقال ان في ڤينا حدائق كثيرة والناس يهتمون لحدائقهم ويجعلون لها شأناً خلافاً لما تعودناهُ من اهمال الناس شأن الازبكيَّة في مصر مع انها من اجمل الحدائق العموميَّة وقد تضاهي الحدائق المشهورة في اوروبا ولكنها لولا الموسيقى الانكليزيَّة تصدح مدة وجيزة في بعض ليالي الصيف لما رأيت فيها شيئاً من مظاهر الهيئة الاجتماعيَّة . وحدائق براتر هذه مجموع حراج غضيضة غُرِست في ارض اريضة وغابات بهيَّة تتخللها مروج من العشب شهية فلا تقل مساحة الكل عن اربعة آلاف فدان تقسم اقساماً ثلثة اولها منتزه هوبت وهو شارع عريض جميل تمرُّ بهِ العربات عشرات ومئات ويمرُّ الناس مشاة او على ظهور الجياد ويحف بهذا الشارع غابات من شجر الكستنا تشرح بمنظرها الصدور وفي وسطها مطاعم يلذ للآكل فيها الطعام وحانات للبيرا وسواها يقعد الواحد فيها فيسمع شجيَّ الانغام واكثر ما يكون اجتماع الخلق هنا في ايام الاحد او يوم عيد الامبراطور او اليوم التالي لعيد الفصح وهو هنالك بمثابة شم النسيم في القطر المصري . والقسم الثاني في هذه الحديقة يعرف باسم (فورويك) وفيهِ العاب كثيرة من خيل خشبية تسير بالبخار واراجيح ومشاهد شتى يجتمع اهل الطبقة الوسطى لمشاهدتها في كل حين ويقصدها اصحاب العائلات فيركبون اولادهم تلك الخيول الصناعيَّة ويجارونهم على اللعب والضحك . وهنالك بحيرة صغيرة تجري عليها زوارق صغيرة للاولاد ايضاً ويسيرها البخار والعاب اخرى يلذ التفرج عليها واولئك الصغار بملابسهم النظيفة يضحكون ويطربون

وما زلنا نسرّح الطرف بتلك المناظر حتى وصلنا الى بناء المعرض الذي انشئَ سنة ١٨٧٢ وهو عظيم الارتفاع يشرف على تلك الغياض والحراج والمنازل الى مسافة بعيدة بني من الخشب والحديد ومن ورائهِ سلم من حديد ارتقينا ذراهُ حتى

اذا وصلنا القمة رأينا ڤينا وضواحيها من دوننا والنهر ينساب انسياب الافعى بين منازل مشيدة وغابات غضة نضرة واودية بهية وهضاب منضدة بالزهر والبنيان الفخيم . ولا بد لكل سائح يريد ان ترسخ في ذهنهِ صورة المدن التي يزورها ان يطلَّ عليها من موضع مثل هذا مرتفع وقد كان هذا شأني في اكثر الاماكن فاني جعلت هذه النظرة الاجماليَّة خاتمة ما اردت روٴيتهُ في فينا وقصدت من بعدها الضواحي التي يجيء ذكرها في الفصل التالي

ضواحي ڤينا

لضواحي ڤينا شهرة تحكي شهرة الضواحي التابعة لاكثر العواصم المشهورة ولا تزيد عنها في الاهمية غير ضواحي باريز البهية . من ذلك جبل كاهلبرج قصدناهُ صباح يوم في باخرة تقوم من ترعة الدانوب وكان الناس يومئذٍ جماهير تتسابق الى ذلك الموضع فسرنا في الباخرة هذه حتى بلغنا قرية نسدورف وكان قطار سكة الحديد ينتظر القادمين اليها لينقلهم الى اعلى الجبل في سكة كانت تختلف ما بين صعود ونزول وانحناء يمنة او يسرة ودخول وخروج ما بين غياض الشجر الفخيم ومروج العشب النضر واغرب من هذا صعود القطار في اكواعٍ ملتفة الى قمة ذلك الجبل والمناظر تتبدل من حين الى حين فتتبدَّى الطبيعة بكل جمالها الساحر للقاعد في الرتل وهو يتقدم صعدًا الى تلك القنة ومن دونهِ الحراج والبقاع والاودية فيحدث جمال ذلك المنظر فتنةً في القلوب ويحيي في النفوس بهجة لا يوصف لها مقدار . وعلى مثل هذا بلغنا غاية المتفرجين ودرنا بين الطرق المفروشة بالرمل نرى هنا مزارع بهية وهنا منازل مشيدة مطلية وهنا حانات تجتمع الناس فيها والنفوس

منهم رضية وهنا مطاعم يتناولون فيها الالوان الفاخرة على نغم الالحان الشجية والكل ناظرون الى عاصمة النمسا وما يليها معجبون بما اوجدهُ التحسين الصناعي فوق تلك البدائع الطبيعية

ومن هذا القبيل قصر شونبرن وهو مصيف الامبراطور بنتهُ الملكة ماريا تريزا واقام فيهِ نابوليون مدة وجودهِ في هذه العاصمة. ومن مؤلمات الاحكام التي لا ترد ان ابن هذا الفاتح العظيم من امرأتهِ الثانية وهي ابنة امبراطور النمسا مات في الغرفة التي كان والدهُ ينام فيها وهي من غرف هذا القصر الفخيم. واني قصدت هذا القصر مع جماعة كثيرة من السائحين فاتانا خادمهُ وادخلنا بعض جوانبهِ ولا حاجة الى القول انهُ آية في الحسن والزخارف وان رياشهُ وبناءَهُ وبقية ما فيهِ يليق بقيصر عظيم وملك بلادٍ كبرى وفي جملة قاعاتهِ واحدة تعرف باسم القاعة الصينية كل رياشها حرير اسود مزركش بالقصب وخشبها من اللك الاسود المصقول . وقاعة واسعة الجوانب للاستقبال والولائم الكبرى تضم فوق ١٥٠٠ نفس . وفي القصر مكتبة خاصة بالامبراطور و كنيسة صغيرة لهُ ولاعضاء عائلتهِ وملهىً صغير لمن ذكرنا ايضاً ومواضيع اخرى فائقة الاتقان كثيرة الجمال . ويلحق بهذا القصر حديقة او هي مجموع غابات وحدائق كانت في ما مرَّ من الايام حراجاً يصطاد الامراءُ فيها الايل والارانب فمشيت في طريق بهذه الحديقة يحفُّ بهِ جداران او هما بالحقيقة صفان من الشجر تعرَّشت اغصانهُ والتفت عروقهُ وعولجت بالمقراض حتى صارت مثل السور الاخضر طوله ٣٢٢ متراً في آخرهِ بركة من الماء بديعة ووراؤها اكمة تغشاها الاعشاب السندسية وفي اعلاهُ كشك بديع الصنع من الرخام النقي . وما زلت اسرح في هاتيك الطرقات البهية حتى بلغت معرض الزهر والحيوانات فاما الزهر فانهُ جمع من اطراف الارض وغُرِس هنا في حقول بديعة

الترتيب وبعضهُ لاينمو الاَّ في الاماكن الحارة فهم غرسوهُ داخل بيوت من الزجاج والنار توقد من تحت ارضهِ حتى يظلَّ على النماء فترى من اشكال النبات في تلك الحديقة ما يعجز عن وصفهِ قلم المتغزل بمحاسن الطبيعة . واما الحيوانات فبينها في هذا الموضع كثير من كل غريب الطبع والشكل جاؤُا بهِ من اقصى الاقطار ولكن معارض باريز ولندن للحيوانات اشهر من هذا المعرض واكبر . وجملة القول ان هذه الحديقة من اعظم منتزهات ڤينا يقصدها الناس لفخامة منظرها وحسن هوائها واما الذين يريدون اللهو والطرب فعليهم بحديقة براتر التي ذكرناها

ومن هذا القبيل ڤيسلاو وهي مجموع عمائر لاهل الترف والاكابر واقعة على جبل ارتفاعهُ ٨٠٠ قدم ولها شهرة بالخمرة اللذيذة سرنا اليها بالقطار انتهى بنا الى سفح الجبل ومنهُ قمنا في عربة سارت صعدًا الى راس الموضع . وفي تلك الجهات حمامات معدنية تفيد في تقوية الاعصاب والماء فيها بارد جدًا يرشُّ على الجسم من كل الجوانب رشًّا شديدًا يكاد الرجل ان يقع من وقعهِ وقد رأيت هنالك رجلاً رومانيًّا من بخارست قال لي انهُ جاء تلك الحمامات مقعدًا يسير على العكاز فتقوَّت اعصابهُ حتى صار يمشي بدونها . وبعد ان اقمت مدة في ذلك المنتزه البديع عدت الى ڤينا بطريق بادن وهي بلدة مشهورة بحماماتها المعدنيَّة تفيد في الامراض العصبيَّة وتشفي من داء الروماتزم فالناس يأْتونها من كل صوب بعيد للاستحمام في حماماتها الكثيرة واكثرهم يأْتونها عن طريق ڤينا

بلاد المجر

قبل ان نتقدم الى وصف بلاد المجر وعاصمتها بودابست لا بدَّ لنا من ذكر شيءٍ عن السياحة في نهر الدانوب العظيم لشهرة مناظرهِ وجمال غرائبهِ ولذلك قمت في باخرة صغيرة اجتازت الترعة التي تتفرع من الدانوب الى ڤينا فلما انتهت الى النهر الكبير القت رحلها فتركناها ودخلنا باخرة اكبر منها سارت في صباح ذلك اليوم وظلَّت تمخر عباب النهر مدة ثلث عشرة ساعة ومرَّت على تسع عشرة محطة قبل ان بلغت بنا عاصمة المجر. وفي اوائل الطريق قريتا اسبرن وايزلن اللتان جرت فيهما المعارك بين النمسويين وجنود نابوليون الاول وكانت جنود ذلك الفاتح العظيم قد عبر نصفها نهر الدانوب الى الضفة اليسرى من النهر فاضرم النمسويون النار في الجسر الذي يوصل بين الضفتين عند جزيرة لوبو وهجموا على النصف من جنود نابوليون فاضطروهم الى التقهقر وكانوا ١٥٠ الف راجل و٣٠ الف فارس و٧٠٠ مدفع واستحكاماتهم باقية آثارها الى اليوم. على ان بونابارت عاد وعبر النهر من نقطة اخرى واستأنف القتال فبطش بجيش النمسا وفلَّ مواكبهُ وسحق قوتهُ ودخل ڤينا على مثل ما جاءَ في الشذرة التاريخيَّة. وسرنا من ذلك الموضع الى بلدة هنبورج وهي مشهورة بمعمل للدخان انشأَتهُ حكومة النمسا على نفقتها وعمالهُ بنات عددهنَّ الف وخمساية. وتليها برسبورج وهي عاصمة المجر من قدم يبلغ عدد سكانها ٥٠ الفاً وهذه هي المدينة التي جاءَتها ماريا تريزا تستنجد اهلها من ابطال المجر على الاعداء فانجدوها ونصروها على مثل ما تقدم معنا . ومنظر البلاد في هذه الناحية جميل والناس الذين نزلوا في هذه المحطة او صعدوا الباخرة منها كثار لاهمية الموقع فكنا هنا وفي كل نقطة اخرى مدة السياحة في الدانوب نتطلع ابداً الى ما حولنا

من المشاهد ونستعين بالآلة المقربة على ما بعد من الاماكن ولطالما رأينا في الطريق جزراً بهيةً تمر الباخرات الذاهبة من احد جانبيها والغادية من الجانب الآخر وكلها خضرة تنفي عن القلب الحزن وعمائر وضياعاً نظيفة تدل اراضيها على الخصب الوافر واعتناء الناس باستدرار ما فيها من الخير الكثير وهم يسمون هذه الجزر بجزائر الذهب لان ارضها اريضة خصيبة وخيرها كثير متدفق

وبعد هذا مررنا ببلدة استرجوم وهي كانت مقر القديس اسطفانوس اول ملوك المجر في آخر القرن العاشر للميلاد وكان اسطفانوس هذا اول من نشر الدين المسيحي في بلادهِ وما يليها . وعظمت استرجوم من بعدهِ فصارت مقرًّا للمتاجر الواسعة فلما اغار عليها التتر سنة ١٢٤١ امحت آثار عظمتها وتقلص ظل تجارتها وعادت فانتعشت قليلاً في ايام بيلا احد ملوك المجر ثم استولى عليها العثمانيون سنة ١٥٤٣ وهدموا كنائسها فلما انجلوا عن النمسا برحوا هذه المدينة ايضاً فعادت الى التقدم والنماء . وتقدمنا من هنالك الى جزيرة جميلة تعرف باسم مرغريت فما عتمنا ان ابعدنا عنها وتوارت عنا حتى اشرفنا على مدينة بودا على الضفة الشرقيَّة من نهر الدانوب وتجاهها مدينة بست في الضفة الغربيَّة ومن هاتين المدينتين تتكون بودابست عاصمة المجر فرست الباخرة قليلاً في بودا ريثما نزل منها من نزل ثم تحولت الى الضفة الاخرى ونزلنا في مدينة بست في فندق اسمهُ اوتيل هنغاريا (المجر) وهو منزل واسع نخيم فيهِ ثلثمائة غرفة بُني على ضفة الدانوب ومنظر النهر والمدينتين منهُ في الليل من اجمل ما اكتحلت بمرآهُ العين لان الانوار الكثيرة من السفن في الماء ومن المنازل في الجانبين تنعكس على الماء ويضاف الى رونقها خرير الماء والحركة الدائمة في كل جهة فتجعل لهذه المدينة منظراً من اهم المناظر

واما مدينة بودابست هذه فمجموع مدينتين كما علمت يوصل بينهما جسر

عظيم سنذكره وزوارق من كل نوع تروح وتجيء ما بين الضفتين في كل اونة .
وقد أُسّست هذه المدينة على عهد الرومانيين فلما اخلوها سنة ٢٧٥ للميلاد توطنها
قبائل الغوطة ثم جاءَها اقوام الفندال سنة ٣٣٧ ثم وافاها الهون سنة ٤٠٧
وكلهم من اهل اوروبا الاول وتلاهم غيرهم حتى استولى عليها شارلمان في القرن
الثامن وملكها المجر بعد وفاتهِ ثم غزاها التتر على عهد باتوخان حفيد جنكيز خان
المشهور في القرن الثالث عشر . فلما خرجوا منها اصلح بيلا ملك المجر ما تهدَّم من
معالمها وعمل على اعادة عزها المتردم فدعا اليها الناس من كل جانب ورغبهم في
السكن والاقامة فجاؤُها من باڤاريا وايطاليا وجزائر الروم و بولونيا. ومن ذلك الحين
نمت وتقدمت ثم عادت وتأَخرت من بعد هجمات الاتراك وهم فتحوها واعملوا السيف
في اهلها واضرموا النار في جوانبها سنة ١٥٢٦ وسنة ١٥٤١ واقاموا فيها من بعد
هذه السنة ستين عاماً ثم برحوها بعد متاعب كثيرة ولكنهم عادوا اليها سنة ١٦٠٤
فانتقموا من اهلها وظلوا فيها الى سنة ١٦٨٦ فلما خرجوا اهتم ملوكها باعادة رونقها
حتى بلغت شأْوها الحالي وهي الآن ثانية مدائن السلطنة النمسويَّة . وسكان هذه
البلاد ١٥ مليوناً وهم خليط من اجناس كثيرة كالالمان والمجر والسرب والرومان
والسلاڤ والارمن والبلغار وبقايا الاتراك والارنؤُوط والفرنجة ولكن المجر وهم ٦
ملايين عدًّا يسودون سواهم سيادة تامة في هذه البلاد واكثر الاحكام والاعمال
الكبرى في يدهم . وقد تفرد هؤُلاء القوم بحسن الخلق وكرم النفس وسعة العقل
وجمال المنظر ولعلهم كسبوا جمال الوجوه من كثرة الاختلاط فان نساءَهم جمعنَ
المحاسن الشرقيَّة الى الاحاسن الغربيَّة فهنَّ في طبقة ممتازة بين اهل الجمال لا سيما
في العيون النجلاء والوجوه الناصعة البيضاء

واهم ما يذكر عن بودابست شارع اندراسي وهو اعظم شوارعها سمّي باسم

الكونت اندراسي السياسي المجري المشهور الذي تولى الوزارات ورأسها غير مرة وكان من اقران بسمارك ودزرائيلي في السياسة. والشارع طوله ميلان وعرضه ٤٠ مترًا وارضه مرصوصة بالخشب وارصفته واسعة وعلى جانبيهِ اشجار جميلة من ورائها القصور والمنازل والمخازن البهية حيث تباع الابضعة الثمينة . وفي هذا الشارع بناء الاوبرا وهو من الابنية الجميلة تمَّ بناؤهُ سنة ١٨٨٤ ويعمل الآن فيهِ نخبة من ارباب الموسيقى المجريَّة وهي ذات شهرة في اوروبا ذائعة فقلَّ ان يجتمع جوق للغناء ولا يغني أحد الانغام المجريَّة واكثر انغامهم حماسيَّة وهي اقرب الى الشرقيَّة من سواها كما ان المجر اقرب من سواهم في الطباع والعوائد والهيئة والاخلاق الى الشرقيين من بقيَّة الاوروبيين حتى انهم ليعدون امة شرقيَّة في اوروبا ولبعضهم اسماء لا تختلف كثيرًا عن الاسماء العربيَّة والتركيَّة ولهم ملابس قديمة العهد يفخرون بها الى الآن في بعض الاحيان هي شرقيَّة في زيها . وفي هذا الشارع ايضًا بناء عظيم لادارة سكك الحديد المجريَّة والمتحف ومعظم ما فيهِ آثار ملوك المجر وقوادهم واسلحة قديمة ونقود ورايات وملابس وغير هذا مما يؤخذ منهُ تقدُّم هذه الامة من عهدٍ بعيد وينتهي هذا الشارع بحدائق غناء فيها القصور الباذخة ومن هنالك ركبنا الترامواي الكهربائي الى الحديقة العمومية وفيها الحانات والمطاعم والمنتزهات والبحيرات وكل ما راق منظرهُ من الزهر والشجر حتى انهم وجدوا فيها مياهًا كبريتيَّة تفيد في الروماتزم وامثالهِ فبنوا فوقها حمامات يقصدها المستشفون ولها منظر جميل ونظام بديع . واما الترامواي الكهربائي الذي اوصلنا الى هذه الحديقة فيختلف عن الترامواي المعروف في مصر في ان العربات تستمد قوتها من اسلاك تحت الارض متصلة بالخط الحديدي الذي تسير عليهِ العربات فلا حاجة الى مثل ما نرى هنا من العمد والاسلاك الكثيرة فوق رؤُوس المارة. واغلب الشركات

في فرانسا وايطاليا جرت على الطريقة المعروفة في مصر واما في اسبانيا وهولاندا وانكلترا فانهم يضعون البطارية التي تتولد منها الكهربائيَّة الدافعة للعربات في العربة الاولى من القطار . ويقال بوجه الاجمال ان الترامواي الكهربائي لم يشع استعمالهُ في اوروبا الى الآن ولا ريب في ان اقبال الناس في مصر عليهِ كان اكثر من اقبالهم في مدائن اوروبا واكثر ما يكون الترامواي عندهم في الشوارع المتباعدة عن مراكز المدن حيث يقل الزحام واما في الشوارع الكبرى حيث تكثر الحركة فيندر ان تسير قطرات الترامواي عندهم وهذا يخالف الذي نراهُ في مصر من ان خطوط الترامواي مدَّت في شوارع ضيقة تكثر الحركة فيها مثل شارع كلوت بك ومحمد علي والنجالة وقد نشأ عن ذلك صعوبة في مرور الناس والعربات على ما يعلم الجمهور

قلنا ان المجريين اشتهروا بالموسيقى المعروفة عنهم والحق يقال انهم اشتهروا ايضاً بالرسم والنقش والتصوير والشعر فهم اهل ذوق لطيف لانهم اتقنوا الفنون الجميلة ومن اكبر آيات الفخر عندهم ان يشير المرء منهم الى جدٍ لهُ اشتهر بالشعر او بالتصوير وقد قام بينهم مشاهير بهذه الفنون وقواد وساسة كثار حتى انك كيفما سرت في هذه المدينة العظيمة ترى رسم كبير او نصب شهير من رجالهم ولعلَّ بودابست اكثر العواصم الكبرى نُصُباً وتماثيل من هذا النوع . وهم يتفاخرون بجمع الصور والآثار الفنيَّة القديمة فاني عرفت عائلة من عائلات السراة عندهم اسمها استرهازي كان احد افرادها يتردد على مصر كل شتاءٍ وينفق فيها الاموال الطائلة حتى آل بهِ الامر الى الحاجة فباع ما عندهُ من نفيس الرسوم وفاخر الصور بالمزاد العلني واشترت حكومة المجر ما عندهُ بنحو مليونين وستماية الف فرنك سنة ١٨٦٥ ونقلتها الى متحف فرانس جوزف للفنون الجميلة . واني قصدت هذا المتحف ورأيت

غرائب الصناعة فيهِ واعظم صورهِ دينيَّة تشير الى حوادث ذكرت في الانجيل والتوراة مثل هرب المسيح الى مصر وصورة ابرهيم وامرأتهِ هاجر وغير هذا واكثر الصور المتقنة من صنع موريلو المصور الاسباني المشهور وبعض المصورين المجريين.
وقد اطلقوا اسم فرانس جوزف على اشياء كثيرة غير هذا المتحف منها شارع كبير يمتد على طول ضفة الدانوب الى البورصة الجديدة وادارة الجمارك والناس يقصدون هذا الشارع البهي من كل جانب للنزهة والتفرج بعضهم على بعض وللجلوس في الاماكن العموميَّة الكثيرة فيهِ وهي تشرف على الدانوب . وينتهي هذا الشارع او الرصيف عند الجسر العظيم المعروف بالجسر المعلق سمّي بهذا لانهُ بني بدون عمد او دعائم ركزت في وسط النهر هندسهُ بعض الانكليز وانفقت مدينة بودابست على بنائهِ ثمانية ملايين وربع المليون من الفرنكات وهو من اجمل الجسور المعروفة في الدنيا واكبرها واشهرها طولهُ ٤١٨ مترًا وعرضهُ ٣٠ قدمًا وارتفاعهُ عن سطح الماء ٤٢ وفي طرفيهِ من هنا ومن هنا عمال يتقاضون رسمًا طفيفًا من كل مارٍ عليهِ ومنظر المدينة الى الجانبين من ذلك الجسر كثير الجمال

ومما يذكر ويشكر بين مناظر بودابست جزيرة صغيرة على مقربة من المدينة اسمها مرغريت انفقوا الوف الالوف على هندستها وتنظيمها وتحسينها وجعلوها منتزهًا لاهل العاصمة فصارت من اجمل المنتزهات التي تنشرح الصدور لمرآها لانها واقعة في وسط النهر وكلها محاسن طبيعيَّة وصناعية فترى الناس ينتابونها في كل يوم لا سيما في ايام الاحد والاعياد وهم يأتونها في زوارق وسفن بخارية صغيرة تقوم اليها كل نصف ساعة وفيها غير ما تعلم من البرك والحدائق والمطاعم والحانات الكثيرة خط للتراموي تجرُّ عرباتهِ الخيل يسير في طول الجزيرة بين صفوف الشجر وغرائب المنظر ويسمع في جانبها الانغام المجريَّة تصدح بها الموسيقى الوطنيَّة ورجالها

مترددون الملابس المجريّة القديمة فيلذ للناس كثيراً سماع انغامهم ويظهر الجمع لهم الاستحسان بالتصفيق في نهاية كل دور . وللملابس المجريّة القديمة شأن عند هؤلاء القوم وهي تعرف باللون الاخضر الغالب فيها لانهُ شعار الامة المجريّة فبعضهم يلبسون القبعات الخضراء في الاحتفالات الوطنيّة دليل تحمسهم وتذكرهم شعار الوطن ولهذا أُضيف الى راية النمسا خط اخضر بعد انضمام المجر اليها . واكثر ما يكون لبسهم للقبعات الخضراء خارج بلادهم ليظهروا للملأ جنسيتهم

وجملة القول ان جزيرة مرغريت هذه من احلى ضواحي بودابست وابهاها قضيت فيها النهار بطولهِ حتى اذا خيم الغسق عدتُ الى المدينة وشهدت تمثيل رواية مجريّة قديمة في الملعب الكبير رأيت فيها صفوفاً من البنات المجريات بالملابس العسكريّة المجريّة وهي قبعات خضراء مذهبة وسراويل بيضاء وستر قصيرة حمراء مزركشة بالقصب . وقد حمل افراد هذا الجيش الجميل الرماح وتقلدنَ السيوف وسارت واحدة منهنَّ بارعة الجمال في الطليعة فكان لمنظرهنَّ بهجة تفوق الوصف

هذا كله في مدينة بست او هي القسم الشرقي من عاصمة المجر وقد مرَّ بك ان الجسر العظيم موصل بينهما وان النهر تملأهُ الزوارق والبواخر التي تروح وتجيء بالناس في كل ساعة بين الجانبين . واما بودا فاننا رأينا فيها حال وصولنا انها بنيت على مرتفع من الارض سفحهُ عند النهر وقمتهُ عالية تشرف على ما بَعُدَ من المناظر فهم يصعدون من السفح الى القمة في آلة رافعة مثل التي يستعملونها في الفنادق وهي عبارة عن غرفة برياشها ومقاعدها ترتفع بالقوة الميكانيكيّة وتنزل فتستقرُّ حيث يريد الناس فلما قعدنا فيها مع القاعدين وبدأت بالصعود تأملنا مدينة بست وهي امامنا من وراء النهر فاذا بها تهبط وتدور والحقيقة اننا كنا نصعد فيخيل لنا ذلك حتى اذا وصلنا آخر المسافة كانت المدينة تحت نظرنا من اولها الى آخرها وكان

لذلك المنظر غرابة لا يزول ذكرها من الذهن . وفي بودا هذه قلعة قديمة كانت في يد الاتراك فلما خرجوا من بلاد النمسا والمجر بقي رجال هذه القلعة فيها ودافعوا عنها دفاع الابطال مدة اربعة اشهر فاظهروا ما اشتهر عن امتهم من البسالة الغريبة ثم سلموا لتكاثر العدد عليهم ولم يجد الفاتحون في القلعة حين دخولها غير عدد قليل من هؤلاء الرجال ولم تزل آثار الترك باقية في هذه المدينة حتى ان فيها جامعاً صغيراً وفيهِ مقام للشيخ جول بابا بني على تلٍ جميل المنظر وقد بقي الجامع والمقام على حالهما الاول باتفاق تمَّ بين الدولة العليَّة ودولة النمسا حين خروج الاتراك من بودابست . وللجامع خادم تركي يلبس لبدة بيضاء وعمامة بيضاء صغيرة وبقية ملابسهِ تحكي ملابس المشايخ الاتراك . والمسلمون في بودابست يحيون مولد صاحب المقام في كل عام باحتفال يذكر وبعضهم يأتون من الاستانة لحضور هذا الاحتفال. وللمجر علاقة بالدولة العليَّة تزيد عن غيرها نظراً لما بين المملكتين من القرب والاتصال لا سيما بعد ان وصلت ڤينا بالاستانة عن طريق بودابست هذه بسكة الحديد وهي متصلة ايضاً ببقيَّة اوروبا حتى انهُ ليمكن السفر في عربة واحدة من باريز الى الاستانة على هذا الطريق ولم يتم هذا الاتصال الاَّ في سنة ١٨٨٨ فكان الذين يزورون الاستانة قبل ذلك عن طريق بودابست هذه يسافرون الى بخارست عاصمة رومانيا ومنها الى بلغاريا حيث تقوم بهم باخرة من ڤارنا في الحدود البلغاريَّة الى الاستانة

ومن اهم ما يذكر في بودا قصر فخيم للامبراطور يقيم بهِ حين يجيء المدينة ويستقبل كبراء المملكة ووزراءها ونوابها . واما النواب فلهم مجلس خاص بهم على مقربة من الشارع الكبير في بست وقد اشتهر نواب المجر ببلاغتهم وفصاحتهم وغزارة معارفهم وقام من بينهم فطاحل السياسة مثل اندراسي وتاف وتتسا وغيرهم وهم

احرار في مبادئهم السياسية يميلون الى التقدم مع الزمان وقد سنوا لبلادهم نظامات حرة كثيرة الفائدة يحسدهم على مثلها النمسويون وهم من حيث المعارف دون اخوانهم المجريين

وفي بودا ايضاً المجلس البلدي للمدينة وهو لا يختلف عن المجالس البلدية الاخرى في ترتيبهِ ونوعهِ . وفيها كنيسة مار متى المشهورة بنيت في القرن الرابع عشر تجاه المجلس البلدي كان ملوك المجر يعدونها خاصة بهم وقد توّج الامبراطور فرانس جوزف الحالي ملكاً للمجر في هذه الكنيسة سنة ١٨٦٧ . والذي يمكن وصفهُ في بودابست كثير وهي كما تقدم القول مدينة زاهرة عامرة اهلها ذوو يسار ونعمة وليس فيها ما في ڤينا من قلاقل اهل الفوضى وكثرة الاحزاب واهلها متنوّرون متعلمون ولهم ولع بالامور المجرية وميل الى وطنهم شديد . فلما انقضت مدة زيارتي لهذه المدينة البهية عدت الى ڤينا ولكنني اخترت هذه المرة سكة الحديد بدل النهر حتى ارى الطريقين ما بين المدينتين والخط يجري بازاء النهر في اكثر الاحيان ويتباعد عنهُ في مواضع فيدخل اونة بعد اخرى بلاداً كثير جمالها يضيق المقام عن وصف احوالها



الحمامات المعدنية

معلوم ان بلاد النمسا اشتهرت بحماماتها المعدنية التي تقوي الاجسام وتشفي من بعض الامراض حتى انها صارت ملاذ الاكابر ومصيف الامراء يأتونها مستشفين او متفرجين واشهر هذه الحمامات في مدينة كارلسباد سرنا اليها بقطار سكة الحديد من ڤينا فوصلناها بعد ١٢ ساعة وهي مدينة مشهورة لا يقل عدد

الوافدين عليها كل سنة عن اربعين الفاً يأْتونها من كل حدب وصوب وقد كثر ذهاب الناس من مصر اليها في الاعوام الاخيرة واشتهر امرها بين الكثيرين . وفي كارلسباد ١٤ نبعاً للماء المعدني على اشكالهِ تختلف حرارتهُ ما بين ٢٦ و ٧٢ درجة بمقياس سنتغراد . قيل ان اكتشاف هذه الينابيع المعدنيَّة كان بطريقة غريبة هي ان الملك كارل الرابع خرج للصيد في احد الايام وبينا هو يتأثر الايل في هذه البقعة رأى كلابهُ تتوجع من حرارة الماء فامر بارسال كمية منهُ الى الكيماويين ليحللوهُ ويعلموا امرهُ فعرفوا انهُ يخالطهُ قلويات واملاح تفيد الابدان واشتهر امر هذه الحمامات بعد ذلك حتى كبرت المدينة ونمت من كثرة القادمين اليها وفرضت المدينة ضريبة مقدراها عشرة فرنكات تتقاضاها من كل قادم للبلد وتنفق مجموع هذه الضرائب على تحسين المدينة وتسهيل الاقامة وتوفير الراحة للقادمين وقد بلغ دخل هذه المدينة في العام اربعماية الف فرنك مع انها صغيرة لا يزيد سكانها عن خمسة عشر الفاً ولكن فيها نحو ٥٠ طبيباً مدة فصل الاستحمام يدلون المريض الى النبع الذي يجب الاعتماد على مائهِ وما يلزم لهُ من الاكل والشرب وغير هذا من النصائح اللازمة . والناس يخرجون كل صباح الى اماكن الاستقاء من الماء المعدني وفي ايديهم اقداح يتناولون الماء بها كلٌّ في دورهِ وقد اوقفت البلدية رجالاً من البوليس لخدمة الناس والمحافظة على النظام بينهم وبنت اروقة وابنية بديعة الى جانبها يلجأُ اليها الناس ويستريحون او يقضون ساعات الفراغ وهم يسمعون الانغام الشجيَّة . وليس ينحصر دخل هذه الينابيع في الضريبة التي تتقاضاها الحكومة من القادمين ولا في اجرة الحمامات ولكنهم يصدرون من مائها مقادير هائلة المقدار في زجاجات معروفة الى كل ناحية فقد بلغ عدد الزجاجات التي تصدر من كارلسباد كل عام ثلثة ملايين زجاجة وتسعين الف رطل من الملح يخرج من ماء الينابيع .

وبعض تلك الينابيع يندفع الماء منها بقوة كبرى مثل نبع سبرودل يرتفع ماؤُهُ ١٣ قدماً عند خروجهِ ويصب في بركة نحو ٣٣ متراً مكعباً كل دقيقة ودرجة حرارتهِ ٧٢ سنتغراد فيتناول الشاربون الماء مصاً كمن يشرب القهوة او الشاي . واكثر الينابيع تجد فيها البنات يخدمنَ القادمين خدمة تنشرح لها الصدور وهؤُلاء الخادمات كثيرات ايضاً في المطاعم والمنتزهات المحدقة بالمياه المعدنيَّة من كل جانب ولكل خادمة منهنَّ نمرة تعرف بها. والمرءُ اذا فرغ من الاستقاء عند الصباح ذهب الى المطاعم المذكورة وبعدها دار في تلك المنتزهات الكثيرة واهمها جبال تحيط بالبلدة وكلها غياض غضة من شجر الصنوبر الباسق تفوح روائحهُ العطرة في كل جانب وقد نظمت طرقات بديعة متعرّجة للصعود الى رأس تلك الجبال ووضعت المقاعد في الطريق يستريح عليها الناس وعلقت في بعض الاشجار ايقونات لمن يريد الصلاة في الطريق . واهم هذه الجبال جبل فرانس جوزف ارتفاعهُ ١٦٣٧ قدماً وجبل ابير ارتفاعهُ ٢٠٠٠ قدم وغيرهما

واما المطاعم والفنادق في كارلسباد فكثيرة جدًّا تكفي لكل الزائرين والنازلين وكلها تحت مراقبة الحكومة متبعة النظام الصحي فلا اطعمة غليظة فيها ولا افاويه حارة ولا فاكهة مضرة . وكل الاماكن العمومية في كارلسباد تقفل عند الساعة التاسعة من الليل حتى ان المراسح تقوم بالتمثيل في النهار اتباعاً لرأي الاطباء وعملاً بما يفيد المستشفين وهم الفريق الاكبر من زوار المدينة يأتونها من كل جنس وملة واني اذكر اني اجتمعت على مائدة واحدة للطعام برومي وفرنساوي وانكليزي وبلغاري ورأيت جماعة كثيرة من الوجهاء المعروفين في مصر

ومن المواضع المشهورة بحماماتها المعدنيَّة قرية جيسهبلر يصدر من مائها المعدني مقادير وافرة الى كل جهة فيشربهُ الناس صرفاً او ممزوجاً بالخمر وهي تبعد نحو

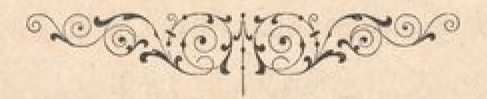
ساعتين عن كارلسباد سرنا اليها من المدينة المذكورة في طريق كلهُ غياض كثيفة لا يرى شعاع الشمس فيها من كثرة الشجر الاَّ في مواضع قليلة. وقد كانت ارض جيسهبلر هذه ملكاً لواحدٍ من امراء النمسا فلم يستفد منها شيئاً و باعها لرجل ذي همة وذكاء اسمهُ الخواجا ماتوني ما عتم ان ملك تلك الارض حتى عُني باستخراج مائها الشافي وجعل يصدر منهُ المقادير العظيمة ويعلن في الجرائد عن فائدتهِ ويسعى في تعميم استعمالهِ حتى نال شهرة عظيمة واثرى الرجل وصار عندهُ مال طائل فنقل بيتهُ الى هذه الجهة وقطع اشجاراً كثيرة بنى محلها قصراً جميلاً لهُ ولعائلتهِ ومساكن للعمال الكثيرين الذين يشتغلون في تعبئة الزجاجات ماءً واصدارها الى بقية الجهات وهم مئات يعملون في الليل والنهار بعضهم يتلقى الماء من النبع وبعضهم يملأُ الزجاجات ماءً وبعضهم يسد الزجاجة وبعضهم يلصق عليها اوراقاً باسم المحل وصاحبهِ وبعضهم يضعها في الصناديق المعدة لنقلها حتى اذا ملئت الصناديق نقلت الى الجهات الكثيرة ومعظمها يرسل الى البلاد الحارة وهي تجارة رابحة دائمة لا وقوف لحركتها مدة العام بطولهِ. وقد بنى الخواجا ماتوني ايضاً حدائق وفنادق للزائرين وجعل هذه البقعة ذات اهمية كبرى وسُمّي هذا الموضع بالميزاب لانهُ يدرُّ الذهب على صاحبهِ كما يدر الميزاب ماء العين والمكان بوجه الاجمال من انسب الاماكن للاستشفاء لان هواءهُ نقي والمناظر المحيطة بهِ في الدرجة الاولى من البهاء والفخامة

ومن هذا القبيل ايضاً مدينة ماريمباد تقرب من كارلسباد في شهرة ينابيعها المعدنيَّة وهي تفيد في تقليل السمن وعلى مقربة منها بلدة اسمها فرنسس باد تزيد المستحمين بمائها سمناً واكثر الذين ينتابون هذه الحمامات المعدنيَّة سيدات من اللواتي يعتنينَ باجسامهنَّ فترى في ماريمباد جماعات منهنَّ سمينات يشربنَ ماءها ويغتسلنَ

ليذهب قليل من سمنهنَّ وبضد ذلك السيدات اللواتي يجتمعنَ في فرنسس باد يردنَ من ذلك اكتساب السمن . وقد كانت ماريمباد مجموع غابات وحراج من شجر الصنوبر وغيرهِ فليس يخلو منهُ موضع الاَّ حيث قطع واقيم في محلهِ بناءٌ واكثر ابنية المدينة جديدة وهي وافرة التنظيم والجمال ولها شوارع فسيحة نظيفة وفسحات عدة يحيط بها كلها شجر الصنوبر تتضوع منهُ الرائحة المعروفة فتزيد المكان فائدة وجمالاً . ويبلغ عدد الوافدين على ماريمباد ١٥ الفاً كل عام ويصدر منها مليون زجاجة من الماء المعدني كل سنة الى الخارج ولهذه المياه شهرة واسعة . ولما استقرَّ بنا النوى في هذه المدينة درنا نتفرج على مشاهدها الطبيعية وآيات جمالها فجلست في قهوة اسمها قهوة جرلانديا بنيت فوق جبل يشرف على بحيرة طبيعية في سهل واسع الجوانب ولهُ منظر مفرط الجمال وفيهِ الفتيات البوهيميات المشهورات بالرشاقة واللباقة يخدمنَ القاعدين في القهوة وهنَّ لابسات الزي البوهيمي وهو قبعة صغيرة على راس الفتاة وصدر مكشوف وسواعد ظاهرة وجلباب قصير الى ما تحت الركبتين بقليل وقد عُلّقت في اعناقهنَّ سلاسل من فضة وهنَّ يخدمنَ بنشاط وهمة تزيد في رونق ذلك الموضع وتتم آيات حسنهِ وجمالهِ . وقد زرت الينابيع المعدنيَّة وسرت تحت رواق عظيم الطول قائم على عمد كثيرة وهو محل الاجتماع العمومي تصدح بهِ الموسيقى وعلى مقربة منهُ اناس من اهل البلاد يبيعون قطعاً خشبية عليها نقوش وكتابات يجعلونها تذكاراً لزيارة هذا المكان او اواني من الخزف البوهيمي المعروف وهي كثيرة في كل بلاد

وبرحت هذه المدينة الجميلة قاصداً بلاد المانيا فعرجت على درسدن عاصمة مملكة سكسونيا يقيم فيها ملك البلاد ووزراءُ دولتهِ . وسكسونيا مملكة من ممالك المانيا المهمة عرفت بالتقدم في العلم والصناعة الى الدرجة القصوى ولعاصمتها المذكورة

شهرة فائقة في معاملها ومدارسها العالية ومعارض الفنون الجميلة فيها . ويبلغ عدد سكانها ثلثماية الف نفس وهي مبنية على ضفة نهر الالب الذي يشطرها شطرين متساويين ويزيد منظرها رونقًا وحسنًا لا سيما وقد بنوا فوقهُ الجسور البديعة اشهرها جسر اوغسطس طولهُ ٤٠٠ متر وعرضهُ ١٣ وفي هذه المدينة ٤ محطات لسكة الحديد تنقل منها المصنوعات السكسونية ومن اهمها الخزف الى بعيد الاقطار ويظهر منها ومن كل جهة اخرى في هذا البلد العظيم اثر الجد والنشاط على وجوه الاهالي . ويكثر مرور السفن والبواخر في نهر الالب مارة بين احياء المدينة وهي قاصدة انحاء سكسونيا التي يرويها هذا النهر ولقد شهدت فيها من القصور والمتاحف شيئًا كثيرًا لم ارَ حاجة الى ذكرهِ فاتقدم الى وصف بقية مدائن السلطنة الالمانية بعد شيءٍ من خلاصة تاريخها





المانيا

خلاصة تاريخية

ان دولة المانيا الحالية حديثة العهد لم تبدأ على شكلها الحالي الاَّ في عام ١٨٧١ ولكن الممالك التي تتكون منها هذه السلطنة قديمة لكلٍّ منها تاريخ خاص بها وقد كان اكثرها يعد في جملة الممالك الالمانية القديمة التي رأستها بلاد النمسا الى اواسط هذا القرن

واشهر ما يذكر عن المانيا ان اقوامها عرفوا بالبطش والبسالة في ايام الرومانيين ولم يأتوا امرًا حتى قام شارلمان ونظم مملكتهُ وخلفهُ ابنهُ لويس دبونابر وهو الذي قسم مملكتهُ الواسعة على اولادهِ في حياتهِ فاصاب احدهم واسمهُ لويس الجرماني اكثر الولايات الالمانية ومن ذلك الحين اي من سنة ٨٤٣ صارت المانيا دولة مستقلة ينتخب ملوكها الامراء والاعيان واساقفة الكنيسة واكثر الذين وقع عليهم الانتخاب من العائلات المالكة مثل عائلة شارلمان وقام منهم ملوك اشتهر ذكرهم في التاريخ منهم اوثو الكبير ملك من سنة ٩٣٦ الى ٩٧٣ وهو رجل اكثر من الغزوات وحارب الباباوات مرارًا فانتصر عليهم وجعل يعيّن من شاء منهم ولكن الامر انقلب بعد موتهِ الى ضد ذلك فعلا شأن البابوات وصاروا يأمرون ملوك المانيا وينهونهم ويعزلون بعضهم ويولونهم ويفرضون عليهم الغرامات وانواع العقاب . وكان في جملة الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك فريدريك بارباروسا ملك من سنة ١١٥٢ الى ١١٩٠ واشترك في الحروب الصليبية وكان لهُ فيها المواقع المشهورة اهمها واقعة قونية التي فتحها عنوةً بعد قتال شديد

وظلَّ امراء المانيا ورؤساء الدين فيها ينتخبون الملوك واحدًا بعد واحد حتى قام رودولف

هابسبرج المشهور في سنة ١٢٧٣ وهو الذي أسس الدولة الحاكمة الى الآن في النمسا وقد مرَّ ذكرهُ فعظم نفوذهُ وحصر الملك في عائلتهِ فصار قياصرة المانيا كلهم من آل هابسبرج الى ايام نابوليون . وزاد نفوذ آل هابسبرج زيادة كبرى في القرن الخامس عشر بسبب اقتران الامير مكسيمليان ابن الملك فريدريك الثالث بالاميرة ماري من آل بورغونيا وتلا ذلك ان مكسيمليان هذا صار امبراطورًا واقترن ابنهُ فيليب بالاميرة حنه ابنة ملك اسبانيا فرزق الاثنان ولدًا هو كارل الخامس ملك اسبانيا وامبراطور النمسا المشهور الذي حدث الانقلاب الديني وقامت طائفة البروتستانت في ايامهِ وهو الذي قيل ان الشمس لم تغرب عن املاكهِ لانهُ فوق ما ملك في اوروبا كان معظم القارة الاميركية لهُ وتحارب حروبًا عديدة مع فرنسوا الاول ملك فرنسا ترى ذكرها في تاريخ الدولة الفرنسية . وتنازل كارل الخامس هذا عن الملك لابنهِ فيليب سنة ١٥٥٦ فعاد امراء المانيا الى انتخاب الامبراطور واختاروا فردناند الاول من آل هابسبرج ثم تعاقب من بعدهِ الملوك ولا اهمية لاكثرهم

وبينا هذه الحوادث تجري قامت قوة جديدة في المانيا هي اصل المملكة الالمانية الحالية ذلك ان بروسيا كانت الى ذلك الحين بلادًا غير مشهورة تابعة لمملكة النمسا او لمملكة بولونيا ففي سنة ١٤١٥ اشتهر امير من امرائها اسمهُ فريدريك صاحب مقاطعة هوهنزولرن وضمَّ الى املاكهِ القليلة ولاية براندنبرج باذن من ملك بوهيميا فأسس بذلك دولة هوهنزولرن براندنبرج وهي الحاكمة الى الآن في بروسيا والمانيا . وفي سنة ١٥٢٥ صار صاحب براندنبرج اميرًا لبروسيا تحت سيادة ملك بولونيا وفي سنة ١٦٠٨ صار صاحب بروسيا هذه اميرًا من امراء المملكة الالمانية الذين لهم حق انتخاب الامبراطور وهم يومئذٍ سبعة دوكات يلقبون بلقب "المنتخب" تمييزًا لهم عن الامراء الاخرين الذين لم يحق لهم الانتخاب . فعظم من بعد هذا شان بروسيا حتى ان فريدريك وليم احد امرائها و يعرف باسم المنتخب الكبير استقلَّ بالاحكام في بلادهِ استقلالاً تامًا في سنة ١٦٥٧ وحفيدهُ اعطى نفسهُ لقب ملك سنة ١٧٠١ واشتهر باسم فريدريك الاول ملك بروسيا ولما قام فريدريك الكبير في سنة ١٧٤٠ وتولى مهام الملك كان لبروسيا شأن عظيم بين دول اوروبا وعند ملكها خزانة عامرة بالمال والتحف وجيش قوي منظم عددهُ ستون الفًا فزادت قوة بروسيا واملاكها في ايامهِ زيادة تذكر . وحدثت حروب مشهورة بسبب انقطاع الذكور من آل هابسبرج ووصول الملك الى يد ماريا تريزا ملكة النمسا المشهورة وكان فريدريك الكبير ملك بروسيا طامعًا بزيادة الملك فلما رأت ماريا تريزا ذلك منهُ ارضتهُ بقسم كبير من بلاد سيليسيا في جنوبي بروسيا فامتنع عن محاربتها ورضي ببقاء الملك الالماني

في يد آل هابسبرج وعقد معها ومع غيرها معاهدة ايكس لاشابل المشهورة في سنة ١٧٤٨ فاشتهر من بعد هذه المعاهدة ان بروسيا من اقوى دول اوروبا وصارت حليفةً للنمسا بدل ان تكون تابعةً لها في الاتحاد الالماني

وفي سنة ١٧٥٦ احسَّ ملك بروسيا بمؤامرة وتواطوء ما بين ملوك روسيا والنمسا وساكسونيا على محاربتهِ واغتصاب شيء من املاكهِ فجند الجيوش وبدأ يحارب الاعداء في كل جهة واستعان بمحالفيهِ فاشتبكت اوروبا كلها بحرب طويلة دامت ٣٠ سنة وهي تعرف في التاريخ باسم "حرب الثلاثين سنة" عقد من بعدها صلح اهم شروطهِ ان تبقى الامور على مثل ما كانت قبل الحرب. ومات فريدريك الكبير هذا في سنة ١٧٨٦ فورثهُ ابن اخيهِ فريدريك ولهلم الثاني وكانت مملكة بروسيا في ايامهِ عظيمة الشان وتقدمت في العلم والصناعة وقام منها الفطاحل مثل لبنتز وولف وكانت وجويث وشلر وهم من الفلاسفة الذين شادوا لبلادهم في ساحة العلم والقلم صروح الفخر العظيم . وحدثت في تلك الاثناء الثورة الفرنساوية فاهتزت لها عروش اوروبا ومن ثم تحالفت النمسا وبروسيا وانكلترا على محاربة فرانسا فبدأت تلك المعارك الهائلة التي انتهت بموقعة واترلو سنة ١٨١٥ بين نابوليون من جهة وجنود اوروبا من جهة وترى بيانها في تاريخ فرانسا. وقد كانت بروسيا مكسورة في اكثر المعارك التي حضرها نابوليون بنفسهِ واضطرت الى قبول ما اراد من الشروط وهو على ما يظهر للاكثرين كان يحسب حساباً كبيراً لاتحاد الاقوام الالمانية على بلادهِ فمن بعد ان انتصر على امبراطور النمسا في معركة اوسترلتز وبدد جنود بروسيا في المعارك السابقة الغى الامبراطورية الالمانية التي كان مركزها الى ذلك الحين في ڤينا وصار امبراطور المانيا يعرف باسم ملك النمسا فقط واستقلت بروسيا من تلك السيادة الوهمية استقلالاً تاماً وانشئت ممالك أُخرى المانية رأس بعضها اخوة نابوليون بونابارت وبعضها صنائعهُ فتمَّ بذلك المراد للفاتح الفرنسي العظيم من تجزئة السلطنة الالمانية وظلَّ الحال على مثل هذا الى يوم خذلانهِ على يد الانكليز والبروسيين في معركة واترلو سنة ١٨١٥

ولما رأت الاقوام الالمانية عند سقوط نابوليون ان مصلحتها تقوم بالانضمام عادت اليهِ في الحال فعقد في ڤينا مؤتمر عظيم الشهرة في شهر نوفمبر من سنة ١٨١٥ حضرهُ النواب من ٣٧ مملكة وامارة المانية وقرروا فيهِ ان تتحد هذه الممالك والامارات اتحادها الاول وان تكون النمسا مركز هذا الاتحاد الالماني في الجنوب وبروسيا مركزهُ في الشمال وتظل كل مملكة او امارة حرة في شؤونها الداخلية وزادوا على هذا في سنة ١٨٣٧ انهم قرروا رفع الرسوم الجمركية او

تخفيفها في ما بين هذه الممالك الالمانية فتم بذلك الاتحاد الذي كانت فرانسا تخشى شرهُ ولكنهُ لم ينتج عنهُ شر لاوروبا لا سيما وانهُ في سنة ١٨٥٩ تحاربت النمسا وفرانسا فلم تنتصر الممالك الالمانية للنمسا واضطرت هذه المملكة ان تسلم بعض املاكها لايطاليا عملاً بشروط الطليان والفرنسيس الذين نصروهم في حرب الاستقلال الطلياني . وفي سنة ١٨٦٠ اتحدت النمسا وبروسيا على محاربة الدنمارك فانتصرتا عليها واخذتا منها ولايات شلسوج وهولشتين ولاونبرج وكانت النمسا تحكم اولاها و بروسيا تحكم الثانية والثالثة من بعد ذلك النصر حتى اختلفتا على بعض المسائل وشهرت تلك الحرب المشهورة بينهما في سنة ١٨٦٦ وكان البرنس بسمارك المعروف يدير سياسة بروسيا وقتئذٍ والكونت مولتكي يقود جنودها فاحرز البروسيون نصرًا عظيمًا على النمسويين وملكوا منهم الاراضي اخصها التي اغتصبوها من الدنمارك . وعلى اثر ذلك عقدت معاهدة في فرانكفورت بالمانيا من مقتضاها اخراج النمسا من التحالف الالماني الشمالي والاتفاق على ان تكون بروسيا رئيسة ذلك التحالف بدلها. ثم استولت بروسيا على مملكة هانوفر وغيرها فصارت مملكتها قوية واسعة واشتهرت بقوة جيشها ومهارة قوادها حتى اذا كانت سنة ١٨٧٠ وانتصرت في حربها المشهورة على فرانسا لم يبقَ في اوروبا اعظم منها فاعيدت الامبراطورية الالمانية القديمة برئاسة بروسيا وتوج ولهلم الاول جد الامبراطور الحالي امبراطورًا لالمانيا في فرسايل في قصر ملوك فرانسا سنة ١٨٧١ بعد ان تمَّ النصر لبروسيا وعقدت شروط الصلح مع فرانسا و بذلك صعدت بروسيا اوج العز وصارت مملكة المانيا التي ترأسها من اعظم ممالك الارض واقواها فنمت وتقدمت في الصناعة والتجارة تقدمًا يذكرهُ الناس في كل حين مع الدهش والاستغراب

وكان ولهلم الاول مؤسس هذه الامبراطورية من الملوك العظام تعلق الالمانيون على حبهِ واكرامهِ حتى اذا مات سنة ١٨٨٨ احتفلوا بدفنهِ احتفالاً عظيمًا وهم الى الآن يذكرون ايامهُ وتقدم السلطنة على عهدهِ . وخلفهُ ابنهُ فريدريك الثاني وكان يوم وفاة والدهِ في سان ريمو من مدن ايطاليا مريضًا بداء السرطان فجاء برلين وتولى مهام الملك بمساعدة البرنس بسمارك ونجلهِ الامبراطور الحالي فما طالت ايامهُ لانهُ توفاهُ الله في شهر يونيو من تلك السنة وحزنت المانيا لوفاتهِ كثيرًا لانهُ اشتهر بالفضائل وندبهُ الانكليز ايضًا لان قرينتهُ اكبر بنات الملكة فكتوريا وقد ولد لهُ منها ابنان هما ولهلم الامبراطور الحالي واخوهُ البرنس هنري احد قواد الاسطول الالماني وعدة بنات

واشتهر جلالة الامبراطور الحالي بالحزم وسرعة الخاطر وحب التوسع في الملك وهو

يعد امهر ملوك اوروبا الحاليين واقدرهم تقدمت المانيا في ايامهِ تقدماً عظيماً وملكت في الصين وافريقيا الاراضي الواسعة وامتدت متاجرها وكبر نفوذها الى حدٍّ لم تعرفهُ من قبل هذا الحين



ولهلم الثاني امبراطور المانيا

برلين

هي عاصمة بروسيا والمانيا معاً تعد ثالثة مدن اوروبا في العظمة والاهمية ولكنها حديثة العهد لم يبدأ تاريخ عظمتها الأمن بعد منتصف هذا القرن وكان في مكانها نهر على ضفتيهِ غياض وسهول خصيبة فلم تعمر الا في القرن الثاني عشر حين سكنها بعض فلاحي الالمان وجعلوها مدينتين واحدة الى الضفة اليمنى من النهر وهي برلين والأُخرى تجاهها وهي كولن فاتحدت المدينتان سنة ١٣٠٧ ودخلت في حوزة آل هوهنزلورن في القرن الخامس عشر وصارت قاعدة امارتهم في اواخرهِ . وكان ذلك بدء تقدمها حتّى اذا حدثت حرب الثلاثين سنة التي ذكرناها في فصل التاريخ وانتهت على ما يريد ملك بروسيا زادت برلين اهميةً وكثرت فيها الابنية وظلّت على هذا التقدم وملوكها يزيدون محاسنها واحدًا بعد واحد حتى دخل هذا القرن وانتصرت بروسيا انتصاراتها الباهرة على الدنمارك والنمسا وفرانسا فزادت اهميةً عاصمتها زيادة كبرى واكثر ما فيها الآن من منظر فخيم واثر عظيم يعدُّ حديث العهد ويدل دلالة قاطعة على نمو المدينة في السنوات الاخيرة من تاريخها . ومع انها كانت في اوائل هذا القرن بلدة صغيرة لا يزيد عدد الساكنين فيها عن اربعين الفاً او خمسين فان اهلها كثروا وزادوا ايضاً حتى صار عددهم مليون ومايتي الف في سنة ١٨٨٠ وهم الآن لا يقلون عن مليون ونصف

والمدينة في منبسط من الارض يشطرها نهر صغير اسمهُ سبري شطرين وهي لها عدة مداخل او (بوابات) قديمة العهد اشهرها مدخل براندنبرج في القسم الغربي من المدينة وهو يفصل ما بين برلين القديمة والقسم الحديث منها علوهُ ٢١ متراً

وعرضهُ ٦٢ وفيهِ ثلاثة ابواب او منافذ تفصل بينها عمد من الرخام تمرُّ في الباب الاوسط منها عربات البلاط الامبراطوري والعائلة المالكة فقط وللناس الجانبان الآخران احدهما للداخلين وثانيهما للخارجين . وفي اعلى بوابة براندنبرج هذه تمثال الظفر أُقيم سنة ١٨٧١ تذكاراً للنصر العظيم على فرانسا وهو عبارة عن ثلاث افراس من النحاس الاصفر صنعت كانها تعدو مسرعة علامة التقدم السريع ومنظرها بديع يستوقف الانظار . والى كلٍّ من الجانبين بناءٌ صغير احدهما مخفر للجنود والثاني مكتب للتلغراف . ولو وقف الانسان عند بوابة براندنبرج هذه والقى بنظرهِ الى الجهات المحيطة بها لرأى انخم مشاهد برلين واعظمها فان اكثر ما سيرد وصفهُ هنا يحيط بهذه البقعة او يقرب منها ولذلك اخترنا ان نجعلها بدء وصفنا لعاصمة الالمان العظيمة . وقد زاد هذه البوابة اهميةً انها واقعةً في راس شارع عظيم اسمهُ شارع اونتر لندن ومعناهُ شارع الزيزفون طولهُ ١٥٠٠ متر وعرضهُ ٦٠ متراً وهو اقسام عدة بعضها للسير على الاقدام و بعضها للخيل والبعض للعربات على مثل ما تقدم من وصف الشوارع التي تضارع شارع الزيزفون هذا وفيهِ اربعة صفوف من الشجر تزينهُ وتزيدهُ رونقاً وجمالاً وقد اطلق عليهِ اسمهُ المشهور بسبب هذه الاشجار . وفي هذا الشارع كثير من الابنية الفخيمة ومنازل الكبراء والسفراء وهو يبتدي عند بوابة براندنبرج التي ذكرناها وينتهي في ميدان قام بهِ تمثال فريدريك الاول

وفي اول هذا الشارع عند بوابة براندنبرج ميدان فسيح عظيم يعرف باسم "ميدان باريز" وهو حسن الموقع في وسطهِ بركة من الماء عظيمة وتمثال للمريخ اله الحرب عند القدماء والى الجهة الجنوبيةّ منهُ بناءٌ عظيم هو قصر البرنس بلوخر ووراؤهُ نادٍ كبير لضباط الجيش الالماني في داخلهِ القاعات والغرف والملاهي على

اشكالها ويليهِ قصر البرنس ارنم . وفي الجهة الشماليَّة من هذَا الميدان سفارة فرانسا وغيرها من الابنية اذا تقدمت في تلك الجهة رأيت اثناء سيرك شيئاً كثيراً منها مثل وزارة الاديان وسفارة روسيا وهي لها واجهة بديعة الشكل من الرخام الابيض النقي . ومن ذلك ايضاً وزارة الداخليَّة وعلى مقربة منها معرض للاسماك والطيور والقردة دخلناهُ وهو مؤلف من طبقتين في الطبقة العليا منهما بيوت من الزجاج للحيات على اشكالها ارسلت الى هذَا المعرض من الهند واواسط افريقيا واميركا الجنوبيَّة وغيرها من المواضع الحارة تراها غادية صادية وليس بينك وبينها الاَّ جدار من الزجاج المتين . هذَا غير ما في البرك من انواع السمك الجميل ما بين احمر وذهبي وفضي ومرقط وملون بالالوان البديعة جلب اكثرهُ من البحار النائية ايضاً اتماماً لفائدة هذا المعرض . وقد صنعوا في ذلك المعرض مغارة كبيرة وعرة المنظر جلبوا اليها الشجر اليابس والحجر الكبير ووضعوها على نسق يحكي نسق الطبيعة في جمالهِ وادخلوا اليها من الطير انواعاً كثيرة تتنقل في جوانبها كانما هي حرة في الخلاء ولها منظر كثير الجمال

ويلي ذلك اذا استمرَّ المتفرج على المسير في الجهة التي ذكرناها " الرواق القيصري " وهو بناء ضخم شاهق يخيل لك انهُ مدينة صغيرة فيهِ مخازن ومطاعم ومكاتب كثيرة وفيهِ ايضاً معرض لتماثيل صنعت من الشمع بينها تماثيل الاسرة الامبراطوريَّة والرجال العظام من اهل السياسة والحرب والشعر والعلم والصناعة والكل بهيئاتهم الصحيحة وملابسهم المعتادة وقد اتقن الصنع فيها اتقاناً عجيباً حتَّى انهُ ليلتبس عليك التمييز بين الاحياء والتماثيل . واذكر اني رأيت هنالك من هذا القبيل مائدة للطعام رُتبت على النسق المعروف وفيها الاطباق والادوات وبعض الالوان وقد جلس من حولها الناس رجالاً ونساءً وهم كمن بدأ في الطعام ولولا

جمود منظرهم لحكمت انهم يشربون ويأكلون وفي هذا ما يراه القارئ من احكام الصنع واتقان العمل

وفي وسط شارع الزيزفون هذا قهوة بوير وهي من احسن حانات برلين يتسابق اليها الالوف لحسن مركزها واتقان معداتها ويقعد الناس فيها يتفرجون على المارة في الشارع الذي لم نزل في وصفهِ. وفي آخرهِ ساحة رحيبة اقاموا فيها تمثال فريدريك الاول وحولهُ القصور والمنازل في جملتها الاوبرا وقصر ولهلم الاول جد الامبراطور الحالي وقصر فريدريك الثاني والدهُ ودار المحافظة ونادي العسكريَّة والمكتبة العمومية والمدرسة الجامعة . اما التمثال فقد صنع من نحاس وقام على قاعدة ارتفاعها ١٤ مترًا ولها اربعة جوانب في الجانب الشرقي تماثيل لبعض امراء المانيا وفي الجانب الغربي رسم القائدين زيتن وسيدلتز وهما اشهر من حارب مع فريدريك الاول. وفي الجوانب الاخرى رسوم المشاهير ايضاً من الذين شادوا لالمانيا صروح العز والفخار

واما المكتبة العموميَّة التي ذكرناها فبناء عظيم كتب على صدرهِ من الخارج باللغة اللاتينيَّة " غذاء للارواح " وفيها زهاء مليون مجلد من الكتب المطبوعة وعشرين الفاً من كتب الخط في جملتها كتابات واسفار دينيَّة قديمة العهد ولذلك يؤُم هذه المكتبة كل باحث وطالب للفائدة فاذا دخلت قاعة المطالعة فيها رأيت هنالك هيئة الوقار والعلم حيث يجلس الباحثون بعضهم وراء بعض وليس بين تلك الجموع علاقة غير الشغف بالمطالعة والسكوت التام ونقليب الاوراق فيتجلى لك الاجتهاد والدرس العميق بكل وجوههِ. ولابدَّ للذي يريد مطالعة كتاب نادر المثال من كتب هذه المكتبة او مراجعة شيء فيها ان يطلب ذلك على ورق مطبوع في دائرة المكتبة ويعين الكرسي الذي يريد ان يقرأ الكتاب فيهِ والزمان فاذا جاء في اليوم التالي وجد الكتاب حيث يريد وامامهُ الحبر والورق والاقلام فيعلق

ما اراد وفي ذلك تسهيل على الباحثين لا تخفى فوائده

وتجاه هذه المكتبة الملعب او الاوبرا بني معظمها من الحديد والحجر حتى يقلَّ خطر الحريق ما امكن ويمكن لالف وخمسمائة شخص ان يسمعوا التمثيل في قاعتها الكبرى وقد أُصيبت هذه الاوبرا كما اصيب غيرها بالنار فاعادوا بناءها على مثل ما تقدم واكثروا من النوافذ والمخارج تسهيلاً للفرار حين اضطرام النار ولكن ذلك اصبح من الامور النادرة الآن بعد ان عوَّل مديرو المراسح على اضاءة اماكنهم بالنور الكهربائي ومنعوا التدخين في داخل المراسح الاَّ في قاعات معلومة ارضها من البلاط وفيها خدمة يراقبون ما يلقيهِ الرجال من السجاير وسواها

والنادي العسكري الذي مرَّ ذكره ايضاً من المشاهد المذكورة في برلين وانت تعلم ان المانيا دولة حربيَّة عسكريَّة وان نظام جيشها نال شهرة فائقة حتَّى ان بعض الدول الشرقيَّة كبلاد الصين والدولة العليَّة واليابان تستخدم الضباط الالمانيين لتدريب جنودها وتنظيم جيوشها . وللقيصر الحالي ولهلم الثاني شغف بالجنود ونظاماتهم وحركاتهم فهو يستعرض الالوف منهم في كل حين ويزور المخافر والتكنات مراراً في الشهر فلهذا اصبح مركز العسكريَّة خطيراً في البلاد وزادت اهمية هذا النادي وسواه واصبح للضباط امتياز على بقية الناس في المانيا . والحق يقال ان دولة الالمان لم تزل على النسق القديم الذي كان متبعاً في العصور المتوسطة في ما يخص الجنديَّة فان قسوة الاحكام العسكريَّة واستبداد الكبير بالصغير في جيش المانيا جرت مجرى الامثال ولطالما انتحر الجنود ورحل الاهالي الى اميركا تخلصاً من ظلم جاويش او جور ضابط او ثقل عمل شاق . هذا غير ان الضباط العسكريين لهم حق الدفاع عن شرفهم الى حد انهُ يجوز لهم قتل من يتعرض لهم باقل اهانة ولا يحاكمون على هذا المنكر ولا يعدمون وقد حدث من

هذا القبيل عدة حوادث في عهد الامبراطور الحالي ونجا الضباط القاتلون من طائلة العقاب بعلة انهم قتلوا من قتلوا في سبيل المحافظة على الشرف العسكري

وكل من يزور برلين يرى اهمية الجيش الالماني فيها وحركات جنوده الكثيرة فان الضباط والعساكر يخطرون في كل الشوارع جماعات وافرادًا والتمرينات العسكريَّة في ضواحي المدينة واطراف المملكة الالمانيَّة شاغلة للاذهان يقصدها القواد والافراد من كل جهة والمسافر في سكك الحديد الالمانيَّة يرى فرق الجند منتقلة من موضع الى موضع وقد ملأَت بعض السهول والبقاع بكثرتها فان جيش المانيا كما تعلم لا يقل عن خمسماية الف في ايام السلم ولا يزيده في العدد غير جيش روسيا

وقد رأَيت في هذا النادي من الاعلام والرايات شيئًا كثيرًا اكتسبهُ الالمان من الاعداء في حروبهم القديمة والحديثة كحربهم مع الدنمارك والنمسا وفرانسا ومدافع غنموها من الفرنسيس في الحرب الاخيرة المشهورة واسلحة قديمة العهد كالرمح والفاس والسهم وغيرها حديثة من اجمل انواع المدافع والسيوف الجديدة . وهنالك ايضاً قاعة كبرى فيها رسوم قلاع وطوابي ووقائع حربيَّة تمثل الجنود والخيل والاماكن والاسلحة تمثيلاً دقيقاً وقد صنعت كلها من الجبس وفي جملة ذلك شكل سيدان ومعركتها المشهورة فانك ترى تلك المدينة العظيمة باسوارها وقلاعها ومنازلها وطرقها وترى الجنود تتهيأُ وتصطف لقتال الالمان في جانب والفرنسيس في الجانب الآخر والكل بملابسهم المعروفة واسلحتهم الكاملة والخيل لكل فرقة لها لون معروف وقد صفت المدافع من امام الجيش في الناحيتين ووقف الامبراطور الالماني مع قواد جنده في ناحية من الموضع وامامهم فرقة هاجمة على المدينة هجوم الاسود الكواسر فبعضهم اصابتهُ رصاصة وبعضهم بتر ذراعهُ وبعضهم سال الدم من

جسمهِ ونحو ذلك مما يوهم الرائي انهُ في معركة حقيقيَّة لولا السكون السائد على ذلك المشهد الغريب

وفي الدور الاعلى من هذا النادي قاعات للضباط وغرف للمطالعة والكتابة وفي اكثرها رسوم حربيَّة وصور ولهلم الاول وبسمارك ومولتكي وهم الثلاثة الذين رقت بروسيا بحكمتهم وعملهم اوج العز وصارت رئيسة للسلطنة الالمانية العظيمة. والذين يختلفون الى هذا البناء من الرجال العسكريين كثار العدد وقد يتوهم الساذج من كثرة المشاهد العسكريَّة في هذه العاصمة انها على اهبة الحرب كما ان الغريب الذي يأتي باريس لاول وهلة يظنها في عيد عظيم لكثرة ما يرى من الهرج والمرج وآيات الحظ في تلك المدينة الزاهرة

ويقرب من هذا النادي قصر الامبراطور ولهلم على ضفة نهر سبري وصلناهُ من جسر عليهِ رسوم وتماثيل حربيَّة من كل نوع من ذلك تمثال رجل يقص حديث الحرب على غلام وتمثال مارس اله الحرب يعلم شاباً استعمال السلاح ويقلد شاباً آخر سلاحهُ بعد ان اتمَّ دروسهُ العسكريَّة ويتوّج جندياً ظفر في ساحة القتال وينشط آخر مجروحاً على القيام محرضاً لهُ على مداومة القتال وغير هذا. وكان على باب القصر حين وصلت جماعة من السائحين في انتظار الاذن بالدخول فلما ان فُتح الباب دخلهُ الجميع وراءَ حارس اخذنا الى الدور الاول وادخلنا غرفة عظيمة قال انها خاصة بالامبراطور — وكان جلالتهُ يومئذٍ غائباً عن برلين على عادتهِ في اكثر اشهر الصيف — وهي الغرفة التي اشتهر عن ولهلم الاول جد الامبراطور الحالي انهُ كان يطلُّ من نافذتها ليرى الجنود حين تروح وتجيء في الشارع او حين تذهب للمناورات وتعود منها . وفي قاعة أُخرى من هذا القصر الفخيم صور افراد العائلة المالكة من آل هوهنزولرن صُنعت بالزيت ووُضعت في براويز مذهبة وكلها

آيات في الحسن والانقان . وقاعة أُخرى تعرف باسم القاعة الذهبيَّة فيها عمود من الفضة أُنشئَ تذكاراً لايجاد وسام الصليب الاسود وفيها تمثال ولهلم الاول واقفاً في معركة جرافلوت بفرانسا في الحرب السبعينيَّة المشهورة . وقاعة النسر الاحمر تذكاراً لانشاء وسام النسر الاحمر الالماني وفيها ذٰلك الوسام معلَّق على عمود بديع الشكل . وقاعة النسر الاسود وهي مثل سابقتها في الغرض والوضع وقاعات أُخرى كثيرة كلها ملأى بافخر انواع الرياش النفيس وكان الحارس يقصُّ علينا اقاصيص تلك الغرف وحكاية ما فيها من الغرائب والتحف حتى دخلنا قاعة الطعام وهي فسيحة واسعة الجوانب بهيَّة الشكل تشرح مناظرها الصدور ويمكن ان يجلس الى المناضد فيها ٤٥٠ شخصاً لكلٍّ منهم كرسي جميل يمتاز عنها كرسي من الفضة خصَّ بالامبراطور الحالي فهو يجلس اليهِ كلما تناول الطعام في هذا القصر وقد أُهدي هذا الكرسي اليهِ من مدينة برلين بعد جلوسهِ بقليل . واما عن قاعة الاستقبال او البهو الكبير فحدّث ما شئت وتصوَّر من اشكال فخامتهِ ما اردت انهُ يقصر الوصف عن محاسنهِ ولقد اذهلني اتساعهُ ورياشهُ وزخارفهُ واعجبت بفرشهِ النفيس وسقفهِ السحيق وما يحدث من صدى الاصوات فيهِ على اتساعهِ وما يضيء فيهِ من بلور المصابيح التي لا تعد وما تنعكس صورتهُ على المرائي من الرسوم البالغة حد الانقان وهي بالاجمال من اجمل ما رأيت بين القاعات العظمى في قصور الامراء والملوك . وسرنا بعد هذا في القصر الى القسم المخصص لجلالة الامبراطورة وفيهِ قاعة اسمها القاعة البيضاء كل رياشها من الحرير الفاخر الابيض وفيها ١٢ تمثالاً لطيفاً من المرمر الابيض ايضاً تمثل ولاية براندبرج التي كانت اساس المملكة البروسيَّة على مثل ما رأيت في فصل التاريخ . ويلي هذا القسم جانب من القصر جعل كنيسة للعائلة الامبراطورية وجدرانها من الرخام الابيض المحلى بالذهب

وكذلك المصابيح والاعمدة والمقاعد وبقيَّة ما فيها ولها قبة من الرخام الابيض ايضاً يزيد ماء الذهب جمالها ظهوراً والناس يرون هذه القبة البديعة من خارج القصر . وفي الهيكل من هذه الكنيسة اعمدة من الرخام اخذوها من مصر وهي من شكل الرخام الذي صنعت منهُ اعمدة الجامع في قلعة مصر . وبعد ذلك رأينا قاعة الرسوم وفيها من الصور ما لا يعدُّ ولا يعدَّد اذكر منها صورة بطرس الاكبر قيصر روسيا والقيصرة كاترينا الثانية والسلطان سليمان الثاني ونابوليون الاول وولهلم الاول قيصر المانيا يتوّج قيصراً في قصر فرسايل بفرانسا وصورتهُ وهو عائد الى برلين بموكبهِ الحافل بعد النصر في سنة ١٨٧١ فوقف السيَّاح طويلاً يتحدثون عن تلك الرسوم وتركتهم حتى ازور المتحف

والمتحف هذا عظيم الشأن لما بذلهُ الالمان في سبيل تحسينهِ وزيادة نفائسهِ وهم اهل عزيمة وجدٍ في المسائل العلميَّة بلغوا في العلوم العقليَّة شأْوًا بعيدًا حتى ان بقيَّة الاوروبيين والاميركيين اذا ارادوا التعمق في الفنون الرياضيَّة والعقليَّة والفلسفة على اشكالها قصدوا مدارس الالمان . والقوم يرسلون اللجنات العلميَّة في في كل حين الى الاقطار البعيدة لجمع الاثار التاريخيَّة والمتحجرات والاحافير وغير هذا مما يفيد اهل العلم وقد اشتهر من رجالهم عدد كبير بالاكتشاف مثل شليمان الذي سيمر بك ذكرهُ وغيرهُ ممن جاب الاقطار النائية وراض الصعاب في مصر والشام وبلاد الجزيرة والعراق والاناطول والهند وسواها للبحث عن بقايا السابقين والعلم بما مرَّ من تاريخ الارض وسكانها ولطالما دفعت ادارة هذا المعرض من المال الوفاً ثمن ما يزيد معداتهُ وجادت بالشيء الكثير على الصور المتقنة وهي لها عندهم وفي كل بلاد متمدنة شأن عظيم لانها نتائج القرائح المتوقدة والافكار السامية تمثل للرائي الافكار والخواطر الرفيعة والحوادث المؤثرة فهي مثل الشعر الجيد وبقيَّة

الفنون الجميلة مهذبة للافكار مرقية للعقول ومع ذلك فان اهل الشرق ونحن في جملتهم لايهتمون لها وقد ينفقون الالوف على فرش البيت ولا يشترون صورة ذات قيمة حقيقية بمال يسير خلافاً للذين جروا في مضمار التمدن فان كبراءهم واغنياءهم يجمعون في منازلهم من الصور الثمينة ما تبلغ قيمتهُ المقادير الطائلة . والمتاحف من مثل متحف برلين لا تضنُّ بمال كثير في سبيل الحصول على صورة نادرة المثال او ممتازة باتقان الصنع والجمال وهذا متحف برلين الذي نحن في شأنهِ دفع مليون مارك او نحو خمسين الف جنيه ثمن بعض الصور الزيتية ولما ضاق نطاق المتحف عن كل ما ابتاعوه من التحف والنفائس بنوا متحفاً آخر وصلوهُ بالاول بدهليز حتى صار طول البنائين معاً ١٩١ متراً والعرض ٩٣ . ولو شئنا تعداد ما في المتحف هذا من آثار اشور وبابل ومصر وفينيقية والروم والرومان وغيرهم من اهل الممالك الاولى لما امكن البيان بغير التطويل الكثير ولكننا نكتفي بهذه الاشارة اليها . ولبعض الآثار قيمة كبرى فاني رأيت تمثالاً ليوحنا المعمدان ياكل عسل البر اشتروهُ بمايتي الف مارك — والمارك قطعة المانية من الفضة تعدل الشلن في قيمتها فيكون ثمن الاثر عشرة آلاف جنيه. هذا فضلاً عما في تلك الخزائن الكثيرة من النقود ما بين قديم وحديث وعددها لا يقل عن مايتي الف قطعة . واما قسم الصور من هذا المعرض فقد مرَّ بك كلام عن قيمتهِ واعتناء القوم بهِ وهو كبير كثير النفائس والغرائب غالي القيمة فمن امثلة سخائهم في اتمام غرائبهِ انهم اشتروا لهُ في سنة ١٨٧٠ صوراً كانت في منزل الكونت شويرمن باربعين الف جنيه وانت لو دخلتهُ ترى في جوانبهِ من اشكال الصور الدينية ما يستوقف الانظار ويوهمك بعد طول التأمل انك في ايام الرسل والانبياء فقد رأيت في جملة هذه الرسوم صورة موسى وقد عاد من الجبل فرأى قومهُ يعبدون العجل فالقى

باللوحين اللذين كتبت عليهما الوصايا العشر الى الارض وكسرهما وصورة مريم العذراء مع خطيبها وابنها هاربين الى مصر ثم هي جالسة تحت ظل شجرة تستريح من عناء السفر والطفل بين يديها فذكرني ذلك المنظر بشجرة العذراء في المطرية وهي التي يروى ان العذراء استراحت تحت ظلالها ولما اضناها الظمأ تضرعت الى خالقها ان يغيثها فتفجرت عين ماء جرت امامها وشربت منها مع الطفل

هذا كلهُ في المتحف القديم واما القسم الجديد منهُ ففيهِ الآثار القديمة وضعت في غرف خصت بعضها بكل مملكة قديمة وهنالك ترى في القسم المصري الاجسام المحنطة وامثال قبور الفراعنة وانواع البردي (البابيروس) كتبت عليها المواد الكثيرة واهمها قانون هورس معبود المصريين القدماء كتب باللغة الهيروغليفية القديمة ولهذه الكتابة قيمة عظيمة عند علماء التاريخ . وهنالك ايضاً تماثيل الملوك والكهنة وآثار مصرية اخرى من كل نوع وضعت في غرف تمثل هيئة الهياكل والمنازل المصرية القديمة في وضعها وتلوينها. وقس على ذلك آثار بقية الممالك القديمة وهي كثيرة في هذا المتحف العظيم

وخرجنا من تلك الدار العظيمة فظللنا على المسير حتى وصلنا سراي المجلس البلدي وهي ذات ثلاث طبقات بنيت من الطوب الاحمر وليس لها رونق يزيد عما سواها بل هي لا تقاس بسراي المجلس البلدي في ڤينا وان تكن قاعاتها فسيحة كثيرة الزخارف اذكر اني رأيت في بعضها صورة مؤتمر برلين وهو اشهر ما عقد من نوعهِ في العصور الحديثة كان السبب في اجتماعهِ حرب الروس والدولة العليَّة سنة ١٨٧٦ وخوف اوروبا من امتداد المطامع الروسيَّة بعد الانتصار فقام بسمارك وهو يومئذٍ وزير الدولة الالمانيَّة ودعا الدول الى الاشتراك في عقد مؤتمر ينظر في مسائل الشرق ويقرر حالة كل مملكة وامارة في جنوبي اوروبا وشرقيها ولبَّت اوروبا

الدعوة فعينت كل دولة اكبر فطاحلها وكان بسمارك مندوب دولة الالمان مع غيرهِ من الاكفاء وعين رئيس المؤتمر لانهُ عقد في عاصمة بلادهِ وهم يعطون الرئاسة لصاحب البلاد في كل مؤتمر من هذا القبيل . وكان النائبون عن انكلترا يومئذٍ بيكونسفيلد وسولسبري وعن روسيا غورتشاكوف وشوفالوف وعن فرانسا وادنتون واوليڤيه وعن الدولة العليَّة عمر باشا وسعد الله باشا وكلهم من اشهر رجال السياسة في هذه الممالك العظيمة

وتوجهت من هنالك الى موضع اقيمت فيهِ مشاهد سيدان ومعركتها المشهورة بالبانوراما او النظارات المجسمة والمكبرة . وسيدان هذه مدينة في فرانسا انتصر فيها الالمان على ثمانين الفاً من جنود الفرنسيس كانوا تحت قيادة نابوليون الثالث امبراطور فرانسا فكان فوزهم فيها خاتمة الحرب ولم يبقَ عليهم غير حصار باريس فساروا اليها وحاصروها وفتحوها ولذلك ترى الالمان يذكرون واقعة سيدان معجبين متباهين وهم يحتفلون بعيد النصر في سيدان كل عام وما اكتفوا بما اقاموا من معالم النصر وما رسموا من الصور والنقوش في كل موضع للدلالة على ذلك النصر بل انهم جعلوا يظهرون ادوار المعركة بهذه الصور المجسمة هنا على هيئة يضطرب لها العقل ويجري الدم في عروق المتأمل ويقف الشعر في رأسهِ لانهُ اذا ما وضع عينهُ على تلك النظارات رأى سيدان بعينها والجنود الفرنسيَّة والالمانيَّة تتقاتل قتالاً تشيب لهولهِ النواصي وتندك من شدة وقعهِ الرواسي فانك ترى الجيشين في بدء الامر وقفا يستعدان للقتال والنضال وشجر الحور في طرق سيدان الكثيرة من وراء هذه الجنود الباسلة تبكي اوراقهُ الحسناء على الذي ترى انهُ سيهرق من دم الانسان واغصانهُ تتمايل كانما هي سكرت من خمرة الحرب القادمة او زاد بها الالم واشتدت عليها الحسرات من عدوان بني الانسان فجعلت تميل حرقة وتوجعاً حتى

اذا تمَّ المنظر الاول ورأى المتفرج هاتيك الصفوف من الجند تموج وتضطرب فغرت مدافع الحرب فاها وتصاعدت كراتها القتالة وثار دخانها من الف موضع وموضع ثم بدأ الجنود يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وتصادمت هاتيك الجموع المسلحة وتلاطمت بنارها وسيوفها فما ترى في تلك الساعة الدهياء غير صدر ينهال عليهِ الرصاص انهيال السيل وعنق تدقهُ سنابك الخيل ونار تقذفها المدافع وتتفرقع بين صفوف المقاتلين البواسل فهنا جسم يتمزق ويتقطع وهنا فارس قُدَّ حصانهُ شطرين فوقع هو الى الارض يتألم من جراحهِ ويتوجع وهنا فرقة من الجنود تصطدم بفرقة فتردي الرجال الرجال وقد حجب بعضها قتام البنادق والمدافع وقامت قائمة البلاء والهول فلا ترى كيفما قلبت النظر غير ويلٍ في ويلٍ في ويل فاذا انتهيت من هذا واتضح لك بعد كل هذا البلاء ان معظم الخسران في جانب الفرنسيس ظهر لك جندي فرنسي يحمل علمًا ابيض علامة التسليم وطلب الهدنة فيقل الاضطراب وتهدأ الطلائع وترتد المواكب عن المواكب وبعد قليل من المخابرة ومناظر لا محل لوصفها ترى نابوليون الثالث امبراطور فرانسا قادمًا وقد صغرت نفسهُ ولم يبقَ لهُ في العزّ مطمع فيصل الى حيث يلقى ولهلم ملك بروسيا الظافر في دائرة من رجالهِ العظام وبعد مبادلة الرسوم المقرَّرة يسلم نابوليون سيفهُ لولهلم علامة الخضوع وينتهي بذلك دور حرب شابت لاخبار هولها الاطفال ولسوف يذكر الناس امرها على ممر الاجيال

هذا جلُّ ما يستحق الذكر من مناظر برلين التي يراها المرءُ على خط مستقيم اثناءَ سيرهِ من حيث بدأنا ولا يضيع منهُ الزمان . وقد تقدَّم بك القول ان شارع الزيزفون الذي يوصل منهُ الى كل هذه المشاهد يمتدُّ من الشرق الى الغرب ويلي ذلك في كثرة الحركة والزحام شارع فريدريك الممتد من الشمال الى الجنوب على

مسافة ٣٣٠٠ مترٍ وفي هذا الشارع حانات ومخازن كثيرة ملأى بالابضعة المختلفة واشهر ما يذكر منها مخزن الخواجا فابر صاحب معمل اقلام الرصاص المكتوب عليها اسمهُ وهي مشهورة ومعروفة في كل بلاد. واكثر منهُ اهمية شارع ولهلم وهو من اهم شوارع هذه المدينة العظيمة يمتدُّ ايضاً من الشمال الى الجنوب وفيهِ من القصور الباذخة والمنازل الفخيمة ما لا يمكن الاَّ ذكر بعضهِ هنا من ذلك وزارة الحقانيَّة والخارجيَّة ورئاسة الوزارة وقصر لبسمارك وسفارة انكلترا وقصور للامراء ولحاشية الامبراطور وغير هذا كثير. وفي وسط الشارع حديقة جميلة ينتابها الناس كثار العدد وفيها غير الاغراس والبرك تماثيل القواد المشهورين لا سيما الذين احسنوا البلاء في حرب السبع سنين التي ذكرنا طرفاً من حكايتها في الخلاصة التاريخيَّة

وليس ينحصر جمال برلين في شوارعها وحاناتها ومتاحفها ولكن الضواحي المحيطة بها وهاتيك المصايف والمنازل لكبراء الناس وامراء السلطنة الالمانية من اعظم ما يجب ذكرهُ فاني لما علمت ذلك خرجت من باب براندبرج المعروف في عربة فوصلت في اول الامر مجموع غابات وحدائق تعرف باسم تير جارتن او حديقة تير وهي كما قلت مجموع غياض وحراج واغراس مساحتها ستمائة فدان وقد انشئت فيها الطرق بين صفوف الشجر والزهر والبحيرات البديعة تسبح فيها طيور الماء من كل جانب وتسير الزوارق الصغرى تحمل اناساً يسيرونها بايديهم بين هاتيك المناظر الساحرة والفسحات الواسعة قطعوا من موضعها الشجر وجعلوها متسعاً للعب والرياضة فمن لاعب بالاكر ومن فاعلٍ غير ذلك ترويضاً للجسم وهم يحفلون بالرياضة والالعاب البدنيَّة علماً منهم بفائدتها ولعل الالمان في ذلك بعد الانكليز شهرةً فان شهرة الانكليز بترويض الجسم واللعب على اشكالهِ واسعة في الخافقين

وقد اقاموا في قسم من هذه الغابات مسرحاً للحيوان غير الداجن ملأوه بانواع النمر والسبع والضبع والدب والزرافة وغير هذا مما جاءوا به بالنفقات الطائلة من مواطنه القاصية . ولكل نوع من هذه الوحوش اماكن خاصة به كما ان الطيور لها اقفاص كبرى يعرف شكلها كل من زار حديقة الجيزة في مصر . وهنالك بحيرات للحيوانات والطيور المائيَّة وابنية كثيرة للزائرين بعضها مطاعم وبعضها حانات قضيت فيها زمناً ثم برحتها الى الاحياء المستجدة في تيرجارتن وهي مزدانة باجمل المساكن وابهى الطرق والطف البحيرات وابهى الحدائق والازهار يسكنها سراة الالمان واصحاب اليسار من اهل برلين وهم كثار العدد وتنار اكثر جوانبها بالنور الكهربائي الساطع في الليل فلا تعرف اهي اجمل في الليل ام في النهار

ويذكر بين ضواحي برلين البهيَّة قصر شارلوتنبرج بني سنة ١٧٦١ وكان مصيف آل هوهنزولرن من بعد ان صاروا ملوك بروسيا وفيه مدافن لبعض الرجال العظام من هذه العائلة المالكة اشهرها قبر ولهلم الأوَّل موسس السلطنة الالمانيَّة الحالية وجدّ الامبراطور الحالي وصلناه بعد سير طويل في العربة واجتزنا حدائق تيرجارتن فرأينا جماعة كثيرة في انتظار الاذن بالدخول حتى اذا جاء الموعد نزل الناس ووقف الالمان منهم عند ضريح الامبراطور الكبير خاشعين متهيبين تبدو عليهم علامات الوقار والاحترام لموسس مملكتهم ورافع لواء عظمتهم واكثرهم يذكرونه ويذكرون له الحسنات فكان المشهد حول ذلك الضريح موثراً في النفس عظيم الدلالة على قدر المدفون ومعرفة الناس لفعاله شأن الكرام الذين يذكرون للمرء فعله ولا ينكرون

ودعاني للعشاء في ذلك اليوم الموسيو هارتمان الذي كان وكيلاً لقنصلاتو المانيا الجنرالية في بيروت وعرفته يوم ان زار اللاذقيَّة للبحث عن الآثار القديمة ونزل

ضيفاً على المرحوم عمي يعقوب الياس وهو يومئذٍ ڤيس قنصل المانيا في اللاذقية.
والموسيو هارتمان من علماء اللغات الشرقية توسع في درس اللغة العربية مدة وجوده في الشرق فعين مدرّساً لهذه اللغات في اكبر مدارس برلين الجامعة وقد اراني نسخة من كتاب نهج البلاغة في خطب الامام علي بن ابي طالب اهداهُ اليهِ سيادة المفضال الشيخ محمد عبده المشهور

وفي ذلك اليوم قضيت السهرة في ملعب للخيل (هيبودروم) ينتابهُ الالوف وتجري فيهِ الالعاب المدهشة على نغم الالحان واكثر هذه الفعال غرابة تقوم بها فتيات لهنَّ خفة في الوثوب والحركات اذكر ان فتاة منهنَّ كانت تسوق ستة افراس وهي تثب من ظهر واحدة الى الأُخرى ولا تخطئ وأُخرى كانت ترقص على ظهر جوادٍ يسير بها مسرعاً ولا تهتزُّ وغير هذا كثير من الالعاب التي تحلو مشاهدتها في كل حين

وزرت في اليوم التالي رجلاً من مشاهير برلين اسمهُ الموسيو ڤون لاشان مدير المتحف التاريخي الثاني كان معي لهُ كتاب من صديقي المرحوم اسكندر كاتسفليس ڤيس قنصل المانيا سابقاً في طرابلس فلما زرتهُ لقيت منهُ ومن حضرة قرينتهِ كل ملاطفة واكرام وكانت السيدة تحدثني عما رأت من الاطلال والآثار في نواحي الموصل حيث ذهبت مع زوجها حباً بالاطلاع والاكتشاف. ودعيت بعد ذلك منهما لتمضية يوم الاحد في (بوتسدام) وهي مدينة في ضواحي برلين عدد اهلها ٥٠ الفاً فلبيت الدعوة وسرت في القطار مع صحبي زهاء نصف ساعة ووصلتها فاذا هي مجموع محاسن طبيعية وصناعية نسبتها الى برلين نسبة ڤرسايل الى باريس ترى في جميع جوانبها من بديع الزهر والشجر شيئاً كثيراً وفي وسطها بحيرات متسعة المجال تسير فيها البواخر الصغيرة وهي ملأى بالمتنزهين من اهل برلين

وسواهم لا سيما اذا كان ذلك في يوم احد او عيد وعلى هذا فالقُطُر الحديدية ما بين برلين وبوتسدام لا تقل عن خمسين في كل يوم . وقد كانت بوتسدام سكناً لفريدريك الكبير ملك بروسيا الذي مرَّ ذكره انشأ فيها الحدائق الغناء واعتنى بتلك المروج الفيحاء وشاد القصور الشماء وفي جملتها قصر (سان سوسي) ومعنى الاسم "خلي البال" اشارة الى خلو اصحاب القصر من الشواغل وهم يطلقون هذا الاسم على مثل هذه المصايف حيث يقضي امراء الزمان وقت الفراغ . وفي حديقة القصر غير غرائب الزهر والشجر برك اشتهرت بقوة ما يندفع من ماء انابيبها فانهُ يصعد من بعضها الى علو ٣٩ متراً كانما هو جبل من الماء صاعد ثم يهوي ويصب في بركة يحدث فيها لشدة وقعهِ اضطراباً وموجاً كبيراً . وقد جرى الامراء مجرى فريدريك الكبير الذي شاد القصور في بوتسدام وولع زماناً بسكناها فبنوا فيها فخيم المنازل هناك رأينا في جملتها قصر اورانجري او قصر البرتقال اشتهر باغراس البرتقال وضعت في براميل كبرى وقد صُفَّت من حول البناء ولها رونق وبهاء فاذا اشتد البرد عليها نقلوها الى مواضع ادفأ في داخل المنزل . ومن ذلك قصر فريدريك الثالث والد الامبراطور الحالي مات فيهِ صاحبهُ فريدريك وتقيم الآن فيهِ الامبراطورة فريدريك والدة القيصر الحالي وهي اكبر بنات ملكة الانكليز . والقصر واسع الانحاء كثير الجمال فيهِ مايتا غرفة ولحديقتهِ منظر تضرب بهِ الامثال . ومن ذلك سراي بابلسبرج بنيت على عهد فريدريك الكبير وزادها الملوك من بعدهِ تحسيناً وفي حديقتها بقعة تعرف باسم المطحنة سميت بذلك لانهُ لما بنى الملك هذا القصر كان في هذه البقعة مطحنة لفلاح بروسي فقير فاراد الملك ان يشتريها منهُ وامتنع الرجل ثم استدعاهُ الملك بعد ان فرغت الحيل في اقناعهِ وتهددهُ باغتصاب الارض وبالعذاب اذا اصرَّ على الاباء فلم يهتز الفلاح لهذا الوعيد وقال للملك " ان هذا

يمكن اذا لم يبقَ في برلين قضاة " فاعجب الملك بجراءة الفلاح وثقته بقضاة المملكة وترك المطحنة لهُ على حالها كما رأيتها في ذلك اليوم وانعم عليهِ بجملة مالٍ شان الملوك العظام

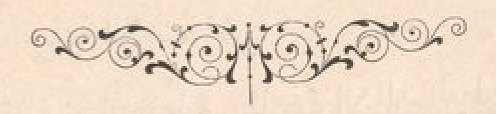
وبعد التنزه في غياض بوتسدام وهضابها وبحيراتها عدنا الى منزل الموسيو ڤون لاشان في برلين وقضينا السهرة عندهُ وكان في جملة المدعوين بعض من اهل الادب والمقام فاطلعنا صاحب الدار على رسوم عندهُ لبعض مدائن الشام مثل بيروت واللاذقيه وجونية وطرابلس وسواها ثم ارانا اشكالاً من الجلد تمثل العاب "كراكوز" او هي خيال الظل وبينها رسوم عيواظ والمدلل وقد اعجبت باعتناء هؤلاء القوم بامور المشرق حين اراني المضيف رسالة من تصنيفهِ بالعلامات الموسيقية الافرنجية في اغاني "الكراكوز" وغنيت بعض هذه الانغام فكانما نحن في قهوة شرقية وهنا غاية الاعتناء بالعلم ومثال التدقيق في جمع المعارف

ودعينا الى زيارة المتحف الذي يديرهُ ڤون لا شان هذا في اليوم التالي فذهبنا اليهِ ورأيت ما فيهِ من الاثار الالمانية التامة في كل فنٍّ ومطلب . وهنالك مجموعة من الآثار النفيسة كشفها الاستاذ شليمان المشهور عند آثار تروادة وقد ذاع ذكر هذا المكتشف وجاء مصر غير مرة ليبحث عن قبر الاسكندر ذي القرنين ظناً منهُ ان الاسكندر دفن في مصر فلم يتوفق الى اكتشافهِ . وفي المعرض من غرائب كل بلاد ما يقصر القلم عن وصفهِ استوقف نظري منهُ ملابس كثيرة الحشو والزخارف لهنود اميركا الاصليين وهي قديمة ضاع شكلها من بين الهنود الحاليين وبطل استعمالها حتى ان ڤون لاشان قال لي انهُ اذا اراد هنود اميركا الآن ان يعرفوا شكل اجدادهم الاقدمين وجب عليهم ان يأتوا برلين ويزوروا هذا المعرض حيث حفظت الاشكال الاولى على اصلها وغرابتها . وهنالك ايضاً ملابس

لثيودوروس ملك الحبشان الذي قتل في حربهِ مع الانكليز سنة ١٨٦١ و كوبة كان يشرب الماء بها وآثار لا تحصى من اميركا وافريقيا واسيا كلها ادلة على الاجتهاد والنشاط الذي امتاز بهِ القوم الالمان وهم بلا ريب من اهل الطبقة الاولى في العلم والصناعة والتعليم عندهم اجباري حتى انه يندر وجود واحد يجهل القراءة ومبادئ العلوم بينهم . على انني لم ابرح برلين قبل ان امتع النظر بمرآها جملة من مرتفع يسمى كروسبرج يطل عليها فقصدت اكمة مجاورة لها ومعي الدليل والمنظار حتى اذا ارتقيت قمتها نظرت الى الجنوب سهولاً خضراء يزرعونها حنطة وغلالاً والى جانبها سهول يستعرض فيها الجيش الالماني وتجري المناورات العظيمة يرأسها الامبراطور بنفسهِ ويدعي اليها اكابر القواد من كل بلاد . وهنالك شجرة دلني اليها الدليل يقف تحتها الامبراطور ساعة الاستعراض

على مثل هذا قضيت اسبوعاً في عاصمة الالمان العظيمة حتى اذا تمَّ لي المراد من الدرس والفرجة برحتها في قطار قام ينهب الارض نهباً في وسط حراج غضيضة وسهول اريضة في اقليم مكلنبرج طوراً يشق الارض وتارة يسير على ضفاف البحيرات او فوق الجسور حتى وصلنا الحدود الفاصلة بين بروسيا والدنمارك عند محطة (وارنموندا) فسافرنا من هنالك في البحر زهاء ساعتين ووصلنا بعدهما فرضة جدسر وهي مدينة دنماركيَّة ركبنا فيها قطار سكة الحديد ومررنا بعدها على عدة محطات آخرها محطة (دينجبونج) وهناك وصلنا خليجاً آخر لم يكن لنا بدٌّ من عبورهِ فعبرناهُ على طريقة غريبة لم ارَ مثلها قبل هذه المرة ذلك ان القطار وقف على ضفة الخليج واتصل اولهُ بباخرة بحريَّة في الماء وفوق سطحها خطوط الحديد ليقف عليها القطار كانما هي ارض مدت عليها الخطوط الحديديَّة وسار القطار على مهلٍ حتى صار كلهُ فوق تلك السفينة فوقف وتحركت هي

فسارت في الخليج حاملة للقطار حتى اذا وصلت البر من الناحية الثانية وقفت عند نقطة فيها خطوط الحديد للقطار فالقت رحلها ووقفت مكانها ومن ثم تحرك القطار فسار من ظهر الباخرة الى الارض وظلَّ سائرًا في طريقهِ فكان ذلك من اجمل ما رأيت في طريقي بين برلين و كوبنهاجن وهي العاصمة التي وصلتها بعد سير ١٢ ساعة من برلين . واما بقية المدائن الالمانية التي زرتها فترى الكلام عنها في فصلٍ يجيء من فصول هذا الكتاب





الدنمارك

خلاصة تاريخية

كان الدنماركيون اقواماً متوحشة شانهم شنُّ الغارات على الممالك المجاورة لبلادهم واشتهروا بهذه الغارات والغزوات في البر والبحر حتى صار اسمهم وهم اهل الشمال مرادفاً للشر والهجوم عند سكان اوروبا في القرون المتوسطة وهم يومئذٍ مع اهل السويد والنرويج يداً واحدة لانهم من جنس واحد . وقد اشتهرت غزوات الدنماركيين في انكلترا من القرن التاسع الى الحادي عشر فان ملكهم سوين هاجم بلاد الانكليز في سنة ٩٨١ وملكها واورثها من بعده لابنهِ كانوت الذي صار اعظم ملوك زمانهِ لانهُ ملك انكلترا والدنمارك والسويد والنرويج وكان مشهوراً بالعدل والحكمة ولما مات في سنة ١٠٣٦ اقتسم اولادهُ الثلاثة املاكهُ فكانت بلادهُ الاصلية نصيب ابنهِ هرديكانوت وهو الذي ضاعت انكلترا من يد الدنمارك في ايامهِ واستعادت استقلالها

ولم يحدث بعد هذا امر مهم في تاريخ البلاد غير تعاقب الملوك والغزوات الى ان رقت العرش ملكة اسمها مرغريتا كانت مفرطة الذكاء كثيرة الحكمة ظهرت مآثر اقتدارها في ممالكها الثلاث وهي الدنمارك والسويد والنرويج فسميت سميراميس الشمال اشارة الى سميراميس ملكة اشور التي تروى عنها عظائم الفعال وذلك في اواخر القرن الرابع عشر . ولما اشتهر امر الانقلاب الديني في اوروبا بعد ايام لوثيروس كان ملك الدنمارك رجلاً عاتياً جباراً اسمهُ كرستيان الثاني وهو يعرف عند بعض المؤرخين باسم نيرو الشمال اشارة الى نيرو قيصر

الرومان الذي اشتهر بقسوتهِ وفظائعهِ . فلما انتشر المذهب البروتستانتي في ممالك كرستيان هذا استعمل منتهي الشدة مع الذين اعتنقوهُ حتى انهُ دعا معظم اشراف السويد الى وليمة وفتك بهم غدرًا وعدوانًا بسبب انضمامهم الى طائفة البروتستانت فهاجت امة السويد لذلك وقامت بنصرة امير نجا من الذبح اسمهُ جستافوس فاسا فحاربت جنود الدنمارك تحت قيادتهِ وطردتها من البلاد وبذلك انسلخت بلاد السويد عن هذه المملكة وصارت مملكة مستقلة في سنة ١٥٢١ وبعد هذا بقليل فرَّ كرستيان من البلاد لان معظم الاهالي قاموا عليهِ فسارت بلاد الدنمارك بعد ذلك في سبيل التقدم تحت امرة ملوكها من آل اولدنبرج ولم يحدث امر يذكر لهم غير ان الملك استبدَّ بالامر في سنة ١٦٦٠ ولم يبقِ اثرًا لنفوذ الاشراف والامراء ووافقهُ عامة الناس على صنيعهِ

وكانت الدنمارك من الدول البحرية ولها متاجر واسعة فلما عظم امر نابوليون الاول اتحدت معهُ على مناوأة الانكليز فهاجمها اسطولهم مرتين تحت قيادة اللورد نلسون امير البحر المشهور في سنة ١٨٠١ و١٨٠٧ ودمر حصون عاصمتها كوبنهاجن واسر اسطولها برمتهِ فاستخدمهُ في محاربة نابوليون وكان ملك الدنمارك صديقًا لنابوليون حميمًا ظلَّ على ولائهِ الى يوم سقوطهِ فاسخط ذلك دول اوروبا الناقمة على نابوليون وسلخت منهُ بلاد النرويج فاضافتها الى مملكة السويد على مثل ما يجيء في تاريخ هاتين المملكتين . وفي سنة ١٨٣٤ تحرَّك الاهالي لطلب الحقوق الدستورية فسلَّم بها الملك فريدريك السادس وصارت البلاد دستورية شورية من ذلك الحين فتقدمت في درجات الحضارة ونمت ثروتها ولكنها فقدت بعض املاكها في سنة ١٨٦٤ بعد محاربة شاقة مع بروسيا واخذت منها ولايات لاونبرج وشلسوج وهولشتين كما تقدم عند الكلام عن المانيا

وفي سنة ١٨٦٣ رقي عرش الدنمارك ملكها الحالي كرستيان التاسع وهو ذو منزلة عظمى بين ملوك اوروبا واقيالها لانهُ فضلاً عن فضائلهِ وحسن سياستهِ ارتبط باعظم العائلات المالكة بربط القرابة فان ابنتهُ الاولى اقترنت بسمو البرنس اوف ويلس ولي عهد الدولة الانكليزية ولها شهرة بالفضائل لا تفوقها شهرة يحبها الانكليز جميعهم حبا مفرطًا لحسن خصالها واقترنت اختها الثانية بالمرحوم اسكندر الثالث قيصر روسيا والد القيصر الحالي وهي ايضًا من اشهر الاميرات في رقة القلب وحب الفضيلة . واقترنت الثالثة منهنَّ بالديوك اوف كمبرلند حفيد جورج الرابع ملك انكلترا والمطالب الآن بسرير مملكة هانوفر التي ذكرنا خبر ضمها الى السلطنة الالمانية في الفصل السابق . وابنهُ الاكبر في كوبنهاجن وهو ولي عهدهِ والثاني هو

جورج ملك اليونان المشهور والثالث هو البرنس ڤلاديمير عرضت عليهِ امارة بلغاريا ولم يقبلها فملك الدنمارك مصاهر لاعظم الملوك ومقرَّب من كل قيصر عظيم في اوروبا ولهُ كلمة نافذة في اعلى المقامات . وقد توفيت قرينتهُ الملكة في شهر اكتوبر من سنة ١٨٩٨ وكان كتَّاب الصحف يسمونها حماة اوروبا لما تقدم من مصاهرة الملوك لها. والملك كرستيان اكبر ملوك اوروبا الحاليين سنًّا ومن اعظمهم شهرة في الفضائل والميل الى البساطة وحب الجمهور لهُ



ملك الدنمارك

كوبنهاجن

هي عاصمة الدنمارك فيها من السكان فوق ثلثماية الف نفس ومعنى اسمها "فرضة التجارة" يشير الى اشتهارها بالمتاجر من عهد بعيد او من عهد تأسيسها فانها بدأ ببنائها الاسقف اكسل في القرن الثاني عشر للميلاد وكانت في اول الامر قرية ينتابها بعض تجار السمك ويقيم فيها الصيادون فجعلت تكبر وترتقي الى ان تولى مملكة الدنمارك كرستيان الرابع سنة ١٥٨٨ وكان مقداماً نشيطاً ميالاً الى توسيع المتاجر هماماً باسلاً في الحروب فتقدَّمت المدينة على ايامهِ تقدُّماً عظيماً وبُنيت فيها حصون لصد هجمات الاعداء اكثرها باقٍ الى الآن وهي من المناظر التي تستحق الذكر في كوبنهاجن . وقد اشتهرت هذه المدينة فوق المتاجر بصناعة القفاز او الكفوف والسفن الشراعيَّة وبعض اشكال الخزف واتقنت صناعة الجبن لان اهلها اشتهروا بتربية المواشي وفيها من المشاهد شيءٌ كثير يستحق الذكر من ذلك الميدان الملوكي كان اول ما قصدناهُ عند خروجنا من الفندق فاذا هو ساحة متسعة الاطراف أُقيم في وسطها تمثال للملك كرستيان الخامس راكباً جوادهُ وكان كرستيان هذا من ملوكهم العظام حكم البلاد من سنة ١٦٧٠ الى ١٦٩٩ واشتهر بمحاربة الاسوجيين واتحد مع النمسا لمحاربة لويس الرابع عشر ملك فرانسا وسنَّ قانوناً للاحكام لم يزل اساس الاحكام الدنماركيَّة الى هذا اليوم . وفي ذلك الميدان بناء المرسح الكبير وسفارات الدول العظيمة ومنازل لبعض السراة وفنادق وحانات ومطاعم في جوانبهِ الاربعة فترى الناس يقصدونهُ بسبب وجود هذه الاشياء كلها فيهِ عصارى كل يوم يتمشون في جوانبهِ او يقعدون في احدى حاناتهِ وهو اشهر مواضع الاجتماع في كوبنهاجن

واني بعد ان رأيت هذا الميدان الملوكي خطر في بالي ملك الدنمارك وطلبت الى الدليل الذي كان معي ان يسير بي قبل كل شيءٍ الى قصر الملك كرستيان ففعل ولما انتهيت اليهِ تولاني العجب من بساطتهِ فعلمت ان القصر الذي كان الملك يقيم فيهِ احترق عام ١٨٨٤ ولم يشأ جلالتهُ ان ينفق الاموال الطائلة على تجديدهِ لانهُ كثير الميل الى البساطة فهو يقيم حيث تقدم الكلام . ولولي عهدهِ قصر اجمل من مسكنهِ ولابنهِ جورج ملك اليونان قصر اجمل من الاثنين وهو مقفل لم يرضَ الملك ان ينتقل اليهِ لما اشتهر من حبهِ للعيش البسيط وانفاقهِ للمال على الاحسان بدل التلذذ بالاطايب والتفاخر باليسار فهو يوالي فقراء امتهِ بالمال والزاد ويوزع على بيوت كثيرة في كوبنهاجن وسواها وقوداً وطعاماً في زمن الشتاء ونوادر بساطتهِ كثيرة قص عليَّ صاحب الفندق الذي نزلت فيهِ واحدة منها هي انهُ لما زارت هذه العاصمة البرنسس ستفاني ابنة ملك البلجيك وارملة رودولف ولي عهد النمسا الذي انتحر عام ١٨٨٨ جاء الملك ليسلم عليها في ذلك الفندق ووصل الباب وحدهُ كانما هو واحد من تجار المدينة او صناَّعها فاخذ من جيبهِ بطاقة الزيارة واعطاها لواحد من الخادمين ليوصلها الى الاميرة وظلَّ هو منتظراً عند الباب يحدث صاحب الفندق ويسأله عن ايرادهِ ونفقاتهِ وعدد الذين يدخلون فندقهُ كل عام وغير ذلك من المباحث حتى عاد الخادم واخبرهُ ان الاميرة تنتظر تشريفهُ فصعد اليها وراء الخادم وبعد ان اقام معها زماناً عاد كما جاء بلا طنطنة ولا احتفاء . والناس يحبون هذا الملك الفاضل واسرتهُ الكريمة حباً مفرطاً وهم يعلمون ميلهُ الى البساطة ونفورهِ من الطنطنة والابهة فاذا مرَّ بهم حادوا من طريقهِ احتراماً وتوقيراً وقد لا يسلمون عليهِ حتى لا يحملوهُ مشقة الردّ وفي ذلك موافقة لاميالهِ ايضاً

واما متاحف كوبنهاجن وقصورها العظيمة فاشهرها قصر روزنبرج وهو صرح تُركَ على حالتهِ الاصلية وفيهِ من نفائس التحف وثمين الآثار شيء كثير بناهُ الملك كرستيان الرابع عام ١٥٨٨ ولهُ موقع في وسط المدينة جميل. وسرت الى هذا القصر في ثاني الايام فوجدت غيري ينتظرون الاذن بالدخول على مثل ما كنت ارى في اكثر هذه المتاحف المشهورة حتى اذا جاء الموعد اتانا خادم باللباس الاسود والقفاز الابيض وربطة العنق بيضاء ايضاً كأنما هو في حفلة للتشريفات وقادنا الى غرف القصر فاذا هي او اكثرها ملونة بالالوان الواضحة كالاصفر والاحمر والازرق واول هذه الغرف قاعة فسيحة كانت معدة لاستقبال الزائرين وقد وضعوا فيها صور افراد العائلة المالكة حالاً في الدنمارك والكل بملابسهم الرسمية القديمة على اتمّ إحكام واوفى اتقان. وهنالك عروش كثيرة جلس عليها ملوك البلاد من آل اولدنبرج بعضها من الفضة والبعض الآخر من الخشب الثمين وقد نُقش على اكثرها شعار الدولة الدنماركية وهو ثلثة اسود ورسوم أُخرى تشير الى بعض ما حدث في البلاد من الامور المذكورة. ومن غريب الآثار المحفوظة في هذه الغرفة ايضاً قرن جاموس لهُ حكاية خرافية فحواها ان الكونت اولدنبرج ابا مؤسس الدولة الدنماركية الحاضرة ظهرت لهُ منجمة في سنة ١٤٤٨ واعطتهُ ذلك القرن واشارت عليهِ ان يشرب ماء فيهِ فيرافقهُ السعد ويخدمهُ الزمان ففعل باشارتها ومامرّ زمان بعد ذلك حَتَّى صار ابنهُ ملكاً لبلادهِ والملك باقٍ في يد سلالتهِ الى اليوم وقد ابقوا هذا القرن اثراً لمؤسس دولتهم فطلوهُ بالفضة ورصعوهُ بالحجارة الكريمة وحفظوهُ في هذه الغرفة مع حلي لبعض ملكاتهم واسلحة مثمنة لبعض ملوكهم وملابس مزركشة وغير هذا من آثار الملوك الذين درجوا نكتفي بهذه الاشارة اليها لانها كثيرة ووصفها يضيق عنهُ المقام

ودخلنا بعد ذلك غرفة الورد سمّيت بذلك لان جدرانها ملبسة بنسيج من الحرير النفيس عليهِ صور الورد من كل اشكالهِ وفيها المصابيح والثريات البديعة ومنضدة (طاولة) صُنِعت من خشب الابنوس وزُخرفت بالعاج والصدَف ووُضِعت على اشكال الطيور وفيها فوق العشرين من الادراج السريَّة يفتح كلٌّ منها بأُسلوب خاص وقد صنعت هذه المنضدة للملك في سنة ١٧٣٥ وانفق عاملها على صنعها نحو ٤٥٠ جنيهاً وهي من الآثار الجميلة في هذا المتحف لغرابة صنعها . وغير هذا كثير

ثم صعدنا الدور الاعلى من القصر ومن غرفهِ العجيبة قاعة المرايات سمّيت بذلك لان جدرانها كلها من هذه المرائي . وتليها قاعة النبلاء ملئت بصور الامراء والقواد الذين اشتهروا في تاريخ الدنمارك وفيها كرسي من الفضة جميل الصنع يتوج عليهِ ملوك هذه البلاد وجرن للعماد يعمد فيهِ اطفال الاسرة المالكة وقد نقش عليهِ تاريخ ١٧٢٠ وكلهُ من الفضة الخالصة وعليهِ رسوم كثيرة منها رسم يوحنا المعمدان يعمد المسيح في نهر الاردن . وفي جدران هذه القاعة صورة بطرس الاكبر قيصر روسيا وهو جاء هذه المدينة متنكراً واقام في معامل السفن يدرس بنفسهِ كيفية صنعها حتى يعلّم اهل بلادهِ وكان مدة وجودهِ هنا مثل بقيَّة العمال في معيشتهِ

وظللنا في ذلك القصر القديم ندور بين نفائسهِ ونمتع الطرف زماناً ثم انصرفنا وكثيرون من السائحين والسائحات يترددون في الخروج وقد رأينا من خدمة هذا القصر شمماً لم نعهدهُ في امثالهم من الخادمين فانهُ لما عُرض على احدهم مال قليل كالذي ياخذهُ الخادمون في كل موضع ابى قبولهُ واظهر الاستغراب من صنيعنا وهذا امر يستحق الذكر للدنماركيين وهم قوم اشتهر عامتهم وخاصتهم بالامانة والصدق واحقر الناس عندهم لا يجهل القراءة والكتابة لان التعليم قسري غير طوعي في البلاد فلا يوجد في طولها والعرض اميٌّ واحد . ونزلنا بعد ذلك الى

حديقة قصر روزنبرج هذا وهي بعيدة الاطراف فسيحة المجال فيها من صفوف الكستناء اشجار عمرت قروناً وهنالك تمثال للملك كرستيان الرابع الذي مرَّ ذكرهُ وتمثال آخر للعالم اندرسون الذي اشتهر بالكتابات الادبيَّة والقصص الصغيرة يقرأُها الاولاد في المدارس ويتعلمون منها احسن المبادئ وهو في التمثال هذا واقف بيدهِ كتاب ومن حولهِ صبية يصغون لاقوالهِ والناس يحترمون ذكر هذا الكاتب المفضال هنا حتى انهم اقاموا لهُ الذكر في عدة مواضع ولما ساروا بجثتهِ للدفن بعد وفاتهِ كان الملك في جملة الماشين وراءَ النعش احتراماً لفقيد الادب وهنا يظهر لك نفع البساطة والحريَّة عند الملوك فان اكرام العلماء الى مثل هذا الحد ينشط اصحاب العقول ويشجعهم ويدفعهم الى الاقدام على الدرس والكتابة في ما يفيد

وعلى ذكر هذه الحديقة التي نحن في شأْنها اذكر اني زرت في كوبنهاجن حديقة اعظم منها واوفر جمالاً واوسع شهرة هي حديقة تيڤولي تعدُّ من المنتزهات المشهورة عندهم وقد قضيت سهرة من احلى السهرات رأيت في جوانبها الواسعة مصابيح تعد بالآلاف وهي صغيرة كثيرة الالوان صفت صفوفاً منظمة على ابواب الحديقة وعلى اقواس عدة نصبوها من هنا ومن هنا في نواحي الحديقة وعلى جوانب الطرق الكثيرة وفوق بركة من الماء كبيرة وبين غصون الشجر وفي المروج الخضراء وكلها كما تقدم ذات الوان مختلفة توافق محل وضعها ولها منظر بديع شائق لا تشبع العين من النظر اليهِ لاسيما فوق ماء البحيرة وحول جوانبها حيث تنعكس الانوار الكثيرة الملونة فتزيد المنظر غرابة وبهاءً والقادم الى هذه الحديقة يحسب انهُ في يوم عيد عظيم مع ان هذا حالها في كل يوم وقد انفقوا المال الكثير على ايصالها الى هذه الدرجة من الجمال حتى صيروها من اجمل المشاهد وبنوا في وسطها الملاعب والحانات والمطاعم اذكر اني دخلت مطعماً منها سموهُ باسم قصر الحمراء في غرناطة

باسبانيا وجعلوهُ على شكل ذلك القصر الفخيم الذي ترى وصفهُ عند الكلام على مملكة اسبانيا وفي ذلك المطعم الموائد الشهيَّة ومواضع لثلثماية شخص صفت على اجمل الاشكال . وفي بحيرة الحديقة ايضاً سفائن صنعت على شكل السفن الدنماركيَّة القديمة يدور بها المتنزهون حول تلك الضفاف البهيَّة . ومغارة تشبه المغارة الزرقاء في نابولي وهي سيأتي الكلام عليها أيضاً عند الكلام على مملكة الطليان . وتل صناعي من الصخور الجميلة يتدفق الماءُ من جوانبهِ وينصبُّ في البحيرة ومن فوق ذلك التل صرح صغير او كشك انير بالمصابيح الملونة وفيهِ نفر من القوم الطليان يغنون الانغام الايطاليَّة والناس يدورون بهم من كل جانب . وقد كانت سهرتي في تلك الحديقة كثيرة الفكاهة واللذة لا سيما وانا في زورق فوق ماء البحيرة والزورق يخترق صفوف السفائن المملوءَة بالمتفرجين وأعجبت على نوع خاص بما رأيت من هدو اهل البلاد وسكونهم وتأدبهم في الحديث والاشارات فان الذين دخلوا الحديقة في تلك الليلة لا يقلون عن عشرة آلاف ومع هذا فان الهدو كان سائدًا والانس شاملاً فما سمعت جلبة ولا ضوضاء ولا رأيت غير كل وقار ومهابة والناس يسيرون افراداً واسراباً في جوانب الحديقة على مهلٍ فرحين وشعور صغارهم ذكوراً واناثاً تتلألأُ بياضاً كانما هي فضة فوق ورد الخدود النقيَّة وهي صفة عامة في اهل الشمال

واصبحت في اليوم التالي فقصدت المين الحربيَّة وفيها الاستحكامات صفوفاً وقد تقدَّمت الاشارة اليها وبعضها يعدُّ موقعهُ من اجمل المواقع وتولم فيهِ الولائم العسكرية الفاخرة . وعلى مقربةٍ منها ميناء التجارة وهي واسعة كبيرة ترى فيها من اشكال السفن والبواخر والابضعة ما يعسر عدهُ واكثر السفن في ميناء كوبنهاجن انكليزيَّة لان للانكليز اوسع المتاجر مع اهل هذه البلاد وهم يشترون من انكلترا

الحديد والفحم الحجري وبعض المصنوعات ويرسلون اليها كثيراً من حاصلات بلادهم ومصنوعاتها . ويقرب من هذه المين مطعم من الطبقة الاولى من المطاعم المعروفة بني على مرتفع من الارض واكثر الذين يقصدونهُ ضباط من أُسطول هذه البلاد والدوارع التي تزورها . واذكر اني رأيت من ذلك المطعم عربة فاخرة يجرها فَرسان من جياد الخيل وقد لبس سائقها والخادم الآخر الى جانبهِ القطيفة الحمراء مزركشة بالقصب فسألت الترجمان عن حقيقة امرها وعلمت انها لقرينة البرنس كرستيان فريدريك ولي عهد هذه المملكة وهي اميرة اسوجيةّ لها ثروة طائلة وهبت منها نصف مليون جنيه لابنها الثاني البرنس شارل عند اقترانهِ بالبرنسس مود ابنة ولي عهد انكلترا وهي ابنة عمتهِ كما يذكر القارئون . وقد اشتهر ولي عهد الدنمارك وقرينتهُ هذه بالادب وحب الدرس والمطالعة وهما على شاكلة الملك في البساطة وحب الفقير فالناس يميلون اليهما كثيراً ويسرون كلما التقوا بواحدٍ من هذه العائلة الكريمة

وقصدت بعد ذلك الحديقة العموميةّ وهي من اجمل الحدائق اشتهرت باتساع مروجها البهيةّ حيث يغطّي الارض عشب قصير سندسي مرقط باشكال الأُقحوان والزهر الجميل على نسقٍ يحيي في النفوس ذكر الجمال الطبيعي وتفوح من تلك الازهار روائح عطريةّ اكثرها يتضوَّع من الورد الكثير المزروع في هذه الحديقة على اشكالهِ . ولا حاجة الى القول ان في هذه الحديقة من الابنية والمشاهد ما في سواها وقد اسهبت في وصفهِ غير مرّة فاتركهُ كما تركت الحديقة يوم زرتها وتوجهت الى متحف الآثار القديمة في كوبنهاجن وهو من المشاهد المعدودة في هذه العاصمة وقد قُسم ثلثة اقسام اولها قسم التاريخ القديم ويليهِ قسم العصور الوسطى ثم قسم التاريخ الحديث فترى في الاوَّل اشكال الاسلحة الأُولى من الحجر والصوان

وبعض الحراب والسيوف والرماح والنبال وما كان يستعمله الاولون من آنية الطبخ وامشاط من قرن الجاموس وصناديق من قشر الشجر وادوات أُخرى لا محل لذكرها تمثّل حالة الاوائل وكيفيَّة معيشتهم وحروبهم اتمَّ تمثيل. واكثر ما في القسم الثاني ملابس واسلحة لفرسان العصور الوسطى ونقود من ايام شارلمان ومن قام بعد ايامهِ من ملوك الدول الاوروبيَّة وقد رُتبت حسب تاريخ ضربها والممالك التي ضُربت فيها واكثرها يدلُّ الى تقهقر الصناعة في العصور المتوسطة فان الاولين اتقنوا النقش والحفر والرسم لا سيما في ايام الرومان واليونان الذين تشهد آثارهم الكثيرة انهم وصلوا درجة عظيمة من التقدُّم في هذه الفنون الجميلة فلما انقرضت دولتهم وكثر ظلم من خلفهم استولى الجهل على العقول وسميت تلك الازمان بالعصور المظلمة لما اشتهر عن اهلها من الجهل الكثير فما افاقوا من تلك الغفلة الاَّ في القرن الخامس عشر حين هبَّت ممالك اوروبا الحالية الى اتقان العلم والصناعة واخذت شيئاً كثيراً عن العرب وهم والحق يُقال تفردوا في ايام دولة الاندلس بالعلم والارتقاء واوصلوا معارف الاولين للآخرين فلهم على الحضارة فضل لا ينكر

واما القسم الثالث من هذا المتحف ففيهِ آثار جمة معظمها يشير الى حوادث مشهورة في تاريخ اوروبا عموماً والدنمارك خصوصاً بينها كتب غريبة في جملتها كتاب هندي الَّفهُ واحد من أُدباء الهند وقدمهُ لسمو البرنس اوف ويلس — ولي عهد انكلترا — حين زار سلطنة الهند سنة ١٨٧٦ وفيهِ قصيدة ترجموا بعض اباتها للاشارة الى ما في التعبير الشرقي من الغرابة على ذهن الغربيين وقد قال الهندي في احد تلك الابيات مخاطباً للامير ان " اين اللؤلؤ والكافور والقمر منك فان في القمر نقطاً سوداء تشوه وجههُ وفي اللؤلؤ ثقوباً تقلل متانتها وللكافور رائحة تطير

ولا تبقى واما انت فان شهرتك ناصعة البياض وهي صلبة وباقية " وهي معانٍ تخطر في بال الشرقي كما لا يخفى

وسرت بعد ذلك لمشاهدة معرض للتماثيل يصنعونها من الشمع على شكل الرجال والنساء من مشاهير العصر الحالي والعصور الماضية وهوله' نظائر في اكثر العواصم الاوروبيَّة يرى فيها الغريب رجال الدولة العظام ومشاهير الامة كانهُ واقف معهم فلا يفوتهُ العلم بهيئة الذين يذكرون بين عظماء البلاد التي يزورها وقلَّ من يزور اوروبا ولا تتوق نفسهُ الى مقابلة هؤلاء المشاهير فالذي لا تمكن لهُ المقابلة يكتفي بمثل هذا المعرض الذي رأيت فيهِ جميع مشاهير الدنمارك وسواها واذكر منها رسم غامبتا رجل فرانسا المشهور نقتلهُ عشيقتهُ وستانلي الرحالة المشهور وهو الذي اخترق القارة الافريقيَّة من زنجبار في الشرق الى مصب الكونجو في الغرب واستغرقت سياحتهُ هذه ٩٩٩ يوماً رأى فيها من هائل المتاعب ما تنوءُ بهِ الرجال . وجاب الاقطار الاستوائية قبل ذلك باحثاً عن لفنستون الرحالة الشهير ايضاً . ثم عاد اليها ثالثة لانقاذ امين باشا واكتشاف بعض المجاهل وهو الآن من اعضاء مجلس الشورى في بلاد الانكليز احرز ثروة من سياحاتهِ ومؤلفاتهِ ولهُ مقام بين الناس عظيم . والى جانب ستانلي تمثال اثنين من نوتية الدنمارك رافقوهُ في بعض سياحاتهِ وتمثال الكونت مولتكي القائد الالماني العظيم الذي قاد جيوش بروسيا الى ساحات النصر والظفر في حربها مع النمسا ومع فرانسا وكان اصلهُ دنماركيًّا فنصبوا لهُ هذا التمثال هنا . واذكر ايضاً تمثال البرنس كرستيان بن هانز ملك الدنمارك ارسلهُ ابوهُ الى النروج في مهمة فلقي هناك فتاة فتانة بارعة الجمال وشغف بحبها فاقترن بها على كرهٍ من ابيهِ فغضب عليهِ الملك وحرمهُ الملك وبهذا اضاع الفتى ثلاث ممالك هي الدنمارك والسويد ونروج وهي يومئذٍ متحدة بسبب

حبهِ لهذه الفتاة التي صوروها معهُ في هذا المعرض وهي في غيبوبة تفارق الحياة وقد امسك الشاب بيدها يجس نبضها والحزن ظاهر على محياهُ الى درجة توجب اشتراك الرائي معهُ في الاسف الشديد

ولا بد من القول ان ضواحي كوبنهاجن من المواضع الكثيرة الجمال وهي يقصدها الناس بحرًا وبرًّا لان بعضها في جزر قريبة من المدينة. منها كلامبربرج وهي على مسيرة ساعتين الى الشمال من كوبنهاجن واقعة على ضفة خليج السوند الفاصل بين الدنمارك واسوج والمنظر من المدينة اليها في غاية الجمال فلما وصلناها اعجبنا ما فيها من القصور في جملتها قصر يقضي فيهِ الملك اشهر الصيف والقصر بسيط مثل كل ما لهذا الملك والى جانبهِ قصر عظيم كان القيصر اسكندر الثالث صهر ملك الدنمارك ووالد القيصر الحالي يقيم فيهِ حين يجيء مدة الصيف. هنالك كانت الاميرات والملكات تجتمع ومعهنَّ قيصر الروس وملك اليونان وولي عهد انكلترا وآل اولدنبرج جميعهم من الاسرة المالكة في الدنمارك ويقضون اوقاتًا شهية ضيوفًا لملك البلاد الجليل حتى اصبحت تلك البقعة ملتقى الملوك والامراء على عهد اسكندر الثالث فبطلت اهميتها من بعد موتهِ. وفي كلامبربرج مروج وغياض وحراج عجيبة الانقان والجمال تسرح فيها اسراب الايل . وكان اسكندر الثالث الذي ذكرناهُ مولع بهذه الايائل وبالارانب يأتون بها من ابعد الاقطار ويطلقونها في تلك الغابات فيصطادها في ساعات الفراغ ولطالما راهُ الفلاحون وحدهُ في الغياض راجعًا الى قصرهِ ومعهُ شيء مما اصطادهُ وعرفوهُ من كبر جثتهِ وعلو قامتهِ فانهُ كان من اكبر اهل زمانهِ .

وقضيت في كلامبربرج نهارًا كثرت مسراتهُ فلما عدت الى كوبنهاجن في آخر النهار رأيت على مقربة منها صفوفًا من المنازل البسيطة بنيت من الطوب

الاحمر وهي فسيحة الطرق نظيفة المنظر فاخبرني الدليل انها مساكن لعمال البريد والتلغراف وبعض المصالح الأُخرى والمستخدمات في هذه المصالح من البنات كثيرات في الدنمارك وسواها حتى انهنَّ صرنَ اكثر من الرجال عدداً في بعض مكاتب البوسطة والتلغراف في اوروبا واميركا . ولما كانت أُجرة هؤلاء العمال قليلة لا تسمح لهم باستئجار المنازل المبنيَّة على قواعد الصحة في المدينة فقد بنى المجلس البلدي لهم هذه المنازل في خارج المدينة وعيَّن لها الأُجر الزهيدة فافاد العمال واستفاد وهذا شأن الحكومات المنظمة تنظر الى مصلحة عمالها ورعاياها وتساعدهم على تحسين حالهم وحكومة الملك كرستيان تعدُّ كما لا يخفى من احسن حكومات اوروبا نظاماً ومن اشهرها التفاتاً الى مصلحة الاصاغر والفقراء وبناء هذه المنازل مع ما ذكرنا من الاشياء الاخرى يدلُّ دلالة قاطعة على سهرها وحسن انتظامها

وسرت بعد ذلك الى قصر فردنسبرج وهو من اجمل منتزهات الضواحي يبعد نحو عشرة اميال عن العاصمة شمالاً بناهُ الملك فريدريك الرابع سنة ١٧٢٢ على اثر حرب مع بلاد السويد وجعلهُ في بحيرات يوصل اليها بجسور بديعة الصنع . ولما دخلنا هذا القصر رأينا في مدخلهِ ساحة كبرى يتوسطها بركة من الماء أُحيطت بجدار من الرخام الاسود وفيها تمثال نبتون اله البحر عند الاقدمين وغيرهُ والماء يتدفق من ٥٧ أُنبوبة دقيقة ومن وراء ذلك غرف القصر الكثيرة وهي قُسمت الى جناح للملك ايسر وجناح ايمن للملكة ويحيط بالجانبين رواق على شكل شرفة فيهِ تحفٌ وآثار وصور تمثل تاريخ هذه البلاد ومن اشهرها صورة اهل هذه البلاد يهاجمون انكلترا في القرن الحادي عشر وصور الحوادث المشهورة واكثرها حروب مع بلاد السويد وروسيا وصور افراد العائلة المالكة وهم ٢٢ شخصاً بالقدّ الطبيعي وصور بعض المشاهير من قواد الدنماركيين وأُمرائهم في جملة ذلك امير البحر رانسو

الذي "مات بالتقسيط" على ما يقول اهل بلادهِ ذلك لانهُ فقد عينهُ في واقعة ويدهُ في واقعة ورجلهُ في واقعة أُخرى وأُذنهُ في واقعة وهكذا الى ان قضى نحبهُ . والصور التي من هذا القبيل كثيرة لا محل لسردها هنا

وبعد ان اقمت اياماً في كوبنهاجن على مثل هذا الحال غادرتها قاصداً بلاد اسوج ونروج ماراً بحصون كوبنهاجن المشهورة التي قاومت مدافع الانكليز في اوائل هذا القرن وهي التي كان بطرس الاكبر قيصر الروس يعمل فيها وجرى بينهُ وبين ملك الدنمارك حديث نسوقهُ هنا تفكهةً للقراء . قال بطرس الكبير لزميلهِ ملك الدنمارك يوماً "اني يا اخي الملك يمكن لي ان آمر من شئت من رجالي ان يلقي بنفسهِ من اعلى هذا البرج ولا يتردد فهل يمكن لك ذلك" فاجابهُ الملك "اني يا اخي القيصر يمكن لي ان اضع رأسي بين يدي من شئت من رعاياي ولا اخاف شراً فهل يمكن لك ذلك" . وكان جواب الملك مفحماً دالاً على فضل النظامات الدستوريَّة . هذا ذكرتني بهِ الحصون السالفة الذكر وقد مررت عليها حين مبارحتي لهذه الديار قاصداً بلاد اسوج التي ترى الكلام عنها في الفصل القادم



اسوج ونروج

خلاصة تاريخية

ان هاتين المملكتين في اقصى الشمال من القارة الاوروبية وهما مرتبطتان جغرافيًا ارتباطًا اوجب ان يكون تاريخها بوجه التقريب واحدًا وان يكن بين البلادين حزازات كثيرة وعداء قديم كما يحدث بين الاقوام المتجاورة في كل مكان. وقد علم القارئ ان اصل الاهالي في هاتين المملكتين مثل اصل الدنماركيين وهم اشتهروا مثلهم بالغزو والسطو ولكن نروج صارت مملكة منظمة قبل غيرها وتبعتها الدنمارك ثم اسوج فصارت هذه الممالك الثلاث ذات مركز معروف وقوة مشهورة وكثرت بينها الحروب والمنافسات الى ان ملك بلاد الدنمارك رجل اسمهُ ولدمار الرابع في سنة ١٣٧٥ ولم يكن لهُ وريث من اولادهِ نخلفهُ ابن ابنتهِ مرغريتا وهي اميرة اقترنت بملك نروج ورزقت ابنًا هو اولاف الذي ورث عنها وعن ابيهِ بعدئذٍ مملكة نروج فصار ملكًا للبلادين وكان ذلك بدء الاتحاد المشهور بين ممالك الشمال الثلاث . ومات اولاف هذا سنة ١٣٨٧ فانتخب امراء الدنمارك والدتهُ مرغريتا وهي ابنة ملكهم كما تقدم لتكون نائبة الملك الى ان يقع الانتخاب على ملكٍ سواها وكان تعيين الملوك بالانتخاب شائعًا يومئذٍ في الممالك الشمالية. وفي السنة التالية اي ١٣٨٨ اجمع سراة نروج على انتخاب مرغريتا ايضًا وصية او نائبة للملك في بلادهم الى ان يقوم ملك سواها وكان ذلك بعد مساعٍ كثيرة منها وبدعوى انها ام الملك المتوفى وزوجة ابيهِ فعاد بذلك الاتحاد بين نروج والدنمارك

ووجهت مرغريتا همها الى امتلاك اسوج تخدمها السعد في ان اهالي تلك البلاد شقوا عصا الطاعة وقاموا على ملكهم البرت سنة ١٣٨٨ حتى اذا هاجمت البلاد ساعدها اكثر الاهالي فانتصرت على البرت واسرتهُ مع ابنهِ ثم اطلقت سراحهُ على ان يعيش بعيداً عن بلادهِ واقرَّ الاسوجيون على انتخاب مرغريتا وصية للملك في بلادهم ايضاً وبذلك اتحدت هذه الممالك الثلاث تحت حكم ملكة واحدة اشتهرت بالحزم والسياسة حتى لقبت بسميراميس الشمال على ما تقدم في تاريخ الدنمارك . ولما تم الاتحاد انتخبت كل مملكة ملكاً لها على شرط ان يحكم البلاد بعد وفاة مرغريتا وظلت هي نائبة الملك وحاكمة مستبدة ولم يسموها ملكة لان قانون اكثر الممالك الاوروبية المعروف باسم "القانون الساليكي" يمنع النساء من الحكم واكثر ممالك اوروبا خاضعة لهذا الناموس ما خلا انكلترا وهولاندا وقد ابطلتهُ البورتوغال من عهدٍ غير بعيد وعادت روسيا الى نوع منهُ حتى بعد ايام القيصر بولس وهو قانون لا يعرف لمبداءِه تاريخ ولا يدري المؤرخون اسم واضعهِ ولكنهُ بقية آداب الاولين الذين كانوا يظنون ان المرأة لا تليق للاحكام

وقام بعد ذلك ملوك كثيرون ورثوا مملكة الدنمارك واسوج ونروج عن مرغريتا هذه لم يشتهر لهم ذكر حتى اوائل القرن السادس عشر حين عمت المبادئ البروتستانتية في هذه الممالك وكان الملك يومئذٍ كرستيان الثاني تقدم ذكرهُ في تاريخ الدنمارك فلما اشتدَّ ظلمهُ وامر بذبح سراة اسوج في ستوكهولم قام عليهِ الاهالي تحت قيادة جوستافوس فاسا احد ابناء ملوكهم الاولين واستقلوا في سنة ١٥٢١ وبذلك انفصلت اسوج عن المملكة الشمالية واما نروج فظلت مع الدنمارك الى سنة ١٨١٤ كما سيجيء القول

وتقدمت اسوج بعد استقلالها هذا واشتهر قوادها في حروب الاجيال الوسطى واعظمهم الملك جوستافوس ادولفوس وهو بطل ضرغام انتصر للمذهب البروتستانتي وحارب اعداءهُ واحتلَّ بلاد المانيا ففلَّ جنودها وفرق مواكب امرائها وجعل لدولتهِ مقاماً عظيماً ثم قتل في معركة لوتزن سنة ١٦٣٢ وهو ملك البلاد من عام ١٦١١ فكانت مدة حكمهِ عزاً عظيماً لبلاد اسوج وخلفتهُ ابنتهُ كرستينا على العرش ثم تنازلت عنهُ لابن عمها شارل العاشر سنة ١٦٥٤ وحدثت في ايامهِ حروب كثيرة مع بولونيا كان النصر في اكثرها لجنودهِ . وملك بعدهُ ابنهُ شارل الحادي عشر سنة ١٦٦٠ واشتهر بالعمل على تمدين بلادهِ وتنقيح نظاماتها وترقية شؤون فقرائها ولما مات في سنة ١٦٦٧ خلفهُ ابنهُ شارل الثاني عشر وهو يومئذٍ فتى في الخامسة عشرة من عمرهِ وكان ذكي الفؤاد هماماً حازماً باسلاً في الحروب ولكنهُ قليل

الحظ سيء البخت فان ملك الدنمارك وملك بولونيا حارباه فانتصر عليهما ثم حاربه بطرس الكبير قيصر روسيا المشهور فكان النصر في اول الامر لجنود اسوج ولكن الروس انتصروا في آخره انتصاراً عظيماً في بولتافا سنة ١٧٠٩ فاضطرَّ شارل الى الفرار من بلادهِ والاقامة مدة ٥ سنين في مدينة بندر من مدائن تركيا فلما عاد الى بلادهِ مكرهاً بعد هذه المدة هاجت الامة وماجت واستقبلته استقبالاً حماسياً عظيماً فعاد الى سابق همتهِ وعول على قهر الاعداء ولكن القدر المحتم اصابه بقنبلة مدة حصار فردركشاد سنة ١٧١٨ في حربهِ مع الروس فمات مأسوفاً عليهِ وهو يعده الاسوجيون من اعظم ابطالهم واشهر ملوكهم

ولم يعرف عن اسوج شيء يستحق الذكر بعد هذا الا سنة ١٨٠٩ حين تولى الملك شارل الثالث عشر ولم يكن له وريث من آلهِ فتبنى البرنس بونت كورڤو من امراء فرانسا وهو المشهور في التاريخ باسم المارشال برنادوت كان قائداً عظيماً من قواد الجيش الفرنسي على عهد نابوليون بونابارت وهو الذي صار ملكاً لاسوج سنة ١٨١٢ وما عتم ان رقي العرش حتى انضمَّ الى روسيا و بروسيا وانكلترا وحارب معها رئيسه نابوليون الذي كان السبب في ترقيتهِ فكافأته الدول بعد سقوط نابوليون بتأييدهِ على عرش اسوج واهدت اليهِ مملكة نروج ايضاً وهي كانت تابعة الى ذلك الحين للدنمارك . ولكن النروجيين لم يرضوا بالملك لبرنادوت فانتخبوا اميراً المانياً بدله فتقدم برنادوت بجيش قوي عليهم اضطرهم الى الرضوخ على شرط ان تكون بلادهم مستقلة في امورها الداخلية تمام الاستقلال ولها النظامات القديمة فقبل برنادوت رأيهم ومن ذلك الحين صارت اسوج ونروج مملكة واحدة يحكمها آل برنادوت ولكل مملكة من المملكتين نظامات خاصة بها تقرب من النظامات الجمهورية او الملكية المقيدة وقد ارتقت الامتان بعد ذلك فصار الاسوجيون والنروجيون الآن في طليعة المتمدنين لان التعليم عندهم اجباري فلا تجد امياً في طول البلاد وعرضها ما خلا بعض اقسام شمالية من اسوج والقوم اهل همة وعزيمة وحب للعلم والمعارف وقد اشتهر من النروجيين كثيرون شغفوا بالاكتشاف ومن اشهرهم الدكتور نانسن الذي جاب الاقطار الشمالية والاستاذ اندريه الذي طار الى القطب في قبة او بالون ولم يسمع الناس باخباره الى الآن والنروجيون اصحاب متاجر واسعة ولبلادهم مناظر غاية في الفخامة يقصدها السياح من كل بلاد ولهم اختلاط كثير ببلاد الانكليز . واهل البلاد بوجه الاجمال معروفون بالنشاط والصدق والامانة حتى انهُ ليضرب بهم المثل في الشهامة وكره الخداع وهي صفات لا توجد الاَّ في المترقين

وملك اسوج ونروج من آل برنادوت اربعة هم شارل الرابع عشر الذي اسس الدولة خلفه

اوسكار الاول سنة ١٨٤٤ وتلاهُ شارل الخامس عشر سنة ١٨٥٩ ثم خلفهُ الملك اوسكار الثاني سنة ١٨٧٢ وهو الملك الحالي اشتهر بحب العلم والمعارف شهرة لا تحتاج الى الذكر وعكف على درس التاريخ القديم والحديث حتى صار من الثقات في هذا العلم الجليل وعرف بالميل الى اللغات الشرقية وادابها فرأس مجمع المستشرقين وجمع علماء اللغات الشرقية في عاصمتهِ على مثل ما يعلم الجمهور وجاد بالصلات والوسامات على اهل العلم والمؤرخين ولجلالتهِ يد بيضاء في كل مأثرة علمية ومقام بين ملوك هذا الزمان كبير . وقد اشتهر فوق علمهِ ومعارفهِ برقة القلب وبساطة المعيشة ولطف المعاشرة والحب الشديد لبلادهِ واهلها وهو بوجه الاجمال من خيرة الملوك الحاليين



اوسكار الثاني ملك اسوج ونروج

ستوكهولم

اني لما تركت بلاد الدنمارك قمت في باخرة الى اسوج ومرّت الباخرة في خليج السوند الفاصل بين البلادين فوصلت بعد مسير ساعتين او اقل الى مالمو وهي اولى الفرض الاسوجيَّة من ناحية الجنوب ومركز ولاية سكانْ التي اشتق منها اسم سكاندناڤيا وهو اسم ممالك الشمال الثلاث وبعض ما يجاورها . ومالمو هذه بلدة صغيرة فيها ٥٠ الف نسمة ولكنها نظيفة مرتبة مثل اكثر المدن الاسوجيَّة ولها بعض الشهرة بصنع القفاز (الجوانتي او الكفوف) وهي على بعد ٦١٨ ميلاً من العاصمة ستوكهولم او ١٦ ساعة في القطار تفرق بينهما اراضٍ بديعة المناظر كثيرة الفخامة و يزيدها رونقًا ان بحر البلطيق الى جانب من الطريق الذي يمر بهِ القطار والجبال الى الجانب الآخر فلا يشعر المسافر بشيء من التعب او الملل في كل تلك المسافة لا سيما وان تغيير المناظر المفرحة يتبعهُ انقطاع الغبار لصلابة الارض وكثرة الامطار واتقان العربات في القطار . ومررنا باثنين وثلثين محطة بين مالمو وستوكهولم هذا غير القرى الاخرى التي لم يقف الرتل فيها فكنا نرى في كل ناحية الحراج الفخيمة والبساتين الجميلة والمزارع النضرة والبيوت البهيَّة والناس يشتغلون بزراعتهم اشتغال الذي خلا بالهُ من الهم وأَمن غدرات الدهر والاشجار تتدلى منها الاثمار المختلفة في كل جهة وهي دليل اجتهاد الاهالي في انمائها فاثر فينا منظر هذه البلاد تأْثيرًا عظيمًا

واما مدينة ستوكهولم عاصمة اسوج فانها يضرب المثل بجمالها وبهائها لانها واقعة في ارضٍ بعضها جزر يصلون من احداها الى الاخرى بالزوارق المتقنة او

الجسور البديعة وبعضها في منبسطٍ من الارض فسيح المجال وبعضها على مرتفعات وهضاب متدرجة في الارتفاع ولها منظر يقرب من منظر البندقيَّة في جزرها ومن منظر الاستانة في قرنها الذهبي وروابيها البهيَّة . وقد زادها حسناً ورونقاً ان معظم ابنيتها من الحجر المنحوت لاطلاء يكسوهُ ولا دهان وبعضها من الطوب الاحمر تفصل بين طبقاتهِ خطوط بيضاء من الكلس وفي حدائقها وبعض طرقها ايضاً صخور صوانية كبرى تركت على حالها الاصليَّة عند تنظيم المدينة واشياء اخرى غير هذه تميز مدينة استوكهولم عن سواها وتجعلها من اجمل مدائن الارض بلامراء هذا غير انها نظيفة في كل جوانبها لا رائحة تعرف عنها ولا اقذار متراكمة ولا تراب يطير غباراً فيعمي الابصار ولا دخان ينعقد في الجو من كثرة المعامل التي تدور بالبخار ولا بلية اخرى من مثل ما يعرف عن اكثر مدائن الشرق فلا غرو اذا تغنى الشعراء بمدحها ونظموا القصائد الحسان في وصفها فانها تستحق الذي قالوا عنها . وقد اوصلها الملوك الحديثون من آل برنادوت الى درجتها الحاليَّة بالدأب والاجتهاد وحسن الادارة فانها لم تكن شيئاً يذكر قبل اول هذا القرن وهي بنيت سنة ١٢٥٥ واسم مؤسسها جارل برجر جعل من حولها حصوناً ترد غارات الاعداء وكان هجوم الدنماركيين عليها في العصور الخالية كثيراً فان الملكة مرغريتا غزتها سنة ١٣٨٩ و كرستيان الاول فعل مثل ذلك ايضاً في سنة ١٥٢٠ وغيرها اغار عليها كثيراً فلم يترك هؤلاء المهاجمون لها وقتاً تتقدم فيهِ وتنمو الاَّ انها لما استقلت من بعد ايام جوستافوس فاسا الذي ذكرناهُ في فصل التاريخ نمت وتقدمت حتى اذا تولى برنادوت امرها في اول هذا القرن وهي يومئذٍ لا يزيد عدد سكانها عن ٧٥ الفاً من النفوس زادت في العمران واتسع نطاقها وبنيت فيها المنازل والشوارع والحوانيت الكثيرة خارج دائرة الحصون الاولى فصار عدد

سكانها الآن حوالي ٢٥٠ الفاً كلهم يعرفون بالتهذيب وصدق الوفاء والاجتهاد والامانة

ويزيد ستوكهولم جمالاً انهُ يرد الى مينائها شيءٌ كثير من البواخر والسفن الشراعيةً تنقل الابضعة والمسافرين الى هذه المدينة ومنها . ثم ان السفن الصغيرة تمخر ما بين الجزر التي تتكون منها بعض احياء المدينة فترى في مياه ستوكهولم اينما سرت حركة وحياة تحبب اليك الاقامة فيها طويلاً. واني عند وصولي اليها والتمتع بهذه المشاهد من وجه عام قصدت درس ما فيها فجعلت وجهتي في بادىء الامر قصر الملك وهو في جزيرة شتادن حيث كانت مدينة ستوكهولم القديمة وهذه الجزيرة يمكن الوصول اليها من بقيةً اجزاء المدينة اما بحرًا او من فوق جسر عظيم الشان اسمهُ جسر نوربرو وهو ذات سبع قناطر مبنيةً من الصوّان كثير الزخرف والارتفاع بحيث انك اذا وقفت عليهِ رأيت المدينة من هنا ومن هنا بين يديك والبواخر سائرة فوق الماء من كل جهة ما بين صغيرة و كبيرة فتتجلى لك المدينة بكل محاسنها من تلك النقطة . والقصر هذا بناءٌ نخيم ذات ثلاث طبقات وهو اقسام ثلثة اولها للملك والثاني للملكة والثالث لولي العهد وفيهِ قسم للحرس الملوكي والاعوان الكثيرين ولكلٍّ من هذه الاقسام عمال وخدمة خصوا بالخدمة فيهِ وهم يقومون بخدمة السياح والمتفرجين من الذين يقصدون التمتع برؤية ما في هذا القصر وقد كان يوم دخولي اليهِ جمع من السائحين يتفرجون على نفائسهِ وجلهم من الانكليز والاميركان على مثل ما يعلم الجمهور من ان السائحين في كل ناحية اكثرهم من هذين الشعبين النشيطين فجعلنا ندور في جوانب القصر ورأينا في الطبقة الاولى منهُ ملابس ملوك اسوج واسلحتهم في الزمان السابق واكثرها من بدء القرن السابع عشر الى هذا الزمان وفي جملة ذلك سروج من الذهب والفضة على النمط

الشرقي وسيوف وخناجر مذهبة ومرصعة قبضاتها بثمين الحجارة الكريمة . ورأيت هنالك فرساً مصبرة كان يركبها الملك جوستاڤوس ادولفوس الذي قتل في معركة لوتزن على مثل ما رأيت في الخلاصة التاريخيَّة وسيف الملك شارل الثاني عشر كان في يدهِ حين وقع قتيلاً في معركة فردركشاد . وهناك رايات واسلحة واشياء اخرى يعرف منها تاريخ اسوج او بعضهُ ولاكثرها علاقة بحروبها الماضية مع الدنمارك وبولونيا وروسيا وغيرها من الممالك الاوروبيَّة

ثم ارتقينا سلَّماً من الرخام الجميل اوصلنا الى الطبقة الثانية من البناء فدخلنا قاعة الموسيقى فقاعة الاستقبال وفي سقفها نقوش بديعة تمثل تاريخ الاسكندر ذي القرنين وحروبهِ وقاعة الصور فيها من الرسوم الزيتية شيءٌ لا يعد فقاعة الولائم وهم يسمونها البحر الابيض اشارة الى لون جدرانها وكلها بيضاء ناصعة يتخللها عروق من الذهب ولها منظر ترتاح اليهِ النفوس . وقاعة المجلس الخاص يجتمع فيها الوزراء واهل الشورى تحت رئاسة الملك والقاعة الحمراء جدرانها مطليَّة بالالوان الحمراء المعرقة بالذهب وفيها صور لافراد الاسرة المالكة . وقاعة سرافين سميت باسم وسام اسوجي قديم هو الى الآن ارفع ما عند الدولة الاسوجية من النياشين . وقاعات اخرى غير هذه لكلٍّ منها غرض خاص وقد ملئت جوانب القصر كلهِ بافخر انواع الرياش وزخرفت بابهى الالوان حتى انهُ ليعد من احسن القصور في اوروبا واكثرها جمالاً واتقاناً

ورأيت معظم ما في الاقسام الثلثة من فاخر التحف وبديع المناظر فلما وصلت القسم المخصص لولي العهد رأيت سريرًا للاطفال سوري الشكل صنع من خشب الجوز ورصع بالعاج والصدف وقد استعملتهُ زوجة ولي العهد لغرس الازهار الجميلة فيهِ . ورأيت هنالك ايضاً صورة سعادة احمد باشا زكي الياور الخديوي الاول

اخذتها قرينة ولي العهد تذكاراً لقيام سعادته بخدمتها مدة وجودها هنا فانها كما يذكر القراء جاءت مصر مرتين واقامت هنا مدة الشتاء كلهِ عامين مراعاة لصحتها فكانت الحكومة المصرية تُعنى براحتها ونقوم بواجب اكرامها وهي حفظت لمصر واميرها كل ذكر جميل

والى جانب القصر ميدان واسع جميل فيهِ مسلة علوها مئة قدَم نصبها الملك جوستاڤوس الرابع تذكاراً لانتصارهِ على روسيا سنة ١٧٧٨ وفيهِ تمثال جوستاڤوس على قاعدة تشبه دفَّة السفينة تذكاراً لانتصارهِ على الاعداء في الحروب البحرية. ومن هذا الميدان يمكن الوصول الى السوق الكبرى وهي التي جرت فيها المعارك المشهورة في التاريخ والحوادث المريعة اشهرها حادثة قتل الأُمراء والاعيان على عهد كرستيان الثاني وهي التي ذكرناها في باب التاريخ وقد سُمي الموضع من بعدها "حمام الدماء" لكثرة ما أُريق فيهِ من دماء النبلاء والابرياء

وقد مرَّ بك القول ان ستوكهولم يحيط بها البحر من ناحية واكام ورواب من ناحية أُخرى فهي جامعة لاعظم المشاهد الطبيعية ولهذا فانها لم تشتهر بحدائقها اشتهار غيرها من المدن التي تحتاج الى الحدائق ولكن فيها حديقة بارسيلي الجميلة ينتابها الأُلوف بعد الاصيل من كل يوم وتصدح فيها الانغام الشجيَّة وفيها مطعم فاخر لهُ طبقتان في الأَوَّل منها انواع المشروبات تؤْخذ على موائد نصبت بين صفوف الشجر وفي الطبقة العليا موائد الطعام تشرف على ابهى مناظر المدينة

وفي هذه المدينة ايضاً متحف عظيم الشان هندسهُ ستولر المهندس الالماني المشهور وهو استقدم الى ستوكهولم لهذه الغاية وظلَّ العمال على بنائهِ وزخرفتهِ ١٦ سنة من ١٨٥٠ الى ١٨٦٦. وللملك عناية كبيرة بهذا المتحف وما فيهِ وهو جامع للآثار الكثيرة لا تخرج في وصفها عما تقدَّم ذكرهُ من المعارض التي شرحنا امرها في

غير هذا الموضع ولا يسمح لنا المقام بالاسهاب فيها الآن

وفي هذه المدينة نفق تحت شاهق الجبل يخترق الارض ما بين المدينة واطرافها في الناحية المقابلة لها كان الغرض من حفرهِ تسهيل الانتقال بين الجهتين وقام بعملهِ مهندس من مهندسي البلاد على نفقة نفسهِ بطلب من الحكومة اشترطت عليهِ ان لا يجبي لنفسهِ من المارة رسماً يزيد عن عشر بارات على كل فردٍ منهم وان يتمتع بارباح مشروعهِ مدة عشرين عاماً ثم يصير النفق ملكاً لبلديَّة ستوكهولم فتمَّ ذلك واثرى صاحب المشروع ثم انتقل النفق الى المجلس البلدي فهو ينفق ايرادهُ على ما يفيد المدينة ويزيدها نظاماً وقد تسهل المرور على الناس في تلك الناحية كثيرًا

ولما انتهيت من المرور في النفق سرت في آخر النهار الى قهوة تُعرف باسم ستومبارتر وهي واقعة على ضفة الخليج ينزلون اليها بسلم وفيها حديقة شهيَّة يقعد فيها الناس ويمتعون الطرف بمنظر الخليج وما يمرُّ فيهِ من السفن والبواخر الكثيرة . ومنظرها في الليل لا يقلُّ بهجة عنهُ في النهار لانهم ينيرونها باجمل الانوار موضوعة على اشكال شتى وبينها كثير صُنع على شكل الراية الاسوجيَّة بالمصابيح الملونة

والمدينة هذه مشهورة بجزُرها على ما تقدَّم وقد ذكرنا بعضها ومن اجملها جزيرة دجورجارد فيها القصور والمنازل لكبراء القوم وفيها غابات كثيرة من شجر القرو وهو كثير في هذه البلاد تمتدُّ اغصانهُ وتتكاثف اوراقهُ فيشبه ارز لبنان في امتداد عروقهِ ويتخلل هاتيك الحراج طرق فسيحة نظيفة تخترق الشجر في الجهات الاربع لتسهيل المرور والانتقال ولها منظر يشرح الصدور . ولقد سرنا في احد هذه الطرق فانتهينا الى قصر روزندال الذي بناهُ الملك شارل الرابع عشر وفي ذلك القصر يقيم الكونت برنادوت وهو ثاني انجال الملك اعتزل الدنيا وتنازل عن كل حقوقهِ في

الملك والابهة لانهُ شغف بحب فتاة انكليزيَّة فائقة الجمال وهي ابنة ضابط من ضباط الجيش الانكليزي فاقترن بالفتاة بعد ان نهاهُ ابوهُ الملك اوسكار عن الاقتران وتغلب الحب للفتاة على كل امرٍ آخر فغضب الملك غضباً شديداً على ابنهِ واصدر امرًا بحرمانهِ من كل حقوق الامراء حتى انهُ سلخ عنهُ لقب الامارة فما اثر ذلك في الامير وهو الى الآن مع عروسهِ في هذا القصر يتنعم لانهُ ورث عن امهِ مالاً كثيرًا والفتاة غنية ايضاً . ولهذا القصر حديقة غناء وعلى مقربة منهُ برج بناؤُهُ شاهق وعلو قمتهِ عن الارض ١١٠ اقدام صعدتهُ فرأيت المدينة بجميع اجزائها تحت نظري لا سيما والبرج مبني على اكمة علوها ٢٥٠ قدماً فكان منظر تلك الجهة بديعاً

وتحوَّلت مِنْ ذلك البرج الى غربي الجزيرة وهناك اماكن الاجتماع اقيمت في جوانبها الحانات والملاهي والمطاعم ومرسح بني على مثال القصور العربيَّة في بلاد الغرب الاقصى ولهُ جدران خضراء عليها اشعار عربيَّة بالقلم الابيض. وكان النهار قد انقضى فانيرت المصابيح الكثيرة وبدأَت في المكان حركة من توافد الالوف الى تلك الملاهي والحانات لقضاء السهرة فكنت ترى من اشكال الاسوجيين كبارًا وصغارًا رجالاً ونساءً ما يمثّل لك حال البلاد برمتها وقد ظهرت على الجميع علامات التأدب والتهذيب وراحة البال من عناء المشاكل الداخليَّة والخارجيَّة فان هذه المملكة من الممالك القليلة التي لا تشتد فيها حدة الاحزاب السياسيَّة وليس لها من العقد الخارجيَّة ما يشغل البال ويقطب الجبين . وقد كان بين الاسوجيين والنروجيين منافسة وعداء قديم فزال معظم الجفاء في المدة الاخيرة لان البلادين مستقلتان بعضهما عن بعض في الشؤُون الداخليَّة وكلٌّ منهما يحكمها اهلها هذا غير ان التربية والتهذيب تقدم امرهما في البلادين فماتت هاتيك الاحقاد القديمة وظهرت ادلة الراحة والهناء على وجوه الجميع

وقضيت السهرة في مسرة وحبور في تلك الجزيرة حتى اذا انقضت عدت بالتراموای الى الفندق والطريق كلهُ حدائق ومشاهد جميلة واصبحت في اليوم التالي على نية الاستقصاء في التفرج ودرس المناظر فكان الدليل ينتظرني وسرت معهُ الى قصر دروتنغولم ومعنى الاسم قصر الملكة سمي بذلك لان الملكة حنه الثالثة بنتهُ في اواخر القرن السادس عشر واتم زخارفهُ الملوك الذين جاؤوا من بعدها. والقصر في جزيرة من الجزر المحيطة بالعاصمة فسرنا اليها في باخرة جميلة تشق عباب بحيرة مالارن التي ورد ذكرها من قبل وطفقت هذه الباخرة تمر بقصور وحدائق ومنتزهات جمة وباخرات اخرى تنقل الناس من جهة الى جهة في نواحي ستوكهولم وكنا اذا مررنا باحدى الجزر البهيَّة من مثل التي كنت بالامس فيها نرى الناس هنالك يطربون ويسرون وقد دب في بعض الرؤُوس تأثير بنت الحان فجعل القوم يرقصون ويتخاصرون واذا مرت بهم سفينتنا لوَّحوا لها بالمناديل تسليماً وتحيةً فيرد الركاب التحية بمثل ما فعلوا من رفع الاكف والقبعات وتلويح المناديل وبعض الاحيان يفعلون ذلك بالهتاف والصياح والتصفيق وفي كل هذا دليل على ما يرتع بهِ القوم من الرخاء وصفاء البال . وما زالت الباخرة في مسير بين مثل هذه المناظر ونحن نتمنى لو تطول مدة المسير حتى رست بعد ساعة في آخر البحيرة فنزل الركاب وانا معهم على رصيف من الخشب وسرنا من هنالك في طريق كثرت محاسنهُ الى القصر. ودخلنا القصر بعد ان بلغناهُ فرأينا جوانبهُ وقاعاتهِ ولا حاجة الى القول انهُ كامل الجمال والاتقان من حيث النقش والرياش وغيرهما وفي القسم المعد للملك منهُ صور ملوك اوروبا الحاليين وقياصرتها بالحجم الطبيعي وفي قسم الملكة صور الملكات والقيصرات بقدهنَّ الطبيعي ايضاً. والقصر يقيم فيهِ الملك بعض اشهر الصيف وهو قديم العهد مملوءٌ بالتحف والنفائس ولهُ

حديقة غناء تستحق الذكر على نوع خاص فانها جمعت من اشكال الزهر والشجر كل جميل وغريب وغرست فيها الاشكال على نمط بديع يحيط بها طرق مرصوصة بالحصى ومتقنة الوضع والتعريج يزيدها جمالاً انواع النُصُب والتماثيل الكثيرة وبرك الماء المتدفق من الانابيب المختلفة وفوق هذا فان الحديقة تشرف على البحيرة فيتم بذلك رونقها وبهجتها

ومن اجمل ما اكتحلت بمرآهُ العين وابهى ما وصفهُ الواصفون ضاحية من ضواحي ستوكهولم لا مشاحة في انها لها رونق وجمال ما رأيت اعظم منهُ تأْثيراً في النفس ولا سمعت باكثر غرابة ونخامة اريد بها ضاحية سولتجون . هنالك جمعت الطبيعة كل قواها ووفقت بين غرائب جمالها وساعدتها يد الصناعة والاجتهاد على ايصال البدائع الموجودة فيها الى حد النهاية فصار الموضع باقرار كل من رآهُ آية فتانة من آيات الجمال الرائع والمنظر المؤثر لا تنسى النفوس ذكراهُ . هنالك الجبل الشامخ والبحر الخضمّ والجدول المنحدر والصخر الصلد والحرجة الغضة والاكمة البهيةَ والوادي القشيب والبحيرة النقية مياهها وكل حسنة من حسنات الطبيعة تتوق الى رؤيتها النفس وتشتاق سماع اخبارها الآذان وقد سرت اليها في باخرة من هاتيك البواخر الحسناء والمسافة بينها وبين العاصمة ساعتان في مضيق من الماء او هو بوغاز يضارع البوسفور في ما يليهِ من تنوع المناظر وجمال الضفتين وغرابة المحاسن من هنا ومن هنا . ولقد كان هذا البوغاز البهي يضيق تارةً ويتسع اخرى وسواءٌ ضاق او اتسع فان الذي يراهُ الراكب ليسحر العابد من حراج وغياض وخضرة نضرة ترصعها قصور شماءُ لاكابر الناس تطل كواها وشرفاتها على ذلك المنظر الفخيم . واعجبني فوق هذا كله تلك الصخور الصوانيَّة الباقية من عهد تكوين الارض شاهدة بفضل الطبيعة وقوتها وهي قائمة الى جانبي الطريق تليها الاعشاب واشكال

الشجر المدلاة اغصانهُ لا سيما اذا ما ضاق مجرى الماء وصار مثل شارع غير متسع المجال فان هاتيك الغصون تتقابل من الجانبين ويتكوَّن منها اقواس من الخضرة فوق الماء المترقرق فتمرُّ الباخرات من تحت تلك الاقواس البهيَّة ويا لهُ من ممرٍّ عجيب . ثم ان ذلك البوغاز غير مستقيم السير وهنا نقطة اخرى للجمال فانهُ يتعرَّج في بعض اجزائهِ تعرُّجاً كثيراً يوهم الراكب ان الطريق سُدَّت في وجه الباخرة فلا يظهر للرائي من الماء غير الذي تسير السفينة فوقهُ وتعترضها صخور وغياض ثم هي تنساب في تلك المسالك الشهية انسياب الافعى فما يشعر الراكب الاَّ وقد انفرج المجال وصار الى وسط بحيرة ماؤُها نقي ومنظرها شهي ولها ضفاف نقشت بمحاسن البناء في وسط الحدائق او على رؤُوس الاكام وفي وسطها جزيرات لطيفة كلها معارض لما اجتمع في هذا الصقع من بدائع الطبع والصنع

تلك حال الطريق ما بين ستوكهولم وسولتجون وهي لما وصلناها نزلنا من السفينة الى الارض على رصيف من الخشب دخل في الماء دخول اللسان من الارض في شواطىء البحار فسرنا منهُ صعداً الى قمة على جبل بنيت عليها المنازل والمطاعم واماكن الاجتماع وهنالك مطعم تفننوا في اتقانهِ وانفقوا على معداتهِ الالوف فجعلوا الادوات والآنية كلها من الفضة والذهب والبلور والموائد نظيفة بالغة حد الاتقان يقف من حولها الخدم باجمل هندام . واذكر اني رأَيت عبداً اسود في ذلك المطعم عرفت بعد السؤَال انهُ سوداني أُخذ من بلادهِ صغيراً وربي في ذلك الموضع البهي فما ينطق بغير الاسوجية . وصعدت برجاً في ذلك المطعم اطليت منهُ على تلك المناظر البديعة فارتسمت في ذهني وذكرها لا يزول لاني لم اجد اكثر منها غرابة وجمالاً ثم عدت في المساء الى المدينة بعد ان قضيت النهار كلهُ متنقلاً بين هاتيك الغياض والمشاهد وكان رجوعي في قطار سكة الحديد والطريق لا يقلُّ

غرابةً وجمالاً عن طريق البحر الذي وصفناهُ

واعجبت في استوكهولم بالامن العام والنظام الشامل فان حكومتها الدستوريَّة من ارقى انواع الحكومات في الارض ولها بوليس لم ارَ في الشرطة اجمل منهُ منظراً ولا اكثر لطفاً وعلما في كل العواصم الاوروبيَّة فان الجندي البسيط من اولئك الرجال يلبس لبس ضابط كبير لهُ بنطلون اسود من الجوخ اللامع ومن فوقه سترة من نوعهِ لها صفَّان من الزرائر المطلية بالذهب وحزام مقصب يتدلى منهُ السيف وقبعة سوداء صغيرة لها خطوط ونحاسة لامعة في مقدمها شعار الدولة الاسوجيَّة وقفاز ابيض في اليدين . والناس يحترمون رجال البوليس ويصدعون باشارتهم وهم اصحاب علم وذوق وتربية مثل كل الاسوجيين فلا عجب اذا شمل النظام وعمَّ الامن واستراحت قلوب الناس في هذه البلاد من الهم والمشاغل

ويقال بوجه الاجمال ان هذه المدينة من مدائن الطبقة الاولى بجمال مناظرها الطبيعيَّة وغرابة وضعها وبهاء ضواحيها ولكنها باردة الهواء في اكثر فصول السنة ما خلا فصل الصيف وهولا يزيد فيها عن اربعة اشهر او ثلثة والماء يتجمَّد فيها مدة الشتاء فتصبح هاتيك البحيرات البهيَّة صفائح من الجليد يزحف عليها الناس بالقباقيب الدراجة ويعدُّ ذلك عند اكثر اهل الشمال من احسن ما يروّض الابدان ويسلّي العقول . هذا غير ان قرب اسوج من الشمال الاقصى يجعل اكثر ايام السنة فيها قصيرة والليل طويلاً فلا يزيد طول النهار في معظم ايام السنة عن ٦ ساعات لاسباب طبيعيَّة يعلمها القارئون وهو من غرائب البلاد وفي جملة محاسنها الكثيرة



فنلاند

اني قصدت زيارة هذه البلاد حبًّا في الاطلاع لانهُ لم يزرها من اهل الشرق قبلي رجال كتبوا عنها وليس فيها من المشاهد ما في غيرها من بلدان اوروبا ولم اكتب لها خلاصة تاريخيَّة كغيرها لانها لم تكن شيئًا يُذكر في الماضي وتاريخها ينحصر في حروب ومنازعات على امتلاكها بين دول الشمال الى ان صارت ملكاً للروس في اوائل هذا القرن وهي الآن ولاية روسيَّة ممتازة تعدُّ امارة مستقلة لها نظامات خاصة بها غير نظامات الدولة الروسيَّة وفي قاعدتها مجلس للشيوخ ومجلس للنواب يسنان ما يلزم لها من القوانين ويصدق عليها قيصر الروس رأساً . والبلاد واقعة بين روسيا واسوج وهي واسعة الارجاء منبسطة الارض كثيرة الجزر والخلجان وعدد سكانها قليل لا يزيد عن مليونين ونصف من اهلها الاصليين وهم من النوع التوتوني

وتكثر الاسماك الكبيرة والصغيرة في شواطئ فنلاند هذه بسبب موقعها الطبيعي وكثرة جزرها فتجارة السمك من اعظم مصادر الثروة في هذه البلاد والزائر يرى لاول وهلة اكواخاً كثيرة فوق صخور هائلة في وسط تلك الجزر يقيم فيها الصيادون اشهرًا ويأْتون بالزاد اليها حيناً وراء حين وقد ينبت فوق تلك الصخور اعشاب ويسمع عند الاكواخ خرير للماء المنحدر من المصايد وفي هذا كله شيء لا يراهُ السائح في غير بلاد فنلاند ويمكن للمسافر ان يراهُ في طريقهِ فان الباخرة التي

سرت فيها قضت ١٥ ساعة تشق عباب البحر في وسط تلك المناظر وهي تتعرج وتتقلب في ميلها بين تلك الجزر الكثيرة فاثر فينا ذلك المنظر الغريب الخاص ببلاد سحيقة قلما يسمع عنها الشرقيون شيئاً . وكان في الباخرة خادمات للمائدة من اهل فنلاند جميلات نظيفات الملابس حاسرات عن زنودهنَّ والمآكل تقدم مراراً للمسافرين ومناظر الخلجان والبحيرات والجزر تزيد غرابة في كل حين حتى انتهينا الى مينا هانكو وهي اول بلد في فنلاند قائمة على لسان داخل في البحر وفيها حمامات يقصدها الناس من داخلية البلاد في فصل الصيف. ولم نقف في هانكو الاَّ قليلاً ثم عادت الباخرة الى المسير وظلت سائرة ثماني ساعات اخرى حتى استقرَّ بها النوى في هلزنفورس وهي عاصمة البلاد

هلزنفورس

هي مدينة بناها جوستاقوس ڤاسا محرّر اسوج الذي مرَّ ذكرهُ سنة ١٥٥٠ وقد تقلَّبت عليها الاحكام كثيراً الى ان صارت من املاك الروس في سنة ١٨١٢ وعدَّت قاعدة الولاية من سنة ١٨١٩ ونقلت اليها المدرسة الجامعة من آبو سنة ١٨٢٧ . يبلغ عدد سكانها ستين الفاً وفيها عدة ابنية فاخرة مثل دار الولاية والمدرسة والثكنة العسكريَّة وسراي مجلس الشورى والمرسح والكنيسة الكبرى وغير هذا مما لا اتعرض لشرحهِ ووصفهِ لانهُ لا يختلف كثيراً عما تقدم ذكرهُ في المدائن الاخرى ولان البلاد هذه ليست بذات اهميَّة عند معظم القراء الشرقيين . وفيها ايضاً قصر امبراطوري امامهُ تمثال للقيصرة الكساندرا فيودوروڤنا نصب تذكاراً لزيارتها تلك العاصمة عام ١٨٣٣ والى جانبيهِ نسران روسيان .

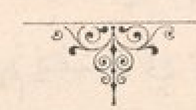
وفيها كنيسة مار نيقولاوس بنيت من حجر الصوان على مرتفع من الارض وقد جعلوا في اعلاها خمس قبات ملونة باللون الازرق السماوي وهو غاية في الجمال صعدت اعلاها على سلم ذات خمسين درجة من الحجر فاطليت على المدينة بكل انحائها وسرت بعد ذلك الى مجلس الامة وفي بنائهِ الفخيم اكثر مصالح الحكومة الاداريَّة والماليَّة وقد رأيت في احدى غرفهِ صور القياصرة الروسيين المتأخرين في براويز جميلة وهي كثيرة الجمال والانقان

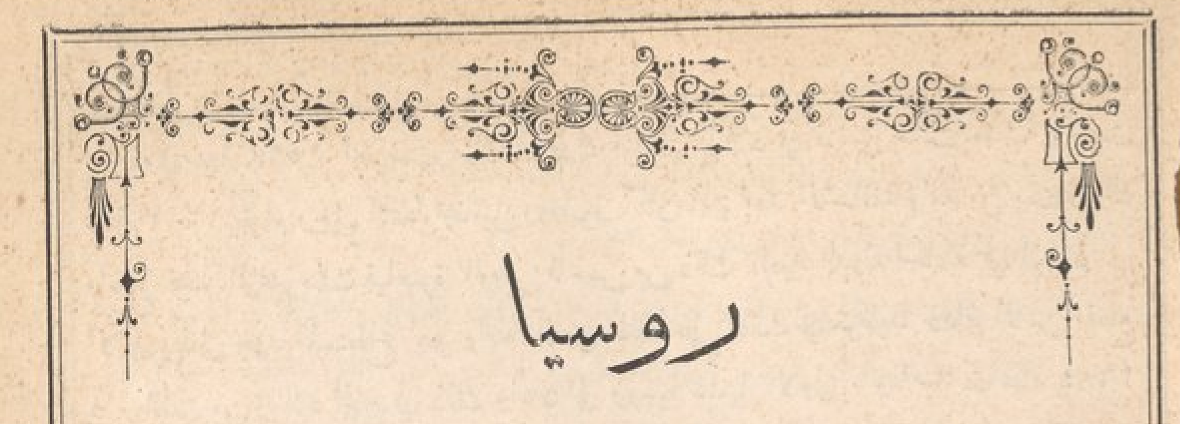
واشتهرت هذه العاصمة بحصون منيعة بنتها دولة الروس فيها وهي تمتد في البحر مسافة ثمانية آلاف متر وفيها تسعماية مدفع وستة آلاف جندي يزاد عددهم وقت الحرب . ومما يذكر عن هذه الحصون ان دولتي انكلترا وفرانسا ارسلتا الاساطيل لتدميرها سنة ١٨٥٥ اي مدة حرب القرم فلم تقوَ تلك الاساطيل على تخريب هذه الحصون العظيمة ولذلك اطلق عليها بعضهم اسم "جبل طارق الشمالي" اشارة الى جبل طارق الذي حصنهُ الانكليز عند مدخل البحر المتوسط في طرف اسبانيا الجنوبي وجعلوهُ اشهر المواقع الحربيَّة منعةً وتحصيناً . والحصون كلها مبنيَّة من الحجر مثل بقية ما في هذه المدينة من الابنية فان كل منازلها ومخازنها من الحجر لا يعلوهُ دهان ولكنهم يتفننون في ترتيب الحجر على الوانهِ ترتيباً يروق للناظرين ويجعلون بين كل صف من البناء والصف الآخر خطاً من الكلس الابيض فهي في ذلك تقرب من بيوت بيروت في بعض وضعها. وقد استخدموا الحجر ايضاً لرص الشوارع فترى ارض مدينتهم مبنيَّة بالحجر وهم يغسلونها كل يوم بالماء فتظل ابداً نظيفة تشرح بمنظرها الصدور وفي ذلك ما يقرب من شوارع ابردين ونظافتها وهي مدينة اسكوتلاندية سيأتي الكلام عنها في فصل بلاد الانكليز

أُواقمت في بلاد فنلاند هذه اياماً قليلة ثم برحتها قاصداً سلطنة الروس وهي

في جوارها فقمنا في باخرة جميلة جعلت تجتاز تلك الجزر الغريبة حتى اذا دخلت بحر البلطيق وانفسح لها المجال طفقت تتمايل وتضطرب من تعالي الموج وهياج البحر فقلت لربان السفينة ان اذا كان هذا حال البحر هنا مدة الصيف فكيف بهِ في الشتاء قال ان البواخر تنقطع عن المسير في الشتاء هنا لان البحر كلهُ يجمد ماؤهُ ويصبح سهلاً واسعاً من الجليد وقد صنعوا بواخر لها مقدم محدَّد كالسيوف يقطع الجليد من امام الباخرة ويفتح لها باباً للمرور ومسير هذه الباخرات صعب لا يخلو من الخطر فهم يعوّلون في السفر مدة الشتاء على سكك الحديد الممدودة بين البلادين

على ان البحر هدأ اضطرابهُ بعد ان سارت الباخرة قليلاً فلما اصبح الصباح التالي ظهرت لنا ارض روسيا ورست الباخرة في مينا كرونستاد وهي التي يجيء الكلام عنها مع ضواحي بطرسبرج





روسيا

خلاصة تاريخية

كانت روسيا بلاداً غير معروفة يسكنها اقوام محاربون اشتهر ذكر بسالتهم في تاريخ ايران واليونان والرومان ولكنهم عرفوا بالغلاظة ولم يكن بينهم رابطة ولا ائتلاف حتى قام امير اسمهُ رورك في سنة ٨٦٢ من قبيلة تعرف باسم روسن واشتهر بالحكمة فاستدعتهُ قبائل أُخرى للحكم عليها وعظم امرهُ فكان هو اول من بدأ بتشييد الدولة الروسية الحالية وأُطلق على رعاياهُ اسم روسيين نسبة الى قبيلة روسن من ذلك العهد. وتوارث الملك عن رورك امراء من نسلهِ وسعوا نطاق الدولة حتى قام ڤلاديمير الاول وادخل الديانة المسيحية الى البلاد في سنة ٩٨٨ ومن ذلك الحين ظهرت دولة الروس وصار لها علاقات مع الدول الاخرى ولكن سوء الحظ فاجأها لان مملكة بولونيا اغارت عليها وكسرت جنودها وامتلكت اكثر اجزائها وظلت البلاد تابعة لبولونيا الى القرن الثامن عشر. وكان الجزء الذي تعد موسكو قاعدتهُ قد وقع تحت حكم التتر من بعد ايام ڤلاديمير فظلَّ خاضعاً لهم والامراء الروسيون يعدون من الولاة التابعين لسلاطين التتر حتى اوائل القرن الخامس عشر حين استقلوا في ايام ايڤان الثالث سنة ١٥٠٥ وكانوا مدة سيادة التتر قد انفصلوا عن الاجزاء الاخرى انفصالاً تاماً فان الروسيين الذين خضعوا لبولونيا اعترفوا بسيادة البابا الدينية والذين خضعوا للتتر ظلوا تابعين للكنيسة الشرقية ثم اعلنوا استقلالهم وانفصالهم عنها مع بقائهم على عقائد الكنيسة الشرقية الارثوذكسية وكانت بلادهم تُعرَف باسم روسيا الكبرى او بلاد المسكوب وهي التي تغلبت بعدئذٍ على بقية الولايات الروسية وصيرتها دولة واحدة وبدأت بذلك من ايام ايڤان الثالث الذي ذكرناهُ فانها اتسع نطاقها وعظم شأنها من بعد القرن الخامس عشر وضمت اليها بعض اجزاء سيبيريا والولايات الروسية التي اخضعها التتر مثل كازان واستراخان وغيرها

وفي سنة ١٥٩٨ انقرضت سلالة رورك فوقعت البلاد في فوضى طالت مدتها وانتهت سنة ١٦١٣ بقيام رجلٍ اسمهُ ميخائيل رومانوف كان ابن احد الاساقفة وامهُ من بيت رورك واستلم هذا الزعيم ملك قياصرة الروس فأسس من ذلك العهد الدولة الحاكمة في البلاد الى الآن وبذل جهد المستطاع هو وابنهُ الذي خلفهُ على الملك في توطيد دعائم الامن وقطع دابر الفتن من البلاد فنجح في ذلك واعاد الى روسيا شأنها الاول . ولما جاءت سنة ١٦٨٩ قدّر للبلاد ان يتولى امورها رجل من اعظم رجال الدهر واكبرهم همة واوسعهم شهرة نريد بهِ بطرس المعروف باسم بطرس الكبير في التاريخ اظهر مقدرة تندر في الرجال وهو يومئذٍ فتىً في السابعة عشرة من عمرهِ وجعل همهُ الاول الوصول الى البحر الاسود وانشاء اسطول حربي وتجاري يدور في مينهِ فتوصل الى امتلاك فرضة ازوف وهي على ضفافهِ بعد عناء كبير ، ومن ثمَّ شرع في بناء اسطول يعاونهُ على ما يريد من الفتح ومهاجمة بلاد الدولة العلية وسكان اهل بلادهِ الى ذلك الحين لا يدرون من صناعة السفن شيئًا ولا مال في خزينة حكومتهِ يقوم ببناء السفن المطلوبة ففرض مالاً طائلاً على اشراف مملكتهِ وخدمة الدين فيها واستخدم اناسًا لجمع ذلك المال ثم سافر هو متنكرًا الى ممالك اوروبا التي اشتهرت بقوتها البحرية فاقام زمانًا في انكلترا والدنمارك على شواطىء البحار والانهار يعمل كعامل بسيط فقير في بناء السفن ويتعلم دقائق الصناعة والناس لا يعرفون من هو واذا عرفوهُ انتقل من مكانهِ وعاد الى التخفي حتى اذا اتمَّ المراد من ذلك عاد الى بلادهِ سنة ١٧٠٠ واستلم مهام الملك وبدأ بعمل الاسطول في البحر الاسود ثم اتفق مع ملك الدنمارك وملك بولونيا على محاربة اسوج واقتسام املاكها ولكن اسوج كان لها يومئذٍ ملك باسل هو كارل الثاني عشر فردَّ جموع المهاجمين وفلَّ جنود اعدائهِ غير مرة ثم حدث ما ذكرناهُ في تاريخ اسوج وعاد بطرس الكبير الى مهاجمتها فكسرها شرَّ كسرة في معركة بولتافا سنة ١٧٠٩ ونتج عن هذه الحرب ان عدة ولايات في الشمال والغرب اضيفت الى روسيا وصار لها الموانىء على بحر البلطيق فعظم شأن روسيا من بعد هذا النصر ولقب بطرس الكبير امبراطور روسيا جميعها وهو لقب القياصرة من آل رومانوف الى الآن

وانقطع بطرس الكبير بعد ذلك الى اصلاح داخلية بلادهِ فادخل اليها النظامات الجديدة المصطلح عليها يومئذٍ في ممالك اوروبا المتمدنة واصلح الجيش وادارة الاحكام والمحاكم والمالية وفتح الترع وبنى الجسور والطرق ووسع نطاق المتاجر وانشأ المدارس وابطل امتياز البطاركة الاروام في كنيسة بلادهِ فجعل نفسهُ رئيس الكنيسة الروسية ولم يزل القياصرة

رؤساء الدين في بلادهم الى الآن . وفي سنة ١٧٠٤ بنى مدينة بطرسبرج وسماها باسم القديس بطرس واسمهِ وجعلها قاعدة المملكة ولما مات في سنة ١٧٢٥ كانت روسيا في عداد الدول العظيمة مع انها لم تكن قبل ايامهِ على مثل هذا

وورث الملك عن بطرس الكبير امرأتهُ كاترينا الاولى ملكت عامين ثم ماتت وخلفها بطرس الثاني حفيد بطرس الكبير . ومات بطرس الثاني سنة ١٧٣٠ فخلفتهُ الامبراطورة حنه وهي ابنة ايفان اخي بطرس الكبير حدث في ايامها حروب كثيرة مع الدولة العلية لم تستفد منها روسيا شيئًا ولما حان اجلها اوصت بالملك لايفان حفيد اختها كاترينا وكان ايفان هذا اميرًا المانيًا من آل هانوفر لا يزيد عمرهُ يومئذٍ عن سنة اشهر ولكن الجيش الروسي لم يرضَ بهِ ملكًا فخلعهُ بعد سنة وعين اليصابات امبراطورة سنة ١٧٤١ وهي اصغر بنات بطرس الكبير . وحكمت هذه الامبراطورة الى سنة ١٧٦٢ حين تنازلت عن الملك لابن خالتها امير هولشتين وهو ايضًا الماني فرقي العرش وسمي باسم بطرس الثالث ولكنهُ اغضب رجال الدين وقواد الجيش ببعض امورهِ فخلعوهُ واقاموا مكانهُ الاميرة صوفيا اوغستا من آل انهلت زربست في المانيا فحكمت روسيا باسم الامبراطورة كاترينا الثانية او الكبيرة وهي ملكة مشهورة في التاريخ بالحروب الكثيرة التي حصلت بينها وبين الدولة العلية وكان الفوز في اكثرها لرجالها . واضيفت في ايام هذه الامبراطورة عدة ولايات ومدن الى روسيا من املاك الدولة العلية وفي ايامها ايضًا جزئت مملكة بولونيا وهي التي ملكت روسيا او بعضها حينًا من الدهر فلما ماتت سنة ١٧٩٦ كان ملكها عظيمًا ودولتها قوية ورثها عنها ابنها بولس الاول وكان مشهورًا بقبح الخصال وقبح الوجه ولهُ امور لا تنطبق على قياس وهو الذي سنَّ لائحة تقضي بحرمان السيدات من الملك في روسيا وكان لهُ ولع خاص بالوقوف امام المرآة زمانًا والتفرج على سحنتهِ فلما ثقل جورهُ على الناس تآمر بعضهم على قتلهِ وقتلوهُ سنة ١٨٠١ و بذلك بطلت الحرب بين روسيا وانكلترا التي كاد هذا الامبراطور يضرمها بسوء تدبيرهِ

وملك البلاد بعد بولس ابنهُ اسكندر الاول وهو من الملوك العظام لهُ شهرة في التاريخ بسبب تحالفهِ مع نابوليون الاول ومحاربتهِ لهُ بعد التحالف بسبب ما كان من طمع نابوليون . وكان هذا الامبراطور حكيمًا عادلًا عاقلًا تروى عنهُ المآثر الكثيرة وهو الذي كان السبب في سحق قوة نابوليون لانهُ لما دخل ذلك الفاتح بلادهُ تمكن من ردهِ وكسر جنودهِ ثم دخل باريس مع من دخلها سنة ١٨١٢ وقضى بابعاد نابوليون عنها وكان في آخر ايامهِ صديقًا لدولة الانكليز حميمًا . وتوفي اسكندر الاول سنة ١٨٢٥ فخلفهُ اخوهُ نقولا الاول وكان جبارًا

عظيم الخلقة شديد القوة يحكي الجبابرة الاول في قوة جسمهِ وكبرهِ ولهُ شهرة في البسالة وحب الاثرة لا تفوقها شهرة . وحدثت في ايام هذا الامبراطور عدة حروب منها ما كان مع بلاد ايران ونتج عنها استيلاء روسيا على ولاية اروان وما وراء نهر جيحون ومنها مع الدولة العلية ونتج عنها وضع حماية روسيا على الفلاخ والبغدان (رومانيا الحالية) وهي يومئذٍ من املاك الدولة العلية . ومنها مع بولونيا وهي حاولت استرجاع استقلالها فسحقها نقولا سحقاً وبطش بقواتها الى حد انهُ اقعدها عن كل حركة قادمة . ومنها مع المجر وهو استغاث بهِ امبراطور النمسا على قمع ثورتها وردها الى طاعتهِ فاعانهُ وارسل عليها جيشاً جراراً سحق ثورتها واخضعها اخضاعاً تاماً

وظلَّ نقولا الاول على المحاربة والفتح زماناً وهو لا يكتفي بما وصل اليهِ ونفسهُ الطماعة تتوق الى المزيد حتى انه لما ثار محمد علي والي مصر على الدولة العلية وعدها بالمساعدة على شرط ان يكون لدولتهِ الكلمة الاولى في الاستانة فتم لهُ ذلك . ثم اخضع دولة ايران لنفوذهِ وحملها على ارسال جيش يقودهُ ضباط روسيون لمهاجمة الهند فردهم الانكليز على الاعقاب

وجملة القول ان هذا الامبراطور العظيم كان جباراً وفعل فعال الجبابرة وسحق اُمماً كثيرة لولا فعلهِ لكانت الآن دولاً زاهرة وظلَّ بهِ الطمع الى ان عول على ابتلاع ممالك الدولة العلية واثار عليها حرباً عنيفة سنة ١٨٥٤ تعرف بحرب القرم ولم يزل خبرها يرن في الآذان ولما كانت انكلترا تخشى امتداد صولة الروس وصيرورة المراكز البحرية على البوسفور والبحر المتوسط الى يدهم جهرت بمضادتهم وانتصرت للدولة العلية وسعت في ضم غيرها الى هذا التحالف فانضمت اليها فرانسا ومملكة سردينيا وتحارب الفريقان زماناً اظهر فيهِ الروس والاتراك والانكليز والفرنسويون من اشكال البسالة والاقدام ما تعجز عن وصفهِ الاقلام. وانتهت حرب القرم بفتح سباستبول وهي فرضة على البحر الاسود في بلاد القرم التابعة لروسيا كان القيصر نقولا يظن انها لا تفتحها قوات الانس والجن وان جيشهُ لا يغلبهُ جيش في الوجود فلما انتهى الامر على غير ما أمل اضطرَّ الى عقد صلح لم تخسر منهُ روسيا شيئاً ولم تستفد الدول الاخرى بشيء غير رجوع روسيا عن الفتح زماناً. وضاق صدر القيصر نقولا من هذا الخذلان وهو جبار لا تذل نفسهُ ولا ترضى بغير النصر فمات بعد الحرب بقليل وخلفهُ ابنهُ اسكندر الثاني وهو يعدهُ البعض اشرف القياصرة نفساً لانهُ حرر الفلاحين في بلادهِ الواسعة وكان الفلاح الروسي بمنزلة عبد للاشراف فابطل ذلك النظام القديم وترك لهُ ذكراً حميداً في تاريخ البشر. وحارب

اسكندر الثاني الدولة العلية الحرب الاخيرة المشهورة سنة ١٨٧٦ فانتصر في اكثر المواقع وملك بعض الاراضي العثمانية وساعد بلغاريا على الاستقلال فاسمهُ مقرون بالاستقلال والحرية في جميع فعالهِ

وكان هذا القيصر جميل الوجه طلق المحيا شريف الملامح لم يقم بين ملوك الروس اجمل منهُ وجهاً ولا اطيب قلباً ولكنهُ بلي في آخر ايامهِ بفئة النهلست قويت وامتدت صولتها وكثر اعوانها وهم اعداء لهُ وللحكم الاستبدادي فقتلوهُ بقنبلة تفرقعت في طريقهِ سنة ١٨٨١ واسفت اوروبا لفقدهِ اسفاً كبيراً فورثهُ ابنهُ اسكندر الثالث وهو المشهور باسم "بطل السلام" كان ملكاً شريف الخصال طيب القلب سليم النية كبير الجسم عظيم القوة حكم بلادهُ بالعدل والانصاف وعمل على ترقيتها بانماء موارد الرزق فيها وتوسيع جوانبها بلا حرب ولا قتال فعظم شأن روسيا في بلادهِ وتودَّدت اليها الممالك وأُبرمت بينها وبين فرانسا محالفة مشهور امرها . واقترن هذا الامبراطور قبل ان رقي العرش بالاميرة داجمار ابنة ملك الدنمارك وهي اخت ولية عهد انكلترا وملك اليونان فكان يحبها حباً مفرطاً ويعمل برأيها في اكثر الامور وقد رزق منها القيصر الحالي واخاهُ ميشل وبنتين هما كسينيا وقد اقترنت بابن عمها الكسس واولغا وهي فتاة لا تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها . وتوفي هذا القيصر في ١ نوفمبر سنة ١٨٩٤

ورقي عرش القياصرة العظام بعد اسكندر الثالث بكر انجالهِ جلالة القيصر الحالي نقولا الثاني وهو شاب في مقتبل العمر اظهر الى الآن مقدرة في اختيار الوزراء وحباً للعدل ورغبة شديدة في ترقية مصالح بلادهِ فصارت روسيا بلا نظير بين الدول في قوتها ونالت من الامتياز في الشرق الاقصى ما لم تنلهُ دولة فانها ملكت بلاد منشوريا ووضعت حمايتها على كوريا وضمت بورت ارثر الى املاكها وهي فرضة عظيمة حصينة في شمالي الصين طالما تاقت نفس روسيا الى امتلاك مثلها ليكون لبواخرها مينا حصين لا يجمد الماء فيهِ ولم يمكن لها ذلك الاَّ في ايام قيصرها الحالي . وزادت قوات روسيا في البحر مدة الاعوام الاخيرة زيادة هائلة واتسعت متاجرها وقوي نفوذها وقد جال جلالة القيصر قبل توليهِ في الشرق والغرب مع اخيهِ الغراندوق جورج وابن خالهِ البرنس جورج امير كريت ورآهُ اهل هذه البلاد وسواها وكان اينما حلَّ يلقى من آيات الاحتفال والتعظيم ما لم يلقهُ سواهُ . وحاول رجل في بلاد اليابان ان يقتلهُ فانقذهُ البرنس جورج اليوناني ونال جزاء فعلهِ مالاً يتقاضاهُ كل عام وامارة كريت التي كان القيصر اول الساعين لهُ بها . وقد اقترن القيصر بالبرنسس اليس حفيدة

ملكة انكلترا واحب الحفيدات اليها وهي ابنة امير هس دارمستات من امراء المانيا ورُزِق منها ثلاث بنات وهو مشهور بحبهِ لاهل بيتهِ واقاربهِ جميعهم وقد عرف بحسن الخصال واشتهر في ايامهِ ارتباطهُ بفرانسا وزيارتهُ لها وزيارة رئيس الجمهورية وبقية الملوك العظام لهُ وتعاظم نفوذ روسيا في جميع الجوانب



نقولا الثاني قيصر روسيا

بطرسبرج

أسس هذه المدينة العظيمة القيصر بطرس الكبير على ما علمت في باب التاريخ وانتخب موقعها على نهر النيفا وهو يخرج من بحيرة عظيمة اسمها لادوجا على مقربة من موقع المدينة ويصب في البلطيق عند مدينة كرونستاد



بطرس الكبير

وكانت مدينة موسكو المشهورة عاصمة روسيا الى ذلك الحين فرأى بطرس ان بعدها عن بقيَّة انحاء اوروبا وعدم اتصالها ببلدان الغرب يضر ببلادهِ ولهذا انتخب موقع بطرسبرج ودعا اليها العملة الوفاً فكان يعمل في بناء المدينة نحو ٤٠ الف عامل مدة اعوام متوالية والاسوجيون يوالون الهجوم على ذلك الموقع فرأى القيصر ان يبني حصوناً ترد هجماتهم وتقي العمال شر فعلهم ولم يزل ذلك الموقع حصيناً مشهوراً باستحكاماتهِ هو كرونستاد التي مرَّ ذكرها

وبنى بطرس لنفسهِ كوخاً من الخشب في ذلك الموقع وابدلهُ بعد ذلك

بمنزل نخيم على ضفة النيفا فكان يراقب سير العمال ويرشدهم بنفسهِ ويدير امور المملكة من ذلك الموضع وكلما عسر عليهم امر فعلهُ بيدهِ حتى انهُ ليروى عنهُ انهُ جاءهُ عامل يشكو من ألم في ضرسهِ ويرجوهُ الاذن بالذهاب الى الطبيب فقام القيصر واقتلع ذلك الضرس بيدهِ حتى لا يغيب الرجل عن عملهِ زماناً ولم يزل الضرس محفوظاً في احد معارض العاصمة دليل اجتهاد هذا القيصر العظيم وكثرة مواهبهِ . وظلَّ الاسوجيون يهاجمون موقع بطرسبرج الى ان سحق بطرس الكبير قواتهم في معركة بولتاقا ومن ثمَّ تقدَّم العمل في بناء المدينة وتنظيمها حتَّى صارت من المدائن العظيمة وتقاطر السكان اليها من كل حدب بعيد

على ان تقاطر الناس للسكن في بطرسبرج لم يكن بغير عناء فان اهل موسكو وكيف وهما العاصمتان القديمتان لروسيا ما زالوا يحنون الى وطنهم ويذكرون ما فيهِ من الكنائس والاديرة ومدافن القديسين وهم اهل تقًى وورع مشهور كما يعلم القارئ فرأى القيصر ان يحوّل ميلهم الى مدينتهِ الجديدة بنقل عظام القدّيس نفسكي الذي يعتبرهُ المسكوبيون وليهم الاكبر من موسكو الى بطرسبرج وبنى لهذه العظام كنيسة وديراً عظيمين ومدرسة يتلقى فيها رجال الدين العلوم اللاهوتيَّة فمالت بعض النفوس الى الانتقال مع عظام هذا القدّيس وكان القيصر يلجأُ الى القوَّة في بعض الاحيان لنقل العائلات وتعمير العاصمة الجديدة. وحوَّل بطرس بعد موسكو نظرهُ الى كييف وهي العاصمة الاولى لروسيا فيها مدفن القدّيس اسحق الذي ادخل النصرانيَّة الى البلاد وكانت يومئذٍ اشهر مدائن روسيا بمعابدها واديرتها فبذل القيصر جهدهُ وبنى للمهاجرين منازل من الحجر وحظر على كل المدائن الروسيَّة ان تشيد منزلاً بالحجر حتى يتم بناء بطرسبرج وما زال على مثل هذا الجهد حتى عمَّر المدينة وغادرها حين وفاتهِ وفيها ٧٥٠٠٠ نفس ولم يكن هذا بالشيء القليل

وقتئذٍ ولكن المدينة ظلَّت على النماء والتقدُّم حتى اضحت الآن من اشهر عواصم الارض واكثرها جمالاً وفخامة واعظمها مشاهد وابدعها نظاماً ولا يقلُّ عدد سكانها عن مليوني نفس وهي مقرُّ البيت القيصري والفيلق الاول من الحرس الامبراطوري ومركز تجارة روسيا من ناحية البلطيق وليس في الارض مدينة تفوقها في القصور العديدة

واني وصلت هذه العاصمة العظيمة عن طريق كرونستاد الى فندق اوروبا وهو من الفنادق الفخيمة يمتاز عما سواهُ بتوسط مركزهِ ووقوعهِ في اشهر الشوارع اريد بهِ شارع نفسكي الذي سيجيء الكلام عنهُ وفيهِ من انواع المشاهد ما يعزُّ نظيرهُ . وقد اصبح موضع هذا الفندق محطة لقُطُر الترامواي وموقفاً للعربات الكثيرة نظرًا لاهميتهِ يجتمع فيهِ خلق كثير من السائحين ومن اهل المدينة وضباطها وهم كثار العدد وقد كان قربهُ من المتاحف والمشاهد التي سيرد ذكرها داعياً كبيرًا لتسهيل الرحلة عليَّ ودرس ما في بطرسبرج من آيات العظمة والاتقان. وكان وصولي في مدة الصيف على ما تقدم والصيف هنالك قصير مدتهُ ولبطرسبرج هواءٌ واحوال جوية غريبة فان هذه المدينة نظرًا لتطرفها في الشمال يطول زمان الشتاء فيها ويكثر البرد فتجمد مياهها ويصبح النهر والبحيرة الواحاً من الجليد تسير عليها العربات والجموع ومعظم القوم يلبسون الفرو الروسي المشهور مدة البرد ويتلثمون بانواع من القبعات كثيرة فلا يظهر منهم غير العينين اتقاءً للبرد ومضارهِ . واما الصيف فانهُ قصير الاجل لا يزيد عن ٦٦ يوماً في السنة اعني من ٧ يونيو (حزيران) الى ١٢ اوغسطس (آب) ولا يرى الناس في تلك المدة ظلام الليل الاَّ قليلاً لان النهار يطول والشفق يستمر معظم ساعات الليل فترى المدينة منيرة والشمس في كبد السماء عند الساعة الثالثة بعد نصف الليل والناس كلهم نيام لا

حركة في المدينة ولا صوت للساكنين كأنما انت في مدينة خلت من اهلها و يذهلك ذلك بقدر ما يذهلك ظلام المدينة مدة النهار في اشهر الشتاء فان نور الصباح لا يظهر هنالك في فصل البرد الاَّ قبل الظهر بساعة ويغيب عند الساعة الثالثة بعد الظهر فترى المدينة في حركة كبرى وجدٍّ كثير والنواحي كلها منارة بالمصابيح في وسط النهار وهنا موضع للاستغراب ومزية لمدينة بطرسبرج على بقية العواصم المشهورة

وقد بنيت هذه المدينة على نهر النيفا كما تقدم وهو عظيم الاتساع ولكنهُ ليس من الانهر الطويلة يختلف عرضهُ ما بين ٢٦٠ مترًا و ٦٥٠ وعمقهُ من ٣ امتار الى ١٦ وهو داخل في العاصمة يقسمها سبعة اقسام ولهُ فروع وتعاريج يتكون منها جزر تدخل في عداد احياء المدينة وتجعل لها رونقًا وبهاءً كثيرًا . وقد مدوا في داخل المدينة ترعًا كثيرة لا يقل عديدها عن ٢١ بني فوقها ١٥٠ جسرًا او قنطرة بعضها بالحديد والبعض بالحجر ولكلها نوع جمال ودقة في الصناعة يمرُّ فوقها الالوف مشاة وتجري العربات وقطر الترامواي واذا تجمد الماءُ من تحت هذه الجسور في الشتاء قلَّ مرور الناس عليها و كثر مشيهم على الجليد حتى ان العربات تجري فوق ذلك الماء المتجمد ولا خطر عليها من الغرق. واما بحيرة لادوجا التي يخرج منها هذا النهر العظيم فتعد من اكبر بحيرات اوروبا مساحتها ١٨٠٠٠ كيلومتر مربع وطولها ٢٠٠ كيلومتر وعرضها ١٥٨ وهي جميلة المنظر يذهب اليها الناس للنزهة على تلك البواخر الكثيرة التي تروح وتجيء بين بطرسبرج وسواها ولهذه البواخر تسعة خطوط ينشأُ عن السير فيها حركة دائمة تدل الى اهمية المدينة وعظيم شأنها . وليس يقتصر الامر على هذه الخطوط البحريَّة فان في مدينة بطرسبرج خمس محطات للسكك الحديدية يسافر منها الناس الى الضواحي وداخلية البلاد وفيها ٢١ خطًّا للترامواي

ترى عرباتها ملأى بالمتنقلين من هنا ومن هنا في كل حين وهي اذا اضيفت الى الذي تراهُ من العربات في هذه المدينة كانت شيئًا يفوق الحصر ولا عجب فان بطرسبرج مسكن الامراء الفخام واهل السعة ورجال الادارة والاحكام و كبراء المتاجرين وسراة الروسيين

ولما كانت هذه العاصمة حديثة النشأة وقد بنيت على النظامات الاخيرة فهي ممتازة بانتظام اكثر شوارعها واتساع طرقها وميادينها وعدم وجود التعوج والتعاريج في دروبها ويمكن ان يجتمع في ميدان واحد من ميادينها الكثيرة مائة الف نفس. وقد ساعدها على كل هذا وجودها في ارض منبسطة واتساع المجال من ورائها فاهلها ليسوا في حاجة الى الحفر والردم ولا ابدال الاسوار القديمة والحصون بالطرق والمتنزهات كما فعل غيرهم في مثل ڤينا و برلين و باريس واذا ارادوا التوسع في دائرة المدينة فعندهم ارض للضواحي عريضة طويلة من كل جانب فلا عجب بعد هذا اذا اشتهرت بشوارع عظيمة فيها مثل شارع نفسكي الذي تقدم ذكرهُ لانهُ اكبر ما في هذه العاصمة من الطرق المعروفة طولهُ نحو خمسة آلاف متر وهو يمتد في قلب المدينة من الشرق الى الغرب وفيهِ القصور الباذخة والمباني العموميَّة والكنائس الفاخرة والفنادق والمراسح والمخازن مملوءَة بانفس السلع واجود الابضعة فالناس ينتابون جوانبهُ الوفًا مؤلفة في كل حين ويتنقلون في الشوارع التي تتفرع منهُ لقضاء الحاجات الكثيرة وهنالك يحلو التمشي للزائر لانهُ يرى عاصمة الروس بابهى مظاهرها وجميع ما تحوي من انواع الساكنين — هنالك يرى الزائر العربات صفوفًا صفوفًا تجرها الخيل الروسيَّة المشهورة بكبر الخلقة وجمال المناظر ولا مثيل لها في خدمة العربات فهي يشتريها الناس لهذا الغرض من روسيا لجميع الاقطار ومعظم الجياد الكبيرة التي تدق الارض دقًا ولوقع حوافرها رنة وطنين يأْتي بها

التجار من تلك البلاد . ويكثر ان تمرّ هنالك عربات الامراء العظام من آل رومانوف وهم اصحاب الحكم في الدولة الروسيَّة لهم املاك في هذا الشارع كثيرة وعدد البيوت التي يسكنونها لا يقل عن ماية في بطرسبرج وضواحيها لانهم عائلة كبيرة ولا كثرهم قصرين او ثلثة ولهم رواتب من الدولة واراضٍ فسيحة تدر المال الوفير فاذا مرَّت عرباتهم في مثل شارع نفسكي وغيرهِ عرفها الناس من ملابس الساقة والخادمين فانها حمراء مزركشة بالقصب تحكي ملابس الغلمان الذين يقفون في خدمة العربات الخديويَّة في حفلات التشريفة الكبرى والناس اذا مرَّ بهم واحد من اعضاء العائلة القيصريَّة ابدوا الاحترام الكثير لان هذه العائلة العظيمة رفعت بلادهم الى اوج العظمة وامتاز افرادها بعلوّ النفس وكرم الاخلاق وسمو التربية حتى انهُ ليس في اوروبا كلها امراء يمتازون عن امراء الروس في حسن تربيتهم وعلوآدابهم وتمسكهم بالدين والفضائل

وليس يقتصر الامر على عربات الامراء والسراة واهل اليسار في شارع نفسكي فان عربات الاجرة المعروفة لا يقل عددها في تلك العاصمة عن ٢٤ الفاً وفيها فوق ذلك من اشكال الامنبوس والتراموای ما يعسر عدهُ . هذا غير ان الذين يخطرون في هذا الشارع لهم مناظر جميلة مختلفة الانواع ومن اهم انواعهم الضباط من جيش روسيا واساطيلها وهم يلبسون الملابس الفاخرة تختلف الوانها باختلاف الالايات التي يختصون بها و يغلب بينها اللون الاخضر الزيتي والقبعة السوداء تحكي الفرو في شكلها وهي تقرب من طرابيش الجراكسة في الجيش العثماني واما ملابس الرجال من الايات الحرس فتبهر الانظار بجمالها وكثرة زخارفها فانها تكاد تكون محاكة من القصب والذهب ومن فوقها خوذة صفراء تسطع وتلمع وقد وضع في اعلاها تاج صغير مطلي بالذهب وفوقهُ صليب من الفضة فلا تشبع العين

من النظر الى هذه الجنود وضباطها وهم كثار يخطرون او يمرون على ظهور الجياد فيستوقف منظرهم الابصار . ولا حاجة الى القول ان الجيش الروسي يمتاز بغير هذه الملابس ولهُ شهرة في البسالة والقوة لا تزيد عنها شهرة وقد تفردت هذه الدولة العظيمة بزيادة عدد الجنود الواقفة تحت السلاح في ارجائها الواسعة فهي مجندة الآن نحو ثمانماية الف جندي وفي وقت الحرب لا يعسر عليها ان تجند عدة ملايين من الرجال اذا لزم لها تجنيدهم وفي هذا دليل على القوة اوفر وايضاح لما تظهرهُ هذه الدول العظيمة من التقرب لدولة الروس ومحاذرة الوقوع في حربٍ معها

ويزيد منظر هذا الشارع جمالاً ان تلامذة المدارس الروسية يمرون فيهِ والعادة عندهم ان التلامذة يلبسون بدلاً تقرب من البدل العسكريَّة سواءٌ كانوا من تلامذة المدارس الحربية او سواها ولكل مدرسة نوع من البدل فاذا مرت بك فرقة من طلبة العلم حسبتها نفرًا من الجند وليس في بقية العواصم الاوربية مثل هذا النظام . هذا غير ان عمال الحكومة ومستخدميها الملكيين يلبسون ايضاً انواعاً معلومة من البدل لكل مصلحة او نظارة نوع خاص بها وقد اقتدت المصارف الكبرى والمحلات التجاريَّة الواسعة بمصالح الحكومة فجعلت تميز عمالها ببدل خاصة بهم فكيف اتجهت في عاصمة الروس رأيت اناساً يلبسون نوعاً لا يلبسهُ سواهم وزادت لذة التفرج على المارة في شوارع بطرسبرج بسبب هذا التنوع في الملابس والتفنن الذي يجهل الغريب سرهُ واما الواقف على الحقيقة فيمكن لهُ ان يعرف كل من مرَّ بهِ ببدلةٍ غير معتادة في اية المصالح هو وهذا ايضاً تمتاز بهِ بطرسبرج لا يقرب منهُ في المدائن الاوروبيَّة الاخرى الَّا ان يكون امتياز عمال البريد والتلغراف بالملابس الخاصة

ويرى المتأمل في هذا الشارع ايضاً عامة الروس وفلاحيهم يأتون من القرى

والضواحي بهيئتهم المعروفة فيزيدون منظر المدينة غرابة والفلاح الروسي يعرف بصفرة فوق بياض الوجه وقصر في القامة مع شيءٍ من السمن ولحية كثير شعرها وراس كبير يلبس الجبة الكبيرة وحولها منطقة من الجلد وحذاءً طويلاً يصل الى الركبتين فيفيده في السير على الجليد وخوض السواقي الكثيرة وقبعة من الصوف او الفرو تشبه الطربوش الجركسي وهو من ابسط الخلق حالاً واطيبهم قلباً واكثرهم ورعاً وتعبداً فقلَّ ان تلقى في الارض رجلاً يتمسك بدينهِ ويحترم رؤساءَ ملتهِ مثل الفلاح الروسي ولما كان القيصر رئيس الكنيسة الارثوذكسية في بلادهِ فالناس هنالك والفلاحون بنوعٍ اخص يحترمونهُ ويحبونهُ حب الرجل البسيط لمولاهُ ورئيس دينهِ وهذا سر عظمة القياصرة الروسيين وسبب صولتهم العجيبة ونفوذهم الغريب . هنالك ترى ايضاً النساءَ الفلاحات وهنَّ عنوان صحة الجسم وبساطة القلب يرتدينَ جلباباً بسيطاً من الشيت الاحمر ويعتصبنَ بمنديل احمر فيشبهنَ نسوة الشام في القرى منظراً وهنَّ يأتينَ مع الازواج لبيع الحاصلات في العاصمة او لمشترى الحاجات ويدرنَ في هذا الشارع حاملات صرراً من الملابس والزاد وهنالك ترى باعة الطعام يدورون بهِ منادين بلذتهِ ومحاسنهِ وآخرين يبيعون الاحذية او لعب الاولاد وفي بدء كل شارع قوم يبيعون الشاي وللروس ولع بشرب الشاي كما تعلم فهم والانكليز سواءٌ في استعمالهِ غير ان الانكليز يشربون الشاي مع اللبن والروس يؤثرون شربه بسيطاً او مع قليل من عصير الليمون . هذه كلها مناظر تعرض لك في شارع نفسكي اذا ما زرتهُ فتمثل لك حال الدولة الروسيَّة بكل فروعها وتريك الفلاح البسيط الحقير والامير النبيل الكبير وتبسط امامك درجات الحياة الروسيَّة كلها فتغنيك عن السياحة في داخلية البلاد وقلَّ ان تجد مثل هذه الاشكال المتنوعة في قلب مدينة عظيمة اوروبيَّة الاَّ ان يكون

في الاستانة العليَّة وهي مشهورة بكثرة الاجناس التي ترى فيها والقاهرة وهي عاصمة قطر جمع ما بين اهل الغرب والشرق والشمال والجنوب فترى هنا الاوروبي والاميركي في شوارع مصر يمشي والى جنبهِ اسود الوجه من سنار او دارفور وقليل مثل هذا في عواصم الاوروبيين

والذي يقف في هذا الشارع العظيم يمكن لهُ الوصول منهُ الى كثيرٍ من مشاهد بطرسبرج المشهورة . من ذلك كنيسة كازان (العذراء) الكاتدرائيَّة ولها شهرة ذائعة في الخافقين فانها قائمة على ١٣٢ عموداً ضخماً من الرخام تشبهُ عمد كنيسة القديس بطرس في رومه وقد بنيت على النسق الكورنثي وهو الذي تحيط بهِ اعمدة كهذه ولها قبة من النحاس الاصفر قطرها عشرون متراً وقد طليت بالذهب فكانما هي ذهب خالص بما تشع من الانوار وما يظهر لها من الجمال الساحر للانظار . والقبة هذه قائمة على عمد عدتها ستة وخمسون قوائمها وتيجانها من النحاس الاصفر المغشى بالذهب ايضاً وفي جدرانها اعلام غنمها الروس في حروبهم الكثيرة مع الاتراك والنمسويين والالمان والفرنسيس والايرانيين والى جانب هذه الاعلام مفاتيح المدن التي دخلها جيش الروس عنوةً وضعت كلها تذكاراً لفعال الابطال الذين غنموها وعنواناً على فخر الامة بجيشها الباسل . واما هيكل الكنيسة وايقونسطاسها فقد صنعا من الفضة الخالصة وفي الكنيسة صور للعذراء كثيرة ورسوم اخرى دينيَّة ولم يقتصر الروسيون على تحلية هذه الايقونات بالفضة والذهب بل هم رصعوها بحجارة الالماس الكبيرة (برلانتي) وهذا اتقان خاص بالروسيين دون سواهم

وفي هذا الشارع بعد الكنيسة المذكورة المكتبة القيصريَّة المشهورة وهي من اعظم مكاتب الارض في كثرة المجلدات ان لم تكن اعظمها فيها نحو مليون وستمائة

الف كتاب مطبوع واكثر من اربعين الف كتاب بخط اليد وثمانين الف رسم متقن لجوانب الارض وكل هذه النفائس الثمينة في خدمة الذين يطلبون العلم من اهل البلاد وساكنيها . وبناء المكتبة واسع فخيم لهُ طبقتان وقد قسم اقساماً جمة بعضها للكتب الدينية والبعض للكتب الفلسفية او الطبية او الرياضية او غير هذا من مواضيع العلم والمعرفة وقد رأيت فيها كتباً عربية قديمة العهد منها كتب بخط اليد ومنها ما هو مطبوع وتوراة يونانية من الجيل الخامس وجدها الاستاذ تشندورف في دير طورسينا . وفي المكتبة أيضاً معرض لادوات الكتابة من اول امرها الى الآن واول كتاب روسي طبع في هذه السلطنة وغير ذلك من التحف التي لا تعد . وقد اسس هذه المكتبة العظيمة القيصر بطرس الكبير وعُنيت القيصرة كاترنيا الثانية بتحسينها من بعدهِ فانت كيفما سرت في انحاء المكتبة ترى رسوم هذا القيصر وهذه القيصرة اقراراً بفضلهما واحياءً لذكر مآثرهما

والى جانب المكتبة هذه حديقة مشهورة في بطرسبرج تعرف باسم حديقة الكساندره انشأها القيصر اسكندر الثاني وجعلها تذكاراً لكاترينا الثانية وهي اعظم القياصرة بعد بطرس الكبير وقد نصب فيها تمثال هذه القيصرة في عنقها وسام القديس اندراوس اقدم وسامات الدولة الروسية وفي يمينها صولجان الملك وفي اليسار تاج ومن حولها تماثيل الرجال الذين اشتهروا بخدمة الدولة الروسية في ايامها سواءً في الحرب او في السياسة او في العلم والصناعة وكل ذلك صنع على اجمل نظام وبين اغراس وازهار بهية وطرق نظيفة مرصوصة بالحصى تزيد منظر تلك الحديقة رونقاً وبهاءً

وفي آخر هذه الحديقة مرسح الكساندره وهو من المراسح الكبيرة قائمٌ على عمدٍ كورنثية وله قاعة من داخلهِ تضم الفي سامع للتمثيل . وللروس ميل الى الروايات

الفرنسية فهم يستحضرون الاجواق الكبيرة من فرنسا ويدفعون اليها المال الطائل فوق الذين تمدهم بهِ الحكومة من الصلات . وليس يقتصر حب الروسيين على الروايات الفرنسية بل هم مغرمون باداب اللغة الفرنسيَّة كلها واهل الطبقة العليا منهم يتكلمون هذه اللغة كما يتكلمها اصحابها وهم يستعملونها في بيوتهم ومع بعضهم بعضاً كانما هي لغة اجدادهم ويقرأُون المؤلفات الفرنسيَّة كما يقرأُها اهل فرانسا انفسهم ويؤَلف كثيرون منهم بهذه اللغة ولا يجهلها غير الفلاحين والخدمة من الروسيين . وقد تأَصل فيهم هذا الميل من عهد بطرس الكبير الذي استعان باساتذة من الفرنسيس على تمدين بلادهِ وزاد من جيل الى جيل

وفي هذا الشارع قصور عديدة للامراء والسراة لا يستفيد القارئ من عدها واشهرها قصر نقولاي كان جلالة القيصر الحالي يقيم فيهِ مدة كان ولي العهد وينتهي هذا الشارع بدير نفسكي الشهير وهو مقام رئيس الاساقفة واعظم اديرة روسيا شهرةً وثروة يعدُّ احد الاديرة القيصريَّة وهي ستة ثلاثة منها في روسيا اولها دير نفسكي هذا والثاني في ترويستا والثالث في كييف وثلاثة في الخارج هي دير طورسينا ودير اورشليم ودير اثوس عند مدخل الدردنيل في بلاد الدولة العليَّة. ودير نفسكي هذا مبني على شكل حصن عظيم تحيط بهِ الخنادق والاسوار القويَّة وهو اغنى اديرة روسيا بما لهُ من الاوقاف وما فيهِ من الكنوز والذخائر بدأَ بهِ بطرس الكبير على مثل ما تقدم ووهبتهُ الامبراطورة اليصابات سنة ١٧٥٢ ما استخرج من الفضة مدة سنة كاملة من مناجم روسيا التي اكتشفوها وقتئذٍ فبلغ ذلك ١٨٠٠ كيلو واهديت اليهِ هدايا لا حصر لها ولقيمتها فزينت كنيستهُ بالذهب في اكثر جوانبها وعلقت فيها الايقونات الثمينة المرصعة وملئت جوانبها بالمصابيح الفاخرة والنقوش البديعة حتى ان منظر هذه الكنيسة في داخل الدير

ليعدُّ من اجمل ما تراهُ العين . والى يمين الكنيسة قبر القديس نفسكي الذي نقلهُ بطرس الكبير من موسكو وقد صنع القبر من الفضة الخالصة وفوقهُ انجيل مغشى بالفضة وصليب من الذهب وامامهُ شمعدانان كبيران من الفضة هبة القيصر اسكندر الاول وتحف اخرى لا محل لذكرها . وعيد هذا القديس من الايام المشهورة في روسيا تقام لهُ صلوات ويحضر القيصر بنفسهِ صلاة العيد في كنيسة هذا الدير واكثر الاحيان يتناول الغداء مع رئيس الاساقفة بعد الصلاة في منزلهِ الكائن داخل سور هذا الدير العظيم . وفي فناء الكنيسة مدافن لبعض امراء الاسرة القيصريَّة واشراف الدولة الروسيَّة وهو بوجه الجملة من المشاهد العظيمة في هذه العاصمة

على ان الذي مرَّ كلهُ لا يذكر في جنب القصر الشتوي المشهور وما لهُ من الاهمية الكبرى في مدينة بطرسبرج فان الواقف في الميدان المتسع امام هذا القصر الباذخ يرى اعظم المساكن لاعظم القياصرة ويرى متحف ارمتاج وقصر اركان الحرب ودار وزارة البحر وندوة الاعيان والمجمع المقدس وكلها تشرف على نهر النيفا حيث بني رصيف عظيم الى جوانبهِ سفارات الدول الكبرى وقصور الامراء العظام حتى اصبحت تلك البقعة مركز روسيا وقلبها ونقطة السؤدد والفخامة فيها فليس يخفى ان حكومة روسيا مطلقة غير مقيدة وللقيصر في امورها القول الفصل غير ان جلالتهُ يعمل في مهام الدولة برأي مجلس الاعيان وهو مركب من وزراء البلاد وكبرائها واصحاب الشأن الخطير فيها فيغني ذلك عن البارلمان او مجلس النواب . والمجمع المقدس يفصل في الامور الدينية كلها ولهُ رأي في المسائل الاداريَّة الكبرى ايضاً يرأسهُ القيصر كما انهُ يرأس مجلس الاعيان فلا عجب اذا قلنا ان القوة والعظمة في روسيا تنحصر في تلك البقعة التي بني فيها القصر الشتوي وماذكرنا من القصور الاخرى

ولطالما سمعت بشم هذا القصر وبدائع صنعهِ وتاقت النفس مني الى رؤيتهِ فاوصيت الدليل بعد استقراري في عاصمة الروس ان يأخذني اليهِ فقام بالامر وجاءَ في احد الايام باذن يمكن لنا بهِ دخول القصر وهو ذات ابواب ومداخل عدة منها ما خصَّ بآل البيت القيصري ومنها ما اعدَّ لسفراء الدول ومنها باب لوزراء الدولة الروسيَّة وقوادها يدخلون لقضاء المهام وتلقي الاوامر العالية ومنها باب لعامة الناس والسائحين دخلناهُ والهيبة ملء الفؤَاد لما رأينا من عظمة البناء في خارجهِ فان القصر هذا واسع عظيم الهيئة لهُ اربع طبقات بنيت كلها على عمد متناسقة من الرخام وفوق عمدهِ ونوافذهِ وابوابهِ آيات من النقش والزخارف وضعت على نسق ترتاح لمرآهُ النفس ويحدث بعظمة البانين و بالمال الطائل الذي انفق على تشييد مثل هذا البناء الفخيم وارتقينا من ذلك الباب سلماً عريض الذرى صنعت كلها من الرخام الابيض النقي حتى انتهينا الى بهوٍ عظيم يعرف بقاعة اسكندر وهي قاعة فسيحة نخيمة قامت على عمدٍ من الرخام يتوج كل عمود منها نقش دقيق وقد اعدت من عهدٍ بعيد لذكر مجد الدولة الروسية في الحروب واحياء الذكر لابطالها وقوادها المشهورين ففيها ٢٥٠ صورة محكمة الصنع تمثل اولئك القواد من ايام القيصرة كاترينا الثانية الى هذا العهد وهنالك يستقبل القيصر امراء البحر وقواد الكتائب من رجال اسطولهِ وجيشهِ فيرى القادم صورة اولئك الرجال وصوراً اخرى تمثّل بعض الحوادث العظيمة مثل دخول الروس مدينة برلين سنة ١٧٦٠ و باريس سنة ١٨١٢ وحصار وارنا سنة ١٨٢٨ واستيلائهم على ارضروم سنة ١٨٢٥ وغير هذا من الحوادث التي يفخر الروس بمثلها. وفي صدر هذه الرسوم كلها رسم بطرس الكبير بقدهِ الطبيعي وضع في برواز غالي الثمن وكل ذلك يذكر الرائي بمجد الامة الروسية وفعال ابطالها في الحروب

وقاعات هذا القصر العظيم اكثر من ان تعد هنا ولا مجال لوصف شيء منها غير القليل اذكر منها قاعة الكساندرا كلها بيضاء مذهبة لمنظرها تأثير يفرح النفوس وينعش الصدور وقد زاد بهاؤُها في ان ادوات النور من الشمعدانات والثريات فيها صنعت من اللازورد الغالي الثمن ومقاعدها وكراسيها محلاة بالذهب الوهاج وملبسة بالحرير الابيض من احسن انواعهِ . وتليها قاعة بطرس الكبير وهي حمراء اللون كسيت جدرانها ومقاعدها بالمخمل الاحمر وفيها رسم هذا القيصر العظيم تحيط بهِ الملائكة وشعار الدولة الروسية صنعت بماء الذهب ولها منظر فائق الجمال. وفي صدر هذه القاعة عرش القياصرة وهو مقعد كبير من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة لا يقعد فيهِ القيصر الاَّ مرة او مرتين في العمر . وقد اعتاد القياصرة في المدة الاخيرة استقبال سفراء الدول في هذه القاعة في رأس السنة وهو الاستقبال الذي يقول فيهِ القيصر شيئًا عن سياسة الدول ويرنُّ صداهُ في كل اقطار الارض

ومن هذه القاعات العجيبة قاعة القديس جورجيوس قائمة على عمد من الرخام بديعة وفيها الثريات والمصابيح العديدة وهم يحتفلون بعيد هذا القديس في القاعة المذكورة كل عام . وقاعة الرقص كلها زخرف ومرائي نقية وهي قائمة على ستين عمودًا مذهبة القواعد والرؤُوس ولها ارض من خشب الورد المصقول يحكي المعدن اللماع في صقلتهِ . وقاعة الطعام يمكن ان يتناول الطعام فيها ٣٠٠ نفس وفيها خزائن وضعت ضمنها الآنية الفاخرة من الصيني النادر المثال والبلور الثمين والاشياء المصنوعة من الفضة والذهب وفي جملتها ممالح اهديت الى قياصرة الروس من الامراء الخاضعين لهم ولم يزل القياصرة يقتبلون يوم تتويجهم خبزًا وملحًا من رعاياهم علامة الخضوع وهي عادة قديمة تمسكوا بها ومن طبعهم الاحتفاظ بالقديم والنفور من التغيير السريع

ودخلت بعد هذا قاعة كان القيصر اسكندر الثاني الذي قتلهُ النهلست يتناول الطعام فيها وعلمت يومئذٍ قصة يعدها بعض الروسيين من غرائب العناية الالهية بذلك القيصر فان النهلست وهم فئة من اهل البلاد يكرهون العائلة المالكة وحكمها ويكيدون لها المكايد قصدوا قتل اسكندر الثاني بنسف هذه الغرفة بالديناميت مدة وجودهِ فيها ونجحوا في امرهم الى حد انهم وضعوا الديناميت تحت اساسات الغرفة التي يقيم فيها الحرس وهي واقعة تحت غرفة الطعام التي نحن في شأنها فنسفت غرفة الحرس وقتل من هؤلاء الخدام الامناء سبعة عشر رجلاً والغرفة التي كان جلالتهُ فيها تهدمت برمتها وتحطم كل ما فيها ولم يسلم من هذا الهول الأ شخص القيصر فكان ذلك داعياً للاستغراب والشكر الكثير . ولكن هؤلاء الاشرار ما زالوا يعملون على الايقاع باسكندر الثاني حتى قتلوهُ في الطريق يوماً خرج فيهِ لزيارة شقيقتهِ وكان من عادتهِ الاشتغال في غرفة بهذا القصر بسيطة الرياش والادوات فابقوها على حالها الى الآن ودخلتها فاذا بالمنضدة التي كان يجلس اليها وعليها اوراقهُ كما تركها يوم اغتيالهِ وكرسي من الخشب لهُ مقعد من الجلد يدور مع القاعد كيفما اراد وقد وضع امام المنضدة ووجههُ الى ناحية الباب كما تركهُ صاحبهُ ساعة خروجهِ وهنالك شمعتان ذاب نصفهما وسجارة أُشعل طرفها وورقة بدأ القيصر بالكتابة عليها ولم يكملها والكل في حالة تمثل لك اسكندر الثاني كانما هو باقٍ الى اليوم وقد خرج وترك غرفتهُ على هذه الحالة ليعود اليها بعد حين

وقصدت بعد ذلك الحمام التركي في داخل القصر وهو على شاكلة الحمامات الشرقيَّة التي يكثرون من بناء مثلها في اوروبا ويطلقون عليها اسم الحمامات التركيَّة فرأيت على بابهِ اشعاراً تركيَّة وستاير عليها كتابات بمعنى نعيماً وهنيئاً والحمام كلهُ

آية في الاتقان والجمال بني اكثره من الرخام الابيض الثمين

والعائلة القيصرية قدوة للامة الروسية كلها في الورع والتدين فلا يفوت افرادها حفلة عامة للصلاة ولها تمسك بالدين الارثوذكسي مشهور حتى ان امراء الروس لا يجوز لهم الاقتران باميرة غير ارثوذكسية ولا بدَّ للاميرة الاجنبية من اعتناق المذهب الارثوذكسي قبل الاقتران بواحد منهم وهذا الذي جرى لجلالة القيصرة الحاليَّة والقيصرة الاخيرة وكثيرات غيرهما . فلما كانت هذه منزلة العبادة عندهم فهم اقاموا في داخل القصر الشتوي الذي نحن في شأنهِ كنيسة بنيت على اسم العذراء تقام فيها صلوات عامة في بعض المواسم والاعياد الكبرى وقد وضعوا على باب هيكلها صورة للعذراء ثمينة مرصعة بالالماس والياقوت والزمرد وبعض هذه الحجارة يساوي الوفاً من المال. وهنالك خزانة غالية الثمن وضعت فيها عظام يقولون انها بعض عظام مار يوحنا المعمدان ومريم المجدلية وقد ارسلت الصورة والعظام هذه الى قياصرة الروس من فرسان مالطه المشهورين اعترافاً منهم بفضل القياصرة على اهل النصرانيَّة عامةً . ويحتفل في هذه الكنيسة بقداس عظيم يوم عيد الغطاس من كل سنة يحضره القيصر وامراء البيت القيصري وكبراء السلطنة ورؤساء الدين وقواد البر والبحر وبعد الصلاة يسير القيصر في جمع غفير من الشعب ورجال الحرس الامبراطوري الى نهر النيڤا وتنصب فوق الجليد مظلة كبيرة يحتفلون تحتها بصلاة يحمل فيها رئيس الاساقفة صليباً يغطسهُ في الماء المصلى فوقهُ ويرش بهِ القيصر واعضاء عائلتهِ وبقية الحاضرين ثم يأخذ كل واحد شيئاً من ذلك الماء المصلى فوقهُ في زجاجةٍ ويبقيهِ في بيتهِ للتبرك وقد رأيت منهُ زجاجة في غرفة القيصر نقولا الاول باقية في هذا القصر من ايام الامبراطور المذكور

واجمل ما في هذا القصر العظيم واثمنهُ قسم منهُ خصص لجواهر القياصرة

ونفائس التحف النادرة المثال وقد وضعت هذه المجوهرات الثمينة في غرفةٍ متينة ابوابها من حديد يقوم بحراستها اثنان من ضباط الحرس الامبراطوري فاذا أُذن لاحد الناس بالدخول اليها دخل معهُ الضابطان واوصدا من ورائهِ الابواب فيرى من غالي الحجارة الثمينة ما يبهر الانظار ويسحر الافكار في جملة ذلك حجر من الالماس عظيم القدر والقيمة قيل انهُ كان في عين معبود للهنود في مدينة دلهي اسمهُ المغول الكبير وكان في العين الثانية الحجر المشهور باسم "كوهِ نور" اي جبل النور وهو الآن في حوزة الدولة الانكليزيَّة والحجران من اثمن جواهر الارض طرًّا واعظمها جمالاً. ويقال في كيفية وصول ذلك الحجر الى قياصرة الروس ان هنديًّا سرقهُ من عين الصنم وفرَّ بهِ الى مدينة مالابار في جنوبي الهند فلقيهُ ربان لسفينة بورتغاليَّة واشترى الالماسة منهُ بالفي جنيه ولما عاد الى اوروبا باعها لتاجر اسرائيلي باثني عشر الف جنيه وباعها التاجر لصائغ ارمني في مدينة امستردام بهولاندا وهي مشهورة من قدم بصناعة الالماس وطرائق قطعهِ ونحتهِ وصقلهِ وكان هذا الصائغ الارمني روسي التبعة اسمهُ لازاريف فعرف بالامر الكونت اورلوف وهو يومئذٍ من كبراء الدولة الروسيَّة واصحاب الثروة الطائلة فيها فاستقدم اليهِ الصائغ واشترى الجوهرة منهُ بنصف مليون ريال روسي ومعاش سنوي لذرية البائع مقدارهُ الفا ريال. ثم حمل الكونت ذلك الحجر الى القيصرة كاترينا الثانية وقدمهُ هدية لها ووزنهُ ١٥٨ قيراطًا فهو من اكبر الجواهر حجمًا ووزنًا. وللحجر الآخر الذي كان في عين الصنم بدلهي قصة اخرى تحكي هذه فان الفاتحين من ملوك ايران مثل نادرشاه ومحمود الغزنوي استولوا عليهِ مدة ثم عاد الى قبضة سلاطين دلهي حتى اتيح للانكليز دخول الهند والاستيلاء على بعض خزائنها فكان هذا الحجر الثمين اكبر ما احرزوا من الجواهر واعظمها فارسلوهُ الى امستردام ليضلع ويقطع. وكان الامير الهندي

دوليب سنغ الذي أُخذ هذا الحجر من خزائنهِ بعد ان طرده الانكليز من مملكتهِ لا يتحسر على شيءٍ قدر تحسرهِ على تلك الجوهرة الثمينة واشتهر هذا الامير بالتجائهِ الى روسيا وعمل الدسائس الكثيرة ضد انكلترا فلما اخفق سعيهُ ورأى ان الحكمة في التسليم للقوة طلب الصفح من الملكة فكتوريا فصدر امرها بالعفو عنهُ ولما جاء لمقابلتها بعد العفو قال لها اني ارجو جلالتكِ في امرٍ صغير قالت ما هو قال ان تسمحي لي بنظرة من كوهِ النور او هي تلك الالماسة العظيمة فاني اشتاق لرؤيتها اكثر من شوقي لرؤية الوطن والخلان فامرت الملكة باحضار الجوهرة وقدمتها لهُ فاخذها بيدهِ وجعل يقلبها ويعجب بباهر نورها ثم ردها الى الملكة قائلاً اني بكل احترام اقدم هذه الهديَّة العظيمة الى امبراطورة الهند وملكتي المعظمة فقبلتها الملكة باسمة شاكرة وانصرف الرجل . وابن هذا الامير الهندي اسمهُ البرنس فكتور دوليب سنغ ربي في انكلترا واقترن بابنة اللورد كوفنتري احد اشراف الانكليز من عهد غير بعيد وجاء القطر المصري متنزهاً غير مرة

على اننا في حكاية الجواهر التي رأيناها في خزائن القصر الشتوي العظيم فمنها ايضاً تاج قيصري صنع سنة ١٧٦٢ وتوجت بهِ الامبراطورة كاترينا الثانية في اعلاهُ صليب مرصع بحجارة الالماس النقي كبيرة بحجم البندق والنور يسطع منها شعاعاً شعاعاً وقد وضع هذا الصليب فوق ياقوتة حمراء كبيرة فاخرة يحيط بها ١١ حجرًا من الالماس النقي . وعند حافة التاج مما يلي الجبين لؤلؤة عظيمة المقدار يحيط بها ٢٦ حجرًا من الالماس وفيهِ جواهر اخرى نسقت تنسيقاً بديعاً حتى اصبح ذلك التاج مجموع جواهر كأنما هي مصابيح تتوقد انوارها وجمالها يفوق الوصف ولا عجب فان ثمن هذا التاج الغريب خمسة ملايين ريال وقليل بين تيجان الملوك ما كان مثلهُ . وفي جملة هذه المجوهرات كرة من الذهب الخالص تمثل الكرة

الارضيَّة فوقها صليب مرصع باثمن الجواهر يحملها القياصرة في اليسار يوم تتويجهم كما يحملون صولجان الملك في اليمين . هذا غير المجوهرات والحلى والحجارة الاخرى التي اشتراها امراءُ الروس وقياصرتهم او اهديت اليهم وهي محفوظة في هذا القسم الثمين من القصر الشتوي الذي لا يفوقهُ قصر في اوربا كلها في جمال متاحفهِ و كثرة كنوزهِ ونخامة بنائهِ واتساع قاعاتهِ و بدائعهِ الاخرى

وقد اطلت المقال في وصف هذا القصر وصرت اخشى ان يعتري القاري الملال ولولا ذلك لاسهبت في وصف حديقتهِ الغريبة وهي في الطبقة الثانية من البناءِ وفي ذلك غرابة لا تخفى . يكفي ان يقال اني قضيت هنالك ثلاث ساعات متواليات انتقل من غرفة الى غرفة فلا ارى شيئًا الاَّ قلت هو ابدع ما نظرت من نوعهِ حتى اذا بصرت بغيرهِ زدت اعجابًا فوق اعجابي الكثير وما خرجت من ذلك القصر الفخيم الاَّ وفي النفس رهبة لعظمة القياصرة وطرب بجمال ما رسخ في الذهن من المناظر الشائقة واعجاب بما وصلت اليهِ يد الصناعة الدقيقة وما تمكن سادة هذه السلطنة من جمعهِ في تلك القاعات وهو شيءٌ يعجز عن مثلهِ كبار الملوك وتقصر عن امتلاك بعضهِ الدول الكبيرة . كل هذا وهم يقولون لك ان بين قصور القياصرة ما هو اعظم من هذا وافخم مثل قصر بترهوف وقصر تسارسكوي سيلو مما سنعود الى ذكرهِ

والى جانب القصر الشتوي متحف للصور عظيم يعرف باسم ارمتاج وهو بناءٌ نخيم ملتصق بالقصر المارّ ذكرهُ طولهُ ١٥٦ مترًا وعرضهُ ١١٣ وجهتهُ الشمالية تشرف على نهر النيفا والجنوبيَّة تطل على ميدان القيصر. ودخلنا هذا المتحف من باب قائم على عمد من الرخام عدتها ستة عشر والبناءُ كلهُ فيهِ من هذه العمد الجميلةماية واربعة وهو مشهور من قدم عني قياصرة الروس بامرهِ واحدًا بعد واحد

واحضروا اليهِ اثمن ما امكن لهم امتلاكهُ من الصور البديعة حتى بلغ عدد رسومهِ الآن ٢٠٠٠ صورة من صنع اشهر المصورين في اوروبا انفق عليها مال طائل من ذلك ان كاترينا الثانية وهي مؤسسة هذا المتحف اشترت سنة ١٧٦٣ مجموع صور من تاجر الماني عددها ٣١٧ ودفعت ثمنها مايتي الف ريال . وكان الرجل قد جمع هذه الصور ليبيعها لفريدريك الكبير ملك بروسيا فما قدر الملك على ابتياعها بسبب ما انفق من المال على الحرب . واشترت هذه الامبراطورة بعد ذلك مجموعة المار كيز كروزات احد رجال البلاط الفرنسي في دولة الملك لويس الخامس عشر ومجموعة روبرت وولبول الانكليزي باربعين الف جنيه. واشترى القيصر اسكندر الاول مجموعة من جوزفين زوجة نابوليون الاول بمليون فرنك ونقولا الاول اشترى صورة واحدة للعذراء من صنع روفائيل المشهور بمبلغ ثمانية آلاف جنيه ومن هذه الامثلة تعلم مقدار ما في متحف ارمتاج هذا من الصور الثمينة . وقد قسمت الرسوم اقساماً ووضعت في مواضع مرتبة وطبعت لها جداول وكتب وهي كثيرة الاشكال لا يمكن الاشارة اليها بغير الايجاز لا سيما وانها تحكي ما في المعارض الاخرى للصور من رسومٍ تمثل حوادث التوارة والانجيل اذكر منها صورة احتراق سدوم وعمورة وقد انقضت عليهما النار من السماء انقضاضاً هائلاً اشعل جوانبهما وارجف اهلهما خوفاً حتى انك لترى الاولاد وقد تولاهم الرعب فارين ممسكين باذيال والديهم والرجال ينظرون الى السماء وقد تفطرت قلوبهم جزعاً وخوفاً . ومن ذلك صورة فرار لوط واهل بيتهِ من هذه النار المحرقة بناءً على ما اوحي اليهِ وهي مما يمثّل للناظر حالة الناس في تلك الحوادث المشهورة ويزيدها رسوخاً في الاذهان . وهنالك صور معارك وحوادث معروفة واشخاص نوابغ ومناظر طبيعيَّة تنشرح لجمالها الصدور

وليس يقتصر الامر في هذا المعرض على الصور والرسوم بل ان في الدور الاول منهُ تماثيل واشكالاً تمثل تاريخ الامم القديمة وهي كثيرة لا موضع لوصفها . وفيهِ قسم للآثار اليونانيَّة القديمة اكثروا فيهِ من وضع الادوات والآلات البيتيَّة بعضها من الفضة وبعضها من الذهب. وفي المعرض ايضاً قسم عظيم للنقود لا يقل مجموع القطع التي عرضت فيهِ عن مايتي الف قطعة قسمت الى روسيَّة واجنبيَّة وقديمة وحديثة . فالقسم الروسي فيهِ جميع انواع النقود الروسيَّة من اول عهدها الى هذا اليوم والقسم الاجنبي فيهِ نقود الممالك الغربيَّة والممالك الشرقيَّة وللنقود القديمة عندهم شأن عظيم

ويلحق بهذا المعرض العظيم معرضان آخران احدهما على اسم بطرس الكبير والثاني على اسم كاترينا الثانية وقد وضعوا في المعرضين شيئاً كثيراً من آثار هذين المليكين العظيمين لا سيما الذي صنعهُ بطرس الكبير بيدهِ او كان يستعملهُ مدة حياتهِ من ذلك علب للسعوط بعضها من الخشب البسيط وبعضها من المعادن الثمينة مرصع بالحجارة الكريمة وادوات رياضيَّة زاول العمل بها اعواماً طويلة ومركبة من صنعهِ وقفص داخلهُ شجيرة فوقها ديك والكل من ذهب وغير هذا شيءٌ كثير. واما الاشياءُ المحفوظة في معرض كاترينا الثانية فاكثرها ملابس وآثار من ايام تلك الملكة العظيمة

وخرجت من هذه المتاحف الى ميدان القصر وهو واسع بعيد الاطراف فارتحت الى منظرهِ الفسيح بعد التنقل بين الآثار العديدة كل تلك الساعات الطوال وفي هذا الميدان عمود للقيصر اسكندر الاول اقامهُ القيصر نقولا الاول سنة ١٨٣٤ تذكاراً لسلفهِ وهو من انخم الاعمدة التي نصبت لمثل هذه الغاية واطولها كلهُ من الرخام الاحمر المصقول جاؤُا بهِ من بلاد فنلاند وقاعدتهُ رخام ابيض

بهي المنظر وفي اعلاهُ كرة من النحاس كبيرة ملبسة بالذهب وفوقها رسم ملك باسط جناحيهِ وقد رفع يداً الى السماء وامسك باليد الاخرى صليباً كبيراً من النحاس المذهب . ولذلك الميدان بهاءٌ يزيدهُ بهاءً القصور المتجمعة حولهُ من مثل القصر الشتوي وهذه المتاحف وقصر اركان الحرب وهو بناءٌ فخيم ذو ثلاث طبقات لها ٧٦٨ نافذة تطل على الميدان . وفي جوانب هذا البناء وزارة المالية ووزارة الخارجية " والدفترخانة " الروسية وهي جامعة لشيءٍ كثير من الاوراق الرسميَّة والتقارير عن الحروب الحديثة . ومن تحت هذا البناء سرداب واسع وباب كبير يمكن الوصول منهُ الى شارع نفسكي وفوق الباب تمثال مارس اله الحرب صنع من النحاس تجر مركبتهُ ستة من الجياد. وقد دخلت وزارة البحرية فالفيتها قصراً باهياً باهراً دهن باللون الاصفر في خارجهِ ما خلا الاعمدة والاركان فانها بيضاء وفي اعلاه نُصُب واعلام قيصرية وتمثال بطرس الكبير مؤسس هذه الوزارة يتناول من نبتون اله البحر خطافاً مثلث الزوائد وفوق الباب برج علوهُ ٧٥ متراً في اعلاهُ سهم مذهب يناطح السحاب وينتهي السهم بشكل تاج ومركب . وفي هذه الوزارة غير المواضع المعدة للاعمال الرسميَّة غرف للمدرسة البحريَّة ومكتبتها ومتحفها وفيها رسوم بحريَّة لا تعد ترى في اولها رسم بطرس الكبير وبعض السفن التي صنعها بيدهِ وصورتهُ في معركة ازوف البحريَّة التي اشرنا اليها في الخلاصة التاريخيَّة وغير هذا كثير

وسرت من هذه الوزارة الى ميدان بطرس الكبير فرأيت فيهِ تمثالهُ العظيم الذي اقامتهُ كاترينا الثانية واستقدمت لصنعهِ مهندساً فرنسياً اسمهُ فالكونه فرسمهُ راكباً جوادهُ وعلى رأسهِ اكليل الظفر يهمز جوادهُ ملتفتاً الى نهر النيفا وقد مدَّ يدهُ الى ناحية المدينة التي انشأها والجواد واقف على قاعدة من الرخام عظيمة الاتساع

يتقهقر الى الوراء ويدوس تيناً تحت رجليهِ . وقد لزم لهذا التمثال الكبير قناطير مقنطرة من النحاس وبلغت نفقاتهُ اكثر من مليوني ريال روسي وهو اكبر تمثال من نوعهِ في عاصمة الروس

وعلى مقربةٍ من هذا الميدان الكبير نادي مجلس الاعيان وهو الذي اشرنا اليهِ قبل وهنا يجتمع امراء المملكة وكبراؤُها للنظر في الشؤُون العامة تحت رئاسة القيصر او من يقوم مقامهُ . وفي قسمٍ من هذا البناء نادي المجمع المقدس وهو كما قلنا قبل الآن يفصل في المسائل الدينيَّة الخطيرة ورئيسهُ القيصر ايضاً . والبناء كلهُ على شاكلة القصور الاخرى التي ذكرناها فلا اتعب القارئَ بوصفهِ ولا اطيل عنهُ الكلام

وقد ذكرنا ان في شارع نفسكي كنيسة كازان واشرنا الى بعض ما فيها . ولكن في بطرسبرج كنيسة اخرى لها شهرة قديمة لا تقل عن شهرة اعظم الكنائس الروسيَّة هي كنيسة مار اسحق ويسمونهُ اسحق الدلماسي لانهُ جاءَ من دلماسيا في بلاد المانيا وكان هو اول من بشر الروس بالانجيل وهداهم الى النصرانيَّة على عهد فلاديمير كما رأيت في الخلاصة التاريخيَّة فبنوا هذه الكنيسة على اسمهِ وجعلوها من اعظم الكنائس وافخمها وكان البادئُ في بنائها القيصر اسكندر الاول وضع الحجر الاول فيها سنة ١٨١٩ واستمر في البناء القيصر نقولا الاول فما تم حتى عام ١٨٥٨ على عهد اسكندر الثاني فاشتغل في اتمامها واتقانها ثلاثة قياصرة عظام مدة ٣٩ عاماً وبلغت نفقاتها ٢٤ مليون ريال وهي مبنيَّة من الرخام والصوان وقد جعلت على شكل صليب طولها ١٠٥ امتار وعرضها ٩٠ متراً ولها قبات كثيرة مختلفة الاشكال اهمها القبة الوسطى التي بلغ محيطها ٢٦ متراً وهي قائمة على ٢٤ عموداً ركزت فوق برج عظيم قائم على اعمدة اخرى وفي اعلاها صليب كبير والقبة

باعمدتها وصليبها وقاعدتها وبرجها ملبسة بالنحاس المذهب ولها منظر فائق الجمال وهي تظهر للقادم الى بطرسبرج من عرض البحر نظرًا لارتفاعها ولمعان معدنها ولا يقل علوها عن ماية متر

وللكنيسة اربعة ابواب منها اثنان اصليان كلٌّ منهما قائم على ١٦ عمودًا من الرخام الاحمر المصقول وقواعدها وتيجانها من النحاس المذهب وهي تقرب من اعمدة الهياكل المصريَّة القديمة واعمدة قلعة بعلبك في منظرها وضخامتها فان قطر العمود منها متران . وقد صنعت ابواب هذه الكنيسة من النحاس وحفر عليها رسوم ملائكة الجنان والقديسين على مثال الموجود من هذه الرسوم في كنيسة القديس مرقص في مدينة البندقية بايطاليا والدرجات الموجودة في هذه الكنيسة كلها من الرخام او الصوان المصقول كل درجة منها حجر واحد . وواجهة الكنيسة من الرخام الابيض تتخللهُ عروق من الذهب وفيها من الايقونات ما لا يعد واكثرها مرصعة بالحجارة الكريمة وباب الهيكل من الفضة الخالصة يحف بهِ ١٨ عمودًا باهرة الجمال منها عشرة من اللازورد وثمانية من المالكيت الاخضر وهما من الحجارة الغالية الثمن وعلى باب الهيكل الى اليمين واليسار صورة العذراء والمسيح مرصعة بالالماس (برلانتي) ترصيعًا لم ارَ لهُ نظيرًا في غير هذه البلاد فان حجارة الالماس ادخلت في الصورة نفسها مرتبة حول الراس وفي الصدر وهي كبيرة الحجم لا تقل عن البندقة والروسيون ينفقون على مثل هذا الترصيع مالاً وفيرًا واما المذبح فكلهُ من الفضة الخالصة وآنية الخدمة من الذهب الدقيق الصناعة . وجملة القول ان وزن ما في هذه الكنيسة من الآنية الفضية ١٢٠٠ كيلو ومن الآنية الذهبيَّة ٤٠ واكثرها هدايا من القياصرة واعضاء البيت القيصري وبعض المجالس البلديَّة وسراة الروسيين. وفي هذه الكنيسة اعلام ومفاتيح مدن غنمها الروس

في حروبهم واشياء كثيرة لتذكار الفعال العظيمة التي قام بها رجالهم وهي بوجه الاجمال من اغرب كنائس الدنيا واوفرها بهاءً

وخرجت من هذه الكنيسة الى حديقتها ومنها الى ميدان مريم وهو متسع من المدينة اشهر ما فيهِ تمثال لجبار القياصرة اعني بهِ الامبراطور نقولا الاول وقد مثلوهُ راكبًا جوادًا جموحًا ونقشوا على جوانب القاعدة اعمال هذا القيصر العظيم واثارهُ الكبيرة ووضعوا بينها رسوم زوجتهِ واولادهِ وعلى كل جانب من جوانب القاعدة احدى هذه الكلمات الاربع وهي القوة — والعدل — والايمان — والحكمة — وهم يمثلون هذه الكلمات في رسوم وتماثيل عديدة تجدها في دور القضاء وقصور الملوك كثيرة في كل المدن الاوربيَّة وقد اقيم هذا التمثال تذكارًا لحادثة تاريخية جرت في ايام نقولا الاول فان بعض الاهالي ثاروا وتجمهروا في هذا الميدان يقصدون الشر فجاءهم اليهِ القيصر راكبًا جوادهُ فلما رأوهُ خرُّوا خاضعين وانتهت ثورتهم

ولما كانت وزارة الخارجية في قصر اركان الحرب الذي نقدم ذكرهُ وكان سعادة السري الموسيو سليم دي نوفل وطنينا الكريم في هذه الوزارة مستشارًا لها فاني دخلتها وقصدت زيارتهُ فعلمت من العمال انهُ مقيم من ايام في منزلهِ الكائن في شوفالوفو احدى ضواحي بطرسبرج فعدت الى فندقي . وفي ثاني الايام اخبرني صاحب الفندق ان تلميذًا من تلامذة المدارس القيصريَّة جاء بكتاب اليَّ مدة غيابي فتناولت الكتاب وفضضت غلافهُ فاذا بهِ من سعادتهِ نقلهُ نجلهُ الى الفندق وفي الكتاب انهُ طريح الفراش من كسرٍ اصاب رجلهُ اثر سقطة والحَّ عليَّ كثيرًا ان اذهب الى شوفالوفو لزيارتهِ فذهبت في القطار الحديدي بين غياض وحراج وبقاع مرصعة بفاخر البناء والمنازل ولبساتينها وحدائقها الغناء جمال خاص بها

حتى اذا وقف القطار في محطة شوڤالوڤو قصدت منزل صديقي وهو قائم في وسط حديقة جميلة فقابلتني حضرة قرينته وحضرات انجاله بالترحاب وساروا بي الى غرفته فسررت لذلك اللقاء سروراً كثيراً وظللت في غرفته الى ساعة الغداء حين قمنا الى قاعة فسيحة للطعام مدفأة بالنار ونحن في اواسط شهر اوغسطس وبعد الغداء قمنا ندور بين تلك الحدائق ومتعت الطرف بهاتيك المناظر البهية وانا مع عائلة الموسيو دي نوفل ثم عدنا الى المنزل والحديث اذكر منهُ ان صديقي سألني عما رأيت فحدثتهُ عما خلج صدري من التأثير حين زرت القصر الشتوي ورأيت غرفة اسكندر الثاني الذي اغتالهُ النهلست فقال لي ان هذا القيصر كان كثير الورع شديد الاعتقاد بحكم القضاء وبعناية الله بهِ حتى انهُ كان مع كل الذي اصابهُ من مكايد النهلست لا يحذر على نفسهِ منهم وحاول احدهم ان يغتالهُ سنة ١٨٧٦ فاخطأ سهمهُ المرمى . وفي السنة التالية حاول آخر بولوني الاصل ان يقتل جلالتهُ ايضاً فلم يفلح في سعيهِ المذموم . وفي سنة ١٨٧٨ خرج يتمشى من قصرهِ الشتوي فهجم عليهِ احد هؤلاء الاشرار وجعل يطلق الرصاص عليهِ خمس مرات متواليات وهو لا يصيبهُ وكان القيصر كما قلنا ماشياً ففرَّ من الرجل وظلَّ يعدو مسرعاً والرجل وراءهُ يطلق الرصاص حتى دخل وزارة الخارجية تجاه قصرهِ الشتوي ونجا من القاتل. وفي سنة ١٨٨٠ حاول النهلست نسف غرفتهِ على مثل ما تقدم . وما برح القوم يكيدون المكايد لهذا القيصر النبيل حتى ظفروا بهِ

قال صديقي وحدث انهُ يوم اغتيالهِ رجاهُ مدير البوليس السري الاَّ يخرج من قصرهِ في ذلك اليوم فما سمع النصيحة وذهب لزيارة شقيقتهِ فالقى الاعداء اللئام تلك القنبلة المفرقعة تحت عجلات عربتهِ وتفرقعت فقتلت الخيل والسائق وكان القيصر في داخل العربة فلم يصبهُ اذى ولو ظلَّ فيها لما وصلهُ مكروه . كذلك

حذره ُ الذين كانوا معهُ ورجوه ُ ان يبقى مكانهُ داخل العربة ولكن القيصر كان جسوراً كثير الاتكال على ربهِ فخرج من العربة ليسأل عن رجال حرسهِ فالقى احد الاشرار بين قدميهِ قنبلة ثانية قضت على حياتهِ الثمينة وحزن العالم المتمدن لموتهِ حزناً شديداً . وكان الموسيو دي نوفل يورد لي هذه القصة والحزن ملء فؤادهِ حتى اذا انتهى منها خنقتهُ العبرة لان اسكندر الثاني كان ولي نعمتهِ رقاه ُ واحسن اليهِ برفيع الرتب والوسامات وقبل طلبهُ فتنازل الى ان يكون عراباً للموسيو اسكندر بسترس نجل المرحوم سليم بسترس وكان القيصر اسكندر الثالث عراباً للموسيو ڤلاديمير وهو النجل الثاني للمرحوم سليم بسترس اصدر بذلك امراً قيصرياً حملهُ الموسيو دي نوفل الى لندن حيث كان الموسيو بسترس واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً حضره ُ سفير دولة روسيا وكثيرون من اهل المقام العالي وكان مع سعادتهِ ايضاً وسامات عالية من جلالة القيصر واحد منها للمرحوم سليم بسترس وآخر لحضرة قرينتهِ وآخر لحضرة الفاضلة السيدة كاترينا بسترس نظراً لما اشتهر عنها من الفضائل والمبرات . وقد طلبت الى صديقي الموسيو دي نوفل ان يساعدني على كتابة ترجمة حياتهِ لانهُ اشهر سوري تبوأ المراكز الخطيرة في وزارة دولة عظيمة مثل الدولة الروسيَّة فوعدني ذلك ولكنهُ تأخر عن الوفاء لما اشتهر عنهُ من الاحتشام وكرم السجايا والميل عن كل ما يشم منهُ رائحة الفخر وهذه طباع الرجل العظيم في كل زمان

وآخر ما اذكر هنا من مشاهد بطرسبرج الاسطبلات القيصريَّة وما هي بالشيء الحقير كما يفهم من اسمها بل انها معرض لجياد الخيل من روسيَّة ومجريَّة وانكليزيَّة وعربيَّة وللعربات الفاخرة والسروج النفيسة المرصعة بالحجارة الكريمة والادوات الاخرى كاللجم والمهاميز والازمة وسواها اكثرها من الذهب والفضة

وبعضها هدايا من سلاطين آل عثمان وملوك ايران وامراء بخارى وخيوا وبقيَّة الممالك التي علا فيها سؤدد روسيا في اواسط آسيا . وفي اول هذا المتحف جواد القيصر نقولا الاول محنطاً وهو الذي كان يركبهُ في حرب القرم ثم رسوم امراء الاسطبل القيصري بالزيت وبالقد الطبيعي من يوم انشئت هذه الوظيفة الى الآن. وهنالك عربات كثيرة للقيصر والقيصرة والاعوان والحشم وعربات أُخرى كثيرة الزخرف فائقة الاتقان للقياصرة السابقين اجملها عربة اسكندر الثالث وهي كلها مذهبة الجوانب تبرق وتلمع كانما هي شعلة من نار ومركبة لبطرس الكبير صنعها بيدهِ ومضرب لكاترينا الثانية كانت ترقد فيهِ وقت الحرب ومركبة نقولا الاول سار بها يوم تتويجهِ ومركبة اسكندر الثاني التي قتل بها وهي محطمة الجوانب بفعل الديناميت . وعلى مقربة من هذا المكان البقعة التي قتل فيها القيصر اسكندر الثاني وقد غرزوا صليباً حيث تفرقعت القنبلة القتالة وشرعوا ببناء كنيسة ستكون من اعظم ما في بلاد الروس من نوعها وقد لا ينتهي العمال منها قبل اعوام كثيرة تجيء فوقفت في ذلك المكان اتأمل احكام القدر حيث سقط قيصر عظيم لم تغنهِ قواتهُ الهائلة شيئاً وفي ذلك عبرة للمعتبرين

وجملة القول ان مشاهد بطرسبرج العظيمة لا تعد في مثل هذا المقام وهي بنيت على جزر والنهر يشقها شطرين فتكثر فيها وفي ضواحيها الغابات والحدائق منها الحديقة الصيفية مساحتها ١٥ كيلو متراً مربعاً انشئت على النسق الفرنسوي وحديقة بطرس الكبير انشئت على النسق الانكليزي وتكثر فيها الروابي والهضاب. وحديقة الحيوانات وفيها من كل حيوان غريب ما في معارض الحيوان المعروفة في اوروبا . ومطاعم بطرسبرج كثيرة بعضها صيفي وبعضها شتوي وملاهيها ومراسحها كثيرة ايضاً ينفقون عليها المال الطائل وكثير منها تمثل فيهِ الروايات

بالفرنسية و يحضرها سراة الروس وهم معروفون بالترف والبذخ في المعيشة وقد رأيت في احد هذه المراسح مالم اره في غيرها مدة سياحاتي من انواع الرقص الافرنجي البديع فان الستار رُفع عن نحو مايتي فتاة جعلنَ يتفتلنَ ويتمايلنَ ويترقصنَ على اشكال وحالات تسكر الاذهان وتختلب العقول وهنَّ بتلك الملابس المزخرفة ظللنَ في تفنن ولعب بديع والناظر الى حركاتهنَّ واقدامهنَّ يظنهنَّ آلة تدار بقوة واحدة فلا تخطئُ السير في جهة من الجهات او اذا تأمل هاتيك القدود تنثني وتتهادى ببهي الحلل خيّل لهُ انهُ يرى بحراً من الحسن الباهر حتى ينقضي نصف الليل وقد غاب الهم عن القلب ومالت النفس الى ذلك الجمال الرائع كل الميل

هذا بعض من كلٍّ شهدتهُ في عاصمة الروس العظيمة ولو اني شئت التطويل اضاق المقام عن البيان فانقدم الآن الى ذكر شيء عن ضواحي هذه المدينة

ضواحي بطرسبرج

ولقد كنت مدة مكثي في عاصمة السلطنة الروسيَّة اسمع ببهاء ضواحيها واول ما قصدت منها قصر تزارسكوي سيلو اي قرية القيصر انشأها بطرس الكبير و بنى بها قصراً ثم تبعهُ في البناء قياصرة الروس وسراتهم حتى اضحت هذه الجهة مجموع مشاهد باهرة ورياض زاهرة ومنازل عامرة فيها القصور الفخيمة حيث يقيم اهل الشرف الشامخ والحدائق الغناء يتراوح بين ازهارها وشجرها جماعة الترف الباذخ وفي وسط هذا العز الساحر زينة القصور الشماء وصلة السعد ما بين عيشة الارض وعيشة السماء اريد بهِ قصر تزارسكوي سيلو بنتهُ كاترينا الثانية وهو الذي طارت شهرتهُ في الآفاق وملئت بوصف جمالهِ الاوراق والقصر بناء عظيم يحيط بهِ سور شاهق

في اعلاهُ حديد مذهب وطول البناء لا يقل عن ٢٤٥ مترًا وقد دهن من خارجهِ بلون اصفر بهي واللون الاصفر كثير الاعتبار في بلاد الروس خلافًا للمواضع الاوروبيَّة الاخرى حيث يقل وجودهُ وقد زاد بهاءَ هذا اللون في قصر تزارسكوي سيلو ان العمد والقباب والقواعد والنواتي كلها مذهبة تسطع منها الانوار وتجعل لذلك القصر العظيم ابهة وجمالاً يقلُّ لهما النظير بين قصور روسيا وهي التي اشتهر انها امتازت عن بقية العواصم الاوروبية بقصورها وما فيها من القاعات الغريبة ولا عجب اذا قلنا ان قصر القيصر في تزارسكوي سيلو هذه يعد اعظم القصور الحالية انفقوا على تذهيب جوانبهِ المرة الاخيرة اثني عشر مليونًا من الفرنكات . فما قولك في بقية ما فيهِ من غرائب البناء والنقش والتصوير والزخارف والرياش الذي يعجز عن مثلهِ اقيال الزمان ولا تكفي لعشر معشارهِ اموال قارون

وقاعات هذا القصر تبلغ الثلثمائة عدًّا منها ٣١ قاعة على خطٍّ واحد بعضها وراءَ بعض اذا وقف المتأمل في اولها عسر عليهِ ان يرى آخرها وكلها آيات معجزات في اتقان الصنع ونفيس الفرش و باهر التحف و بديع الجوانب المذهبة اذا اسعدك الحظ برؤيتها حكمت لاول وهلة انها زينة القاعات الملوكية ما رأى الراؤُن اكثر منها حسنًا وبهاءً ولا سمع السامعون باوفر منها رونقًا وزهاءً تغرس في نفس الرائي بهجةً وحبورًا تنسيهِ بقية ما في الارض من امر شاغل او شيء خطير . ولا قبل لنا بغير الاختصار فنذكر هنا من هذه البدائع الشهية قاعة الرقص والولائم يقيمون فيها الحفلات الراقصة او الولائم الفاخرة وهي قاعة حدّث عن جمالها ماشئت وقل في غرائبها ما استطعت انها مفروشة بالحرير الاصفر الفاقع وسقفها وجدرانها ملأى بالزخارف المذهبة ومرائيها عظيمة المقدار والقيمة فوقها الشعار القيصري وهي تعكس هاتيك المناظر الباهرة من هنا ومن هنا فلا يرى المتأمل غير جمالٍ وراءَ جمال

لاسيما وقد تدلى من السقف والجدران هاتيك الثريات تحكي الجواهر في لمعانها وهي متى اوقدت مصابيحها في الليل تألق نورها وكثر شعاعها الى حدٍ يبهر الابصار وكلها تنار بالشمع لان النور الكهربائي غير مستعمل في قصور الضواحي . وفي هذه القاعة وحدها ٢٦٥٠ شمعة فتأمل بهاء تلك الانوار ومن حولها المناظر الساحرة لاسيما اذا احتفلوا بالليلة الراقصة التي يقيمها جلالة القيصر في كل عام ويدعو اليها امراء البيت القيصري واميراتهِ وسفراء الدول ووزراء المملكة وقواد الجيوش والاساطيل ورؤساء المصالح الكبيرة وسراة الامة وعظمائها فيأتونها كلهم بالملابس الرسمية والوسامات ومعهم سيدات تنفق الواحدة منهنَّ الوفًا على لباس تلك الليلة وتتحلى بنفيس الجواهر فما ترى في كل جانب غير عزٍّ وبهاء ويسار كثير وترف ونعمة تزيد عما في بقية العواصم الكبرى والكل من سادة وسيدات يؤَدون واجب الاكرام للقيصر وهو متى بدأ الرقص يخاصر قرينة اكبر السفراء الحاضرين ويرقص معها دورًا ثم يتنحى . والقيصرة وهي ترقص دورًا مع اكبر السفراء الحاضرين سنًا ثم تتنحى ايضًا ويظل الباقون في طرب ونعيم الى آخر الليل

ولكن بدائع هذه القاعة الغريبة تعد شيئًا يسيرًا عند قاعة الكهرباء الفاخرة وقد اطلق عليها هذا الاسم لان الكهرباء الثمينة فيها تقوم مقام الخشب والحديد فكل مقاعدها ومناضدها وكراسيها صنعت من الكهرباء مع ما تعلم من غلاء قيمتها والفرش من فوقها حرير اصفر يتلائم ببقية ما في القاعة وقد ذاعت شهرتها في اوروبا وتحدثت الركبان بعظيم قيمتها . ومن ذلك ايضًا قاعة الفضة وكل ما فيها من هذا المعدن الناصع صنع على نسق يحلو للانظار . وتليها قاعة اللازورد وهي لا تقل في الغرابة عن قاعة الكهرباء لان حجر اللازورد من اثمن الحجارة المعروفة وهو ازرق سماوي في لونهِ زينوهُ بعروق من ماء الذهب فصار لهُ منظر يشرح

الصدور ولا تشبع العين من التأمل فيهِ . والقاعة الصينية وكلها من الاطلس الاسود المزركش بالقصب وخشبها كلهُ من اللك الاسود الفاخر . وقاعة الصور وفيها صور بعض الحوادث التاريخية مثل تسليم الشيخ شامل وتتويج اسكندر الثاني وتنصير اولادهِ وغير هذا كثير . وقاعة الموائد وهي للولائم الرسمية العظيمة فيها مواضع لمائتين وخمسين مدعوًّا وكل آنيتها من الذهب والفضة تليق بعظمة ذلك القصر العظيم . وقاعات اخرى لا يعي الذهن ذكرها لو كتبناها وكلها من غرائب الصناعة ودلائل اليسار الهائل والعز الكبير

وفي هذا القصر كنيسة جميلة مدهونة جدرانها بلون ازرق تتخللهُ عروق ذهبيَّة بديعة الاتقان وللقيصر والقيصرة كرسيان امام باب الهيكل من اجمل ما رأتهُ العين وللكنيسة قبة بديعة يراها القادم الى القصر من خارجهِ ويلي الكنيسة رواق عظيم طولهُ ٨٢ مترًا يطل على اشهى المناظر ومنهُ يمكن الوصول الى الحديقة المحيطة بقصر تزارسكوي سيلو وهي يقصر في وصفها قلم الكاتب البليغ تجولت في جوانبها حينًا من الدهر ثم غادرتها ونفسي تحدث بما رأت من محاسن هذا القصر الغريب وعدت الى المدينة وانا افكر بما رأيت فيهِ من الغرائب وقد خطر في بالي ان بانيتهُ العظيمة القيصرة كاترينا الثانية لما انتهت من بنائهِ واعدادهِ دعت سفير فرانسا في ذلك العهد لرؤيتهِ فجاء السفير وجعل يحدق ببصرهِ ويتأمل تلك البدائع وهو يتطلع ذات اليمين وذات الشمال كانما هو يبحث عن شيءٍ فسألتهُ القيصرة ان ما الذي تبحث عنهُ قال اني ابحث يا مولاتي عن غطاءٍ من البلور اغطي بهِ هذا القصر الثمين

وفي هذا اليوم قصدت مدفن القياصرة العظام فقمت من الفندق مارًّا بميدان فسيح اسمهُ شان ده مارس سمي على اسم اله الحرب لان المناورات العسكريَّة تجري فيهِ ومن ورائهِ الحديقة الصيفيَّة ثم الجسر المبني فوق نهر النيفا وفي آخرهِ على

الشمال كنيسة لها قبة علوها ١٢٨ مترًا وهي اعلى ما في روسيا من القبات وفي هذه الكنيسة مدفن القياصرة واصلهُ قلعة قديمة فدخلتهُ ورأيت قبر بطرس الكبير وكاترينا الثانية واسكندر الاول صاحب وقائع بونابارت ونقولا الاول صاحب حرب القرم واسكندر الثاني اشرف القياصرة ومحرر الامم واسكندر الثالث بطل السلام وهو والد القيصر الحالي . وفي تلك المدافن مصابيح يوقد فيها الشمع ليلاً ونهارًا ولها منظر يؤَثر في النفوس

بقي عليَّ من هذه القصور العظيمة في ضواحي بطرسبرج قصر بترهوف المشهور . وبترهوف هذه قرية على شاطئ البلطيق قريبة من بطرسبرج اول من عمرها بطرس الكبير فسميت باسمهِ كما ترى وكان هذا القيصر ينوي جعل قصرهِ في بترهوف مثل قصور ملوك فرانسا في ڤرسايل فبالغ في اتقانهِ وجاءت كاترينا الثانية من بعدهِ ونقولا الاول وغيرهما فاضافوا الى هذا القصر العظيم ما تعجز الالسن والاقلام عن وصفهِ . ويمكن الوصول الى بترهوف من العاصمة برًّا او بحرًا في البلطيق فاخترت طريق البحر ووصلت موضع القياصرة العظام حيث يقضون معظم اشهر الصيف والحق يقال اني اراني عاجزًا عن وصف هذا القصر الفخيم لكثرة محاسنهِ المشهورة ولكثرة ما تقدم من وصف امثالهِ فاكتفي ببسيط الاشارة الى اهم ما فيهِ وهو يظهر لك عن بعدٍ من بريق قباتهِ المذهبة ومن حولهِ العمائر الفاخرة لامراء الروس فكانما هو الشمس تدور بها النجوم السيارة في فضاءٍ كلهُ جمال وبهاء ما بين بحر نقي ماؤُه وارض فرشت بالسندس ورصعت بابهى ما في الرياض من زهرٍ وشجر لا سيما حديقة القصر الامبراطوري نفسه وهي تحكي حدائق النعيم في جمالها واتساعها حتى ان الوفًا من العربات تسير في جوانبها ولا تظهر بين هاتيك المناظر الفاتنة . وللقصر ابواب كثيرة منها واحد ارتقينا عشرين درجة من الرخام

الابيض البديع حتى وصلناهُ وامامهُ بركة للماء صُنعت من الرخام الابيض ايضاً
يحف بها اربعون تمثالاً مذهباً وفي وسطها وزة كبيرة من المرمر يتدفق الماء من
فمها تدفق السيل صعداً ثم ينهمل من علو ٢٥ متراً وينصبُّ في البركة فيجري منها
بين الاغراس والتماثيل الى ما وراء القصر ويستقر في بحر البلطيك

وقد جعلوا رياش كل غرفةٍ في هذا القصر من نسقٍ يختلف عن نسق غيرها
فهذه فرشت على النسق الصيني وهذه هنديَّة وهذه يابانيَّة وهذه مصريَّة وهذه
تركيَّة وهذه اوروبيَّة وكلها بدائع اتقان تحار في وصفها الافهام. وهنالك قاعة عظيمة
للرسوم عنيت كاترينا الثانية بجمع اشكال النساء فيها فامرت برسم فتيات ونساء
روسيات على اشكالهنَّ في كل اقليم ووضعت تلك الرسوم تمثل حالة المرأة الروسيَّة
في ايامها فلا يقلُّ عدد الصور هنا عن ٣٦٨ صورة. ويلي هذه الغرفة قاعة الاستقبال
الخاصة بهذه الامبراطورة فرشت بانفس الطنافس واثمن انواع الحرير وفيها صور
بناتٍ حزنَ قصب السبق في مدرسة البنات التي اسستها هذه الامبراطورة العظيمة
وقاعة الاستقبال العموميَّة وقاعة نساء الشرف التابعات للقيصرة وقاعة المائدة لها ٣٠
نافذة او شباكاً لكل شباك برواز بارز جميل يحيط بهِ من داخل القاعة والى جانبيهِ
الشمعدانات المذهبة في كلٍ منها ٤٠ شمعة فيكون عدد الشمعات حول تلك
الشبابيك فقط ١٢٠٠ غير المدَّلى من سقف القاعة في الثريات البديعة. وفي
القصر كنيسة لها قباب مذهبة جميلة وفيها بعض غنائم الحروب من اسيا الوسطى
وزخارفها اكثر من ان تعد. وهنالك قصر الكساندرين وقصر اسكندرية وقصر
بطرس الكبير حفظت فيهِ بعض ملبوساتهِ فمصيف بترهوف هذا مجموع قصور
شيدت في تلك الحديقة العظيمة وليس قصراً واحداً. واما عن تلك الحديقة فحدث
اني مارأيت في حدائق القصور اغرب منها ولا ابهى وقد قضيت النهار ادور في

جوانبها واتفرج على روابيها ونجادها وجزرها وطرقها واغراسها واستلفت الدليل نظري الى شجرة لم ارَ لها في اول الامر مزيَّة ولكنهُ تنحى عني الى حيث فتح انبوباً فانبعث الماء حالاً من فروع الشجرة واوراقها وازهارها وكل اجزائها وعلمت حينئذٍ انها شجرة صناعية ملئت بالمسام الغير المنظورة يخرج الماء منها على مثل ما رأيت

وقد رأيت في تلك الحديقة من الازهار والاغراس ما غرستهُ ايدي القيصرات فان والدة القيصر الحالي غرست شيئاً كثيراً والقيصرة التي تقدمتها كانت مغرمة بهذه الحديقة ايضاً ولكلٍ منهما قطعة تعرف باسمها تدل على حسن الذوق و كثرة الاعتناء

والقسم الخاص بكاترينا الثانية بين هذه القصور الشماء قديم العهد فيهِ غرفة الطعام الخاصة بها صنعت على شكل يمكن بهِ ارسال الصحون والوان الطعام في آلةٍ ترفعها من غرفة سفلى فتصل الى المائدة ويمكن بهذا الاستغناء عن خدمة يقفون حول المائدة ويسمعون حديث الملكة مع رجال الدولة . وهنالك ايضاً غرفة النوم وفيها بعض ملبوسات هذه الامبراطورة والى مقربةٍ منها حمامها الصيفي وهو عبارة عن بحيرة كبيرة كانت تسبح في مائها النقي وفي وسط البحيرة انابيب مستدقة ينبعث الماء منها تقرب من المائة عداً وهي كثيرة الجمال

واعود الى القول اني لو شئت عدَّ الغرائب في قصور بترهوف وحدائقها لما امكن لي بعض الشيء منهُ لان الموضع الذي اجهد البارعون قرائحهم في تحسينهِ وانفق القياصرة العظام مالاً لا يعد واعواماً طوالاً في اعدادهِ لا يكثر فيه وصف ولا يحيط بجمالهِ وغرائبهِ علم الاَّ الذي تسعدهُ الايام برؤيتهِ فلما انتهيت من التجول في تلك الجنات البهيَّة عدت الى العاصمة وقصدت من بعدها حصون كرونستاد وهي التي كان دخولنا من البلطيق اليها قبل الوصول الى بطرسبرج على

ما تقدم . وكرونستاد هذه مينا بطرسبرج اشتهر امرها في الاعوام الاخيرة بزيارة الاسطول الفرنسي لها وابرام المعاهدة فيها بين الدولتين وقد كان منظرها يوم دخلتها موثّرًا وهيئة الحصون والقلاع والبوارج الحربيَّة ترسخ في النفس واذكر منها بنوع اخص يخت لجلالة القيصر انفق والده اسكندر الثالث على بنائه واعداده اربعمائة الف جنيه وكان يجتاز البحر فيه كل صيف الى الدنمارك حيث يجتمع بالاهل والاقارب . ولهذه المدينة مين تجاريَّة ومين حربية كلها كاملة الاتقان وفي آخرها ارصفة عريضة وطرق جميلة وامامها فنادق عظيمة اكثر الذين يؤمونها من ضباط البحرية الروسية ولا حاجة الى القول ان استحكامات كرونستاد هذه وحصونها في الطبقة الاولى من القوة والمنعة قضيت في التفرج على جوانبها زمانًا ثم عدت الى بطرسبرج مودعًا لها متنقلاً من موضع الى موضع ومن شارع الى شارع فلما انقضى اليوم العاشر على زيارتي لهذه العاصمة العظيمة غادرتها وانا معجب بآيات العز وبينات الفخامة فيها وسرت الى مدينة موسكو وهي التي يجيء الكلام عنها في الفصل القادم

موسكو

كانت المسافة بين عاصمة روسيا واشهر مدنها الداخليَّة اكثرها سهول تقل فيها النجاد والوهاد ولكن هضباتها ومروجها كلها مناظر بهية كسيت بالخضرة النضرة ورصعت بالعمائر والقرى تخترقها الجداول وترويها الانهار والترع التي لا تعد فكنت في القطار مدة ست عشرة ساعة ارى كيفما اتجه ارضًا اريضة ومزارع مقبلة ومراعي فسيحة تسرح فيها الابقار الضليعة والماشية الكثيرة فتمثل لك في كل جهة مقدار ما يعوّل الروسيون على الزراعة في بلادٍ واسعة الاكناف بعيدة الاطراف هائلة

سهولها كثيرة غلالها يصدرون منها الى انكلترا وغيرها مقادير كبرى في كل عام وهي مصدر الثروة الكبرى في البلاد كما ان الصناعة والتجارة مصدر الثروة في بلاد الانكليز . ولما انقضى زمان المسير واشرفنا على مدينة موسكو العظيمة ظهرت لنا قباتها الكثيرة بعضها مذهب تنبعث منهُ اشعة النور في ذلك السهل الفسيح وبعضها ملون بالوان مختلفة هذه صفراء وهذه حمراء وهذه خضراء وهذه بيضاء او زرقاء او لها لون آخر يستلفت الانظار لا سيما وانها لها اشكال غريبة لا تراها مجتمعة في مدينة من مدائن الارض غير موسكو فان تلك القباب بعضها مضلع وبعضها مستدير وبعضها اهليلجي وبعضها على شكل الرمان او الموز او الشمع او غير هذا والقوم ما تركوا شكلاً شرقيًّا او غربيًّا حتى جمعوهُ الى تلك الاشكال وعملوا على مثالهِ قبات في مدينة الروس المقدسة فاذا رأيت كل هذا وانت مشرف على المدينة من بعد ذكرت الاستانة وماذنها. وقد بنيت موسكو في سهلٍ كما بنيت معظم مدائن الروس وهي وان تكن دون غيرها في عدد السكان لا يزيد اهلها عن ثمانمائة الف نفس الاَّ ان منازلها بعيدة بعضها عن بعضها وفيها من الحدائق والبحيرات والميادين الفسيحة ما يجعل لها مساحةً لا تقل عن مساحة باريس ولما كانت هي مسكن اهل الطبقة العليا من اشراف الروس وفيها من اكابر التجار الموسرين عدد عظيم لكلٍّ منهم قصر او قصور تحيط بهِ الاغراس والحدائق فقد اتسع نطاقها وبعدت اطرافها فوق ما يقتضيهِ عدد سكانها فزاد ذلك في رونقها وجمالها وغرائبها الكثيرة التي سنورد بعضاً منها في ما يلي

واما ان هذه المدينة مقر الغرائب في بلاد الروس والعظائم فواضح من كثرة قصورها الشماء كما تقدم ومن كثرة كنائسها ايضاً واديرتها فهي المدينة المقدسة عند الروس وهي التي كانت عاصمة المملكة الى عهدٍ ليس ببعيد فيها الآن نحو

٤٠٠ كنيسة و٢١ ديرًا و٤٦٠ مدرسة او تزيد وهي مقر الحاكم العام لولاية موسكو العظيمة يغلب ان يكون الحاكم فيها اميرًا من امراء البيت القيصري وفيها مركز الفليق الثاني من الجيش الروسي وكرسي المجمع المقدس يرأسهُ رئيس اساقفة موسكو وهو اعظم رجال الكنيسة الروسية بعد القيصر. وقد بنيت هذه المدينة الكبرى الى جانبي نهر صغير اسمهُ موسكوڤا فدعيت المدينة باسمهِ وغلب هذا الاسم بعد ذلك على الولاية كلها ثم على المملكة برمتها لاسباب فصلناها في التمهيد التاريخي وهي اذا دخلها الزائر الغريب اذهلهُ ما فيها من الازياء الكثيرة والاجناس المتباينة فان الروسيين من اهلها لا يزيدون عن التتر والصينيين والجراكسة والاتراك والايرانيين والبولونيين وبقية اشكال المتوطنين فيها من الناس حتَّى انك لترى فيها العجمي بقبعتهِ السوداء الطويلة وجبتهِ وسمرة وجههِ والتتري لهُ صفرة وعين تدل الى شيءٍ من القوة والغدر وهو بملابسهِ التترية وعمامتهِ المتدلية اطرافها او بشيءٍ من الملابس الافرنجية لا تخفي عن المتأمل حقيقتهُ. وهنالك الجراكسة واهل داغستان وكرمان وقوقاف بعضهم يلبسون الفرو وجلود الغنم على مثل ما اعتادوا في بلادهم وهم يمشون بجنب الذين رقوا اعلى درجات التمدن الغربي من الروس وتهذبوا في المدارس الكبرى او الذين تراهم على تلك الخيول المطهمة وفي العربات الفاخرة من اغنياء المدينة وموظفيها وضباطها وابناء اشرافها فيختلط الشرق بالغرب في تلك المدينة اختلاطهُ في الاستانة او اعظم وفي ذلك نزهة للغريب وفرجة يعسر الوصول اليها في غير هذا المكان

وقد كانت روسيا في اول عهدها يحكمها امراء كيف على مثل ما رأيت في الخلاصة التاريخية فلما قويت شوكتهم قليلاً بعد التنصر بنى احدهم حصنًا على ضفة نهر موسكوڤا في سنة ١١٤٧ واسم هذا الامير فلاديميروفتش دولجوروسكي

فكان ذلك بدء تأسيس المدينة واطلق اسم النهر عليها . والحصن الذي بناهُ عرف من يوم بنائهِ باسم كرملن وهو لفظ تتري معناهُ القلعة او الحصن فبقي هذا الاسم ملازماً للجهة الاصلية التي نشأت فيها مدينة موسكو وهو الآن اسم القصور العظيمة والكنائس والمنازل الفاخرة المختصة بالقيصر وعائلتهِ و يطلق ايضاً على القسم المجاور لهُ من اقسام موسكو وهو اعظمها وافخمها واكثرها غرائب . وطفقت موسكو تتقدم من بعد بنائها شيئاً بعد شيء حتى صارت مقر الولاية كما تقدم القول ولكنها احترقت مرتين في القرن السادس عشر وعادت الى البناء حَتَّى اذا قام بطرس الكبير نقل تخت السلطنة منها الى بطرسبرج ولكن خلفاءهُ لم يسهل عليهم الانتقال فعادوا اليها ولم يستقر رأيهم على الانتقال منها نهائيًّا الاَّ في اوائل هذا القرن حين اضرم اهلها النار فيها ليردوا جيش نابوليون عنها . ولكن موسكو عادت وبنيت على احسن مثال من بعد تلك الحرائق وجددت معالمها وشيدت قصورها ومعابدها وهي يتوج فيها القياصرة الى هذا اليوم وتعد مقر التجارة الروسية الداخليَّة ومركز الرأي العام الروسي والكنيسة الارثوذكسيَّة وها انا مورد بعض الشيء من وصف الذي فيها ملتزماً خطة الاختصار

تقدم القول ان قسم الكرملن اهم اقسام المدينة وهو في منتصف البلدة آخرهُ متصل بنهر مسكوفا بني على رابية مرتفعة واسعة قام فوقها القصر الامبراطوري والكنائس والاديرة وقد جمعت هذه الابنية العظيمة كلها في الدائرة الَّتي تعرف باسم الكرملن واحيطت بسورٍ واطيء محيطهُ نحو الفي متر . وللكرملن هذا عند الروس مقام عظيم واعتبار فائق حَتَّى ان بين امثالهم مثلاً معناهُ ان الكرملن يعلو كل شيء ولا يعلوهُ غير السماء ولهُ مداخل عدة منها مدخل المخلص وهو باب عظيم علق فوقهُ ايقونة السيد المسيح جاء بها القيصر الكسي من بلدة

سمولنسك وهم يضيئون امامها مصباحاً لا يطفأ في الليل ولا في النهار وقد جرى الروس على عادة قديمة في عهد القيصر الذي ذكرناهُ واتبعوها بامرهِ هي انهم اذا مروا من تحت هذه الصورة رفعوا القبعات احتراماً لها وخشوعاً وصار الاجانب في موسكو يفعلون فعلهم ايضاً . ولما دخلت الكرملن من ذلك الباب اذهلني كثرة ما يضمهُ ذلك المكان من الابنية العجيبة والكنائس فانك كلما سرت خطوات معدودة وجدت امامك كنيسة تزيد في محاسنها وغرائبها عن التي تقدمتها فقصدت قبل كل امرٍ قصر القياصرة الذي يقيمون فيهِ عند زيارة موسكو او حين حضورهم للتتويج فارتقينا سلماً عريضاً من الرخام النفيس درجاتهُ منبسطة لا يكاد الصاعد عليها يشعر بعناء الصعود وفي آخرها رسوم تاريخيَّة منها رسم تتويج اسكندر الثالث ومشايخ الاقاليم يقدمون لهُ الخبز والملح علامة الخضوع وغير هذا من رسوم الحوادث المشهورة. والقصر عظيم الاتساع فيهِ ثمانمائة قاعة وغرفة ورحبة شرع نقولا الاول في بنائهِ سنة ١٨٣٨ على اطلال القصور السابقة التي افنتها النار او تهدمت من طول الزمان فما تم البناء الاَّ سنة ١٨٤٩ وانفق عليهِ حوالي ١٢ مليون ريال روسي . وفي اول القسم الجديد من هذا القصر الفخيم رحبة مستطيلة قائمة على عمد من الرخام المصقول وهي توصل الى قاعات ثلاث لها شهرة ذائعة في اوروبا كلها وقد سميت باسماء القديسين الذين أُعطيت اسمائهم لا شرف الوسامات الروسيَّة وهي قاعة القديس جورجيوس وقاعة القديس اسكندر نفسكي وقاعة القديس اندراوس

اما قاعة جورجيوس فسميت باسم القديس الذي تحترمهُ الطوائف الارثوذكسية وتروى عنهُ حكاية التنين وقد جعلوا طول هذه القاعة الفخيمة في قصر كرملن ٦١ متراً وبنوها من الرخام الابيض البديع تزينهُ عروق من الذهب

ورسوم كثيرة . وارض هذه القاعة من الخشب المصقول مثل اكثر القاعات الكبرى في قصور الملوك والاشراف وسقفها قائم على عمد ودعائم من الرخام ايضاً نقش عليها بماء الذهب تاريخ الفتوحات الروسية واسماء المواضع التي ملكها الجيش الروسي وعلى الجدران اسماء الفرق التي امتازت بالاقدام في هذه الحروب والقواد الذين شادوا لهذه السلطنة صروح الفخار في معامع النزال وأُحسن اليهم بوسام القديس جورجيوس وهو اعلى وسام يناله المرء عندهم بسبب بسالتهِ واقدامهِ . وفي آخر القاعة تماثيل قوادٍ عظامٍ من الفضة مثل القائد يرماك الذي فتح سيبيريا وفيها ثريات لا يقل عدد شموعها عن ٤٥٠٠ شمعة وكلها آية في الفخامة والبهاء

ويتصل بهذه القاعة العظيمة قاعة القديس اسكندر نفسكي وهي حمراء الجدران محلاة برسوم ذهبيةً طولها ٣١ متراً وعلو قبتها ٢١ متراً وفي هذه القاعة صور تمثل حياة القديس نفسكي الذي سميت القاعة باسمهِ وفيها ١٤ شباكاً امامها مرائي ترى فيها ما وراء القصر من المناظر وحركة المارين

ثم قاعة القديس اندراوس وهو يعد حامي بلاد الروس ووسامهُ اشرف وسامات الدولة الروسيةً انشأَهُ بطرس الكبير سنة ١٦٩٧ وقد جعلوا هذه القاعة العظيمة خاصة بالعرش ولونها ازرق معرق بالذهب وضعوا في صدرها عرش القياصرة يحملهُ نسران عظيمان والقيصر يجلس عليهِ حين قدوم المهنئين بعد حفلة التتويج. وطول هذه القاعة ٤٩ متراً وهي محاذية للقاعتين السابقتين تكوّن معهما خطاً واحداً وتتصل بهما بابواب فسيحة فطول القاعات الثلاث كلها ١٤٦ متراً ولها منظر غاية في الجمال وهي تقام فيها الحفلات العظيمة وتولم الولائم للسفراء ورؤَساء الكنيسة وكبراء الدولة بعد انقضاء حفلة التتويج . ووراء قاعة العرش هذه قاعات للحرس الامبراطوري ثم قاعات القيصرة وسيدات الشرف من الاميرات اللائي يسرنَ بمعيتها

وكل هذه القاعات من الرخام الثمين المذهب وفي بعضها عمد بديعة الشكل من حجر المالكيت واما رياشها وادواتها فيكفي ان يقال بانها تليق باعظم القصور واعظم القياصرة ولا حاجة بعد هذا للاسهاب. وقد رأيت ان قاعة الطعام في هذا القصر كل كراسيها ومناضدها من الفضة الخالصة وادوات الاكل كالملاعق والسكاكين من الذهب. وهنالك حمام على النسق الشرقي كلهُ رخام وبلور ورسوم ذهبية وستائر ثمينة كتب فوق بعضها الفاظ شرقيَّة وكل معداتهِ دالة على منتهى الرغد. وكنيسة القصر هذا فاخرة نخيمة صنع بابها من الفضة المحلاة بالذهب ومثلهُ الهيكل

هذا كلهُ في القسم الجديد من قصر القياصرة في الكرملن واما القسم القديم فانهُ باقٍ على حالهِ من ايام القيصر فيودور الكسوفتش والد بطرس الكبير وهو بنى هذا المنزل لاولادهِ فلهُ عند الروسيين اعتبار عظيم. ولهذا القصر القديم اربع طبقات كان بطرس واخوتهُ يشتغلون في الاولين منها بالصنائع كالرسم والنجارة والحدادة وغيرها ويقيمون في الدورين الباقيين والغرف كلها واطئة بسيطة اذا قابلتها بقاعات القصور الحديثة منها غرفة الرقاد فيها سرير من الحديد قديم في غاية البساطة لوالد بطرس الكبير وبساط صنعتهُ ابنة ذلك القيصر العظيم بيدها وصندوق كانت توضع فيهِ عرائض المتظلمين والمشتكين فكان القيصر ينزل في آخر النهار الى هذا الصندوق ويأخذ ما فيهِ من الاوراق بنفسهِ ثم ينظر فيها وينصف اصحابها. وفي داخل هذه الغرفة غرفة أُخرى صغيرة خصت بالعبادة توقد فيها الشموع حول الايقونات ليلاً ونهاراً. ومررنا من الدهليز الى القسم المخصص للمجمع المقدس حيث كانت تعقد جلساتهُ للمفاوضة في الامور الدينيَّة وفي جدران هذا القسم صور تمثّل الحوادث الدينيَّة المذكورة في التوراة والانجيل

وعلى مقربةٍ من قصر القيصر هذا دار التحف الامبراطوريَّة وهي ذات

طبقتين الاولى منها للعربات الفاخرة كان يستعملها القياصرة في حفلات التتويج ترى في اشكالها المختلفة صناعة كل عصر وذوق اهله واكثر العربات القديمة ضخمة ثقيلة واسعة تشبه القاعة الكبرى كثيرة الزخرف واما العربات الحديثة واخصها التي استعملها اسكندر الثاني مدة تتويجهِ فجميلة رشيقة فاخرة قليلة الادوات والقسم الذي فوق العجلات منها كلهُ ذهب واطلس نفيس . وقد كان القياصرة يسيرون في شوارع موسكو بعد التتويج بعرباتهم هذه ولكنهم صاروا يركبون الخيل ويسيرون على ظهورها ليراهم الناس جميعاً من بعد تتويج اسكندر الثالث. وفي هذا القسم غير العربات المختلفة اسلحة استعان بها بطرس الكبير على زمرة من الجنود طغوا وبغوا يعرفون باسم اوسترلتز وهم اشبه بالمماليك الذين ابادهم محمد علي في مصر او الانكشارية الذين ابادهم السلطان محمود في الاستانة

هذا جل ما في الدور الاسفل من دار التحف واما الدور الاعلى ففي صدرهِ صورة الامبراطورة كاترينا الثانية امتطت جواداً مطهماً وقد ركبت كما يركب الرجال لا كما يركب نساءُ هذا العصر وتردت باثواب الفرسان فلا يظنها الرائي لاول وهلة من النساء . وفي غرف هذا المتحف انواع الاسلحة من قديمة وحديثة وشرقية وغربية وفيها شيءٌ كثير أُهدي الى قياصرة الروس من سلاطين آل عثمان وملوك ايران وامراءِ خيوا وبخارى والبانيا والجركس . هذا غير اسلحة القياصرة الكثيرين مرتبة في دائرة واسعة وضعوا في وسطها رايتين للقائد يرماك فاتح سيبيريا وراية للبرنس يازارجسكي الذي انقذ الروس من دولة بولونيا في سنة ١٦١٢ على ما رأيت في الخلاصة التاريخية واعلاماً اخرى للامبراطور الكسي وغيرها لبطرس الكبير وسواهُ تشهد بمفاخر الروس وفعالهم في الحروب

وفي هذه الدار غرف وضعت فيها مجوهرات القياصرة والقيصرات وملابسهم

الرسمية والاكاليل الفاخرة وعصي الملك الثمينة والحلي النفيسة وهي تامة هنالك مرتبة ترتيباً تاريخياً يوافق مدة هؤلاء القياصرة فترى ملابس كل قيصر او قيصرة في موضعها حتى الاحجبة التي كانوا يعلقونها تحت قمصانهم و كذلك كراسيهم او هي العروش يجلسون عليها في ساعات الحكم والامارة اذكر منها عرش القيصر الكسي وهو مرصع بنحو ثمانمائة حجر من الالماس وعرش ايثان فيهِ نحو تسعمائة حجر من الالماس والفيروز اكثرها هدايا من شاه ايران في ايامهِ وقد جلس جلالة القيصر الحالي على هذا العرش يوم تتويجهِ وعرش بطرس الكبير فيهِ الفان ومايتا حجر من الالماس ورأيت هنالك كرسي الملك قسطنطين آخر ملوك الدولة الشرقية في الاستانة صنع من العاج وقد نقل من الاستانة الى موسكو بمساعي الامبراطورة صوفيا وهو الذي جلس عليهِ اسكندر الثاني يوم تتويجهِ

ومما يذكر بين تحف هذه الدار العظيمة سيف عثماني مرصع بالالماس وسرج عربي مرصع ايضاً ولجام وركابات صنعت على النمط العربي وهي من الفضة محلاة بالذهب وقد اهديت هذه كلها الى الامبراطورة كاترينا الثانية من السلطان سليم الثالث. وهنالك آنية من الذهب وبقيَّة المعادن الثمينة لا تعدا كثرها هدايا لقياصرة الروس من اقيال الشرق والغرب من ذلك آنية للمائدة كاملة كلها من الذهب الخالص تستعمل في ولائم التتويج. ومنضدة وسيف وديك ونسر من الفضة اهديت من مدينة باريس في ايام نابوليون الاول وقصع جميلة قدم عليها الخبز والملح للقياصرة علامة الخضوع وطاقم صيني من انفس انواعهِ صنع في معمل سيفر المشهور واهدي من نابوليون الاول لاسكندر الاول. ورأيت هناك كرسي خان خيوا استولى عليهِ الروس سنة ١٨٧٣ وكرسي عباس ميرزا سلطان ايران اخذ سنة ١٨٢٧ وسرير لبطرس الكبير كان يضطجع عليهِ مدة الحروب وسرير لاسكندر الاول

لهذه الغاية وسريرين لنابوليون بونابارت وقعا في قبضة الروس سنة ١٨١٢ حين تقهقر ذلك الفاتح العظيم عن بلادهم بعد واقعة موسكو . واما ملابس القياصرة الموجودة في هذه الدار فيعجز القلم عن وصفها ويضيق المقام اذكر منها ملابس اسكندر الثالث وقرينتهُ وهما والدا القيصر الحالي وهي حلة من الحرير الاصفر الفاخر فوقها رسوم النسر الروسي بالقطيفة السوداء ولها ذيل طويل مبطن بالفرو الابيض الثمين وفي صدرها (بطرشين) اكليريكي عليهِ رسوم النسر الروسي والملائكة وفوقها التاج البطريركي مرصع بانفس الحجارة الكريمة على اشكالها وفي قمتهِ نسر من الذهب فوقهُ صليب من الفضة . واما حلة القيصرة فقد صنعت كلها من الفضة الرقيقة وبطنت بالحرير الابيض وزركشت بالرسوم مماثلة لما ذكرنا عن حلة القيصر وفوقها تاج اصغر من تاج القيصر ولكنهُ لا يقل عنهُ جمالاً وثمناً . وهذه حلة ثقيلة لا يمكن للقيصرة المسير بها ولكن الاميرات التابعات لها يرفعنَ جوانب الحلة من وراء القيصرة مدة وقوفها في حفلة التتويج ومسيرها القليل . وقد وضعوا هاتين الحلتين داخل قباء او مظلة من الحرير الاصفر المزركش بالرسوم الروسيَّة يتدلى من جوانبها اهداب حريريَّة صفراء وهي قائمة على عمد رفيعة من الفضة المحلاة بالذهب عدتها اثنا عشر يمسك بكلٍّ منها قائد من قواد السلطنة الروسيَّة ويرفعون هذه المظلة فيسير من تحتها القيصر والقيصرة بابهة عظيمة

وقد اشرت غير مرة الى حفلة التتويج كما ترى فرأيت هنا ان اوضح بعض الشيء عنها لانها اكبر ما يأتيهِ البشر من انواع الابهة ومظاهر العظمة والفخامة في الحفلات الكبرى وكانت زيارتي لبلاد الروس في ايام القيصر اسكندر الثالث والد القيصر الحالي فاخترت ان اصف كيفية الاحتفال بتتويجهِ لان نظام هذه الحفلات يتغير قليلاً بحسب مطالب الزمان ورغائب القيصر ولو ان الاشياء الجوهريَّة

تظل على حالها. واما اسكندر الثالث فانهُ جاءَ ليتوج في موسكو مع عروسهِ في قطار خاص يتقدمهُ قطاران اولها رائد الطريق والثاني فيهِ بعض الاعوان والعمال وكانت الطرق كلها تحرسها الجنود الروسية والمحطات مزدانة ابهى زينة وفيها الجنود ايضاً يؤَدون التحية العسكرية ويضجون بالدعاء كلما مرَّ القيصر بواحدة منها حتى اذا وصل القطار الملوكي موسكو اطلقت المدافع وجرت رسوم الاستقبال العظيم وسار القيصر والقيصرة الى سراي بتروفسكي في الضواحي في طرق زينت انخر زينة وكانت المدينة كلها يومئذٍ في فرح عظيم وفيها من الناس الوف فوق الوف جاؤُا من كل صقع بعيد ليروا اعظم الحفلات الملوكية وكانت هذه الالوف تصيح بالدعاء وتطأْطئُ الرؤُوس تجلة واكراماً اينما سار القيصر العظيم . وبات القيصر والقيصرة تلك الليلة في قصر بتروفسكي الذي ذكرناهُ وهي عادة جرى عليها القياصرة من اول هذا القرن تذكاراً لخروج نابوليون بونابارت منهُ فانهُ جعلهُ منزلاً لهُ مدة وجودهِ في موسكو محارباً للروس ولما بدأَ الصباح التالي قامت موسكو عن بكرة ابيها لتحتفل بيوم التتويج فما كنت ترى الأَ جنوداً وقواداً وامراءَ وسفراء ووزراء ونواباً واهل مقام كبير يخطرون بالحلل الفاخرة وسيدات من كل نوع وملة يتهادينَ بجميل الملابس ويتفاخرنَ بنفيس الحلي والجواهر وقد تراكمت الوف الناس بعضها فوق بعض وامتلأَت الطرق بهم وبالرياحين والازهار والطنافس والرايات وغيرها من ادوات الزينة وما بقي سطح ولا شرفة ولا نافذة حتَّى احتشد الجمع فيها بلهفة وشوق الى رؤْية الموكب العظيم حتى ان البيوت والاماكن الواقعة في الشوارع التي مرَّ منها الموكب استأْجرها اهل اليسار بالمال الكثير ودفع بعضهم خمسة آلاف ريال او تزيد اجرة موضع تقعد فيهِ العائلة وتطل على ذلك الموكب حين مرورهِ. ولما جاءَت الساعة التاسعة من يوم التتويج امتطى القيصر صهوة جوادٍ كريم

مطهم وتبعهُ فريق من اهل الشرف الباذخ والمقام الرفيع على ظهور الجياد ايضاً حارسين لجلالتهِ ومعظمهم امراء وقواد كبراء بالملابس الرسمية والوسامات العالية والقيصر يومئذٍ بلباس قائدٍ من قواد جيشهِ الباسل . وكان امام هذه الفرقة العظيمة مركبة فاخرة اكثرها من الذهب قعدت فيها القيصرة ومن ورائها عربات اخرى بديعة الصنع للاميرات ونساء الاشراف وتابعات القيصرة وامام الكل فرق من الجند ما بين مشاة وفرسان ومدفعية وقوزاق والكل بابهى الحلل واجمل المناظر يحار المتفرج في اي اقسام هذا الموكب اولى بالتحديق والامعان ومن وراء الكل ايضاً بقية المحتفلين وفرق الجند مصطفة الى جانبي الطريق . وما زال الموكب سائراً والابصار شاخصة والقلوب مفتونة ببهتهِ وكمالهِ حتى وصل القيصر والقيصرة قصر الكرملن حيث يتوجان فدخلا من باب المخاص الذي ترفع القبعات عند دخولهِ فرفع القيصر ومن احاط بهِ من القواد والامراء ايديهم الى رأسهم علامة الاحترام ولم يرفعوا القبعات كغيرهم لانهم كانوا لابسين الملابس العسكريَّة وظلوا على ذلك الى ان اجتازوا الباب واما الباقون فكلهم طأطأوا الرؤوس ورفعوا القبعات اجلالاً واكراماً واما القيصرة والاميرات والسيدات فانهنَّ جعلنَ يرسمنَ علامة الصليب على الوجوه والصدور حتى صرنَ وراء ذلك الباب ودخل الجميع ذلك القصر الفخيم فلبس القيصر والقيصرة بدلة التتويج التي مرَّ ذكرها وحمل التاج الملوكي قائد عظيم من قواد الجيش وحمل الصولجان قائد آخر والكرة الارضيَّة قائد ثالث وقد تقدم ذكر هذه الكرة عند وصف الجواهر في القصر الشتوي وهي ترى صورتها في شعار الدولة الروسية ثم دخل القيصر والقيصرة تحت تلك المظلة التي وصفناها وقد رفعها فوق راس القيصر ١٢ قائداً وسار الموكب العظيم على مثل ما سبق الذكر الى كنيسة الصعود بين هتاف صعد الى السماء من جموع الناس

وقصف المدافع وكان الاساقفة وخدمة الدين في مقدمة الموكب ومن ورائهم امراء الدولة والوزراء والقواد وكل ذي مقام خطير حتى اذا دخلوا الكنيسة بدأت الصلاة بوقار وجلال عظيم وكان القيصر قد وقف فوق منصة عالية فرشت ارضها بالاطالس وزينت جوانبها بالذهب وبهي الالوان ولا حاجة الى وصف ما في الكنيسة من البدائع وما خامر نفوس الحاضرين من هيبة ذلك الموقف العظيم وما كان لهُ من الوقع والجمال الغريب . وتقدم رئيس اساقفة موسكو في خلال الاحتفال الديني فناول القيصر ورقة خط عليها يمين الامانة يقسمهُ القياصرة حين تتويجهم فاخذها القيصر منهُ وتلاها بصوت وقور والناس قد ملأَت افئدتهم هيبة تلك الرسوم ووقار ذلك الموضع وهاك تعريب القسم المذكور

" ياربي والهي يامالك الملوك اني اعترف برأْفتك واشفاقك وانحني خضوعاً امام مجدك العظيم لانك اخترتني ملكاً وقاضياً للسلطنة الروسية المظفرة فاجعل الحكمة السائدة في عرشك ان تهبط عليَّ من علو قدسك حتى آتي الذي يروق في عينيك وافهم كل ما ينطبق على اوامرك . وليكن قلبي مودعاً بين يديك الطاهرتين واهّلني لعمل ما يفيد الامة العظيمة التي ائمتني رئيساً لها على ان اقدّم الحساب عنها في يوم قضائك الرهيب . آمين "

هذه صورة القسم العظيم يتلوها القيصر وهو راكع والناس وقوف خاشعون حتى اذا انتهى من تلاوتها نهض وركع الحاضرون جميعهم الى ان يتم الاحتفال الديني . ولما فرغ القيصر من القسم تناول تاجهُ من يد رئيس الاساقفة ولبسهُ علامة انهُ هو رئيس الكنيسة الروسيَّة ثم تناول تاج القيصرة ووضعهُ على رأْسها ايضاً فتقدم رئيس الاساقفة ودهن راس القيصر ويديهِ وجبينهُ بالزيت المقدس وباركهُ وبارك القيصرة وتلا صلاة وجيزة ثم رفع يديهِ مبتهلاً شاكراً لله وتمَّ بذلك

الاحتفال فنهض الجمع الغفير ودقت اجراس الكنائس كلها واولها جرس كنيسة اڤان ڤلكي وعدد هذه الاجراس لا يقل عن الف وخمسماية ثم أُطلق ماية مدفع ومدفع وهتفت الجنود بالدعاء وصاحت جماهير الناس والوفهم المؤلفة باصوات الفرح والابتهال حتى ان قصف المدافع ورنة الاجراس كلها اختفت عند تلك الاصوات الكثيرة والضجة الهائلة. وعاد القيصر ومن معهُ في وسط تلك الاصوات المتصاعدة الى السماء فدخل القصر المشهور واستقرَّ بهِ المقام في قاعة القديس اندراوس التي ذكرناها وفي صدرها العرش جلس فوقهُ والقيصرة عن يسارهِ وهنالك جاءَت وفود المهنئين والذين يقدمون علامات الخضوع خبزًا وملحًا وطال المقام لكثرة القادمين من اصحاب المراكز الكبرى حتى جاءَت ساعة الطعام فدخلوا قاعتهُ وهم لا يقلون عن ثلثمائة شخص من اكبر كبراء الارض والقيصر في اولهم. وفي المساء زينت موسكو زينة باهية باهرة وظلت الحفلات والولائم والافراح قائمة بعد ذلك ثمانية ايام عاد من بعدها القيصر الى العاصمة وانتهى بذلك الاحتفال بتتويجهِ

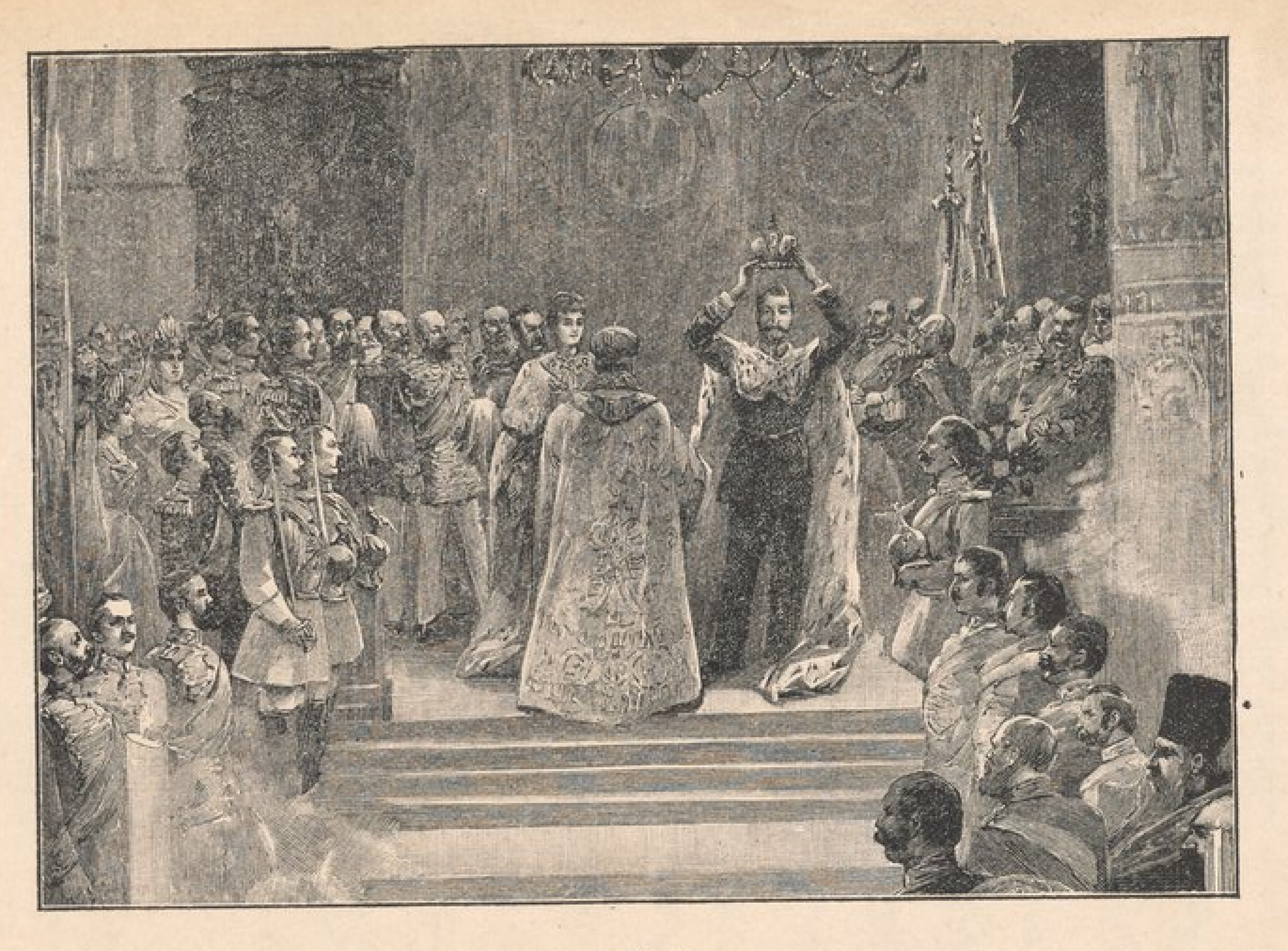
وبعد ان خرجت من هذا القصر سرت في الطريق الذي اتبعهُ الموكب الى كنيسة الصعود التي يتم فيها التتويج ورأيت غيرها من كنائس موسكو العظيمة وهي كثيرة العدد اخاف ان انا اقدمت على وصفها ان يطول الشرح الى فوق ما يمكن ايرادهُ ولكنني اقول هنا بالاختصار ان كنائس موسكو تعد في الطبقة الاولى من الاهمية بين الكنائس يكثر فيها الذهب والرخام وابواب الفضة والهياكل والمذابح من الفضة ايضًا وفيها صور ثمينة كلها مرصعة اذكر منها صورة العذراء في كنيسة الصعود هذه يقولون انها من صنع لوقا الانجيلي نقلت من الاستانة الى كنائس روسيا في القرن الثاني عشر ولا يقل ثمنها وثمن جواهرها عن خمسماية الف ريال روسي وصورة اخرى هنالك للسيد المسيح يحافظون عليها كل المحافظة

ولا يراها الاَّ القليلون في بروازها حجارة ثمينة من هدايا القياصرة لا تقل قيمتها عن نصف مليون ريال ايضاً . ومذبح هذه الكنيسة من الذهب الخالص صنع على شكل جبل طور سينا وفي اعلاهُ صورة الكليم موسى حاملاً الواح الشريعة ولا يقل ثمن هذا المذبح عن خمسين الف جنيه

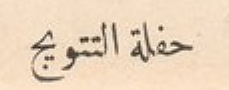
ويقرب منها كنيسة على اسم رئيس الملائكة فيها مدافن لبعض قياصرة الروس الذين توفوا في موسكو يزورها كل قيصر يأْتي هذه المدينة بعد الاحتفال بتتويجهِ ولكنهُ لايقف في الكرسي المعدّ لهُ بل بين هذه المدافن عبرة وذكرى

ومن ذلك كنيسة العذراء العجائبية يزورها كل قيصر يأْتي موسكو ايضاً ولا يمرُّ بها روسي الاَّ وهو يرسم الصليب على وجههِ فيها صورة العذراء داخل برواز غالي الثمن نفيس الحجارة واصل الصورة من دير طور سينا . والناس يعتقدون بكرامة هذه الايقونة ويقدمون لها النذور الكثيرة وقد يطوف الكهنة بها في عربة فاخرة تجرها افراس ستة فيدخلون بها بيوت المرضى ويجلُّ القوم مقامها اجلالاً عظيماً ويتبركون بحضورها فاذا قابلوها في الطريق طأْطأُوا الرؤُوس ورفعوا القبعات. وفي موسكو غير هذا من الكنائس ما ليس يمكن لنا الاشارة اليهِ بعد الذي تقدم ذكرهُ

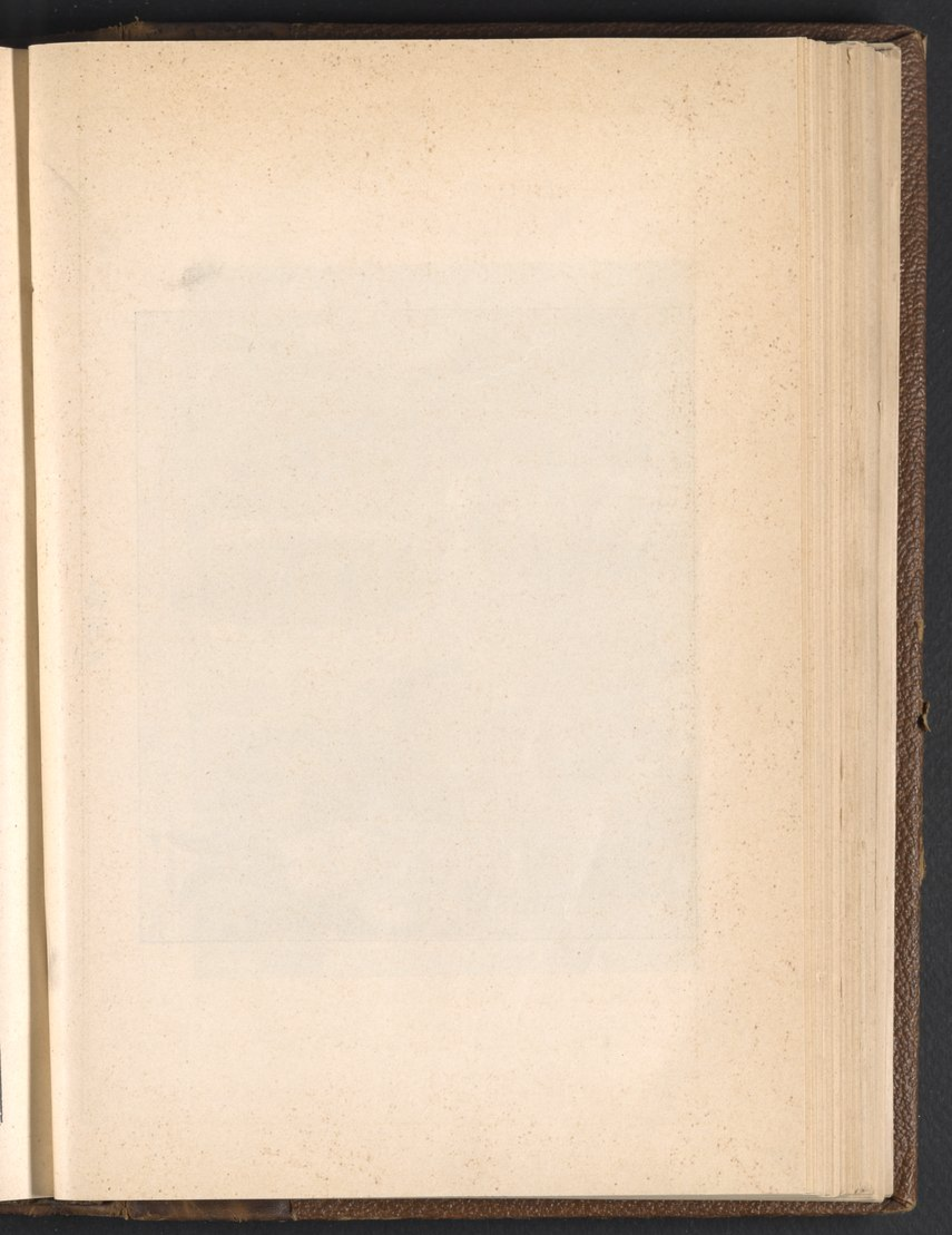
ورأيت في موسكو ساحة الاعمال الحربيَّة وهي على مقربةٍ من هذه الكنائس فيها ركام متراكمة من المدافع القديمة يبلغ عددها ٨٧٥ مدفعاً منها ٣٦٦ تركها نابوليون الاول عند تقهقرهِ من بلاد الروس وعلى بعضها الحرف الاول من اسمهِ وهناك مدافع نمسويَّة و بروسيانيَّة و بولونية و باڤارية وهولانديَّة واسوجيَّة وكلها من غنائم الحروب السابقة واعظمها مدفع مسكوبي من ايام القيصر فيودور الاول يقال لهُ ابو المدافع وزنهُ ٣٩٠٠٠ كيلو وقطرهُ متر ويلزم لكل طلقة من طلقاتهِ ٢٠٠٠ كيلو من البارود



حفلة التتويج



حفلة التتويج



ومما رأيت في موسكو متحف الصور واكثرهُ رسوم تمثل حوادث التاريخ الروسي فاني لما رأيت صورة حصار بلڤنا مثلاً وقائد الجند الروسي سكوبلف يخطر على جوادهِ بين الصفوف بعد تسليمها ذكرني ذلك بما كان من بسالة الجنود العثمانية والروسية في ذلك الحصار المشهور وما جرى للغازي عثمان باشا من الاكرام بعد ان سلم للروس وصار اسيرًا عندهم فان القيصر اسكندر الثاني وقواد جيشهِ رأوا ان هذا البطل العثماني اظهر بسالة خارقة في الحصار فاحبوا اظهار اعجابهم بصفاتهِ وارسل القيصر وراءهُ وهو اسير فجاءَ في طريق اصطف جنود الروس الى جانبيهِ ولما دخل مضرب القيصر وجدهُ واقفاً بين قواد جيشهِ الظافر فحياهُ القيصر ولاطفهُ كثيرًا وهنأَهُ باقدامهِ الغريب ثم ردَّ اليهِ سيفهُ والاسير لا يردّ اليهِ السيف الاَّ علامة الاكرام العظيم فقبلهُ البطل العثماني شاكرًا وخرج من خيمة القيصر فصاح الجنود الواقفون في الطريق "براڤو عثمان" معجبين ببسالتهِ وشكرهم هو على ذلك اللطف فكانت حكاية بلڤنا من اجمل حكايات الحروب الحديثة

وقصدت بعد ذلك موضعاً في الضواحي يسمونهُ جبل العصافير سرت اليهِ في عربة فوصلتهُ بعد ساعتين ورأيت هنالك خلقاً كثيرًا من المتفرجين وسفح هذا الجبل عند نهر موسكوڤا ثم تتعالى جوانبهُ شيئاً فشيئاً حتى تناطح السحاب وكلها مكسوة بالشجر البهي كالسنديان والصنوبر فلما ارتقينا القمة رأينا موسكو تحت انظارنا والنهر ملتف بها متعرج بين جوانبها ومن ورائها هاتيك السهول الفسيحة والاغراس البهية وذكرت ساعتئذٍ ان بونابارت استطلع المدينة حين قدومهِ لمحاربتها من هذا الوضع ولعلَّ ذلك البطل الذكي لما رأى حصون موسكو وقبابها وعظمة ما فيها حدثتهُ النفس بالرجوع عنها مدحورًا فانهُ كان سريع الخاطر كثير الاصابة في ما سيكون وهو ارتدادهُ عن بلاد الروس بالخيبة وكانت حملتهُ عليها بدء

سقوطهِ وضياع سلطتهِ. وعدت الى المدينة في المساء في النهر فعند وصولي قابلني صديق لي هو مدير شركة الكسييف التجارية العظيمة ذهبت معهُ الى مطعم ارمتاج وهو محل فخيم ينار بالكهربائية وكل ما فيهِ روسي محض فان الوان الطعام روسية والخدمة يلبسون ملابس الروس القديمة وهي سراويل ضيقة بيضاء وسترة بيضاء واسعة الاكمام وقبعة صغيرة بيضاء ايضاً فكان لهذه المناظر البهيَّة ولصوت الموسيقى تأثير مطرب واثر جميل. واهل المدينة يقصدون هذا المطعم الفاخر لاحياء الليالي وعمل الولائم والاعراس وفيهِ استعداد تام لكل ما يلزم من هذا القبيل وغرف لكل امرٍ ومطلب حتى ان السمك يوجد في بركهِ حيًّا والمرء يختار السمكة التي يريدها فيصطادونها ويطبخونها لهُ في الحال

وقد سرت مع هذا الصديق في اليوم التالي لزيارة كنيسة المخلص وهي من اعظم الكنائس وابهاها بنيت فوق اكمة تشرف على المدينة ولها قباب مذهبة بديعة الاشكال بناها القيصر نقولا الاول تذكاراً لخلاص البلاد من الفرنسويين وبلغت نفقات بنائها عشرين مليون ريال جمعت بالاكتتاب من مدن روسيا وقد اشتغلوا ببنائها ٤٤ سنة والذي فيها من الصور الثمينة والانوار البديعة والجوانب المزخرفة يفوق الوصف. وفيها خمسة آلاف نور. وكنيسة اڤان ڤليكي في برجها ٣٤ جرساً صنع اكبرها من بقايا اجراس قديمة بعد حريق موسكو سنة ١٨١٢ وزنهُ ٦٨٣٩٠ كيلو جراماً وعليهِ صور الامبراطور اسكندر الاول وبعض اعضاء عائلتهِ وهو يقرع مرتين في السنة هما يوم عيد الميلاد ويوم عيد الفصح ويقرع ايضاً عند التتويج او عند حدوث حادث في السلطنة عظيم كوفاة قيصر او ما يشبه هذا. واعظم منهُ بل هو اعظم اجراس الدنيا الجرس الكبير الملقى الى الارض على مقربةٍ من هذا البرج وضعوهُ في قبة متينة فسقطت من ثقلهِ علوهُ ٨ امتار ومحيط فوهتهِ ٢٤ متراً

فيمكن لعشرين شخصاً ان يجتمعوا داخلهُ وعليهِ نقوش دينيَّة ورسوم بعض القياصرة ويؤخذ من كتابة عليهِ ان الامبراطورة حنه صبتهُ سنة ١٧٣١ ويبلغ وزنهُ ١٩٥٠٠٠ كيلو

وقد ذكرنا ان القياصرة اذا اتوا موسكو للتتويج باتوا في قصر بتروفسكي تذكاراً لخروج نابوليون منهُ وهو بات فيهِ ليلة اندحارهِ وتقهقرهِ عن موسكو ومما يذكر عنهُ انهُ جاء بلاد الروس ومعهُ ٥٠٠ الف جندي فلما خرج من موسكو كان معهُ ٤٠ الفاً فقط وذلك بسبب ما اصاب هذا الجيش من هجمات الروس والبرد الشديد وتراكم الثلج وقلة الزاد . وقد مات هذا الخلق الكثير اي المائة والعشرة آلاف في ايام ثلثة فقط من ١٩ الى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨١٢ فسرت الى هذا القصر في سهل فسيح تحيط بهِ الحدائق الغناء والرياض الفيحاء ووراؤها ساحة التمرينات العسكريَّة وميدان لسباق الخيل ومنتزهات وقصور جميلة حتى اتينا القصر ورأينا جوانبهُ ولا حاجة الى الوصف والاسهاب بعد كل الذي كتبناهُ عن قصور القياصرة العظام

وجملة القول اني شغفت بهذه المدينة وآثارها العظيمة فما ابقيت منها شيئاً حتى قصدتهُ ولما انتهى الاجل وعولت على الرحيل منها غادرتها وقصدت غيرها من مدائن الروس منها مدينة

كييف

فاجتاز القطار بنا المسافة بين المدينتين في ٢٧ ساعة قضينا معظمها نخترق الهضاب والبطاح ونسرح الانظار في تلك المروج النضرة والحراج الغضة والحقول الفسيحة مرصعة بالقرى والعمائر وفيها الفلاحون بالجبات الطويلة والجزم الروسيَّة

المتينة والنساء بملابس من الشيت يعملنَ في انبات الارض واستدرار خيرها على مهلٍ والرزق متوفر لديهم بما نالوا من خصب الارض وطيب الهواء. وكييف ولا يخفى كانت عاصمة الروس قبل موسكو وهي تعد مدينة مقدسة عند القوم لان النصرانيَّة امتدت منها الى بقية نواحي المملكة وفيها مناسك الاولياء ومعابد قديمة العهد وهي عاصمة اقليم كبير بنيت على ضفة نهر دنيبر العظيم وهم يسمونهُ نهر اورشليم لان الذين اعتنقوا الدين المسيحي عند دخولهِ البلاد تعمدوا في مائهِ ولمنظرها جمال تحفظهُ الذاكرة لان احياءَها واقعة على تلال واكام تليها عقبات وساحات وهي مشهورة بتجارة الغلال لانها مثل اكثر مدائن الروس في وسط سهول تكثر فيها الزراعة

ومن اشهر ما في كييف الدير القيصري وكنيستهُ والمغارات المقدسة الى جانبهِ وهو على راس اكمة بديعة قصدناه ُ ودخلنا تلك المغائر الضيقة فرأينا فيها مدافن المتعبدين الاول توقد الشموع الى جانبها ليل نهار وللناس ولع بزيارة هذا الموضع حتى انهم لا يقلون عن مايتي الف زائر كل عام . وفي هذا الدير مدرسة لاهوتية ومطبعة وفرن للقربان المقدس بلغ ثمن ما وزع منهُ على الزائرين في سنة واحدة خمسين الف ريال . وفيهِ كنيسة كانها قطعة من الذهب لكثرة ما ذهبوا من جوانبها وقد اودعوا فيها عظام القديس ثيودوسيوس . وهنالك موضع بسيط لا اثر فيهِ للعظمة غرسوا فيهِ صليباً والى جانبهِ بركة من الماء يحترمها الروس احتراماً عظيماً لان الموضع هذا كان اساس النصرانيَّة في البلاد واول من تنصر من اهلها عمد في تلك البركة فهم يتبركون بمائها وينقلونهُ الى ابعد الانحاء . واكثر ما في كييف مناظر مثل هذه لست ارى داعياً الى الاسهاب في وصفها

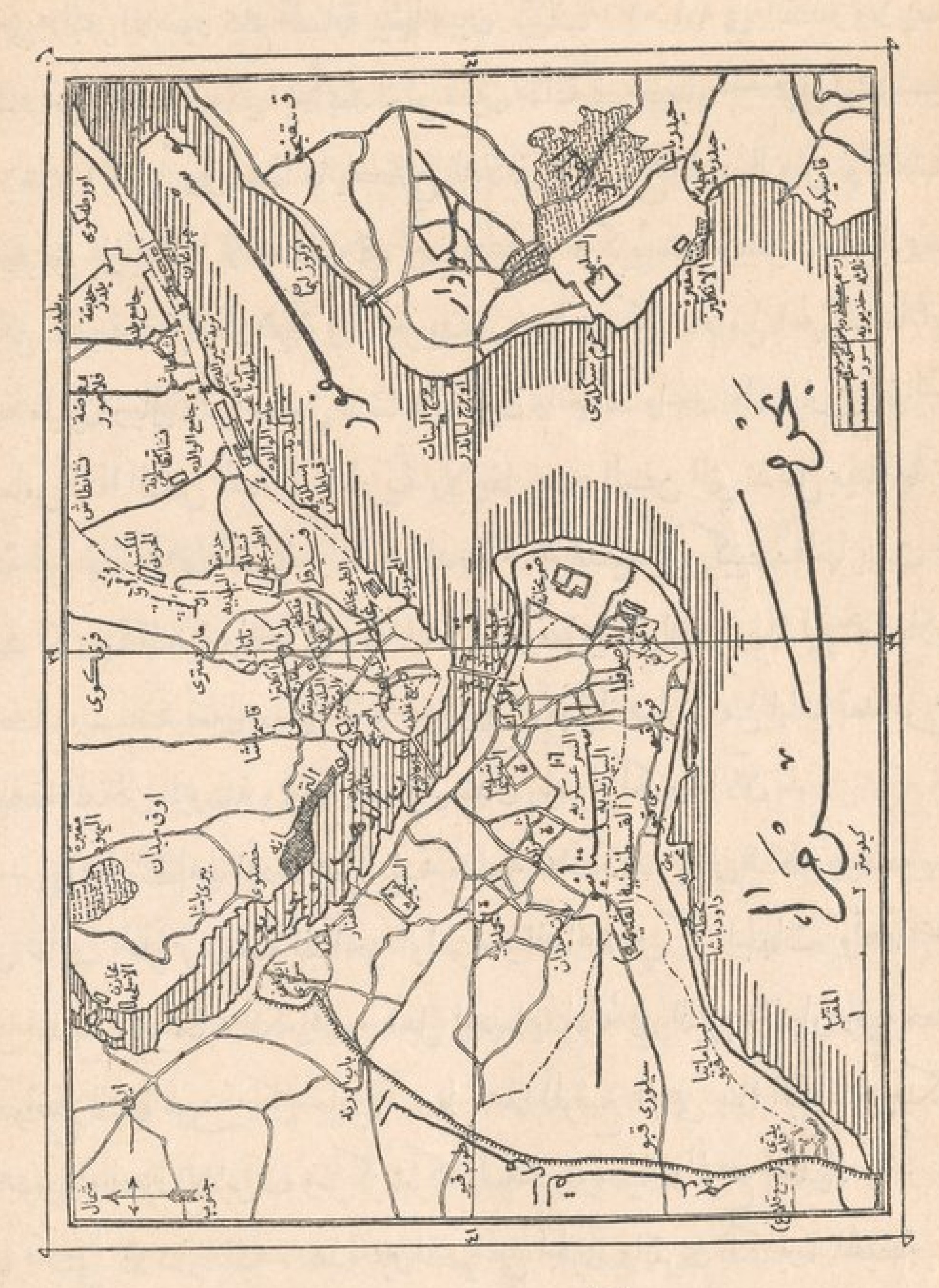
اودسا

وتركت كييف قاصدًا اودسًا وهي مدينة للروس عظيمة في الجنوب على شاطئ البحر الاسود تبلغ المسافة بينها وبين كييف ١٦ ساعة في القطار ولا يصل المسافر من بطرسبرج اليها الاَّ بعد سفر ستين ساعة في القطار المستعجل يجتاز في خلالها ١١ اقليماً وفي هذا ما يكفي للدلالة الى اتساع بلاد الروس وعظمتها .

والطريق الى اودسا لا يختلف في وصفهِ عما مرَّ ذكرهُ من مناظر البلاد الروسيَّة ولكن المدينة عظيمة الاهميَّة والمتاجر يصدر منها في كل عام من الحبوب ما قيمتهُ ماية مليون ريال وفيها معامل للنشا والصابون والحديد والجلد والدخان والشمع ومعامل لبناء السفن التجاريَّة والحربيَّة ولا يقل عدد السفن التي تدخل ميناءها كل سنة عن ستة آلاف سفينة . ولهذه المدينة تاريخ قديم مثل كييف فانها بنيت على عهد كاترينا الثانية واتاها في سنة ١٧٩٠ فرنسوي هو الدوك ريشليو هجر بلادهُ لاسباب سياسيَّة فعين حاكماً لها ونظمها ورفع منزلتها فصارت من ايامهِ تعد من امهات المدائن الروسية وهي الرابعة بين مدن روسيا الكبيرة الآن

واعظم مشاهد اودسا محل يشبه منشية الاسكندريَّة في شكلهِ ووضعهِ وهو الى جانب البحر ترى منهُ البواخر الراسية او السائرة في كل الجهات وقسماً عظيماً من المدينة وهو مثابة الكبراء من اهل اودسا ينتابونهُ في الليل والنهار وفيهِ مطاعم ومواضع للتنزه من كل جانب . ويلي هذا الموضع البهي بناء البورصة والمكتبة العمومية ونادي الاشراف ومركز شركة البواخر الروسية والمرسح الجديد وغير هذا مما اكتفي بالاشارة اليهِ . هذا غير الضواحي الجميلة والقرى الكثيرة المحيطة بهذه المدينة مما قضيت ردحاً من الزمن في التفرج عليهِ الى ان آن زمان السفر من بلاد الروس فتركتها معجباً بما فيها

الاستانة



خريطة الاستانة

اني برحت اودسا وهي آخر المدن الروسية قاصدًا الاستانة في البحر الاسود وركبت باخرة روسيَّة ظلت ثلاثة ايام في هذا البحر حتى وصلت اول البوسفور

فوقفت قليلاً وجعلتُ اتأمل تلك الحصون المنيعة التي اقامتها الدولة العلية الى جانبي البوغاز وصوّبت مدافعها الى حيث تجري البواخر . ولما سارت الباخرة في البوسفور ظهرت بدائعهُ من الجانبين سواءٌ مناظرهُ الطبيعية او القصور الشماء والرياض الفاخرة التي رصعت بها جوانب الارض مماسنصف بعضهُ حتى وصلنا جسر غلطه وهو الذي نزلنا من الباخرة اليهِ وبعد التفتيش ذهبنا الى فندق رويال في حي بك اوغلي حيث اقمت مدة وجودي في الاستانة

وقد كان موقع الاستانة ذا شهرة من قدمٍ وعرف باسم بزانتيوم ورد ذكرها في القرن السادس قبل التاريخ المسيحي حين محاربة الفرس والروم وتوالت عليها الدول فيوماً كانت تقع في حوزة الروم ويوماً يملكها الفرس حتى اذا دالت دولة الايرانيين الاولى صارت من المدن الرومية وظلت على ذلك الى ان فتحها قياصرة الرومان مع بقية الولايات الروميَّة ولكنها لم تشتهر بشيءٍ كبير حتى قام الامبراطور قسطنطين الاول سنة ٣٠٦ مسيحيَّة واعجب بموقعها فشاد بها العمائر وجعلها مقرَّ سلطنتهِ وسماها "رومه الجديدة" الاَّ ان الخلف اطلقوا عليها اسم الامبراطور الذي اسس دور عظمتها فهي تعرف باسم القسطنطينيَّة الى هذا اليوم

وفي سنة ٣٩٥ قسمت سلطنة الرومان هذه جزئين احدهما غربي عاصمتهُ رومه والثاني شرقي وعاصمتهُ الاستانة فصارت هذه المدينة الجميلة مركز سلطنة كبيرة تعرف باسم المملكة الشرقيَّة لم يشتهر عنها شيءٌ يوجب الفخر لان الضعف كان من صفات ملوكها والفساد عمَّ بين اهلها الى ان قام امبراطور اسمهُ جوستنيانوس في سنة ٥٢٧ فاصلح بعض امورها وطهر حكومتها من الفساد السابق ورفع منزلة جيشها وادارتها ونشط العلم واكرم العلماء واحيا بعض الصناعات فدخلت المملكة الشرقيَّة على عهدهِ في دور جديد من الحياة ولم تزل آثار ذلك العصر البهي

يرى السائح شيئاً منها في اكثر المعارض الحديثة. وحدث بعد هذا بقليل ان الاسلام انتشر في الشرق فجاء جنود العرب عاصمة الدولة الشرقيَّة هذه وهاجموها مراراً ولكنهم لم يقووا على فتحها مع انهم اخضعوا عدة بلدان كانت تابعة لها. وظلت هذه المدينة محافظة على استقلالها مع الضعف الظاهر فيها حتَّى حصلت الحروب الصليبية المشهورة فمرَّ جنود من الفرنجة بها وملكوها واتلفوا شيئاً كثيراً من عمائرها ونفائس الصناعة القديمة فيها ثم عادوا عنها واسترجع الروم استقلالها فظلت على ذلك حتى قيام الدولة العثمانية وكان اول من هاجمها من سلاطين آل عثمان السلطان مراد الثاني اتاها من ادرنه في سنة ١٤٢٢ فلم يفلح وخلفهُ ابنهُ السلطان محمد الثاني وهو الملقب بالفاتح فوجه همهُ من يوم ارتقاء العرش الى افتتاح هذه المدينة وحاصرها في اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٤٥٣ ففتحها في التاسع والعشرين منهُ بعد قتال شديد وحرب عنيفة قتل فيها الامبراطور قسطنطين باليولوغوس وهو آخر ملوك الدولة الشرقية وصارت الاستانة من ذلك العهد مقر السلطنة العثمانية

ولا حاجة الى القول ان الاستانة دخلت في دور جديد من العظمة والاهمية بعد هذا الفتح لان سلاطين آل عثمان ارهبوا اوروبا وارجفوها وكانت عاصمة بلادهم تعتز بعزهم فلما اشتهر امر قوتهم الهائلة صارت هي اعظم مدائن الارض واشهرها وعُني السلاطين ببناء الآثار فيها فسارت في خطة الارتقاء الى ان بدأت الدولة العلية بالتقهقر السياسي من بعد ايام السلطان سليمان القانوني فصارت العواصم الاخرى في اوروبا من مثل لندن وباريس وبطرسبرج اكثر اهمية من عاصمة الدولة العلية

على ان التقهقر السياسي لم يحط من قدر الاستانة وهي زينة البرين ودرة البحرين والصلة الحسنى ما بين القارتين فانها وجدت في اجمل المراكز وامنعها اذا

تأملتها من وجه سياسي رأيت انها في مركز العمران هي الحد الفاصل ما بين اوروبا واسيا حتَّى ان نصفها بني في اوروبا والنصف الآخر في اسيا والذي يملك مركزها يعدُّ مالك احسن المراكز الحربيَّة في الوجود وهذا الذي قلناه ُ رأي اكبر اهل السياسة والنظر من عهد بعيد . واما من حيث الاهمية الجغرافيَّة فقليل بين مدائن الارض ما يحيط بهِ كل هذا العدد الغريب من الممالك والولايات وفي جمال المنظر اجمع اهل العلم على وضع الاستانة في الموضع الاول

وقد زاد الاستانة بهاءً وجمالاً انها بنيت على تلال فهي تعرف باسم مدينة التلال السبعة فالقادم اليها من جهة البوسفور يسحره ُ جمال هاتيك الروابي البهيَّة رصعت بافخر المنازل وازدانت جوانبها بالخضرة النضرة من فوق ماءٍ نقي في مجرى البوسفور وقد قسمت الطبيعة هذه العاصمة قسمين كبيرين شرقي في اسيا وهو المعروف باسم اسكودار واهله ُ جلهم اتراك وقسم آخر في الناحية الاوروبية وبين القسمين بوغاز البوسفور وبحر مرمرا وقد توسط ما بين البوسفور ومرمرا متسع من الماء سمي قرن الذهب وهو يقسم الشطر الاوروبي من الاستانة قسمين اولهما قسم بيرا وغلطه وسكانهما خليط من الفرنجة والارمن وبقية السكان غير الاتراك وهو اهم اجزاء المدينة والثاني وهو المدينة الاصلية يعرف باسم استامبول وسكانهُ اتراك ونزلاءُ على اختلاف الاجناس . وتمتاز هذه العاصمة البهيَّة بامور عدة منها اجتماع الاجناس الكثيرة من كل لون وشكل في ربوعها فهنالك الجنس الاوروبي من اهل النسق الحديث والجنس الشرقي من اواسط اسيا واقاصيها واطرافها بالملابس الاسيويَّة والافريقي يسير الى جانب الشركسي والرومي يقيم مع الداغستاني والاسوجي يلتقي في كل حين بالايراني فما ترى في مدينة من مدائن الارض موضعاً ضمَّ كل هذه الاجناس المتباينة وليس بين المدائن واحدة فيها من الازياء

الغريبة مافي هذه العاصمة العظيمة التي لم يبنِ الناس موصلاً بين الشرق والغرب اهم منها ولا عثروا على مركز اجمل من مركزها

وقد مرَّ بك اني توجهت حال وصولي من غلطه الى الفندق في بك اوغلي وهذان القسمان اهم اجزاء الاستانة يمكن الوصول من احدهما الى الآخر بثلثة طرق اولها نفق تحت الارض حفروهُ ومدوا فيهِ خطوط الحديد تسير عليها العربات بقوة الضغط فاذا شاء المرء ان ينزل من بيرا الى غلطه وضفة البوسفور دخل محطة النفق هذا وقعد في عربة مع غيرهِ حتى اذا جاء موعد الحركة تحركت العربات هاوية تحت الارض فلا تستقر الاَّ في محطة غلطه . واما الطريقة الثانية فالسير على الاقدام والشوارع التي تمر بها هنا مهملة مثل اكثر شوارع الاستانة لا يستثنى منها غير شارع بيرا . والطريق الثالث تجري فيهِ عربات الامنبوس مارةً امام البنك العثماني

ولما كان منظر الاستانة بوجه الاجمال من ابهى مناظر الارض سبق الى ذهني ان اراها في لحظة من الزمان قبل ان ابدأ بالتفاصيل وذلك متيسر فيها من عدة اماكن نظراً لوضعها البديع واحسن ما يكون في برج غلطه المشهور وهو برج مرتفع بني على مقربة من البوسفور وكان القصد من بنائهِ الاشراف على نواحي المدينة كلها لا يصال أخبار الحريق اينما شبت النار الى رجال المطافىء. والحرائق كثيرة هنالك لان المدينة مبنية اكثر منازلها بالخشب وفي بعض جهاتها ازدحام يساعد على انتشار النار فاذا رأى الرجل الواقف في اعلى هذا البرج ناراً لوح براية حمراء في يدهِ يراها رجل آخر في برج السردارية هو ابدًا يرقب ما حولهُ ولا يبرح مكانهُ حتى يأتي سواهُ لاستلامهِ فاذا لاحت الراية أُطلق مدفع يسمعهُ رجال المطافىء وأُعطيت اشارة بالجهة المقصودة فيهب الرجال ولا هبوب الرياح وهم يحملون المطافىء على

اكتافهم ولهم حين يقومون لمثل هذه الغاية منظر غريب لان اكثرهم من اقوياء الرجال يعدون في الطريق وعلى وجوههم جرأة الاسود الكواسر فلا يقف في طريقهم شيءٌ ولا يردهم عن امرهم رادٌ حتى يصلوا النار ويبدأوا باطفائها واكثرهم يتشاركون ويتعاونون على هذا العمل ولهم اجرة يتقاضونها على كل نار يطفئونها وما هم بفرقة منظمة تحت امرة الحكومة مثل رجال المطافئ في اكثر النواحي الاوروبيةَّ. ولذلك قصدت برج غلطه المذكور بعد وصولي بيوم واحد وارتقيت القمة فراق لي منظر هذه المدينة العظيمة وضواحيها الباهرة من كل جانب وانت اذا صعدت قمة هذا البرج وجدت نفسك في دار او رحبة لها ١٤ طاقة كبرى تريك ما حولك من الارض في كل جهة ففي الشمال جهة قاسم باشا ونظارة الحربيةَّ وقرن الذهب وفيهِ الباخرات العثمانيةَّ راسية وفي الشرق ترى حارة الطوبخانة وحي فندقلي وفيهِ سفارة المانيا وحي نشان طاش قامت في اواخرهِ سراي يلدز العظيمة . ثم اذا تلفتَّ يميناً بعد هذه المناظر لاح لك البوسفور البهي بمائهِ المترقرق والسفائن التجاريةَّ ذاهبة وآيبة فوق سطحهِ تحدثك بغريب امرهِ ويلي ذلك طاقات ترى منها الباب الهمايوني ومركز الصدارة العظمى ووزارات الدولة العلية من ورائها اسواق الاستانة تنتهي بمنظر ايا صوفيا وجامع السلطان احمد بمآذنهِ الست وجامع نور عثمان ثم سراي السر عسكريةَّ وسراي شيخ الاسلام وبعض الجوامع المشهورة والمشاهد الاخرى التي سنعود اليها وجملتها تؤَثر في النفس تأثيراً عظيماً يشهد بما لهذه العاصمة من فريد الجمال وغرابة الموقع الطبيعي وعظيم المشاهد

ولا بد لكل من يقيم يوماً واحداً في الاستانة ويسمع بشطريها العظيمين وبحريها البديعين ان ينتقل من احد قسميها الى الآخر فوق جسر غلطه المشهور وهو ينتقل عليهِ الناس بين غلطه واستانبول ويعد الحد الفاصل بين البوسفور وقرن

الذهب يمرُّ عليهِ كل يوم الوف من الناس اكثرهم مشاة على الاقدام وبعضهم في العربات اوعلى ظهور الخيل وكل ذاهب اوآيب يدفع عشر بارات رسم العبور على هذا الجسر فيجتمع عند الحكومة من ايرادهِ مبلغ يستحق الذكر كل يوم وما رأيت نقطة في الارض ترى فيها اشكال الناس المتباعدة مثل جسر غلطه هذا فان الذي يقف فوقهُ ويتأمل المارة ساعة من الزمن يرى الذي لا يراهُ بعض السائحين في اشهر طوال ولا عجب فهنالك الحلقة الموصلة بين العالمين كما قدمنا. والجسر مبني من الخشب على عمد من الحجر متينة وهو يقف عند طرفيهِ خادمون يتقاضون الرسم من المارة باليدين فكلما امتلأت يد واحدٍ منهم افرغها في مكتب من الخشب عند طرف الجسر يقيم فيهِ عامل من الحكومة يدفع اليها المجموع في آخر النهار وقد اعتاد هؤلاء العمال جمع الضريبة حتى انهم لا يوقفون المار لحظة بل يقبضون من هذا باليمين ويصرفون لذلك القطع الكبيرة باليسار ولا يخطئون وهو سائر في طريقهِ لا يقف لدفع ما عليهِ

ولا بدَّ ان يعلم القراء ما لجامع اجيا صوفيا من الشهرة وهو اعظم جوامع الدنيا كان اصلهُ كنيسة بنيت على عهد الامبراطور جوستنيانوس الذي مرَّ ذكرهُ وكان في نيتهِ ان يجعلها اعظم ما بني من نوعها فاستحضر لها الاعمدة الثمينة من الهياكل القديمة في اثينا وروما وبعلبك ومن بعض الهياكل المصريَّة واستخدم في البناء عشرة آلاف رجل اقام عليهم المقدمين والوكلاء وكان هو يأتي بنفسهِ من حين الى حين ليراقب الاعمال وينشط العمال لفرط اهتمامهِ بتلك الكنيسة. ثم ان هذا الامبراطور اراد ان يجعل قبة الكنيسة من غرائب البناء فصنع لهُ عمالهُ نوعاً من الآجر او القرميد خفيف الوزن لا يزيد عن عشر غيرهِ وزناً وجدوا ترابهُ في جزيرة رودس ونقشوا على كل قطعة منهُ جملة معناها "ان الله جبلها وهو

يحفظها " وكانوا يصلون الى الله مدة البناء ان يؤيد دعائمهُ ويوطد اركانهُ فما اخطأُوا لان البناء هذا قاوم فعل الطبيعة مدة القرون الطوال ولم يزل الى يومنا الحاضر شاهداً على اجتهاد بانيهِ وغرابة وضعهِ وتقدم الصناعة في تلك الايام. ثم ان القوم انفقوا على تذهيب هذه الكنيسة مقادير وافرة من الذهب فان ادوات العبادة و٢٤ انجيلاً كانت كلها من الذهب الخالص وكان الهيكل قطعة من الذهب الثمين مرصعاً بالحجارة الكريمة ومائدتهُ قائمة على اربعة عمد من هذا المعدن النفيس ووزن سقفها ١١٨ رطلاً من الذهب الخالص وعليها صليب وزن ذهبهِ ٨٠ رطلاً مصرياً ولا حصر للاموال التي أُنفقت على هذا المعبد العظيم. واحتفل بتدشينهِ رسمياً بعد الفراغ من البناء والزخارف وعمل ١٦ عاماً متواصلاً وكان الامبراطور حاضراً في ذلك الاحتفال فوقف في ختامهِ وقال " الحمد لله الذي اختارني لاتمام هذا العمل وها اني قد غلبتك ياهيكل سليمان " ثم ما زالوا يفرقون الصدقات ويرتلون ويسبحون بعد ذلك مدة ١٤ يوماً كاملاً

ولما فتحت الاستانة يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الفاتح هذه الكنيسة وهو على جوادهِ والسيف مشهر في يدهِ ونادى (لا اله الاَّ الله محمد رسول الله) ثم جعلها جامعاً للمسلمين وابقاها على اصلها فلم يخرب منها الاَّ الذي لا يجوز في الشرع الاسلامي ولذلك ترى داخل الجامع الآن على شكل الكنائس وفيهِ من آثار العبادة النصرانية شيءٌ كثير. واضاف هذا السلطان الفاتح مأْذنة الى الجامع الجديد ثم اضاف السلاطين من بعدهِ مآذن اخرى وكان آخر من انفق الاموال الطائلة عليهِ السلطان عبد المجيد فانهُ اصلح فيهِ كثيراً واستخدم لذلك مهندساً ايطالياً مشهوراً فلما تم الترميم والبناء احتفل السلطان بذلك احتفالاً عظيماً في سنة ١٨٤٩ وهو الى الآن اعظم جوامع الارض واشهرها دخلتهُ من احد ابوابهِ

التسعة ومشيت في رواق طوله ٦٠ مترًا وعرضهُ عشرة امتار وفي جدرانهِ قطع من الفسيفساء تلمع وتسطع مع اهمال امرها. والفسيفساء قطع من الزجاج تلصق بعضها ببعض وتدهن بالذهب فيكون لها منظر شهي رائق فظللت اسير في ذلك الرواق واتأمله حتى انتهيت الى ساحة الجامع الداخلية وهي لا تقل عن ٧٥ مترًا في الطول و ٧٠ في العرض ولها قبة مركزية علوها ٦٥ مترًا وقطرها ٣١ مترًا قامت على ستين عمودًا ولها منظر غاية في الفخامة والبهاء وقد كتب على جدران القبة وجوانبها آيات من القرآن بخط جميل ومن حولها اسم الجلالة واسم النبي (صلعم) واسماء الصحابة وكل ذلك باجمل انواع الخط وفي الوسط نقوش وزخارف فاخرة نفيسة . والى جانب المحراب سجادة قديمة يقال ان محمدًا الفاتح صلى عليها يوم دخولهِ هذه الكنيسة وهناك مكان خاص بجلالة السلطان يحجبهُ حاجز من الشعرية المحلاة بماء الذهب . وصعدت الطبقة العليا من الجامع وهي كانت على عهد النصرانية موضع النساء حين الصلاة ولاحظت مدة تنقلي في جوانب هذا الجامع العظيم ان كثيرًا من بلاط ارضهِ مكسر وفي جدرانهِ ظواهر التدمير والاهمال وحصرهُ بالية مقطعة وادلة التقتير عليهِ من اولياء الامر بادية في كل جانب مع ان اوقافهُ عظيمة وشهرتهُ اعظم ولو قابل المرء حالة آجيا صوفيا بحالة جامع القلعة في مصر لرأى فرقًا كبيرًا في التفات الذين يجب عليهم الالتفات فان الانقان هنا ظاهر والاهمال الى الدرجة التي رأيناها في الاستانة غير معروف

وفي صحن الجامع من الخارج مدفن السلطان سليم الثاني وسبعة عشر من اولادهِ خنقهم السلطان مراد الثالث لما ولي السلطنة سنة ١٥٦٦ وكذلك قبر السلطان مراد الثالث هذا واولادهُ التسعة عشر خنقهم السلطان محمد الثالث بعد توليتهِ سنة ١٥٧٤ ومثل هذا غير قليل في تاريخ آل عثمان

ويقرب من هذا الجامع في الاهميَّة والشهرة جامع الاحمديَّة بناهُ السلطان احمد سنة ١٦١٠ واهتمَّ لامرهِ حتى انهُ كان يحضر مرة في الاسبوع ليشاهد العمل بنفسهِ وينشط العمال . ولهذا الجامع ست مآذن وباب كبير دخلنا منهُ الى رواق عظيم يعلوهُ اربعون قبة صغيرة قامت على عمدٍ من الرخام وفي وسطهِ بركة جميلة من الرخام البديع .وانتهينا من هذا الرواق الى صحن الجامع طولهُ ٧٢ مترًا وعرضهُ ٦٤ وفوقهُ قبة فخيمة قائمة على اربع عضائد ضخمة متينة وقد نقشت عليها الآيات القرآنيَّة واما المنبر فمن المرمر وقد صنع على شكل منبر الجامع النبوي في مكة وفي قمتهِ تاج من فوقهِ هلال والتاج والهلال مذهبان . وقد اشتهر هذا المنبر في التاريخ بان الامر القاضي بالغاء وجاق الانكشاريَّة في ايام السلطان محمود تلي عليهِ وكان ذلك بدء انقلاب عظيم في نظامات الدولة العلية العسكريَّة . وفي الجامع هذا شيءٌ كثير من الشمعدانات الكبيرة تشبه العمد منصوبة في اليمين وفي اليسار وفوقها قناديل ضخمة ذات مناظر بديعة ولهُ عدة شبابيك مغشاة بالزجاج الملون لا يقل عدد قطعها عن المائة وهي زاهية الالوان عليها اسماء الصحابة وفي سقف القبة ثريات ومصابيح وعدد كبير من بيض النعام علّق بسلاسل من النحاس المذهب واذا انيرت مصابيح هذا الجامع في شهر رمضان كان لنورها رونق وبهجة خاصة لا يتخلف عنها احد من اهل الاستانة . وقد دفن السلطان الذي بنى هذا الجامع في صحنهِ الخارجي

ومثل هذا يقال في جامع السليمانية بناهُ السلطان سليمان القانوني وجعل لهُ اربع مآذن وظل العمال ستة عشر عامًا في بنائهِ فما انتهوا منهُ الَّا سنة ١٥٦٦ وقد اخذت ادوات كثيرة لهُ من بعض الكنائس . ولهذا الجامع قبة جميلة قطرها ٢٦ مترًا وهي قائمة على اربع عضائد ضخمة من الرخام السماقي طولها ٢٠ مترًا ومحيط الواحدة منها اربعة امتار .وجدران هذا الجامع من داخلها مدهونة كلها بلون ابيض

ضارب الى الزرقة وقد حلي بعروق ورسوم من الذهب في كل جانب فكان لمنظرهِ
بهجة تشرح الصدور وفي جميع نوافذهِ وكواهُ زجاج ملوَّن اتوا بهِ من بلاد ايران
وعليهِ كتابات دينيَّة وفي صدرهِ منبر عظيم القدر والقيمة ومصلَّى خاص بجلالة
السلطان عليهِ نقوش بديعة وفي كل جانب منهُ آيات بينات تشهد بالاعتناء ووفرة
المال الذي انفق عليهِ وهو لا يقل عن عشرة ملايين فرنك هذا غير الذي ينفق
عليهِ كل سنة من او قافهِ الكثيرة . وقد دفن باني هذا الجامع في ساحتهِ من الخارج
والضريح يحيط بهِ رواق قائم على ٢٩ عموداً دخلناهُ من دهليز قائم على اربعة
عمد وفوقهُ قبة خضراء بديعة لها اربعة عمد من الرخام الابيض واربعة من الرخام
السماقي وفي القبة نقوش من الزجاج الملون تلمع وتسطع وقد تدلت منها ثريات
غاية في حسن الصناعة والبهاء وتحت تلك القبة ضريح السلطان واضرحة بعض
خلفائهِ وكلها مغطاة بالشالات الكشميريَّة والخدم من حولها يعتنون بامرها في
كل حين

ولما انتهيت من رؤية هذه الجوامع المشهورة عدت الى غلطه ومشيت صعداً
الى اعلاها لان الاستانة اكثرها صعود ونزول كما قدمنا يعسر على العربات ان
تسير فيها بغير قلقلةٍ وقرقعة فدخلت حديقة البلديَّة وهي اشهر حدائق الاستانة
ومقر المتنزهين من اهل غلطه وبك اوغلي (بيرا) وفيها موسيقى عسكريَّة تصدح
كل مساء وبعض المطاعم والحانات وموقعها جميل معروف. وبعد ان خرجت من
هذه الحديقة سرت الى شارع بيرا وهو قريب منها يعد اكبر شوارع الاستانة
واعظمها واكثرها اتقاناً ترى فيهِ من الابنية الحديثة والمخازن الكبرى ملئت
بالابضعة النفيسة ما بين شرقيَّة وغربيَّة مالا تراهُ في ناحية اخرى من نواحي
الاستانة . وشارع بك اوغلي هذا ملتقى الهيئة الاجتماعية في الاستانة واكثر

ما يكون وجود النزلاء الافرنج في حاناتهِ ومخازنهِ وجوانبهِ حتى ان بعضهم ليعدهُ من الشوارع التي تستحق الذكر بين الشوارع الاوروبية

ولما كان اليوم التالي عدت الى استامبول بطريق النفق وجسر غلطه اللذين ذكرناهما وقصدت جامع السلطان بايزيد وهو من الجوامع المشهورة بناهُ السلطان بايزيد سنة ١٤٩٨ لهُ باب من الرخام الاحمر والابيض قائم على عشرين عموداً ولم ازل اذكر اسراب الحمام الغريبة في هذا الجامع تعد بالالوف وينفق على طعامها من اوقاف الجامع لها خدمة ينقطعون لخدمتها وهي اذا جاء الجامع غريب التفت من حولهِ غير وجلة ولا جافلة حتى انك لتمسك بعضها بيدك وهي لاتحاول الفرار بل تتناول ما ينثر لها من الحبوب فتسر بمرآها الناظرين . ويروى من امر هذا الحمام ان السلطان بايزيد ابتاع زوجاً من فقير كان واقفاً على باب الجامع وامر ان يكون ذلك الزوج وقفاً فما زال يتناسل ولا يمسهُ احد بسوءٍ حتى بلغ ذلك القدر

ولما تمَّ لي بذلك رؤية اشهر الجوامع سرت لمشاهدة اثر قديم هو مسلة مصريَّة تعرف باسم الامبراطور ثيودوسيوس الذي مرَّ ذكرهُ وكان هذا الامبراطور قد نقلها الى عاصمتهِ من معبد الشمس (هليوبولس) في المطريَّة سنة ٣٩٠ مسيحيَّة وقد نصبت على قاعدة من الرخام مربعة الشكل ونقش على احد جوانبها ثيودوسيوس جالساً على عرشهِ مع زوجتهِ واولادهِ وعلى الجانب الآخر رسمهُ يستقبل وفود الحكام ومعهم الهدايا وفي الجانبين الباقيين رسوم لهُ وهو يكلل الظافر في العاب اولمبيا وقد صنعت هذه المسلة من الرخام الاحمر وهي الآن في وسط ساحة صغيرة يراها كل زائر لعاصمة الممالك العثمانيَّة

ومن الآثار القديمة في الاستانة او هي اقدم الآثار التاريخيَّة عمود الحيَّة بناهُ الروم الاقدمون في سنة ٤٧٨ قبل التاريخ المسيحي تذكاراً لانتصارهم على جموع

الفرس في معركة بلاتا وانفقوا عليهِ مما سلبوهُ من جيش اعدائهم ونصبوهُ امام هيكل دلفي حيث كانوا يعبدون الهتهم الكثيرة . وقد سمي عمود الحيَّة لانهُ عبارة عن ثلاث حيات من النحاس الاصفر المذهب كسر اثنتين منها احد بطاركة الاستانة على عهد الامبراطور ثيودوسيوس لانهُ تشاءم منهما ولما دخل فاتح الاستانة ورأى الحيَّة الثالثة كسرها وظل الناس من بعدهِ يكسرون قطعاً من نحاس هذا العمود وقد اهملوا امرهُ فقوي على كل الايادي التي عبثت بهِ وهو باقٍ الى الآن اقدم آثار الاستانة وعليهِ اسماء ٣١ مدينة من مدائن اليونان القديمة وكتابات عن حرب الروم مع الفرس في ايام داريوس وزركسيس قبل التاريخ المسيحي بنحو خمسماية سنة

وتوجهت بعد ذلك الى اثر جليل هو تربة السلطان محمود الثاني الذي الغى وجاق الانكشاريَّة وقد بني الضريح من الرخام الابيض تحت قبة فخيمة وغطي بشالٍ من الكشمير نفيس ووضع عند الراس طربوش غرست فيهِ ريشة آل عثمان المشهورة بجواهرها . وفي ذلك المدفن قبور للبعض من آل عثمان منهم السلطان عبد العزيز عند راسهِ طربوش عزيزي من النسق المعروف وقد غطي الضريح بشالٍ بديع الصنع ايضاً . هذا وفي هذه التربة مصاحف قديمة العهد في جملتها مصحف جيء بهِ من بغداد قيل انهُ كتب من الف سنة ومن حول المدافن فقهاء يوردون الاذكار ويجودون

وظللت على المسير من هنالك الى صهريج الالف العمود وهو من المشاهد القديمة في الاستانة حفر في اوائل الدولة الشرقية ويقال ان اول بادىءٍ بهِ قسطنطين الكبير باني هذه المدينة وكان القصد منهُ جمع ماء الامطار لحين الحاجة فان الاستانة خالية من الانهار الجارية وكان اهل المدينة كلما اصابهم بلاء او هاجمهم

عدو يطمرون تحفهم واموالهم في نواحي هذا الصهريج . ونزلت ذلك الصهريج منحدراً الى اسفلهِ فرأيت انهُ لم يبقَ منهُ غير القليل وقد كان لهُ الف عمود بقي منها نحو مايتين على كلٍّ منها رسم الصليب وهي على الجملة من الآثار القديمة ولا يبعد ان يكون في ما تردَّم منها بقايا ثمينة

ومن مشاهد الاستانة التي تذكر سوقها الكبرى المشهورة وهي مرجع الذين يبتاعون الابضعة الاستامبولية سواءٌ من اهل الاستانة او من الذين يقصدونها لشراء الابضعة المعروفة عنها كالمناديل واشكال الحرير والمقصب وقد قسمت هذه السوق الطويلة اقساماً لكل نوع من البضاعة قسم وتفرع منها عدة اسواق صغيرة ضيقة المجال حتى ان الغريب اذا قصدها يضيع فيها ، ولا بدَّ لكل من يريد الوقوف على حالة الاستانة الحقيقيَّة من زيارة هذه السوق. وهي ينتابها الاتراك رجالاً ونساءً والسيدات يساومنَ الباعة من داخل البراقع ويشترينَ المطلوب كما تفعل نسوة الافرنج وهنَّ على غاية من التأدب والاحتشام

وقصدت في ذلك اليوم وزارات الحكومة فذهبت باديَ بدءٍ الى اهمها واجملها اريد بها سراي السرعسكريَّة ودخلت ميداناً واسعاً جدًّا يستعرض بهِ الجند وحدث ان وزير الحربيَّة جاءَ في تلك الساعة فلاقاهُ رجال الجند بالاكرام والاحترام ودخل من باب كبير ودخلنا نحن من باب آخر وقف على بابهِ خادم بيدهِ بعض ريش ينظف بهِ احذية الداخلين ويغلب ان يتقاضى منهم شيئاً اجرة ذلك . واما الموظفون في هذه النظارات فانهم يلبسون حذاءً فوق حذاءٍ كما يعرف القراء فيتركون الحذاءَ الخارجي عند الباب ويعودون الى لبسهِ حين الخروج. والسراي من داخلها واسعة جميلة كثيرة الاجزاء والغرف كتب على ابوابها وظائف المقيمين فيها هذه للوزير وهذه للوكيل وهذه للقلم الفلاني حسب ما تراهُ في اكثر

الدواوين المنظمة . وقد بنيت هذه السراي من الحجر المنحوت طولها ٤٣٠ مترًا وعرضها ٢٨٠ وهي منفردة عن سواها داخل سور متين وقائمة على راس اكمة بديعة تجعلها اجمل سرايات الحكومة في هذه العاصمة المشهورة وفيها برج يقرب من برج غلطه في ارتفاعهِ اذا ارتقيتهُ رأيت الاستانة كلها تحت يدك وراق لك ذلك المنظر البديع

وسرت بعد ذلك الى باب همايون وهو باب عظيم بني من الرخام الابيض والاسود وفوقهُ الطغراء العثمانية يوصل منهُ الى بعض النظارات منها سراي الصدارة العظمى وفيها الاقلام التي تكاتب الولايات ونظارة الخارجية ونظارة الداخليَّة ونظارة النافعة . وفي الاستانة نظارات اخرى مثل نظارة الضابطة ونظارة الخزينة السلطانيَّة الخاصة في جانب من سراي طولمه بغجه على ضفة البوسفور يبلغ عدد عمالها ستة آلاف ونظارة البحريَّة في قرن الذهب وتتبعها المدارس البحريَّة وادارة الترسانات والفنارات وسواها ونظارة الحربية في السر عسكرية ونظارة العدلية في ميدان آيا صوفيه ونظارة المالية في ميدان بيازيد بسراي فؤاد باشا ونظارة المعارف بالقرب من جامع محمود باشا . واكثر جلسات الوزراء في الاستانة تعقد في سراي يلدز برئاسة جلالة السلطان وبعضها في الباب العالي في مقر الصدارة العظمى تحت رئاسة الصدر الاعظم ولكن الامور الهامة كلها تقرر في الجلسات التي يرأسها جلالة السلطان

ويستحق الذكر في هذا المقام موضع يقال لهُ طوب قبو كان مقرَّ الحكومة السابقة على عهد الدولة الرومية وفيهِ قصورها وكنائسها ودواوينها وصار بعد ذلك مقر حكومة آل عثمان بنى فيهِ السلطان محمد الفاتح عدة ابنية وبنى السلطان محمود قصرًا من الرخام وكذلك السلطان عبد المجيد ولا يمكن لقارىء التاريخ ان يذكر

اسم هذا المكان الآَّ ويقشعر جسمهُ من ذكر الفظائع التي تمت فيهِ فان ملوك الروم
كانوا يحبسون اقاربهم في سجون تحت الارض هنالك ويميتونهم حتى لا يبقى مزاحم
لهم على الملك وجرى بعض سلاطين آل عثمان على مثل هذا ايضاً وقد ذكرنا بعضهُ
في ما مرَّ . على ان هذا كلهُ مضى وانقضى وصارت تلك البقعة من اجمل مواقع
الاستانة يرى الواقف فيها البوسفور ومرمرا وما بينهما من الاستانة وضواحيها .
وفي هذا الموضع قصور ومنازل كثيرة الاتقان والزخرف منها كشك السلطان عبد
المجيد وهو من بدائع الصناعة الحديثة ومنها قصر قديم لسلاطين آل عثمان لا يقيم
فيهِ الآن احد ولكنهُ مستودع لكنوز هؤلاء السلاطين العظام وما جمعوا من
تحف الممالك التي دوخوها فانهم كما لا يخفى ورثوا ثروة الروم والعرب والفرس
وبعض الافرنج وملكوا اطيب الاراضي ووصلوا الى الذي لم ينلهُ سواهم وقد
جمعوا بعض هذه التحف في السراي التي نحن في شأنها واقاموا عليها الحراس
واحتفظوا بها احتفاظاً يجدر بشأنها وقيمتها فما رآها من الناس غير قليلين قدروا قيمتها
بعدة ملايين وهي مجموع من المثمنات والنفائس يندر مثالهُ ولقد اتيح لرجل انكليزي
اسمهُ السر وليم روبنصن ان يدخل هذا المتحف العظيم بامرٍ خاصٍ من جلالة
السلطان فكتب عنهُ ما يأتي

" رافقني احد الياوران يحمل الادارة السنية المؤذنة بدخولي تلك السراي
فسلمها عند وصولنا الى كخيا الخزنة وهذا تناولها ورفعها الى رأسهِ وقبّلها واعلن
المستخدمين تحت ادارتهِ بفحواها ثم تقدم نحو باب الخزنة فصلى ونزع ختمهُ عن بابها
بعد ان حدق بهِ طويلاً وتحقق سلامتهُ ولما فتح الباب ودخل الكخيا تبعهُ جميع
المستخدمين باحترام وهدو حتى وقفوا حول الخزائن الحاوية للنفائس وكنت انا
وراء هذا المأمور فاول ما رأيت في القاعة الاولى عرش من الذهب الخالص مرصع

بالوف من الحجارة الكريمة كالالماس والياقوت والزمرد واللؤلوء واكثر هذه الجواهر غنمها السلطان سليم في حربهِ مع اسماعيل شاه صاحب دولة ايران في سنة ١٥١٤ ويليهِ عرش آخر من الابنوس والصندل مطعم بعرق اللؤلوء والعاج وعروق الذهب وفيهِ مئات من انق الحجارة الكريمة . وكان السلاطين السابقون يجلسون على هذا العرش متربعين وفيهِ سلسلة من الذهب في طرفها زمردة بديعة طولها عشرة سنتمترات وسمكها اربعة وامامهُ جبة ثمينة مزركشة كان السلطان مراد الرابع يلبسها بعد الاستيلاء على بغداد سنة ١٦٣٨ وفيها حجارة ثمينة كثيرة العدد والى جانبها سيف ثمين مرصع بنحو الفي حجر . وهنالك خناجر وسيوف لا تعد كلها من الذهب مرصعة قبضاتها وانصبتها باثمن الجواهر وسروج ركابها وادواتها من الذهب وكلها مرصعة ترصيعاً يبهر الانظار فضلاً عن اقداح من الذهب المرصع وملابس السلاطين السابقين من محمد الفاتح الى محمود الثاني يعني من سنة ١٤٢٣ الى ١٨٣٩ وعلى كل كسوة عمامة غرست فيها الريشة المعروفة عن سلاطين آل عثمان وهي مجموع حجارة ساطعة غالية الاثمان »

هذا بعض ما قيل في تحف آل عثمان وهو بلا ريب قليل فانهُ يمكن للمرء ان يبقى اياماً يتنقل بين تلك المثمنات الباهرة ولا تشبع العين من النظر اليها لكثرتها وجمالها ولكنها مخفية عن الانظار مع ان مثل هذه الجواهر في اوروبا تعرض لعامة الناس وخاصتهم يتفرجون عليها في مواضعها كما علمت من فصولنا السابقة فيا حبذا لو درج اولياء الامر في الاستانة على هذه العادة فان تحف هذا القصر من اثمن ما في الارض واوفرهُ جمالاً

ومما يذكر من هذا القبيل متحف الآثار القديمة في الاستانة بني من عهدٍ قريب وكان اول الذين وجهوا العناية الى تنظيمهِ مديرهُ الاول سعادة حمدي باشا

ابن ادهم باشا بعد ان درس سنين طويلة في مدارس المانيا وعني بذلك من سنة ١٨٨١ فجمع في هذا المعرض اشكال الآثار الغريبة من ممالك الدولة العلية وهي كما تعلم اغنى اراضي الدنيا بآثارها الفاخرة وكل معارض اوروبا التاريخيَّة لا تقوم بغير آثار مصر واشور وفينيقيا والروم والفرس وهاتيك الدول الشرقيَّة القديمة ومعظمها واقع في حوزة الدولة العليَّة الى الآن. واكثر ما في هذا المتحف آثار اشوريَّة وفينيقيَّة لا حاجة الى وصفها بالاسهاب وبعضها نواويس من الرخام جميلة الصنع غالية الثمن وجدوها على مقربةٍ من صيدا وعلى اكثرها نقوش بارزة ورسوم نسوة تنوح وقد ظهرت ملامحها ظهوراً غريباً ويستفاد من بعض الكتابات الهيروغليفية عليها ان في احد تلك النواويس كان مدفن تبنت بن اشمنصر ملك صيدا

ولكن المتحف الذي نحن في شأنهِ لم يزل صغيراً قليل الاهمية بالنسبة الى ما يماثلهُ من متاحف اوروبا ولما كانت بلاد الدولة العلية هي مقر الآثار القديمة وفيها ما ليس في سواها فاذا زيد الاعتناء بهذا المتحف وانفق عليهِ مال يذكر صار من متاحف الطبقة الاولى في الارض وحق للدولة العلية ان تفاخر سواها بما جمعت من آثار الاولين

ولما عدت من زيارة هذا المتحف عرجت على البنك العثماني وهو بناء فخيم من اجمل ابنية الاستانة لهُ ثلاث طبقات واشغالهُ كثيرة مع الاهالي والحكومة لانهُ يعد البنك الرسمي للحكومة العثمانية باتفاق تمَّ بينها وبين الشركة الانكليزيَّة التي انشأتهُ وقد قابلت مديرهُ العام السر ادجر فنسنت وكنت اعرفهُ من ايام وجودهِ في مصر مستشاراً ماليًّا

السلاملك وحضرت بعد هذا حفلة السلاملك وهي موكب صلاة الجمعة تجري في الاستانة كل اسبوع حين يذهب جلالة السلطان للصلاة في الجامع

الذي بناهُ على مقربةٍ من قصرهِ في يلدز ولهذا الاحتفال ابهة وبهاء لا مثيل لهما فقد شهد الافرنج وغيرهم ممن حضرهُ انهُ من اعظم اشكال الاحتفال الرسمي ولا عجب فان الامر متعلق بسليل آل عثمان والامة العثمانية المعروفة بالمفاخر والمآثر . ومعلوم ان السلاملك او البناء الذي يستقبل فيهِ الضيوف كائن الى يسار هذا الجامع ولكنهُ لا يؤذن لاحد بالدخول فيهِ الاَّ اذا كان من اهل المقام المعروف في الاستانة فاذا كان الزائر اجنبيًّا فلا بد لهُ من واسطة سفير دولتهِ او مصريًّا فبواسطة حضرة قبوكتخدا الخديويَّة المصريَّة ولكنني لم اطلب وساطتهُ لبعد محلهِ فأوصيت سائق العربة ان يسير بي توًّا الى السلاملك ففعل حتى اتيت سلم السلاملك وقدمت رقعة عليها اسمي الى عامل على بابهِ بقصد الاستئذان بالدخول فاخذها الخادم واطال الغياب ثم جاءَني سعادتلو شفيق بك من ياوران الحضرة السلطانية فحياني برقة ولطف ودعاني للدخول فدخلت ورأَيت ذلك الاحتفال العظيم من احسن موضع

وبدأَ الموكب بقدوم فرقة عسكريَّة تلوح على رجالها لوائح البسالة والنجابة مثل اكثر فرق الجيش العثماني الذي طارت شهرتهُ في البسالة وفي تحمل المشاق والصبر على الكريهة وكانت الفرقة العثمانية التي ذكرناها تحمل البنادق فحالما وصلت الساحة الكائنة بين السلاملك والجامع احاطت بالجامع من كل جهة ووقفت تحرس جوانبهُ . ثم جاءَت فرقة اخرى تتقدمها الموسيقى مثل الفرقة الاولى ووقفت في متسع من الارض ما بين الجامع والقصر ثم جاءَت فرقة من الجنود العربية تلبس السراويل الضيقة والسترة الصغيرة ولها عمامات خضراء وتوجهت الى القصر وتلتها فرق أُخرى من الفرسان يحملون المزاريق والمشاة بالبنادق والحراب والبحريَّة بملابسهم الخاصة وتفرقت في جوانب ذلك المكان الفسيح فكان عدد الجنود الذين

وقفوا في ذلك الموكب العظيم يومئذٍ لا يقل عن عشرة آلاف . ودخلت فرقة من الحرس الخاص الى ساحة الجامع واحاطت بالباب الذي يدخل منهُ جلالة السلطان ثم دخل وراءهم عدد كبير من كبراء الاستانة واصحاب الرتب والوظائف العالية وجلهم من رجال المابين والعسكريَّة والرقباء وبعض المشايخ والعلماء فلما تمَّ عقد الجماعة على مثل ما ذكرنا اقبلت عربة الحرم السلطاني ومن ورائها عربتان اخريان فدخلتا الجامع وجاءَ بعد ذلك انجال جلالة السلطان ورشاد افندي اخوهُ وولي عهدهِ وانجال السلطان عبد العزيز وكان دولتلو نجابتلو سليم افندي بكر جلالة السلطان اشهر الذين رمقتهم الانظار وهو شاب في مقتبل العمر ضئيل الجسم ابيض الوجه يلبس النظارات المقربة لقصر نظرهِ وعلى وجههِ دلائل الانفة والذكاء وهو كثير الظهور في منتزهات الاستانة . وكان هؤلاء الامراء العظام على ظهور الجياد الكريمة فدخلوا ساحة الجامع الخارجيَّة ووقفوا على جيادهم كانهم البدور ولما حدقت بهم الابصار كلها سمعنا بوقاً وحركة تشير الى اقتراب جلالة السلطان فتحفز كل من حضر ذلك الاحتفال وتهيأ لابداء مظاهر الاكرام حتَّى اذا تمَّ ذلك فتح باب القصر على عجل وظهرت عربة فاخرة يجرها فرسان كريمان وفيها جلالة السلطان بسترة اسلامبوليَّة بسيطة وامامهُ في المركبة دولة الغازي عثمان باشا جالساً مكتف اليدين تجلةً لمولاهُ واحتراماً ومن حول العربة حوالي ستين كبيراً من كبراء الدولة يمشون على الاقدام وهم بافخر الحلل الرسميَّة والوسامات العليَّة فما بقي بين تلك الابصار عين الاَّ واتجهت الى جلالة السلطان وجعلت فرق الجيش العثماني كلما اقترب جلالتهُ من احدها يهتف رجالها بالدعاء "افندمز جوق يشاه" وكان جلالتهُ يحيي الحاضرين برفع يدهِ وبدأ بتحيَّة الواقفين في السلاملك فكان لبساطتهِ في وسط ذلك الموقف الرهيب والمناظر الباهرة تأثير عظيم في النفوس

ودخل جلالة السلطان الجامع في عربتهِ واولئك الكبراء يحفون بهِ على ما تقدم والموكب على ابهى حالاتهِ فلما وقفت العربة عند الباب نزل جلالتهُ منها ولم يساعدهُ احد عند النزول كما هي عادة بعض الملوك والامراء ولما دخل بدأَت الصلاة و بعد نحو نصف ساعة عادت الحركة لان جلالة السلطان خرج من الجامع مارًّا بين صفوف الجند فنادت بالدعاء لجلالتهِ وكان جلالتهُ في الرجوع وحدهُ راكبًا عربة غير الاولى وهي من نوع الفيتون يجرها فرسان كريمان ابيضان و يسوقها جلالة السلطان بيدهِ الكريمة وهو يمسك بالازمة بيسارهِ ويحيي الجماهير بيمينهِ الى ان يدخل باب القصر ويتوارى عن العيان و يرجع من عند حضرتهِ احد الياوران فيبلغ تحيتهُ للذين في السلاملك و يأمر الجنود بالانصراف الى تكناتها فيتفرق الجمع وتعود الجنود وامامها الموسيقى العسكرية تصدح بشهي الانغام الى ان تصل مواضعها و ينتهي بذلك احتفال السلاملك او موكب صلاة الجمعة المشهور

وقد كان من حسن حظي اني رأيت جلالة السلطان وتأملتهُ طويلاً فاذا هو صغير الجسم نوعًا اصفر الوجه تلوح عليهِ لوائح الاشتغال العقلي والفكر الكثير ولا عجب فان الذي يدير امور سلطنة مثل سلطنة آل عثمان ولا يشاركهُ في الرأي كبير او صغير في معظم المسائل الداخليَّة والخارجية لا بد من ظهور ادلة الفكر والاهتمام على وجههِ. ولجلالتهِ عينان براقتان لونهما اسود ولهما تأْثير غريب في الناظرين اشتهر بهِ بين العالمين وقد عرفهُ الذين تشرفوا بمقابلتهِ باللطف الزائد والذكاء الكثير وهو اذا اذن لضيفٍ ان يتشرف بالمثول بين يديهِ اكرمهُ ورفع مقامهُ حتَّى انهُ ليقدم السجاير الى ضيوفهِ بيدهِ الكريمة ويحدث كل ضيف على حسب ذوقهِ فيظهر علمًا باحوال الممالك غريبًا وقلَّ ان يخرج من حضرتهِ شخص الَّا وهو معتقد باقتدارهِ

وقد حان لي ان اصف ملتقى البحرين والصلة الجامعة بين القارتين اريد بهِ

بوغاز البوسفور الشهي الذي يمتد من البحر الاسود الى البحر المتوسط طولهُ نحو ٣٨ كيلو متراً وعرضهُ يختلف ما بين ٥٠٠ متر و٣٢٠٠ ولهُ تاريخ مشهور فكم من اسطول شراعي مرَّ بهِ وكم من معركة حدثت على ضفافهِ من ايام داريوس الفارسي الى هذه الايام . ولقد اقمت في الاستانة شهراً ما مرَّ عليَّ من ايامهِ يوم الاَّ وانا فوق ماء البوسفور فرأيت في آخر الامر ان اركب احدى بواخر الشركة الخيريَّة التي تطوف نواحيهِ ولها مكتب تباع فيهِ التذاكر على طرف جسر غلطه وبواخرها ترفع اعلاماً مختلفة منها الاخضر وهو يدل الى ان الباخرة تمرّ على الشاطيء الاوروبي من ضفاف البوسفور والاحمر يدل الى ان الباخرة تقصد الجهة الاسيويَّة والاثنان معاً معناهما التنقل ما بين الضفتين واني ذهبت اول الامر في باخرة علمها اخضر تتنقل بين المحطات الاوروبيَّة فقط الى محطة قباطاش فمرت بنا السفينة بازاء سراي طولمه بغچه المشهورة بناها السلطان عبد المجيد من الرخام الابيض سنة ١٨٥٥ وانفق عليها مالاً لا يحصى مقدارهُ حتى جعلها حيرة للالباب في فرط جمالها وثمن مفروشاتها ودقة زخارفها وهي على ضفة البوسفور داخل سور جميل تحيط بها الاشجار والازهار البديعة يراها المار فوق الماء من اكبر آيات الجمال في تلك البقعة الطيبة وواجهتها بديعة الجمال من الرخام الابيض النفيس المزخرف بادق انواع النقش ويقرب طول هذه السراي من ٨٠٠ متر . وقد كانت مقر السلطان عبد العزيز واولمت فيها الولائم الفاخرة للامبراطورة اوجيني حين زارت الاستانة وفيها اجتمع مجلس المبعوثين العثماني حين صدور الامر باجتماعهِ في اوائل حكم السلطان عبد الحميد ومن قاعاتها واحدة يمكن اجتماع خمسة آلاف نفس فيها وياحبذا لو اتيح للناس عامة دخول ساحة هذا القصر المنيف فانهُ لا يمكن الدخول الاَّ بارادة سنيَّة وفي هذا كل الاسف . ومررنا بعد ذلك بمحطة باشكطاش وهو اسم الحي

الذي بنيت فيهِ سراي يلدز حيث يقيم جلالة السلطان الحالي وفي تلك المحطة قبر امير البحر خير الدين باشا المعروف عند الافرنج باسم بار بروسا او ذي اللحية الحمراء. ورأينا بعد ذلك سراي جراغان وهي جميلة بنيت بالرخام الابيض واحيطت بسورٍ عالٍ منيع ولها حراس من ناحية البوسفور ومن ناحية البر يبعدون كل مارٍّ بتلك الجهات عنها وهم يقولون ان السلطان مراد في ذلك الموضع لا يسمح لهُ بالخروج ولا يمكن الاختلاط بهِ لواحد من الناس ويقرب طول هذه السراي من الف متر. وبعد ذلك محطة اورته كوي فيها جامع والدة السلطان وهي ملاصقة لجدار يلدز وهنالك منازل فخيمة وقصور عديدة لسراة الاستانة وكبراء السلطنة ومثلها محطة ببك التي تليها وهي مرصعة باجمل القصور والديار تملأُ جوانب تلك الارض البهيَّة من شاطيء البوسفور الى قمة الجبل. وفي قمة الجبل المذكور كشك بديع الاتقان كان السلاطين في ما مرَّ يختلون بسفراء الدول فيهِ ويتداولون بمهام الملك وعلى مقربة منهُ مدرسة للاميركان كلية تعرف باسم كلية روبرت اسسها مرسل اميركي اسمهُ روبرت سنة ١٨٦٣ وهي من اكبر المدارس في السلطنة السنيَّة اذا لم تكن اكبرها واعلاها يقصدها الطلاب من كل نواحي السلطنة ومن بلغاريا والسرب ورومانيا وبلاد اليونان وبين وزراء بلغاريا كثيرون تلقوا العلوم في هذه المدرسة المشهورة اشهرهم الوزير ستامبولوف الذي قُتِل من بضعة اعوام وهو اشهر بلغاري رأَس الوزارة في بلادهِ. ولهذه البقعة اي محطة ببك شهرة في التاريخ فان جنود داريوس وزركسيس وهي مئات من الالوف كانت تمر منها قاصدة بلاد الروم لمحاربتها في القرن الخامس قبل المسيح والصليبيين لما عرجوا على الاستانة جعلوا ببك هذه نقطة مركزيَّة لحركاتهم ومحمد الفاتح هاجم الاستانة وملكها من تلك النقطة بعد ان اقام الحصون وركب المدافع مصوباً كراتها الى عاصمة الروم. ورست الباخرة

بعد ذلك في محطة بوياجي كوي واكثر سكانها روم وارمن ثم محطة ميركون وفيها قصر للخديوي الاسبق اسماعيل باشا اهدي اليهِ من جلالة السلطان عبد الحميد . ثم وقفنا في يكي كوي وهي بلدة فيها نحو عشرة آلاف نفس اكثرهم من الروم والارمن ايضاً . وتليها محطة طرابيه المشهورة واسمها رومي معناهُ الشفاء سمّيت بذلك لجودة هوائها وجمال مناظرها ولذلك اصبحت مقر الهيئة العالية من سكان الاستانة واختارها اكثر السفراء لمنازلهم فبنوا هنالك القصور المنيفة والصروح الانيقة وقامت من حولها الفنادق العظيمة فالذي يمرُّ تجاه هذه البقعة يرى سفارات انكلترا وفرانسا وايطاليا والمانيا في وسط حدائق غناء تتصل خضرتها النضرة براس الجبل ومجموع طرابيه هذه جمال مدهش وبهاء مفرط . واما عامة السكان في طرابيه فاكثرهم اروام يقربون من خمسة آلاف نفس عدًّا ومنازلهم درجات بعضها فوق بعض في ذلك المنحدر البهي فهي متواصلة ما بين قمة الجبل وضفة البوسفور ولها رونق وحسن بديع . ويلي هذه البقعة الجميلة محطة بيوكدره فيها سفارات اميركا والنمسا وروسيا ومساكن بعض التجار الاغنياء وهي تقرب من طرابيه في جمالها الفتان . وآخر هذه المحطات قاواق وهي في طرف البوسفور من جهة البحر الاسود اقيمت حولها الحصون المنيعة والقلاع الكبرى . فلما انتهينا الى هذا الحد عدنا الى مقرنا في العاصمة وقد رأينا من جمال البوسفور ما تحفظهُ الذاكرة ولم يخطر لنا ببال

وفي اليوم التالي عدنا الى بواخر الشركة الخيريَّة واخترنا واحدة علَمها احمر حتى نرى الشاطئَ الشرقي او الجهة الاسيوية من البوسفور العجيب فقمنا اولاً الى اسكودار وهي القسم الشرقي من المدينة ذكرناهُ قبل الآن وسرنا منها الى قوز غنجق فمررنا من امام سراي بكاربك وهي من اعظم قصور الاستانة تعد ثانية طولمه بغجه بناها السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٥ من الرخام الابيض النقي على شاطئ البوسفور في وسط

حديقة غنَّاء تمتد اغراسها البهيَّة الى حدود الجبل ولها سور مذهب وزخارف يطول المقام لو اردنا وصفها. يكفي ان يقال ان الامبراطورة اوجيني اقامت في هذا القصر وان السلطان عبد العزيز انفق على اضافتها والهدايا التي قدمت نحو مليوني ليرا ثم لما جاء امبراطور المانيا سنة ١٨٨٩ اقام هنا ايضاً ولا غرو فانها تليق باعظم ملوك الزمان. ثم جئنا محطة جنكل كوي وفيها حديقة واسعة لها ذكر في التاريخ هو ان السلطان سليمان المشهور اختبأ فيها ٣ سنوات فراراً من والدهِ السلطان سليم وكان السلطان قد امر بقتلهِ فلما عرف بعد طول المدة ان ابنهُ حي في تلك الحديقة فرح فرحاً لا يوصف واقام الافراح في عاصمة بلادهِ. وظللنا على المسير نتنقل بين محطات البوسفور الشرقية حتى انتهينا منها عند آخر محطة في فم البوسفور وعدنا الى المدينة

بقي علينا الخط الثالث لهذه البواخر وهم يسمونهُ الزقزاق لانهُ يمرُّ على النقط الشرقية والغربية معاً في البوسفور فقصدناهُ في يوم ثالث وجعلنا نقف تارةً في الشرق وطوراً في الغرب وقد ذكرنا اسماء المحطات في الجهتين فلا حاجة الى التكرار وقضينا في ذلك خمس ساعات متواليات فما رأت عيني مثل الذي رأيناهُ من بهي الحراج وشهي المناظر الطبيعية وقد رصَّعتها يد الصناعة بالقصور الشماء والطرق الحسناء فما البوسفور الاَّ معجزة من معجزات الزمان وما اخطأ الذي قال ان الاستانة وضواحيها زينة البرين ودرَّة البحرين

ولقد ذكرنا قرن الذهب غير مرة وهو مجرى من الماء بديع جميل يفصل بين القسمين الاوروبيين من اقسام الاستانة نريد بهما غلطه و بيرا من ناحية واستامبول من ناحية اخرى والموصل بين هذين القسمين جسر غلطه المشهور وقد مرَّ ذكرهُ. وطول هذا المجرى ١١ كيلو متراً وعرضهُ ٤٥٠ متراً وهو يتصل عند طرفهِ الواقع

في غلطه بالبوسفور وبحر مرمرا واما في الطرف الآخر فانهُ ينتهي بجبال بهية سرنا اليها في احد الايام ورأينا في الطريق بواخر الاسطول العثماني وعلى الشاطئ من تلك الناحية سراي وزارة البحر (طوبخانه) وهي بناءٌ شاهق فخيم يتبعهُ المدرسة البحريَّة والترسانة ثم وقفت الباخرة في محطة ايا قبو في سفح الجبل وعلى قمة الجبل المذكور جامع السلطان سليمان وتليها محطة الفنار فيها بطرخانة الروم الارثوذكس ومدرستهم . ثم انتهينا الى آخر قرن الذهب في محطة ايوب فنزلنا الى البر وتقدمنا الى جامع ايوب بناهُ السلطان محمد الفاتح تذكاراً لمقتل ايوب الانصاري حامل الراية النبوية وكان قد جاء في جملة المسلمين الذين هاجموا الاستانة في صدر الاسلام سنة ٦٦٨ وقد وُضع سيف النبي (صلعم) في هذا الجامع فكلما بويع سلطان بالخلافة احتفلوا بتقليدهِ السيف هنا وهم لا يسمحون لواحدٍ من الاجانب ان يدخلهُ ولو يكون من السفراء هذا مع ان لسفراء الدول في الاستانة مقاماً خطيراً وامتيازاً لا نظير لهُ في العواصم الاوروبيَّة فان لكل سفير هنا باخرتين حربيتين تقومان بخدمتهِ وحراسة السفارة والرعايا حين اللزوم وفي كل سفارة من القواصة والاعوان عدد كبير حتى ان السفير في الاستانة يعد بمثابة ملك صغير . وقد بني هذا الجامع من الرخام الابيض وصُنعت لهُ قبة عظيمة وماذنتان ودفن حامل الراية النبوية فيهِ . وبرحنا ارض هذا الجامع فصعدنا قمة الجبل واشرفنا من هنالك على منتزه يعرف باسم كاغدانه والافرنج يسمونهُ الماء الحلو لان النهر يلتقي عندهُ بالبحر. وهذا الموضع مصيف لبعض الناس يكثر ترددهم اليهِ في ايام الربيع

هذا بعض ما يذكر بين ضفتي قرن الذهب . ولكن الاستانة كما علمت قسمان احدهما في اوروبا وقد وصفنا ما فيهِ والقسم الآخر في آسيا يعرف باسم اسكودار وهو مدينة لا يقل عدد سكانها عن خمسين الفاً كلهم من المسلمين ومعظمهم اتراك .

وابنية اسكودار منتشرة ما بين ضفة البوسفور والجبل على شكل طبقات بعضها فوق بعض وفيها عدد ليس بقليل من الصروح والمنازل الفخيمة والبواخر تسير الى هذه الجهة ومنها في كل ساعة فلما وطأنا ارضها اخذنا عربة وسرنا في طرق عوجاء متعرجة الى مقبرة المسلمين وهي من اوسع مقابر الارض واكبرها طولها ثلثة اميال وفي كل جوانبها شجر من السرو باسق كثير العدد . وفي تلك الجهة مقبرة صغيرة للذين قتلوا من جيش انكلترا في القرم سنة ١٨٥٤ و١٨٥٥ وقد كتبت اسماء المدفونين هنالك من الانكليز على الاضرحة والارض هبة من الدولة العلية

وهنالك ثكنة (قشلاق) السليمانية وهي من اكبر الثكنات العسكرية واجملها بناها السلطان سليمان وحسنها السلطان مراد الرابع فتأملنا هذا البناء الكبير ثم تقدمنا صعدًا حتى وقفنا اسفل جبل بولغورلو وهو الذي كنا نقصد الوصول اليهِ فترجلنا ومشينا ربع ساعة حتى بلغنا القمة وهنالك تجلت لنا عروس الطبيعة بابهى اشكالها ورأينا سهولاً زرعت بالعنب والتين والزيتون وغيرهِ ممتدة الى داخل القارة الاسيويَّة العظيمة ومن ورائها عدد كبير من القرى والمزارع والطرق تتشعب من هنا ومن هنا بين تلك السهول الاريضة وتتصل باطراف العمائر ترصع جوانب البر الفسيح فلا ترى من جانب البر الاَّ مثل ما ذكرنا من ادلة الخصب ومشاهد الجمال الطبيعي حتى اذا تحول الطرف الى الناحية الاخرى رايت البوسفور العجيب كانما هو خط من اللجين بين خطين من السندس وكل هاتيك المناظر البديعة التي عددناها واقعة فوق مجرى الماء تسير من فوقهِ السفن والباخرات لاعداد لها وقد قامت من الجانبين قباب القصور والمآذن تشهد بتعاقد الطبيعة والصناعة في ذلك الموضع على ايصالهِ الى اعلى درجات الجمال . كل هذا والموضع الذي ترى منهُ تلك الغرائب ليس فيهِ جماهير الناس ولا معدات للراحة من مثل الذي تراهُ في

الجبال المجاورة للمدن الاوربيَّة مع ان الموضع هذا احق بالالتفات والعناية من كل مكان ولو اقام الواحد فيهِ اشهرًا واعواماً لما ملَّ النظر الى تلك المشاهد التي تحدث في النفوس فتنةً وتحدّث بعظمة الباري الكريم

ولما عدتُ في المساء الى فندقي رأيت الوف الناس عند جسر غلطه تحتشد افواجاً وهي في حركة كبرى علمت منها ومن اطلاق المدافع في ذلك الحين ان الغد وهو الجمعة سيكون موعد الاحتفال بميلاد النبي (صلعم) ويكون السلاملك حينئذٍ افخم منهُ في بقيَّة الاسابيع واعظم فما تأخرت عن الذهاب اليهِ وسرت على ما تقدم في المرة الماضية الى باب السلاملك رأساً حيث قدمت بطاقتي وجاءني سعادة نادر بك احد الياوران الكرام فادخلني القصر مرحباً . وقد اوضحت هيئة السلاملك في ما مرَّ فلا لزوم للتكرار غير اني رأيت في هذه المرة فوق ما رأيت قبلاً من توافد العظماء والقواد ووقوفهم في خدمة جلالة السلطان حين وصولهِ امام باب الجامع وكان في صدر المحتفلين حضرات الوزراء الفخام يتقدمهم دولة الصدر الاعظم فلما ظهر جلالة السلطان طأطأُوا الرؤُوس وانحنوا الى الارض اجلالاً وتكريماً ثم دخل جلالة السلطان جامعهُ واقام فيهِ ساعة كاملة فلما عاد الى قصرهِ دار العمال يوزعون على الناس علباً فيها من الحلوى والملبس شيءٌ يسمونهُ المولدية يأخذونهُ هديَّة تذكاراً لذلك العيد وكانت الاستانة يومئذٍ في عيدعظيم لاسيما في الليل اذ انيرت جهاتها انواراً ساطعة وخرجت ربات الخدور في عرباتها المتوالية فكان لمنظرها فوق ما يوصف من التأثير

وخرجت بعد حضور هذا الاحتفال قاصدًا زيارة المغفور لهُ اسماعيل باشا خديوي مصر الاسبق وصاحب المآثر العظيمة في هذه البلاد فذهبت في باخرة تركيتها في محطة ميركون وفيها قصرهُ المشهور فلما وصلت القصر استأذنت على يد

التشريفاتي بمقابلة سموهِ فاذن رحمهُ الله بذلك وارتقيت سلماً بديعاً الى الطبقة العليا من القصر حيث وجدت ذلك الامير العظيم في صدر قاعة نخيمة وقد ظهرت عليهِ لوائح الكبر ولكن هيبة الملوك لم تفارقهُ فرحب بي وسألني اين كنت ولما اجبت اني زرت معظم العواصم الاوربيَّة قال اذاً انت زرت اكثر العواصم المشهورة مع زيارتك للولايات المتحدة السابقة قلت اني لن انسى تعطف سموهِ وثقتهُ بي حين انتدبني للنيابة مع غيري عن حكومتهِ السنيَّة في معرض اميركا سنة ١٨٧٦ ثم دار الحديث بيننا عن امور كثيرة اهمها مصر والنيل فلما اخبرت سموهُ ان الفيضان زاد عن حدهِ المعتاد في العام السابق حتى خيف على البلاد من الغرق قال ان الزيادة في الفيضان لها دواءٌ واما الشح فلا دواءَ لهُ غير بناء الخزان فهو اذا بني افاد مصر فائدة عظيمة . وخرجت من حضرة هذا الامير الجليل وانا افكرّ في عبر الدهر وتقلب احوالهِ كيف اوصل اسماعيل الذي دانت لهُ رقاب الملايين وجمع من المال ما لم يجمعهُ ملك قبلهُ ورأى من اشكال العز ما يعز نظيرهُ على اكابر الملوك صار الى قصر واحد في الاستانة لا يبرحهُ وسبحان الذي يغيّر ولا يتغيَّر

وقصدت في ذلك النهار قاضي كوي عند راس البوسفور من جهة اسيا عدد سكانها نحو عشرين الفاً اكثرهم اروام ولها موقع بديع يقصدها الناس من اهل بيرا وغلطه لقضاء فصل الصيف ويفضلونها على غيرها لانها قرية سهلة الاتصال بقلب الاستانة وقلَّ ان يوجد هنالك بيت بلا حديقة صغيرة او كبيرة امامهُ والناس يتنابون هذا المصيف البهي في يوم الاحد من كل اسبوع فيجتمع فيهِ من اشكال الساكنين في الاستانة ما ترتاح الى مشاهدتهِ العيون وتنشرح لمرآهُ الصدور . وهنالك كنيسة للروم الارثوذكس بنيت على اطلال كنيسة قديمة اجتمع فيها المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١ لتقرير بعض المبادىء الدينيَّة فلما فتح البلاد آل عثمان هدموها واستخدمت

حجارتها في بناء جامع السلطان سليمان . وشوارع قاضي كوي مبلطة بالحجر وهي نظيفة منظمة ظللت اتمشى فيها حتى آن وقت الرجوع الى مقري في بيرا

على ان هذه المصايف والمتنزهات كلها ليست بالشيء الذي يذكر عند جوهرة المصايف وزينة المتنزهات طرًّا اريد بها برنكبو او جزر الامراء ولهذه الجزر المليحة شهرة طائرة في الآفاق فانها فريدة في الموقع المفرط جمالهُ وفي طيب الهواء والماء وما حوت من اشكال الحسن والبهاء وهي في بحر مرمرا تبعد عن الاستانة نحو ساعتين فيها قصور الامراء ومنازل السراة الاغنياء وفيها يتألب الالوف يوماً وراء يوم لرؤية الذي امتازت بهِ هذه الجزر من المحاسن الطبيعيَّة والزخارف الصناعيَّة ولست اذكر ان بين الضواحي الاوروبيَّة ما يزيد عن برنكبو هذه في جمالها وجودة هوائها فانهُ اذا كانت ضواحي باريس و برلين و بطرسبرج وڤينا ولندن معروفة بالمحاسن الكثيرة والاتقان الفائق فشتان بين بردها وغيمها ومطرها و بين الهواء الرقيق في هذه الجزر والسماء الرائقة ووسائل الرغد والهناء المتوفرة في كل جانب . و برنكبو جزر عدة اولها من ناحية الاستانة جزيرة بيروتي وتليها جزيرة انتغوني و بعدها خالكي وهي مبنيَّة بين جبال صغيرة كثيرة الجمال وعلى قمة احدها دير للروم الارثوذكس على اسم الثالوث الاقدس جعلوهُ سنة ١٨٤٤ مدرسة لاهوتيَّة فيها نحو ماية طالب وقد كان من ضمن المتخرجين في هذه المدرسة سيادة الارشمندريتي جراسيموس مسره المشهور بمؤَلفاتهِ الدينيَّة . وآخر هذه الجزر بل اعظمها وابهاها واكبرها جزيرة برنكبو هي مجموع غياض وحراج وحدائق و بساتين وقصور صغيرة او كبيرة وطرق منظمة وفنادق جميلة ومناظر بديعة في كل جانب يصل الزائر اليها فينزل الى شارع فسيح تحف بهِ الاشجار من الجانبين ويمتد ذلك الشارع حول الجزيرة برمتها فتارةً فيهِ شجر غرس للتظليل على مثل ما في بقيَّة الشوارع وطوراً يخترق حراجاً من شجر

الصنوبر البهي تتضوع منهُ الروائح العطرة او حدائق و كروماً واغراساً نافعة وحيناً يشرف على البحر وحيناً تحدق بهِ الهضاب والآكام وما فيها من نبت وشجر من كل ناحية فكأَنما المرءُ في برنكبو يتقلب في نعيم الجنة او هو في بلاد مسحورة كلها جمال رائع وبدائع في بدائع . هذا غير ان الموسيقى تصدح هنالك والمطاعم كثيرة نظيفة والقهاوي والخانات والاماكن العموميَّة بوجه الاجمال لا تبقي حاجة في نفس يعقوب فان شئت عيشاً هنيئاً فعليك بجزيرة الامراءِ انها مركز الجمال والهواءِ الطيب بلا مراءٍ . ولطالما تغنى الشعراءُ بمدح هذه البقعة العجيبة واطال كتاب الشرق والغرب في وصفها فمهما اقل في مدحها فاني مقصر لا افيها بعض حقها فاكتفي بما تقدم واقول اني ارتقيت قمة جبل فيها من فوقهِ دير للقديس جورجيوس وهو للروم الارثوذكس ايضاً كل طرقهِ مرصعة بالبطم والآس وهاتيك الاعشاب والاشجار العطرة تعبق روائحها الطيبة في وجوه الزائرين فتزيد المكان حسناً على حسن وغرابة على غرابة ثم قصدت في اليوم التالي الجبل الآخر من جبال هذه الجزيرة الحسناء فكنت في حيرة أَأحمد الله على روائح الآس والبطم وبخور الاعشاب ام على الذي اكتحلت عيني بمرآهُ من غريب المشاهد البريَّة والبحريَّة حتى اذا وصلت قمة الجبل ورأَيت دير المخلص وسرحت النظر في هاتيك البدائع المحيطة بهِ براً وبحراً عدت الى موضعي وكلي اعجاب بجزيرة الامراءِ وقد حدثتني النفس ان اسميها اميرة الجزر او ملكة الضواحي واقمت فيها يومين كانا كطرفة عين ثم عدت الى الاستانة لاتمم الذي شرعت بهِ من درس معالمها

ولما انتهيت من اشهر المتنزهات الحديثة في الاستانة على مثل ما رأَيت ذكرت تاريخها الاول ومتنزهاتها السابقة فذهبت الى حيث كان ملوك الدولة اليونانيَّة قبل الفتح العثماني يسكنون ورأَيت السور الذي قتل من ورائهِ آخر ملوك القسطنطينيَّة

في حربهِ مع العثمانيين على ما ذكرنا في صدر هذا الفصل والسور طولهُ ٦٦٧١ متراً وعرضهُ اربعة امتار وعليهِ ٦٤ برجاً و٧١ متراساً ولهُ ابواب سبعة من الحديد وهو يحيط بالمدينة القديمة او القسم المعروف الآن باسم استانبول اخذهُ العثمانيون عن لفظ رومي معناهُ المدينة وهو (ستي بولي) فمرت بنا العربة في شوارع مهملة داخل هذا السور المتهدم وما بقي منهُ غير اجزاء قليلة وخنادق تملأُ بالماء حين الحاجة منعاً للمتقدم عليها من الوصول . ووقفنا عند باب هليوبولس (اسم مدينة الشمس المصرية) واسمهُ الآن باب مولانا ورأيت فوقهُ رسوماً دينيَّة مسيحيَّة وكتابات يونانية . ورأيت بعد ذلك طوب قبو اي باب المدفع سمي بذلك لان العثمانيين نصبوا فوقهُ مدفعاً كبيراً وقت فتح الاستانة وكانت المدافع في ذلك الحين في اول عهدها واول من استعملها العثمانيون في حربهم مع ايران اولاً ومع ملوك الدولة اليونانية ثانياً . ومما يروى عن باب قبو هذا ان قسطنطين باليولوغوس آخر ملوك القسطنطينية مات وراءهُ وهو يحارب مع جنودهِ فماتت الدولة بموتهِ وصارت البلاد الى قبضة محمد الفاتح ومن خلفهُ

وخرجت من السور الى جامع القاهريَّة الذي كان كنيسة مشهورة قبل الفتح وصار جامعاً ولكن بعض رسومهِ الدينية في الرواق الخارجي باقية على حالها يقصدها الناس للتأمل بمحاسنها من ابعد الانحاء حتى ان امبراطور المانيا زار هذا الجامع لمشاهدتها ومن هذه الصور رسم السيد المسيح يحيط بهِ الحواريون والرسم كلهُ مصنوع بقطع الفسيفساء النفيسة في سقف الرواق. وصورة العذراء والرسل وصور بعض الملائكة والقديسين والحوادث المذكورة في الانجيل من مثل قتل الاطفال بامر هيرودوس وفرار يوسف النجار مع عائلتهِ الى مصر وقيام العازر من الموت وغير هذا كثير كلهُ باقٍ على حالهِ الاصلي ولم يزل شيءٌ من رونقهِ وجمالهِ

وعدت من تلك الناحية بطريق قرن الذهب فاغتنمت تلك الفرصة لمشاهدة حارة الفنار حيث كان الاشراف يقيمون على عهد الدولة اليونانيَّة وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت تحصن مدة الحصار في الليل على نور الفنار واشهر ما فيها منزل غبطة البطريرك القسطنطيني للروس الارثوذكس كان من حسن حظي اني زرتهُ ولما دخلت الدار رأيت في الدور الاول كنيسة عليها شعار الدولة الروسيَّة حامية حمى الديانة الارثوذكسية والمنزل في الدور الاعلى حيث رأيت غبطة البطريرك في غرفة واسعة وكان ساعة دخولي جالساً الى كرسي كبير وامامهُ منضدة تراكمت فوقها الاوراق ولديهِ كاتبان يقدم احدهما لغبطتهِ المحررات التركية فيختمها بختمهِ التركي والآخر يعرض الاوراق اليونانيَّة فيكتب البطريرك اسمهُ عليها باليونانية . وقد قابلني غبطتهُ بالترحاب ثم حدثني عن عدة شؤُون ولما هممت بالانصراف دعاني لزيارة المدرسة التابعة لذلك المكان فزرتها ورأَيت فيها ستماية تلميذ وهي تعرف بلونها الاحمر وارتفاع مركزها حتى انهُ ليمكن مشاهدتها من معظم نواحي الاستانة

ويذكر بين مناظر الاستانة حديقة تقسيم في آخر شارع بيرا الى جهة الشمال ولهذه الحديقة مركز عظيم لانها تطل على البوسفور وما يليهِ والناس يقصدون هذا المكان عند الغروب للتفرج على انعكاس اشعة الشمس عن زجاج المنازل المحيطة بالبوسفور وهي تشبه النار المتقدة في شكلها ولها منظر غريب ولكن الشجر هنالك قليل والاعتناء ليس على ما يذكر ولو وجه الاعتناء الى هذه الحديقة لصيرها من اجمل منتزهات الاستانة

ومما يذكر ايضاً مصادر مياه الاستانة وغابة بلغراد تبعد عن طرابيه ثلاث ساعات ذهاباً واياباً والطريق اليها من اجمل الطرق فانها محشوة بشجر السنديان القديم والصنوبر والحور والصفصاف وتعد تلك الغابات حدود جبال البلقان المشهورة .

واما مصدر الماء الذي يستقي منهُ اهل الاستانة فانهُ خزان كبير بناهُ السلطان محمود الاول سنة ١٧٢٢ وهو قائم على ٢١ قنطرة متينة وتحيط بذلك الماء حدائق بهية واغراس بديعة الاشكال فترى العائلات تقصد هذا المنتزه الانيق وتقضي فيهِ نهارًا بطولهِ في نعيم وصفاء كثير ولا عجب فان منظرهُ من المناظر التي تستحق الذكر على نوعٍ خاص

ومن هذا القبيل ايضًا سان ستفانو وهي من اشهر ضواحي الاستانة يقصدها الناس في ايام الاحاد والاعياد كما يقصدون سان ستفانو في الاسكندرية ولا بد ان يذكر القراء ما لهذا الموضع من الشهرة البعيدة فان جنود الدولة الروسية وصلت اليهِ بعد حرب ١٨٧٦ وعسكرت فيهِ ولم ترجع عنهُ الاَّ بعد ابرام معاهدة سميت باسم هذا المكان وقد ابدلت معاهدة سان ستفانو هذه في السنة التالية بمعاهدة برلين المشهورة وهي اهم المعاهدات الدولية الحديثة كل موادها متعلقة ببلاد الدولة العلية وممالك البلقان وكيفية استقلالها وتصرف الدول في امورها ولها شهرة تغني عن التطويل

وجملة القول ان الاستانة وضواحيها مجموع محاسن طبيعية وصناعية ليس في الامكان تصويرها بالكتابة او الاصابة التامة في وصف جمالها وبدائعها وقد ذكرت شيئًا منها ولم اذكر اشياء اخرى لان عاصمة الدولة العلية معروفة عند الاكثرين والذين سبقوني الى الكتابة عنها ليسوا بقليلين . واني اقمت في هذه العاصمة الزاهرة شهرًا حتى اذا حان موعد السفر تركتها وقصدت مدينة بورصة وهي التي يأتي الكلام عنها في الفصل الآتي

بورصه

وكنت قد سمعت مراراً عن اهمية بورصه قاعدة ولاية خداوندكار وصناعتها وجمال مناظرها وما لها من الذكر الكثير في تاريخ آل عثمان ومن تقدمهم فعزمت على السفر اليها وهي كما لا يخفى كانت عاصمة الدولة العثمانيَّة جعلها السلطان اورخان مقرَّ ملكهِ في القرن الخامس عشر قبل ان تملك العثمانيون مدينة ادرنه (ادريانوبل) ونقلوا اليها مركز قوتهم ولم تزل مدينة بورصه فيها آثار السلاطين العظام الذين اسسوا هذه الدولة القويَّة وسكانها ثمانون الفاً وهي في موقع لهُ شأن قديم في حوادث البشر فانها وسط جبال شهيرة اسم احدها اولمبوس ولهُ ذكر في تاريخ اليونان عظيم ارتفاعهُ ٢٦٠٠ متر وعلى مقربةٍ منهُ كانت مدينة طرواده الشهيرة التي حاربت بلاد اليونان تلك الحرب العظيمة في ايام اشلّس وعولس وغيرهم من الابطال الذين يرد ذكرهم في رواية تليماك وفي تواريخ اليونان القدماء . وقد اكتشف العلامة الالماني شليمان آثار طرواده هذه من نحو عشرين عاماً ولقي فيها من الآثار والتحف ما طير شهرتهُ في الخافقين ولا عجب فان مدينة بورصه وجدت في بقعةٍ رقيت سلم الحضارة حين كانت ممالك اليوم كلها طامسة الذكر خاملة غير معروفة

والمسافة بين الاستانة وبورصة هذه خمس ساعات بعضها بالبحر وبعضها بالبر واني ركبت باخرة من بواخر الشركة المخصوصة وسرنا في بحر مرمرا البهي نمرُّ بالضواحي المشهورة من مثل جزائر الامراء وغيرها ثم تجاوزت السفينة هذه المناظر الفاتنة واطلت على غيرها لا تقل عنها بهاءً وحسناً حتى رست في مودانيه وهي فرضة بورصه واسكلتها نزلت اليها مع اثنين من وجهاء الروس احدهما الموسيو ماكسيموف الترجمان الاول في سفارة روسيا بالاستانة والثاني طبيب السفارة كانا مثلي يقصدان

مدينة بورصه وغايتهما من السفر الاستحمام في حماماتها المعدنية لان هذه المدينة امتازت باشياء كثيرة كالحمامات المعدنية وصناعة الحرير والطنافس وآثار الذين اسسوا دولة آل عثمان وغير هذا مما تراهُ في هذا الفصل القصير

واما فرضة مودانيه فانها بلدة صغيرة لا يزيد عدد الساكنين فيها عن خمسة آلاف نفس وكل اهميتها قائمة في انها الصلة ما بين بورصة والجهات الاخرى فمنها تنتقل الابضعة الصادرة والواردة ولهذا اصبحت من المراكز التجاريَّة المعروفة عند تجار الزيت والزيتون والعنب والكستناء والحرير والدخان ودخل الدولة العليَّة من جمركها ليس بالشيء القليل. والمسافة بينها وبين بورصه ساعتان ونصف في القطار الحديدي وكل هذه المسافة محاسن طبيعيَّة من الطبقة الاولى فان البلاد هنا جبلية والقطار يقضي مدة السفر في صعود ونزول وتعرُّج وتفتل بين هاتيك المسالك كانما هو الافعى تنساب في وسط الجبال ولهذا جعلنا نتطالّ لتمتيع الطرف بمناظر الجبل وما حولهُ حين كان القطار يتسلقهُ فنرى بساتين الزيتون وكروم العنب وحقول الزرع والفاكهة تدل ثمارها الشهيَّة على خصب الارض وجودة التربة ثم اذا انحدر القطار دخلنا في وادٍ شهي بهيَّة ارجاؤهُ ومن ورائهِ سهول ومروج تنشرح لمرآها الصدور وقد ملئت زرعاً وما زال القطار يخترق هذه المناظر ويقف في محطات صغرى اونةً بعد أُخرى حتَّى وصل بورصه فتركناهُ وقصدنا فندق مادام بروت الفرنسويَّة عند مدخل المدينة في حديقة كثيرة الشجر والفواكه

ولما كانت بورصه مركز قوة آل عثمان في بدء عهدهم فان كثيراً من شهرتها ينسب الى ما فيها من الترب وآثار السلاطين السابقين ولهذا فاني قصدت تربة السلطان عثمان مشيد اركان هذه الدولة القويَّة وجدها الكريم والتربة محاطة بسورٍ جميل مرتفع وهي في وسط حديقة غناء فيها برك يتدفق منها الماء تشرف على وادي

بورصه الشهير وقد اقام على بابها حارس امين فتح لنا الباب حين وصولنا فدخلناها
واذا هي حسنة البناء عريضة الجوانب عالية الاركان لونها ازرق جميل ولها ثمان
نوافذ وفي سقفها ثريا بديعة الصنع مدلاة على شكل بهي وفي جدرانها مصابيح جميلة
والارض مفروشة بفاخر الطنافس والضريح في الوسط بني من الرخام وغطي بشال
كشميري ابيض ثمين حسب العادة التركيَّة وعند الراس عمامة كالتي كان يلبسها
هذا السلطان العظيم وقد كُتب فوق الضريح تاريخ ولادة السلطان ومدة حياتهِ
وتاريخ ارتقائهِ العرش وتاريخ وفاتهِ . وهنالك مصاحف قديمة و بعض الآثار النبويَّة
وليس يمكن لزائر هذا الضريح ان يقف امامهُ الاَّ و يخطر في بالهِ انهُ واقف امام اثر
الرجل العظيم الذي اسس دولة من اقوى دول الارض فيتأَثر الواقف لذكرهِ وذكر
امور الدهر الذي لم يقوَ على طي عظمتهِ

ويلي هذه التربة مدفن السلطان اورخان ابن السلطان عثمان الاول وفاتح
بورصه وهو يشبه التربة التي ذكرناها في شكلها . والى يمين هذا المدفن ضريح
السلطان قورقور ابن السلطان بيازيد والى يسارهِ ضريح قاسم چلبي ابن السلطان
اورخان . كل هذه الاضرحة النفيسة في وسط حديقة بديعة كما تقدم القول
غرست على قمة جبل يشرف الواقف فيها على وادي بورصه وما حولهُ من الجبال
والمزارع والوديان والجداول تخترق هاتيك الحقول والبساتين حيث تنمو الذ
اشكال الفاكهة الكثيرة ومنظرها فاتن الجمال . وهنالك ترى جبل اولمبيا الذي
مرَّ ذكرهُ والماء يتدفق من جوانبهِ البهيَّة فيسعى في جوانب السهل الممتد من
تحتهِ ويروي تلك الاراضي الطيبة ناهيك عما يتدفق من الينابيع في قاع الوادي
فتجري الجداول متشعبة في كل ناحية ما بين الاغراس النضرة والشجر
الغضيض ويحلو للمرء ان يقيم اياماً في تلك البقعة يتفرج على محاسنها فاذكرني

ذلك بمحاسن سو يسرا والفرق بين الجهتين في كثرة الذين ينتابونهما فان اراضي سو يسرا حافلة بالسائحين والمتفرجين يأتونها الوفاً كل حين واما بورصه فقليل من يزورها غير اصحاب الحاجة مع انها اجود تربة واطيب هواءً واعذب ماءً وفيها غير الجمال الطبيعي المفرط تلك الحمامات المعدنيَّة والمعيشة فيها ارخص واسهل من المعيشة في مصايف اوروبا فان اقة العنب تباع في السوق بعشر بارات والفاكهة فيها كبيرة الحجم لذيذة الطعم رخيصة الثمن فياحبذا لو قام من يُعنى بتسهيل سبل السفر والاقامة في تلك الناحية البهية

وذهبت بعد ذلك الى جامع المراديه بناهُ السلطان مراد الثاني مررنا اليهِ برواق قام على اعمدة من الرخام وكتب فوق بابهِ (يا خفي الالطاف نجنا مما نخاف) . ومحراب الجامع من الخشب الدقيق الصنع وعلى جدرانهِ قطع من القيشاني غالية المقدار . والى جانب الجامع هذا تربة بانيهِ في حديقة جميلة والضريح مبني من الرخام وقد زرعوا في اعلاهُ قمحاً وفتحوا سقف البناء حتَّى يسقي الغمام هذا الزرع فينمو فوق عظام السلطان العظيم وذلك قياماً بامرهِ لانهُ اوصى ان يبقى قبرهُ مفتوحاً لتمطر عليهِ السماء من بركاتها . وهو السلطان الذي اوصى قومهُ بفتح الاستانة وكتب ذلك بيدهِ على لوح حفظ عند ضريحهِ . وعند الضريح التواريخ المعتادة والشال والعمامة وبعض الآثار النبويَّة على مثل ما تقدم في وصف غيرهِ من الاضرحة وفي حديقة التربة اشجار قديمة العهد كبيرة الحجم يبلغ محيط بعضها ٤٠ قدماً و٤٦ ومنها واحدة احرق الغلمان ساقها ليجعلوا داخلها ملعباً لهم وهي يمكن ان تضم عشرة اولاد داخل ساقها

وقصدت بعد هذا الجامع الاخضر (اشل جامع) سمي بذلك لان ظاهرهُ بني بالقيشاني الاخضر النفيس وبعض آثارهِ باقية الى الآن . بناهُ السلطان محمد

الاول سنة ١٤٢٠ وهو في سفح جبل يشرف على وادي بورصه وقد امتنع لمتانة بنائهِ على الزلازل ومرور القرون فما تهدَّم ولهُ شهرة عظيمة في جهات السلطنة . وداخل الجامع مكسو بالقيشاني الازرق عليهِ آيات قرآنية ولهذا القيشاني ثمن عظيم لانهُ قلَّ وجودهُ وضاع سر صناعتهِ ولهُ جمال كثير لا يمكن وصفهُ والاوروبيون اذا عثروا على قطعة منهُ احلوها محلاًّ عظيماً

هذا اشهر ما يذكر عن الاضرحة والترب العظيمة في العاصمة الاولى لسلطنة آل عثمان . ولكن شهرة المدينة الحالية قائمة بصناعتها ومتاجرها وبحماماتها المعدنيَّة . فاما الصناعة فاشهرها الحرير فان لاهل هذه المدينة علماً دقيقاً بصناعة المناشف الحريريَّة وهي مختلفة الاثمان لا يقل ثمن الطاقم منها عن خمسين ليرا اذا كانت من الصنف الاول وتعدُّ من افخر المنسوجات الشرقيَّة واجملها . وللناس هناك عناية بزرع التوت وتربية دود القز لاستخراج الحرير وقد نزحت عائلات فرنسويَّة كثيرة الى هذه المدينة من عدة اعوام لانماء هذه الصناعة وهي تسكن في حي النصارى فان المدينة قسمان اولهما للمسلمين وهم نحو سبعة اثمان الساكنين والثاني للنصارى وهم الثمن واكثرهم اروام وارمن . وفي بورصه الآن خمسون معملاً للحرير اكثر عمالها من البنات وهنَّ لا يقل عددهنَّ عن ثلاثة آلاف بنت قصدت مرة احد هذه المعامل فرأيت البنات على غاية من السكينة والاحتشام يتكلمنَ بصوتٍ منخفض وقد عكفنَ على صناعتهنَّ وعلمت من الاحصاء الرسمي ان صادرات الحرير من بورصه تبلغ ١٢ مليون فرنك في السنة وليس هذا بالشيء القليل على مدينة مثلها

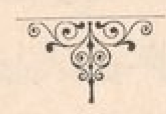
واما تجارة بورصه الاخرى فاهمها بالحاصلات والحبوب والفاكهة الطريَّة والناشفة والذي يزور السهول والوديان المحيطة بهذه المدينة لا يعجب من اتساع تجارتها بغلة الارض لان ضواحيها في كل جهة ملأى بالمزارع والحقول وقد ظهرت آثار

الاعتناء الى حد عجيب حتَّى ان الصخور لم تترك جرداء بل زرع فوقها شيء يستفيد منهُ الناس وعلمت ان اكثر الهمة في ذلك لقوم من الجراكسة هجروا بلادهم واقطعتهم الدولة العليَّة بعض ارضها هنا كما فعلت في عدة نواحي من سلطنتها الواسعة معهم وقد صارت تلك الجبال جنات بحسن اجتهادهم واشتهرت غلتها وفاكهتها شهرة زائدة كما اشتهرت زراعة اخوانهم في جنوبي سوريَّة حيث اقاموا بامر الحكومة وصيروا البراري جنات فسيحة تشهد لهم بالهمة والاجتهاد

واما الحمامات المعدنيَّة في بورصه فهي على مسيرة ثلث ساعة من المدينة قصدتها مع الموسيو ماكسيموف وقد مر ذكرهُ فاذا هي سبعة مختلفة الاشكال بعضها ماؤُهُ حديدي والبعض كبريتي يفيد في الامراض الجلديَّة وبعضها باردة الماء نقيتهُ والبعض حار مثل اكثر الحمامات المعدنية لا تقل في بعض الاحيان حرارتهُ عن ٨٠ درجة بقياس سنتغراد. وقد أُتقن بناء هذه الحمامات واكثرها مبلط بالرخام والخدمة فيهِ متقنة ولو ان وسائل الانتقال والاقامة متيسرة في بورصه لأمَّ هذه الحمامات آلاف مؤلفة من السائحين الذين تستدرُّ البلاد منهم مالاً وفيراً في كل عام لان الذين جربوا ماء حمامات بورصة شهدوا بنفعها وجودتها فوق ما شهد الخبيرون بنفع حمامات النمسا وهي لا يعد المتقاطرون اليها من كل جهات الارض

ولما فرغت من رؤْية ما في بورصه خرجت الى ضواحيها على جواد مع ترجمان رافقني نريد الوصول الى جبل اولمبوس فمررنا بكثير من الربض والاجام راق لي فرط جمالها ورأيت بعض الحراج محروقاً فعلمت ان الرعاة يفعلون ذلك لينبت عشب في موضع الشجر ترعاهُ مواشيهم وكثيراً ما كنت التقي بهؤُلاء الرعاة وتثور كلابهم علينا مثل الضواري وهم لا يردونها عنا . واشرفت من سفح الجبل على عدة

اماكن مشهورة في التاريخ القديم والحديث منها بحيرة ابولونيا وسهول مسينيا وجبال ايدا وطرواده وغير هذا مما يذكر المرء بعبر الدهر وحوادث الايام حتى اذا انتهيت من ذلك عدت الى الاستانة في الطريق الذي جئت منهُ وبعد ايام رجعت الى القطر المصري وقد اقمت في الاستانة وضواحيها شهراً كاملاً وقطعت المسافة بين تلك العاصمة وثغر الاسكندريَّة في باخرة روسية مرت على بيريا وهي اسكلة اثينا وما نزلنا لنراها بسبب الحجر الصحي ثم وصلنا ميناء الاسكندريَّة حيث استقرَّ بي النوى بعد سفرٍ طويل وسياحة عظيمة رأيت فيها من ممالك اوروبا شيئاً كثيراً وكان الذي سطرتهُ في هذه الفصول قليلاً يسيراً





سويسرا

خلاصة تاريخية

عرفت هذه البلاد من ايام الرومانيين باسم هلفتيا واشتهر اهلها من قدم بالباس والجرأة والتفاني في طلب الحرية والدفاع عن الاستقلال ولم تزل هذه صفاتهم حتى يومنا وهم ما نالوا استقلالهم الحالي الاَّ بعد حروب كثيرة واقتحام الاهوال مدة القرون الطوال وكان من امر هذه البلاد ان برابرة الاوروبيين الاول مثل الغوث والالمان والفرانك وسواهم دخلوا ارضها وعاثوا فيها فساداً بعد انحطاط الدولة الرومانية فظلت في حوزتهم اجيالاً ولم تزل آثار الرومانيين ظاهرة في القسم الجنوبي من البلاد واما القسم الشمالي فالماني اللغة والشرقي فرنسوي والكل جمهورية واحدة تعد في مقدمة الجمهوريات اعتدالاً وانتظاماً . ولما قامت مملكة شارلمان كانت سويسرا من املاكهِ ثم انفصلت عن فرانسا وصارت من ولايات النمسا او المانيا وحصلت بين اهلها وبين ملوك النمسا حروب كثيرة في القرون الوسطى اشتهر فيها رجل اسمهُ غليوم تل والمرجح في الاذهان ان قصتهُ وهمية ولكن الالسن تداولتها في كل بلاد حتى اضحت من امور التاريخ المشهورة وخلاصتها ان هذا الرجل كان من زعماء المحاربين للنمسا طلباً للاستقلال فظفر بهِ يوماً الحاكم النمسوي واراد تعذيبهُ بقتل ابنهِ وكان غليوم تل من المشهورين بالرماية ولهُ ولد وحيد تعلق على حبهِ فقال لهُ الحاكم انهُ لا يطلق سراحهُ الاَّ اذا رمى تفاحة توضع على راس ابنهِ بسهم يصيبها ولا يقتل الولد وكان في ذلك خطر عظيم على الولد والوالد معاً ولكن غليوم تل اصاب التفاحة ولم يؤذِ ابنهُ وهي قصة تمثل على المراسح الاوروبية في كل مدينة

وكان من وراء هذه الحروب ان ملوك النمسا رضوا باستقلال الولايات السويسرية واحدة بعد واحدة مع بقائها تابعة اسماً للدولة النمسوية فقويت هذه الولايات بالاتحاد حتى انها

فازت في الحرب على امبراطرة النمسا وعلى ملوك فرانسا. وكانت سويسرا بلاداً مهابةً قوية في بدء القرن السادس عشر فما اجترأ احد على العبث باستقلالها من ذلك الحين حتى قام نابوليون بونابارت وغير نظامها كما فعل بغيرها ولكنها عادت الى حالها الاول بعد سقوطهِ وحدثت من ذلك الحين ثورات وقلاقل كثيرة انتهت بحرب اهلية في سنة ١٨٤٨ نظمت من بعدها الجمهورية الحالية على مثل ما تراها اليوم وعاصمتها مدينة برن في وسط البلاد ورئيس الجمهورية ينتخب كل سنة وراتبهُ لا يزيد عن ستمائة جنيه في السنة وهو يرأس مجلساً للنواب يقضي مصالح الامة عامة واما مصالح الولايات الخاصة فتقضيها مجالس محلية في كل ولاية ٠
ويقال بوجه الاجمال ان حكومة سويسرا من انظم الحكومات واهلها من ارقى اهل الارض عقلاً واكثرهم علماً فان مدارسهم في الطبقة الاولى من التقدم وصناعتهم متقنة ومشهورة وهم اهل نشاط وهمة تليق ببلادهم الجبلية التي تكثر فيها العظائم والمحاسن الطبيعية الى حد يفوق التصديق ولهم امانة تضرب بها الامثال فقد كان ملوك اوروبا لا يستخدمون لحراستهم الخاصة وحراسة ذويهم غير رجال سويسريين لانهم اشتهروا بالبسالة والامانة ٠ وهم من اقل الناس ميلاً الى الحيلة والخديعة واكثرهم حباً للغريب وصدقاً في المقال فلا عجب اذا كثر السائحون في سويسرا وهي جنة اوروبا ومنتزه السراة من اهلها ما دام ان البلاد كلها محاسن بديعة وهذه طباع اهلها المشهورة

سان غوثار

اما وقد بدأت بذكر ما في سويسرا من عجائب المناظر التي تؤثر في الذهن فاني اراني مقصرًا في القليل الذي سيجيء لان هذه البلاد كعبة المتفرجين ومثابة السراة الموسرين ومصيف السائحين وهي فردوس اوروبا وجنتها الفيحاء تجمعت فيها محاسن الجبل والوادي والسهل والبحر والنهر وتناسقت على شكلٍ يسحر الالباب ويقصر عن وصفهِ ابرع الكتاب . ولطالما سبقني البارعون الى تقرير الحقائق عما في هذه البلاد الحسناء من نخيم المناظر وبديع الامور فانا اكتفي هنا بقليلٍ مما رأيت فيها وقد كنت قصدتها من الاسكندريَّة في شهر يونيو سنة ١٨٩٥ ومررت ببعض مدائن الطليان قبل الوصول اليها مثل برندزي والبندقية وميلان ترى الكلام عنها في باب ايطاليا حتى وصلت حدود سويسرا ورأيت جبالاً شامخة شاهقة تعلو قممها الى السحاب هي جبال الالب المشهورة ليس في اوروبا ارفع منها قمة ولا اوعر مسلكاً ولا افخم منظرًا فلما مدت خطوط الحديد في كل الممالك وكان لا بد من خطٍ حديدي يمرُّ في تلك الجهة ويربط هذه الممالك بعضها ببعض تعاونت المانيا وايطاليا وسويسرا على مدهِ في جبال الالب فانت اذا ركبت القطار من حدود ايطاليا ترى العجب من كثرة ما يخترقهُ هذا القطار من الجبال يدخل في نفقٍ ويخرج من نفق طول الطريق حتَّى ان عدد السراديب هذه في ذلك الخط لا يقل عن ٦٤ فضلاً عما دكوهُ من الجبال وما فتتوا من الصخور ومهدوا من الطرق مدة تسع سنين انفقوا في خلالها ١٢٠٠٠٠٠ كيلو من الديناميت لنسف تلك الجبال الهائلة واطول نفقٍ في هذا الخط كلهِ النفق المعروف باسم سان غوثار وهو جبل شاهق طويل عريض نقبوهُ من جانب الى جانب والقطار يمرُّ في جوفهِ

ويظل ثلث ساعة سائرًا سيرًا حثيثًا في بطن الارض لان طول النفق هذا نحو
ماية كيلو متر يقضيها المسافر في ظلام دامس ودخان متكاثف وتعتريهِ رهبة ودهش
غريب متى فكر انهُ تحت الارض يسعى مجدًّا ومن فوقهِ جبال الالب الهائلة فيصفر
عجبًا لهمة الرجال وعظمة الانسان اذا تضافر واتمَّ الغرائب

وماذا اقول عن محاسن هاتيك الربوع التي يخترقها القطار في خط سان غوثار
وانا لو اوتيت مقدرة اعظم الواصفين ما قدرت على عشر معشار الذي يليق بعظمة
هذه المناظر الفخيمة وهي مقصد الطلاب ومطمع الروَّاد من كل بلاد فان قوى
الطبيعة كلها تضافرت وتعاونت هنالك وعرضت من انواع الحسن الباهر ما يخلب
الالباب ويفتن الانظار فبين انت في ذيالك القطر العجيب تسير في سهلٍ دبجتهُ
يد الطبيعة باشهى الاعشاب وابهى انواع الزهر والشجر الباسق اذا انت على ضفة
جدول لمائهِ خرير يلذُّ للسمع وقد راق زلالهُ ورقَّ استرسالهُ ورصعت جوانبهُ بوشيٍ
من الخضرة واشكال الزهر الغريب تحملك على الظن انك في ديار النعيم حتى اذا
ضاع فكرك في التأمل ببدائع هذا السهل رأيت انك فوق جسر عظيم يمتد من
جبل الى جبل كانما هو معلق بينهما وتحتهُ الوادي تجري فيهِ الانهار حتى اذا اجتزت
ذلك الجسر سرت الى جانب المجرى سيرًا متعوجًا متعرجًا كانما القطار افعى تنساب
بك ما بين تلك المروج البهية والضفاف الشهية وتقع في حيرة الى اي الجانبين تحوّل
الانظار الى جانب الوادي وما يليهِ من خضرة نضرة ومنازل رصّعت بها الجوانب
ترصيعًا وقد التفَّت من حولها الاغصان على شكل بديع وماءٍ ينسيك متاعب الدهر
واحوالهُ أم الى الجانب الآخر حيث قام جبل شاهق نخيم في قمتهِ سحاب تتساقط
منهُ كرات المطر كانما هي اللؤلوء والدر على تلك الاعشاب الندية ومن دون السحاب
ثلج يجلل قمة الجبل ويزيدهُ مهابةً وجمالاً ومن دون الثلج صخور بينها شجر تحنّ

النفس الى ذكر مثلهِ وتصبو الى التظلل طول العمر بفيئهِ لاسيما وقد جرت من بين تلك الصخور والجبال جداول ماءٍ معين يتدفق في هاتيك المسالك البهيَّة تدفقاً يروق للناظرين ويتساقط من سفح الجبل فيريك اعجب ما رأيت من اشكال الجنادل لاسيما وهي تغيب اونة وتظهر اخرى ما بين هاتيك المسالك التي يتعشق القلب ذكرها وتمثّل للرائي منتهى العز وحد الاعجاز في الجمال الباهر

لوسرن

وظللت ثمان ساعات في القطار يخترق الاراضي السويسريَّة وقد وددت لو تكون ثمانين حتى وصلت مدينة لوسرن وهي من اشهر مدن هذه البلاد واوفرها جمالاً بنيت في وسط جبال بدائعها لا توصف مثل اكثر مدن سويسرا والى جانبها بحيرة تعرف باسمها اشتهرت ايضاً بحسنها الفائق وطول هذه البحيرة ٢٣ ميلاً والعرض يختلف ما بين نصف ميل وميلين وعمقها ٧٠٠ قدم ولها مزية على اكثر البحيرات السويسريَّة في انها لا تتجمد مدة الشتاء كما ان لوسرن لها مزية باعتدال الهواء وجودتهِ فلا عجب اذا اضحت كعبة السائحين يفدون اليها الوفاً مؤلفة في كل عام وينفقون فيها الاموال الطائلة ويجدون ما يسرهم سواءٌ من محاسن الطبيعة التي تصبو اليها النفوس او من اجتهاد الحكومة والاهالي في تحسين ما عندهم فان الفنادق والمخازن كلها متقنة والمعاملة مع السويسريين ليس فيها شيءٌ من التعقيد ولا خوف على السائح من الغبن وسوء المعاملة. هذا غير ان المجلس البلدي لا يفتر عن اعداد وسائل الراحة للسائحين حتى انهُ انشأ مكتباً خاصاً لخدمتهم فيهِ المترجمون يتكلمون بكل لسان ويرشدونهم بلا اجرة الى كل حاجة . واهل لوسرن مثل اهل

سويسرا كلهم يتعلمون الفرنسيَّة والالمانيَّة في مدارسهم لان البلاد قسم الماني وقسم فرنسي فاما القسم الفرنسي فاهم ما فيهِ مدينة جنيف وهي واقعة على ضفة بحيرة جميلة تعرف باسمها طولها ٤٥ ميلاً وعرضها ٨ وقد امتازت هذه البحيرة بصفاء مائها وزرقتها وهي تمخر فيها الباخرات الحسناء تقصد بعض المدائن الواقعة على شواطئها من مثل اڤيان وثقيه ولوزان وهي من المصايف المشهورة . ويحيط بهذه البحيرة جبال بهية يصطاف بها اكابر البلاد والسائحين وفي اكثرها قصور لبعض الاغنياء ولجنيف شهرة بمدارسها الجامعة يقصدها الطلاب من كل الانحاء وفيها معامل كثيرة للساعات والآلات الموسيقية . واما القسم الالماني فاهمهُ لوسرن التي نحن في شأنها

واعظم منتزهات لوسرن البحيرة وما يحيط بها من آكام او جبالٍ بنيت فوقها القصور او طرق زرعت الى جانبيها الاشجار او حدائق رصعت ببدائع الاغراس او شوارع ملئت بالفنادق والمخازن الكبار وعلى ضفة البحيرة رصيف طويل فيهِ شجر من الدلب تطاولت جذوعهُ وتشبكت فروعهُ والناس يحتشدون في جوانب الرصيف ويسمعون شجي الانغام ينقلون الطرف من البحيرة الى ذلك الشجر وما يليهِ من محاسن المدينة ولا عجب ان يكون اهل سويسرا اصحاب ذكاءٍ متوقد ومناظر حسنة ما دامت بلادهم هذه حالها وهذه مناظرها . واني ركبت مرة احدى البواخر الكثيرة التي لا تزال طول النهار وبعض الليل بين ذهاب واياب في جوانب تلك البحيرة الشهية وكانت الباخرة تقف حيناً بعد حين في مواقف ما رأت العين اجمل منها وتدور بين مروج خضراء وجبال سحيقة شماء تتصل اطرافها بالسماء وحدائق فيحاء غناء وضياع وعمائر كتب على جبين اهلها الرغد والهناء وأُتقن ما فيها من طريق وبناء فما ترى اينما سرت الاَّ مناظر تتلو المناظر وكلها آيات في الحسن

بينات ينفرج امامك المجال حيناً و يضيق بعد حين فان الباخرة التي كنت فيها
وصلت في سيرها الى موضع ضيق خيّل لنا منهُ ان السفينة حصرت بين اربعة جبال
شاهقات ولم يبقَ لها مخرج من ذلك الموقف فما عتمت ان دارت حول جبل من
تلك الجبال الشهية فاذا نحن في بحيرة اخرى وقد اتسع المجال ورأينا المرابع والمراتع
في كل جانب والابقار الضليعة ترعى على مهلٍ يقودها صبيان على ابدانهم دلائل
العافية والحبور وقد رقدوا على العشب الندي يتأملون محاسن ما اوجد الله لهم او
يتغنون و يسمعون اصواتهم للمارة في قطر الحديد والباخرات الطافية على وجه تلك
البحيرة الصافية وقد يبيعون الازهار البريَّة للسائحين . وهنالك رجال ونساء يعملون
في مزارعهم المتقنة بما اشتهر عن اهل هذه البلاد من الاجتهاد والكل يحرثون
الارض و ينقبون وملابسهم نظيفة ووجوههم طلقة لا ترى عليهم دلائل الهم والقلق
فان حكومتهم عادلة غير جائرة والضرائب المفروضة عليهم يسيرة غير رابية واسواقهم
حيث تباع حاصلات الارض رائجة غير كاسدة فما عليهم من همٍّ ولا هم
يحزنون . وهنالك ترى خطوط الحديد الى جانب الماء تمرُّ عليها الارتال وقد
اطلَّ المسافرون من كل كوَّة او نافذة يسرّحون الطرف في تلك المناظر الشهيَّة
حتى لا يغيب عنهم جمال شبر من اشبار الارض وسكة القطار كلها مرصوصة
بالحصى والارض يرطبها المطر المتوالي لا ينقطع في الصيف او في الشتاء فالسفر
هنالك لذة لا غبار يعمي الابصار ولا رجرجة تضني الاجسام وتذهب بالاصطبار
ولا مراقبة مستمرة على التذاكر ولا تفتيش في كل حين تتألم منهُ الافكار فلا عجب
اذا كان السفر في ارض سويسرا الحسناء لذة والاقامة فيها نعيماً تتوق اليهِ النفوس

وقد وقفت بنا الباخرة في محطة غليوم تل سميت باسم هذا الرجل الذي ذكر
في المقدمة التاريخيَّة فرأينا فيها بنات لابسات الزي السويسري القديم ينشدنَ النغم

الوطني وسرنَ في الباخرة الى آخر البحيرة معنا وهنَّ دائبات على الانشاد . وعدنا في آخر النهار الى لوسرن ونحن نمتع الانظار بالتأمل في تلك الجبال الفخيمة وهي ما بين مخروطة ومنبسطة ومتشعبة ومستدقة وكلها تكسوها الاعشاب وحراج الشجر البهي وتتساقط من جوانبها جداول الماء وفوق بعضها الجسور المعلقة بين طرفين من اطراف الجبل يمرُّ عليها الناس ومن دونهم ماءٌ ينسكب بين هاتيك الشعاب الغريبة واجمل ما يكون في سويسرا منظر بحيراتها وجبالها المشهورة

واما الجبال المحيطة بلوسرن فكثيرة منها جبل بورجستوك ذهبنا في باخرة الى محطة في اسفلهِ وارتقينا قمتهُ في قطار يسير صُعدًا بسير رويد وهو يتعرج وينثني بين مسالك الجبل وقد صنعوا لهُ دواليب مشبكة في وسطهِ غير الدواليب التي تسيّرهُ فوق قضبان الحديد وفائدة هذه الدواليب المشبكة ان اسنانها ترد القطار عن ان يهوي ويتدحرج الى الوراء مدة سيرهِ بالصاعدين وكان في اعلى الجبل آلة بخاريَّة تساعد في جر القطار وقد ربطت اليهِ بسلسلة من الحديد قويَّة ولا حاجة الى القول ان السفر على هذه الطريقة يسحر الالباب بجمالهِ وغرابتهِ لا سيما اذا اطلَّ الراكب ورأى ما فوقهُ وما دونهُ من عجيب المناظر الطبيعية وشعر انهُ صاعد في السحاب من بين شقوق الجبل البهي. والجبل منظم الطرق في اعلاهُ ترش جوانبهُ بالماء وقد صفت الاغراس فيهِ صفوفًا بهية وبني محل للتلفون وآخر للتلغراف يوصلان الموضع بلوسرن وبقية الارض وفيهِ فنادق والموسيقى تصدح بالانغام الشجية عصارى كل يوم فما احيلى التنقل في تلك القمة الشماء وقد ترقرق ماء البحيرة من دونها وقامت شوامخ الجبال الراسيات وبدائع المحاسن المتناسقات حولهُ من كل جانب حتَّى تمثل لك صورة الهناء والنعيم . ولقد قضيت في ذلك الجبل ساعات ثم انحدرت الى سفحهِ وعدت الى المدينة فقصدت منها في الغد جبلاً آخر

اشهر من هذا واكبر اسمهُ ريكي بلغ ارتفاع قمتهِ عن سطح البحر ١٨٠٠ متر وفيهِ كثير من الفنادق المتقنة سواءٌ في اعلاهُ او في اسفلهِ او في الجوانب التي تزينها الحراج الغضة . وقد كان القطار يصعد بنا هذا الجبل ولهُ آلة بخارية تجرهُ من الامام وأُخرى تدفعهُ من الوراء وقد نظمت قمة الجبل وزينت بمليح الطرق والبناء والقرى مثل التي مرَّ ذكرها فكان اكثر المتفرجين معنا يستلقون على تلك الاعشاب الندية ويتمرغون وقد لذَّ لهم بهاء الموضع وحسنهِ الباهر وتناسوا هموم الزمان وبعض الذين تراهم هناك يقضون اشهر الصيف كلها في ما شيد من المنازل الفخيمة في جوانب الجبل. واصحاب الفنادق هنا جروا على عادة لا تروق لاكثر الشرقيين هي انهم يوقظون الضيوف كل صباح عند شروق الشمس حتَّى يروا كيف يكون طلوع الغزالة من وراء الجبال وهم يدقون لذلك الاجراس عند الفجر وعند المغيب فيهرع الانكليز وسواهم للتأمل في ذلك المنظر الجميل ولكن الشرقي الذي لاتغيب الشمس من بلادهِ مدة النهار بطولهِ وهو يرى كيف تشرق وكيف تغيب في كل حين لا يهتم للقيام من النوم في ألذ ساعاتهِ حتَّى يرى هذا المنظر المعروف

واعلى من ريكي جبل بيلاطس وهو في ضواحي لوسرن ايضاً علوهُ ٢٠٠٠ متر والصعود اليهِ في قطر البخار يستغرق ساعة ونصف ساعة وهو لا يقل جمالاً عن الجبلين اللذين ذكرناهما وقد عنيت حكومة لوسرن بتشييد المنازل فيهِ وتمهيد الطرق البديعة وهي تأتي كل حيلة ممكنة لاستجلاب خواطر السائحين وترغيبهم في الاقامة طويلاً فيها كانما المحاسن الطبيعية التي تجمعت هنالك لا تكفيها وفي جملة الذي تأتيهِ الحكومة لهذا الغرض انها تقيم في كل عام زينة بهيةً في بحيرة لوسرن فتنار البواخر والجبال المحدقة بالانوار الكهربائية وسواها وتخترق الفضاء اسهم

نارية تتصاعد على اشكال شتى تروق للناظرين ويتكوَّن من مجموع هذه الانوار منظر يزيد المدينة حسناً فوق محاسنها الكثيرة ولهذا يكثر ايراد المدينة من السائحين وهم الوف كثيرة لا يقل عدد الذين يرتقون جبل بيلاطس منهم عن ثلثين الفاً في كل عام

وفي لوسرن فنادق كثيرة بنيت فوق الروابي والآكام المحيطة بها غير هذه الجبال وهي تنار بالغاز والكهرباء واذا جاء الليل سطعت الانوار منها على البحيرة فكان لها منظر غريب كثير الجمال . وفي هذه المدينة الحسناء معارض تاريخية وتصويرية وكنائس واسواق تذكر وحدائق بديعة الوضع والاشكال ولكنني اكتفيت بما مرَّ ذكرهُ عنها لانهُ اهم ما فيها وشهرتها قائمة في جمال الموقع وجمال المناظر الطبيعيَّة وجودة الماء والهواء ولو لم يكن فيها من المحاسن غير الذي اوجدهُ الله لكفاها عزًّا وهناء

زورخ وبرحت لوسرن بعد هذا ووجهتي مدينة زورخ وهي واقعة على بحيرة كبيرة تعرف بهذا الاسم ايضاً طولها ٢٥ ميلاً وعرضها ميلان ونصف وقد قامت على ضفافها من كل جانب قصور فاخرة ومنازل كثيرة لكبراء السويسريين وبعض الانكليز والاميركان والالمان والروس وغيرهم ممن يصطاف في ربوع سويسرا البهيَّة . والارض هنالك كلها محاسن مثل الَّتي تقدم ذكرها حتَّى انهُ لو امكن للمرء ان يدور في البلاد ماشياً على قدميهِ لما شعر بالتعب مِنْ تغيير المناظر المدهشة في كل حين وقد يحسب ان الولاية كلها بلد واحد لان البناء متواصل والحركة دائمة في جوانب هذا القطر السعيد . واشتهرت زورخ بمعامل الحرير وهي فيها عشرة آلاف معمل وفيها من الحدائق والابنية والشوارع ما يجعلها في الطبقة الاولى من الاهمية بين مدائن سويسرا من ذلك ساحة عظيمة فيها بركة وتمثال على

اسم اشير موسس سكة الحديد في سان غوثار الذي مرَّ ذكرهُ ويمكن الوصول من هذه الساحة الى شارع توسط ما بين المحطة والبحيرة وفيهِ كثير من الابنية العمومية لا محل لوصفها

شافهوسن . وذهبت بعد هذا الى مدينة شافهوسن لارى شلال الرين فيها وهو اكبر شلالات اوروبا وقد كان السفر ما بين هاتين الجهتين حلواً شهياً توفرت فيهِ المناظر المطربة للنفس حتى اذا وصلنا شافهوسن اخذنا غرفة في فندق بني الى جانب الشلال ونافذة الغرفة تطل على مياهِ المرغية المزبدة ولها تأثير في النفس يفوق التعريف فانها كانت تنحط من علٍ هاويةً في الفضاء ولها دويٌّ يصمُّ الآذان كانما يد القدر تصبها صباً فوق صخور قويت على صدماتها القرون الطوال وهي اذا ما ماست الصخور لطمتها وصدمتها من كل جانب فترغي وتعج وتموج مضطربةً ثم تدور من حول الصخور وتسرع المسير مرعدة قاصفة فيسمع دويها الهائل من بعدٍ باعد واذا تأملتها عن كثب كما فعلتُ تاهت الافكار منك وحرت في ما ترى من قوة ذلك المشهد العظيم وتأثيرهِ الخارق . ولقد نزلت غرفة من الزجاج بنيت فوق المياه المتلاطمة المتصادمة ووقفت في حجرة منحوتة بالجبل ترى منها منظر الماء من وراء الزجاج الملون غريباً حتى انك لتظن السيل احمر او اخضر او فيروزياً على حسب لون الزجاج. ونزلنا غرفة اخرى يكاد الواقف في احدى نوافذها يماس الماء المنحدر. وسرت بعد ذلك في طرق متعرّجة بين الصخر والشجر والماء تصطدم امواجهُ من دوننا حتى اتينا موقفاً كانت الزوارق مستعدة فيهِ لنقلنا فدخلناها وارتدينا اردية من الجلد فوق ملابسنا حتى تقيها من الماء المتناثر عند الاصطدام بالصخور فسارت هذه الزوارق في الماء المضطرب تنثني وتنفتل مجاراةً للتيار الشديد حتَّى وصلت صخرًا عظيماً شاهق الارتفاع وارتقينا قمتهُ فاذا هوَ في وسط غريب المجال تصدمهُ

جيوش الماء ونقلقله وقد خافت الحكومة عليهِ من السقوط فقوته ببناء متين فاذا وقفت في ذلك الموضع البديع ترى الماء من دونك في هياج عظيم والسيل ينحدر منهُ في عرض ١٣٠ مترًا ومن علو ٤٠ مترًا فيكون لوقعهِ اصطدام هائل بتلك الصخور ولسيرهِ في الوادي بعد ذلك السقوط منظر كثير الغرابة يقصده السائحون من بعيد الجوانب ولما ارخى الليل سدولهُ خرجت على جسر بني فوق الشلال فانتهينا الى حانة منظمة بنيت فوق ذلك السيل الطامي ورأيت هنالك مناظر يعجز عن وصفها القلم واللسان لان اصحاب الحانة جعلوا يحولون اشعة النور الكهربائي على ذلك الشلال ويلونونها بالالوان المختلفة فتارةً ترى الماء قناطر خضراء تزري بالسندس والزمرد تعلو وتهبط وتتناثر ويتكون من اصطدامها وهبوطها وجريها واضطرابها مناظر تخيل لك انك في ارض مسحورة او ان الجن جاؤُا بمعجزاتهم وهم يعرضونها عليك. وطورًا ينقلب الماء لونهُ فيصير احمر بلون الياقوت او اصفر او ازرق او مختلف الالوان فكانما الآلهة تضافرت على ايجاد جبال من الماء الجاري بهذه الالوان البديعة تراها كل لحظة على شكل من الاشكال لاسيما اذ ينحدر السيل من ذلك العلو الشاهق وما اظن ان الذين وصفوا النعيم والفردوس من فلاسفة الاولين فطنوا الى ما يقرب من هذا العز الفاخر والحسن الباهر. وزاد المشهد جمالاً انهم وضعوا بعض المفرقعات الناريَّة في وسط الصخور تصدمها المياه ثم اوصلوا اليها شرارة كهربائيَّة فالتهبت وتطايرت في الفضاء هذه تنقضُّ شهابًا لامعًا وتلك تحلّق في السماء نيزكًا ساطعًا وهذه تتناثر قطعها الملتهبة تناثر الدر والمرجان وهذه تشق كبد السماء وقلبها يتوقد نارًا حتى اذا بلغت من العلو عظيمًا فقعت واضاءَت على اشكال تروق للناظرين

وبرحت هذا الموضع للسياحة في نهر الرين فركبت باخرة من بواخرهِ قامت

تمرُّ على تلك الضفاف البهيَّة وهي تقف مرة في الشمال ومرة في اليمين وتجتاز ما لا يعد من الحزون الشماء والمروج الخضراء والهضاب الحسناء والعمائر متواصلة البناء وكان في جملة ما رأيناهُ محطة ستوكبرن اتسع نطاق النهر عندها حتى صار بحيرة بهيَّة الضفاف وقام من فوقها جبل بني على قمتهِ قصر كان لهورتانس والدة نابوليون الثالث وهو الآن ملك ارملتهِ الامبراطورة اوجيني. ورأينا ايضاً بلدة كوتلبن وفيها قلعة سجن فيها يوحنا هوس المصلح الشهير وجيروم تلميذهُ لانهما خالفا العقيدة الكاثوليكيَّة وسنعود الى ذكرهما. وظلت الباخرة دائبة السير متنقلة بين ابهى المناظر واشهاها مدة ثماني ساعات انتهينا في آخرها من السياحة في سويسرا ودخلنا بلاد الالمان فزرنا عدة مدائن منها

كونستانس وهي قاعدة امارة بادن من امارات المانيا بنيت على ضفة بحيرة عظيمة تعرف باسمها وتعد البحيرة ملكاً شائعاً لانها الحد الفاصل بين املاك سويسرا والنمسا والمانيا وهي كبيرة مساحتها ٢١٠ اميال مربعة وكل جوانبها آيات في الانقان والجمال الطبيعي وبلدان تتصل باطراف النمسا والمانيا ولهذا ترى بواخر الدول الثلاث تجول في جوانبها وقلَّ ان يمرَّ عام ولا يجيء الملوك والامراء العظام من الدول الالمانية وسواها الى هذه البحيرة البديعة. وقد يشتدُّ هبوب الريح في بعض الاحايين فتنقلب هذه البحيرة الصافية الى بحر عجاج تعلو في جوانبهِ الامواج. وفي فصل الشتاء يتجلد من هذه البحيرة قسم كبير فيصير مرسحاً للزحف على القباقيب

وقد قصدت البناء الذي عقد فيهِ مجلس كونستانس لمحاكمة يوحنا هوس السابق ذكرهُ لاتباعهِ طريقة الاصلاح البروتستانتية ومخالفة الكنيسة اللاتينية سنة ١٤١٥ وهو مجلس لهُ شهرة في تاريخ اوروبا لان افواج الناس تقاطرت لحضورهِ من كل حدب بعيد وكان رئيس ذلك المجلس البابا يوحنا الثالث عشر ومن اعضائهِ

الامبراطور سجسموند و٢٦ اميرًا من امراء الدولة الالمانية و١٤٠ كونتًا و٢٠ كردنالاً من كبراء الكنيسة الكاثوليكيَّة و٩٠ اسقفًا وآخرين من خدمة الدين فكانت جملة الحاضرين اربعة آلاف رجل . هؤلاء حاكموا الرجل ولم ترق لهم أساليب دفاعهِ وحكموا باعدامهِ لانهُ خالف تعاليم الكنيسة البابَاويَّة فأُحرق الرجل حيًّا جزاء تصريحهِ بما يعتقد وكان الامبراطور سجسموند يودهُ وقد ضمن لهُ الحياة ولكنهُ لم يقوَ على مخالفة البابا وذلك الجمهور فأسف لما اصاب الرجل وقد قام انصار هذا المصلح بعدئذٍ وبنوا لهُ قبرًا في ضواحي كونستانس فسرنا اليهِ في طريق جميل يظللهُ شجر الحور والصفصاف والى الجانبين منازل تحيط بها البساتين والحدائق البديعة وقد تدلت الاثمار اللذيذة من الاغصان وراق ذلك المنظر للعيان حتى اذا انتهينا الى القبر في الخلاء رأيناهُ حجرًا واحدًا كبيرًا احيط بسياجٍ من الحديد وفوق القبر اكاليل من الزهر وضعها بعض انصار هوس من طائفتهِ وقد كتب على الحجر من احد جانبيهِ — يوحنا هوس سنة ١٤١٥ — وعلى الجانب الآخر — جيروم سنة ١٤١٦ — وعدت بعد ان شهدت هذا المشهد المؤثر الى كونستانس مفكرًا في فعال الانسان وامور هذا الزمان

وقمت من مدينة كونستانس الى جهة الشمال فمررت بالغابات السوداء وهي لها شهرة في اوروبا وكان القطار مدة سفرهِ يجتاز بنا الجبال مرة في نفق تحت الارض ومرة يدور ملتفًا حول الجبل واذكر اني حسبت ٢٥ نفقًا دخلها القطار وخرج منها في مدة ساعتين وهذا قليل مثالهُ في خطوط الحديد الاخرى . وبعد مسير سبع ساعات بين تلك المناظر والبلدان العامرة وصلنا مدينة

ستراسبورغ وهي عاصمة ولاية الالزاس كانت تابعة لالمانيا ثم اغتصبها الفرنسيس وضموها الى مملكتهم في حرب الثلثين سنة التي سبقت الاشارة اليها

وكان ذلك سنة ١٦٨٠ وظلت من املاك فرانسا حتى حربها الاخيرة مع بروسيا سنة ١٨٧٠ حين ضمت الى المانيا وصارت جزءًا منها وكان الالمانيون كل مدة استيلاء الفرنسيس عليها يعدون النفس باسترجاعها حتى ان احدهم انبأ في كتاب لهُ بين كان الفرنسيون يبنون الحصون فيها والقلاع بمجيء يوم تدك المدافع الالمانية تلك الحصون وتعيد المدينة الى اصلها الالماني فكان الذي قالهُ ولما وصلنا المدينة ونزلنا من القطر الى محطتها الواسعة رأينا في صدر القاعة الكبرى من هذه المحطة صورة القيصر ولهلم الاول جد القيصر الحالي ومن ورائهِ ولي العهد واركان الحرب وكبراء الدولة فذكرنا ذلك بحرب سنة ١٨٧٠ وهي لا بد لزائر ستراسبورغ من تذكرها اينما سار لان المدينة ملآنة بالنُصُب والابنية والاشكال التي اقيمت لاسترجاعها من فرانسا وانتصار المانيا في تلك الحرب العظيمة حتى انك لترى صور قواد الجيش الالماني وتماثيلهم منتشرة في ارجاء المدينة غير ما فيها من التكنات الواسعة والقلاع الحصينة الجديدة تقيم فيها الوف الجند المدربة وهي من اكبر مراكز الجيش الالماني. واني بعد وصولي رأيت عند المحطة ميدانًا واسعًا كثير الاتقان صُفَّت فيهِ الاغراس ووضعت المقاعد فترى الناس ينتابونهُ شأنهم في كل مكان مثل هذا للتنزه والتفرج بعضهم على بعض. ولما كانت المدينة من المواضع العسكريَّة كما مرَّ فاني اخذني الدليل قبل كل شيء الى حصونها ومحل المعارك التي حدثت فيها مدة الحرب الاخيرة وقد اشتهر حصار الالمانيين لهذه المدينة فانهم حصروها مدة ٤٦ يومًا قبل ان فتحوها وطردوا الفرنسيين منها واطلقوا عليها ١٩٣ الف قنبلة دمرت حصونها واوقعت الفناء في حاميتها حتى سلم القائد الفرنسي وانتهت ويلات الحصار بدخول الجيش الالماني ظافرًا وكان في جملة الذي غنمهُ الفاتحون ١٢٠٠ مدفع و ١٢٠٠٠ بندقيَّة و ١٨٠٠ حصان واسروا ١٨٠٠٠ رجل من

جنود الفرنسيس . وقد هُدمت الحصون القديمة وانشيءَ مكانها طرق ومنتزهات وقصور و بنيت حصون حديثة فاتسع بعدها نطاق المدينة

وكانت ستراسبورغ يوم زيارتي لها حافلة بآلاف الوافدين عليها من كل صوب لانهُ أُقيم فيها معرض عامّ في ذلك العام داخل حديقة واسعة الاطراف متنوعة المحاسن ووضعت فيهِ اشكال المصنوعات الحديثة متناسقة مقسمة فروعاً فالآلات الميكانيكيَّة للنقل والزراعة والصناعة على انواعها في قسم والمنسوجات في قسم والمفروشات في قسم وكلها ادلة على تقدم البلاد في هذه الصناعات ووصفها لا يختلف عن وصف غيرها من المعارض فلا اضيع الوقت عليهِ ولكنني اذكر بنوع خاص اني رأيت بناءً جامع في ذلك المعرض احكم الوضع وبناءً آخر يشبه كنيسة القبر المقدس في القدس الشريف بكل ما فيها من التحف والمصابيح الثمينة والملابس المقصبة التي يستعملها خدمة الدين وغير هذا مما يوهم الواقف هنالك انهُ في القدس وليس في المانيا . وكانت الاعشاب في بعض اجزاءِ هذه الحديقة مزروعة على نسق يقرأُ منهُ اسم ولهلم وبسمارك ومولتكي الذين اسسوا الدولة الالمانيَّة الحالية . واذكر اني حال خروجي من هذا المعرض دخلت موضعاً فيهِ مرائي عديدة لا تقل عن خمسماية صفَّت قطعاً صغيرة بعضها الى جانب بعض فاذا وقف المرءُ امامها رأى شكلهُ خمسماية مرة في كل ناحية وذكرني هذا بمحل مثلهُ في برلين اذا دخلهُ الزائر ورأى صورتهُ في كل جهة عسر عليهِ ان يعرف من اين الخروج اذا لم يساعدهُ صاحب المحل على ذلك

وفي ستراسبورغ حدائق وميادين وشوارع كثيرة وافرة الاتقان اذكر منها ميدان جوتنبرج مخترع الطباعة فيهِ تمثال من الرخام الابيض يشرح معنى الحروف البارزة لجماعة من السائلين. وتمثال كلبر القائد الفرنسي الذي جاءَ مصر مع نابوليون

وكان وكيله في رئاسة الجيش ثم قتل في الازبكيَّة على ما هو مشهور والرجل من ابناء ستراسبورغ ولد فيها سنة ١٧٥٣ وقتل سنة ١٨٠٠ كما ترى ذلك على احد جوانب التمثال المقام له في هذا الميدان وهو من النحاس الاصفر . وكتبوا على الوجه الثاني واقعة المطريَّة سنة ١٨٠٠ وهي كان النصر فيها لهذا القائد على جيش الاتراك والمماليك وعلى الوجه الثالث عبارة قالها كلبر لجنوده عند افتتاح الحرب معناها "ايها الجنود ان الجواب الوحيد على هذه الاهانة هو الانتصار فدونكم والقتال" وعلى الوجه الرابع عبارة معناها "هنا بقايا ابن وطننا" ومع ان المدينة صارت المانيَّة وكلبر كان من قواد الجند الفرنسي فلم يتغير من هذا الاثر شيء دليل اكرام الاهالي والحكومة لذكر الابطال . وفي المدينة ميدان آخر سمي باسم الدوك برولي الوزير الفرنسي الشهير فيه احسن المباني والقصور وفي آخره الملهى الكبير ويمكن الوصول منه الى قصر الامبراطور بناه الاهالي بعد الفتح الالماني على نفقتهم وقدموه هدية لقيصر المانيا زرته ورأيت فيه وفي حديقته من البدائع ما يستحق الذكر لا سيما الغرفة التي يستقبل الامبراطور فيها وفود الناس مدة وجوده في ستراسبورغ والقسم المخصص للامبراطورة . ويقرب من هذا القصر مدرسة جامعة لها شهرة في اوروبا حتى انها تعد من مباني العلم الاولى في اوروبا كلها وقد انفقوا على بنائها ١٢ مليون مارك وكتبوا على صدرها من الخارج "خدمةً للعلم والوطن"

ولا بدَّ ان يكون القراء قد سمعوا بكنيسة ستراسبورغ وهي من اشهر كنائس الارض واغربها عرفت بساعة فلكيَّة فيها تدق اشكالاً وتعرف منها اسماء الايام والاشهر وتاريخ الشهر والسنة وحالة المطر والهواء ومواقع بعض النجوم ومن ادوات هذه الساعة تماثيل اثني عشر رسولاً تنحني امام المسيح حين تدق الساعة الثانية عشرة وديك يصيح بعد ذلك ثلاثاً وغير هذا مما يحتاج الى شرح طويل . واهل ستراسبورغ

عرفوا بالجد والنشاط واكثرهم المان ولكن بعضهم فرنسيون فيكثر الخصام بين الفريقين ولا يخشى الحزب الفرنسي من اظهار الميل لفرانسا مع قوة الحكومة وبطشها وكلهم يتكلمون اللغتين ولهم شهرة بالخطابة ودرس الفنون السياسيَّة تحكي شهرة كنيستهم والتكنات العسكريَّة الكثيرة في مدينتهم

ولما انتهيت من مدينة ستراسبورغ برحتها الى جهة الشمال فمررت بما لا يعد من المدائن العامرة وكلها بادية عليها ادلة التقدم والنماء ترى معاملها وخطوطها الحديديَّة في كل جانب ولو احصيت خطوط الحديد في الممالك بالنسبة الى اتساعها لكانت المانيا في مقدمتها هذا غير ان الاهالي بلغوا درجة قصوى من التهذيب وانتشرت مصنوعاتهم في كل قطر فقد مررت في هذا الطريق على مدينة (مانهيم) وهي تعرف في اصطلاح القوم بلقربول الرين لكثرة معاملها ومصنوعاتها التي ترسل الى هذا القطر وسائر الاقطار وظللنا نخترق العمائر حتى وصلنا

مايانس او ميتز بلغة الالمان وهي من امهات المدائن الالمانيَّة لها شهرة ذائعة في حسن موقعها على نهر الرين وجودة الهواء والمناظر ووفرة الحصون والاستحكامات التي قامت الى كل جانب منها واكثرها في جبال تحيط بهذه المدينة الى جانبي النهر ولذلك كانت هذه المدينة من المواقع العسكرية المشهورة وفيها حامية كبيرة لا يقل عددها عن اثني عشر الفاً وهم منتشرون في المدينة وضواحيها تراهم كيفما سرت وعلامات الانتظام والتعليم العسكري المشدد ظاهرة عليهم. وقد وصفنا حالة الجندية الالمانية وصعوبتها واستبداد ضباطها بالعساكر وغير هذا عند الكلام عن برلين. وفي هذه المدينة الجميلة حديقة غناء قائمة على ضفة النهر تشغل مكاناً فسيحاً فيها وكلها آيات ومحاسن توجهنا اليها وسرنا منها الى كنيسة فيها مدافن الاساقفة القدماء الذين نشأوا في ميتز ونواحيها. وقداذهلني ان امرأة هي قندلفتة

الكنيسة او حارستها جاءت لنا بالمفاتيح ودارت معنا ترينا جوانبها والعادة في كل الانحاء تقريباً ان تكون هذه الخدمة للرجال لا للنساء



جوتنبرغ مخترع الطباعة

ورأيت في مايانس ميدان جوتنبرغ المشهور مخترع الطباعة وهو ولد في هذه المدينة فاقاموا لهُ هذا التذكار تمثالاً في وسط الميدان وكان الرجل من بسطاء الاهالي ولد في مايانس ونزح الى ستراسبورغ للارتزاق فحدث انهُ كان جالساً تحت ظل شجرة عند ستراسبورغ يوماً واسند ظهرهُ الى جذعها زماناً فلما نهض انتزع رداءهُ

ليحمله ُ على يده ِ فرأى في الرداء علامات طبعت عليه ِ وهي تشبه ُ الكتابة وكانت تلك العلامات اثر قشور الشجر طبعت على الرداء من استناده ِ الى الجذع ففكر صاحبنا مدة ً في هذا الاتفاق المليح وفطن منه ُ الى انه ُ يمكن ان تصنع حروف نائتة اذا ضغط عليها ظهرت علاماتها على الورق او القماش فذهب الى بيته ِ وصنع بعض الحروف من الخشب ثم جعل يصبغها ويضع فوقها قماشًا او ورقًا يضغط عليه ِ فترتسم هيئة الحروف على الورق وانتشر اختراعه ُ فكان ذلك بدء الطباعة وصيرورة العلم الى حاله ِ الحالية وعمت المعارف بواسطة هذا الاختراع الجليل الى درجة لم تخطر على بال المخترع وكان اول كتاب طبع بهذه الحروف الانجيل والتوراة باللغة اللاتينيَّة . واما الاختراع فتمَّ في ستراسبورغ سنة ١٤٤٠ ولما كان المخترع من اهل مايانس فقد اقيمت له ُ التماثيل فى المدينتين

ورأينا في هذه المدينة ايضًا تمثال الشاعر شلر في ميدان سمي باسمه ِ. وصعدت حديقة في راس جبل حصين يشرف على النهر والمدينة فتأملت الحصون المنيعة ورأيت هنالك طريقًا عسكريًا قال لي الدليل الذي كان يرشدني الى هذه المواضع انه ُ يوصل الى باريس توًّا وكان نابوليون الاول قد انشأه ُ ليمهد الطرق لجيشه ِ ويخضع المانيا عن هذا الطريق فكانت النتيجة ان الجنود الالمانية جعلته ُ طريقها الى باريس واخضعتها في الحرب الاخيرة . وانتقلت من مدينة مايانس هذه قاصدًا

وسبادن وهي على مقربة ٍ منها تعد من اشهر مدائن المانيا بجمال مناظرها وجودة هوائها وحماماتها المعدنيَّة يقصدها الوف في كل عام للاستشفاء والاستحمام غير الذين يأتونها لتسريح الطرف بمناظرها البديعة والتمتع بهوائها المنعش . وقد مشيت في شارع كبير من شوارع هذه البلدة يعرف بشارع ولهلم وفيه ِ صفوف من اشجار الكستناء الباسقة الى الجانبين ومنازل فخيمة وفنادق عظيمة في كل جانب

منهُ وفي آخرهِ حديقة عمومية عظيمة الترتيب بهيجة الاشكال نصبوا فيها تمثال ولهلم الاول بملابسهِ الجندية وهو في ايام الكبر والتمثال كلهُ من الرخام الابيض الثمين . وعلى مقربةٍ من هذه الحديقة اروقة طويلة قامت على عمد وقناطر عديدة ومن تحتها المخازن والدكاكين فيها كل انواع الابضعة الالمانيَّة والاجنبيَّة وفي طرف هذه الاروقة ملهىً او كازينو من الطبقة الاولى في الانقان والجمال دخلنا قاعة فسيحة فيهِ للرقص صنعوا قسماً علويًّا منها داخل حواجز من النحاس الاصفر لجماعة العازفين والمغنين وعلق في سقفها ١٢ ثريا من النحاس الاصفر الذهبي غير المصابيح الاخرى تنار كلها بالنور الكهربائي ولضوئها جمال غريب . هذا غير ما في الكازينو من الغرف والمحاسن الاخرى التي لا تختلف عما ذكرنا او ما سنذكر في المدن الاخرى المشهورة بحماماتها . ومنتزهات وسبادن هذه متصلة بعضها ببعض لكثرتها فما تنتهي من منتزه حَتَّى تصل منتزهاً يضارعهُ في النظام والجمال وكثرة الواردين اليهِ . وفي جبل فوق وسبادن كنيسة روسية بنيت تذكاراً لاميرة ناسو وهي الغراندوقة اليصابات الروسيَّة ابنة القيصر نقولا الاول اقترن بها امير ناسو الالماني وتوفيت سنة ١٨٤٥ فبنيت هذه الكنيسة تخليدًا لذكرها وهي يصعد اليها في طرق ومسالك متعرجة بين مشاهد الجبل البديعة وغياضهِ القديمة تضوع منها الروائح العطرة وتقيم بعض خدمة الكنيسة الروسيَّة كل يوم قداساً عن نفس الاميرة المذكورة . وقد صنعوا قبر هذه الاميرة في تلك الكنيسة على شكل بديع ثمين من الرخام الابيض الناصع ووضعوا فوق الضريح تمثال الاميرة مستلقية على ظهرها وعينيها ناظرة الى السماء والبسوها ثوباً ابيض نقيًّا ووضعوا على رأسها اكليلاً من الزهر وكل ذلك من المرمر الناصع الثمين يجعل لهذا الاثر منظرًا يؤثر في النفس ويعيد الى الصدر ذكر الورع والعفاف . وقد بنيت في ذلك الجبل عدة فنادق ومطاعم وحدائق منظمة

بديعة الترتيب قضينا بينها بعض النهار ثم سافرنا منها الى

فرانكفورت وهي من اشهر المدن الالمانيَّة واعظمها عدد سكانها نحو مائتي الف نفس ولها شهرة ذائعة بمدارسها العالية ومتاحفها العظيمة ومصارفها الكبرى ويعدُّ اهلها في الطبقة الاولى من التهذيب لانهُ لا يوجد بينهم امي واحد ولا متسوّل وهذا كثير مثلهُ في مدن المانيا العامرة . وفرانكفورت مشهورة في التاريخ بالحروب والمعاهدات التي امضيت بها واعظمها ما كان مختصاً باتحاد الدول الالمانية ولهذا فان ولهلم الاول جاءها قبل غيرها من المدن الالمانية بعد انتصارهِ على فرانسا سنة ١٨٧١ وهنالك أُمضيت المعاهدة النهائية بين المانيا وفرانسا . ومن اشهر ما يذكر عن هذه المدينة بنك روتشلد الكبير لهُ معاملات مع كل المحلات المالية في الارض وقد كان آل روتشلد العظام من اهل فرانكفورت ومنها بدأت عظمتهم بما اظهر جدهم انسلم روتشلد من الامانة لامير فرانكفورت حين هاجمها نابوليون وكان انسلم روتشلد هذا مقربًا للامير وقد جمع مالاً بالدأب والاجتهاد فلما خاف الامير من هجوم نابوليون استدعاهُ اليهِ واودع اموالهُ كلها عندهُ ثم فرَّ من المدينة فاخذ روتشلد اموال الامير ووضعها مع مالهِ الخاص في سقف بيت والبيت باقٍ في فرانكفورت الى اليوم اثر جليل شاهدتهُ مدة وجودي فيها . ومن اغرب ما يروى عنهُ ان نابوليون لما دخل المدينة وفتحها بات ليلة في هذا البيت لانهُ كان من احسن بيوت المدينة وكانت تلك الاموال مخزونة في السقف فوق رأْسهِ فما درى بها ولما انتهت الحرب وخرج الفرنسيس من البلاد عاد الناس الى مساكنهم وعاد روتشلد الى هذا البيت فوجد الاموال وارجعها للامير كما كانت فسرَّ الامير بامانتهِ وساعدهُ على الارتقاء وظلَّ يجمع الاموال حتَّى صار من اكبر المثرين في زمانهِ وورثهُ خمسة اولاد تفرقوا في عواصم اوروبا وكان اشهرهم ابنهُ الثالث ناثان روتشلد توطن في

اول امرهِ مدينة مانشستر ثم جاء لندن وكان مقاولاً للجيش الانكليزي مدة حروبهِ
الاخيرة مع نابوليون الاول حتى انهُ ذهب بنفسهِ في اوخرا الحرب الى بروكسل
ليرى ما يلزم لهذا الجيش فحضر موقعة واترلو المشهورة وعلم ان النصر تمَّ فيها للانكليز
ومن ثم اسرع في الرجوع الى لندن في سفينة لهُ خاصة فبلغها وهو عالم بخبر النصر
قبل ان تصل الاخبار الى البلاد بيوم كامل قضاهُ كلهُ في مشترى الاوراق المالية
وهي يومئذٍ في سقوط زائد بسبب خوف الناس من الحرب وجمع منها مقداراً هائلاً
فلما انتشر خبر النصر وفرار نابوليون ارتفعت قيمة الاوراق ارتفاعاً عظيماً وربح منها
روتشلد في يوم واحد عدة ملايين ومن ذلك العهد صار بيت روتشلد اكبر البيوت
المالية في اوروبا ولم يزل على ذلك الى هذا الحين

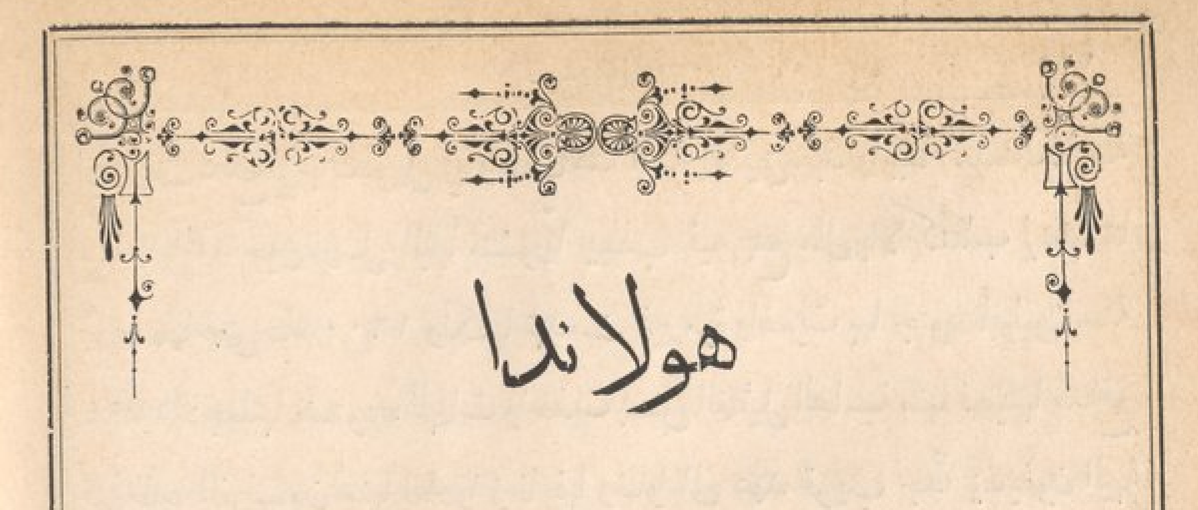
و بعد ان شاهدت هذا في فرانكفورت عدت الى مايانس لاتمم السياحة منها
في نهر الرين وهو الامر الذي جئت هذه البلاد لاجلهِ . والسياحة في الرين
كما قلنا اعظم السياحات في الانهر كلها لان المناظر لا يفوقها في الجمال غير مناظر
سويسرا وعرض هذا النهر لا يقل عن ٦٠٠ متر في بعض الجهات وانت اينما سرت
ترى القلاع القديمة والحديثة على رؤُوس الجبال وقصور الاغنياء تطلُّ على النهر
من تلك الاعالي والى جانب الماء من هنا ومن هنا مروج خضراء وحقول اريضة
يتنقل فيها اناس يظهر عليهم النعمة والرواء وارتال تمرّ على خطوط الحديد مرة تقرب
من النهر ومرة تفذّ في داخل البلاد حتَّى ان المسافر في النهر ليرى القطرات البخاريَّة
في بعض الاحيان خارجة من وسط الجبل على غير انتظار او سائرة على ضفة الرين
فيشهد من ذلك حركة لا تنقطع في النهر والبر تشهد بعظمة هذه البلاد وتقدمها
العجيب . والبواخر التي تسير في نهر الرين كثيرة الجمال والاتقان نزلت في واحدة
منها اسمها ولهلم الاول لها طبقة علويَّة ممتدة على طول الباخرة وقاعة الطعام فيها

فسيحة يدهش نظامها الابصار مدت فيها ١٢ مائدة عليها الآنية الفضيَّة تسطع وتلع ومن حولها الخادمون بانظف الملابس وكان الراكبون في هذه الباخرة من الالمان والانكليز والاميركان وسواهم يتأملون محاسن الرين مثلي ويعجبون وقد اشتروا رسماً لهذا النهر مطبوعاً رسمت فيهِ المدن التي تقف فيها السفن وهي كثيرة لا يمكن لي وصفها اذكر منها (بون) وهي مدينة زاهرة عامرة اشتهرت بمدرستها الجامعة التي تلقى الامبراطور الحالي دروسهُ فيها . ومنها (كوبلنتز) وهي نقطة عسكريَّة مشهورة فيها الوف من رجال الجند الالماني واذكر اننا بعد ان تجاوزنا كوبلنتز رأينا في احدى الروابي قصراً فوقهُ راية اميركيَّة حيّت السفينة واطلق من القصر مدفع صغير فضجَّ الاميركيون السائحون معنا استحساناً وهكذا ظللنا مدة ١٢ ساعة في نهر الرين نمر على ابهى انواع الحقول والمدن والكروم تمتد من شاطىء النهر الى اعلى الجبال وهي التي يستخرج منها نبيذ الرين المشهور . ولا حاجة الى القول ان مشاهد وادي الرين تفضل على اكثر المشاهد المشهورة في الارض والسفر فيهِ من الذ اشكال السياحة بقيت اتمتع بمحاسنها كل تلك المدة حتى وصلت مدينة

كولون المشهورة بماء كولونيا العطر يصنع في معاملها قناطير مقنطرة ويرسل منها الى جميع الاقطار . ولهذه المدينة شهرة بموقعها البديع على نهر الرين وجسرها الحديدي الطويل فوق ذلك النهر العظيم وهو لا يقل عرضهُ عن خمسمائة متر ما بين هذه المدينة ومايانس وبكنيستها الكاتدرائية المشهورة وهي ذات برجين عاليين ارتفاع اكبرهما ٦٥٠ قدماً فهو بعد برج ايفل وهرم الجيزة اعلى ما في الارض من بناء فخيم . واما نقوش هذه الكنيسة الدقيقة في خارجها وداخلها والرسوم البديعة المنزلة على الزجاج في شبابيكها والعمد المستدقة والحفر الغريب في كل جوانبها فمما يحير الافكار ولا عجب فان كنيسة كولون من اشهر كنائس الارض طرًّا ويا ليت

ان الوقت يسمح لي بالتطويل في وصف هذا البناء الانيق. بدأُوا بيناء هذه الكنيسة سنة ١٣٢٧ حين ارسل البابا منشوراً يطلب فيهِ جمع مال بالاكتتاب لبنائها فما تم صنعها حتى عام ١٦٠٠ ولكنها تهدمت غير مرة واضرت بها جنود نابوليون سنة ١٧٩٤ اذ جعلتها مستودعاً للمهات واخذت بعض التماثيل النحاسيَّة منها فصبتها مدافع فلما طرد الفرنسيون منها اعادوا زخارفها وظلوا الى عهد قريب جدًّا يضيفون اليها اغرب غرائب الصناعة الحديثة حتى صارت من اعظم مشاهد الارض الحالية وهي قائمة على ٥٦ عموداً كبيراً في طولها و١٨ عموداً في العرض وتحت القبة الكبرى عمودان ضخمان بلغ محيط كل منهما ٣٦ خطوة وفي ذلك من الفخامة ما لا يخفى حتى ان الذي يقف امام الكنيسة ويرى تلك العمد البديعة والقباب البهيَّة والنقوش الفاتنة وكلها على الرخام الابيض الثمين لا يزيد عجبهُ عن الذي يدخل جوانبها الكبرى ويقف امام تلك الصور الدينية المنزلة في الزجاج فيخيل لهُ انهُ يرى حقيقة لا رسماً

وجملة القول ان كولون من اهم مدائن المانيا مناظر وصناعة وتجارة اقمت فيها اربعة ايام ثم برحتها قاصداً بلاد هولاندا



هولاندا

خلاصة تاريخية

كانت هولاندا في اول عهدها بالعمران تعد مع البلجيك بلاداً واحدة اسمها في اوروبا (ندرلاند) او البلاد الواطئة واطلق عليها العرب اسم الفلمنك نسبة الى ولاية فيها يتكلم اهلها اللسان الفلمنكي او الفلاماندي القديم وهو يقرب من اللسان الالماني . وكان يملك هذه البلاد امراء برغندي الى ان مات آخر امراء هذه العائلة وانتقل الملك الى آل هابسبرج الذين يحكمون بلاد النمسا اليوم باقتران الامير مكسمليان في سنة ١٤٧٧ بابنة الامير الاخير من امراء برغندي . ومكسمليان هذا صار بعد وفاة ابيهِ امبراطور النمسا وانتقل منهُ الملك الى كارلوس الاول الذي كان ملك اسبانيا وامبراطور النمسا في آنٍ واحد فظلت البلاد تابعة لملوك اسبانيا حين وفاة ملكها كارلوس الثاني سنة ١٧٠٠ حتى صارت الدول الكبرى تتسابق على امتلاك الفلمنك وتحاربت فرانسا والنمسا عليها زماناً طويلاً فانتهت الحرب بصلح عقد سنة ١٧١٤ في راستاد بين كارلوس السادس امبراطور النمسا ولويس الرابع عشر ملك فرنسا وكان من مقتضى هذا الصلح ان اكثر البلاد المعروفة باسم البلجيك اليوم اعيدت الى مملكة النمسا وظلت في قبضتها حتى ايام الثورة الفرنسوية حين الحقت باملاك فرانسا

وكان من امر هولاندا انها لقيت من ملوك اسبانيا ظلماً كبيراً واضطهاداً دينياً لم يسبق لهُ نظير واشتدت وطأة الظلم عليها في ايام فيليب الثاني وكان هذا الملك شديد التعصب ساءهُ ان اهل هولاندا اتبعوا المذهب البروتستانتي فامر باعدام كل من لا ينكر هذا المذهب وارسل الدوك الفا من قبلهِ لتنفيذ هذا الحكم الجائر وكان في جملة المحكوم عليهم الامير الحاكم

على هولاندا من قبل فيليب الثاني وهو من آل اروانج العائلة الحاكمة حالاً على هذه البلاد فجهر الامير بالعصيان وجند من اهل بلاده جيشاً قوياً حارب الاسبانيين وانتصر عليهم بعد معارك جسيمة واستقلت هولاندا من ذلك اليوم فصار الامير ده اورانج حاكماً عليها وتوارث آلهُ الامارة من بعدهِ وكان ذلك في سنة ١٧٥٠ . وتقدمت بلاد هولاندا في حكم هؤلاء الامراء تقدماً عظيماً واتسعت متاجرها وملكت المستعمرات الكبرى في الهندين الشرقية والغربية وظلَّت على ذلك حتى ايام الثورة الفرنساوية فان الفرنسويين انتصروا عليها وضموها الى جمهوريتهم ثم جعلها بونابارت مملكة لاخيهِ لويس نابوليون . وانتهزت انكلترا فرصة اشتغال هولاندا حينئذٍ بهذه المتاعب فسطت عليها وغنمت بعض مستعمراتها واهمها راس الرجا الصالح في افريقيا وجيانا في اميركا الجنوبية . ولما بدأت قوة فرنسا بالسقوط في اواخر ايام نابوليون الاول قام الهولانديون عليها وتمكنوا من الاستقلال مرة اخرى في سنة ١٨١٤ واتحدوا مع بلاد البلجيك فساعدتهم اوروبا على ذلك وأُنشئت مملكة جديدة للبلاد الواطئة دعي وريث آل اورانج للحكم عليها . ولكن الاختلاف بين البلادين في الذوق والطبع كان كبيرًا فلم تمر اعوام كثيرة على هذا الاتحاد وقام البلجيكيون يطلبون الاستقلال في سنة ١٨٣٠ فنالوهُ وساعدتهم اوروبا على نيلهِ وانتخب امير من آل ساكس كوبرج (امارة في المانيا) للحكم على البلجيك وظلت هولاندا تحت حكم ملوكها من آل اورانج وهي على هذا الحال الى اليوم . وقد كان من امرها ان عائلتها المالكة كادت تنقرض في اواسط هذا القرن ولم يبقَ منها غير امير واحد ورث آل اورانج وآل ناسو وهم حكام امارة لكسمبرج فورث الرجل البلادين وحكمهما زماناً باسم ولهلم الثالث وكان لهُ ولدان توفيا في حياتهِ وتوفيت بعدهما امرأتهُ فاضطرَّ الرجل ان يقترن وهو في الثالثة والستين من عمرهِ مرة اخرى ليأْتيهِ من يرث المملكة والامارة ولم يرزق غير فتاة هي ملكة البلاد الحالية ولهلمينا ولدت في ٣١ اغسطس سنة ١٨٨٠ وتوفي والدها سنة ١٨٩٠ فقامت امها بالوصاية عليها الى ان بلغت الثامنة عشرة من عمرها وتوجت ملكةً لهولاندا في شهر مايو من سنة ١٨٩٩ وكان الاحتفال بتتويجها عظيماً بديعاً كثر فيهِ فرح اهل البلاد وهم يحبون هذه الملكة الصغيرة حبًّا مفرطًا لما ظهر لهم من حسن خصالها وتوقد ذهنها . وقد ربيت جلالة الملكة ولهلمينا على يد امهر الاساتذة والمربيات وهي الآن تكتب بعدة لغات اوروبية غير لغتها ولها المام باللغات الشرقية التي يتكلم بها سكان الاملاك الهولاندية في الشرق . وقد ضاعت امارة لكسمبرج من هولاندا في حكم ملكتها الحالية لانها بحسب نظامها القديم لا يحكمها النساء ولكن الناس يتوقعون الخير الكثير والتقدم لهولاندا مدة حكم الملكة ولهلمينا

وهولاندا بلاد صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن اربعة ملايين ونصف من النفوس ولكنها في الطبقة الاولى من طبقات التمدن ولها مستعمرات عظيمة اكثرها في جزائر المحيط الهندي لا يقل عدد سكانها عن اربعين مليوناً فهي من اكبر دول الاستعمار الحالية ولها تجارة واسعة وعمارة قوية ولاهلها شهرة في الجد والاقدام والامانة العظيمة وهذا السر في نجاحهم مع قلة العدد



ولهلمينا ملكة هولاندا

امستردام

جئت بلاد هولاندا هذه عن طريق كولون التي تقدم ذكرها في الفصل السابق وكان اول بلدٍ منها دخلتهُ مدينة سفناخ الواقعة على حدود البلاد من الجنوب وقفنا فيها ريثما انتقلنا الى القطار الهولاندي وفتش العمال حاجاتنا ثم تابعنا المسير حتى اتينا مدينة امستردام وكان فيها يومئذٍ حركة كبرى بسبب معرضٍ عام اقامتهُ حكومتها فتوافد الناس عليها لمشاهدة ما في ذلك المعرض . ومدينة امستردام جميلة الموقع بهيَّة المناظر بنيت على جزر صغيرة لا تقل عن تسعين عدًّا وهي متصلة بعضها ببعض بقناطر جميلة الشكل عددها ثلثماية وفيها من الترع ما لا يعد بسبب ذلك واهمها اربعة تحيط بالمدينة من كل جهاتها طول الواحدة منها من ٤ كيلو مترات الى ١٠ وعرضها نحو ٤٥ مترًا والقناطر فوقها متوالية بعضها وراء بعض على نسق يروق للناظرين

واهم الترع في امستردام واحدة فتحت عام ١٨٦٢ توصل المدينة بالبحر طولها ٢٥ كيلو مترًا وعرضها يختلف ما بين ٦٠ كيلو مترًا وماية فهي من الترع العظيمة تمخر فيها الباخرات الكبرى ذاهبة الى المستعمرات الهولانديَّة وراجعة منها وقد انفقوا على حفر هذه الترعة نحو ٧٠ مليون فرنك وهم ينفقون على ادارتها ووقايتها وتطهيرها نحو ٢٠٠٠ فرنك كل يوم . وشوارع هذه المدينة كلها واسعة غرست الى جوانبها الاشجار وقد ادَّى اتساع الشوارع الى امتداد المدينة في مساحتها مسافة ١٢ ميلاً وفيها **الآن** من السكان نحو ٤٤٠ الف نفس ويشطرها نهر امستل شطرين وهو نهر كبير تدخلهُ الباخرات الكبرى التي ترود البحار القاصية وسنعود الى الكلام عن تجارتها العظيمة وميناءها المشهور

وقد مرَّ ان المدينة كانت في حركة كبرى يوم زرناها بسبب المعرض ولهذا قصدناهُ قبل غيرهِ من المشاهد المذكورة وكان في حديقة كبرى واسعة الارجاء شيدت فيها الابنية العظيمة حسب عادتهم في المعارض فدخلت القسم العام منهُ والاقسام الخاصة بالممالك الغربية والشرقية وفيهِ من حاصلاتها ومصنوعاتها واختراعاتها ما نضرب صفحاً عن وصفهِ لانهُ لا يخرج عن وصف ما في المعارض الاخرى وقد ذكرنا بعضها في هذه الرحلة . والظاهر ان الشرقيين تحولت انظارهم الى هذا المعرض اكثر من سواهم فانهُ كان في سوقهِ العمومية عدة مخازن وحانات ودكاكين لاناس من مصر والاستانة وحلب والقدس ودمشق والاسكندرية وافراد كثيرين من كل هذه الجهات . واقيم الى جانب هذه المخازن منزل عظيم للصور المجسمة والمناظر المشهورة وعلى بابهِ اثنان من السودانيين بالملابس المعروفة في هذه البلاد وفي يد احدهما بوق ينفخ فيهِ دعوة للسامعين . وقد رأينا في ذلك المنزل صوراً كثيرة منها صورة الرحالة ستانلي في قلب افريقيا يخابر امين باشا في امر ارجاعهِ الى مصر وامامها القرية الافريقية باكواخها وسكانها السود ونسائها يحملنَ الاطفال على ظهورهنَّ ومناظر طبيعية اخرى والناس في شؤُون شتى منها ما استلفت الانظار وهو عقد الاخاء على طريقة اهل افريقيا الوسطى وذلك ان يفصد كلٌّ من المتعاقدين نفسهُ ويمصُّ الرجل من دم الآخر شيئاً فيُعد ذلك دليلاً على الرضاء والوفاء وقد كان ستانلي وغيرهُ من الاوربيين يلجأُون الى هذه الطريقة في معاملاتهم مع زعماء الافريقيين مدة السياحات الاولى ليأمنوا شرهم وينالوا مساعدتهم

ولو شئت ان اعدد غرائب هذا المعرض وملاهيهِ لزم لذلك الشيء الكثير فاقتصر على القليل مما رأيتهُ فيهِ مثل باخرة كبرى بحجم البواخر التي تمخر في البحار

وضعت في بحيرة داخل حديقة المعرض وهي كاملة العدد ليس ينقصها غير الآلة البخاريَّة وقد جعلها اصحابها حانة ومطعماً لزائري المعرض مدة وجودهِ فكان الناس يدخلونها ويأكلون فيها ويشربون ويخدمهم رجال بملابس النوتية ويجاس معهم على المائدة ربان يمثل حالة السفن في البواخر العظيمة . وربح اصحاب هذه الباخرة من استخدامها لهذا الغرض مالاً وافرًا . وفي جملة ذلك منزل بني على شكل الفيل بخرطومهِ وجسمهِ واقيمت فيهِ قهوة وحانة فكان الناس يصعدون هذا الفيل واصحابه يجمعون منهم المال . ومن هذا موضع من الخشب بني على الشكل الفلمنكي القديم وفيهِ مطاعم وحانات استخدموا لها البنات بالزي الهولاندي القديم وهو جلباب قصير الى عند الركبتين وسترة اكمامها قصيرة ايضاً وجوارب بيضاء صنعت باليد وحذاء مكشوف والشعر ملفوف في طاسة نحاسية تعلق في الرأس يقدمنَ اشكال الطعام والشراب على نغم الموسيقى الوطنية وغير هذا كثير

هذا بعض الذي يقال عن معرض امستردام واما مشاهدها الاخرى فكثيرة منها المتحف الهولاندي على مقربة من حديقة المعرض وهو يشغل ١١ الف متر من الارض ولهُ واجهة فخيمة طليت زخارفها بماء الذهب وفي داخلهِ تحف وصور جميلة لا تعد من اثمنها واوفرها اتقاناً صورة زنوبيا ملكة تدمر بملابسها السوريَّة القديمة . وصور من الكتاب المقدس . وصورة لويس نابوليون ملك هولاندا الذي ذكرناهُ في الخلاصة التاريخية . وصورة نابوليون بونابارت في معركة واترلو التي قضت على عزهِ وهو مطرق في الارض مغضب مما لحق بهِ . وفي الدور الاسفل من هذا المعرض رسوم السفن والبواخر الحربيَّة الهولانديَّة وقد كتب على كل رسم اسم السفينة وتاريخها والوقائع التي حضرتها . وهنالك اعلام ومدافع قديمة غنموها في الحروب ورسوم السفن الانكليزيَّة التي غنمها الهولانديون من الانكليز سنة

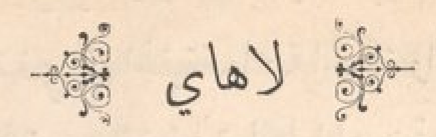
١٦٦٦ ورسوم معركة تشاتام من شواطىء انكلترا في سنة ١٦٦٧ وهي التي انتصروا فيها على الانكليز ايضاً وهم يذكرون ذلك مع الفخر وينظرون الى هذه الرسوم معجبين

ومن هذه المشاهد ميدان عظيم (بلين) فيهِ حدائق بديعة في جوانبهِ الاربعة وفي وسطها برك من الرخام الابيض كثيرة الاتساع يخرج الماء فيها من عيون كثيرة وتحيط بها الرياحين والازهار والشجر الباسق ولها منظر كثير الجمال. والى جانب هذا الميدان قصر الصناعة وهو كان مركز المعرض السابق في هذه المدينة دخلناهُ ورأينا قاعتهُ الكبرى التي تضم ستة آلاف شخص يجتمعون فيها لسماع الانغام . ولهُ رواق كبير ذات ثمانية ابواب فتحت فيهِ المخازن لبيع الحرير واشكال الابضعة . والى جانبهِ حديقة غناء تصدح فيها الموسيقى كل يوم بالانغام فتزيدهُ زهاءً وجمالاً

وتوجهت بعد مشاهدة هذه المواقع الى القصر الملوكي وهو الذي اقام فيهِ لويس نابوليون مدة ملكهِ القصير في اول هذا القرن وتقيم فيهِ الملكة الحاليَّة حين تزور مدينة امستردام ولا حاجة الى القول انهُ بناءٌ فخيم من ضمن قاعاتهِ غرفة كبرى للاستقبال لا يقل ارتفاعها عن ٣٠ متراً وطولها ٨٠ متراً والعرض ٣٣ وجدرانها ملبسة بالرخام الابيض المطلي بالذهب وارضها مفروشة بالرياش الفاخر وفي صدرها منصعة وضع عليها عرش الملكة وهو من القطيفة الحمراء عليهِ شعار الملك واسماء الولايات التابعة لهذه المملكة . وفي القصر من انواع الزخارف والحدائق والقاعات البديعة ما لا يمكن لنا ان نشير اليهِ باكثر من هذا الايجاز

ومن اشهر مشاهد امستردام ميناؤُها المشهور وهو محط رحال السفن البخاريَّة والشراعية تؤُمهُ وتسافر منهُ الى كل جهة من جهات الارض لان هولاندا مشهورة بتجارتها الواسعة مع المستعمرات الباقية في حوزتها واكثر السفن التجاريَّة الهولانديَّة

تعد ميناء امستردام مقرها ومركزها لان هذه المدينة اكبر مدن البلاد واهمها ولئن تكن غيرها العاصمة الرسميَّة فهي في الحقيقة عاصمة الحركة والتجارة بلا مراء . وقد بنوا عند الميناء الطرق المنظمة ومدوا فوقها خطوط الحديد تجري عليها الارتال حتَّى انهُ ليمكن ان تنقل الاشياء من المراكب في البحر الى العربات في البر راساً وقد قسموا المينا احواضاً ثلثة احدها لسفن المتاجر الاوروبيَّة والثاني لسفن التجارة الشرقية في مستعمرات هولاندا والثالث للسفن الحربية . وبني عند هذه الاحواض مخازن ومستودعات عديدة للطرود التي تعد بمآت الالوف وقد تمشيت عندخط هذا المينا المشهور بحركتهِ التجاريَّة حتى دخلت قسماً من المدينة يكثر فيهِ الزحام من كثرة الذاهبين والآيبين وفي ذلك القسم المعامل المشهورة لقطع الالماس وتنظيفهِ وقد امتاز الهولانديون بهذه الصناعة من زمان قديم حتى ان القطع الكبرى والصغيرة من هذا الجوهر النفيس ترسل من كل جهات اوروبا واميركا الى هذه المعامل الهولانديَّة لتقطع فيها على الشكل البلوري المعروف . وقد كانت هذه الصناعة سرًّا في عائلة اسرائيلية وصلت من بلاد البورتوغال وما علمها اهل اوروبا الاَّ من نحو ٣٠٠ عام وهي الآن صناعة كثيرة الموارد ولها معامل كبيرة في هذه المدينة تدور آلاتها بالكهربائية وهي اذا دارت لقطع الالماس او تنظيفهِ احدثت صوتاً مثل صوت الحك على الزجاج يتألم السامع منهُ وفي هذه المدينة معامل كبرى للسجاير الهولانديَّة وهي ذات شهرة واسعة ايضاً منها معمل للحكومة تعمل فيهِ اربعة آلاف بنت وامرأة وارباحهُ ليست بالشيء القليل واهل امستردام اكثرهم من طائفة البروتستانت وبينهم نحو ٥٠ الفاً من اليهود جلهم سماسرة وتجار بالالماس وعمال في معاملهِ فقد قيل ان عمال معامل الالماس في هذه المدينة ١٠ آلاف منهم ٩ آلاف من الاسرائيليين . ولا تقل قيمة الذي يخرج من امستردام من هذا الحجر الكريم عن ماية مليون فرنك فى السنة



لاهاي

واقمت زمانًا في مدينة امستردام حتَّى رأيت كل الذي يرى فيها ثم برحتها الى عاصمة المملكة وهي مدينة لاهاي قصدتها عن طريق مدينتي هارلم وليدن ولهما شهرة ومقام فالاولى يبلغ عدد سكانها ٥٠ الفًا ولها شهرة واسعة في تربية الازهار وانمائها وبيع بذورها والثانية عرفت بمعامل القطن وبمدرسة جامعة مشهورة خرج منها الفلاسفة واصحاب الاكتشافات الكيماويَّة وقد طبعت فيها كتب عربيَّة كثيرة . وكنا نمرُّ في اراضٍ فسيحة تخترقها فروع من نهر الرين وتستقي منها الابقار الغريبة وهي تمتاز عن نوعها في بقية الجهات في ان نصف جلدها اسود والنصف ابيض ولتلك البقاع منظر جميل وادلة الاعتناء والتعب ظاهرة في جميع جوانبها

ودخلنا مدينة لاهاي عاصمة هذه البلاد وهي سميت بهذا الاسم لانها بنيت في موضع غابة وتحيط بها الحراج من اكثر الجوانب ومعنى اسمها في لغة القوم غابة او حرجة . وهنا قاعدة المملكة ومركز الحكومة الهولانديَّة وما يتبعها من الادارات والمصالح وقصور الملك والسفارات وغير ذلك وهي من العواصم القليلة التي تقل في الاهمية عن غيرها من مدائن المملكة فان سكانها لا يزيدون عن ١٦٠ الفًا والحركة التجارية فيها لا تذكر في جنب حركة روتردام وامستردام وهما فرضتا التجارة الهولاندية على مقربة منها وقد امتنعت الحكومة عن وصل هذه العاصمة بالبحر مع قربها منهُ لانها آثرت ان تبقي المدينة بمعزلٍ عن الحركة التجاريَّة وتبقيها مثل واشنطن عاصمة الولايات المتحدة مقرًّا للحركة السياسية فقط . ولما وصلت هذه

العاصمة استأجرت رجلاً صناعتهُ الترجمة ومرافقة السائحين فدلني الى اهم مشاهد المدينة وذهبت معهُ الى ميدان (بلين) فيهِ اشجار الكستناء الباسقة منسقة تنسيقاً بديعاً وقد اقيم في وسطهِ تمثال لوليم الاول امير هولاندا الذي اسس المملكة الحالية من آل اورانج ناسو ويحيط بهذا الميدان وزارات المملكة لكل منها بناءٌ خاص وفنادق عظيمة ومنازل ذات حسن وبهاء وهو على مقربة من ميدان آخر اجمل منهُ واكبر يعرف باسم فورهوت ومن حولهِ صفوف من الشجر الجميل وفي داخلهِ حدائق صغيرة رصعت باجمل الازهار والرياحين. ويتصل بهِ ميدان لانج فورهوت وهو مثل الذي سبق وصفهُ فيهِ تمثال الامير فريدريك ناسو اول ملوك الدولة الحاليَّة من بعد خروج البلاد عن طاعة الدولة الفرنساويَّة في سنة ١٨١٣ والتمثال قائم على مرتفع من الرخام رسمت عليهِ صور الولايات الهولانديَّة وشعار الدولة وحولهُ سور من الحديد . وهنالك ميادين اخرى كثيرة الجمال وهي متقاربة وضعاً وشكلاً ولهذه المدينة امتياز بهذه الميادين الفخيمة وبالحراج المحيطة بها وهي فوق جمال شجرها الطبيعي مرصعة بالزهر على اشكالهِ تتضوع منهُ الروائح العطريَّة وقلَّ ان ترى في المدينة شارعاً لا يطل على ميدان او غابة او حديقة فلا بدع اذا سميت باسم هذه الغابات التي تميزها عن سواها

ولاهاي مثل غيرها من مدائن هولاندا مبنيَّة منازلها بالطوب الاحمر وارض شوارعها مرصوصة بمثلهِ ايضاً وهي مثَل في نظافتها لان الشوارع وجدران المنازل تغسل بالماء النقي من حين الى حين وللاهالي تمسك غريب بالنظافة يروى عنهم . وقد برع الهولانديون بالفنون الجميلة مثل التصوير والحفر والنقش وقام منهم مشاهير عظام تذكر اسماؤُهم في متاحف الفنون الجميلة في كل بلاد مثل ڤانديك ورامبراند وصورها موجودة في كل متاحف اوروبا مثل صور رفائيل الايطالي

ومنها قسم عظيم في متحف هذه المدينة دخلتهُ ودرت في جوانبهِ وذهلت لاتقان ما فيهِ من الصور البديعة التي يقف المرء امامها ساعات ولا يملُّ من النظر اليها واذكر منها صورة آدم وحواء في الفردوس وصورة هيرودوس والي فلسطين يأمر بذبح الاطفال عند ولادة المسيح وهي صورة كبيرة تشغل جداراً باكملهِ . وصوراً اخرى لا محل هنا لذكرها

وبعد ان رأيت هذا المتحف اللطيف ذهبت ومعي الدليل الى قصر الملكة ودخلتهُ وحدي لان التراجمة لا يحق لهم مرافقة المتفرجين الى داخلهِ كما انهُ لا يجوز لاحد الخادمين ان يقبل مالاً من احد الداخلين ورأيت في ساحة القصر تمثال وليم الاول الذي مرَّ ذكرهُ نصب بامر ابنهِ وليم الثاني سنة ١٨٤٥ وفي القاعة العموميَّة من قاعات هذا القصر صور جميع الذين حكموا هولاندا من آل اورانج ناسو في جملتهم الملكة ولهلمينا الحالية والكل بقدهم الطبيعي. وفي هذا القصر قاعات عظيمة غير هذه وضع في احداها بعض ما ارسل الى ملوك هولاندا من نفيس التحف وثمين الهدايا من ذلك اوانٍ من الفخار الصيني البديع صنع معمل سيفر الفرنساوي المشهور ارسلها الامبراطور نابوليون الثالث الى وليم الثالث والد الملكة الحالية ومنضدة من حجر المالكيت الغالي الثمن من امبراطور روسيا اسكندر الثاني ومنضدة اخرى من قداسة البابا بيوس التاسع زينت بالفسيفساء ورسم قلعة من الرخام قدمها الجنود الهولانديون وفي رأسها العلم الوطني والى جوانبها الجنود من فرقة المدفعيَّة بمدافعهم والمشاة ببنادقهم والفرسان بخيلهم وكلهُ حفر على رخام هذه القلعة الصغيرة . ومن ذلك ثريا (نجفة) من الفضة اهدتها بلدية امستردام للملك وغير هذا كثير . ودخلت ايضاً قاعة المكتب وهي ملبسة جدرانها بخشب الماهوجان الاحمر فقاعة النوم وجدرانها ملبسة بالحرير الاحمر رسمت عليهِ عروق

وفروع وهو من النوع المسمى (دمشقي) ورياش الغرفة من هذا النوع ايضاً والسرير من خشب الماهوجان فوقهُ ناموسيَّة من الحرير الابيض وفي اعلاها التاج الملوكي من الذهب

ومن اهم ما يذكر بين مشاهد هذه المدينة قصر الغاب بنتهُ اميرة اسمها املي سنة ١٦٤٧ تذكاراً لزوجها الامير فريدريك هنري من آل اورانج وانفقت مالاً طائلاً على كتابة تاريخ هولاندا بالرسوم في جدرانهِ وهذا نسق كما تعلم قليل المثال فلما ولجتهُ وجدت جوانبهُ غاصة بالسائحين والمتفرجين وفيهِ قاعات كبرى فرشت على النسق الصيني والنسق الهندي وقاعة بديعة واسعة الجوانب رسم على جدرانها وسقفها البرنس فريدريك المذكور بكل ادوار حياتهِ وحروبهِ واستقلالهِ من حكم اسبانيا وقتلهِ غدراً باغراء فيليب الثاني ملك اسبانيا على مثل ما مرَّ في الخلاصة التاريخيَّة. ولهذا القصر منزلة في النفوس كبيرة حتَّى انهم لما قرَّ رأي الدول مؤخراً على اجتماع مؤتمر السلام في عاصمة هولاندا اعدَّ لمندوبي الدول يتداولون فيهِ وهو من اهم المؤتمرات السياسيَّة التي عقدت في العصور الحديثة

ومما يذكر ايضاً موضع مشهور في كل اوروبا وجد على مقربةٍ من هذه العاصمة واسمهُ شفننجن وهو للحمامات العظيمة يمكن ان يقال انهُ لمدينة لاهاي مثل سان ستفانو لمدينة الاسكندريَّة لانهُ محط الرحال ومقصد الجماعات في ايام الصيف يأتيهِ الناس من كل جهة فلا يقل عدد الزائرين عن خمسة وعشرين الفاً في السنة ويقرب الموجود منهم كل يوم من خمسة آلاف يأتون عن طريق لاهاي في عربات الترامواي البخاريَّة وهي تسير بهم في تلك الغابات نحو ثلث ساعات هذا غير الذين يأتونها رأساً من انكلترا في بواخر خاصة لهذا الغرض. والقارئ يعلم ان الحمامات البحريَّة في كل موضع موصوفة بالجمال ولكن شفننجن هذه من اكثرها شهرة وجمالاً بنيت في ارض رمليَّة وفيها من المطاعم والفنادق والحانات واماكن

ذوي الفراغ واللهو ما يعد بالعشرات ويمتد على شاطىء البحر مسافة ثلثة آلاف متر
ومن اشهر هذه الابنية حانة كبرى (كازينو) فيها قاعة للموسيقى تضم ثلثة آلاف
سامع وسامعة ومطعم فيهِ موضع لخمسماية شخص وقاعة للرقص رياشها فاخر كلهُ
من القطيفة الحمراء المزركشة بالقصب وعليها شعار الدولة الهولاندية وفي سقفها
وجوانبها مصابيح تنار بالكهربائيَّة . وفي هذا الكازينو ايضاً قاعة للقراءة والمطالعة
وضعوا فيها عشرات من الصحف والمجلات اكثرها هولاندية وبعضها فرنساوية
والمانية وانكليزيَّة وفيها مناضد للكتابة وورق وبقيَّة لوازم التحرير وصندوق للبريد
ومكتب للتلغراف والتلفون وغير هذا مما تتوفر معهُ الراحة ويكثر الهناء . وفيهِ
قاعات للتدخين وللمسامرة ولالعاب الورق على اشكالها ورحبات فسيحة مزخرفة
الجوانب . وفي الدور الاعلى من هذا الكازينو فندق فيهِ مائتا غرفة . والى مقربةٍ
منهُ مرسح لتمثيل الروايات ومضمار لسباق الخيل ومسافات بعيدة من الرمل النقي
يتمشى عليها الناس حفاة ويلعب الصغار برملها وهم يعدون ذلك من احسن انواع
الرياضة المفيدة للابدان

والحمامات هنالك واسعة كثيرة العدد منها ما يختلط فيهِ الرجال والنساء
ومنها ما حفظ للرجال وحدهم او للنساء وحدهنَّ وقد عُني اصحاب هذه المحلات
بما يلزم للسيدات من اسباب الراحة مع الحمام فصنعوا عربات خاصة تسير بالتي
تريد الاستحمام الى الماء ولما تنتهي منهُ تعود بالعربة الى حيث يمكن لها المسير وتلبس
ملابسها بالعربة وكل ذلك حتى لا تتحمل مشقة المشي على الرمل اذا ارادت .
وهنالك كراسي كبيرة من القش يجلس عليها المرء او السيدة بعد الاستحمام ويلذ
حينئذٍ شرب المنعشات او مطالعة الصحف والروايات . والى جانب الحمامات تلك
الرمال التي ذكرناها والناس يتفننون في المشي عليها او اللعب على طرق شتى وبعضهم

يركبون الحمير والخيل وبعضهم يجرون على الاقدام والبعض يتمرغون او يتكئون والبعض يقفون فترى على ذلك الشاطئ البهي نحو خمسة آلاف شخص على كل حالة من الحالات يلعبون ويطربون حتى اذا تمَّ لهم ذلك دخلوا الكازينو لسماع الانغام في قاعة الموسيقى او لتناول الطعام على تلك الموائد الشهيَّة . ويقومون بعد العشاء اما للرقص والمخاصرة في قاعة (البالو) او ينفرد الرجال منهم جماعات جماعات في غرف المقامرة واللعب فيقضون معظم الليل فيها وعلى هذا يقضي الناس اوقاتهم هنا حيث لا يعرف الهم ولا يخطر على البال كدر ولا غم

✻ روتردام ✻ ولما فرغنا من مشاهدة لاهاي وضواحيها البهيَّة سرنا الى مدينة روتردام وهي تعد اكبر مراكز التجارة في بلاد هولاندا لا تفوقها في ذلك امستردام وان تكن هذه اقل منها في عداد السكان وهم يبلغون ٢٢٢٠٠٠ وقد بنيت هذه المدينة على ضفاف نهر الموز المشهور ووصلتها بالبحر ترعة عظيمة تسير بها البواخر خمس ساعات من البحر الى داخل المدينة ولا يقل عدد البواخر التي تمر بها في السنة عن خمسة آلاف اكثرها تنقل المتاجر بين هولاندا واقاصي الشرق في الهند وما يليها والغرب في اميركا . ويتفرع من هذه الترعة ترع اخرى صغيرة تخترق المدينة في اكثر جوانبها وفي كل موضع سفن صغيرة تسير بالبخار ويتنقل عليها الناس للفرجة والنزهة ومشاهدة حركة تجارتها العظيمة وتلك الركام المتراكمة من الابضعة المراد نقلها الى شاسع الاقطار وكلها تنقل الى السفن او منها الى البر بالآلات البخاريَّة الرافعة تسهيلاً للعمل واقتصاداً لاجرة العمال الكثيرين . وفي هذه المدينة مخازن عظيمة ملأَى بقوالب الجبن الهولاندي المشهور يأْتيها من القرى في داخلية البلاد ويرسل منها الى جميع الاقطار وهو يعرف باسمها في كل مكان وشوارع هذه المدينة كلها او جلها واسعة صنعت على نسق واحد بديع المنظر

فانك ترى في احد الجانبين صفًّا من الابنية النظيفة وامامهُ رصيف واسع لمرور الناس عليهِ ومن بعدهُ مجال واسع للعربات ومن بعد ذلك صف من الشجر الجميل وبعدهُ الترعة . والترع كما علمت داخلة في اكثر انحاء المدينة. وفي الجهة الثانية من الترعة شجر فمجال للعربات الذاهبة والآيبة فرصيف للمارة فمنازل الناس ومخازنهم بحيث انك اذا اردت الوصول من طرف احد الشوارع الى الطرف الآخر لزم لك العبور فوق القنطرة وكل ذلك المجال في جانبي الشارع . والنزهة في ترع روتردام لا سيما الترعة الكبرى فيها من اجمل ما يمكن للسائح ان يمتع بهِ الطرف فهي تشبه ترعة السويس في اهميتها وجمال السفر فيها شبهاً كبيرًا . وفي المدينة مشاهد كثيرة منها حديقة بديعة حوت نباتًا وزهرًا عني اصحاب العلم بنقلهِ من اقصى انحاء الشرق والغرب ولاشكالهِ الكثيرة غرابة وجمال

ولما انتهينا من مشاهدة هذه المناظر عزمنا على مبارحة بلاد هولاندا والسفر الى بلاد البلجيك وهي كما علمت متاخمة لها فقمنا منها ومررنا على بلد روزنتال وعلى جسر عظيم بني فوق نهر الموز عند مصبهِ في البحر الشمالي ولذلك الجسر شهرة واسعة لانهُ يعد من اطول الجسور في الارض كلها ومن اكثرها جمالاً وغرابة يسير فوقهُ القطار نحو خمس دقائق وقد بني على ١٤ قنطرة يبلغ المجال بين الواحدة منها والثانيةماية متر وفيهِ من الحديد ما يزيد وزنهُ عن احدى عشر مليونًا وسبعماية وتسعين الف كيلو لا يقل ثمنهُ عن اثني عشر مليون فرنك وكان الركاب جميعهم مدة مرور القطار فوق هذا الجسر يتطالون ويتطلعون حتى لا يفوتهم منظر من اجمل المناظر . واستمر بنا الرتل يقطع المسافات حتى بلغنا بلدة اشن وهي عند الحدود الفاصلة بين هولاندا وبلجكا فنزلنا هنالك للتفتيش المعتاد عند الحدود وانتهينا بهذا من السياحة في هولاندا وهي بلاد الاجتهاد والنشاط الكثير



البلجيك

خلاصة تاريخية

تقدم معنا ان تاريخ هذه البلاد مرتبط بتاريخ هولاندا التي اتينا على وصف الاهم فيها. ولا بد من القول هنا ان بلاد البلجيك هذه كانت جزءًا من بلاد اعظم واكبر تعرف بهذا الاسم نسبة الى القبائل القديمة التي عمرت هذه البلاد واسمها (بلجا) امتدت اطرافها الى نهر الرين من جهة ونهر السين من جهة اخرى وكان اول ما روى المؤرخون عنها ان يوليوس قيصر القائد الروماني المشهور وصلها في حروبهِ مع القبائل الشمالية فاخضعها في سنة ٥٢ قبل التاريخ المسيحي وظلت من ملحقات السلطنة الرومانية نحو اربعماية عام حتى ضمها كلوفيس الى املاكهِ وكان كلوفيس هذا اول ملوك فرانسا من الدولة الميروفنجية . وظلت البلاد جزءًا من فرانسا الى ما بعد موت شارلمان المشهور وتجزئة مملكتهِ فانقسمت اجزاء وكان كل جزء منها قائمًا بنفسهِ ثم الحقت بعضها بفرانسا وبعضها بالمانيا ولكنها حافظت في كل تلك المدة على استقلالها في الشؤون الداخلية وتقدمت تقدمًا يذكر . وفي القرن الخامس عشر صارت هذه البلاد كلها ملكًا لملوك فرانسا بحكم الوراثة ثم انتقلت الى ملوك النمسا ثم صارت من املاك اسبانيا وعادت في القرن الثامن عشر فصارت من املاك النمسا حتى عام ١٧٩٥ حين ضمت الى فرانسا على عهد الجمهورية الاولى . ولكنها عادت واستقلت بمساعدة دول اوروبا في سنة ١٨١٣ وصارت مع هولاندا مملكة واحدة كما علمت في تاريخ هولاندا ففصلت عنها سنة ١٨٣٠ بطلب اهل البلجيك وعين البرنس ليوبولد من آل ساكس كوبرج ملكًا عليها ومن ذلك الحين اقرت اوروبا على استقلالها وعزلتها وجعلتها بمثابة الحاجز بين املاك المانيا وفرانسا فزهت

البلاد ونمت نماء عجيباً حتى صار فيها الآن نحو ستة ملايين نفس مع انها ارض صغيرة فهي اكثر بلاد اوروبا خلقاً وعمراناً بالنسبة الى ضيق ارضها وفي هذا دلالة كافية على نموها وتقدمها. وملكها الحالي ليوبولد الثاني تولى ادارة امورها على الطريقة الدستورية المعروفة وساعدته النقادير على انشاء سلطنة كبيرة لا يقل عدد سكانها عن عشرين مليوناً في بلاد الكونجو بافريقيا ففتحت الابواب لمتاجر البلجيكيين واتسع النطاق لصناعتهم وهم الآن يعدون من اهل الطبقة الاولى في الصناعة والتجارة ولهم شهرة واسعة في المصانع الحديدية وفي الهمة والاقدام على الامور العظيمة لايجهلها المصريون وهم يرون من آثارها شركة الترامواي في مصر واسكندرية وغيرها من الشركات التي تجمع الارباح الوافرة. والبلجيكيون من نوعين اكثرهما عدداً الفلمنكي والثاني النوع الولوني والكل يتكلمون الفرنسية وهي لغة البلاد الرسمية ولكن في معظم القرى الشمالية تعد الفلمنكية لغة اهل البلاد. واكثر الاهالي من الطائفة الكاثوليكية



ليوبولد الثاني ملك البلجيك

﴿ انفرس ﴾ ولما انتقلنا من هولاندا الى بلاد البلجيك وصلنا مدينة انفرس هذه واسمها عند الانكليز والاميركان انتورب وهي اعظم الفرض البلجيكيَّة ولها اهمية في التجارة عظيمة لان ميناها من اجمل المين تنقل منهُ واليهِ معظم متاجر البلجيكيين على اتساعها ويحيط البحر بها من الجهات الاربع كلها تقريباً بحيث ان الساكن فيها يرى البواخر تمخر في البحر عن يمينهِ ويسارهِ ومن امامهِ وورائهِ . وفي هذه المدينة نحو مايتين وخمسين الف نفس ولها علاقات كبرى بجميع البلدان حَتَّى ان الانكليز والفرنسيس والاميركان انشأُوا بواخر خاصة تروح وتغدو بين انفرس ومين بلادهم وقد بنيت احواض وارصفة في هذا الميناء عظيمة القدر والقيمة حتى تفي بمراد المتاجرين واصحاب الشركات والبواخر الكثيرة فما ترك اهل البلد وسيلة لهذا الغرض الاَّ واتوها من ايام نابوليون الى هذه الايام حتى انك اذا زرت هذا الميناء العظيم الآن ترى من السكك الحديديَّة والارتال والابضعة الموضوعة ركاماً وتلالاً والآلات الرافعة تدار بقوة البخار وتنقل هذه الابضعة من البواخر الى المخازن او بعكس ذلك وغير هذا مما يدل على عظمة المدينة واجتهاد اهلها واهميَّة التجارة البلجيكيَّة التي يعد هذا البلد مركزها ومفتاحها . ويمرُّ على خطوط هذا الميناء كل يوم اكثر من ٢٥٠٠ عربة مشحونة بالابضعة تفرغ في الاحواض المختلفة واهمها الحوض الكبير خصص لمتاجر المملكة البلجيكيَّة ومساحتهُ ٩٤٠٠٠ متر مربع وهنالك حوض آخر اتساعهُ ١٣١٠٠٠ متر مربع خصص لتجارة البلاد مع اوروبا وحوض ثالث خصص لمتاجر البلاد مع الشرق والديار القاصية . وكنا في عربة ندور حول هذه الاعمال العظيمة فلزم للتفرج عليها كلها ثلاث ساعات

واني لما وصلت هذه المدينة نزلت في فندق اوروبا وهو في موقع بديع لانهُ في طرف ميدان يعرف باسم الميدان الاخضر لكثرة ما فيهِ من الشجر وهنالك

تصدح الموسيقى في كل يوم بعد الظهر فيتألب الناس جماعات كثيرة لسماع الانغام تحت ظل الشجر وهم يخطرون بين صفوف الخضرة النضرة على مهلٍ فيرى المتفرج على تلك الجماهير ما يشرح الصدر من اختلاف الاشكال وهيئة الترف. وتوجهت يوم وصولي الى مرسح واسع تلعب فيهِ الافيال والخيل العاباً مختلفة منها ان الفيلة ترقص على الانغام رقصاً افرنجيًّا من النوع المعروف عندهم بالكادريل فيكون لها في ذٰلك منظر غريب وقد قضى صاحب هذا المحل زماناً طويلاً على تعليمها حتَّى اوصلها الى هذه الدرجة وبدأ يجمع من رقصها المال . وفي اليوم الثاني دخلنا كنيسة انفرس الكبرى وهي اجمل ما في هذه المدينة من المعابد واكبر كنائس البلجيك طرًّا يشبهها القوم بكنيسة باريس المشهورة المعروفة باسم (نوتردام) . وفي هذه الكنيسة رسوم ونقوش وآثار تستحق الذكر اهمها صورتان من رسم روبان الشهير انجزهما في عامي ١٦١٠ و١٦١٢ فهما تعدان من اجل الآثار الباقية من القرن السابع عشر وقد جعل الصورتين للدلالة على صلب المسيح وارتفاعهِ عن الصليب فعلقتا في جدار الكنيسة وغطيتا بالحجب لا ترفع عنهما الاَّ متى انتهى المصلون من عبادتهم وبقي المتفرجون فتزاح تلك الحجب ويدور خادم المعبد يتقاضى من كل متفرج فرنكاً رسم مشاهدتها وهو يفعل ذٰلك في كل حين لكثرة الزائرين. ورأينا كنيسة اخرى في هذه المدينة وهي قديمة العهد بنيت سنة ١٦٠٠ وفيها حفر على الخشب يمثل ملائكة الجنان والقديسين والحواريين وكل ذٰلك من صنع الرجال الماهرين

ولا حاجة الى القول ان هذه المدينة على اتساعها وكثرة المترددين اليها من الاجانب بسبب مركزها التجاري تحوي شيئاً كثيراً من المراسح والملاهي والمشاهد ولكننا لم نذكر هنا غير المهم منها فنتقدم من ذٰلك الى ذكر عاصمة البلاد

بروكسل

لما انتهينا من زيارة انڤرس قصدنا هذه العاصمة البهيَّة ووجدنا ان الذي قالهُ الواصفون عن محاسنها لا يزيد عن الحقيقة وما اخطأَ الذين اطلقوا عليها اسم (باريس الصغيرة) فان عاصمة البلجيك هذه اكثر مدن الارض زهاءً وبهاءً وبهجة بعد مدينة باريس وهي تقرب منها في اوضاعها ومناظرها وبنوع اخص في طباع اهلها واميالهم واهوائهم وعوائدهم. وقد بنيت هذه المدينة على مرتفع من الارض تحتهُ وادٍ غير عميق فهي بهذا تقسم قسمين احدهما علوي والآخر سفلي وفي كلٍّ منهما ما يستحق الذكر والوصف من المشاهد العظيمة. والقسم السفلي من هذه المدينة الزاهرة مركز الحركة التجاريَّة فيها وهو القديم من قسميها وفيهِ البورصة وادارة البوسطة العامة ومجلس البلديَّة وفيهِ من الشوارع المغروسة فيها الاشجار ما يشبه شوارع باريس الكبرى (البولڤار) واهمها شارع اسبناخ ثم شارع الشمال ثم شارع هينو وكلها متصلة بعضها ببعض وهي ذات سعة وجمال بديع رصّعت بالمخازن المزخرفة باشكال البضائع والحانات المرتبة على اجمل مثال والمطاعم النظيفة وغير هذا مما يكثر وجودهُ في كل مدينة عظيمة. ومن اعظم ما يرى في هذا القسم من بروكسل سراي المجلس البلدي وهي كانت قصر الملوك السابقين الذين حكموا بلاد البلجيك بنيت في ساحة كبرى على مقربة من البورصة وقد عُني الصناع الماهرون بزخرفتها ونقشها حتَّى جعلوها من اجمل المشاهد وطلوا ظاهرها بماء الذهب فزادوها رونقاً وبهاءً. وفي داخل هذا البناء صور الملوك الذين درجوا بعضهم هولانديون والبعض نمسويون والبعض فرنسيون والكل بالملابس التي كانت مستعملة في ايامهم فالنظر الى هذه الصور من وجهٍ تاريخي يلذ لطالب الحقيقة لانهُ يمثل لهُ حالة اوروبا في العصور المتوسطة على اوضح الاشكال

ويذكرهُ بما فعل اولئك الاقيال وما حاربوا وما عانوا من هياج الامة فان البلجيكيين قرروا الاستقلال من الحكومة الهولاندية في هذه الدار وقطعوا راس ٢٥ كبيراً من كبراء الهيئة الحاكمة في غرفة من غرفها . هذا غير ان الصور المجموعة في هذا القصر تمثل تاريخ البلجيك كلهِ فيمكن لطالب المعرفة ان يدرس تاريخ البلاد من تلك الصور

واما القسم العلوي من هذه المدينة وهو القسم الحديث فاهم كثيراً من الذي مرَّ ذكرهُ وفيهِ مجموع عظمة بروكسل وبهائها الحاليين لان فيهِ قصر الملك وندوة النواب والاعيان والابنية الفخيمة الخاصة بالوزارات ودور الامراء من الاسرة المالكة في هذه البلاد الآن وسراي المحكمة وفنادق عظيمة وحوانيت بديعة الصنع ومخازن وافية الترتيب وغير هذا شيءٌ كثير . واني قصدت هذا المكان من فندقي صعدًا لانهُ كما علمت مبني فوق اكمة كبيرة وبلغت ساحة تعرف باسم الساحة الملوكيَّة اقيم فيها تمثال الامير البلجيكي جوفروا دي بويون وهو امير اشتهر في الحروب الصليبيَّة المعروفة شهرة زائدة مثُل هنا في حالة الحرب والجهاد . وقد نصب هذا التمثال في سنة ١٨٤٨ وكتب على قاعدتهِ ما يأْتي (جوفردا ده بويون ملك القدس الاول ولد في مدينة بندي بالبلجيك وتوفي في فلسطين يوم ١٧ يوليو سنة ١١١٥ . وقد نصب هذا التمثال في حكم الملك ليوبولد الاول سنة ١٨٤٨) وعلى الجوانب الاربعة ذكر حروب جوفروا هذا واعمالهِ وهو في موضع يكثر مرور الناس منهُ . وفي هذه الساحة فندق فلاندر وهو اعظم فنادق المدينة وانخمها والى جانبهِ فندق المنظر الجميل (بيل فو) يتصل بقصر الملك ليوبولد وليس لهذا القصر من الخارج منظر يميزهُ عن منازل الكبراء والاغنياء فلا يعرف الغريب انهُ للملك الاَّ اذا اتاهُ العلم من غيرهِ لاسيما وان القصر ملاصق لفنادق وابنية اخرى ويكثر ان تكون قصور الملوك

داخل اسوار وحدائق خاصة بها لا تتصل بسواها . ولم يمكن دخول هذا القصر لانهم لا يأذنون بذلك في كل حين ولكن دخول الحديقة التابعة لهُ مباح فدخلتها مع الداخلين ودرت في جوانبها على صوت الانغام تصدح بها الموسيقى العسكريَّة . ويتصل طرف هذه الحديقة بمجلس النواب والشيوخ والنظارات وقد اقيمت عند مدخل المجلس تماثيل تدل الى العدل والقوة والحلم والحكمة وغير هذا مما يعدونهُ شعاراً للحكومات الدستوريَّة

ولما انتهيت من رؤية هذه المشاهد عدت الى الساحة الملوكيَّة لاذهب منها الى سراي المحكمة او قصر العدليَّة كما هم يسمونهُ وهي ذلك البناء الفخيم الذائع الصيت في الآفاق يعد من معجزات الاتقان في هذا الزمان اذا عدت الابنية العظيمة في الارض كان هو في اولها ولذلك ترى رسومهُ في كل جهة من جهات الارض ولطالما قال الناس ان هذا القصر الفخيم كثير على محاكم بروكسل وانهُ لا يجدر بدولة البلجيك الصغيرة ان تقيم اثراً عظيماً كهذا في عاصمتها ليس لهُ نظير في اكبر عواصم الارض واعظم ممالكها . وقد شرعوا في بناء هذا القصر في سنة ١٨٦٦ فانتهوا من البناء سنة ١٨٨٣ اعني انهم اشتغلوا بهِ ١٧ عاماً وانفقوا عليهِ اكثر من مليوني جنيه . وهو قائم على طرف القسم العلوي من المدينة ومن دونهِ القسم الواطئ فالذي يقف فيه يرى القصور والابنية الشاهقة في ذلك الوادي مثل الاكواخ الحقيرة امام منظرهِ الفخيم ويكفي السائح الذي يقصد بلاد البلجيك ان يدخل هذا القصر ويدور في داخلهِ وخارجهِ ويتنقل في غرفهِ وقاعاتهِ وردحاتهِ ودرجاتهِ وقباتهِ وعمدهِ وبقية غرائبهِ فانهُ اذا لم يرَ في بروكسل غيرهُ لم تعد زيارتهُ بلا فائدة . ويشغل هذا البناء ارضاً مساحتها ٢٤٦٠٠ متر مربع طولهُ ١٨٠ متراً وعرضهُ ١٧٠ وعلو قبتهِ ١٢٢ وفيهِ ٢٧ قاعة كبرى يمكن ان يجتمع في كلٍ منها

مئات من الناس و٢٤٥ غرفة متوسطة الحجم للمداولات والتحريرات وغير هذا وثمانية ردحات كبيرة تحيط بها القاعات والغرف احاطة النجوم بالشمس . واكثر هذا البناء العظيم من الرخام الابيض المصقول اذا تأملتهُ من الخارج او من الداخل وجدت لهُ رونقا وبهاء كثيرًا لا سيما وقد جمعت فيهِ علوم المتأخرين الهندسيَّة والصناعيةَّ كلها فما ترك البلجيكيون واسطة حتى اتوها لاتقان هذا القصر وجعلوهُ بذلك من مشاهد الدنيا المعدودة واجمل محكمة في الوجود. ودخلت بعض الغرف وفي جملتها غرفة الاستقبال وهي كلها رخام بديع الصنع حتَّى ان جدرانها من الرخام الملون اسفلها اسود لماع وفوقهُ احمر قانٍ ومن فوقهِ الى السقف ابيض ناصع ولهذه الصفوف الثلاثة منظر بديع يؤثر في الناظرين . وقد قامت القاعة كلها على اعمدة من الرخام ايضًا كثيرة الزخرف فاذا جلس المرء في صدر هذه القاعة وتأمل محاسنها شعر بعظمة في نفسهِ واقرَّ بالفضل للذين بنوا هذا الاثر الجليل . ومساحة هذه القاعة ٣٦٠٠ متر مربع وهي نظرًا الى هذه السعة يرجع فيها صدى الصوت ويرن مدة دقيقة واحدة فيزيدها مهابة ووقارًا ودخلنا قاعات الجلسات للمحاكم الابتدائيَّة ومحاكم الاستئناف وكلها وضعت على اجمل مثال فيها الكراسي للقضاة من خشب الابنوس غطيت بالقطيفة الحمراء وفي صدر القاعات تماثيل العدالة والقسطاس وكلها رموز منها شكل سليمان الحكيم في كرسي القضاء والى يمينهِ ميزان العدالة والى يسارهِ شكل امرأة تحمل طفلاً وهو رمز الى الرأفة والاشفاق

وجملة القول ان الساحة الملوكيَّة في بروكسل تعد من اجمل الساحات لما يحيط بها من المشاهد العظيمة . وعلى مقربة منها متحف الفنون الجميلة مثل النقش والتصوير فيهِ من الرسوم ما يستغرق الكتب وصفهُ . ويليهِ سراي الكونت ده فلاندر عم الملك وهو رجل طويل القامة طولاً ظاهرًا رأيتهُ يتمشى الى جانب قصرهِ

مع احد القواد العسكريين وقد اضطرهُ الطول الى الانحناء فلازمهُ وصار فيهِ طبعاً. ويتفرَّع من هذه الساحة اجمل شوارع المدينة وابهاها غرس الى جانبيها الشجر الجميل ولها اتساع يكفي للعربات الذاهبة والآيبة وارصفة عريضة للمارة من الناحيتين فهي تسمى عندهم باسم (الشانزليزه) وهو المتنزه المعروف في باريس لقربها منهُ في المناظر والناس يقصدونها عصارى كل يوم من كل صوب فتراهم زرافات ووحداناً يتمشى منهم الرجال والنساء او يسوقون العربات او يجرون على الدراجات او يمتطون صهوة الجياد الصافنات فيكون من مجموعهم مشهد من اجمل المشاهد للتفرج او المتنزه. ولما تركت هذه الجهة سرت في الشارع الملوكي الى حديقة النبات وهي من الحدائق المشهورة في اوروبا وضعت في منحدر من الارض فهي اذا وقف المتفرج في اعلاها رأى من دونهِ صفوف الخضرة النضرة واشكال النبات العجيب والشجر البديع من كل نوع تعشقهُ العين وهم جمعوا في هذه الحديقة من غرائب النبات ما ينمو بعضهُ في البلاد الحارة فغرسوهُ في حديقتهم داخل بيوت من الزجاج يضرمون النار من تحتها لتوليد الحرارة اللازمة لانمائهِ فينمو هنالك كانهُ لم ينقل من موضعهِ في اواسط افريقيا او اميركا الجنوبية. وبعد ان سرحنا الطرف ملياً في هذه الحديقة الشهية توجهنا الى القصر الثاني للملك حيث يقيم في اكثر ايام وجودهِ في بروكسل ولهُ حديقة من اجمل ما اكتحلت بمرآهُ العين وطرقات في وسط الاشجار والازهار وبحيرات من الماء لها جمال غريب. وكان الحرس الملوكي واقفاً على باب القصر وهيئة المكان بوجه الاجمال تدل على الملك اكثر من هيئة القصر الآخر الذي مرَّ ذكرهُ فتأملناهُ من الخارج لان الدخول غير مباح للمتفرجين. وقد مرَّ على هذا القصر زمان فانهُ بناهُ احد الولاة الهولانديين لما كانت البلاد تابعة لتلك المملكة ثم استولى عليهِ نابوليون الاول وجعلهُ محل

اقامتهِ من سنة ١٨٠٢ الى ١٨١٤ وفيهِ اصدر امرهُ باشهار الحرب على روسيا في سنة ١٨١٢ ويقال انهُ ظل بعد ذلك يعدُّ بروكسل وهذا القصر شؤماً ويتطير من ذكرهما الى يوم وفاتهِ لانهُ غلب في واترلو وهي بلدة تقرب من بروكسل سيأتي ذكرها وكانت واقعة واترلو هذه الضربة القاضية على عزهِ . وبدأ نجم سعدهِ بالافول من بعد الحرب الروسية التي امر بها في قصر بروكسل هذا فكانت عاصمة البلجيك وقصرها شؤماً عليهِ ومقدمة في هبوطهِ على ما يزعم وهو مع اتساع مداركهِ وعظمتهِ كان كثير التشاؤم راسخ الاعتقاد بمثل هذه الامور . وعاد هذا القصر بعد خروج البلجيك من قبضة فرنسا الى اصحاب البلاد في سنة ١٨١٥ وتوفي في احدى غرفهِ ليوبولد الاول مؤسس الدولة المالكة حالاً وكانت وفاتهُ في سنة ١٨٦٥ فاقيم لهُ تمثال بديع الصنع ونصب على اكمة تسمى اكمة الرعد على مقربة من هذا القصر وقد بني عليها برج هرمي يصعد اليهِ من الداخل بسلم مستدير الشكل اذا رقي المرء اعلاهُ رأى قسماً كبيراً من مدينة بروكسل وبعض اجزائها ترى من ذلك الموضع بكل ما فيها . ويلي هذا البرج كنيسة مشهورة يصلي فيها الملك لقربها من قصرهِ وفي ساحتها مدفن الملوك والامراء من ذلك قبر ليوبولد الاول مؤسس الدولة وقد ذكرناهُ غير مرة . وولي العهد ابن ليوبولد الثاني توفي سنة ١٨٦٩ . والبرنس بدوين ابن اخي الملك وكان ولي عهدهِ توفي سنة ١٨٩١ . ووراءَ هذا المدفن المقبرة العامة تعرف باسم بير لاشيز تشبيهاً لها بمدفن في باريس يعرف بهذا الاسم ايضاً وهناك من الاضرحة واشكال النقوش والرموز شيءٌ كثير

وكان في بروكسل يوم زرتها معرضاً بديعاً لشركة من البلجيكيين والانكليز استأجرت قطعة من الارض واقامت معرضاً مثلت فيهِ هيئة مدينة البندقية (ڤنيس) الكائنة في ايطاليا وكانت هذه الشركة قد اقامت هذا المعرض في لندن

وكانما هي نقلت مناظر البندقية وترعها وشوارعها وقصورها وجسورها وزوارقها الى لندن على طريقة غريبة فكان الذي يدخل هذا المعرض يظن انهُ في البندقية نفسها لا في مدينة اخرى وتقاطر الناس على ذلك المعرض مدة وجودهِ وهي ستة اشهر فقط فربحت الشركة من ذلك اموالاً طائلة تزيد خمسة اضعاف عن رأس مالها والذي دفع من المساهمين الفًا اخذ في نهاية الاشهر الستة خمسة آلاف فلما رأى رجال الشركة هذا النجاح الباهر نقلوا معرضهم بصورهِ واكثر اشكالهِ الى مدينة بروكسل وحفروا الترع و بنوا الجسور والزوارق وجاءوا بالعمال من مدينة البندقية نفسها فكنت اذا دخلت ذلك المعرض في بروكسل تسمع اللغة الايطالية ولا ترى غير مناظر مدينة البندقية فتظن ان تلك المدينة العجيبة انتقلت بقوة الالهة او بفعل السحر الذي يفوق العقول من موضعها وفي ذلك من معجزات العلم والهمة ما لا يخفى . وكان رأس مال المعرض المذكور كبيرًا جمع بالاكتتاب فربح اصحاب المشروع منهُ اموالاً وفيرة وهنا يتضح للقاريء مزية التشارك والتعاون على قضاء المهمات الكبرى فان كثيرًا مما يتوفر منهُ الربح لا يمكن لفرد واحد فاذا تعاون عليهِ افراد وتشاركوا على انجازهِ ربح الكل منهُ وغنموا ما يملأُ الجيوب كما غنمت شركة معرض البندقية في بروكسل وفي لندن من قبلها

وقد كنت مدة وجودي في هذه المدينة كثير التردد على حرجة بديعة تسمى بوا ده لاكامبر وهي على مثال الغابة البارزيَّة المعروفة باسم بوا ده بولون وفي هذا المحل الغريب مجارٍ من الماء وبحيرات تتخلل الخضرة وجزيرة من ارض الغابة تحيط بها المياه فيصل اليها القاصدون بالزوارق وهم يسمونها جزيرة روبنصن يأتيها الناس افواجًا كثيرة في كل حين فيدورون بين تلك الاشجار وينثنون ملتفين حول تلك الجداول وهم يسمعون الانغام المطربة تصدح بها الموسيقى العسكريَّة

هذا ولا بدَّ للذي يزور بروكسل من التنزه في اطرافها وضواحيها وهي كثيرة العدد وافرة البهاء متصلة بعضها ببعض من العاصمة الى جميع اطراف المملكة حَتَّى ان المسافر اذا سار من اول البلجيك الى آخرها طولاً وعرضاً لم يسر على قدميهِ اكثر من نصف ساعة في ارضٍ بلا بناء فكأن البلاد مدينة واحدة وهنا الدليل الاظهر على عماريَّة البلاد وتقدمها العظيم وتوفر اسباب العدل والراحة فيها. واشهر الضواحي لعاصمة البلجيك هي واترلو حيث حدثت اعظم معارك التاريخ الحديث وانتجت اعظم النتائج وكانت بين نابوليون العظيم من جانب وبين جنود الانكليز وبعض مناصريهم من الجانب الآخر انتصر فيها الدوك اوف ولنتون القائد الانكليزي على نابوليون انتصاراً باهرًا بعد حرب هائلة ما سمع الاولون باغرب منها ولا الآخرون واعانهُ على النصر الجنرال بلوخر البروسي وبعض الجنود الفلمنكية. ولما كانت معركة واترلو كما قلنا اعظم معارك الآدميين في التاريخ الحديث وهي بنيت على نتائجها دول اوربا الحالية فلا نرى بدًّا من شرح يسير عنها اتماماً للفائدة فنقول

كان نابوليون بونابارت كما يعلم القراء اكبر قواد زمانهِ واوصل فرنسا بحروبهِ الى قمة المجد ولكنهُ جعل اكثر دول اوروبا من اعدائها لا سيما دولة الانكليز التي حاول جهدهُ ارغامها ولم يمكن لهُ ذلك نظرًا لقوتها في البحر. وتحاربت جنود نابوليون والجنود الانكليزيَّة مرارًا في البر فكان النصر في اكثر المواقع للانكليز حَتَّى اذا رأى هذا القائد العظيم ذلك قصد ملاقاة الدوك اوف ولنتون وهو اعظم قواد الانكليز يومئذٍ ومحاربتهُ بنفسهِ وجعل ذلك في سهول واترلو التي ذكرناها وكانت انكلترا قد اتفقت مع البلجيك وبروسيا على ان تعيناها في الحرب لرد غارة نابوليون وارغامهِ فاجتمعت العساكر الانكليزيَّة في تلك السهول يوم ١٧ يونيو من

سنة ١٨١٥ وكان معها بعض الجنود البلجيكية ثم جاءت الجنود الفرنساوية وعسكرت على مقربة منها وكان يفصل بين الفريقين وادٍ صغير . وفي يوم ١٨ يونيو بدأ القتال فهجم الجنرال ناي احد قواد نابوليون على صفوف الانكليز هجوماً عنيفاً واخترق من معسكرهم صفوفاً فلما رأى البلجيكيون فعلهُ فروا هاربين وتركوا الانكليز وحدهم يحاربون الفرنساويين فثبت الانكليز على هجمات الفرنسيس ودارت رحى الحرب من كل جانب فحصد الرجال من الجانبين الوفاً وكان كل من نابوليون وولنتون لا يغفل طرفة عين حتَّى اذا كان آخر النهار وصلت الجنود البروسيَّة التي كانت قادمة لنجدة الانكليز تحت قيادة الجنرال بلوخر الذي ذكرناهُ فدخلت في معامع القتال بلا امهال وقضت على آمال الفرنساويين قضاءً محتماً وبذلك تم النصر للجانب الانكليزي في معركة واترلو وكانت هي اول معركة كبيرة حضرها بونابارت بنفسهِ وكُسر فيها واكبر معارك الاوروبيين في العصور الحديثة من حيث شهرة القواد فيها وجسامة نتائجها لانهُ لو انتصر بونابارت في تلك المعركة لتغيرت احوال اوروبا من ذلك اليوم وكانت بروسيا الى الآن من الولايات الفرنساويَّة وانكلترا دولة صغيرة اذا لم تكن تابعة لفرانسا ايضاً فهي على الاقل بلا املاك واسعة من مثل التي نراها اليوم لهذه الدولة العظيمة

وكان مع بونابارت في هذه المعركة ٧١٩٠٠ جندي منهم ٤٨٩٥٠ من المشاة و١٥٧٠٠ من الفرسان و٢٤٦ مدفعاً . وكان مع الدوك اوف ولنتون القائد الانكليزي ٦٧٦٠٠ رجل منهم ٤٩٦٠٠ مشاة و١٢٤٠٠ فرسان و١٥٠ مدفعاً فلما جاء بلوخر بجنودهِ البروسيانيَّة بلغت قوة الدول المتحدة ضد نابوليون ٧٥٠٠٠ رجل و٢٢٠ مدفعاً . وقد قتل في هذه المعركة العظيمة ٢٥٠٠٠ من جيش فرنسا و١٣٠٠٠ من جيش انكلترا و٧٠٠٠ من جيش بروسيا واضطر

نابوليون بعدها الى القهقرى والرجوع الى بلادهِ فرأى الهياج كثيرًا ورحل عنها الى انكلترا حيث سلم نفسهُ وتم بهِ الذي تم كما يعلم من تاريخهِ

وبعد ان مرّت اعوام على هذه المعركة الكبرى اتفقت حكومات انكلترا وبروسيا والبلجيك على اقامة اثرٍ باقٍ لها في محل حدوثها فارسل المهندسون وبعض الضباط الذين شهدوا الواقعة الى قرية واترلو وعملوا الرسوم اللازمة ثم اتفقت الحكومات الثلاث على ان يبنى تل هرمي الشكل في موضع ترى منهُ كل جوانب الارض التي حصل فيها القتال فبنوا ذلك التل وهو كلهُ من التراب ارتفاعهُ ٤٥ مترًا وفوق قمتهِ اسد بلجيكي من النحاس والناس يصعدون اليهِ بسلم عدد درجاتهِ ٢٣٥ درجة . وقصدت واترلو للتفرج على هذه الآثار فركبت رتل سكة الحديد وسرنا نحو ساعة حتَّى وصلنا محطة واترلو فرأينا فيها عربات تنتظر القادمين ركبناها وتوجهنا فيها الى محل الآثار فلما وصلنا اسفل التل الذي ذكرناهُ صعدنا مع الصاعدين الى اعلاهُ وعددهم لا يقل عن اربعين اكثرهم من الانكليز ووجدنا هنالك ضابطًا من الجيش الانكليزي درس تاريخ واترلو ومعركتها درسًا دقيقًا وعينتهُ الحكومة ليشرحها للزائرين فلما استقرَّ بنا المقام في اعلى تلك الرابية جعل الضابط يشرح الواقعة شرحًا مسهبًا وهو كلما ذكر موضعًا يشير اليهِ بيدهِ حتَّى نزل المتفرجون وهم كانهم شهدوا موقعة واترلو من دقة الوصف

وقد اشار الضابط المذكور الى آثار ومشاهد كثيرة من ذلك عمود اقامتهُ الحكومة الانكليزيَّة موضع شجرة يبست وارسل جذعها الى دار التحف في لندن وكان الجنرال ولنتون قد وقف تحت تلك الشجرة مدة القتال . ومن ذلك عمد وآثار اخرى واضرحة عليها كتابات اكثرها اقامها اقارب الضباط الانكليز الذين قتلوا في هذه المعركة تذكارًا لبسالتهم ولم يزل في سهول واترلو عظام كثيرة من

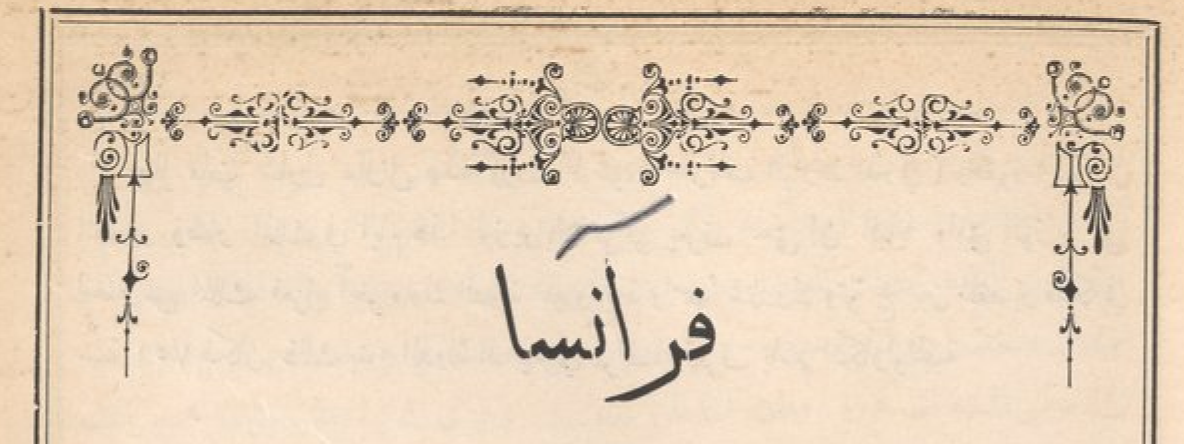
بقايا الذين قتلوا فيها ودفنوا يوم ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ حتَّى انهُ اذا هطل المطر في بعض الاعوام غزيرًا وكان جارفًا يجرُّ معهُ التراب الكثير ظهر من تحت التراب عظام المقتولين وذكر الناس باعظم معارك المتأخرين

ولما نزلنا من تلك الاكمة دخلنا معرضًا صغيرًا عند سفحها جمعت فيهِ السيوف والبنادق والخوذ وبقية الآلات الحربيَّة مما استعمل في هذه المعركة العظيمة . وتباع الى جانبهِ رسوم وآثار يأخذها السائحون لتذكر واترلو فلما انتهينا من هذه الاشياء عدنا الى بروكسل في قطار مرَّ بين صفوف الزرع وغابات الشجر الكثير ومنازل الاكابر الذين يعملون في العاصمة مدة النهار وفي آخرهِ يعودون الى حيث تتمُّ لهم الراحة ولا يقلقهم دوي العواصم الكبرى وحركتها الدائمة . واقمنا فيها زمانًا وقد راق لنا لطف سكانها وحسن موأنستهم وكثرة ما في مدينتهم من اسباب الحظ والطرب حتى اذا حان زمان الرحيل عنها فارقناها ونحن من رأي القائلين انها باريس الصغرى وانها من ابهى عواصم اوروبا واكثرها رونقًا وجمالاً وقصدنا الحمامات البحريَّة المشهورة في مدينة اوستاند

ولا حاجة الى الاسهاب هنا في وصف الحمامات البحريَّة في مدينة اوستاند البلجيكيَّة فان الذي يقال عنها لا يزيد عما في حمامات هولاندا وغيرها من الحمامات البحريَّة التي مرَّ ذكرها في هذه الرحلة . الآن مدينة اوستاند هذه ذاعت شهرتها في الآفاق وعرفت بطيب هوائها فكثر ورود القادمين اليها من انحاء البلجيك ومن البلدان الاخرى وتسهلت وسائل النقل والمخابرة بينها وبين فرانسا وبلاد الانكليز نظرًا لكثرة الذين يقصدونها من البلادين والمسافة بين اوستاند وانكلترا في البحر لا تزيد عن عشر ساعات فهي يأتيها كل يوم ثلاث بواخر انكليزيَّة ملأى بالزائرين ويأتيها ايضًا ثلاثة قطرات من فرانسا تنقل المتفرجين فلا يقل عدد الموجودين

على ضفة البحر في اوستاند كل يوم عن خمسة آلاف او ستة ولا يقل عدد الزائرين مدة فصل الصيف عن خمسين الفًا او ستين نصفهم من اهل البلاد البلجيكية والنصف انكليز واميركان وفرنسويون وافراد من جميع الجهات والانكليز اكثر الاجانب عددًا من بين زائري ذلك الموضع . وكثيرًا ما يذهب ملك البلجيك بنفسهِ الى حمامات اوستاند ويؤُمها اشراف البلجيك وسراتهم وتقصدها العائلات فتقيم فيها الايام والاسابيع وتقضي بين الرمل والماء اكثر ساعات النهار لا فرق في ذلك بين الكبار والصغار . وقد بني رصيف طويل عريض على شاطىء البحر هنا طولهُ ١٥٠٠ متر وعرضهُ ١٨ وعلوهُ عن سطح البحر ثمانية امتار وهنالك يتمشى المتنزهون رجالاً ونساءً ويرى المتفرج من اشكال الناس ما بين راكب وماشٍ وسابح في الماء ومتمرغ في الرمل ما يرى في اكثر هذه الحمامات البحريَّة . وقد بني على طول الرصيف المذكور فنادق وحانات ومنازل نخيمة بعضها للعائلات المصطافة واكثرها معد للاجرة وفيها كل ما تطلبهُ النفس من وسائل الراحة . وهنالك حانة كبرى على شكل الكازينو يسمونها (كورسال) وفيها الموسيقى وغرف اللعب والرقص والمطالعة والمسامرة وغير ذلك مما يوجد في كل محل من هذا القبيل وهنالك ايضًا لسان بني من الخشب والحديد كالجسر فوق البحر يمتد في الماء مسافة ٦٢٥ مترًا وفيهِ كل ما يسر الخواطر من معدات الاتقان والراحة للقادمين وغير هذا مما يعسر عدهُ ويضيق المقام عن وصفهِ

فلما انتهينا من هذه المشاهد ولم يبقَ علينا في بلاد البلجيك ما يمكن رؤيتهُ برحنا تلك البلاد العامرة وسرنا منها الى فرنسا وهي مجاورة لها كما تعلم



فرانسا

خلاصة تاريخية

اشتهرت هذه البلاد بيسالة اهلها في ايام الرومانيين والمعارك الكثيرة التي جرت بينهم وبين قواد رومه وكانوا يسمونها وقتئذٍ (غاليا) و يعرفون الاهالي باسم (فرانك) اي الاحرار نظرًا لما عرف عنهم من الميل الى الحرية والاستقلال ثم توسع الناس في هذا الاسم فجعلوهُ عامًا لكل الاوروبيين واخذهُ العرب عنهم فجعلوهُ الافرنج او الفرنجة كما تعلم وحرّف قليلاً بابدال الكاف سينًا فصار (فرانس) وهو اسم فرانسا اليوم . وليس يعرف عن ملوكها الاقدمين ما يذكر قبل واحد اسمهُ ميروفيوس اسس الدولة الميروفنجية واشهر افرادها كلوفيس الاول ولي سنة ٤٨١ وهو في العشرين من عمرهِ وحارب الرومان واجزاء فرانسا والمانيا فانتصر في كل حروبهِ وجعل باريس قاعدة مملكتهِ واقترن بابنة ملك بورغونيا فعلمتهُ الدين المسيحي وحملتهُ على اعتناقهِ فكان من وراء ذلك ان فرانسا كلها تمثلت بملكها الهمام وصارت بلادًا مسيحية من ذلك الحين . ومات كلوفيس سنة ٥١١ مسيحية فخلفهُ اولاد لهُ اربعة وكلهم ضعفاء الراي بلا تدبير فتضعضعت احوال المملكة وقلّت هيبة الملوك وانتقلت السلطة منهم الى روساء البلاط الملوكي وكانت وظيفة رئاسة البلاط قد صارت وراثية في عائلة رجل اسمهُ بين ارستال قام من نسلهِ شارل مارتل القائد الشهير الذي انتصر على العرب سنة ٧٣٢ بين مدينتي تور وبواكتيير في فرانسا وارجعهم عن اوروبا و يُعد انتصارهُ في تلك السنة من اعظم الحوادث التاريخية لانهُ غيّر تاريخ اوروبا وابقى الغرب للغربيين بدل ان يستولي عليهِ العرب

ولما مات شارل مارتل هذا ورث الوظيفة (رئاسة البلاط الملوكي) والقوة ابنهُ ببن القصير وصار الملك في ايام هذا الوزير بلا مركز يعرف حتى ان البابا وافق الوزير على اختلاس الملك فعزل آخر ملوك الدولة الميروفنجية واسمهُ شلدرك وتوّج ببن القصير ملكاً في سنة ٧٥١ فكان ذلك بدء الدولة الثانية في فرانسا وتعرف باسم الكارلوفنجية



شارلمان

ومات ببن هذا في سنة ٧٦٨ بعد ان ملك البلاد ١٧ سنة فاورث الملك من بعدهِ لابنيهِ شارل وكارلومان مات الثاني منهما بعد حين واستبدَّ شارل بالملك وهو الذي اشتهر في التاريخ باسم شارلمان اي شارل الكبير أُعطي هذا اللقب عن استحقاق لانهُ كان مدبرًا حكيمًا وقائدًا باسلاً وملكاً عظيماً حارب في كل جهة وانتصر على كل الاعداء فوسع دائرة مملكتهِ وجعلها

متصلة من آخر حدود فرانسا الغربية الى حدود الرين والدانوب وضم جزءًا كبيرًا من النمسا والمانيا وايطاليا واسبانيا الى مملكتهِ وكان هو في ايامهِ اعظم ملوك الزمان لا يضارعهُ في الشهرة غير هرون الرشيد سلطان العرب وبين الاثنين وداد ومخابرة . وظلَّ هذا الملك العظيم يفتح البلدان ويتقدم حتى توّج سنة ٨٠٠ امبراطورًا على يد البابا في رومه وكان تتويجهُ يوم عيد الميلاد من السنة المذكورة . ومات شارلمان سنة ٨١٤ وهو في الثانية والسبعين من عمرهِ تخلفهُ ابنهُ لويس دبونايرو وجعل ايكس لا شابل قاعدة مملكتهِ وما لبث زمانًا حتى قسم المملكة على اولادهِ وهو حي فجعلوا يتخاصمون ويتحاربون بسبب ضعف ابيهم حتى انفصلت ايطاليا والمانيا عن مملكة فرانسا وضعفت تلك السلطنة وكان جميع ملوكها بعد شارلمان ضعافًا لا يستحقون الذكر الى ان قام في ايام لويس الخامس المعروف بالكسلان وزير اسمهُ (هوك كابيت) اختلس الملك من مولاهُ واسس دولة تعرف باسم كابيت في سنة ٩٨٧

وقد قام من بيت كابيت فروع ملوكية كثيرة مثل آل ڤالوا واورليان وبوربون وفيليب ومن هؤلاء فيليب الثاني الملقب باوغسطس ملك البلاد سنة ١١٨٠ واتحد مع ريكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز على تجريد الحملات لمحاربة الترك والعرب في فلسطين مدة الحروب الصليبية المشهورة

ونمت البلاد قليلاً وتقدمت في حكم فيليب الثالث من ملوك هذه العائلة ما بين سنة ١٢٧٠ و ١٢٨٤ ولكنها عادت الى الضعف في ايام فيليب الخامس وحدثت في تلك المدة حروب طويلة بين انكلترا وفرانسا تعرف بحرب المائة سنة كان معظم النصر فيها للانكليز حتى ان هنري الخامس ملك انكلترا تقدم بجيش صغير على فرانسا وحارب جنودها في معركة اجنكور سنة ١٤١٥ فانتصر انتصارًا باهرًا وتقدم على باريس ففرَّ منها ملكها الضعيف شارل السادس وامتلك الانكليز مملكة فرانسا مدة ٩ سنوات حتى اذا مات هنري الخامس ملك انكلترا وهو يومئذٍ اشهر قواد زمانهِ عاد الفرنسويون الى السعي في الاستقلال وتم لهم ذلك سنة ١٤٥٠ على يد فتاة اسمها جان دارك اعتقدت انهُ جاءها وحي بطرد الانكليز والحث على ملك بلادها المعزول وامرائهِ ان يسلموها قيادة جيش فلما نالت بغيتها تقدمت في طليعة الجيش على الانكليز وحاربتهم فانتصرت عليهم في جميع المواقع وهي عذراء في الثامنة عشرة من عمرها ولكن كبا بها جوادها في الموقعة الاخيرة فأُخذت اسيرة وقتلها الانكليز حرقًا بالنار زعمًا منهم انها ساحرة فما افادهم ذلك لان انتصار جان دارك اعاد فرانسا الى اهلها

ولهذه الفتاة ذكر عظيم في التاريخ وشهرة كبرى في فرانسا وهي تعد عندهم في جملة القديسين ولها في باريس تمثال امام قصر التولري وعدة آثار وتماثيل اخرى في كل جوانب فرانسا



جان دارك

ولما استقلت فرانسا شرع ملكها كارلوس السابع في اصلاح شؤونها وكان عاقلاً حكيماً وخلفهُ ابنهُ لويس الحادي عشر فحذا حذو والدهِ واهتم بالطباعة وكانت يومئذٍ شيئاً حديثاً اهتدى اليهِ جوتنبرج سنة ١٤٥٠ فنقلهُ الملك الى باريس ونشط العلم والصناعة بكل قواهُ وخلفهُ ابنهُ كارلوس الثاني وكان هماماً حارب ايطاليا وملك جزءًا كبيرًا منها ثم اضاعها ومات في شرخ شبابهِ فخلفهُ لويس الثاني عشر وهو اعاد جزءًا من شمالي ايطاليا الى مملكتهِ ثم خلفهُ فرنسوا الاول وهو من اشهر ملوك فرانسا واقدرهم حارب في عدة مواقع ولكن خصمهُ في اكثر الحروب

كان اوسع منهُ سلطانًا واكثر جنودًا وهو كارلوس الخامس ملك اسبانيا وامبراطور المانيا فكان النصر في اكثر المعارك لكارلوس ولكن هذا لم ينقص من قدر فرنسوا الذي يعد من اعظم ملوك فرانسا . ومات هذا الملك سنة ١٥٤٧ فخلفهُ ابنهُ هنري الثاني ولم يكن لهُ ذكر في التاريخ غير ان الخلاف كبر في بلادهِ بين الكاثوليك والبروتستانت واشتد في ايام ابنه هنري الثالث وحفيدهِ فرنسوا الثاني وحصلت في تلك المدة حروب كثيرة بين الحزبين اشتهر فيها البرنس كوندي والبرنس هنري ناڤار الذي ملك فرانسا بعد ذلك باسم هنري الرابع والاميرال كوليني وكلهم من قواد البروتستانت وكان من امر المتحاربين انهم تصالحوا بعد حروب اهلية طويلة في ايام شارل التاسع ملك فرانسا الذي ملك البلاد في التاسعة من عمرهِ سنة ١٥٦٠ وكان تحت وصاية امهِ كاترين ده مديسي . ولكن الحزازات ظلَّت تحك في الصدور وساعد على انمائها تعصب الملك وامهِ فدبر حزب الكاثوليك دسيسةً لقتل البروتستانت جميعهم في ليلة واحدة في كل انحاء فرانسا واتفقوا على ان يكون اليوم ٢٣ اوغسطس من سنة ١٥٧٢ وهو يوم عيد القديس برثلماوس فلما جاء الموعد قام الكاثوليك على اخوانهم البروتستانت وقتلوا منهم الوفا . وظلت البلاد في ارتباك الى آخر حكم هنري الثالث فلما قتل في سنة ١٥٨٩ ورثهُ هنري الرابع الذي ذكرناهُ وكان حكيمًا عالمًا عادلاً كثير الذكاء ولكن مذهبهُ البروتستانتي ابعد عنهُ قلوب الكاثوليك من رعاياهُ فاعتنق مذهبهم ولما استتبَّ لهُ الملك اصلح ما اختلَّ من امورهِ وقرر النظامات العادلة واطلق الحرية للاديان وكان بوجه الاجمال من اعقل ملوك فرانسا واعظمهم ولكنهُ قتل بيد راهب كثير التعصب سنة ١٦١٠ وخلفهُ لويس الثالث عشر ابنهُ وكان يومئذٍ في التاسعة من عمرهِ فجعلت والدتهُ ماري ده مديسي وصية عليهِ وكانت امرأة عاقلة استوزرت الكردينال ريشليو المشهور فاظهر الرجل من معجزات الاقتدار والدهاء ما حير اوروبا وحارب المانيا وايطاليا وسواها حروبًا طويلة كان النصر في اكثرها لفرانسا وهي تعرف بحروب الثلاثين سنة من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ . وقد اسس ريشليو هذا مجمع العلوم الفرنساوي المعروف باسم (اكادمي) ورفع فرانسا بحسن تدبيرهِ الى ارفع الذرى ولكنهُ كان حقودًا طماعًا واشتغل كل عمرهِ بالفتن والدسائس . ومات لويس الثالث عشر فورثهُ حفيدهُ لويس الرابع عشر وهو طفل في الخامسة من عمرهِ فجعلت امهُ ماري هابسبرج وصية عليهِ حتى اذا بلغ اشدهُ واستلم زمام الملك اظهر اقتدارًا عظيمًا وكان اعظم ملوك زمانهِ بلا مراء . وحارب هذا الملك اسبانيا والمانيا وايطاليا وانكلترا وهولاندا وكان النصر في اكثر الحروب لهُ ولكن الانكليز انتصروا عليهِ في عدة معارك اشهرها معركة بلنهيم وقائدهم يومئذٍ

الديوك اوف مارلبرو من بيت تشرتشل المشهور . وكان الكردينال ما زارين وزيره في اوائل حكمهِ فاصلح له مالية البلاد اصلاحاً تاماً وسارت فرانسا في سبيل العز مدة هذا الملك حتى عدّت اكبر دول اوروبا . ومات لويس الرابع عشر في السنة الثانية والسبعين من عمرهِ بعد أن حكم ٦٥ سنة وهو اطول حكم في تاريخ ملوك اوروبا وكان موتهُ في سنة ١٧١٥ . واشتهر حكم هذا الملك العظيم بتقدم العلم والصناعة وقيام الابطال الكثيرين وبناء القصور الفخيمة منها قصر ملوك فرانسا في ڤرسايل من ضواحي باريس ولكنهُ اشتهر ايضاً بابطال معاهدة نانت التي أُبرمت في ايام هنري الرابع واعطي الناس فيها حرية الضمير والاديان فنشأ عن رجوعهِ الى التعصب ان البروتستانت نزح اكثرهم من فرانسا الى انكلترا وبلغ عدد المهاجرين نحو خمسمائة الف نفس واكثرهم من اهل الذكاء والصناع الماهرين فخسرت فرانسا معارفهم وكسبتها انكلترا وكان رحيلهم من الحوادث المشهورة في تاريخ لويس الرابع عشر

وخلفهُ لويس الخامس عشر وكان فاتر الهمة كثير الميل الى اللهو منغمساً في اللذات جمع في قصرهِ النساء الحسان من كل ناحية وآثر معاشرتهنَّ على تدبير مهام الملك . وكثر ظلم الحكام في ايامهِ وزاد تبذير البلاط الملوكي عن الحد المعتاد فكانت الحكومة تلجا الى ابتزاز الاموال اللازمة لذلك التبذير بالعنف والقسوة من الاهالي . وشاعت عن الملك امور كثيرة نفر منها الناس فكانوا يقرأون كتابات ڤولتير وغيرهِ من الذين مهدوا السبيل للثورة وحدث في ايامهِ ان ولاية اللورين سلخت من المانيا وضمّت الى املاك فرانسا وان جزيرة كورسيكا أُخذت من ايطاليا وضمت الى مملكة فرانسا ايضاً . ومات لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

وكان لويس السادس عشر الذي خلفهُ وحدثت الثورة في ايامهِ رجلاً بسيط النية سليم القلب محبًّا لخير رعاياهُ إلاَّ أنهُ كان ضعيف الراي فلم يقدر على ايقاف تيار الافكار الذي قاد الاهالي كلهم الى كره الملوك والامراء فحاول جهدهُ ان يرضي الامة وجمع مجلس نواب فتحهُ بنفسهِ وعرض على اعضائهِ كل ما يمكن للملك اعطاؤُهُ للامة من الحقوق وتساهل ما امكن التساهل فلم يهدا غضب الشعب وظلوا على الهياج حتى لم يبقَ للملك سلطة واحاطوا بقصرهِ يقصدون قتلهُ وقتل افراد عائلتهِ . وعاث الثائرون في البلاد مفسدين وارتكبوا الاهوال والفظائع وعمت في البلاد فوضى غريبة وثورة على الاغنياء والامراء ورؤساء الدين فلما رأى الملك انهُ لا يمكن لهُ استرجاع الملك بعد ذلك الهياج حاول الفرار مع عائلتهِ فعرفهُ بعضهم في وسط الطريق وارجعوا العائلة الملوكية الى باريس ذليلة مهانة وهنالك اقاموا عليها الحجر وتولى الامر رجال الثورة وزعيمهم يومئذٍ رجل لا ذمة عندهُ ولا اشفاق ولا شعور اسمهُ روبسبير

فبعدان طال زمان فظائعهم وقتلوا الوفاً من نبلاء فرانسا قادوا الملك الى المحاكمة واقروا على انهُ خان المملكة وحكموا عليهِ بالاعدام فاعدم في ساحة الكونكورد بباريس في صباح ٢١ ينايرمن سنة ١٧٩٣ ولما وقف على آلة الذبح — والفرنساويون يعدمون المجرمين ذبحاً لا شنقاً بآلة قاطعة يسمونها جيليوتين — خاطب الحاضرين قائلاً ايها الفرنساويون انني اموت بريئاً مما اتهمني بهِ هذا الشعب واسامح الذين يريدون قتلي واطلب الى الله ان لا يحمل فرانسا مسؤُولية سفك دمي. ولم تسمع بقية كلامهِ لان الطبول قرعت وعلت ضوضاء المنتقمين وأُعدم لويس السادس عشر وهو لم يقم بين ملوك فرانسا اطيب منهُ قلباً ولا اسلم نية . وزاد رجال الثورة في الهول والفظائع بعد ذلك فاتهموا الملكة ماري انتوانت وهي ابنة ماريا تريزا امبراطورة النمسا المشهورة بالاشتراك في الخيانة وحكموا عليها بالاعدام فقادوها الى الجيليوتين محملة على عربة حقيرة للابضعة وقبل ان تسقط الآلة القاتلة على عنقها صرخت " ان يا الهي اسألك ان تسامح قاتلي" وهكذا سفك دم امرأة لاذنب لها وتمت فظائع الثورة الفرنساوية بان سجن بقية اعضاء العائلة المالكة ومات ولي العهد وهو صبي معذباً في سجن كثير الظلام . وتمادت فرانسا في المبادىء الثورية فهاج شعبها هياجاً عظيماً وما ابقوا على كبير ولا اثر للنظام الملوكي ونادوا بالحرية والاخاء والمساواة واعلنوا في الاقطار انهم يساعدون كل امة على ثلّ عرش الملوك فيها ونيل الحرية والاستقلال فارجف اعلانهم الملوك واهتزت لذلك ممالك اوروبا وبدأ اصحاب النفس الامّارة بالسوء في بقية الممالك يفكرون في الثورة فاتحد اكثر ملوك اوروبا على محاربة الفرنساويين واذلالهم قبل ان يستفحل امرهم وتعم مباديهم ولكن شبان فرانسا كانوا قد ثملوا بخمرة الثورة والاستقلال فحاربوا الاعداء حرباً شيبت الولدان واظهروا من البسالة ما حير العقول وانتصروا على جميع الاعداء وردوهم عن حدود فرانسا . وفي سنة ١٧٩٣ اجتمع نواب المحكمة بعد كل تلك الاهوال وانتخبوا ١٢ عضواً من رفاقهم لادارة الاحكام فاداروها على نسقٍ غريب من الفظاعة والشناعة حتى ألقوا الرعب في كل القلوب وسمي حكمهم "بحكم الرعب" لكثرة ما قتل فيهِ من الناس وما حدث من الامور المغايرة لطبع الانسان من ذلك انهم غيروا اسماء الاشهر وحساب السنة وسارت فرانسا على نظام جديد جعلت سنة الثورة بدء سنيهِ وذبح على الجيليوتين الوف من الابرياء حتى نفر الناس من فظائع تلك الحكومة . وقادوا رؤَساءها واشهرهم روبسبير الذي ذكرناهُ ودانتون الى المجزرة فضربوا اعناقهم واراحوا البلاد منهم . وقامت على اثر ذلك حكومة جمهورية جديدة واسمها (ديركتوار) او الادارة وهي الجمهورية الفرنساوية الاولى كانت مركبة من ٥ اشخاص يحكمون البلاد برأي مجلسين احدهما مركب من ٥٠٠ نائب

والثاني من ٢٥٠ نائباً . ودامت هذه الحكومة الى سنة ١٧٩٩ حين أُبدلت بحكومة القنصلية

وبين البلاد في حرب واضطراب قام فيها شاب غريب الذكاء عجيب الاقتدار كان جنديًّا بسيطاً لا يعرف الناس عنهُ شيئاً حتى اذا شرع الانكليز والطليان في محاصرة طولون كان هو حاضرًا تلك المعركة وابدى من حسن الرأي والبسالة ما اعاد المدينة الى قبضة الفرنسويين وكان ذلك الشاب نابوليون بونابارت المشهور ولعلهُ اعظم قواد الارض من يوم ذكر للناس حرب وقيادة . ولا حاجة الى سرد تاريخ هذا الرجل العظيم هنا ولكننا نكتفي بالقول ان حكومة الديركتوار اتصل بها ذكاؤهُ فرقتهُ حتى جعلتهُ قائد جيشٍ حارب المانيا والنمسا وايطاليا وانتصر في كل المعارك انتصارًا باهرًا وضم ايطاليا الى مملكة فرانسا وسنَّ لها القوانين والنظامات وطرد جنود النمسا منها ثم عاد الى باريس فتلقاهُ الشعب بسرور عظيم واحتفلوا بهِ احتفالاً لا مثيل لهُ وارتفع ذكرهُ بين الناس الى حد ان حكومة الديركتوار بدأت تحسب لشهرتهِ حساباً فعرضت عليهِ قيادة العمارة البحرية لمحاربة انكلترا وغزو شطوطها ولكنهُ آثر ان يغتصب الهند منها اولاً وطلب جيشاً يسير بهِ الى مصر والشام ليفتحهما ويتقدم الى الهند فجندت لهُ الحكومة ٣٠ الفاً سار بها الى مصر في تلك الحملة المشهورة فانتصر ثم خذل في الشام وتحطم اسطولهُ في ابي قير واضطر الى الرجوع الى فرانسا فلما وصلها قلب الحكومة وجعلها قنصلية يحكمها ثلثة قناصل هو اولهم وحارب النمسا وايطاليا مدة القنصلية فانتصر عليهما ثم رقي الى رتبة امبراطور في سنة ١٨٠٤ فصار اعظم اهل زمانهِ

وقامت اوروبا على بونابارت بعد هذا الارتقاء فحاربها وانتصر في كل جهة حتى انهُ نظم الممالك الجديدة وتصرف بالبلدان فانشأ مملكة باڤاريا في المانيا وجعل صهرهُ مورات ملكاً عليها ونصب اخاهُ يوسف ملكاً على نابولي وعلى اسبانيا وعين اخاهُ لويس ملكاً لهولاندا واخاهُ جيروم ملكاً لوستفاليا في المانيا وقسم المانيا تقسيماً حتى اضعفها ولعلهُ نظر بذلك الى صالح فرانسا وخاف على بلادهِ من اتحاد الجرمانيين عليها كما حققت الايام ظنونهُ . وظل ينصّب الملوك و يعزل ويولي حتى دانت اوروبا لهُ بعد انتصاراتهِ الباهرة ما خلا انكلترا فانهُ حاول عزلها وعقد المحالفات مع الدول على قطع المخابرات معها فاخلفت روسيا وعدها من هذا القبيل وقام لمحاربتها فدخل بلادها ووصل موسكو ولكن اتساع البلاد ومقاومة الاهالي اضنت قواهُ فعاد من روسيا وقد فشل لاول مرة في حروبهِ فلما وصل فرانسا في سنة ١٨١٢ جند جيشاً جديدًا وخرج لمحاربة الدول المتحدة عليهِ وهي روسيا وانكلترا والنمسا و بروسيا فغلب وتقهقر الى باريس ومن ثم دخل ملوك الدول المتحدة عاصمة فرانسا وعزلوا نابوليون وولوا مكانهُ لويس الثامن عشر

وهو اخو لويس السادس عشر الذي قتل في الثورة ونفي نابوليون الى جزيرة البا في البحر المتوسط ولكنهُ ما عتم ان رأى جنود الدول راحلة عن باريس حتى عاد اليها في سنة ١٨١٤ وجند جيشًا جديدًا قام ليحارب بهِ الدول فكانت آخرتهُ في معركة واترلو التي ذكرناها في تاريخ البلجيك

وأُخذ بونابارت بعد ان سلم نفسهُ للانكليز اسيرًا ونفي الى جزيرة القديسة هيلانه في الاوقيانوس الاتلانتيكي عند شطوط افريقيا الجنوبية حيث توفي في ٥ مايو سنة ١٨٢١ ونقلت عظامهُ بعد ذلك الى باريس باحتفال عظيم

وكان لهذا القائد العظيم زوجة اسمها جوزفين عاشت معهُ الى ان صار امبراطورًا وكانت عاقرًا فاضطر الى الاقتران بغيرها ليولد لهُ من يرث الملك العظيم عنهُ ولهذا فانهُ طلق جوزفين على كرهٍ من البابا ورجال الدين واقترن بالارشدوكة ماري لويز ابنة مكسيمليان امبراطور النمسا فرزق منها ولدًا واحدًا سمي يوم ولادتهِ ملك رومه واوصى لهُ والدهُ بمملكة فرانسا من بعدهِ فعرف باسم نابوليون الثاني ولكنهُ لم يملك بعد ابيهِ ومات مسلولاً في قصر شونبرن من ضواحي ڤينا

واتفقت دول اوروبا بعد نفي نابوليون على اعطاء الملك ثانيةً للويس الثامن عشر فعاد وملك الى يوم موتهِ سنة ١٨٢٤ وخلفهُ اخوهُ شارل العاشر وحصلت في ايامهِ ثورة لانهُ اراد ادخال نظامات لم يوافق الشعب على ادخالها فتنازل عن الملك وخلفهُ لويس فيليب من آل اورليان ودامت دولتهُ الى سنة ١٨٤٨ وهي سنة الثورة الفرنساوية الثانية حين سقطت المملكة ونودي بالجمهورية الثانية

وترشح لرئاسة الجمهورية لويس نابوليون ابن اخي نابوليون الكبير فانتخب رئيسًا في سنة ١٨٤٨ ثم نادى الرجل بنفسهِ امبراطورًا سنة ١٨٥٢ ولقب نابوليون الثالث واحسن السياسة حتى صارت فرانسا في ايامهِ الى ارفع مراكز العز والشرف واصبحت باريس مركز سياسة الارض واسم نابوليون عنوان القوة في كل بلاد . وحاربت فرانسا دولة الروس سنة ١٨٥٤ بالاشتراك مع انكلترا والدولة العلية في حرب القرم وكان لها النصر . ثم حاربت الصين مع انكلترا سنة ١٨٦٠ ونالت الفخر والنصر . وسنة ١٨٥٩ حدثت الحرب الايطالية المشهورة وكانت فرانسا معضدة فيها لايطاليا على النمسا ونالت النصر فاستقلت ايطاليا واخذت فرانسا بلاد ساڤوى ونيس اجرة مساعدتها . وسنة ١٨٦٢ حاربت المكسيك وانتصرت الجنود الفرنساوية فيها ونُصب مكسيمليان اخو امبراطور النمسا الحالي امبراطورًا لها . وما زال السعد مرافقًا لنابوليون الثالث وبلادهُ في عز كبير ومركز منيع الى ان كانت سنة ١٨٧٠

وحدثت الحرب المشهورة مع بروسيا فكسرت فرانسا كسرة هائلة وسقطت الامبراطورية فعادت البلاد الى النظام الجمهوري واسست جمهورية ثالثة كان اول رؤسائها الموسيو تيرس وتلاهُ المرشال مكماهون ثم الموسيو جريڤي ثم الموسيو كارنو ثم الموسيو كازمير بريه ثم الموسيو فلكس فور ثم الموسيو لوبه وهو الرئيس الحالي



الموسيو لوبه رئيس جمهوريَّة فرانسا الحالي

باريس

هي باجماع الآراء اول مدائن الارض زهاءً وبهاءً ما رأى الناس من يوم قامت للحضارة قائمة نظيرًا لها في جمال شوارعها وميادينها ومتاحفها وحاناتها ومنتزهاتها . وهي مركز التمدن الحالي ومقصد الطلاب والسائحين يؤُمونها من كل صوب وحدب فلا تخلو هذه المدينة العظمى من آلافٍ مؤلفة تجتمع فيها سواءٌ في الصيف او في الشتاء . وهي منبع الازياء ومصدر الكياسة واللياقة وبؤْرة اللطف والرشاقة ينقل عنها الناس في كل جهة ما يستجد من شرائط التمدن. وهي في طليعة المدائن العظمى في العلوم والمعارف فيها من المعارض والمتاحف ودور العلوم وقاعات الصناعة ما يعجز القلم عن وصفهِ ولطالما تغنى المادحون بمدحها واجاد الواصفون وافاضوا في تلك المشاهد التي تسحر الناظرين والمناظر التي يحدث وصفها فتنة في عقول السامعين . على ان شهرة باريس وكثرة ما فيها من المحاسن والاحاسن تحملني على القاء دلوي في الدلاء ووصف بعض الشيء مما رأيت فيها فاني زرتها خمس مراتٍ كنت في كل مرة ارى آيات جديدة من الجمال وبدائع الاتقان ويخيل لي ان المدينة في عيد عظيم لانها ابدًا في جذل وحبور تضحك سماؤُها وارضها وفي كل جانب منها معدات السرور متوفرة والناس جارون الى هاتيك المنتزهات الفخيمة حتى انهُ ليعسر على الذي يزور باريس وهذه حالها وهذه آيات جمالها ان يبدأ في وصفها لانهُ لايدري من اين يكون البدء وكيف يجيء الختام ولذلك تراني اخترت البدء بهاتيك الشوارع الفسيحة المعروفة عندهم باسم (بولفار) فان هذه الشوارع الباريزيَّة محور الجمال والاتقان ينفق عليها مجلس البلديَّة المبالغ الطائلة في كل عام حتى تبقى على حالةٍ تليق بعظمة المدينة وجمالها فترى ابهى ما اكتحلت بمرآهُ العين الى

جانبيك من قصور فخيمة لخاصة الناس او هي لحفظ التحف او للفائدة العامة ومخازن جمعت ما تناهى في الحسن وغرابة الصنع من صناعة باريس وسواها رتبت فيها الابضعة على نسق بديع وجواهر تسطع انوارها وتتلألأ من وراء الواح زجاجية نقيَّة وهي في الليل اوفر بهاءً منها في النهار اذ يلقون عليها النور الكهربائي فتزهو فوق زهائها المعهود ويجذب بريقها المحبوب آلافاً من المتفرجين وفنادق اجهد الصناع قرائحهم في تزيين جهاتها وحانات يضيع الهم من مجرد النظر اليها وفوق هذا فان في كل هذه الشوارع اناساً يخطرون بابهى الحلل وسيدات يرفلنَ بنفيس الاطالس وبديع الازياء ولهنَّ في حركات المسير علم عجيب فلوانك زرت باريس ولم تشهد ضواحيها ولم تدخل متاحفها ولم تسمع شيئاً في ملاهيها ولم تدرس غرائبها بل اقتصرت على التجول في هاتيك الشوارع الفيحاء لكفى بها منظراً ترتاح اليهِ النفوس وتشهد بغرابة هذه المدينة التي لم يبنِ الناس الى هذا اليوم نظيراً لها في الجمال

واذا ضمت هذه الشوارع او البولفارات بعضها الى بعض لم يقل طولها عن ٤٣٠٠ متر نبدأُ منها بوصف بولفارسان مارتن فيهِ عدة مراسح وتياترات وقوس للنصر قديمة اقيمت تذكاراً لانتصار لويس الرابع عشر ملك فرانسا في سنة ١٦٧٤ على الالمان. ويليهِ بولفارسان دنيس فيهِ باب اشتهر بهذا الاسم ايضاً اقيم تذكاراً للملك لويس الرابع عشر المذكور بعد انتصاره على هولاندا في سنة ١٦٨٢ . وبولفار بواسونيير اشهر ما فيهِ مدرسة لتعليم الموسيقى وفنونها تعطى فيها المكافآت للذين ينالون احسن شهاداتها ويقصدها الطلاب من كل صقع بعيد . وبولفار مونمارتر فيهِ معرض يعرف باسم صاحبهِ جرفلين قلَّ ان يجيء باريس سائح ولا يراهُ لان فيهِ اشكال مشاهير الارض الحالين كلهم وبعض المشاهير المتوفين صنعت بالشمع

والجبس واتقن صنعها الى حد ان الغريب قد لا يميز الرجل الحي فيها من تمثالهِ وهم يضيفون الى هذا المعرض تماثيل بعض المشهورين والمشهورات في كل عام . وقد صنعوا بعض الاشكال قاعدة ووضعوها على اوضاع مختلفة والى جانبها مقاعد خالية يجلس اليها المتفرجون فاذا كنت دائرًا تتفرج على تلك المناظر البهيَّة لم يبعد عليك ان تصل الى شخصٍ حي ساكن تظنهُ تمثالاً حتى اذا قربت منهُ وتحرك اضطربت وخجلت كما يحدث للكثيرين

ويستمر هذا الشارع على خط واحد حتى يبدأ (بولڤار الطليان) وهو بلا خلاف اجمل شوارع باريس واكثرها زخرفًا واحسنها موقعًا وابعدها شهرة فيهِ من الحوانيت والمنازل البديعة ما يقصر الشاعر عن وصفهِ وفيهِ بنك الكريدي ليونه المشهور وهو بناءٌ فخيم جمع ما بين المتانة والجمال وفي داخلهِ قاعات فسيحة لراحة القادمين اليهِ وغرف اخرى للكتابة فيها المنضدات والاقلام وبقية لوازم الكتابة فاذا جاء المسافر يريد قبض مالٍ من هذا المصرف العظيم جلس الى احدى تلك المناضد ووقع على الورقة بيدهِ علامة وصول المال اليهِ فيأخذ الورقة منهُ كاتب ويعود اليهِ بالمال المطلوب وهو لا يتكلف عناء الوقوف والانتظار . وينتهي هذا الشارع في ميدان الاوبرا الكبرى وسوف نعود الى ذكرها ومن بعد ذلك الميدان يستمر الشارع المذكور على خط واحد ويتغير اسمهُ فيصير شارع (الكبوسين) وهو ايضًا من آيات الجمال في باريس الحسناء يبتدئ من ميدان الاوبرا التي ذكرناها والغران اوتل او الفندق الكبير ولهذا الفندق شهرة ذائعة في اوروبا كلها لانهُ في احسن مواقع باريس ولهُ سعة زائدة اذ يشغل جزءًا كبيرًا من الارض وتحيط بهِ الشوارع المعروفة من كل جانب وهو كعبة القادمين الى باريس. وليس هذا الفندق قاصرًا على المسافرين الذين يبيتون فيهِ بل ان الذين يقصدون حانتهُ (القهوة)

ومطعمهُ من اهل باريس ونزلائها كثيرون غير المقيمين فيهِ لانهم يقرأون هناك معظم صحف اوروبا المشهورة ويجدون في داخل الفندق مكتباً للبريد ومكتباً للبرق وموضعاً للعلم باسعار البورصة والمسائل المالية وفيهِ نوادٍ لاهل السياسة ولذلك اشتهر هذا الفندق شهرتهُ الحالية

ومن هذا القبيل بولقار (لا مادلين) نسبة الى كنيسة المجدلية في آخرهِ وهي من اشهر كنائس فرانسا بدأوا في بنائها على عهد لويس الخامس عشر سنة ١٧٦٤ ولم يتم ثم شرع نابوليون الاول في اتمامها وكانت الغاية الاولى ان تبنى هذه الكنيسة على شاكلة هياكل الاقدمين لها عماد الى جوانبها الاربعة وواجهة فخيمة مثل واجهة الهياكل اليونانية فلم يتم بناؤُها الاَّ في سنة ١٨٤٢ وهي الآن مشهورة بجوق ينشد فيها الالحان الدينية المؤَثرة وفيها تقام الاحتفالات الكبرى في ايام الاعياد ويعقد الزواج لاكثر اصحاب الشهرة . وبولقار مادلين هذا يتصل بالشارع الملوكي (رويال) اذا سار المرءُ الى آخرهِ لقي وزارة البحر الفرنسيةَّ وقد رفع فوقها علم الجمهوريةَّ وذكر ما اصاب الابنية العظيمة في هذا الموضع دون سواهُ من ثورة الكومون بعد حرب فرانسا وبروسيا الاخيرة فان هؤُلاء العتاة جمعوا قواهم في الشارع الملوكي هذا وجاؤُا بالمضخات والآلات المعدة لاطفاء الحرائق بالنار فملأُوها زيتاً من زيت الغاز ورشوا تلك الاماكن بها ثم اضرموا النار فيها ففعلت فعلها الفتاك وقتلت كثيرين غير الخسائر الفادحة التي انتجتها من تدمير المعالم القديمة والابنية الفخيمة.

وهذا آخر الشوارع من نوعهِ وهو يتصل في آخرهِ باشهر مواضع باريس واجملها نريد بهِ ساحة الكونكورد المشهورة . وساحة الكونكورد هذه ميدان لا نظير لهُ في الارض كلها ولا خلاف في ان البشر لم يصنعوا الى الآن ساحة عظمى يرى الناظر في وسطها والى جميع جوانبها ابهى المناظر وانخمها مثل التي نحن في شأْنها وفي وسطها

بحيرات بالغة الانقان يتدفق الماء من انابيب فيها صنعت على اشكال بديعة ومن حولها نُصُب اقيمت لمدائن فرانسا المشهورة مثل مرسيليا وبوردو وليون وغيرها وبين هذه النصب تمثال مدينة ستراسبورغ التي اغتصبها الالمان بعد حرب ١٨٧٠ وفوقهُ اكليل اسود دليل الحداد على فقد ولاية الالزاس . وفي وسط الساحة المسلة المصرية التي اهداها المغفور لهُ محمد علي باشا الى لويس فيليب ملك فرانسا ونقلت الى باريس سنة ١٨٣٦ وهي قائمة على قاعدة بديعة الصنع مذهبة جوانبها ومن حولها المماشي الفسيحة والممرات الواسعة يخطر فيها المتنزهون والمتفرجون . واذا وقف المتفرج في هذه الساحة رأى بعضاً من افخم مناظر باريس من ذلك نهر السين ووراؤهُ مجلس النواب في الجهة الجنوبيَّة والى الغرب منتزه الشان اليزه المشهور وسيأتي ذكرهُ والى الشرق حديقة التولري والى الشمال مخازن وابنية كثيرة تتصل بحديقة الاليزه وهو قصر رئيس الجمهوريَّة

وساحة الكونكور . هذه قديمة العهد اشتهرت من قبل ايام الثورة الفرنساويَّة المشهورة ولكنها شهدت في ايام تلك الثورة العظيمة ما لم تشهدهُ الساحات والميادين من الاهوال التي تشيب الاطفال فان رجال الثورة جعلوها مقر فظائعهم ومظالمهم فأقاموا فيها المشنقة (الجليوتين) وضربوا الرقاب في وسطها مئات والوفاً حتى ان عدد الذين قطعت اعناقهم في ساحة الكونكورد مدة سنتين من سنة ١٧٩٣ الى ١٧٩٥ لم يقلُّوا عن ٢٨٠٠ شخص من عظماء فرانسا منهم الملك لويس السادس عشر وامرأتهُ ماري انتوانت واختهُ اليصابات واخوهُ الدوك دورليان وابن عمهِ فيليب والد الملك لويس فيليب ومنهم زعماء حزب الملوك وبعض الامراء ورؤساء الحزب الديني ومنهم ايضاً بعض زعماء الثورة واعوانهم مثل دانتون وروبسبير . هؤلاء كلهم قتلوا في ساحة الكونكورد التي صبغت جوانبها بدماء المقتولين في مدة الثورة وصار ذكرها يرجف

الابدان ويهول الرجال فسبحان الذي يشقي ويسعد كيف تغير حال هذه البقعة بتغير الاحوال وموت الرجال واضحت الآن مقر الانس ومركز البهاء والعز بعد كل ذلك الهول

ويتصل بهذه الساحة العظيمة منتزه الشان اليزه والحق يقال ان هذا المنتزه وما يليهِ الى جميع الجوانب زهرة ما في مدينة باريس ونخبة مناظر المدائن المشهورة. والشان اليزه هذا عبارة عن طرق كثيرة ما بين غابات صغرى من الاشجار وصفوف منها بديعة الشكل في وسطها طريق عظيم كثير الاتساع تسير فيهِ العربات كل يوم مئات والوفًا وفيهِ المطاعم والقهاوي والمقاعد ومواضع النزهة ومواقع الطرب وبعض فنادقهِ نخيمة جدًّا غالية اثمانها لا يأتيها غير الامراء والكبراء ولمجموع ذلك المنتزه بهاءٌ عجيب فهو مقصد المتنزهين في باريس لو سار اليهِ المرءُ بعد الظهر من اي من يوم اراد لا سيما من يوم الاحد رأى من اشكال الناس وازيائهم وجماعاتهم ما تطرب له النفس وتحسب ان السعادة كلها حصرت في ذلك المنتزه العظيم فانك كيفما سرت فيهِ رأيت شيئًا يروق لك حتَّى ان وصف المكان يعسر على الكاتبين وليس يفيد فيهِ غير الخبر والعيان . وفي آخر هذا المنتزه الفسيح قنطرة كبرى شاهقة البنيان عظيمة الاركان هي قوس نصرٍ شرع نابوليون الاول في بنائها تذكارًا لانتصارهِ على جيوش اوروبا واتمها من بعدهِ لويس فيليب وفيها رسوم المعارك العظيمة التي احرزت فيها الجنود الفرنسيَّة نصرًا على الاعداء على جدرانها الاربعة وهي اكبر قوس للنصر في الارض كلها لها اربعة ابواب متقابلة وتعرف القنطرة هذه باسم قنطرة الكوكب وفي ذلك مطابقة وتشبيه بديع لان الكوكب تشعُّ منهُ الانوار في كل جانب وقنطرة النصر هذه تشع منها الطرق وتتفرع الدروب في كل جانب واهمها عشرة تعرف باسماء كارنو وماكماهون وهوش واينا وفردلند

وكلبر وهوجو ودارمه واليزه و بولون وكلها من اجمل الطرق وانظفها توصلك الى داخل المدينة وخارجها وقد زينت كلها بالاشجار والازهار والقصور الباذخة والمصايف اللطيفة ومن اهمها الشارع الذي يوصل الى غابات بولون وهي مجموع دروب عريضة وحراج غضة في ارض اريضة طارت شهرتها في الآفاق الى حد انها صارت مجتمع اهل الترف والبزة ومنتزه جماعة الحظ واليسار يأتونها من سحيق الاقطار ليمتعوا بمحاسنها الطرف ويشهدوا بانها جذابة للنفوس ساحرة للانظار فيجتمع فيها كل يوم من اهل المدينة ونزلائها عدد عديد يزري بعضهم ببعض في تعدد الازياء وفي غرابة الجمال وابهة الرواء يسيرون اكثرهم في عربات نظيفة والازاهر من هنا والرياحين من هنا والشجر الباسق الانيق الى كل جانب وماء البحيرات الصناعية يتدفق من انابيبها ويزري بالزلال في نقائهِ فكأنما السائر هنالك في ارضٍ مسحورة جمعت فيها المحاسن بعضها الى بعض وليس فيهاغير كل شهي بهي ولا عجب بعد هذا الحسن الوفير اذا توافد الناس على هذا المنتزه بخيلهم ورجلهم الى حد ان المسير يتعذر عليهم في ايام الآحاد فتضطر صفوف العربات ان تسير الهوينا وليس يسوء ذلك قوماً اذا وقفوا في غاب بولونيا متعوا الطرف بازهى المناظر الشهية

وقد بلغت مساحة هذه الحراج الفيحاء ٨٧٣ هكتارًا من الارض خططت بها الطرق المنسقة ومن ورائها حقول ومنتزهات اخرى تعرف باسم لونشان وحديقة (اكلمتاسيون) مساحتها نحو ٢٠ هكتارًا وهي تعد قسماً من الغابة وفي داخلها معرض للحيوانات البريَّة والطيور والزحافات واشكال المخلوقات الحية جمعت من اطراف الارض وبينها كل منظر غريب وفي جملتها سباع وضوارٍ اخرى ربيت وعلمت طرائق كثيرة فكان المربي يضع يدهُ في فمها ورأسهُ على رأسها وهي مطيعة لامرهِ لا تكشر عن ناب ولا تتعمد الاذى . وجملة القول ان هذه الجهة من

باريس هي نقطة الجمال فيها واكبر منتزهاتها ومن اشهر ما فيها لم ارَ الى الآن بين ضواحي المدن الكبيرة ما يقرب منها في فرط الجمال وغرابة الوضع وحسن الانتظام

وقد زرت بين المشاهد العظيمة في مدينة باريس الزاهرة قصر آل بوربون الذي مرَّ ذكرهُ وهو مجلس نواب الامة الفرنسية الآن تلقى فيهِ الخطب السياسية العظيمة التي يرنُّ ذكرها في الآفاق وتدار هنالك حركة السياسة للجمهوريَّة الفرنسية. ولهذا القصر الفخيم منظر غاية في الجمال فانهُ بني على ضفة السين وامامهُ ساحة الكونكورد البديعة التي تقدم وصفها وانفق عليهِ آل بوربون الوفًا مؤلفة حتَّى ان البرنس كونده وحدهُ من امراء تلك العائلة انفق على زخرف هذَا القصر عشرين مليون فرنك . ودخلنا هذَا القصر العظيم ومعنا واحد من عمالهِ واجباتهُ تنحصر في مقابلة الزائرين ومرافقة المتفرجين ورأينا قاعة الاجتماع وهي قائمة على عشرين عموداً وفيها التماثيل المتقنة الصنع تمثل القوة والحريَّة والامن ومنصة الرئيس ويليها منصة اخرى يقف عليها الاعضاء حين يقومون للخطابة ومقاعد للاعضاء لكلٍّ منهم مقعد خاص بهِ ومنضدة صغيرة توضع فوقها المذكرات واماكن خصت بالزائرين و باصحاب الجرائد و بالسفراء وغير هذَا مما يراهُ المسافر في كل مجلس لنواب الممالك المنظمة . واكثر اصحاب الذوق والعلم الذين يزورون باريس يحضرون جلسة او اكثر من جلسات هذَا المجلس العظيم بدعوة او اذن من احد الاعضاء حيث يتدفق سيل الفصاحة من فم الفطاحل في السياسة وارباب الخطابة وقادة الافكار . وعلى مقربة من هذَا المجلس منزل انيق لرئيسهِ ودار رحيبة فيها الآن وزارة الخارجية وهي كلها تطل على شارع عظيم يعرف باسم الانفاليد وهو اسم قصر عظيم الشهرة في باريس وسواها انشأهُ لويس الرابع عشر ملك فرنسا للعجزة والمقعدين من جنودهِ وجعلهُ واسع الجوانب يضم خمسة آلاف من هؤلاء العاجزين

وفيهِ الآن معرض كبير القدر والقيمة للسلاح على اشكالهِ من قديم وحديث لا سيما الذي استعمل منهُ في الحروب الفرنسيَّة والذي غنمتهُ جنود فرانسا في حروبها الكثيرة من المدافع والسيوف وغيرهذا كثير. وفيهِ من هذا القبيل ايضاً ١٥٠٠ راية غنمتها جنود فرانسا في معارك نابوليون الاول وهي كلها محفوظة في ذلك القصر الفخيم وسلسلة من الحديد متينة طولها ١٨٠ متراً استعملها العثمانيون في نهر الدانوب عند حصار ڤينا في سنة ١٦٨٣ . وهنالك خزانات تحوي من اشكال الملابس القديمة لملوك فرانسا وفرسانها واسلحة ابطالها ما يملأُ وصفها المجلدات . واهم ما في دار العجزة هذه عظام نابوليون الاول بطل فرانسا المشهور واكبر قواد الارض طرًّا في العصور الحديثة نقلت من جزيرة القديسة هيلانه حيث توفي هذا الرجل الكبير وبنيت فوقها قبة عالية مذهبة جوانبها ترى من عدة اماكن في باريس وعليها بلاطة حمراء كتبت فيها اشهر وقائع هذا البطل والناس يقصدون سراي الانڤاليد من كل صوب لرؤية قبر نابوليون وقلَّ ان يأتي باريس فرد من الناس ولا يرى هذا الاثر العظيم وهو منظر رهيب مهيب يشعر الواقف امامهُ بعظمة الاثر الموجود فيهِ ويذكر عبر الدهر وغيرَ الزمان

ومن ذلك القصر سرت الى (شان ده مارس) وهو متسع من الارض اشتهر في الاعوام الاخيرة لان المعارض العموميَّة اقيمت فيهِ ومعظم استعراضات الحامية الباريزيَّة تتم في بعض جوانبهِ. وهنالك كان نابوليون الاول يستعرض جنودهُ حتى انهم اطلقوا عليهِ الى حين اسم ميدان نابوليون. ولما عيّن لويس فيليب ملكاً لفرنسا بعد سقوط نابوليون حلف يمين الامانة للدستور هو والوزراء وقواد الجيش والاساطيل ونواب الامة في ذلك الميدان ايضاً جَروا بذلك على خطة قدماء الفرنسيس الذين كانوا يجتمعون من بعد ايام كلوڤيس في هذا الموضع لسن الشرائع وتقرير الامور

العظيمة . وقد حدث في الشان ده مارس كثير غير هذا من الحوادث التاريخية يضيق المقام عن سردها

ولما كانت المعارض قد اقيمت في شان ده مارس هذا كما تقدم فان اثر المعرض الاخير باقٍ فيهِ الى الآن واجل ما يذكر من هذه الآثار برج ايفل المشهور الذي يعد الآن من غرائب الصناعة واجمل آثار التمدن الحالي بني سنة ١٨٨٨ و١٨٨٩ للمعرض العام كما علمت برأي مهندس مشهور اسمهُ جورج ايفل نال من حكومة بلادهِ وسام اللجيون دونور حين نجز العمل ونصب علم فرانسا على قمة هذا البرج الشاهق وقد جعلوا علوهُ ٣٠٠ متر او الف قدم وهو اعلى بناء في الارض يليهِ في العلو كنيسة كولون وهي لا تزيد عن ١٥٩ متراً والهرم الكبير وعلوهُ الآن ١٤٦ متراً واكثرهُ من الحديد فاذا وزن حديدهُ لم يقل ثقلهُ عن ٧ ملايين كيلو وفيهِ ٢٥ مليوناً من المسامير وهو يشغل من الارض عند قاعدتهِ ١٦٧٠٠ متر مربع وقد جعل ثلاث طبقات يصعد اليها بدرج كثير او بالآلة الرافعة وهي المعول عليها عند الاكثرين يمكن ان ينقل بواسطتها الى الطبقة الاولى ٢٣٥٠ شخصاً في الساعة ومثلها للطبقة الثانية و٧٥٠ للطبقة الثالثة ويمكن لعشرة آلاف نفس ان تجتمع في جوانب هذا البرج في آنٍ واحد ويستغرق الصعود والنزول بهذه الآلة ٧ دقائق ما بين اسفل البرج واعلاهُ وفي رأسهِ نور كهربائي يظهر على بعد شاسع من جميع الجوانب والرجل اذا وقف في الطبقة العليا منهُ رأى باريس وضواحيها تحت يدهِ ولها منظر يسحر العقول . والبرج مبني على شكلٍ هرمي بمعنى انهُ كثير الاتساع عند اولهِ ضيق عند رأسهِ وفي كل طبقة من طبقاتهِ غرف وقاعات واسعة للمطاعم والقهاوي التي يعد القعود فيها من اجمل انواع النزهة . وهنالك ايضاً محل للبريد ومخازن صغيرة تباع فيها الاشياء الجميلة تذكاراً لزيارة البرج وقد كانت جريدة

الفيغارو المشهورة تطبع بعض اعدادها في الدور الاول من هذا البرج في سنة المعرض وهو بوجه الاجمال من اجمل ما جادت بهِ قرائح المهندسين لا ريب انهُ اكثر مشاهد هذا الزمان غرابة وقد اقامتهُ شركة نالت بهِ امتيازًا لمدة ٢١ سنة فجمعت نفقاتهُ مدة المعرض وكل ايرادهِ في المدة الباقية ربح لها خالص فان عدد الذين صعدوا الطبقة الاولى منهُ في تلك المدة ١٩٦٨٢٨٧ والثانية ١٢٨٣٢٣٠ والثالثة ٥٧٩٣٨٤ فمجموع ذلك اكثر من اربعة ملايين شخص في مدة ستة اشهر وفي هذا من الاقبال العظيم ما لا يخفى

وتجاه برج ايفل قصر بديع هو قصر تروكاديرو سمي باسم قلعة في مدينة قادس ببلاد اسبانيا ملكها الفرنسيون سنة ١٨٢٣ وقد بني هذا القصر لمعرض ١٨٧٨ على شكلٍ يقرب من المستدير ونسقٍ شرقي فيهِ قاعة فسيحة يمكن ان يجتمع فيها ستة آلاف نفس ولها قبة قطرها ٥٨ مترًا ومتحف عظيم القيمة للحفر والنقش جمعوا فيهِ من ابواب الكنائس والجوامع ومن امثلة الحجارة المنقوشة ما يعسر عدهُ وقد نقلوا رسم اكثر النقوش المشهورة بالجص ووضعوا شكلها في هذا المتحف حتى ان زيارتهُ تعد عند اهل النظر من اهم ما يجب على الزائر فعلهُ في باريس. الى هنا ينتهي بنا الكلام عن مشاهد باريس التي تُرى في الطريق الذي اتبعناهُ ولا يضيع معها الوقت وقد اختصرنا في ذكرها كل الاختصار نظرًا الى شهرتها الذائعة وعدم افتقار الاكثرين الى الايضاح عنها وعلى ذلك فنحن نتقدم الآن الى وصف المشاهد الاخرى الكائنة في داخل المدينة

واحسن ما يكون للتفرج على مشاهد باريس التي لم نذكرها بعد ان يبدأ من ميدان الاوبرا الكبرى لانها واقعة في مركز القسم الاهم من المدينة وهي بناء فخيم عظيم اتفق الواصفون على انها احسن مرسح للتمثيل والموسيقى في الارض كلها وانهُ لو

عدَّت الابنية التي توءَثر في نفس الناظر اليها من خارجها وداخلها فوق تأْثير الابنية الاخرى لقال هي ثلثة الاوبرا في باريس والكنيسة المشهورة في ميلان وسراي المحاكم في بروكسل . وقد بنيت هذه الاوبرا الباريزيَّة في وسط الشوارع الكبرى وملتقى الدروب الشهيرة فهي نقطتها ومركز بهائها وعظمتها بدأُوا بها سنة ١٨٦٧ فتم البناء سنة ١٨٧٤ ولا حاجة الى القول ان كل الذي يمثل بها من نوع الاوبرا المعروف وهم ينتقون لها اكبر الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات ولها من الحكومة الفرنسيَّة اعانة من المال سنويَّة فهي تحت مراقبة الحكومة الى حدّ معلوم . ويعسر على القلم ان يصف جمال هٰذا المرسح العظيم وآيات حسنهِ الغريبة ولكن الذي يعلو عن غيرهِ فيها قدرًا وقيمة قاعتها الوسطى حيث يتم التمثيل وهي كلها اعمدة مذهبة ونقوش دقيقة ومقاعد فاخرة وسقوف تلمع وجدران تسطع وحاجات بلغت الغاية القصوى من الانقان والجمال في كل موضع يصعد اليها الصاعدون على سلم غريب الوضع صنعت درجاتهُ من المرمر الابيض وفوقها سياج بديع من الرخام الاحمر وجدران من الرخام الاسود والاخضر والازرق فاذا ما صعد الداخل هذه الذرى رأى من كل جانب اناسًا يصعدون وينزلون في الفروع الباقية من هٰذَا السلَّم العجيب حتَّى انهُ ليظن نفسهُ في بلاد الجن لا يدري لها جانب من جانب ويزيدهُ ذهولاً فخامة ذٰلك الموضع المذهب رخامهُ الساطع زجاجهُ وفيهِ نخبة الرجال والنساء بافخر الحلل وانفس الملابس واثمن الجواهر ترى في النور الكهربائي فوق ذٰلك السلم البديع على شكل من الجمال يفتن القلوب فيتمنى المرء لو تقضى ايامهُ في مثل ذٰلك الموضع العجيب . والناس يخرجون من قاعة التمثيل بين الفصل والفصل للتمشي في رواق ما وصف مثلهُ الواصفون كلهُ رخام صقيل وبلور نضيد وذهب وضاح واطلس نفيس ونقوش بلغت حد الاعجاز في عرف اهل الصناعة وهو طويل متسع

المجال تتفتل فيهِ القدود القتالة في تلك الفترات وتتورد الخدود وتكثر النظرات وتتهادى ربات الدلال بعجيب الازياء وبينهنَّ الآيات البينات فينسى المرء في ذلك الرواق ماضي الحادثات ويقول سلام لباريس وما فيها من عجائب الكائنات

فاذا ما انتهى الزائر من التمتع بنعمة النظر الى هذه الاوبرا داخلها وخارجها فما عليهِ الاَّ السير في طريق نخيم تجاهها يعرف باسمها (اڤنو ده لوبرا) وهو من اهم شوارع باريس فيهِ من المخازن العظيمة والابنية الجميلة عدد كبير وفي آخرهِ القصر الملوكي بناهُ الكاردينال ريشيليو الذي ورد ذكرهُ في الخلاصة التاريخيَّة في سنة ١٦٣٦ واهداهُ الى الملك لويس الثالث عشر وكان الملك فيليب يقضي اكثر ايامهِ فيهِ بالاسراف والتبذير حتَّى انهُ لما كثرت حاجتهُ الى المال بنى في القسم الارضي من هذا القصر مخازن ودكاكين اجرها للتجار حتَّى يستفيد من اجرتها ولم تزل هذه المخازن في جانب من القصر الملوكي الى الآن وهي او اكثرها لباعة الحلى والجواهر. وقد كان من امر هذه الدكاكين ان الرجل كاميل دي مولين الذي جهر بالعصيان ونادى بالثورة العظيمة قبل غيرهِ كان من اصحابها واشتد بهِ العوز وهو يرى من فوقهِ اسراف الملك وذويهِ فتبعهُ جماهير الناس الى الباستيل وهي قلعة قديمة كان اصحاب الذنوب السياسيَّة يسجنون فيها بلا محاكمة واستولوا عليها بعد جهاد عنيف وكان ذلك يوم ١٤ يوليو من سنة ١٧٨٩ فعدَّ ذلك النهار بدء سقوط الاستبداد وقيام الحريَّة وهو عيد الجمهوريَّة الفرنسيَّة الى هذا اليوم. وعبث اهل الثورة بجزءٍ من هذا القصر الملوكي في ايام ثورتهم ثم رد الى حالهِ على عهد نابوليون الاول وفي ايام لويس فيليب عادت اليهِ ابهة الملك لان الرجل جعلهُ مقرهُ مثل من تقدمهُ من آل بوربون ولما ثار الفرنسيس ثورتهم الثانية في سنة ١٨٤٨ دخلوا هذا القصر مرة أُخرى ودمروا بعضهُ ثم أُعيد الى حالهِ واقام فيهِ البرنس نابوليون ابن عم نابوليون الثالث امبراطور

فرانسا حتى اذا عاد الناس الى الثورة بعد حرب ١٨٧٠ دخل جماعة الكومون الثائرين هذا القصر واحرقوا منهُ جانباً كبيراً ومن ذلك الحين قلّت اهميتهُ

واذا سار المرء من هذا القصر توّاً الى ناحية النهر وصل شارعاً كبيراً من اهم شوارع باريس هو شارع ريفولي وقد اطلق عليهِ هذا الاسم تذكاراً لمعركة ريفولي التي سحق فيها نابوليون الاول قوات النمسا في سنة ١٧٩٧ وهم بدأوا بناءهُ سنة ١٨٠٢ على عهد نابوليون فما تم الاَّ في سنة ١٨٦٥ على عهد ابن اخيهِ الذي صار امبراطوراً باسم نابوليون الثالث وطولهُ الآن ثلثة آلاف متر كلهُ قناطر بديعة الصنع من احد الجانبين وتحت القناطر ممرٌّ عريض للمارة ومخازن متنوعة الاشكال ومكاتب لاصحاب الاعمال الخطيرة والى الجانب الآخر حدائق التولري وغير هذا من مشاهد باريس المعروفة . وهنالك وزارة المالية وهي بناءٌ واسع الجوانب كثير الاقسام ومخازن اللوفر المشهورة وهي يعرف اسمها كل من اشترى بضاعة فرنسيَّة بها جميع ما تطلبهُ النفس حتى ان عدد الموظفين من عمال هذه المخازن لقبض الاثمان من المشترين ثلثون رجلاً ومن هذا يتضح اهمية هذه المخازن وجسامتها اذا ذكر القارئ ان اعظم مخازن مصر واكبرها ليس لها غير صراف واحد لقبض الاثمان

ويقرب من هذه المناظر متحف اللوفر المشهور وهو يلزم لوصفهِ كتب ومجلدات ضخمة ولا يمكن رؤية كل ما فيهِ الاَّ بقضاء زمن طويل لان البناء واسع عظيم يضيع الخبير في جوانبهِ ولهُ طبقات ثلث في كلٍّ منها ما يحير العقل من انواع التحف والآثار والنقوش والرسوم ولو اردتَ استقصاء النظر البسيط في بعض ما تقع عينك عليهِ لزم لك على الاقل اسبوعان ولطالما احسَّ المتفرجون على هاتيك الرسوم البديعة بتعب في اعناقهم من كثرة التطلع الى المشاهد التي لاعدَّ لها في هذا المتحف ولا يمكن لنا الكلام عنهُ هنا الاَّ بمثل هذا الاجمال لان الاسهاب

يملأ كتباً برمتها ولكننا نكتفي بالقول ان هذا القصر العظيم كان في اوله مسكناً لملوك فرانسا بدأوا في بنائهِ سنة ١٥٤١ ووسعوه جيلاً بعد جيل وكان آخر ملك زاده حسناً الامبراطور نابوليون الثالث فانهُ وصلهُ بقصر التولري الذي اعده لسكنهِ حتى بلغت مساحة القصرين في عهدهِ ١٩٥٠٠٠ متر مربع . وخرب جزء من التولري في ثورة الكومون بعد خذلان الامبراطور في الحرب فلم تهتم الحكومة الجمهوريَّة لاصلاح القصر ولكنها ابقت بعض محاسنهِ اثراً جليلاً واهتمت للحديقة فجعلتها من منتزهات باريس المشهورة وهي تنتابها العائلات في وقت الفراغ ويضرب المثل بما فيها من الحسن والاتقان

والقسم الاسفل من متحف اللوفر اكثره للآثار القديمة وفيهِ القسم الشرقي بكل غرائبهِ وهو اقسام منها ما هو للآثار المصريَّة ومنها بعض للآثار الروميَّة او الرومانيَّة او الفارسيَّة او الاشوريَّة او غيرها من الممالك القديمة يصل المتفرج من بعضها الى بعض بطرق متعرجة تدلهُ اليها كتابات رقمت فوقها وهنالك التماثيل البديعة من صنع القدماء اجملها تماثيل آلهة اليونان من مثل منرف إلهة الجمال عندهم وهو اجمل ما وجد الى الآن من رسم هذه الالهة وجد في جزيرة ميلو الروميَّة واشترتهُ حكومة فرانسا بستة آلاف فرنك من احد الفلاحين . وعندك في هذا القسم ما يمثل تاريخ الرومانيين برسوم مشاهيرهم ومواقعهم ويعيد الى الذهن ذكر قوة الاشوريين وعظمة المصريين قبل ايامنا بآلاف من السنين بما يرى المتفرج من تماثيل ملوكهم وتحف صناعاتهم وجميل نقوشهم وثمين كتاباتهم على الحجر واجسام كبرائهم المحنطة وغير هذا شيء يدركهُ كل من دخل متحفاً للآثار القديمة ولا يقاس بهِ متحف الجيزة المصري لانهُ قاصر على الآثار المصريَّة واما اللوفر وما كان على شكلهِ من متاحف اوروبا فان آثارهُ تشمل جميع الممالك المعروفة قديماً وحديثاً

وفي الدور الاعلى قسم الرسوم البديعة وهي تزيد عن ثلثة آلاف رسم بعضها تقدَّر قيمتهُ بعشرين الف جنيه او ما يقرب من هذا الثمن . وفي متحف اللوفر هذا صور شتى لمهرة المصورين الفرنسويين وغيرهم بينها كثير لروفائيل المشهور ومنها صور للمصور ميسونيه الفرنسوي الذي توفي من عهد قريب ثمن الصورة الواحدة منها عشرة آلاف جنيه او اكثر ومن هذا يعلم مقدار ما في هذا المتحف من النفائس التي تقدر قيمتها بالملايين من هذه الرسوم صورة يوم القيامة وصورة ابنة فرعون تنشل موسى من النيل وصورة كليوباترا ملكة مصر المشهورة وصوراً دينية تمثل حوادث الانجيل والتوراة او ترسم خيالات المصورين على اشكال فائقة الجمال شديدة التأثير . هذا غير صور المعارك والحوادث التاريخيَّة في البر والبحر وهي كثيرة العدد وافرة الاتقان . وهنالك رواق عظيم القدر والقيمة اسمهُ رواق ابولون وضعت فيهِ نفائس التحف وغوالي الجواهر التي جمعها ملوك فرانسا القدماء واستولت عليها الحكومة الجمهوريَّة بعد سقوطهم فباعت مقداراً كبيراً منها في سنة ١٨٨٧ وابقت هذا البعض في متحف اللوفر اثراً من الآثار التاريخيَّة الجميلة وبينها حجارة ثمينة وحلى باهرة وسيف لنابوليون الاول مرصع بحجارة من الالماس لا يقل ثمنها عن مليوني فرنك وغير هذا شيءٌ كثير . وليس يبعد كثيراً عن اللوفر ساحة ڤاندوم وفيها عمود بهذا الاسم والاسم بالاصل خص بالبرنس ڤاندوم ابن الملك هنري الرابع بنى فيهِ هذا الملك قصراً لابنهِ المذكور وفي محل القصر اليوم فنادق عظيمة وقد نصب فيهِ نابوليون الاول العمود المذكور وارتفاعهُ ٤٣ متراً على قواعد من النحاس والبرونز اصلها ١٢٠٠ مدفع غنمها نابوليون في حروبهِ العديدة وكتب على جوانب العمود وقاعدتهُ تاريخ بعض المعارك ورسومها

ولا بد للزائر في باريس من مشاهدة حديقة النبات العظيمة وهي للنبات

والحيوان معاً فيها من غرائب التاريخ الطبيعي لهذه الموجودات الحية ما تزيد لذة التفرج عليهِ عن كل لذة لان هذه النباتات والحيوانات والطيور والزحافات والاشكال الحية الاخرى جمعت في تلك الحديقة من جميع جهات الارض وانفق على جمعها المال الكثير وفيها بناء لتعليم التاريخ الطبيعي يضم ٢٠٠ شخص يتلقون الدروس وهي تشغل من الارض ثلثين هكتاراً ولها شهرة ذائعة في كل اوروبا

ومن هذه الغرائب ايضاً معمل جوبلين للطنافس النفيسة وهو ملك للحكومة الفرنسية يعمل بهِ مهرة الصناع الذين تلقوا عن آبائهم سر الصناعة بالارث ولا يعرفهُ سواهم ويخرج من ذلك المعمل طنافس وبسط كثيرة الجمال عجيبة الصنع يباع البساط منها بخمسين الف فرنك وستين وماية الف واكثر ما يصنع هنالك يشتريهِ الاغنياء او تبتاعهُ الحكومات ويهدى الى الملوك والامراء والمتاحف العظيمة . ومن اجمل الطنافس التي رأيتها من صنع هذا المحل واحد رسمت عليهِ صورة كارنو رئيس الجمهوريَّة الاسبق وقد وضع في البانتيون . والبانتيون هذا كنيسة قديمة لها قبة عالية ترى من انحاء كثيرة في باريس ولها ٢٢ عموداً نخماً تحيط بخارجها وقد خصت في هذه الايام الاخيرة بمدافن القواد والعظماء لا بد لكل زائر مدينة باريس ان يقصدها ويتفرج على آثار الذين شادوا للدولة الفرنسيَّة فيها آثار العز والفخر واكثرهم من قواد الجمهوريَّة الحاليَّة والجمهوريَّة الاولى رأينا بينهم اسم كارنو الاول وكارنو الثاني الذي ذكرناهُ ومكماهون وروسو وفولتير والفتاة جان دارك وغير هؤلاء من اركان الدولة الفرنسويَّة في كل زمان

ثم انك اذا عدت الى ميدان الاوبرا الذي جعلناهُ مركزاً عاماً للتفرج وسرت الى ناحية الشمال الغربي في شارع ٤ سبتمبر وصلت موضعاً كثير الشهرة في باريس هو البورصة او نقطة الحركة المالية في هذه العاصمة ومحل الاتصال بمتاجر الارض

ومصارفها واموالها حيث يجسُّ الماليون نبض الممالك وتجري الالاعيب الماليَّة الكبرى التي تقود الوزراءَ الى انتهاج النهج الموافق لاصحاب المال فصار المال الآن عقدة السياسات الاوروبيَّة والماليون هم اصحاب الحل والعقد في اكثر الامور الخطيرة . ولايعجبنَّ القارئ اذا قلنا لهُ ان بورصة باريس وبنك انكلترا في لندن هما اهم مراكز السياسة ومقر الحركة التي تدير اعمال الممالك فان في بورصة باريس وحدها تباع اسهم الدين الفرنسي وتشرى وهي تزيد عن ٣٢ مليار فرنك او نحو الف ومائتين وخمسين مليونًا من الليرات الانكليزيَّة . وعندهم اسهم من ديون الممالك الاخرى بمثل هذا المقدار او ما يقرب منهُ واسهم السكك الحديديَّة والمجلس البلدي وغير هذا مما تقرب قيمتهُ ايضًا من مجموع الديون على الحكومة الفرنسية فهم يقلبون بين ايديهم اوراقًا وقراطيس بالوف الالوف ولا عجب اذا اداروا سياسة الممالك باصعاد هذه القراطيس وانزالها ولا غرابة في القول ان الارض لاصحاب المال يديرون شؤونها على ما يوافق مصلحتهم

ومما يذكر كنيسة نوتردام وهي اكبر كنائس فرانسا واشهرها فيها من الرسوم المنزلة على الزجاج ما تقدر قيمتهُ بعشرات الالوف ومئاتها والناس يقصدونها من كل جانب للتفرج على غرائب بنائها ونفيس تحفها . وليس بعيدًا عنها الى الجهة الاخرى من النهر سراي كلوني كانت في سابق الزمن مقرًّا لبعض الملوك وفيها الآن متحف للآثار الثمينة اكثرها من الذهب والفضة وبينها عدد كبير مرصع بالجواهر الغالية وصوانٍ غريبة ومفروشات فاخرة واحذية مزركشة واجواخ مقصبة وازياء قديمة يعمد اليها ارباب الزي في بعض الاحايين وينقلون عنها رسومًا يذيعونها في بعض المدائن ويدعون انها زي حديث فيتهافت الناس على استعمالهِ

ولا بد من القول هنا ان استيفاءَ الوصف يتعب القارئَ فان في باريس شيئًا

كثيرًا لم نذكره بعد من مثل قصر لكسمبورج وهو بني في ايام فرنسيس الاول وصار الآن ندوةً لمجلس الشيوخ . ومجلس البلدية على مقربةٍ من السين وهو قصر عظيم قديم العهد من داخلهِ ولكن اكثر جوانبهِ الخارجيَّة جددت على النسق الحديث ولهُ شهرة كبرى في تاريخ الثورات الفرنسية فانهُ كان مقرًّا للاحزاب الجمهوريَّة في اكثرها ومنها قصر الاليزه حيث يقيم رئيس الجمهوريَّة حالاً وبابهُ في شارع سانت اونوريه وهو من المنازل العظيمة ولكنهُ ليس على شيء من جمال المنازل التي شادها ملوك فرانسا القدماء في ضواحي باريس . ومن الابنية التي تستحق الذكر بعض الفنادق الكبرى وذكرنا بعضها والمخازن العظيمة مثل مخازن اللوفر التي وصفناها ومخازن بون مارشيه ومخازن البرنتان وغيرها . والمراسح واشهرها الاوبرا والتياترو الفرنساوي وقد ذكرناها ومنها مرسح القودقيل والاوديون والجمناز والاوبرا كوميك وغير هذا مما لا يدخل تحت حصر

هذا بعض مما تلزم رؤْيتهُ في داخل باريس واما الضواحي فلا يخفى عن القاريء انهُ ليس في الارض عاصمة تفردت بكثرة الضواحي البهية مثل فرانسا واشهر هذه الضواحي

﴿ قرسايل ﴾ وهي مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن ستين الف نفس بدأَت شهرتها على عهد الملك لويس الرابع عشر الذي جعلها مقره الرسمي مدة الصيف وبنى فيها هو وبعض الذين خلفوهُ في الملك قصوراً لم تزل الى الآن افخم ما شاد الملوك الاوروبيون واكثرها بهجة وغرابة فان القصر العظيم الذي يقصدهُ السياح من كل جانب يبلغ طولهُ ٤١٥ مترًا وفي حديقتهِ الواسعة ٦٠٠ بحيرة وبركة يتدفق منها عشرة آلاف متر مكعب من الماء يرد اليها بالآلات البخاريَّة من مواضع بعيدة ولا تقل نفقة اخراج الماء من هذه الانابيب كل مرة عن ثمانية

آلاف فرنك او عشرة فهم يعانون عن موعد تدفق المياه في حديقة ڤرسايل في
جرائد باريس ويكثر ان يكون ذلك في الشهر مرتين فيتقاطر الناس افواجاً لمشاهدة
ذلك المنظر البديع . وقد صرف على هذا القصر وحديقتهِ الموصوفة ملايين واشتغل
في البناء ٣٦٠٠٠ شخص واجهد الصناع قرائحهم في زخرفتهِ وتحسينهِ حتَّى انك اذا
دخلت قاعاتهِ الواسعة شعرت في الحال بعظمة الذين شادوهُ . ولطالما رأت هذه
القاعات فخرًا وعزًّا لاسيما على عهد الملك لويس الرابع عشر ولكنها صارت مرسحاً
للخلاعة والفسق على عهد لويس الخامس عشر وهو الذي جمع فيها حظياتهِ من مثل
مدام بومبادور وسواها ومهد بتهتكهِ السبيل للثورة العظيمة التي هبَّ الناس لها في
عهد خلفهِ لويس السادس عشر المنكود الحظ

ولما كان هذا القصر الآن مشهدًا عامًّا جمعت فيهِ الادلة على فخر فرنسا
وقوتها السابقة فلا بدَّ ان يحزن المتفرج اذا فطن الى ان البروسيين اجتمعوا بكل
قوتهم في هذا المكان وتوجوا ملكهم ولهلم الاول امبراطوراً لالمانيا كلها في قصر
ملوك فرنسا سنة ١٨٧١ فهناك الرسوم العديدة تدل الى انتصار فرنسا على الالمانيين
وسواهم لاسيما في عهد البطل نابوليون الاول ويمكن للمتفرج اللبيب ان يدرس
تاريخ فرنسا كلهِ من الرسوم المجموعة في قاعة الحروب من قصر ڤرسايل هذا فانها
تمثّل حالة فرنسا وحروبها من ايام شارلمان الى عهد نابوليون وقد قسمت هذه الرسوم
حسب تاريخها ومواضيعها في غرف خاصة بها فان صور الحروب الصليبية مثلاً
وضعت في قسم خاص بها وصور حرب القرم كذلك ومعارك نابوليون المشهورة
في قسم آخر وحرب الجزائر وغير هذا مما يمكن ان يقف الواحد امام الصورة منهُ
ساعة او ساعتين وهو يتأمل ما فيها وما تشير اليهِ من الحادثات الكبرى فالناس
الذين يتقاطرون على ڤرسايل لمشاهدة حديقتها وقصرها وهذه الرسوم يعدون بعشرات

الالوف . ومما يذكر بين غرائب هذا القصر قاعة الزجاج لها ١٧ نافذة كبرى بين كل نافذة ونافذة مرآة كبيرة تنعكس عليها صور المتفرجين والرسوم الجميلة في سقف القاعة ومنظر بعض الحديقة فيتكون من مجموع هذه المناظر ما يعسر على الواصف وصفهُ لاسيما اذا كانت المياه تتدفق من البركة الكبرى وهي تصعد على الف شكل وشكل بعضها يتموج وبعضها يتعرج وبعضها يشق الفضاء شقًّا وبعضهُ يخرج على مهل وبعضهُ ضيق الدائرة وبعضهُ واسعها وفي بعض الاحايين يلونون الماء بالوان تسحر الناظرين في الليل فاذا تمشى الزائر بين ازاهر الحديقة وخضرتها النضرة وكانت المياه على ما وصفنا والناس على اختلاف الاجناس يتمشون امامهُ زال عن قلبهِ الهم ونسي كل ما يوجب الفكر والغم

وعلى مقربة من هذا القصر العظيم في ڤرسايل قصران آخران يعرف احدهما باسم قصر تريانون الكبير والثاني باسم تريانون الصغير . فاما الاول فانهُ بناهُ لويس الرابع عشر لاحدى حظياتهِ واشهر ما فيهِ الآن عربات قديمة فاخرة استعملها ملوك فرنسا الاول في الحفلات الرسميَّة واكثرها من ايام بونابارت وعربات اخرى كثيرة الزخرف استعملها الامراء والسفراء في ايام نابوليون الثالث وهي من الآثار الجميلة . واما التريانون الصغير فبناهُ لويس الخامس عشر وكان مقرًّا لبعض افراد العائلة المالكة ولهُ حديقة جميلة تفتح كل يوم ويقصدها المتفرجون . وفي القصرين رسوم وآثار تدل على الحوادث الماضية في تاريخ فرنسا نكتفي بالاشارة اليها هنا لان وصفها لا يزيد عن وصف الذي تقدم ذكرهُ من امثالها

ويذكر بين هذه الضواحي البهيَّة سان جرمين وهي ايضًا كانت من مصايف ملوك فرنسا في زمان عزهم تبعد ١٨ كيلو مترًا عن باريس ويسار اليها بالتراموَاي البخاري من ميدان الكوكب الذي مرَّ وصفهُ فيمر المسافر باشهى الحقول واجمل

المناظر في طريقهِ منها منظر السين وغابات الكستناء الى جانبهِ ومنها بلدة نولي اشتهرت بكنيسة لها على اسم القديس فردنان وقد بنيت موضع سقط الدوك دورليان (وكان اسمهُ فردنان) ابن الملك لويس فيليب من عربتهِ وقضي الامر بوفاتهِ سنة ١٨٤٢ وهنالك مساكن كثيرة لبعض الكبراء من سكان باريس . وفي هذا الطريق بلدة ماليزون وهي التي لجأَت اليها جوزفين قرينة بونابارت الاولى بعد ان طلقت من زوجها وقضت نحبها في قصر اعدّ لها سنة ١٨١٤ وكان من امر نابوليون انهُ لما سقط من شاهق عزهِ بعد معركة واترلو قصد هذا القصر قبل سواهُ واطال الفكر في ايام اقترانهِ بجوزفين وحبها لهُ ثم سافر منهُ الى انكلترا حيث سلم نفسهُ لدولة الانكليز وكان من امرهِ ما كان. وفي سان جرمين متحف للآثار المعدنية من النحاس والحديد والفضة والذهب وهي تزيد عن ثلثين الف قطعة مرتبة في خزائن ورفوف جميلة من داخل الزجاج وفيها خلاصة تاريخ فرنسا على هذه النقود والآثار والذين ينتابون هذا المعرض كثار وفي جملتهم عدد يذكر من السيدات الاميركيات تدور فيهِ الواحدة منهنّ تتأَمل قطعةً وبيدها كتاب تدرس فيهِ حكاية كل ما تراهُ وهذا شأن اكثر السائحات من الانكليز والاميركان

ومن هذه الضواحي سان كلو ولها ايضاً شهرة ذائعة فانها يوصل اليها بالتراماواي الكهربائي من عند متحف اللوفر ويمر القطار في احسن البقاع وابهى الضياع . وفي سان كلو قصر فخيم كان الامبراطور نابوليون الثالث يقضي بعض الصيف فيهِ وقد اصاب القصر المذكور ضرر كثير من مدافع الجيش البروسي في حرب سنة ١٨٧٠. وفي سان كلو ايضاً مناظر فائقة الجمال ومنازل للاغنياء من سكان باريس او من الذين يعملون فيها مدة النهار ويستريحون بقيَّة يومهم في هذه المساكن البديعة وكثيراً ما يصل اليها الرجال والنساء مشياً على الاقدام من باريس بقصد التنزه او جرياً على

ذات العجلتين المعروفة باسم بيسكل او في العربات لان منظر هذا الموقع من احسن ما يمكن ان تكتحل بمرآه العين. ويمكن الرجوع في نهر السين عن طريق سيفر وهي على مقربة من سان كلو واقعة الى ضفة السين وفيها معمل الفخار الصيني الفاخر المعروف باسم سيفر يزوره الناس كثيراً لشهرته ويباع بعض الذي يصنع فيه بالوف من الفرنكات ثمن كل قطعة . ولباريس غير هذه من الضواحي الجميلة ما نرى ان الاقتصار عن ذكره اولى لكثرته لا سيما واننا قد اسهبنا في وصفها وذكرنا عنها اهم ما يجب ذكره فنتركها الآن ونتقدم الى سواها



بوردو

لما انتهيت من الاقامة في باريس العظيمة قصدت السفر الى بلاد البورتوغال وعرجت في طريقي على مدينة بوردو الشهيرة وهي من اهم المدائن الفرنسوية واقعة على ضفة نهر غارون تبعد نحو ٥٨ ميلاً عن مصبه في الاوقيانوس الاتلانتيكي وكانت من المدن التي استولى عليها الرومانيون في عهدها القديم ثم ملكها العرب وسموها بردال وفتحها الانكليز سنة ١١٥٢ فعادت الى فرنسا في سنة ١٤٥١ ومن ذلك العهد جعلت تتقدم وتنمو حتى صارت الى درجتها الحاضرة من الاهمية والعظمة وهي لها مينا عظيم واسع ترسو به الباخرات الكبرى وتنقل الى شاسع الاقطار مصنوعات بوردو من الورق والمنسوجات والاسماك المقددة واشهر من هذا كله خمر بوردو المعروفة وهي من الذ الخمور وافخرها لا يعرف الناس طريقة صنعها الا في ثلاثة معامل في مدينة بوردو هذه ويصدر من معاملها نبيذ بقيمة ١٢ مليون جنيه في السنة

وكان في بوردو يوم دخلناها معرض مثل معرض امستردام الذي ذكرناهُ فدخلناهُ وكان محافظ مدينة لندن قد عوَّل في ذلك اليوم على دخول المعرض ايضاً والناس يستعدون لقدومهِ وملاقاتهِ . وصعدنا في المعرض اعلى برج جميل وضع في رأسهِ النور الكهربائي فيرى الناظر من اعلاهُ مدينة بوردو بكل اجزائها ولها منظر يذكر وحركة تجاريَّة اهم من منظرها واشهر

وكانت بوردو هذه آخر مدائن فرانسا العظيمة التي زرناها في هذه السياحة فتركتها قاصداً اتمام السفر الى بلاد البورتوغال على مثل ما تقدم وسوف ترى الكلام عن غير هذا من مدائن فرانسا في فصلٍ قادم من فصول هذا الكتاب



البورتوغال

خلاصة تاريخية

ان بلاد البورتوغال تعد من حيث موقعها الطبيعي جزءًا من اسبانيا ولقد كانت مملكة واحدة معها مدة من الزمان واختلط تاريخ الامتين الى ان استقلت بلاد البورتوغال وصارت مملكة ذات شأن في اواسط القرن السابع عشر ولهذا فان كثيرًا مما يذكر عن تاريخ هذه البلاد تراهُ في الفصل القادم عن مملكة اسبانيا المجاورة لها . هذا غير ان الامتين من اصل واحد واميال واحدة وان العرب استولوا عليهما في زمنٍ واحد ولهذا فان الاسماء العربية تكثر في البلادين كما ترى في ما يجيء

ولقد كان الرومان اول من دخل بلاد البورتوغال وفتحها وهم الذين اطلقوا عليها اسم لوزتانيا ولقوا من اهلها عنادًا وبسالةً في الدفاع عن استقلالهم وكان اهل فينيقية وقرطاجنة قد وصلوا البورتوغال ونقلوا اليها الابضعة من قبل الفتح الروماني الاَّ ان ذلك لم يؤثر في حالتها كثيرًا وظلَّت هذه البلاد خاضعة لمملكة رومه من سنة ١٤٠ قبل التاريخ المسيحي الى حين سقوط المملكة الرومانية فتوالت على لوزتانيا او هي بلاد البورتوغال هجمات القبائل المتبربرة التي كثر شرها في تلك الاجيال وظلَّت في حرب مستمرة معها ومع من يجاورها حتى جاءها العرب واخضعوها مع اكثر الولايات الاسبانية في القرن الثامن وسيأتي ذكر العرب في الاندلس عند الكلام على اسبانيا

على ان اهالي اسبانيا لم يسكتوا عن محاربة العرب من بعد هذا الفتح فانهم ظلوا يناوشونهم ويسترجعون منهم الاراضي شيئًا بعد شيءٍ وكانت بلاد البورتوغال الحالية في

جملة الاراضي التي اعيدت الى قبضة الملوك المسيحيين من اهل كاستيل وليون وهم لم يخضعوا للعرب خضوعاً تامًّا في زمنٍ من الازمان حتى ان الفونسو السابع ملك ليون وكاستيل وهب في سنة ١٠٩٥ الاراضي الواقعة بين نهري تاج ومنهو لقريبهِ هنري امير بورغونيا ووهبهُ ايضاً مدينة بورتو فجعل هنري هذا قصبة حكمهِ في بورتو المذكورة ومن ذلك العهد اطلق على البلاد اسم بورتوغال اي بلد بورتو ولما مات هنري ده بورغونيا وخلفهُ ابنهُ الفونسو استبد بالملك وصار ملكاً مستقلاً للبورتوغال فكان ذلك بدء انشاء المملكة

وظلَّ آل بورغونيا حاكمين في بلاد البورتوغال من سنة ١١٣٩ مسيحية الى ١٣٨٥ وكانوا في تلك المدة اكبر اعداء العرب حاربوهم في عدة مواقع مشهورة وردوا غاراتهم المتوالية ثم اضافوا الى مملكتهم شرقاً وغرباً حتى اوصلوها الى حدود البورتوغال الحالية ولما قام فرع جديد من العائلة المالكة في سنة ١٣٨٥ من آل افيز اشتهرت دولة البورتوغال وتقدمت تقدماً عظيماً لاسيما في المتاجر والاسفار البعيدة ولم يقم بين امم اوروبا بعد امة صغيرة مثل الامة البورتوغالية لها فضل على العالم المتمدن بما فعل رجالها من السفر الى ابعد الاقطار واكتشاف الممالك العظيمة والمجاهل العديدة في افريقيا واسيا والبحر المحيط فان الاوروبيين كانوا يعتقدون ان المنطقة الحارة من افريقيا لا يسكنها البشر من بعد الدرجة ٢٩ شمالاً فلما نهض البورتوغاليون في ايام الملك يوحنا في بدء القرن الخامس عشر دارت سفنهم في البحار تحت قيادة الامير هنري ابن الملك المذكور فاكتشفت شطوط افريقيا الشرقية وجزيرة مديرا التي يصدر منها الخمر المعروف باسمها وهي كثيرة الشهرة وكان البرنس هنري هذا اول من زرع الكرم القبرصي فيها وعمرها بقومهِ البورتوغاليين. وتلا هذا الامير كثار من اهل الاقدام دخلوا بلاد جينيا المشهورة بتبرها والعاج وتجاوزوا حدود الاولين حتى قام المكتشف المشهور ڤاسكو دي جاما سنة ١٤٩٧ ووصل بسفائنهِ راس الرجا الصالح وهو الذي اطلق عليهِ هذا الاسم ثم دار من حولهِ وزار بعض شطوط افريقيا الشرقية وخليج فارس وسار من هنالك الى بلاد الهند فوصل مدينة كالكتا فكان هو اول اوروبي رأى تلك الديار ولما عاد الى بلادهِ ومعهُ من الهند وافريقيا وشطوط العرب والعجم دلائل الغنى والحاصلات الثمينة اندفع البورتوغاليون الى الاكتشاف والاستعمار اندفاعاً لا مثيل لهُ وملكوا قسم ملابار من بلاد الهند وجعلوا مدينة جوا قاعدة املاكهم الهندية ثم توسعوا في ذلك فملكوا جزيرة سيلان و بعض سيام وملقا وتقدموا الى الصين وكان اهل اوروبا لا يعرفون عنها شيئاً الى ذلك الحين لولا حكاية رجل من اهل البندقية اسمهُ ماركوبولو وصل في اسفارهِ اليها وروى عنها بعض الغرائب . فاسس

البورتوغاليون مستعمرة في ماكاو ببلاد الصين ومنها وصلوا اليابان وكانوا اول امة اوروبية خالطت هذه البلاد الشرقية العظيمة ونقلت منها واليها المتاجر ونالت الامتيازات التي جمعت من ورائها مالاً كثيرًا

ذلك زمان العز ما رأت بلاد البورتوغال مثلهُ فانها بعد ان تمتعت بهِ وكانت تعد اولى الدول الاوروبية زاحمها الهولانديون وكسروا شوكتها بتغلبهم على سفنها في البحر واغتصاب الكثير من املاكها ثم تقدم عليها ملوك اسبانيا وضموها الى مملكتهم فضاع مجد هذه الامة من بعد ذلك العز وظلت البورتوغال خاضعة لملوك اسبانيا الى سنة ١٦٤٠ حين قام امير براغانسا واعاد الاستقلال للبلاد وصار ملكًا عليها ومؤسس دولة براغانسا المشهورة وكان لهُ وزير عاقل اسمهُ بومبال ساعدهُ على انماء ثروة البلاد وارجاع املاكها القديمة فاعيدت برازيل في اميركا الجنوبية والمستعمرات الافريقية الى حوزة البورتوغال في ايامهِ

وتوالى الملوك من آل براغانسا بعد ذلك فلم يحدث ما يستحق الذكر في ايامهم حتى اوائل هذا القرن حين قام نابوليون الكبير واشترط على البلاد ان تجافي انكلترا وتمتنع عن قبول البضائع من التجار الانكليز وكان ذلك بعض سياستهِ في قهر انكلترا واخضاعها فابى ملك البورتوغال أن يجيب هذه المطالب ولذلك ارسل عليهِ نابوليون جيشًا جرارًا تحت قيادة المارشال جونو لم يقوَ على ردهِ فاضطر الى الفرار مع عائلتهِ ونجا الى بلاد برازيل وهي يومئذٍ من املاك البورتوغال. ولكن الجيش الفرنسي لم يملك هذه البلاد طويلاً فان انكلترا ارسلت وراءهُ جيشًا تحت قيادة ولنتون القائد المشهور انتصر على الفرنساويين وطردهم من البلاد والف جيشًا وطنيًا ضباطهُ انكليز حتى اذا جاءت سنة ١٨٢١ عاد الملك يوحنا واستلم مهام الملك في بلادهِ على حين كثرت متاعبها والقلاقل. وانتهزت بلاد برازيل هذه الفرصة فنادت بالاستقلال واقامت الدون بدرو ابن الملك يوحنا المذكور امبراطورًا عليها وظلَّت على ذلك الى عهدٍ قريب حين صارت جمهورية مثل كل دول اميركا الشمالية والجنوبية . وعند وفاة الملك يوحنا استدعي ابنهُ امبراطور البرازيل للملك على البورتوغال فآثر البقاء في مملكتهِ الجديدة ونصَّب ابنتهُ الدونا ماريا ملكة ومن ذلك الحين كثرت القلاقل في المملكة ووقفت حركة الاعمال ولكن المستعمرات التي بقيت في حوزتها لم تضع منها وهي باقية لها الى الآن بعضها في الهند وهو لا يذكر والبعض في افريقيا الجنوبية عند املاك الانكليز . ولما مات الملك بدرو الخامس سنة ١٨٦١ كانت المملكة قد عادت الى حالها الاول من حيث الهدو وانتظام الاعمال وعقدت محالفة مع انكلترا جعلت النفوذ الانكليزي في لسبون وتوابعها فوق



كل نفوذ وخلف بدرو ابنهُ لويس الاول في السنة المذكورة وكان رجلاً حازماً عاقلاً كثير الميل الى الخير والاصلاح فوطد اركان دولتهِ وعُرض عليهِ تاج اسبانيا فرفضهُ لما يعلم من تقلب الاسبانيين وكثرة الثورات في بلادهم . ومات الملك لويس سنة ١٨٨٩ فخلفهُ ابنهُ كارلوس الاول وهو الملك الحالي يعرف بالسمن وطيب القلب ولهُ شهرة باللغات الحديثة فانهُ يكتب اكثرها كما يكتب لغة بلادهِ وهو حريص على مصلحة بلادهِ ساهر على راحة رعاياهُ ولهُ زوجة اشتهرت مثلهُ بحب الانسانية ولها فعال مشكورة ومآثر مذكورة من هذا القبيل لولا خوف التطويل لذكرنا بعضها في هذا الباب



كارلوس الاول ملك البورتوغال

لسبون

هي عاصمة البورتوغال جئتها من بلاد فرانسا على ما علمت في فصلٍ تقدم هذا وكان سفري في باخرة كبيرة من بواخر الاتلانتيك تمر على شطوط البورتوغال وتذهب منها الى عكره وهي اسكلة السنغال والى جهات اميركا مثل المكسيك والبرازيل وغيرها وكان في الباخرة ركاب كثيرون اهمهم سفير دولة فرانسا في لسبون عائدًا الى مركزهِ . ووصلنا في اليوم التالي خليج بسكي المشهور بامواجهِ واضطراب مياههِ وهو شديد الخطر على السفن والبواخر غرقت فيهِ الالوف غير مرة ولكنهُ كان يوم وصولنا على ما يرام من الهدو والسكينة وقد ملأَت جوانبهُ سفن شتى هذه ذاهبة وهذه آيبة ما بين جوانب اوروبا واسيا واميركا وافريقيا فهو يقرب في ذلك من ترعة السويس التي لا تخلو من باخرة او عدة بواخر تمرُّ منها في كل حين . ولما جاء اليوم الثالث على سفرنا اطلت باخرتنا على جبال البورتوغال وما زلنا نتقدم حتى صارت عاصمة البلاد على مرأى منا ودخلنا جونًا من البحر ما بين سلسلتي جبال ظللنا نسير فيهِ ثلاث ساعات حتى انتهينا الى المدينة فذكرنا ذلك بمنظر البوسفور وضفافهِ ولكن الفرق بين الجهتين واضح فان ضفاف البوسفور ملأَى بالقصور الفخيمة واما هنا فالجبال المطلة على المدينة من ذلك الجون فيها خضرة واغراس واما المنازل المشيدة والمشاهد البديعة فقليلة لا تذكر



والذي يصل لسبون من ناحية البحر يظنها لاول وهلة من المدائن الشرقيَّة لان اكثر ما فيها من البناء مطلي باللون الابيض في ظاهرهِ على ما نرى في بلاد الشرق وهي متوالية الارتفاع من سطح البحر الى تلك الجبال المجاورة لها فكانما ارضها طبقات شيِّدت فيها المنازل بعضها فوق بعض وهي في هذا تشبه مدينة بيروت

بعض الشبه . ولما رست الباخرة بعيدًا عن الشاطيء لوجود الرمال الكثيرة في المينا جاءَ زورق بخاري نقلنا الى البر مع امتعتنا وهنالك نزلنا على الواح خشبيةً رديئة الصنع والوضع وكان وصولنا في بدء الظلام والعمال يريدون تفتيش الحوائج واقتضاء الرسوم الجمركيةً فجعلوا يفعلون ذلك على ضوء سراجٍ صغير رفعهُ واحد منهم بيدهِ فظهر لي من هذا كلهِ مقدار تواني البورتوغاليين وتأخرهم الحالي مع الذي اشتهروا بهِ من الهمة والاقدام والسعي في بعض ايامهم الماضية على ما رأيت في الخلاصة التاريخية. وجملة القول اني لم ارَ عند بدء السياحة في البورتوغال ما يطيّب الخاطر وذهبت حال وصولي الى فندق انشأَتهُ شركة فرنسية ولولاهُ لما كان في المدينة فندق يعول عليهِ السائحون

والمدينة واقعة على نهر تاجوس او التاج كما سماهُ العرب يبلغ سكانها ثلثماية الف نفس وتعرف في كتب العرب باسم لشبونه وهي قديمة العهد وصل اليها تجار صيدا وصور في اسفارهم الغربية واطلقوا عليها اسم أليس اوبو اي الخليج اللطيف وحرّف الاسم بعد هذا فصار لسبون كما ترى وتاريخها مرتبط بتاريخ البلاد العام الذي تقدم ذكرهُ فهي رأت احسن ايام العز في القرن الخامس عشر والسادس عشر ولكنها تهدمت مراراً بفعل الزلازل ولم تزل آثار الزلزال العظيم في سنة ١٧٥٥ باقية فيها ولم يقل عدد القتلى عن اربعين الفاً في تلك المصيبة

وقد تمَّ هذا والناس في الكنائس في يوم عيدٍ هذا غير الذين كانوا في الاديرة والسجون والمستشفيات وغيرها من المواضع العمومية حيث احتشد الناس ونكبوا الوفاً . وكان من زيادة البلوى ان بعض الفارين من الزلزال لجأوا الى شاطيء البحر فثارت موجة شديدة علوها ٤٠ قدماً وتقدمت على هؤلاء المساكين فاغرقت منهم عدداً كبيراً هذا غير ان الحرائق توالت بعد تلك الزلزلة على المدينة

فدمرت كثيراً مما سلم وعممت البلوى فرأَت لسبون في تلك المدة هولاً لم ترهُ من قبلُ وهم الى الآن يذكرون هذه المصائب وما كان من اجتهاد الملك ووزيرهِ بومبال في تخفيف المصاب والتعويض على الاهالي عن بعض ما فقدوا وكان الملك يومئذٍ في الضواحي مع وزيرهِ المذكور فلما بلغهُ الامر استشار الوزير في ماذا يفعل فقال لهُ بومبال ان يا مولاي لندفن الموتى اولاً ثم نعيد بناء المدينة . وقد كانت الثورات الاخيرة وقعود الاهالي عن المتاجر والاسفار بعد تلك الهمة داعياً الى تأَخر المدينة وقلة ما فيها من المشاهد والآثار

على ان هذا التأَخر لم يقعدني عن العمل ودرس ما في المدينة من مناظر تذكر فاني بعد وصولي بيوم واحد اخذت رجلاً من القوم يدلني الى ما فيها وسرت في اول الامر الى ميدان التجارة اقيم فيهِ تمثال الملك يوسف الاول وهو مستدير الشكل يشرف من احد جوانبهِ على البحر وقد اقيمت في الجوانب الاخرى منهُ اهم الابنيَّة والمصالح الاميريَّة في هذه العاصمة مثل الوزارات والبريد والبورصة والجمرك والتلغراف وادارة بواخر الهند والمحاكم وغير هذا وكلها ابنية ليست على شيءٍ خاص من الفخامة والجمال ولكنها ليست حقيرة فهي لا تستحق الاطالة في الوصف لا سيما وان داخلها جعل على نسق غيرها من الادارات الاوروبيَّة وقد تقدم لنا وصفها عند الكتابة عن الممالك الاخرى . ويتفرع من هذا الميدان شارعان هما اهم ما في المدينة من الشوارع اولهما الى اليمين اسمهُ شارع اوجستا سمي باسم احدى ملكات البورتوغال وفي اولهِ قبة نصر نصب من فوقها تمثال الوزير بومبال الذي مرَّ ذكرهُ وثانيهما شارع الذهب وهو مثل نظيرهِ ضيق كثير الاوساخ وهذه حالة الشوارع كلها في مدينة لسبون فانها ضيقة مهملة واكثر ما فيها من المخازن صغير تباع فيهِ الابضعة الرخيصة والسلع التافهة يشتريها الاهالي ولا يقدمون على ابتياع الشيء

المتين لاستيلاء الفقر والجهل على اكثرهم. وقلَّ ان ترى في هذه الشوارع ما تراهُ في شوارع العواصم الاخرى من فاخر اللباس تتهادى بهِ الغيد والاوانس وانيق الرياش تتحلى بهِ جوانب القاعات البديعة والعربات الجميلة تجرها جياد الخيل وتظهر على اصحابها مظاهر العز والترف فان ذٰلك كلهُ نادر الوجود في لسبون والكثير فيها اولاد حفاة يلعبون في الازقة وقد ملأَت الاوساخ ملابسهم وابدانهم ونساء فقيرات الحال يحملنَ فوق الرؤُوس قصعاً مملوءَة سمكاً ورجال يخطرون على مهلٍ برث اللباس وكئيب الوجوه فما ترى هنالك ما يشرح الصدور وينبئك بعظائم الفعال كما ترى في العواصم المشهورة وهذا كلهُ نتيجة الكسل والخمول وقعود الهمة ورضاء الاهالي بسبق الاجانب لهم في مضمار الصناعة والتجارة مع ان بلادهم لها اجمل المواقع الجغرافيَّة في اوروبا كلها واهمها للتجارة والملاحة وهم لم يزل لهم الى الآن مما ملك اجدادهم اراضٍ ومستعمرات يمكن لهم تعميرها واستدرار الخير منها ولكن الهمة فترت والامة اليوم في سبات عميق

ويلاصق هذين الشارعين ميدان يعرف باسم بدرو الرابع احد ملوك البلاد فيهِ تمثال هذا الملك ومن حولهِ المخازن لا تختلف عما وصفنا في اعلاها دور للسكن وفي آخر الميدان هذا الفندق الذي نزلت فيهِ ومنهُ يبتدئ ميدان افنيدا وهو اجمل فسحات لسبون برمتها واوسعها مجالاً فيهِ من غرس وشجر شيء يستحق الذكر والاعجاب والناس ينتابونهُ للتنزه في طرقاتهِ المبلطة بالاسمنت وجوانبهِ المزينة بالزهر والخضرة وقد يجتمعون هنالك في بعض الاحيان فترى نخبة اهل الطبقة الوسطى والعليا في هذا الميدان . وقد نظمت طرق هذا الميدان للناس والعربات تنظيماً لطيفاً واقيم في طرفهِ نصب تذكاراً لاستقلال البورتوغال وانفصالها عن اسبانيا في سنة ١٦٤٠ ولولا ان هذا الميدان في مدينة لسبون ولهُ بعض المحاسن التي ذكرناها

لما فطن الغريب الى انهُ في عاصمة مملكة اوروبيَّة

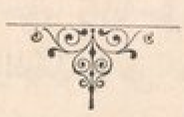
وقد وجد هذا الميدان ما بين جبلين احدهما الى يمينهِ والثاني الى يسارهِ ومنظرهُ يزيد بذلك رونقًا وجمالاً والناس يصعدون تلك الجبال من هذا الميدان اما في الترامواي البخاري باجرة قليلة او في آلات رافعة تحكي التي يستعملونها في الفنادق للصعود والنزول وهي كثيرة هنالك واجرة استعمالها قليلة لا تذكر فلما رأيت القوم يفعلون ذلك ارتقيت الجبل الايسر في الترامواي البخاري ورأيت في اعلاهُ حديقة عموميَّة جميلة عُني القوم بغرس ما فيها وتنسيقهِ واستجلبوا لها غريب الزهر والنبات من اقاصي برازيل والهند ومنظرها يستحق الذكر وهنالك اشجار من النخل عظيمة الساق لم ارَ في القطر المصري على شاكلتها في الغلظ ولكن النخل الذي يزيد عنها في الطول هنا كثير واشجار برازيليَّة لا ورق لها وكلها اغصان دقيقة تتدلىَّ وتشتبك بعضها ببعض وقد كوَّنوا من بعض الاغصان خيمة يجلس تحتها المتفرجون ومنظرها جميل . هذا اهم ما في الجبل الايسر لما ان فرغت من مشاهدتهِ هبطت الوادي الى ذلك الميدان ثم ارتقيت القمة اليمنى في الترامواي البخاري ايضاً واشرفت منها على قرًى عديدة ومزارع كثيرة و بعض الضياع والعمائر والمروج زرعت زرعاً لطيفاً ومنظرها من احسن ما يراهُ السائح في هذه العاصمة

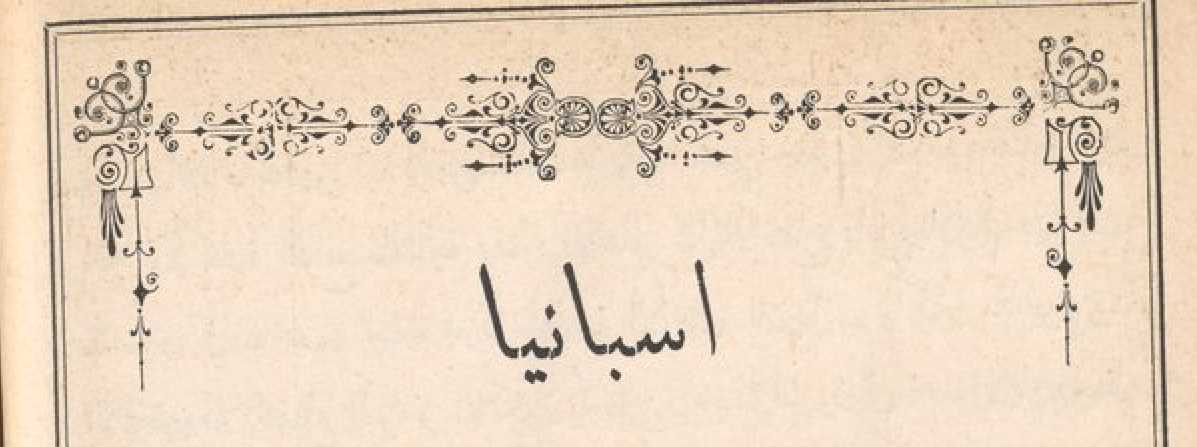
ومن اهم ما يذكر في هذه المدينة قصور الملك وافراد عائلتهِ الكريمة قصدت منها القصر الذي يقيم فيهِ الملك وهو في طرف المدينة بني على رابيةٍ منفصلة عن غيرها تحكي في ذلك تلال الاستانة ودخلت غرفهُ الواسعة وتأملتُ زمانًا في رياشها الفاخر و بنائها المتقن وقليل نظيرها في هذه البلاد . هذا غير ان فيها بعض التحف التي جمعها ملوك البورتوغال السابقون منها ٤٦ عربة كانت تقل هؤلاءِ الاقيال في الازمان الغابرة و اكثرها مذهبة كثيرة الزخرف متقنة الصنع . ومن هذا القبيل

قصر اجودا وقصر بيليم وهما من المنازل الفخيمة لا يسمح لنا المقام بالتطويل في وصفهما . ولكن الذي يستحق الذكر من هذا القبيل ويقصدهُ كل قادم الى بلاد البورتوغال جهة من الضواحي تعرف باسم (سنترا) لها شهرة في اوروبا كبيرة وهي واقعة في جبال صخريَّة صوانيَّة بديعة الجمال حتى انهم يسمونها سويسرا البورتوغاليَّة لفرط حسنها الذي يحكي حسن الجبال السويسريَّة . سرت الى هذه الجهة في قطار الحديد والمسافة من العاصمة اليها ٢٨ كيلوا مترًا وقد بني قصر الملك وغيرهُ من القصور في وسط تلك الجبال البهيَّة فاذا اراد احد الناس الوصول اليها تحتم عليهِ المسير في عسير المسالك بين المشاهد الطبيعية التي يؤَثر منظرها في النفوس لا سيما وانك ترى وانت تتقدم صُعُدًا في تلك المسالك في كل جهة منظرًا يختلف عن الذي قبلهُ ويلذ لك المسير . وقد كان هذا الذي فعلتهُ مع غيري وكنا في عربة كبيرة اوصلتنا الى باب القصر الملوكي فلما نزلنا منها علمنا ان جلالة الملك مقيم وقتئذٍ في ذلك القصر فالدخول اليهِ غير مباح والقصر بني على اطلال قصر عربي قديم فدخلنا الحديقة وهي في راس جبل ولمنظرها بهجة خاصة لانها باقية على الحالة الطبيعيَّة في وجود الصخور المتناثرة المتراكمة والتعاريج والمسالك قضينا نحو ساعتين ما بين صعود ونزول في جوانبها ورأَينا هنالك نبعًا من الماء الحديدي باردًا وتمثالاً للمكتشف فاسكو دي غاما الذي مرَّ ذكرهُ في الخلاصة التاريخيَّة وسبيلاً عربيًّا يتدفق منهُ الماءُ الزلال لم يزل على حالهِ من ايام الدولة العربيَّة وباعلاهُ كتابات عربيَّة محت بعضها الايَّام وقرأْت البعض الآخر وهو (هذا السبيل المبارك على اسم حضرة السلطان عمر والاراضي التي وجدها) والذي يدور في جوانب البورتوغال واسبانيا يرى من هذه الآثار العربية شيئًا كثيرًا . ولسوف ترى في الفصل القادم شيئًا عن بلاد اسبانيا هذه فاني برحت البورتوغال قاصدًا ربوعها بعد ان اقمت هنا ايامًا

ورأيت اهم ما يستحق الذكر من مشاهدها وقد اذهلني خصب الارض هنا وجودة التربة وكثرة المواقع المعدنية وقعود الاهالي عن الانتفاع بما في بلادهم حتى انك لا ترى في عاصمتهم ادارة شركة تجاريَّة الاَّ وهي للاجانب واكثر متاجرهم بيد الانكليز فلا تنقطع البواخر الانكليزيَّة من ميناء لسبون في احد الايام ومعظم الدين على حكومة البلاد لتجار من الانكليز ايضاً فهم اصحاب النفوذ في البلاد حتى ان البورتوغال لتعدُّ في السياسة الخارجية تحت نفوذ انكلترا وحمايتها وهي صديقة لها قديمة العهد ومرتبطة بها ارتباطاً تجاريًّا وثيقاً

وسكة الحديد التي توصل من لسبون الى اسبانيا تبتدىء من جبل فمحطتها يصعد اليها بالآلات الرافعة او بسلم كثير الدرجات . واما المسافة بين العاصمتين فلا تقل عن ٢٤ ساعة في القطار و بينهما ٦٢ محطة ترى الكلام عن بعضها في الفصل القادم





اسبانيا

خلاصة تاريخية

ان اول بلاد اوروبية بعد بلاد الروم ورد ذكرها في الكتابات القديمة هي بلاد اسبانيا هذه فقد جاء في التوراة ذكر ترشيش حيث كان تجار الفينيقيين وتجار اليهود في زمان الحكيم سليمان يترددون لجلب الغنائم وترشيش في اصطلاح الاقدمين القسم الجنوبي من اسبانيا وهو الذي له ذكر في تاريخ البلاد اكثر من سواه . وقد كان تجار صور وصيدا يعرفون شطوط اسبانيا وينقلون منها الاشياء الثمينة قبل التاريخ المسيحي باكثر من الفين وثلثمائة سنة ومن المؤكد انهم عمروا بعض اراضيها وبنوا فيها المدائن مثل قاردش وملاغه وكوردوبا (قرطبة) في القرن السادس عشر والخامس عشر قبل التاريخ المسيحي

وظلَّ الفينيقيون مستأثرون بخير اسبانيا زمانًا حتى انتبه اليونان اليها في القرن التاسع قبل التاريخ المسيحي وجاء بعض التجار والمخاطرين من اهل رودس اليها فاسسوا مستعمرة روديا وهي روزاس الحالية في ولاية كتلونيا وتلاهم غيرهم من اليونان ايضًا فتراجع الفينيقيون امامهم حتى كانت سنة ٤٨٠ قبل المسيح واشتبك اكثر اليونان في حروبهم مع الفرس فجاء اهل قرطاجنة وهم من اصل فينيقي وملكوا اراضي الاندلس وبلنسية وكتلونيا واسسوا مدينة قرطاجنة الجديدة فكثرت ارباحهم وزادت متاجرهم حتى اذا قويت شوكة الرومانيين وكبر سلطانهم تطلعوا الى هذه البلاد الغنية وحسدوا القرطاجنيين على ما يربحون منها فبدأوا بالتداخل في سنة ٢٢٢ قبل المسيح ومن ذلك العهد بدأ التنافس بين الدولتين ولم ينتهِ الاَّ بعد حروب هائلة سحقت فيها قرطاجنة سحقًا وفاز الرومانيون في بدء القرن الثاني قبل الميلاد

بالاستيلاء على اسبانيا ولكنهم ظلوا نحو مايتي عام يحاربون اهلها الاشداء ولا يقدرون على اخضاعهم اخضاعاً تاماً حتى انتهى الامر بالفوز التام لدولة الرومانيين في عهد الامبراطور اوغسطس قيصر سنة ١٩ قبل الميلاد وما انفقت دولة رومه مالاً ورجالاً على فتح بلاد مثل ما انفقت على فتح اسبانيا في تلك السنين الطوال ولكنها شعرت بالربح بعد الاستيلاء عليها وعلمت انها لم تضع تلك النفقات سدىً . وصارت اسبانيا بعد ذلك اهم ممالك الرومانيين استوطنها كثيرون منهم وولد فيها بعض من اشهر قياصرتهم واعظمهم مثل تراجانوس وادريانوس وماركوس اوريليوس وكذلك قام من اهل قرطاجنة مدة زهائها اعظم القواد في اسبانيا واشهرهم اسدروبال وهنبال القائد الافريقي العظيم الذي لم يذكر التاريخ ابرع منهُ في قيادة الجنود وتدبير المواقع

وكان اهل اسبانيا على عهد الدولة الرومانية مثل غيرهم من عبدة الاصنام وهم اهل خشونة وشدة فما دخلت الديانة المسيحية بينهم الاَّ بعد انتشارها في الشرق واهل البلاد يزعمون ان مار يعقوب احد الرسل وصلها وبشر الاهالي بالانجيل فيها ولكنها ما لبثت ان اعتنق اهلها هذا الدين بعد اضطهاد القياصرة الرومانيين حتى صارت من اشهر مراكزهِ وكان لاسقفها هوسيوس كرسي الرئاسة في المجمع النيقاوي المشهور الذي عقد سنة ٣٢٥ في نيقية وبقيت على حال واحدة من الخمول والتأخر حتى انقراض الدولة الرومانية وتسلط الاقوام المتبربرة على اراضي تلك الدولة المشهورة . وكانت اسبانيا مطمع هؤلاء الفاتحين لما اشتهر عن خصب ارضها وجودة هوائها فلما جاءت قبائل الغوث في سنة ٤١٠ بعد المسيح لمحاربة الرومانيين أخذت اسبانيا قبل غيرها واستولى الامير اتولفوس عليها فصار ملكاً لدولة كبيرة حكمت هذه البلاد ثلثماية سنة ولم يكن لهذه الدولة الغوثية شهرة في شيء سوى الخمول والمظالم وكان اول من ملك اسبانيا كلها من هؤلاء الملوك رشلان سنة ٤٣٨ وخلفهُ كثيرون اشهرهم اورك وهو الذي استولى على جنوبي فرانسا سنة ٤٦٦ وورثها من بعدهِ الملوك حتى اذا بدأ القرن الثامن بعد المسيح صارت الدولة الى حالة الضعف من جبن ملكها رودرك وكثرة المضادين لهُ والساعين في دس الدسائس . وكان من امر هؤلاء المضادين انهم لما اعيتهم الحيل في خلع الملك رودرك استعانوا بالعرب من اصحاب الغرب الاقصى فلبى العرب الدعوة وارسلوا على اسبانيا جيشاً صغيراً تحت قيادة الامير طارق بن زياد وكان هذا الجيش لا يزيد عن ١٥٠٠ محارب دخلوا اسبانيا من عند جبل كالب الذي سمي بعد ذلك جبل طارق باسم هذا الفاتح في آخر شهر ابريل من سنة ٧١١ مسيحية وكان في ذلك سقوط الدولة الغوثية وقيام الدولة العربية



وقد كنت اتمنى لو يمكن لي التطويل في سرد وقائع العرب وتاريخ الاندلس الشهي لولا ان المقام ليس للتاريخ والمراد لمحة يفهم منها القارئ خلاصة ما مرَّ على البلاد التي نريد وصف مشاهدها وعلى هذا فاذكر ان نجاح الامير طارق في اول الامر جرأ الامير موسى نائب الوليد وهو يومئذٍ الخليفة الاموي على ارسال جيش آخر قادهُ بنفسهِ والتوغل في البلاد فلما رأى الملك رودرك ذلك قام لمحاربة الهاجمين بجيش جرار قادهُ بنفسهِ وعدد افرادهِ تسعون الفًا ودارت رحى الحرب عند قرية زيرس وهي تقرب من موقع قادس المشهور ثلاثة ايام متوالية كُسر بعدها الاسبانيون كسرًا تامًا وتفرقوا في جوانب الارض فوقعت البلاد برمتها في قبضة العرب لاسيما وان الملك رودرك نفسهُ قتل في تلك المعركة ولم يخلفهُ على الملك احد وكان جيش العرب في معركة زيرس لا يزيد عن ١٨ الفًا تحت قيادة موسى بن نصير الذي ذكرناهُ . وكان طارق بن زياد قد اخضع عدة مدائن قبل وصول الامير موسى في جملتها ملاغه وكوردوبا (قرطبة) وطوليدو (طليطله) فلما انتهى الامير موسى من زيرس تقدم على بقية المدائن مثل سفيل (اشبيلية) وبيجا ومرتولا وغيرها وملكها على عجل فما مرَّ زمان على موسى وطارق حتى اخضعا كل اسبانيا ما خلا البلاد الجبلية الواقعة في الشمال وهي بلاد كاستيل واستوريا ظلّت مستقلة كل مدة الدولة العربية ونشأ منها بعد ذلك الملوك الذين طردوا العرب من البلاد على ما يجيء وكان اهل هذه البلاد الجبلية في كل زمان اصحاب البأس الشديد في محاربة الاعداء لم يقوَ عليهم فاتح في زمن من الازمان وما زالوا من اول عهدهم اصحاب اليد الطولى في استقلال اسبانيا وتوحيد كلمتها حاول العرب في اول الامر اخضاعهم فرأوا من صعوبة مراسهم ما ردهم عنهم واستمرَّت مملكة العرب نامية في اسبانيا ومملكة استوريا هذه الى جانبها والعرب لا يقربونها حتى ايام المنصور وذلك بعد الفتح بنحو مايتي عام وهو ايضًا اخفق سعيًا مع هؤلاء القوم البواسل

وما زال الولاة من العرب يتوالون الامارة في اسبانيا من قبل الخليفة الاموي حتى عام ٧٥٥ حين جاء البلاد الامير عبد الرحمن الاموي فارًا من وجه العباسيين بعد انقراض الدولة الاموية فنال لحسن حظهِ واتساع مداركهِ تعضيد الاكابر وصار ملكًا لاسبانيا كلها واسس دولة العرب العظيمة وفصلها عن الخلافة العباسية فكان ذلك بدء عصر مجيد لاسبانيا لم ترَ نظيرهُ في ما مرَّ من تاريخها لان عبد الرحمن كان رجلاً عالمًا عاقلاً محبًا للخير ساعيًا في ترقية بلادهِ وتهذيب الافكار مقربًا لرجال العلم والادب خيرًا على الكتاب والشعراء شاد العمائر واقام للعلم صروحًا كثيرة ولما دنا اجلهُ جمع من حولهِ الولاة والقواد واوصاهم بالخضوع لابنهِ

هاشم من بعدهِ وكان ذلك في سنة ٧٨٧ مسيحية

وكان هاشم مثل ابيهِ عادلاً حكيماً عاقلاً فاقتفى خطواتهِ وزهت المملكة في ايامهِ وتقدمت تقدماً عظيماً ولكنهُ اصابهُ ما لم يصب اباهُ من هجوم اهل الشمال على بعض املاكهِ وارتداد جنودهِ عنها وبدأ امراء الاسبان من ذلك العهد يستعيدون سابق عزهم والعرب يتقهقرون ويخسرون بعض الامارات مدة هاشم والحاكم ومن تلاهما من الملوك حتى قام عبد الرحمن الثالث سنة ٩١٢ وكان ملكاً عظيماً واسع العقل كبير الدراية فاعاد الى مملكة العرب عزها الشائخ واسترجع الصولة المفقودة وهو الذي بنى قصر الزهراء عند قرطبة وسيجيء ذكرهُ يعدُّ اعظم ملوك العرب في اسبانيا وايامهُ احسن ايام هذه الدولة الزاهرة . وخلفهُ ابنهُ الحاكم الثاني سنة ٩٦١ وكان اشهر امراء العرب في حب العلم وتقريب العلماء ورأت البلاد على عهدهِ عزاً كثيراً فلما مات خلفهُ ابنهُ هاشم الثاني وهو صبي في الحادية عشرة من عمرهِ فتولى الوصاية الامير محمد بن عبد الله الملقب بالمنصور وهو اعظم قواد العرب في ايام تلك الدولة الكبيرة قاد الجيوش الى ساحات النصر وكان اكبر ضربات الزمان على اهل اسبانيا الذين لم يرضخوا لحكم الدولة الاسلامية فانهُ ظلَّ ٢٥ سنة يرسل عليهم كل سنة مرتين جيشاً قوياً يقودهُ بنفسهِ مرتين فيذيقهم البلاء الاكبر ويخرب معاقلهم ويقتل الالوف من رجالهم وينهب خير بلادهم حتى لم يبقَ في حوزتهم غير جبال استورياس الوعرة ولما جاءت سنة ١٠٠٠ استعدَّ استعداداً عظيماً لاستئصال شأفة المعادين واخضاع البلاد كلها للدولة الاسلامية فكان في تلك الشدة وذلك الاستعداد الهائل اصل البلاء على الدولة الاسلامية لان الاسبانيين شعروا بضيق كبير وهالهم قصد المنصور وفعالهُ الماضية فاتحدوا بعد الانقسام وتعاهدوا على الدفاع ومحاربة العرب بلا انقطاع حتى اجتمع لديهم قوة عظيمة اقسم افرادها على التفاني في محاربة العرب فلاقاهم المنصور عند قلعة النصر وحاربهم زماناً حرباً عنيفة هائلة لم يتم فيها النصر لاحد الجانبين ولكنها انتهت بالخذلان لجيش العرب لانهم رجعوا عن البلاد غير غانمين وتقوت شوكة الامراء المتحدين فما اطاق المنصور صبراً على هذا الخذلان ومات كمداً سنة ١٠٠٢ فكان موتهُ آخرة العز والسؤدد للدولة العربية في اسبانيا ولم تقم لها قائمة بعد ذلك

ولما شعر امراء اسبانيا بالقوة بعد هذا زادوا جرأة وكان من امرهم ان فرناندو الاول ملك كاستيل ضم بلاد ليون الى مملكتهِ سنة ١٠٣٧ اذ اقترن بصاحبة تلك البلاد ومن ثمَّ نشأت دولة اسبانية قوية هي اساس الدولة الحاضرة . وتقدم فرناندو هذا على بلاد مدريد



وطليطلة وضرب الجزية على اهلها من العرب وملكها ابنهُ الفونسو من بعدهِ في سنة ١٠٨٣ فعادت الى قبضة الملوك المسيحيين بعد ان ملكها العرب ٣٧٤ سنة . وكان من سوء حظ العرب وقتئذٍ انهُ كثر التحزب والانقسام بينهم فصار ملوك كاستيل يأخذون البلاد منهم ولاية بعد ولاية حتى ان الفونسو الثاني لقب نفسهُ سنة ١١٣٥ ملك اسبانيا كلها لانهُ لم يبقَ للعرب غير القسم الجنوبي منها ولما جاءت سنة ١٢٣٨ رحل كل العرب عن اسبانيا واموا ولاية جرنادا (غرناطه) حيث اسسوا دولة جديدة دامت بعد سقوط دولة الاندلس العظيمة ٢٥٠ سنة ولكنها كانت دولة ضعيفة عاشت بانقسام امراء اسبانيا وتضاغنهم وكانت في اكثر مدة وجودها تدفع جزية الى ملوك كاستيل

وكان اول ملوك غرناطه محمد الاول عاقلاً محبًا للعلم مثل الذين اسسوا دولة الاندلس وهو الذي بدأ ببناء قصر الحمراء المشهور سيجيء ذكرهُ وخلفهُ سنة ١٢٧٣ ابنهُ محمد الثاني فسار على خطتهِ واتمَّ بناء الحمراء وعضد رجال العلم . ثم تلاهُ ملوك آخرون لم يشتهروا بشيء يذكر وكانت دولتهم تزيد ضعفًا وتقهقرًا حتى قام فرناندو الثاني ملك اراجون واقترن بايزابلا ملكة كاستيل فضمَّ المملكتين وصيرهما دولة واحدة قوية في سنة ١٤٦٩ وكان ذلك بدء عصر جديد لاسبانيا ومجد عظيم لم يخطر على البال فان هذا الملك اكتشفت اميركا في ايامهِ وكانت اسبانيا السابقة الى الاكتشاف وامتلاك تلك القارة الواسعة . ثم جعل فرناندو همهُ طرد العرب من اسبانيا كلها حتى لا يبقى فيها ملك سواهُ وكانت امرأتهُ الملكة ايزابلا نشيطة مثلهُ وافقتهُ على رأيهِ فاثار على مملكة غرناطه حربًا شديدة واصلاها نارًا حامية وكان ملكها يومئذٍ واسمهُ ابو عبد الله رجلاً ضعيفًا لم يقوَ على خصمهِ الشديد فسلم البلاد لهُ سنة ١٤٩٢ ورحل مع قومهِ الى شطوط افريقيا وبذلك انتهت ايام العرب في اسبانيا

ولما مات فرناندو بعد امرأتهِ في سنة ١٥١٦ كانت اسبانيا دولة واحدة قوية وليس فيها من العرب غير بعض الآثار وكانت اميركا برمتها او ما عرف منها الى ذلك الحين في قبضة هذه الدولة وقد هاجت الخواطر من اكتشاف تلك القارة وبدأ الذهب يرد منها الى اسبانيا والهمم تتحرك ونفض الناس غبار الخمول وقامت اوروبا بعد ذلك الظلام الدامس تحاول التقدم فكانت اسبانيا في طليعة هذه الممالك العظيمة . ولما ولي الملك كارلوس الاول ابن فرناندو هذا كان صاحب اعظم الممالك ثم انتخب امبراطورًا لالمانيا بحق الوراثة لان امهُ كانت صاحبة الحق في تلك المملكة فصار كارلوس الاول ملك اسبانيا وهو شارل الخامس امبراطور المانيا اعظم ملوك الزمان في ايامهِ لم تغب الشمس عن املاكهِ ولم ترَ اسبانيا عزًا مثل عز دولتهِ

فان الذهب تدفقت ميازيبهُ على اسبانيا مدة حكمهِ من اميركا وصولتهُ عمت البلدان لانهُ قهر فرنسوا الاول ملك فرانسا والسلطان سليمان واذل الامراء المعاندين لهُ وبقية تاريخهِ ذكرت في تاريخ النمسا والمانيا . وتنازل هذا الملك العظيم في سنة ١٥٥٦ عن الملك فخلفهُ في اسبانيا ابنهُ فيليب الثاني وكانت البلاد يومئذٍ في اوج عزها ومعظم ثروتها . واقترن فيليب هذا بماري ملكة انكلترا فلما ماتت حاول الاقتران باختها اليصابات التي خلفتها على الملك وغضب من ابائها فصمم النية على قهرها واخضاع بلادها وارسل على انكلترا اسطولاً عظيماً يعرف باسم الارمادا الكبيرة كانت قطعها ١٣٥ وفي ظن الملك فيليب ان مثل هذه القوة البحرية لا تغلب ولكن الاقدار عاندتهُ فحطمت سفن الانكليز هذا الاسطول بقيادة امير البحر درايك وعاد فيليب عن بلاد الانكليز بالخسران . وكان المذهب البروتستانتي قد نشأ في المانيا على عهد كارلوس الاول فلما صار فيليب ملكاً ورأى تقدم البروتستانت ساقتهُ الغيرة على دينهِ الكاثوليكي ونصائح البابا الى ارتكاب الفظائع المنكرة والفعال الوحشية في تعذيب البروتستانت واضطهادهم في كل ممالكهِ وهو الذي اشتهرت عنهُ الاهوال في هولندا حتى ثارت عليهِ على مثل ما تقدم في تاريخها وكان فعل المعذبين والمضطهدين في اسبانيا على منتهى الغلاظة والتوحش حتى لم يعد احد الاهالي يجسر على ذكر المذهب البروتستانتي فامحى من ذلك اليوم ولم تزل اسبانيا كلها كاثوليكية محة

ولما مات فيليب سنة ١٥٩٨ معذباً من اشد الامراض آلاماً خلفهُ ابنهُ فيليب الثالث وتلاهُ فيليب الرابع وهو الذي سلخت البورتوغال عن اسبانيا في ايامهِ سنة ١٦٤٠ وتلاهُ كارلوس الثاني فلما مات سنة ١٧٠٠ حدثت ثورة وحرب انتهت بانتخاب امير من آل بوربون وهم ملوك فرانسا للحكم باسم فيليب الخامس وكان هذا الملك الجديد ابن احدى الاميرات الاسبانيات ويعد من اعقل ملوك اسبانيا هو والذين تلوهُ من آل بور بون فقد كانوا جميعاً اهل حزم وتعقل ظلوا حاكمين من تلك السنة الى ١٧٨٨ حين مات كارلوس الثالث وهو آخر ملوك الدولة البوربونية فحدثت حروب وثورات كثيرة لا محل لذكرها انتهت بعد تولية عدة ملوك وملكات بان كارلوس الرابع تخاصم مع ابنهِ على الملك وحكما نابوليون الاول في امرهما سنة ١٨٠٨ فحكم بعزل الاثنين وجعل اخاهُ يوسف ملكاً للبلاد وكان يوسف عادلاً متأنياً ولكنهُ لم يملك طويلاً لان البلاد قامت عليهِ وجاءت جنود انكلترا لطردهِ فطردتهُ وقائدها يومئذٍ الديوك اوف ولنتون الشهير الذي سحق قوة نابوليون في واترلو . وبعد خروج الجنود الانكليزية عادت الحروب والقلاقل واستقلت ولايات اميركا الجنوبية كلها سنة ١٨٢٠ فصارت

جمهوريات معلوم امرها وهي كان اكثرها للدولة الاسبانية ما خلا بلاد البرازيل فانها كانت تابعة لمملكة البورتوغال وما زال اهل اميركا الجنوبية الى هذا اليوم يعرفون باصلهم الاسباني ولغتهم اسبانية ايضاً. وظل اهل اسبانيا كل يوم ينصبون ملكاً اوملكة وهم لايقر لهم قرار حتى قر رايهم على تمليك الاميرة ايزابلا سنة ١٨٤٣ ولكنهم عادوا وانقلبوا عليها وظلوا في ثورات وحروب اهلية الى سنة ١٨٧٠ حين انتخبوا امادبو الاول ابن ملك ايطاليا فكتور عمانوئيل وما ملك غير ثلاث سنين فانهُ تنازل عن الملك سنة ١٨٧٣ فانتخب الاهالي اميرًا من آل بوربون هو الفونس الثاني عشر والد الملك الحالي كان ذكياً مقداماً اسكن ثائر الاهالي واعاد الطمأنينة الى البلاد واقترن باميرة من آل هابسبرج هي وصية الملك كرستينا الحالية. ومات هذا الملك الطيب بالهواء الاصفر سنة ١٨٨٦ وامرأتهُ يومئذٍ حامل فحكمت مكانهُ وصية للملك حتى ولد ابنها الفونس الثالث عشر وهو الملك الحالي لم يزل صبياً تحت وصاية امهِ وهو اصغر ملوك اوربا سناً ومن القلال الذين كانوا ملوكاً قبل ان يولدوا . وما رأى هذا الملك الصغير عزًّا بل ان المصائب تراكمت على البلاد مدة حكمهِ فان جزيرة كوبا ما زالت متمردة حتى تداخل الاميركان في امرها وحاربوا اسبانيا سنة ١٨٩٨ حرباً شديدة انتهت بفوز الاميركان وفقد جزيرة كوبا وجزيرة بورتوريكو في القارة الاميركية وجزر فيلبين في البحر المحيط فكان ذلك من اكبر الضربات على الدولة الاسبانية ولكنها لم تزل مملكة تذكر لان ارضها اجود الاراضي تربة وليس في الارض بلاد تزيد عنها حسناً طبيعياً واستعداداً لجلب الخير كما انهُ ليس في الارض امة اكثر من امة الاسبان كسلاً وصلفاً وهم على درجة متوسطة في العلوم والمعارف لان المدارس العالية عندهم قليلة والضغط على الافكار كثير واكثر بيوت العلم في اسبانيا للرهبان وخدمة الدين . وفي البلاد الآن احزاب كثيرة متنوعة المذاهب فاعوان الملك الحالي يحسبون لهذه الاحزاب حساباً كبيرًا ولعلَّ اكبر الاعداء لهُ الدون كارلوس المطالب بسرير المملكة وهو سليل الملوك السابقين من آل بوربون لهُ في اسبانيا انصار وقوة كبيرة . ويلي حزب الدون كارلوس في الاهمية حزب الجمهوريين وهم يزيدون عدداً من يوم الى يوم وتنضمُّ اليهم الالوف حتى صار يخشى على النظام الحالي منهم لا سيما من بعد الحرب الاخيرة وخسائرها الهائلة ولكن اعوان الحكومة الحاضرة يثقون ثقةً كبرى بذكاء وصية الملك واقتدارها ويؤملون من الملك الصغير الامال الكبرى فعسى ان تتحقق امانيهم وترى اسبانيا في عهد الفونس الثالث عشر عزًّا وسعداً كثيرًا . وقد عُنيت الملكة كرستينا بتربية ابنها تربية تساعدهُ على ادارة مهام الملك واستعانت بامهر الاساتذة والمربيات

فهو من الآن يتكلم عدة لغات اوروبية وله المام بمبادئ الفنون العسكرية والبحرية. ولقي اولياء الامر عناء كبيرًا في المحافظة على جلالتهِ ورد مكايد الاعداء عنهُ من يوم ولادتهِ لانهم كانوا يتآمرون على خطفهِ او قتلهِ في كل حين فسلمهُ الله من مكايدهم وهو الآن على وشك ان يبلغ سن الرشد ويحكم البلاد باسمهِ



ملك اسبانيا

مدريد

هي عاصمة اسبانيا من منذ ايام فيليب الثاني وسكانها الآن يزيدون عن اربعمائة وخمسين الفاً فيها كثير مما يستحق الذكر ولكنها دون العواصم الاخرى من حيث جمال المباني وكثرة المشاهد واهمية الحركة الماليَّة والتجاريَّة لان اهل اسبانيا كما مرَّ معنا اهل خمول وكسل ولهم شهرة في الانفة والحماسة والقسوة وفي الجمال الشرقي ايضاً فان نساء اسبانيا اجمل النساء في اوروبا يمتزنَ بسواد العين وحسن القد والحيا الى درجة لا تعرف عن غيرهنَّ من اهل الغرب . وكل ما في هذه البلاد من ادارات ماليَّة كبرى للاجانب فهي مثل جارتها البورتوغال ضائع ما لها للالمان والانكليز والفرنسيس وخيرها كثير لا ينتفع الاهالي منهُ الاَّ بالقليل

ومن اهم مافي مدريد ميدان الشمس سمي كذلك لان الاسبانيين يقفون فيهِ تحت اشعة الشمس ويلذ لهم ذلك وهو مثابة الخلق الكثير من عامة الاسبانيين واسافلهم يقضون اوقاتهم فيهِ بالسؤال عن الاخبار والحديث المبتذل والتدخين ولهم ولع بهِ يحكي ولعلهم بشرب الخمر فقلَّ ان ترى اسبانيًا بدون سيجارة في فمهِ او يدهِ حتى ان العامل الحقير يؤدي عملهُ طول النهار وهو يدخن والتاجر يكلمك وينجز الاشغال وهو يدخن ايضاً والحوذي يسوق العربة والسيجارة في فمهِ فهي عادة متسلطة على كل فآت الاسبانيين . واما ولعهم بشرب النبيذ فامر مشهور وقد علموا بالاحصاء انهم يشربون من النبيذ اكثر من كل امة سواهم ويليهم في ذلك اهل فرانسا كما ان الانكليز اكثر الناس ولعاً بالبيرا ويليهم الالمان

قلنا ان ميدان الشمس هذا موضع مهم في مدينة مدريد فانهُ يحيط بهِ وزارة الداخليَّة وادارة البرق والبريد واحسن الفنادق والمخازن وهو يعد اوسط المدينة

وقلبها تتفرع منهُ الشوارع الكبيرة او تنتهي اليهِ واشهر هذه الطرق شارع (الكالا)
او القلعة سمي بذلك لانهُ كان ينتهي في زمن العرب عند قلعة بني موضعها الآن
منازل حديثة الوضع وفي هذا الشارع حوانيت وحانات متقنة ونادي العسكريَّة
ومرسح ابولو ومجلس الوزراء ووزارة الماليَّة وهي بناءٌ ضخم ذات ابواب ثلثة واسعة
ووزارة الحرب داخل حديقة جميلة وينتهي في ميدان آخر اقيم بهِ قوس نصر تذكاراً
لدخول الملك كارلوس الثالث مدريد يتفرع منهُ ثلاثة شوارع الاول يوصل الى
مرسح الثيران ولهُ اهميَّة عظمى هنا سنعود الى بيانها والثاني شمالاً لحارة سلمنكه
والثالث يميناً الى ميدان برادو وهو اهم مواقع هذه المدينة واجملها يكنس ويرش
مرتين في اليوم لان الخلق تحتشد فيهِ للتمشي وسماع الانغام ويقرب منهُ الحديقة
العموميَّة دخلناها فاذا هي واسعة الاطراف مليحة الترتيب يزيد بهجتها بحيرة من الماء
في وسطها وضعوا فيها زورقاً بخاريًا صغيراً يسير عليهِ الاولاد متنزهين فوق الماء
واغراس هذه الحديقة جميلة زاهرة ولكن اشكالها مألوفة كلها وليس فيها شيءٌ غريب
من مستعمرات اسبانيا القاصية

وتحولت من هذه الحديقة الى معرض مدريد المشهور للصور وتحف الصناعة
الدقيقة وهو بلا خلاف احسن معارض الدنيا في شيء واحد هو ان الصور الموجودة
في غرفهِ من عمل المصورين العظام تزيد قيمة وثمناً عما في غيرهِ . صحيح ان اللوفر
الباريزي والناشيونال جالري في لندن فيهما صور اكثر من صور هذا المعرض ولكن
اهل اسبانيا جمعوا اثمن ما صور المصورون الكبار في كل بلاد ووضعوهُ في هذا
المعرض وكان ملوكهم يجودون من مال الدولة بسخاء كثير على ابتياع الصور الثمينة
لهُ واهمها من صنع رفائيل وفان ديك وموريلو وهو اشهر من قام في اسبانيا بالتصوير
الزيتي لا يمكن ان يخلو معرض في اوروبا من بعض رسومهِ البديعة . وقد جمع

مديرو هذا المعرض اثمن ما عندهم من الصور ووضعوها في الدور الاسفل من البناء حتى يمكن نقلها في الحال اذا حدث حريق في المكان وهذا يخالف نظام المعارض الاخرى حيث توضع الصور العظيمة في الدور الثاني من البناء

هذا كلهُ تراهُ في الجهة اليمنى من ميدان الشمس والى ناحية شارع القلعة ولكن الجهة اليسرى من هذا الميدان يتفرع منها شارع عظيم مقابل لشارع القلعة المذكور يعرف باسم مايور وهو يؤَدي الى بعض ما في مدريد من المشاهد الماثورة مثل دار السلاح وهي معرض كبير للاسلحة لا تقل القطع فيهِ عن ١٢٠٠٠ قطعة ومن اهمها ملابس ملوك اسبانيا القدماء واسلحتهم وهم بهيئة الفرسان غرقوا بالزرد فما ظهر منهم غير العيون . وهنالك سروج عربيَّة مزخرفة بالفضة والذهب وسيوف من حديد طليطلة الذي اشتهر في الارض شهرة السيوف الدمشقيَّة واثار اخرى عليها كتابات عربيَّة مثل "نصر من الله وفتح قريب" على شفار السيوف او "بسم الله الرحمن الرحيم" على الملابس وغير هذا مما هو مألوف في هذه البلاد

ويلي دار السلاح هذه قصر الملك بني سنة ١٧٦٤ وبلغت نفقاتهُ نحو ثمانين مليون فرنك لانهُ جعل حصناً متيناً وقصراً فخماً في آنٍ واحد فيهِ ثمانماية غرفة وامامهُ عدة حدائق متقنة الوضع وقد جعلوا الدور الاسفل منهُ لوزارة الخارجيَّة ووضعوا في ساحتهِ تماثيل القياصرة الرومانيين الذين نشأُوا في اسبانيا وذكرناهم في المقدمة التاريخيَّة . واما الدور الاعلى فمنهُ قسم خص بالملك وقسم آخر للمقابلات الرسميَّة والتشريفات وهو لا يقل عن ثلثين غرفة واسعة متقنة الترتيب ثمينة الرياش تليق بابهة الملك وذوق الاسبانيين وهم اهل اعجاب بوطنهم وصلف وكبرياء كما تقدم . وقد رأيت غرفة السفراء في هذا القصر وهي قاعة فسيحة فخيمة ملبسة جدرانها بالقطيفة النفيسة ولها برواز من القصب وفيها ١٢ ثريا كبيرة تتدلى منها

المصابيح العديدة وفي صدرها كرسي الملك ما بين اربعة سباع من النحاس المذهب وتماثيل تشير الى الحكمة والعدالة وصورة الدولة الاسبانية حانية رأسها امام الكنيسة وهي علامة التدين وتمسك اسبانيا بالمذهب الكاثوليكي . وفي هذا القصر كنيسة صغيرة ولكنها بديعة الصنع قامت على عمد من الرخام الابيض وفيها من نفيس الصور وجميل التذهيب والزخارف ما يستحق الاعجاب . وفي الدور الاسفل من هذا القصر موضع للعربات التي اقلت ملوك اسبانيا السابقين واكثرها بني على الطرز الشرقي ولبعضها جمال كثير هذا اهم ما يذكر في عاصمة الاسبان غير مرسح الثيران وبيانهُ في الفصل التالي

قتال الثيران

وقد افردت لهذه العادة الغريبة فصلاً خاصاً بها لانها اهم ما يروى عن اسبانيا واشهرهُ ولان الاهالي لهم بها شغف يقرب من الهوس والجنون وهي عادة وحشية قاصرة على اهل اسبانيا لا تليق بتمدن الايام الحديثة . ولا تزيد هذه العادة عن مجزرة هائلة للخيل والثيران وخطر عظيم لبعض الافراد يلذ للاسبانيين التفرج عليها الى حدٍّ يفوق التصديق فانهم يأتون بثيران كبيرة قويَّة القرون يعلفونها ويحضرونها للقتال في مراسح واسعة ثم اذا جاءَ موعد الفرجة هيجوها وحرشوها ودفعوها الى ذلك المرسح فتجد امامها رجالاً يهيجونها بالشالات الحمراء وبالوخز بالحراب الدقيقة حتى اذا اشتد هياجها جاءَها فرسان يقاتلونها بالحراب فتهيج هذه الثيران وتهجم على الفارس والفرس فتبقر بطن الفرس وتلقي الرجل في الخطر واذا انتهت من فعلها هذا قتلوها وجروها من المرسح مع الخيل المقتولة فالفرجة كلها على هذه الحيوانات كيف تقتل . كل هذا يراهُ المتفرجون رجالاً ونساءً ولا يتأثرون

بل هم اذا اشتدَّ الهول وكثرت فظاعة المنظر ورأوا دماء هذه الحيوانات المعذبة تسيل طربوا وفرحوا وصفقوا لها كثيراً وقد ماتت عواطف الحنان والشفقة منهم بفعل تلك العادة الشنعاء

وقصدت مرسح الثيران في مدريد يوم الاحد فما قدرت على ابتياع التذكرة لدخولهِ الاَّ بعد عناءٍ كثير تكبدهُ صاحب الفندق لان الاقبال على تلك الفرجة كان فوق ما تتصورهُ العقول . ومرسح مدريد اعظم مراسح الثيران في اسبانيا كلها وفي صدرهِ اماكن للاسرة المالكة ومع انهُ يضم خمسة عشر الفاً فما بقي فيهِ موضع واحد خالياً وكان الوصول في ذلك النهار الى المرسح عسراً جداً من كثرة الزحام ووفود القاصدين ومنظر الناس فيهِ وهم ١٥ الفاً غريباً لانهم قعدوا طبقات تتدرج من ارض المكان الى سقفهِ وفي الاسفل ساحة كبيرة للمصارعة يحيط بها حاجز من الخشب غير مرتفع ولكنهُ متين وهو يفصل الساحة عن مقاعد المتفرجين وفي احدى الجهات من تلك الساحة ابواب من الخشب تفتح وتقفل من الوراء ليدخل منها المبارزون والوحوش وكان الناس ينتظرون بدءَ القتال بذاهب الصبر حتى اذا فتح احد الابواب وبدأ الفصل الاول صفقوا كلهم طربين معجبين ودخل ثور كبير جعل يركض في عرض الساحة كانما هو يقول هل من مبارز هل من مناجز فعندئذٍ دخل الساحة رجلان يلبسان الجوخ الاحمر المقصب ومع كلٍّ منهما شال احمر يحرش الثور ويهيجهُ فجعلا يغضبانهِ بابراز الشال حتى هاج وغضب ونجوا منهُ الى ما وراء الحاجز الخشبي الذي ذكرناهُ

ثم دخل رجلان آخران على شاكلة من ذكرنا ومعهما باليد اليسرى شال احمر وباليمنى حراب طول الواحدة نحو متر ونصف ملبسة بالقماش الاحمر ويتدلى منها شرائط حمراء فجعلا يقاتلان الثور بهذه الحراب وهما كلما تقدم عليهما عرضا لهُ الشال

الاحمر فينطحهُ تشفياً منهُ وغيظاً. وبعض هذه الحراب المذكورة تغرز في رقبة الثور وبعضها لا يعلق بها بل يسقط الى الارض ويوجب سقوطها ازدراء الحاضرين كما انهم يصفقون استحساناً اذا غرزت الحربة في رقبة الثور. فلما سال دم هذا الثور واشتدَّ هياجهُ دخل ثلاثة فرسان على الخيل معهم حراب طويلة جعلوا يطعنونهُ كلٌّ في دورهِ فعند ذلك هجم الثور على الحصان الاول ووضع راسهُ تحت بطنهِ فبقرهُ والقاهُ شطرين ثم هجم على الحصانين الآخرين وفعل بهما كالاول حتَّى وقعت الافراس الثلثة تختبط بدمائها واما الفرسان فانهم سقطوا الى الارض لما قتلت خيلهم وفي الحال فروا من وراء الحاجز ما عدا احدهم اغمي عليهِ فبادروا الى اعانتهِ وانتشالهِ حينما كان الثور يدوس جثث الخيل وينظر الى الحاضرين نظر الفائز المنتصر



رسم قتال الثيران

وبعد هذا دخل محارب يسمونهُ توريرو اي الرجل الثوري ومعهُ الشال الاحمر والحربة فجدَّ في محاربة الثور الى حد ان وقف الاثنان ينظران بعضهما الى بعض غيظاً

فحينئذٍ طعن الرجل الثور بحربة في رقبتهِ فاخرجها من الجانب الآخر فلما وقع هذا الثور المسكين قتيلاً هاج المتفرجون طرباً وصفقوا استحساناً وصدحت الموسيقى فرحاً بتلك المذبحة ثم دخلت عربات ورجال جرَّت الجثث الى الخارج . هذا هو الفصل الاول من صراع الثيران يتبعهُ فصلان آخران لا يختلفان عنهُ كثيراً غير انهُ يدخل في الدور الثاني بنات على ظهور الخيل بيدهنَّ الحراب فيحاربنَ الثور ولا يعرضنَ انفسهنَّ ولا خيلهنَّ للخطر بل يلتزمنَ الفرار كلما هجم الثور عليهنَّ

وقد تأثرت من هذا المنظر واذهلني فقد الشفقة من صدور القوم حتى اني عند خروجي من هذا المرسح سألت رجلاً منهم رأيهُ في ذٰلك فاجابني بما يفهم منهُ انهم يعدون في ذلك القتال براعة وجرأة واما الخطر الذي يلحق بالرجال المحاربين فلا يعتدون بهِ لانهم يعدون ذٰلك من اشكال الاقدام ولا بد في رأيهم من قاتل ومقتول في كل معركة . وقد زادني عجباً ان فقد الشعور الى هذا الحد غير قاصر على الرجال بل هو يشمل النساء والاولاد والبنات وهم جميعاً كانوا يصفقون طرباً لتلك المناظر الفظيعة

وفي كل مدينة اسبانية تذكر مرسح لقتال الثيران تنشر اعلاناتهُ في الجرائد فتأتيهِ الناس خاصة في السكك الحديديَّة من الاماكن والقرى البعيدة لما اشتهر عنهم من الولع بهذه المناظر . وقد حاول بعض الفرنسيين ان يدخلوا هذه العادة الى فرانسا وانشأُوا لذلك محلاً في غاب بولونيا في باريس فعارضتهم الحكومة واضطروا الى ابطالهِ . ولا عجب في هذا فان اكثر الامم المتمدنة لا تخلو من عادات وحشية تلام عليها من ذٰلك عادة الملاكمة عند الانكليز ولها مراسح خاصة يتلاكم بها الرجال الاقوياء ويسيل الدم من وجوههم على مرأى من الالوف وهم يفرحون لبلواهم ويطربون ويصفقون للفائز من المتلاكمين

الاندلس

كان جلُّ مرادي من السياحة في اسبانيا ان ارى بلاد الاندلس البهيَّة حيث شاد العرب مملكتهم الزاهرة المشهورة ولهذا فاني قمت من مدريد في قطار الحديد قاصدًا هذه الولاية ومررت في ارض كثيرة المزارع والربى والاجام يزرع فيها الرمان والبرتقال والعنب والتين وغير هذا من اشكال الفاكهة اللذيذة والبقول الخضلة التي تكثر في اسبانيا كلها وفي هذا الاقليم بنوع اخص وهو يرويهِ نهر سماهُ العرب باسم الجدول الكبير وحرفهُ الاسبان فاسمهُ الآن عندهم (جوادالكفير) . وبعد سفر ١٢ ساعة في القطار وصلت مدينة

☼ قرطبه ☼ وهي قديمة العهد في تاريخ اسبانيا كانت مقرًّا لمتاجر الفينيقيين الذين انشأوا فيها معاصر للزيت وانتقاها الرومانيون من بعدهم فجعلوها نخبة المدائن الاسبانيَّة حتَّى ان بعض قياصرتهم ولدوا فيها مثل تراجانوس وادريانوس. كل هذا وهي ما رأت عزًّا عظيماً مثل عز الدولة العربيَّة حين جعلها عبد الرحمن الاموي قاعدة مملكة الاندلس وصارت مقرًّا للعلم والصناعة تضاهي بغداد في ذلك على عهد الدولة العباسيَّة حتَّى ان عدد الجوامع في قرطبه على عهد عبد الرحمن بلغ ٧٠٠ جامع غير المدارس والحدائق والمنتزهات الكثيرة

واني حين وصولي قرطبة نزلت في فندق اوريان بني في ميدان يعرف باسم قبطان باشا وقد تميز هذا الميدان باغراس من البرتقال والنخل جعلت صفوفاً متبادلة يعني انهم زرعوا نخلة تليها شجرة برتقال في طول تلك الصفوف وهم يقصدون من ذلك تمثيل الذوق العربي . وخرجت من هذا الفندق مارًّا بالميدان المذكور فقصدت اثار جامع عظيم بناهُ الامير عبد الرحمن الاول صاحب الاندلس وقصد

من بنائهِ ان يجعلهُ نداً للجامع الاموي في دمشق . ولهذا الجامع شهرة ذائعة فلطالما بالغ كتاب الافرنج في شرح محاسنهِ حتى انهُ ليعدُّ من معجزات الصناعة وانخر ما ترك الاولون للآخرين بني على عمد من الرخام بعضها احمر و بعضها اخضر والبعض ابيض او لها الوان اخرى وعدة العمد كلها من داخل الجامع ٧٥٠ فكانما هي حقل زرع عمداً شهيةً وقد نصبت صفوفها الحسناء تلي بعضها البعض على نسق يمثل للناظر الجمال والفخامة والعظمة في لحظة واحدة . وطول هذا المعبد من داخلهِ ١٦٧ متراً والعرض ١١٩ وصفوف الاعمدة العظيمة فيهِ لا تقل عن ٣٦ صفاً لها مهابة يقصر عن وصفها الشرح الطويل ولهُ مأذنة عريضة يمكن للرجل ان يرتقيها على ظهر الجواد وعلوها ٩٣ متراً ومحراب وقفت امامهُ زماناً اتأمل تلك المحاسن البديعة وهو قطعة واحدة من الرخام الابيض زخرف بالفسيفساء النادرة الانقان وفوقهُ مصباح من الذهب الوهاج ولذلك منظر لا يمحي من الاذهان . ولهُ ايضاً مقصورة صنعت من خشب الابنوس والند حفرت فيها رسوم وآيات كاملة الجمال قد لا يأتي بمثلها مهرة الصناع في هذا الزمان وقد كان هذا الجامع ينار بمصابيح عددها ٧٤٢٥ ولا عجب في ان الاسبان لما جعلوه كنيسة لم يغيروا شيئاً من وضعهِ اللطيف فقد قيل ان احد الاساقفة اراد تغيير شيء منهُ على عهد شارل الثالث ولكن المجلس البلدي خالفهُ في الرأي فبقي الجامع على حالهِ وحدث ان هذا الملك زار الجامع بعد ثلاث سنين فقال لمن حولهُ من خدمة الدين ان بحقكم ألاَّ تغيروا شيئاً في هذا المعبد العظيم فان الذي تريدون احداثهُ يمكن وجود مثله في كل يوم واما هذا فلا نظير لهُ في الوجود وهذه شهادة بعظمة هذا البناء الفاخر الذي يفتخر بمثلهِ الاوائل على الاواخر

وليس في قرطبة الآن شيء يستحق الذكر غير هذا الاثر العظيم واطلال

دارسة وآثار عفت ما بقي منها غير الموضع . من ذلك ناحية على مقربة من المدينة اسمها فيجا بني فيها عبد الرحمن الثالث قصر الزهراء المشهور في تاريخ الاندلس بطلب من زوجتهِ الزهراء اذ رجتهُ ان يبني لها قصراً تقضي فيهِ آخر ايام الملذات فاحضر المهندسين والبنائين من بغداد والشام وبلاد الروم وجهات اسبانيا وجاء بالخشب من الشام وافريقيا والمرمر من بعيد الاقطار واشغل في البناء عشرة آلاف عامل وثمانماية بهيم . ثم انفق مالاً على زخرفهِ ورياشهِ ووضع فيهِ الادوات المرصعة بالحجارة الكريمة بعضهُ شري بالمال وبعضهُ جاءهُ هدية من الملوك المعاصرين . وكان من قاعات هذا القصر غرفة زوجتهِ التي بني القصر لها زركشت مفروشاتها باللؤلوء وجدرانها بالفسيفساء ومن ادواتها سرير لها قام على عمد من البلور وطشت وابريق من الذهب مرصعان بالجواهر . ويتبع ذلك مواضع للخادمين والاعوان منهم ٦٠٠٠ جارية وحراس خارج القصر لا يقلون عن ٤٠٠٠ راجل و٨٠٠ فارس . وقد كان عبد الرحمن ينفق ايراد الدولة على بناء هذا القصر مدة ٢٥ سنة ويقال بوجه الاجمال ان النفقات بلغت مبلغاً هائلاً وما بقي لهذا القصر العظيم الى الآن اثر بل ان في مكانهِ بساتين واغراس فسبحان الذي يغير ولا يتغير

﴿ اشبيلية ﴾ وبعد قرطبة قصدت مدينة سقيل او هي اشبيلية بلسان العرب كانت مقر ملوك اسبانيا من الدولة الغوثية ومنها نشأت الفتنة التي ادت الى قدوم العرب وخضوع البلاد لهم وهي الآن مدينة جميلة ولكنها ليست على عظمتها الماضية مثل بقية المدائن الاسبانية يبلغ سكانها حوالي ١٥٠ الفاً اكثرهم من اهل البطالة وبعضهم يعمل بصناعة الخمور وتقديد الفاكهة والزراعة القليلة واما التجارة في ما سوى ذلك فلا تذكر . ويذكر عن هذه المدينة انها شرقية في منظرها عامة وخاصة فان كثرة البساتين والفاكهة ونظام البيوت والشوارع يخيل لك انك

في بلاد شامية لان البيوت هنا شرقيةُ الوضع لها في مدخلها فسحة صغيرة يجلس فيها رب الدار ويقضي اعمالهُ مع زائريهِ ويليها حاجز من الشعريةً ووراءهُ فسحة كبيرة مبلطة بالرخام الابيض تزرع فيها الازهار والاغراس من برتقان وورد وزنبق ومنثور وفي وسطها بركة من الماء يجلس حولها اهل البيت ومن فوقهم القبة الزرقاء ومن حولها الغرف ارضها بلاط ابيض فكل ذلك يحكي ما في دمشق الشام من الترتيب في المنازل

واني حال وصولي هذه المدينة قصدت بناءً شهيرًا يسمونهُ الكازار محرفًا عن القصر وقد صارت هذه الكلمة ذات شهرة في اوروبا مثل الهمبرا المحرفة عن الحمراء يسمون بها الحانات والملاهي والمراسح في اكثر العواصم الاوروبيةً . وذهبت الى الالكازار وهو قصر الامير عبد العزيز من امراء الدولة العربيةً وهو قائم على عمدٍ وركائز من الرخام الابيض وقاعاتهُ كلها مزينة بالفسيفساء المذهبة وهي نادرة المثال عظيمة الجمال والسقوف الواح سميكة من الخشب حفرت عليها رسوم وآيات جميلة على النسق العربي المشهور والشبابيك فيهِ واطئة عريضة واكثرها لا تخلو من رسوم عربية . ودخلت الحمام الكائن في هذا القصر فاذا هو آية من آيات الاتقان الشرقي كان بانيهِ يرتاح الى الجلوس على مصاطبهِ لا سيما وروائح الند والعود تتضوع من جوانبها ولهُ في اعلاهُ كشك كانت الغيد الحسان تسمع الامير منها شجي الالحان وهو راقد فوق وثير الفراش وقد نسي متاعب الزمان. هذا هو الحمام الشتوي واما الصيفي فوضع داخل سراي الحريم من وراء الحديقة يشبهُ بمنظرهِ فسقية شبرا المشهورة ولهُ طريق مبلطة ارضها بالطوب الاحمر ينفذ الماء من انابيب فيها لا تظهر للعين فاذا فتح لها مفتاح تدفق الماء على نسقٍ بديع من تلك العيون الخفية . وحديقة الحرم مشهورة بجمالها ايضاً تمشينا فيها بين شهي

الاغراس واشجار المانلا تفوح منها الروائح العطرية واشجار نخل و برتقال وتفاح وغير هذا مما يذكر المتفرج بالهناء الشرقي والحياة الخالية من الهم . واعجبني نوع من البرتقال تظهر الفصوص في ثمره من قبل ان يقشر وطعمهُ شهي لذيذ

ومما يذكر في هذه المدينة كنيسة جيرالدا وهي اعظم كنائس اسبانيا واشهرها بدأ كارلوس الاول ببنائها واتمها الملوك من بعده وكانت بغيتهم جعلها احسن الكنائس فوسعوا نطاقها واشتروا لها من التحف والمثمنات ما يقرب من تحف كنيسة مار بطرس في رومه وكنائس روسيا المشهورة وفي هذه الكنيسة مدفن ابن خرستوفوروس كولومبوس مكتشف القارة الاميركية . وفي هذه المدينة معمل للسجاير للحكومة تعمل بهِ اربعة الاف ابنة وامرأة وسجايرهُ مشهورة باسم سڤيل وضواحي المدينة بديعة الجمال نامية الشجر والاغراس الشهية قضيت نهارًا ادور في جوانبها وراق لي حسنها الباهر وعدت في السهرة فرأيت رقص البنات الاسبانيات وهنَّ يلبسنَ جلبابًا قصيرًا الى حد الركبة ويمسكنَ بالدفوف ينقرنَ عليها ساعة الرقص وعلى رأسهنَّ منديل مثل بنات العرب ومنظرهنَّ كثير الجمال وهذا جل الذي يذكر عن اشبيلية برحتها قاصدًا غرناطه والمسافة ١١ ساعة في قطار الحديد

❊ غرناطه ❊ لم يعرف عن هذه المدينة شيء قبل دخول الاسلام الى اسبانيا فهي مدينة عربيَّة محضة ولم تزل كل محاسنها الى هذا النهار اثار عربية ووضعها عربيًا يروق للناظرين وقد اصبحت بلدة لا يزيد عدد سكانها عن سبعين الفًا على حين ان منازلها كانت تزيد عن هذا العدد في ايام عزها السالف حتى انهُ ليس فيها شيء يذكر غير هذه الآثار العربية المبنية على قمة جبل شيدت فوقهُ الفنادق العظيمة يقصدها السائحون. وقد كانت غرناطه عاصمة الدولة العربية الثانية التي اسسها محمد ابن الاحمر المعروف باسم محمد الاول الغالب سمي بذلك لانتصاره

في كثير من المواقع ولما سمع الناس يقولون لهُ ذلك يوماً اجابهم ان " لا غالب الاَّ الله " وقد اشتهرت هذه العبارة عنهُ ونقشت على كل جوانب القصر العظيم الذي بناهُ ويعرف باسم الحمراء او الهمبرا وهو من عجائب الآثار الجليلة ولعلهُ اعظم آثار القرون الوسطى في البلاد الاوروبية . واسم الهمبرا متداول في اوروبا يسمون بهِ المراسح والحانات وهذا بعض ما يستحق الذكر عنهُ

اني جعلت همي الاول بعد وصولي مدينة غرناطه التفرج على الحمراء هذه وكنت قد قرأت عنها في كتب الفرنجة اشعاراً وفصولاً نفيسة حتَّى اني رأيت في كتابة بواتو الرحالة الفرنسي ما يزيد عن المبالغات الشرقية في وصف عظمة هذا القصر وغرائبهِ وهو والحق يقال يمثل قوة الادراك والخيال وبراعة التنظيم والهندسة والاتقان الى حدٍّ يوجب كل هذا الاعجاب وما كذب الذي قال ان باني هذا القصر جمع كل ما وصلت اليهِ علوم البشر من انواع الزخارف واضاف اليها فنون الجن وقصورهم الفخيمة على ما جاءَ في حكايات الاولين فكانت النتيجة بناءً يسحر الالباب ويذهل العقول وجمالاً ما لهُ في آثار الغربيين مثيل

ولقد مررت باغراس وصفوف من الشجر البديع في طريقي من الفندق الى الحمراء وخرير الماء بين صفوف الصنوبر والحور والصفصاف يزيد بهجة المكان ويعدُّ الفكر للتلذذ بمرأى تلك الدار الغريبة حتَّى اذا وصلتها دخلتها من باب العدل نقش فوقهُ مفتاح ويد مبسوطة الى ناحية السماء ورأيت من بعد الباب ساحة كبرى توسع للفكر المجال اسمها حوش القاضي ويليها حوش الآس زرع بهِ من اغراس الآس شيئاً كثيراً وهو على ما تعلم من اجمل اشكال النبات واطيبهِ نفحاً وسرت بعد ذلك في رواق مستطيل قام على ١٤٨ عموداً من الرخام الابيض مكللة رؤوسها بالنقوش البديعة وقد وضعت اربعة اربعة وثلاثة ثلاثة وهي طويلة مستدقة لها جمال

رائق وفي اكثرها آثار التذهيب من ايام بنائها. وارض هذا الرواق مبلطة بالرخام الابيض وجدرانهُ مكسوة بتراب الرخام وقد نقشت كلها نقشاً دقيقاً حتَّى صار منظرها يقرب من منظر الخرج المشغول بالابر لدقة زخارفهِ ورقة نقوشهِ والواقف في هذا الرواق يتأمل منظر عمدهِ الباسقة وجدرانهِ المتناسقة لا يملك النفس عن اظهار الطرب والاعجاب بذكاء الذين نظموا تلك الفخامة وتلك المحاسن على هذا الشكل المليح

ودخلت بعد هذا قاعة السفراء وهي من غرائب هذا القصر بني سقفها مثل سقوف الجوامع وكسيت جدرانها لحد مترين بالقيشاني الازرق يشبه الفيروز وفوق هذا القيشاني الثمين في جميع الجدران نقوش دقيقة رقيقة مثل التي مرَّ ذكرها وعبارة "لا غالب الاَّ الله" في كل الجوانب وهنالك عبارات أُخرى ايضاً من مثل (الفتح والنصر المبين لمولانا ابي عبد الله امير المسلمين). ولهذه القاعة شبابيك واطئة كثيرة الاتساع يمكن الجلوس عليها لعدة افراد وهي تطل على وادٍ بهي وراء غرناطه واتساع القاعة مع ما فيها من تلك الزخارف يشرح الصدور. واعظم منها حوش السباع سمي بذلك لان في وسطهِ بحيرة يتدفق الماءُ من انابيب جميلة فيها وقد قامت على سباع عدة كلها من الرخام ولهذه البركة ذكر في التاريخ لانهُ قتل فوقها ٣٦ اميراً من بني سراج اصحاب الدولة العربيَّة في ذلك الحين بدسيسة من آل زقل ومن حول تلك البحيرة مجال واسع مبلطة ارضهُ بالرخام ايضاً وصفوف من العمد المستدقة ذات النقوش الفاخرة والتيجان المجللة باحسن الزخارف وقد ارتفعت من فوق هذه العمد قبة شاهقة تزيد بهاء هذه القاعة فاذا ما وقف المتفرج في وسط هذه القاعة الكبرى يسمع خرير الماء ويرى من حولهِ هاتيك العمد كالعرائس تسطع وتلمع من كل جانب خيل لهُ انهُ في جنة الخلد وزاد اعجابهُ بمقدرة الذين بنوا هذا الاثر العظيم

ودخلت بعد ذلك الحمام الصيفي والحمام الشتوي وهما على شاكلة الذي تقدم وصفهُ من حمامات العرب الاخرى وتأملت تلك السقوف في غرف القصر كلها وهي مصنوعة من الواح خشبيةٍ سميكة عليها حفر وترصيع بالذهب والعاج وعرق اللؤلؤ واكثر الخشب في السقوف من الابنوس الثمين وليس في البناء كلهُ سقف او جدار يخلو من نقوش عربيةٍ وآيات قرآنيةٍ محبوكة اطرافها متشبكة فروعها كنت اقصدها للتأمل في محاسنها يوماً بعد يوم لئلاَّ يفوتني شيءٌ منها وهي كما تعلم كبيرة طولها ٧٢٦ مترًا وعرضها ١٩٧ وقد بنيت على احد جبال ثلثة غرست فيها اشجار الصنوبر والسنديان من قدم والماء يتدفق من جوانبها فما اجتمعت محاسن الطبيعة والصناعة في مكان اكثر من اجتماعها في ذلك المكان البديع

وفي غرناطه وضواحيها عدة آثار عربية منها قصران على مقربة من الحمراء وهما يشبهانها بعض الشبه في النقوش والزخارف كانا مسكناً لقواد العساكر . وفي الضواحي قصر آخر يسير اليهِ المتفرج بين حراج من الزيتون والرمان والبرتقال والجوز وهو ايضاً على شاكلة الحمراء بناهُ محمد الثاني وكتب على جدرانهِ قول سلفهِ " لا غالب الاَّ الله " مرارًا وقد اعجبني منظر الرمان في هذه الجهة وهو مشهور بلذتهِ حتَّى ان الافرنج يسمونهُ باسم غرناطه (بومجراناد) ومعنى اسمه عندهم تفاح غرناطه . وقد زاد في حسن هذا القصر انهم ادخلوا الى حديقتهِ الغناء فرعاً من النهر فالذي يرتقي الاكمة المبني عليها القصر بين صفوف الشجر وبحيرات الماء وجداولهِ لا يملك نفسهُ عن ابداء الطرب والعجب . وفي داخل القصر هذا ايضاً جامع فخيم مبلط بالرخام وجدرانهُ مملوءة بالقيشاني وخشبهُ منزل بالذهب والعاج وفيهِ رسوم كثيرة الجمال وآيات دينية مختلفة الاشكال

واما جرنادا او غرناطة الحالية فليس فيها شيءٌ يذكر غير اني شهدت احتفالاً

دينياً يجلُّون قدره ُ هنا كثيراً فانهم في عيد العذراء من كل عام — وهو يقع يوم ٢٣ سبتمبر — يسيرون بموكب حافل في طرق المدينة و يشترك في هذا الموكب رجال الحكومة والدين والاهالي كلهم واصحاب الحرف والصنائع ويتكوَّن من ذلك مشهد عظيم يستحق الذكر يبدأ بجوق من رجال الموسيقى جميل الملابس تتبعهُ شرذمة من الجنود ثم جوق آخر وشرذمة اخرى من الجنود ايضاً يتبع اثرها رئيس المجلس البلدي واعضاؤُهُ والتجار وارباب الحرف ومع كل فئةٍ علَم كتب عليهِ اسم الحرفة . ويلي هؤُلاء محافظ المدينة بملابسهِ الرسمية والنياشين ثم رجال الدين يرفع احدهم صليباً قديم العهد فوق عصاً من الفضة ثم تمثال العذراء من الجبس لابسة فاخر اللباس المزركش وعلى رأسها اكليل من الالماس والملابس كلها مرصعة بنفيس الجواهر ويرفع هذا التمثال اكبر سراة المدينة واعيانها فيمرون بهِ في الشوارع الكبرى على هذا الشكل المهيب ولا يتم الاحتفال قبل ساعتين او ثلاث ساعات

مدائن اخرى

واسبانيا كثيرة المدائن التي لها ذكر في التاريخ فاني لما فرغت من مشاهدة ما في غرناطه برحتها قاصداً

☀ ملاغه ☀ وهي من الثغور الاسبانيَّة المعروفة وصلتها من ارض تختلف ما بين سهلٍ وجبل فجعل القطار يخترق الارض ويدخل نفقاً بعد نفق وعدتها عشرون في مسافة ٦٥٠٠ متر ثم يخرج الى سهول زرعت فاكهة وعنباً يستخرج منهُ نبيذ ملاغه المشهور بحلاوتهِ والارض هنالك حمراء يختلط ترابها بماء نهر يسمونهُ (جواد لهوارس) اي جدول الحراث فيحمر ماؤُه حتى يخيل لك انهُ سيل من

الدماء . واما ملاغه هذه او ملجه فسكانها لا يزيدون عن ١٢٠ الفاً وهي من اقدم المدائن الاسبانيَّة انتابها الفينيقيون وجعلها الرومان من المراكز المشهورة وعرفت في ايام العرب بمقاومة عبد الرحمن موسس الدولة العربية وعدم الاعتراف لهُ بالخلافة ولهذه المدينة شهرة الآن باعتدال الهواء لانها واقعة على ضفة البحر فلا يشتد حرها في الصيف ولا بردها في الشتاء ونساؤُها جميلات يلبسنَ المنديل على الرؤُوس بدل القبعة المعروفة واهم ما فيها منتزه يسمونهُ أَلميدا وهو اسم يطلق على كثير من منتزهات اسبانيا ولعلَّ المراد منهُ الميدان محرفة وفي الميدا هذه اشجار ومقاعد هي مثابة المتنزهين . وفي هذه المدينة معامل للخمر المشهورة زرنا احدها وكان مديرهُ مرافقاً لنا يشرح لنا كيفية صنعها . وفيها ايضاً سوق تعرف باسم سوق العرب باقية على حالها من ايام العرب وعلى بابها باللغة العربية عبارة "الله الغني" ومنها اتجهنا الى معمل لليمون اريد بهِ محل يصدر منهُ الليمون المعروف الى الخارج تلفُّ كل ليمونة في ورقة وتشحن ويقوم بهذا العمل فتيات من سكان المدينة

﴿ أَلميرا ﴾ وقصدت بعد ذلك مدينة أَلميرا وهي على مسيرة ٦ ساعات بحراً من ملاغه اشتهرت بما يصدر منها من معادن اسبانيا ولذلك ترى بواخر الانكليز وسواهم كثيرة في ميناها ولم تزل بها بقايا الاستحكامات العربية في الجبل الملاصق لها . وسكان الميرا لا يزيدون عن خمسين الفاً ولها منتزهات اهمها ميدان الامير فيهِ تماثيل شهداء الحريَّة الذين قتلوا بسبب ميلهم الى الحريَّة في ثورة سنة ١٨٢٤

﴿ قرطجنه ﴾ وذهبت بعد هذا الى قرطجنه في حين كثرت الانواء واضطربت مياه البحر بسبب ريح تعرف عندهم باسم مسترال تهب من شطوط اسبانيا وهم يخشون في مرسيليا شرها لانها توجد الخطر في البحر وقد تضر بالمزروعات

في البر . ولذلك عقدنا النية على اتمام السفر براً بسكة الحديد مع طول المسافة وهي لا تقل عن ٨٠ ساعة. فلما وصلنا قرطجنه رأينا في الميناء التجاري عدة بواخر انكليزيةً لنقل الابضعة فانهُ يشحن من هنا الى الخارج خمر كثير غير معادن الحديد والرصاص التي يستخرج منها قناطير مقنطرة كل عام . وفي الجبل المحدق بهذه المدينة آثار حصون عربية تشهد بما لها من الفعال الماضية في تاريخ اسبانيا

﴿ بلنسية ﴾ ومن قرطاجنة ذهبت الى بلنسية واسمها الحالي ڤالنسيا والمسافة بينهما بقطار البخار عشرون ساعة كلها تقطع في ارض اريضة رصعت بيانع الخضرة ومن اجمل مناظرها غابات من شجر البرتقال ظلَّ القطار البخاري يسير ما بينها مدة ٤ ساعات متوالية وقليل مثل هذا بين المزارع في اتساعهِ حَتَّى انهُ متى جاء موسم الزهر تكثر رائحتهُ في هذه الغابات الى حد ان المسافرين في القطار يضطرون الى قفل شبابيكهِ من شدة هذه الرائحة الذكية. ووصلناها بعد ان مررنا بمدن عديدة مثل المنارة ومرسي والشي وهي كثيرة الشبه بالجيزة لما فيها من شجر النخل . وبلنسية ثالثة مدن اسبانيا في الاهمية سكانها ١٦٠ الفاً ولتجارتها اهمية كبرى والمدينة قسمان القسم العربي القديم والقسم الاسباني الحديث فاما العربي فطرقهُ ضيقة عوجاء واهمهُ مواقع حصون وقلاع وفيهِ قصر قديم عربي جعلوهُ الآن مقراً لمجلس التجارة ولم تزل محاسنهُ العربية على حالها وجوانبهُ المذهبة تسطع وتلمع كانها هي من صنع الامس . واما القسم الجديد فاكثر من الاول نظاماً وتكثر فيهِ منازل الاغنياء والسراة شادوها على النسق العربي وفيهِ منتزه اسمهُ أَلميدا ايضاً يكثر تردد الخلق اليهِ نساءً ورجالاً ولهذه المدينة شهرة بالجمال وحسن الموقع وهي من اكثر مدن اسبانيا حركة وعملاً



﴿ برشلونه ﴾ ولكن اجمل مدن اسبانيا بلا خلاف هي برشلونه وليس

يستثنى من ذلك مدريد ولو تكون هي العاصمة فان برشلونه هذه قريبة من فرانسا
فاهلها يتخلقون باخلاق الفرنسيس في حب الزخارف وفي الاجتهاد والسعي خلافاً
لبقية الاسبانيين المعروفين بالقعود وفتور الهمة. وقد كان سيرنا الى برشلونه في اقليم
من الارض لا مثيل لهُ في جودة التراب وطيب الهواء والماء وارضهُ تسقى من اقنية
نخاريَّة صنعت في ايام العرب وما طرأ عليها اختلال لحد هذا اليوم والسفر في هذه
الجهة من اسبانيا الجنوبية كثير اللذة بديع المناظر من ناحية البر وناحية البحر فان
هيئة اسبانيا هنا مشهورة بجمالها وبدائعها الكثيرة

وعدد سكان برشلونه نحو نصف مليون وهي وافرة الاتقان وافية التنظيم
خلافاً لاكثر مدائن اسبانيا ولاهلها اخلاق الفرنسيس وهمتهم كما ذكرنا وهم ينددون
بالحكومة لاتخاذها مدريد عاصمة لها بدل مدينتهم الزاهرة . واهل برشلونه اقل
سمرة من بقية الاسبانيين واكثرهم نعمةً وترفاً ترى الرجال والنساء منهم دائماً
يتزيون بالازياء الفرنسية وهم اهل بذخٍ ورواءٍ ظاهرين ولقد كانوا في ما مرَّ
اهل باسٍ في الحروب ردوا الاعداء عن بلادهم غير مرة ولهم تاريخ مشهور .
وبرشلونه حافلة بالملاهي والمراسح والميادين والمنتزهات في كل جانب ولاهلها ولع
بالقصف والطرب فهي مجموع قصور بين غياض الشجر وبرك الماء البديعة وشوارعها
تحكي الحراج الغضيضة في تناسق اشجارها ونضرتها واهم هذه المواضع ميدان رامبلان
طولهُ ١٢٠٠ متر وعرضهُ ٤٥٠ وهو حافل بالشجر الباسق تشامخت اغصانهُ واهل
المدينة يؤمونهُ عصارى كل نهار لاستنشاق الهواء النقي وسماع الانغام فيلذُّ للغريب
انتياب هذا الموضع لانهُ يرى فيهِ من المناظر الحسنة والوجوه النقية الطلقة ما لا
يراهُ في موضع آخر من مواضع اسبانيا

وينتهي هذا الميدان عند البحر حيث اقيم تمثال خرستفوروس كولمبوس

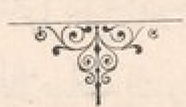
مكتشف اميركا ويتصل بميدان آخر اسمهُ ميدان العمود طولهُ ٦٠٠ متر وهذا يتصل بميدان الملكة اليصابات طولهُ ٧٠٠ متر ويليهِ ميدان رابع اسمهُ ميدان الملكة طولهُ ٥٠٠ متر والى جانبهِ ميدان خامس يعرف باسم سان جوان طولهُ نحو ٥٠٠ متر فطول هذه الميادين جميعها لا يقل عن ٣٥٠٠ متر . وقد كنت امرُّ في شوارع هذه المدينة البهية فلا انتهي من ميدان حتى ادخل ميداناً آخر مثلهُ في الرونق والبهاء وكلها معارض لجميل الشجر وشهي الزهر والابنية المتقنة تحيط بها من كل جانب فيها المنازل المشيدة والمخازن الكبيرة والحانات المزخرفة والبرك الواسعة تتدفق منها المياه العذبة فكان لمنظر برشلونه هذه تأثير في نفسي . وعلى يمين الميدان الاخير حديقة عمومية دخلتها فالفيتها روضة غناء من ضمن محاسنها تمثال الظفر وهو عبارة عن جسم امرأة في مركبة تجرها جياد اربعة والتمثال كلهُ مذهب فوقهُ شلال ماء ينحدر منهُ الماء الزلال على صخور صناعية ويصب في غدير تروى منهُ جوانب الحديقة فاذا وقفت في طرف الرواق وتأملت هذه المناظر كلها لم يزل رسمها من ذهنك ولو طال عليها الزمان . هذا غيرما في المدينة من معارض الصور ومرابض الوحوش البريَّة مما اعدل عن وصفهِ مطولاً لانهُ لا يختلف عما ذكرت من نوعهِ في المدائن الاخرى

ومما يذكر في برشلونه ايضاً كنيستها الكاتدرائية وهي زرتها واعجبت بجمالها واتقان ما فيها ورأيت هنالك وفي كل جهة من تعبد الاسبانيين شيئاً كثيراً فهم اشد الكاثوليك تمسكاً بدينهم وقد كنت اراهم يقبلون جدران الكنائس واذا رأوا في القطار قسيساً مسافراً دنوا منهُ وقبلوا يديهِ وعلاقة حكومة اسبانيا بالحضرة البابويَّة مشهورة من عهد بعيد وقد نشأ في هذه البلاد طغمة الاباء اليسوعيين وهم من اركان المذهب البابوي كما لا يخفى فان اغناتيوس لويولا موَسس هذه العشيرة كان اسبانياً

ومن اجمل ما يذكر عن برشلونه احدى ضواحيها نريد بها جبل مونسرات المشهور في الارض لا يخلو معرض للصور في اوروبا من رسم لهُ وهو عبارة عن عدة آكام تشبه قوالب السكر في شكلها تجمعت هنالك على نسق غريب وقد بنى الرهبان ديرًا فوق ذلك الجبل لهُ شهرة ذائعة وذكر في الحروب كثير وفيهِ صورة للسيدة العذراء يظنون انها من صنع لوقا الانجيلي ويحتفظون بها احتفاظًا كثيرًا فلطالما اخفوها في لحف الجبل وفي المنازل مدة الحروب ولم يبالوا بغيرها من تحف الدير ثم أعادوها اليهِ بعد الحرب باحتفال كبير واكثر ما تم ذلك مدة الحروب الاهلية الاخيرة وحرب فرانسا واسبانيا على عهد نابوليون فقد كان الفلاحون والرهبان يظهرون بسالةً وحماسًا غريبين في الدفاع عن هذه الصورة وحفظها ولا عجب فان اعتبارها عند القوم قديم حتَّى ان اكبر رجالهم كانوا يجلون قدرها ويحترمون الدير احترامًا كبيرًا . ومن الذين زاروا هذا الدير البابا بنوا والملك كارلوس الرابع مع زوجتهِ والملك فردناند السابع سنة ١٨٢٧ وهو الذي وهبهُ ١٣٠ الف فرنك لاعادة بنائهِ. والدير غني باوقافهِ ونذورهِ واسع الجوانب يمكن ان يضم الفي شخص وزوارهُ لا يقلون عن سبعين الفًا في السنة وقد زرتهُ فرأيت منظر المدينة والبحر والجبل والسهول المحيطة من قمة مونسرات فاذا هي من اهم مناظر الارض واكثرها جمالاً

وعلى هذا فاني سحت في اسبانيا سياحة طويلة بدأت من بلاد البورتوغال عند شطوط الاوقيانوس الاتلانتيكي وسرت من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الجنوب متبعًا ضفاف هذه البلاد حتى انتهيت من اهم مناظرها ومدائنها المعروفة وعوَّلت على الرحيل وقد رأيت من جمال هذه البلاد وخصبها و بديع مواقعها شيئًا كثيرًا . ولما كانت برشلونه وهي آخر ما ذكرت من مدن اسبانيا قريبة من حدود فرانسا كما مرَّ بك فاني قمت منها قاصدًا مدينة مرسيليا والمسافة بين المدينتين ١٥

ساعة اكثرها مناظر فائقة الجمال سواء في ارض اسبانيا او في ارض فرانسا ولكن مجرد دخول المسافر ارض الفرنسيس يريهِ انهُ في بلاد ارقى حالاً وبين قوم اكثر همة وذوقًا فان الاغراس في حقولهم مرتبة على اشكال هندسية والنبات المحيط ببيوتهم مدلى متعرش على هيئات تشهد بحسن الذوق والاعتناء الكثير. ورأيت في مرسيليا عدة من المعارف عائدين الى هذا القطر السعيد وكان من حسن حظنا ان سيد المحامد والفضائل سمو البرنس محمد علي باشا شقيق الحضرة الخديوية الفخيمة كان معنا عائدًا الى مصر فكان هذا الامير الكريم يلاطف كل مسافر ويعمل بكرم خلقهِ وطيب أصلهِ وفرعهِ حتى وصلنا ثغر الاسكندرية وألقينا عصا الترحال فيها بعد تلك السياحات المطولة والحمد لله على كل حال



انكلترا

يذكر القارئون ان الامة الانكليزيَّة احتفلت في شهر يونيو من سنة ١٨٩٧ بمرور ستين عاماً على حكم جلالة الملكة فكتوريا واطلق على ذلك العيد العظيم اسم اليوبيل وهو من حوادث الدهر المشهورة لم يسبق لهُ نظير في تاريخ الارض وقد لا يمرُّ على الناس حادث مثلهُ ولهذا فاني قصدت انكلترا في ذلك العام للسياحة فيها ولحضور هذا الاحتفال الغريب وقد نشأَ عن ذلك اني جعلت كلامي عن هذه البلاد العظيمة اقساماً لا بد منها اولها وصف الذي مررت بهِ من مدائن فرنسا وغيرها قبل وصولي انكلترا . والثاني تاريخ موجز لدولة الانكليز لا غنى للقارئ عنهُ وهو على شاكلة ما تقدم من الخلاصات التاريخية. والثالث وصف لمدينة لندن عاصمة هذه البلاد . والرابع وصف الاحتفال العظيم الذي تقدم ذكرهُ ويتقدمهُ كلام عن جلالة الملكة فكتوريا صاحبة هذا العيد وهذا الفصل من الذّ فصول الكتاب . والقسم الخامس وصف لبعض مدائن المملكة الانكليزيَّة المشهورة على مثل ما تم لنا في الممالك الاخرى . وعلى هذا فنحن نبدأُ بالكلام عن مدائن ليست من انكلترا ولكنها كانت في طريقنا اليها واليك البيان

برحت الاسكندرية يوم الجمعة الموافق ٤ يونيو من سنة ١٨٩٧ في احدى بواخر الشركة الفرنساويَّة المعروفة باسم مساجري ماريتيم في يوم راقت سماؤُهُ ورقَّ

هواؤهُ وكانت وجهتنا الاولى مدينة مرسيليا فكنا في الطريق نسرّح الطرف في اطراف البحر الواسعة ونتأمل عظمة الفضاء حتى ظهرت جبال ايطاليا في اليوم الثالث وقربت الباخرة من مدينة مسينا حتى اننا كنا نرى شوارعها ونحن سائرون في البحر . وفي اليوم التالي سرنا ما بين جبال كورسكا الى اليمين وجبال سردينيا الى الشمال حتى اذا كان اليوم الخامس ظهرت مدينة (مرسيليا) واوضح ما فيها عن بعد كنيسة (نوتردام ده لا جارد) اي السيدة الحارسة وقد بنيت هذه الكنيسة على مرتفع من الارض كثير الجمال وسنعود الى ذكرها

﴿ مرسيليا ﴾ هي مدينة قديمة يغلب على الظن ان الفينيقيين اول من بناها واوصل الابضعة الصوريَّة اليها وهي الآن من امهات المدن الفرنسيَّة واعظم الثغور التجاريَّة في جنوبي اوروبا كان لها فعال كبيرة في تاريخ فرانسا القديم والحديث لا سيما في ايام الثورة المشهورة وقد كان جل تقدمها من بعد ايام هذه الثورة فان اهلها عكفوا على المتاجر وجمعوا المال الكثير ولما صار نابوليون الثالث امبراطوراً وجه اليها عناية خاصة ورقى شؤونها ثم فتحت ترعة السويس فصارت هي الصلة الكبرى بين الشرق والغرب في نقل المتاجر لتوسط مركزها بين القارتين ولذلك بنيت بها المرافىء الوسيعة والحياض الفسيحة والشوارع الكبرى والساحات والحدائق على اشكالها وكثرت الدور والمنازل واصبح سكانها لا يقلّون عن نصف مليون ترى بينهم خليطاً من كل جنس وملة يقصدونها للتاجرة وفي اكثر شوارعها حركة وضجيج دائمان يشهدان بكثرة الاعمال واهمية المركز التجاري فهي لا يزيد عنها في هذه الحركة غير لندن ولفربول في اوروبا ونيويورك في اميركا



واهم الشوارع التي تستحق الذكر في مرسيليا شارع الكنابيير وهو يضرب المثل بجمالهِ ورونقهِ حتى انهم جرى على لسانهم قول معناهُ انهُ لو كان في باريس مثل

شارع الكنابيير لما وجد لها نظير وهو في وسط المدينة يشطرها شطرين متساويين تقريباً ويمتد من المرفإ وفيهِ من الابنية العمومية والخصوصية ما يعسر عدهُ من ذلك بناء البورصة وهو نخيم المنظر قام على عمد متينة وفي صدرهِ نقوش تشير الى الملاحة والصناعة والتجارة وفي داخلهِ يعقد مجلس التجارة جلساتهِ وتجاههُ في هذا الشارع الحانات والمطاعم على اشكالها يقعد الناس فيها واكثرهم يشربون الابسنت الذي اصبح مسكرًا عاماً لجماعة الفرنسيس يتعاطونهُ في كل حين ويقول بعض المدققين انهُ مسكر كثير الضرر بالاجسام والعقول تقرب نتيجة استعمالهِ من نتائج الافيون والمخدرات السامة ولكن للفرنسيس ولعاً بهِ مشهوراً

وفي طرف الكنابيير هذا شارع نوايل بني عن يمينهِ فندق نوايل من احسن فنادق المدينة وعن شمالهِ فندق لاپه وفي نهايتهِ ميدان ملهان غرست بهِ الاشجار الجميلة صفوفاً صفوفاً ومهدت طرقهُ تمهيدًا لطيفاً وفيهِ نُصُب للجنود الذين قتلوا في حرب ١٨٧٠ فهو مثابة المرسيليين ومجتمع افرادهم يؤمونهُ في كل عصر لسماع الانغام والتفرج بعضهم على بعض على عادة الناس في مثل هذه المواضع . ويقرب من هذا الميدان او هو يحدهُ قصر الماء المشهور (شاتو دو) وهو اشهر ما في مرسيليا من المناظر التي يذكرها الغريب اذا قصدتهُ رأيت قبل كل شيء ماء يتدفق سيلاً مدراراً ويتساقط من رابية كانما هو شلال عظيم فينصب على صخور اقيمت في طريقهِ ويتحول منها الى سلم من الحجر فيجري الماء على الدرج واحدة بعد واحدةٍ ولهُ خرير ومنظر جميل فوقفتُ اتأمل ذلك المنظر زماناً ثم ارتقيت الدور الاول من القصر وهو لهُ سلمان مستديران واحد الى يمين الشلال والثاني الى شمالهِ وفي غرف القصر متحف تاريخي اذكر من بين آثارهِ تمثال جندي مصارع من المرمر يستعد للقتال وقد اتقن صنعهُ وظهرت جميع عضلاتهِ وتمثال كليوباترا يلسعها

الثعبان وغير هذا من المشاهد التاريخيَّة . وفي الدور الاعلى متحف للصور اكثرها من صنع المصورين المرسيليين وقليل بينها مشترىً من الخارج. وقد صارت الارض التي تلي هذا القصر حديقة عموميَّة لها شهرة بتنسيق اغراسها واشجارها وما حوت من الزهر الغريب بعضهُ مجلوب من اقاصي الارض هذا غير ان فيها مجموع طيور من اطراف المعمور وقد لا يوجد مثل بعض الطيور المجموعة هنا في حدائق لندن وباريس المشهورة ولبعضها جمال غريب منها ما يشبه ريشهُ الفضة ومنها ما يقرب من الذهب ومنها ما لهُ الالوان الزاهية الكثيرة العدد فهي من الاشياء التي يجب على الغريب في مرسيليا زيارتها مرةً على الاقل

وذهبت من هنالك الى منتزه برادو المشهور غرست اشجار الدلب البهيَّة الى جانبيهِ صفوفاً كثيرة على مسافة طويلة وقد نمت نموًّا عظيماً واحاطت بها حدائق كثيرة لاهل اليسار من داخلها فخيم المنازل وبديع القصور . ويتصل بهذا المنتزه حديقة بوريلّي وهي مشهورة باتساعها حتى انهم ليقيمون سباق الخيل فيها كل سنة ومنها يبتدئ منتزه الكورنيش العظيم وهو محاذٍ لشاطئ البحر طولهُ خمسة كيلومترات ومنظرهُ فائق الجمال لانهُ يحدهُ البحر المتوسط عن شمالهِ والى يمينهِ منظر المدينة بحدائقها ومنازلها وبقيَّة ما ذكرنا من مشاهدها . ويتصل آخر هذا المنتزه بالمينا القديم الذي بدأنا بوصف المدينة منهُ ويحدهُ من احد اطرافهِ شارع فيريول ترى ان ازدحام الناس في جوانبهِ شديد متواصل لانهُ اهم اماكن البيع والشراء في هذا البلد التجاري . واذا استمرَّ المرء سائرًا الى اليمين من هذا الشارع وصل ميدان پيير پوجه وفي طرف الميدان تل مرتفع يمكن ارتقاء قمته بطرق متعرجة والنظر منها الى هذه المدينة اجمالاً والمنظر هنالك غير جميل لان الرائي لا يلقى غير رؤُوس المداخن وسطوح المنازل بنيت بالآجر سوَّدهُ الدخان المتصاعد من المعامل والمنازل

الكثيرة وهذا منظر لا يروق لشرقي تعوّد النظر الى سطوح نظيفة منبسطة يمكن ان تكون منتزهاً لاصحاب البيت في اواخر النهار

وذهبت في مساء يومي هذا الى مرسح البلور حيث تمثل الروايات المفيدة وقد سمي المرسح بهذا الاسم لاكتساء جدرانه كلها بمرائي البلور تعكس للناظرين هيئاتهم واذكر ان التمثيل في تلك الليلة كان كلهُ مفيداً دالاً على براعة الفرنسيين في الانتقاد واظهار الخلل المراد اصلاحهُ فانهم شخصوا حالة النواب في المجلس البلدي كيف يتذللون في اول الامر لصعاليك الناس ويتملقونهم ويعدونهم المواعيد الكبيرة حتى اذا صدّق الناس وعدهم وانتخبوهم للنيابة في المجالس قصروا همهم على ما يفيد انفسهم وجعلوا يزيدون الضرائب ويسعون في ترقية احوالهم الخاصة فاضحك ذلك الحاضرين كثيراً . ومثلوا بعد ذلك قواد الجيش فاظهروا ان كلاً منهم يستخدم ثلثة رجال من الجنود او اربعة لقضاء حوائجهِ الخاصة ثم انتقلوا الى أصحاب الاملاك وأظهروا مطامعهم مع المستأجرين ثم مثلوا حالة المضاربين بالبورصة وتلاعبهم باموال صغار الناس وغير هذا من ضروب التمثيل المفيد التي ترسم للناس صورة العادات او الامور المستهجنة وتبالغ في تقبيحها حتى تنفر العامة منها وتضطر الى طلب تغييرها وهذا خير ما يمثل على المراسح في جميع الانحاء فياليت ان الاجواق العربيَّة تجري عندنا على هذا المثال . وسرت بعد مرسليا الى مدينة

☀ ليون ☀ وهي من اعظم مدن فرانسا ايضاً ولعلها اجمل المدن الداخليَّة موقعاً ومنظراً لانها يدخلها نهر الرون ونهر السون فيتكون منهما جزيرة بهية حافلة بالعمائر والمنتزهات بين النهرين وشطر الى كل جانب من الجانبين في كلٍّ منهما دلائل التقدم ومجموع ذلك كلهِ مدينة ليون المشهورة . وقد زاد جمال المدينة انهم غرسوا صفوف الشجر على ضفاف النهرين واقاموا المنتزهات العديدة وبنوا

الجسور الجميلة توصل اجزاء المدينة بعضها ببعض فترى الحركة فوق هذه الجسور وتحتها والى جوانبها كثيرة لان ليون مدينة تجاريَّة معروفة بمعامل الحرير وفيها مدارس كلية ذائعة الصيت بعضها للعلوم وبعضها للطب او للهندسة او للحقوق . ولمدرسة الطب في ليون فرع في بيروت وهم يرسلون في كل عام طبيباً من هذه المدرسة الى بيروت لامتحان تلامذتها بدل تكليفهم الذهاب اليها فياليت مدرسة الحقوق الفرنسية في مصر تفعل مثل هذا وتوفر على تلامذتها عناء السفر ونفقاتهِ الى فرانسا لطلب الشهادة . ولمدرسة الطب هذه شهرة بعيدة ومقام كبير فان كثيرين يفضلونها على مدارس باريس الطبية لخلوّ ليون من دواعي الخلاعة والملاهي الكثيرة التي تفتن الشبان في عاصمة الفرنسيين

وقد زرت البورصة في ليون فرأيت في الدور الاعلى منها معرضاً للاقمشة الحريريَّة من صنع هذه المدينة وهي كثيرة الاشكال وافرة الاتقان والجمال وقد وضعوا الى جانبها جداول وكتباً فيها احصاء الصادر من مصنوعات ليون الحريرية الى اقصاء الارض سنة بعد سنة واكثر الاطالس الفرنسية وانواع القطيفة تصنع في معامل ليون هذه

وزرت في هذه المدينة سراي المجلس البلدي وهي بناءٌ فخيم في موضع فسيح من البلد يليها الملهى العام ووراؤهُ متحف مشهور دخلتهُ فرأيت في اولهِ تماثيل بعض القياصرة الرومانيين وغيرهم واذكر من تلك الآثار جثة حيوان كبير الخلقة نادر الشكل يسميهِ علماء التاريخ الطبيعي باسم "ماموث" وهو من الحيوانات الكبرى التي عاشت وانقرضت قبل زمان التاريخ الحالي وما بقيت منها غير بعض الهياكل وهي تشبه الفيل شكلاً ولكنها اكبر من الفيل جسماً . واذكر اني رأيت في ذلك المعرض حجرًا بسيطًا كتب عليهِ بالعربيَّة "توكلت على الله" وجدوهُ في البحر

عند بيروت ولعلهُ استعملهُ بعض الغواصين فيها للاسفنج ثم سقط منهم وفي ذلك دليل اعتناء القوم بالآثار الشرقيَّة ورأيت اشياء اخرى لا تزيد في وصفها عما يراهُ السائح في كل معرض للآثار التاريخيَّة ولا موضع للكلام هنا عنها

ويحد نهر الرون حديقة عموميَّة مشهورة في ليون يتوافد اليها جماعات الساكنين في كل حين واما نهر الرون ففي طرفهِ تل فوربيير بني من فوقهِ كنيسة جديدة على اطلال كنيسة سابقة بنيت في القرن التاسع وقد كان الداعي الى بناء هذه الكنيسة الجديدة ان رئيس الاساقفة فيها نذر ان يشيدها اذا لم تمر الجنود الالمانيَّة في مدينتهِ عام ١٨٧٠ فاجيب مؤملهُ ولم تمر جنود الاعداء في ليون فما عتم الناس ان استراحوا من تلك الحرب حتى اكتتبوا بالالوف لبناء هذه الكنيسة وهي من جملة الآثار الدالة على تدين اهل هذه المدينة المعروفة باسم "ليون الكاثوليكيَّة" . وعلى مقربة من هذه الكنيسة نحو ٥٠ مخزناً فيها اشكال الشمع والكؤوس والصلبان والمباخر وغير هذا مما رسم عليهِ شكل الكنيسة يباع تذكاراً للزائرين . وقد ارتقيت قمة برجٍ بني عند تلك الكنيسة وتأملت منظر المدينة منهُ وفي وسطها النهران والحدائق والاغراس لا تعد فكان لذلك المنظر في الذهن تأثير حسن نزلت بعدهُ حتَّى استعدَّ للسفر من هذه المدينة الى باريس في طريقي الى بلاد الانكليز

واما مدينة باريس فقد سبق الكلام عنها ولا اعيد ما قيل هنا غير اني وصلتها في يوم احدٍ مشهود كان القوم يحتفلون فيهِ بسباق للخيل في سهول لونشان من ضواحي باريس. وسباق الخيل عند الاوروبيين امر عظيم الاهمية لا سيما الانكليز منهم فانهم ينفقون عليهِ الالوف المؤلفة ويقضون الايام في الاستعداد لهُ حتى بلغ الامر من بعضهم في انكلترا ومستعمراتها انهم يجعلون يوم السباق يوم عيد تقفل

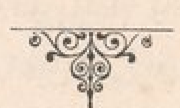
فيهِ المخازن وتبطل الاعمال . وتزيد اهميةً السباق عندهم من التراهن الكثير
وانتقال الاموال من جيب الى جيب فان الذي يرهن المال على سبق الجواد السابق
قد يربح ما يغنيهِ طول العمر في ذلك اليوم او قد يفقد ثروة برمتها واشتهر بين
الناس ان لوردة الانكليز مغرمون بهذا السباق وما يتبعهُ من التراهن حتى ان
اللورد دربي احد سراة الانكليز خسر ٢٥٠ الف جنيه في بضعة اعوام على مثل
هذه الامور وقد نال اللورد روزبري الوزير الحر المشهور بعض مكانتهِ من الفوز
في سباق الخيل في دربي ونيل الجائزة الاولى وقدرها ٢٠٠٠٠ جنيه . وانهُ ليروى
عن هذا الوزير العظيم انهُ سئل يوم كان صغيراً عما يتمناهُ قال ان اكون مثرياً تعدُّ
اموالي بالملايين وان اصير رئيس الوزارة الانكليزيةً وان انال الجائزة الاولى في
سباق دربي الذي يقام للخيل مرة في كل عام فتحققت كل اماله وعدَّ عند القوم
فوزهُ في ميدان السباق مثل فوزهِ في ميدان السياسة

هذه اهمية السباق عند الاوروبيين وعلى ذلك فاني حين وصلت باريس
ذهبت الى لونشان ماراًّ بميدان الكونكورد البديع والشانزليزه البهي وكانت
العربات الوفًا وراء الوف تقلُّ جماهير الذاهبين الى ذلك الموضع غير الماشين. وحضر
هذا السباق المرحوم فلكس فور وهو يومئذٍ رئيس الجمهوريةً الفرنسية ووزراءُ الدولة
وقوادها واصحاب المقام المعروف فيها وكان من غرائب هذا الاحتفال ان الجرائد
جعلت تنشر نتيجة السباق عند نهاية كل شوط وتبيع ملحقاتها للواقفين يقرأُون فيها
خبر ما يرون بعد حدوثهِ بربع ساعة وذلك لان المكاتبين كانوا يرسلون الخبر
بالتلفون الى الجريدة وهي تطبعهُ وترسلهُ مع باعة يسرعون على الدراجات الى محل
السباق وفي ذلك من ادلة الارتقاء في الصحافة ما لا يحتاج الى زيادة في الايضاح.
ومن الغرائب ايضًا اني لما عدت الى الفندق وقرأْت صحف ذلك اليوم علمت ان

بعض الاشقياء المعتوهين حاول قتل الموسيو فور رئيس الجمهورية ولكنهُ لم يمسهُ بضرّ فتواردت رسائل التهاني من ملوك الارض واقطابها على جناب الرئيس في الحال وما شعر بتلك المكيدة من الذين حضروا السباق غير القليل . ورأيت الرئيس في ذلك اليوم ذاهباً الى السباق بابهة وموكب حافل ولكنهُ عاد في عربة بسيطة لا يحفُّ بهِ جند ولا يحرسهُ احد وكان يحيي الجماهير التي تعلقت قلوبها على حبهِ بكل لطف ووقار والقصد من رجوعهِ بهذه الصفة اظهار ثقتهِ بالجمهور وعدم خوفهِ من اصحاب النفوس الامارة بالشر وكان الرجل محبًّا للناس ومحبوباً منهم في جميع ادوار حياتهِ

وبرحت باريس قاصدًا مدينة لندن لان حضور احتفال اليوبيل كان بغيتي من هذه السياحة وجعلت طريقي من كاليه وهي مدينة صغيرة في طرف فرانسا الشمالي ظلَّت سنين عديدة في يد الانكليز في القرون الخالية وتجاهها في بلاد الانكليز مدينة دوفر يفصل بينهما خليج المانش وهو مضيق من الماء شديد الاضطراب تتعالى امواجهُ وتجعل السفر فيهِ من اعسر الامور لان التيار فيهِ شديد وعرضهُ قليل فاذا جاءَت الامواج من البحر الواسع قبلهُ طفيفة ودخلتهُ انحصرت فيهِ بسبب ضيقهِ المذكور وعلت فسببت الاضطراب الذي يذكر في ذلك المضيق. ومع ان المسافة بين هاتين المدينتين لا تزيد عن ٢١ ميلاً تقطعها البواخر في ٨٠ دقيقة فان عناءَ السفر في ذلك الخليج لا يوصف ودوار البحر فيهِ ضربة عامة تصيب كل المسافرين. ولكن اتقان البواخر والمعدات جعل السير منظماً فقلَّ ان تتأَخر البواخر هنالك عن مواعيدها مهما علت الامواج ويندر الغرق مع ان الراكب يظن في كل حين ان السفينة على وشك النزول الى قعر البحر من كثرة صعودها وهبوطها مدة هذا السفر القصير. ولطالما عرضت الشركات التجارية ان تبني جسرًا عظيماً طولهُ ٢٢ ميلاً

فوق هذا الخليج او نفقاً تحت البحر يوصل انكلترا بفرانسا فلم تقبل الحكومة الانكليزية بذلك لانهُ يفقد انكلترا مزية كونها جزيرة تحميها البوارج القوية ولعلهم يرضون بهِ بعد حين ويتم عمل هو بلا ريب من اعظم ما شرع بهِ الآدميون الى الآن وقد عرض اصحاب الهمم غير مرة ايضاً ان يبنوا نفقاً تحت البحر بين البلادين وصادقت حكومة فرانسا على هذا الرأي ولكن الحكومة الانكليزيَّة رفضتهُ بتاتاً مع ان بين سراتها عدداً كبيراً يميل الى انجاز هذا العمل الخطير وفي جملتهم سمو البرنس اوف ويلس وهو يروى عنهُ انهُ كان اذا قصد باريس في ايام صباهُ واصابهُ الدوار قال ان المانش مطهر لا بدَّ منهُ للذي يذهب من باريس الى لندن حتَّى يكفر عن آثامهِ . واكثر الذين لا تهمهم السرعة في عبور المانش يؤثرون السفر من دييب في فرانسا الى نيوهاڤن في انكلترا حيث الموج اقل والمسافة ٤ ساعات ولكن طالبي السرعة في هذه الايام كثار وما زال الطريق من كاليه الى دوڤر اشهر من سواهُ حتَّى الآن





خلاصة تاريخية

كانت بلاد الانكليز في اوائل التاريخ المسيحي مثل غيرها من بلدان اوروبا غير معروفة للسوى يقطنها قوم تقرب عوائدهم وطرائقهم مما نراهُ الآن بين المتوحشين حتى امتدت مملكة الرومانيين واخضعت هذه الممالك فعرفنا بعض تاريخها من تواريخ الرومانيين . واول ماذكرت بلاد الانكليز في تاريخ رومه على عهد قائدها المشهور يوليوس قيصر فانهُ هاجم هذه الجزيرة واخضعها سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحي ولكن الحرب ظلَّت مستمرة بين جنود الرومانيين واهل البلاد نحو مائة سنة حتى خضعت انكلترا لهم خضوعاً تاماً ثم ضعفت دولة الرومانيين فعادت المناوشات والحروب وتقوى الاهالي شيئاً بعد شيء فما اتت سنة ٤٢٠ مسيحية حتى انتهى حكم الدولة الرومانية في انكلترا

ومعلوم ان بلاد الانكليز ثلثة اقسام هي انكلترا وسكوتلاندا وارلاندا القسمان الاولان جزيرة واحدة والقسم الثالث جزيرة منفصلة عن جارتها وكان الرومانيون قد اكتفوا باخضاع انكلترا ولم يقووا على اسكوتلاندا لانها بلاد جبلية واهلها اشداء فلما تقلص ظلهم وخرجوا من البلاد كان اهل انكلترا قد تعودوا الذل و بعض الخمول فهاجمهم اهل اسكوتلاندا وغنموا ارزاقهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ولذا استغاث اهل انكلترا باهل سكسونيا وهم قبائل المانية اشتهرت بالباس في الحروب فجاؤُا انكلترا لاعانة اهلها على جيرانهم الجبليين وتمكنوا من طرد المعتدين ولكنهم لما ارادوا امتلاك انكلترا قاومهم اهلها وطالت الحروب بين الفريقين فما اخضعوا هذه البلاد الاَّ بعد ١٥٠ سنة ومن ذلك الحين قامت في انكلترا سبع دول سكسونية واختلط الدخلاء بالاهالي فصاروا بعد مرور الاجيال امة واحدة تعرف الى اليوم باسم انجلوساكسون وهم الامة الانكليزية وما نشأ منها في اميركا والمستعمرات البريطانية الكثيرة

وليس في تاريخ الدول السكسونية السبع ما يستحق الذكر غير انها ضُمَّت وصارت مملكة واحدة بعد تشكيلها بار بعمائة سنة فان اجبرت وهو ملك احدى هذه الدول ورث بعضها واغتصب البعض الآخر فصار ملكاً عاماً لبلاد الانكليز سنة ٨٢٧ ولكن البلاد لم يهدأ لها بال بعد هذا الاتحاد فان اهل الشمال من الاوروبيين وهم سكان الدنمارك واسوج ونروج اكثروا من الغزو والسطو على ما علمت في الشذرات التاريخية السابقة واقلقوا راحة الانكليز زماناً حتى انهم ملكوا البلاد في ايام الملك الفرد الكبير وهو من اعظم ملوك الانكليز اختفى

زمانًا بعد ان كسر الشماليون جنوده ُ حتى لم شعثه ُ وعرف مواقع الضعف في اعدائهِ فحاربهم وانتصر عليهم وطردهم ولكنهم عادوا الى انكلترا بعد موتهِ سنة ٩٠١ وملكوا البلاد زمانًا وكان ملكهم سوين وابنه ُ كانوت اشهر ملوك ذلك الزمان في القوة. وثار الاهالي على حكومة اهل الشمال سنة ١٠٤١ فاستقلوا وحكموا عليهم اميرًا من ورثة الملوك الساكسونيين الاول وكان من امر الملك ادورد آخر هؤُلاء الملوك انه ُ رأى من بعض اشراف دولتهِ ميلاً الى اختلاس العرش من بعدهِ فاوصى بالملك من بعدهِ الى امير نورمانديا احدى امارات فرانسا الشمالية وكان هذا الامير من اقاربهِ وهو الذي سمي بعد ذلك وليم الظافر فانه ُ لما مات ادورد هذا سنة ١٠٦٦ جاءَ بجيش قوي الى انكلترا وحارب اميرها هارولد الذي خاصمه ُ على الملك فانتصر عليهِ انتصارًا تامًّا وملك البلاد واسس دولة جديدة قوية هي التي شكلت انكلترا بشكلها الحالي ولم تزل الدولة المالكة الآن من سلالة وليم الظافر ونظامات اللوردية والاسماء الانكليزية وسواها الى مثل ما وضعت في ايام هذا الملك الظافر

وورث مملكة انكلترا امراءُ من ابناء وليم الظافر وحفدتهِ كثار اشتهر منهم رتشرد الاول وهو المعروف بريكاردوس قلب الاسد كان بطلاً مغوارًا ملك سنة ١١٨٩ وجاءَ مع غيرهِ من ملوك اوروبا وامرائها لمحاربة الدول الاسلامية في الحروب الصليبية فكان هو اعظم من حارب العرب وله ُ مع السلطان صلاح الدين حكايات مشهورة . وورث الملك عن قلب الاسد اخوه ُ يوحنا سنة ١١٩٩ وكان ضعيف العقل سفيه الرأي فحدث في ايامه ثورة في الخواطر بسبب جورهِ وسوءِ تدبيرهِ واتحد الاشراف على طلب الحقوق منه ُ لهم وللاهالي فاصدر امرًا عاليًا يمنح فيهِ الرعايا حق الاشتراك مع الملوك في الاحكام وكان ذلك بدء نظام الانكليز الدستوري وهم يذكرون هذه الحادثة مع اعظم الحوادث التاريخية لانها اساس دستورهم وعظمتهم . وقام بعده ُ ملوك آخرون اشتهر منهم ادورد الاول ملك سنة ١٢٧٢ لانه ُ اخضع امارة ويلس وهي جزءٌ من انكلترا في الشمال الغربي عرف اهلها بالبسالة وهم بقية الانكليز الذين نجوا من حكم الرومانيين وسواهم وامتنعوا في ارضهم ولهم الى الآن لغة خاصة بهم وعوائد معروفة لا شبه بينها وبين لغة الانكليز وعوائدهم فحاربهم ادورد حروبًا طويلة واخضعهم وقتل امراءَهم وجعل بلادهم جزءًا من اجزاء مملكتهِ في سنة ١٢٨٣ . وكان من امر هذا الملك ان اهالي ويلس رجوه ُ ان يقيم لهم اميرًا بدل الذين قتلهم فعين ابنهُ الصغير وهو يومئذٍ طفل في المهد اميرًا لو يلس ومن ذلك العهد صار كل وارث لمملكة انكلترا يعرف بلقب برنس اوف ويلس وهو الذي يعرف بهِ ولي عهد السلطنة الانكليزية الى اليوم . وحاول ادورد

الاول ان يخضع اسكوتلاندا وهي التي كان اهلها يسطون على بلادهِ من زمان طويل ولكنهُ لم يقدر على ذلك لانها كانت مملكة منظمة مثل مملكتهِ ولها جيش واعوان وكانت الحروب من ذلك العهد مستمرة بين المملكتين والمنافسة دائمة حتى صارتا دولة واحدة على مثل ما يجيء

ولم يحدث بعد هذا ما يذكر في تاريخ الانكليز حتى سنة ١٣٤٨ حين ادعى ملك انكلترا ادورد الثالث ان مملكة فرانسا ملك لهُ بسبب قرابة لهُ مع ملوك تلك البلاد . وكان ملوك انكلترا الى ذلك الحين امراء نورمانديا في شمالي فرانسا فلما اشتهرت هذه الدعوى قام ملك فرانسا فيليب لمحاربة خصمهِ وجمع مائة الف محارب فقابلهُ ابن ملك الانكليز وهو المعروف باسم الامير الاسود بثلاثين الفًا وهزمهُ شر هزيمة في معركة كرسي واول ما استعمل الانكليز المدافع في الحروب كان في هذه المعركة وكانت البنادق معروفة قليلاً فانها لم تستعمل الا سنة ١٣٤٠ . ومات فيليب ملك فرانسا بعد انكسارهِ بقليل فخلفهُ ابنهُ جان وقصد محاربة الانكليز ولكنهُ كسر مثل ابيهِ وجاء بهِ الامير الاسود اسيرًا الى انكلترا وكان الملك ادورد الثالث يحارب اسكوتلاندا حين حارب ابنهُ فرانسا فانتصر هو ايضاً على اعدائهِ واسر ملكهم داود الثاني وجاء بهِ اسيرًا الى لندن فالتقى فيها حينئذٍ ملكان في الاسر وعظم شان الدولة الانكليزية كثيرًا . ولكن انكلترا لم تستفد من هذه الانتصارات شيئًا سوى امتلاك مدينة كاليه في شمالي فرانسا فان اسكوتلاندا وفرانسا عادتا الى الاستقلال حالاً وضعفت انكلترا بعد موت ملكها ادورد الثالث وابنهُ الامير الاسود الباسل لا سيما وان الذي ورث ادورد الثالث وهو حفيدهُ رتشرد الثاني كان ضعيفاً فجعل اقاربهُ يتخاصمون و يتنافسون في الدسائس واشهرهم اثنان هما الدبوك اوف يورك والدبوك اوف لانكاستر اختلس الثاني الملك من ابن اخيهِ واضطرهُ الى الاستقالة ثم قام الدبوك اوف يورك يطالب بالملك وحدثت حروب اهلية مشهورة في تاريخ البلاد تعرف بحرب الوردتين لان حزب يورك اتخذ شعارهُ الوردة البيضاء وحزب لانكاستر الوردة الحمراء فما انتهت تلك الحروب الا بعد ان ولي ملوك وعزل ملوك وقام في ذلك العهد ملك عظيم هو هنري الخامس ملك سنة ١٤١٣ وهو شاب في اول العمر فسمع باضطراب فرانسا وضعف ملكها وعزم على اخضاعها فهاجمها بثلاثين الف جندي يقودهم بنفسهِ وانتصر في كل معركة حارب الفرنسيس بها لاسيما معركة اجنكور سنة ١٤١٥ فهرب ملك فرانسا من وجههِ ودخل هنري مدينة باريس فتوج بها ملكاً على فرانسا وما زال ملوك الانكليز يسمون انفسهم ملوك فرانسا الى عهد قريب . وحدث بعد هذا ان هنري الخامس مات فطمع الفرنسيون بالاستقلال وعادوا الى محاربة الانكليز فساعدهم القدر بوجود الفتاة جان

دارك التي مرَّ الكلام عنها في تاريخ فرانسا واسترجع الفرنسيون مملكتهم

وظلَّت الحرب الاهلية في اشتغال حتى قام هنري السابع وملك البلاد وهو سليل آل يورك اقترن بفتاةٍ من بيت لانكاستر فبطلت الحرب واسس هذا الملك دولة جديدة قوية تعرف باسم تيودر قام منها اعظم الملوك ومنهم ابنهُ هنري الثامن كان معاصرًا لفرنسيس الاول وكارلوس الخامس واشتهر بكثرة زوجاتهِ اقترن بهنَّ الواحدة بعد الاخرى وكانت اول زوجاتهِ كاترين اخت كارلوس الخامس ملك اسبانيا والنمسا وارملة اخيهِ المتوفى فلما احبَّ هنري الثامن احدى خادماتها وهي حنه بولن والدة الملكة اليصابات التي سيأتي ذكرها اراد ان يطلق كاترين امرأتهُ فعارضهُ البابا في الامر وحدث بين الاثنين خلاف ادى الى انتقاض ملك انكلترا على رئيس الكنيسة الكاثوليكية مع ان هنري الثامن كان غيورًا على الدين والف كتابًا في الرد على مارتينوس لوثيروس المصلح الانجيلي المشهور الذي نشأ في المانيا على عهدهِ ولقبهُ البابا بحامي الدين وهو لقب ملوك انكلترا الى هذا العهد يكتب على نقودهم واوراقهم الرسمية . فلما حدث هذا الخصام بين البابا وملك انكلترا انفصلت الكنيسة الانكليزية عن كنيسة رومه الكاثوليكية واتبع اكثر الانكليز الطريقة البروتستانية من ذلك الحين ولم تزل انكلترا الى الآن اقوى الدول البروتستانية واشهرها

ومات هنري الثامن هذا سنة ١٥٤٧ وهو من اكبر ملوك الانكليز فخلفهُ ابنهُ ادورد السادس ومات بلا عقب فخلفتهُ اختهُ ماري وماتت بلا عقب فخلفتها اختها اليصابات وهي من اعظم ملوك الارض طرًّا واشهرهم بلا مراء ملكت من ١٥٥٨ الى ١٦٠٣ اي ٤٤ سنة حدثت في خلالها الامور العظيمة وبدأت انكلترا تتوسع في امتلاك الاراضي في اميركا وغيرها وصارت مملكة اسكوتلاندا رهينة امرها بدون حرب ولا قتال لانها عرفت كيف تدس الدسائس لقريبتها ماري ستيورت ملكة اسكوتلاندا حتى ان تلك الملكة المسكينة طردت من بلادها وجاءت انكلترا فالقيت في السجن ١٩ سنة وفي آخر تلك المدة حكم عليها بالاعدام بدعوى انها اشتركت في مؤامرة ضد اليصابات . وكان من حوادث هذا العهد العظيمة ان فيليب الثاني ملك اسبانيا وهو يومئذٍ يعد اكبر ملوك الزمان طلب الاقتران باليصابات فرفضتهُ بتاتًا فعول على قهرها واخضاع مملكتها وارسل عليها اسطولاً عظيمًا حطمهُ الانكليز تحطيمًا وساعدتهم الارياح على تكسيرهِ فنجت انكلترا من خطر جسيم وهم الى الآن يذكرون تحطيم الاسطول الاسباني و يعدون يومهُ من الاعياد الكبرى . وقام في عهد اليصابات رجال عظام في الحرب والسياسة واشتهر شاكسبير الشاعر العظيم في ايامها ايضًا ونمت دولة الانكليز نماء عجيبًا

ولم تتزوج هذه الملكة العجيبة فلما توفيت اشارت باعطاء الملك من بعدها الى جيمس ملك اسكوتلاندا وهو يومئذٍ اقرب اقاربها فجاء جيمس هذا وحكم زمانًا لم يشتهر بشيءٍ سوى امتداد نفوذ انكلترا في اميركا ومات سنة ١٦٢٥ فورثهُ ابنهُ تشارلس الاول وكان لسوء حظهِ ميالاً الى الاستبداد والشعب قد ترقى وطلب الحقوق والامتيازات فحدثت بينهُ وبين نواب الامة انواع كثيرة من الخصام انتهت بحرب بين الحزبين انتصر فيها نواب الامة على الملك وكان قائد جنودهم بطلاً عظيمًا اسمهُ كروموبل . هذا استبدَّ بالامر بعد عزل الملك وامر بمحاكمتهِ فحاكموهُ وحكموا عليهِ بالاعدام وهو الملك الاول الذي قتل في اوروبا بمثل هذه الطريقة ثم استبدَّ كروموبل بالحكم زمانًا واورثهُ لابنهِ من بعدهِ ولكن الاهالي نفروا من قتل الملك واثرة الجمهوريين فاعادوا ابن ملكهم الى عرشهِ وهو تشارلس الثاني ملك سنة ١٦٦٠ وكان مضادًّا للامة في آرائهِ واميالهِ فتحملهُ القوم بالصبر حتى اذا مات ورثهُ اخوهُ جيمس الثاني وكان كاثوليكيًا قحًّا يريد قلب النظام البروتستانتي وكل اميالهِ فرنسوية فاشتد الخلاف بينهُ وبين الاهالي حتى انهم قاموا عليهِ في آخر الامر وطردوهُ واعطوا الملك لابنتهِ ماري وزوجها وليم امير اورانج وصاحب هولاندا فجاء هذا الامير بجيش صغير الى لندن وطرد عمهُ منها وساعدهُ الاهالي على طرد جيمس فرحين فانقلبت بذلك دولة آل ستورت وسمي هذا الانقلاب بالثورة الانكليزية تاريخها سنة ١٦٨٨ وهو تاريخ الاستقرار على نظام الشورى وآخر عهد انكلترا باستبداد الملوك

وحدث في ايام وليم الثالث هذا عدة حروب بين انكلترا وفرانسا لم يستفد منها الانكليز شيئًا فلما مات وليم وامرأتهُ ماري ورثت المملكة عنهما حنه اخت ماري وكانت حنه من الملكات المشهورات ملكت من سنة ١٧٠٢ الى ١٧١٤ واُصلحت الكنيسة الانكليزية في ايامها وسنَّ لها النظام المعمول بهِ الى الآن . وحدثت حروب هائلة بين انكلترا وفرانسا في ايام هذه الملكة بسبب مطامع لويس الرابع عشر ملك فرانسا المشهور فانتصر الانكليز في عدة مواقع بحسن تدبير قائد من اعظم قواد الزمان اسمهُ الجنرال تشرتشل الذي صار بعد انتصارهِ على الفرنسيس الديوك اوف مارلبرو وسلالتهُ من اشراف الانكليز الى هذا العهد . ومن اشهر الحوادث في عهد هذه الملكة ان انكلترا واسكوتلاندا ضمتا بعضهما الى بعض وصارتا مملكة واحدة بعد ان كانتا مملكتين مستقلتين يحكمهما ملك واحد من ايام جيمس الاول الذي ذكرناهُ وكان ذلك سنة ١٧٠٧

وتوفيت الملكة حنه بلا عقب وكانت اقرب قريباتها امرأة ملك هانوفر فآلت المملكة

بعدها الى جورج الاول ملك هانوفر الالماني سنة ١٧١٤ ولم يحدث في ايامهِ غير بعض القلاقل بسبب محاولة آل ستوارت استرجاع الملك ومساعدة فرانسا لهم فلم يمكن لهم ذلك . ومات جورج سنة ١٧٢٧ فخلفهُ ابنهُ جورج الثاني وحدثت في ايامهِ حروب كثيرة مع فرانسا كان النصر فيها اكثرهُ للفرنسو بين في اوروبا وللانكليز في اميركا حين اخذوا بلاد كندا من الفرنسو بين وهي لهم الى الآن . وبدأ الانكليز في ذلك العهد باكتشاف جزر المحيط والامتلاك في الشرق فكان اساس سلطنتهم الهندية على عهد جورج الاول والثاني

ومات جورج الثاني سنة ١٧٦٠ فخلفهُ جورج الثالث وهو الذي ملك البلاد ٥٩ سنة وحدث في ايامهِ اعظم الثورات نريد بها ثورة فرانسا المشهورة وثورة اهل اميركا حين استقلوا وصاروا دولة الولايات المتحدة المعروفة بسبب اهمال من حكومة لندن وكان ذلك سنة ١٧٨٢ وفي سنة ١٧٨٨ بدأ الانكليز باستعمار جزر اوستراليا وجعلوا يرسلون اليها المنفيين واهل الجرائم ثم بطلت هذه العادة واوستراليا الآن من المستعمرات الانكليزية العظيمة . وكانت الحرب دائمة الالتهاب بين فرانسا وانكلترا في كل تلك المدة لاسيما اذ قام نابوليون وكسر الانكليز اساطيلهُ في ابي قير وترافلجار وغيرها من المواقع العظيمة في البحر واخرجوهُ من مصر والشام واسبانيا والبورتوغال حتى اذا جاء عام ١٨١٥ كسروهُ في واترلو الكسرة الاخيرة على مثل ما جاء في تاريخ فرانسا ومن حسن حظ الانكليز انهم رزقوا في تلك المدة رجالاً هم نوابغ وجبابرة في الاقتدار منهم نلسون امير البحر وولنتون قائد الجيوش في البر وبت الوزير المشهور في السياسة استعملوا مواهبهم كلها لارغام نابوليون ومحاربتهِ فكانوا هم الفائزين

وخرف جورج الثالث في آخر ايامهِ ولكن ايامهُ كانت ايام عز ونصرٍ للانكليز ولولا ضياع الولايات المتحدة لعدت مدتهُ احسن المدات في تاريخ هذه الامة العظيمة . وكانت نتيجة الانتصارات العديدة ان نفوذ انكلترا اتسع وامتد واملاكها زادت ومالها كثر وتجارتها فاقت الحدود حتى اذا ولي الملك جورج الرابع سنة ١٨٢٠ كانت الدولة الانكليزية في طليعة دول الارض قوةً واقتدارًا وثروةً وعلمًا ولم تزل على هذا الى يومنا الحاضر . ومن اعظم الحوادث التاريخية في ملك جورج الثالث اتحاد ارلندا مع انكلترا واسكوتلاندا وصيرورة الكل مملكة واحدة تعرف باسم بريطانيا العظمى وارلندا في سنة ١٨٠١ وكانت ارلندا الى ذلك الحين خاضعة لانكلترا تدير شؤونها الداخلية على حدة فصارت جزءًا من اجزاء المملكة الانكليزية من ذلك الحين

وكان جورج الرابع فاتر الهمة فلم يحدث في ايامهِ ما يستحق الذكر لان الدولة استراحت

من الحروب وترقت في المعارف والصنائع وتوسعت في الامتلاك والاستعمار توسعاً هائلاً حتى صارت اكبر دول الارض واوسعها نفوذاً وملكاً . ومات جورج الرابع فخلفهُ وليم الرابع ملكاً على بريطانيا العظمى وملحقاتها ومملكة هانوفر ايضاً فحكم سبع سنين وتوفي بلا عقب فخلفتهُ ابنة اخيهِ الدبوك اوف كنت وهي جلالة الملكة فكتوريا الحالية في ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٧ وجلالتها الآن من اعظم ملوك هذا الزمان قدراً واعلاهم شأناً واوسعهم سلطاناً لا تغيب الشمس عن املاكها وقد اطال الله عمرها ورأَت الدولة الانكليزية من العز في ايامها ما لم ترهُ دولة اخرى وفي الفصل التالي شيءٌ من تاريخ هذه الملكة العظيمة ووصف الاحتفال العجيب الذي تمَّ لتخليد ذكرها بعد مرور ستين عاماً على ارتقائها العرش يجيء بعد الكلام عن مدينة لندن العظيمة



الملكة فكتوريا في صباها

لندن

وصلت مدينة لندن بعد سفر سبع ساعات ونصف من باريس عن طريق كاليه ودوڤر وحالما وطأت ارض الانكليز في دوڤر شعرت كما يشعر كل مسافر غيري يلاحظ الامور انني في أرضٍ رقتها الحضارة و بين قوم صاروا الى اعلى درجات العزّ فان الاشياء تجري هنالك على نظام ودقة غريبين معهما وقار وترفع كثير فالمحطة حافلة بمئات المسافرين والخدمة في كل الجوانب واقفون ولكن كثرة الزحام وتعدد القطُر لا توجب اضطرابًا ولا تسبب ضجةً ولغطًا فلا صفارة تنبئ عن قيام القطار ولا حارس يصيح في الناس ان ارفع رجلك او "المسافر يركب" ولا جرس يطن ولا راكب يزن او يدن والكل يسيرون من باب المحطة الى نافذة التذاكر يبتاعون منها اوراق السفر و يبرحونها الى عربات القطار بكل احتشام ووقار حتّى اذا دنت لحظة المسير قام القطار يسير حثيثًا بين سهول تظهر عليها آثار الاجتهاد ومزارع صيرتها يد الانسان جنات تجري من تحتها الانهار بعد ان كانت بركًا للماء الآسن او ركامًا قاحلة لا يستفيد منها الانسان وقد رُصّعت الارض الى الجانبين بحصىً تمنع عن الناس الغبار وقامت الى جانب الخط من هنا ومن هنا ابنية ومساكن ومعامل ومغازل لا عداد لها وشقت الوهاد والنجاد في كل موضع قضبان الحديد تسير عليها الارتال في الطول والعرض فبينا انت راكب في قطارك تسير بسرعة تخطف الابصار ترى قطارًا يلي قطارًا قادمًا من الجهة المقابلة على خطٍ محاذٍ للخط الذي انت فيهِ وترى قطرًا أُخرى تعترض الخطوط من كل جهة فلا يكاد القطار الذي انت فيهِ يجتاز نقطةً من الارض حتى تمرَّ فوقها القطُر الاخرى واذا تأخر لحظة عن موعدهِ اصطدم بغيرهِ لكثرة القطُر الناشئة عن الحركة التجاريَّة



الهائلة في هذه البلاد العظيمة. ويتفق احياناً انك تأتي موضعاً تمر فيهِ فوق جسر من الحديد عظيم فترى من تحت الجسر قُطُراً أُخرى سائرة سير قطارك وقُطُراً غيرها آتية من كل الجوانب متقابلة متعارضة فتعتريك حيرة من بلوغ الحركة التجاريَّة هذا المبلغ العظيم اذا كنتَ لم تشهد مثلها من قبل . وفوق هذا فان الوقت الثمين في بلاد الانكليز لا يضيع منهُ لحظة والزمان عندهم ذهب على ما جاء في بعض اقوالهم المتعارفة فهم اذا جاءَت الباخرة بمن فيها من الخارج والقت رحلها في ميناء دوفر على مثل ما ذكرنا قام الركاب في القطار على عجل ولم يمكن لعمال البريد في مدينة دوفر ان يرتبوا الكتب والرسالات الاخرى ترتيباً يسهل معهُ توزيعها وليس يجوز ان يترك البريد على حالهِ حتى يرتب ويوزع في مكاتب لندن لان اشغال البريد فيها تفوق الحصر والتصديق بسبب الملايين الكثيرة التي تقطنها وهي اعظم مدائن الارض طرًّا واكثرها حركة وعلاقات بالبلاد الاخرى فلذلك ترى في القطار عربات طويلة خصت بعمال البريد يرتبون الرسالات فيها والقطار سائر في سبيلهِ فاذا وصل لندن كانت رسائل البريد حاضرة للتوزيع بلا امهال وفي هذا من التسهيل على اصحاب الاعمال واتقان العمل ما لا يخفى على البصير وهم يأْتونهُ في كل الخطوط الانكليزيَّة المشهورة

ولما انقضى زمان السفر ودخل القطار مدينة لندن العظيمة جعلت اتأَمل هاتيك الجبال الراسية من البناء تمتد اميالاً الى كل جانب او هي بحار لا حد لها من الشوارع والفنادق والمخازن والحوانيت والمساكن شوَّه الدخان الكثير ظاهرها فاشتدَّ سوادها وما ترك لها من الجمال شيئاً الاَّ في قليل من المواضع الكثيرة التي تراها العين مدة سير القطار بين احياء لندن . والجهة التي يراها المسافر القادم من الخارج قبل سواها اقل جهات لندن زخرفاً وجمالاً لولا ان المسافر يعلم من

اتساع المدينة وطولها الذي لا يحد وابنيتها التي لا تعد انهُ في لندن لظنٌّ انهُ لم يصلها بعد او هو في مدينة اخرى صناعيةً احقر من عاصمة المملكة الانكليزية الواسعة ومركز تجارة الارض ومالها ومقر المالكين ربع هذه الدنيا ونقطة الاقتدار البشري الى اعلى درجاتهِ

ولما نزلت محطة تشارن كروس في لندن لقيت فيها من الخلق الكثير ما يعسر عدهُ حتى انهُ لم يمكن لي ان القى عربة اسير فيها الى الفندق لان المدينة كانت يومئذٍ حافلة بالملايين فوق طاقتها بسبب عيد اليوبيل العظيم فوضعت امتعتي في مخازن المحطة وخرجت ماشياً اخترق الصفوف واصطدم بالمئات والالوف وقد قامت للناس ضجة ما سمع بمثلها السامعون واحتشد الربوات والملايين في تلك الشوارع الكبرى احتشاداً يكسف محافل الاولين والآخرين ولا عجب فان في لندن من السكان فوق خمسة ملايين من النفوس وهو عدد يزيد عن عدد الساكنين في بعض الممالك برمتها وزاد عليهم ان أمها في ذلك الحين نحو مليوني نفس اخرى جاءت لتشهد حفلات اليوبيل التي ترى وصف بعضها في الفصل التالي

وما الذي اقول عن اعظم مدائن الارض وافخمها واكبرها واهمها فاني لو خصصت هذا الكتاب برمتهِ لوصف عشر معشار الذي يستحق الذكر فيها لانتهيت وبيني وبين الاشباع بعد باعد لان لندن هذه مملكة او بلاد عظيمة وليست مدينة واحدة قامت على ضفتي نهر التمز وامتدت الى كل جانب حتى اضحت كانما هي بلا آخر تتصل اطرافها بالعمائر والمدائن الاخرى فلا تعلم اين تبدأُ المدينة واين تنتهي ولو جمعت شوارعها العديدة بعضها الى بعض لبلغ طولها ثلاثة آلاف ميل او يزيد وهي مسافة تزيد عن البعد ما بين مصر ولندن او لو أُحصي سكانها طائفة طائفة لوجدت ان فيها من اهل اسكوتلاندا اكثر مما في عاصمة تلك البلاد ومن الكاثوليك

اكثر مما في رومه وهي عاصمة العالم الكاثوليكي ومن اليهود اكثر مما في القدس ومن الالمان اكثر مما في مدينة المانية من مدن الطبقة الثانية — هذا غير ان اهل الارض كلهم يجدون فيها من المواطنين عدداً عديداً وقد يوجد في لندن آلاف من بلاد واحدة لا يجتمعون بعضهم على بعض الاَّ في حفلات نادرة او قد يعيش المرء عمراً كاملاً فيها وله صديق في ناحية اخرى منها لا يلتقي بهِ لاتساع هذه المدينة وكثرة احيائها واحتشاد الملايين في كل جوانبها . واما اذا شئت ان تحصي ما يرد اليها من بضاعة وتجارة وما يودع فيها من كتب البريد ورسائل البرق وما ينفق فيها من المال على هذه الحاجة وذلك الشيء فانك ترى ارقاماً يمكن لك قراءتها ولا يمكن ادراكها فهي مثل ابعاد الكواكب واجرام السماء الوف فوق الوف لا تدرك اهميتها العقول. يكفي ان يقال ان بعض مخازنها العظمى تبيع بنحو خمسة ملايين جنيه في السنة والعمال في بعض مصارفها ومعاملها عشرات آلاف يتناولون الرواتب الطيبة وفيها ٢١٦ ميداناً كبيراً غير الميادين الصغرى و٥٦٥ محلاً للانغام الموسيقية والتمثيل وحوالي ثلثماية معرض ومتحف من جميع الاشكال واكثر من عشرة آلاف اثر او تمثال في حدائقها وشوارعها والميادين وفوق مليون مصباح تنير جوانبها الواسعة بعضها كهربائي والباقي اكثرهُ غاز مثل نور المدائن المصرية . وفي شوارعها ازدحام لا تفهمهُ العقول من الوصف ولا بد لادراكهِ من المشاهدة فان الناس والمركبات والعربات والارتال والخيل وسواها سلسلة متصلة الحلقات الى الجانبين لا تنقطع طول النهار حتى انك لو وقفت عند بنك انكلترا مثلاً مدة النهار من اولهِ الى آخرهِ تريد ان تجتاز الطريق من جانب الى جانب لما لقيت فرصة تناسب مرادك ولا امكن لك العبور الاَّ اذا وقفت العربات قليلاً من هنا ومن هنا باشارة من رجل البوليس الواقف امامك وهنا لا بد من القول ان بوليس لندن من اعظم قوات الارض

انتظاماً وقد لا يكون في الممالك المنظمة بوليس مثلهُ في حسن المنظر والترتيب فان رجالهُ ينتقون من ذوي القامات الطويلة والمناظر الحسنة ويشترط فيهم ان يكونوا ذوي معارف وخبرة باحوال البلاد فهم يرشدون الناس الى كل امرٍ بلطف لا مزيد عليهِ ويسوقون اهل الجرائم الى المحاكم فتكفي شهادتهم لادانتهِ ولا يلزم لذلك مرافعة او نيابة ويخلون الشوارع من الزحام على كثرة الوافدين والمحتشدين ولا يظهر عليهم ملل او عناء وان تسلهم عن مطعم او نزل او معرض تريد ان تذهب اليهِ اجابوك بوقار ورقة ان سر الى الجهة الفلانيَّة خطوات معدودة ثم تحوَّل الى يمينك او يسارك ثم انتقل ثم سر امتاراً يعدونها لك بوجه التقريب فتصل الى حيث تريد ولهم في معرفة الاماكن علم عجيب. واما اشارتهم للعربات بالوقوف فمن اجمل الحركات فيها الاشارة الى مقدرتهم واحترام جماهير الانكليز للقانون والسلطة الشرعيَّة لان هذه العربات كما قلنا تعدُّ آلافاً في كل شارع بعضها يلي بعض فاذا اجتمع بعض المارة في نقطة يريدون العبور الى الجهة المقابلة اشار رجل البوليس الواقف في منتصف الطريق برفع يديهِ قليلاً وعند ذلك تبطل كل حركة وتقف الحوافل والعربات كلها من الجانبين كانما يد الرجل آلة تتصل بعجلات المركبات فاذا رُفعت هذه الآلة اوقفت مسير العجلات وعند ذلك يمكن للمارة الانتقال حتَّى اذا تمَّ هذا رفع الرجل يدهُ مرة أُخرى فتعود سلسلة المركبات الى المسير ولا يخالف الامر حوذي ولو يكون سائق عربة الملكة بنفسها. ولطالما رأيت العربة حين اكون فيها تقف حيناً بعد حين في مسيرها واتطلع فلا اجد بوليساً يوقفها حيث اكون وعلمت ان الامر جاء من موضع في آخر الشارع فوقفت كل عربة واوقفت التي وراءها حتَّى وصل الدور الى عربتي ووقفت ثم عادت الى المسير والذي يوقفها ويسيرها رجل لا تراهُ وفي هذا من بدائع النظام ما يسرُّ العقول

وقد كانت مدينة لندن صغيرة في اول امرها لا تزيد مساحتها عن ميل مربع الى ضفتي التمز ثم اتسع نطاقها وامتدت فروعها حتَّى صارت اوسع مدائن الارض واكبرها ومساحة ارضها خمسة اضعاف مساحة باريس لان منازلها في ما سوى القسم المتوسط منها غير مزدحمة وشوارعها رحيبة وحدائقها كثيرة وميادينها عديدة واما البقعة الاصليَّة التي كانت فيها لندن الاولى فتعرف باسم "ستي" او المدينة وهي قسم خاص من اقسام لندن لهُ اهمية كبرى لانهُ خصَّ بالتجار والمصارف والاعمال الماليَّة الخطيرة وفيهِ بنك انكلترا العظيم والبنوك الاخرى وادارات الشركات التجاريَّة والجرائد اليوميَّة ومقر محافظ لندن ومحكمة خاصة باعمال "الستي" هذه . وهي بالاجمال مركز الحركة ونسبتها الى بقية لندن نسبة القلب الى جسم الانسان لان الدم يدور في الجسم متفرعاً من القلب وحركة المال والاعمال تدور في كل لندن ومرجعها الى "الستي" ولذلك تجد اجرة المخازن والوكالات فيها عظيمة وثمن الارض فوق التصديق لا يقل عن خمسين جنيهاً عن كل قدم مربعة وقد يزيد . ولو بيعت بعض الاراضي المجاورة لبنك انكلترا بالفدان لزاد ثمن الفدان الواحد عن مليوني جنيه وفي هذا ما يكفي للدلالة على عظمة المدينة واتساع نطاق الحركة التجاريَّة فيها . وللستي او المدينة قوانين خاصة بها وعوائد قديمة لم تتغير عما كانت عليهِ في ايام الملوك الاول الاَّ قليلاً وهي لها محكمة تجاريَّة خاصة بها وباعمال تجارها في قصر مشهور يعرف باسم جلدهول تولم فيهِ بعض الولائم الرسمية يقيمها حاكم مدينة لندن او اللورد مايور وهو ينتخب من بين اعضاء مجلس يدير شؤون هذا القسم العظيم من اقسام لندن ويسمى لورداً مدة تولي الوظيفة ويعطى راتباً سنويًّا مقدارهُ عشرة آلاف جنيه ولا تزيد مدة ولايتهِ عن سنة واحدة وهم في كل يوم تاسع من شهر نوفمبر ينتخبون حاكماً جديداً ويحتفلون بتعيينهِ احتفالاً لا مثيل

لهُ عند الانكليز في الابهة والفخامة حتَّى ان يوم اللورد مايور ليعد بينهم من الاعياد الكبرى ويتطلع اليهِ الصغار والكبار في كل حين فاما صغار الناس فلان الكتاب والعمال منهم يستريحون يومئذٍ من عناء الاعمال ويتفرجون على موكب اللورد مايور حين يدور في اهم شوارع المدينة واما الكبار فانهم يدعون الى وليمة فاخرة مساء ذلك اليوم في قاعة جلد هول التي ذكرناها ومن شروط هذه الوليمة ان يدعى اليها كل كبير وذي مقام وفي الجملة وزراء الدولة الذين اعتادوا الحضور والقاء الخطب الرنانة تعرب عن سياسة المملكة في تلك الليلة حتَّى ان وزراء الخارجية اذا ارادوا التصريح بامرٍ ذي بال ابقوهُ الى ليلة اللورد مايور والذين يهمهم معرفة نوايا الحكومة في مسألة من المسائل يقرأُون الخطب التي تتلى في تلك القاعة البديعة وفي كل سنة تنقل الاسلاك البرقية اقوال هؤُلاء الوزراء العظام الى جهات الارض في ٩ نوفمبر على ما يذكر القارئون وهم في مثل هذه الاحوال يبدأُون بالطعام ويتلوهُ الشراب الفاخر ثم يقف اللورد مايور مرحباً بالضيوف وفي يدهِ كاس من الخمر يشربهُ في سر جلالة الملكة فيشاركهُ الحاضرون مظهرين آيات الاكرام ويقوم بعد هذا الوزراء للخطابة ثم يشرب رئيس الوزراء نخب اللورد مايور ويشكرهُ على اعداد تلك الحفلة متمنياً لهُ عاماً سعيدًا في الختام وبهذا يتم الاحتفال الذي تدوي الارض باخبارهِ في كل عام

ولما كان اتساع لندن الهائل وكثرة الاعمال فيها توجب تسهيل طرق المواصلة فقد بنوا فيها من محطات سكك الحديد شيئاً كثيرًا من ذلك ١٤ محطة كبيرة لشركات مختلفة توصل لندن بجهات البلاد واطرافها وكلها واسعة نخيمة البناء تنار بالكهربائية وفوق اكثرها فنادق عظيمة مشهورة تديرها شركات سكك الحديد واكبرها مساحة محطة واترلو فيها ١٦ رصيفاً تقوم القطر منها وينتقل الناس من

رصيف الى رصيف على جسور جميلة فاذا ذهب الرجل الى هذه المحطة للسفر او لغيره وجب عليهِ ان يسأَل العمال الواقفين في مدخلها عن الرصيف الذي تسير منهُ القطُر الى الجهة التي يريدها ولا بد ان يجد المسافرون في كل محطة رجالاً يخبرونهم عن المواعيد وكل ما يلزم لراحتهم وبعضهم لا يبطل الكلام جواباً على السؤَالات التي يوجهها القادمون اليهِ مدة النهار بطولهِ . وفي لندن غير هذه المحطات ستة وعشرون محطة أُخرى خصت بهذه العاصمة وقد بنيت كلها تحت الارض وانفقت الشركة على حفر السراديب لها وعملها مبالغ طائلة وهي تخترق لندن في جميع جهاتها فلو رأَيت رسم هذه العاصمة تحت الارض لعجبت من كثرة الطرق والسراديب ينقل فيها الالوف ومئات الالوف كل يوم فانهُ يقوم كل يوم اكثر من الفي قطر تسير تحت الارض من جهة في لندن الى جهة وكلها ملأَى بالركاب والمتنقلين فيبلغ عددهم مليون ونصف من الخلق في كل اسبوع او نحو ٧٧ مليوناً في السنة . واغرب من هذا ان القطُر التي تسير على الارض وتحت الارض لم تكفِ للمطلوب فعندهم قطر حديدية تسير فوق الماء وتحت الماء فاما فوق الماء فانهم بنوا لها جسوراً عديدة متينة فوق نهر التمز ترى القطُر دائمة المرور عليها واعظمها جسر البرج عند برج لندن الذي سيجيءُ الكلام عليهِ بني حديثاً على نسقٍ بديع وجعل طبقات واحدة منها لسكة الحديد وواحدة فوقها للمشاة يصعدونها على سلمٍ في اولها وينزلون من سلم في آخرها ويقرب منهُ في الجمال جسر لندن طولهُ ٩٢٨ قدماً وعرضهُ ٥٤ وهو قائم على عمد ضخمة وقناطر عظيمة تمر من تحتها السفن والمراكب السائرة في التمز وقد انفقوا على بنائهِ مليوني جنيه وحسبوا انهُ يمر فوقهُ ٢٠ عربة في الدقيقة او ١٥ الفاً في كل يوم . واما تحت النهر فان في لندن خطين تسير عليهما القطُر في سراديب عظيمة تحت بطن النهر سقفوها بالحديد وبنوا لها

محطة في كل جانبٍ من جانبي النهر والمسافر ينزل المحطة في آلة رافعة وخافضة او على سلم كثير الدرجات حتَّى اذا وصلها رأى الارض تعج بالخلق تحت ماء النهر والمحطة الفسيحة منارة بالكهربائية فيركب العربة ويسير بهِ القطار في ذلك النفق يجري الماء من فوقهِ حتى يصل الضفة الاخرى ويصعد وجه الارض

وكل هذه الخطوط وهذه السكك لم تكفِ ايضاً حتى انهم انشأُوا من البواخر تسير في نهر التمز ما لا يعد وهي طول النهار في رواح ومجيء بين اطراف المدينة. هذا غير ما في عاصمة الانكليز من الترامواي والامنبوس والحوافل والعواجل والعربات على اشكالها وعدد العربات الصغيرة للاجرة من نوع الهانسم الذي يركب سائقهُ في اعلى العربة من الوراء ٢٤ الفاً فاحسب عدد العربات الاخرى للاجرة ولاصحابها العديدين وتصور مقدار الحركة الهائلة في هذه المدينة العظيمة . ومن اجمل ما يمكن للغريب ان يراهُ ويعرف منهُ اهمية لندن ان يصعد الطبقة العليا من جسر البرج الذي مرَّ ذكرهُ فيرى في ذلك الجسر تحتهُ قُطُر الحديد والعربات على اشكالها سائرة مجدة من الجانبين وتحتها سفن البخار والزوارق والقوارب لا تعد سائرة فوق الماء وتحتها ارتال عظيمة سائرة بالالوف في سرادب تحت الماء ومن حولها الى الجانبين قطُر وعربات لا تعد ولا تحصى سائرة على وجه الارض في كل جهة — فاذا ما رأى الغريب كل هذا صفر عجباً لعظمة الانكليز ومقدار اشتغالهم واتساع نطاق اعمالهم وعظمت عاصمتهم الكبرى في عينيهِ فوق عظمتها المعروفة . ومما يجمل ذكرهُ هنا ان عربات الاجرة في لندن جميلة نظيفة تجرها خيول عظيمة فاذا كانت بحصان واحد فاجرة الركوب فيها عن كل مسافة لا تزيد عن ميل واحد شلن او بحصانين فالاجرة شلن ونصف واذا زادت عن ميل ارتفعت الاجرة بحسب المسافة ولا لزوم لمساومة الحوذي او مشارطتهِ فانك متى تدخل العربة ترى اللائحة في صدرها

فتدفع على مقتضاها بدون مراجعة . والعربات في بلاد الانكليز كلها تسير على الشمال وهذا خلافاً لباريس واكثر العواصم الاوروبية فانها تسير على اليمين

واذا كان المسافر يرى كل هذه الحركة ويظنها قليلة فعليه ان يزور ميناء لندن وما حولها فيرى العجب ويتحقق اذ ذاك ان تجارة الانكليز تصل كل صقع بعيد وان مملكتهم لا تغيب الشمس عنها ويرى من الضجة والجد في العمل وكثرة السفن والعمال والابضعة ما يحير العقول ويشغل الاذهان فان طول المينا اربعة اميال يدخلها كل عام ما يزيد عن عشرين الف سفينة تنقل الابضعة الى انكلترا وتأخذها منها وكلها تفرغ من البواخر والسفن بآلات بخارية لها دوي وقرقعة عظيمة . ويمكن لثلثماية سفينة بصنادلها ان ترسو في هذا المينا العظيم فالذي يقف على مقربةٍ من احد الارصفة التابعة للمينا ويتأمل تلك العربات التي لا تحصى ذاهبة وآيبة لنقل البضائع وهاتيك الالوف من العمال تشتغل بلا انقطاع يعلم انهُ في مقر الحركة الكبرى ومركز تجارة الارض بلا خلاف

واما اذا شاء المرء ان يرى بعض ما في لندن من المتاحف والمعارض والمشاهد الكبرى والمحلات المشهورة فاوفق ما يكون لهُ ان يبتدئ من عند كنيسة مار بولس المعروفة وهي في اواسط المدينة تعد اعظم كنائس الانكليز وتقام فيها اكثر الاحتفالات العظيمة مثل احتفال اليوبيل الذي سنذكرهُ طولها ٥٠٠ قدم وعرضها ١١٨ ولها قبة عظيمة تعد من غرائب البناء الجديدة محيطها من الداخل ٢٢٥ قدماً وعلوها ٣٦٥ فهي من اعلى ابنية الارض . وفي ساحة هذه الكنيسة من الخارج تمثال الملكة حنه التي نظمت في ايامها قوانين الكنيسة الانكليزيَّة على ما تقدم في فصل التاريخ وتماثيل الرسولين بطرس وبولس وفي داخلها قبور وتماثيل لكثيرين من عظماء الدولة الانكليزيَّة الذين شادوا لها صروح الفخار في هذا العصر وسابق

الاعصار مثل امير البحر نلسون وقائد الجيوش ولنتون وهما اللذين حاربا نابوليون وكسراه ومثل اللورد ملبورن اول وزراء الملكة ڤكتوريا وغوردون الذي قتل في الخرطوم وغيرهم كثار . ولقبة هذه الكنيسة كما قلنا شهرة ذائعة وهم من اعوام كثيرة يشتغلون بتذهيبها وزخرفتها وقد انفقوا على ذلك الاموال الطائلة ويمكن ارتقاء البرج على سلم كثير الدرجات عددها ٦١٦ والتفرج على مدينة لندن من ذلك العلو الشاهق اذا سمحت احوال الجو بذلك فان جو لندن متلبد بالغيوم في الصيف والشتاء واذا اشرقت الشمس فان كثرة البخار والضباب والدخان في الهواء لا تساعد على النظر الى البعيد من المشاهد

وقد اتخذت موضع هذه الكنيسة نقطة مركزية فبعد ان انتهيت منها سرت في روستريت وهو شارع عظيم فيهِ تمثال روبرت بيل الوزير المشهور توفي سنة ١٨٥٠ . وعلى مقربة منهُ ادارة البوسطة العامة واعمالها لا تدركها العقول لانها اكبر ادارة لاكبر عاصمة واشغالها لاكثر الناس حركة واعمالاً ومثلها ادارة التلغراف العمومية وهي تجاهها يكفي ان يقال في وصفها ان فيها ٥٠٠ عدة ترسل كل سنة ٤٠ مليون اشارة والعمال فيها لا يرفعون رؤُوسهم من العمل مدة النهار بطولهِ او مدة نوبتهم وبينهم كثار من البنات في كل فروع البوسطة والتلغراف . وايراد الدولة لا يقل عن ١٤ مليون جنيه كل سنة من هذه المصلحة بعد كل نفقاتها الهائلة . وسرت من تلك النقطة الى موضع هو مركز مدينة لندن حيث قام القصر المعروف باسم مانشن هوس او هو قصر اللورد مايور حاكم لندن ودار المحافظة . والموضع مثل مثلث في احد جوانبهِ هذا القصر وفي الجانب الثاني بنك انكلترا المشهور وفي الثالث البورصة وفي الوسط ساحة كبرى لا يمكن للانسان ان يدرك مقدار الحركة الدائمة فيها الاَّ اذا رآها بعينهِ . وفي دار المحافظة هذه صور محافظي لندن

من اول عهدهم الى الآن وتماثيل بعض المشاهير مثل بامرستون ودربي وغيرهما .
وقاعات هذَا القصر نخيمة فاخرة لا محل لوصفها

واما بنك انكلترا فانهُ في ملتقى شوارع كثيرة بني من دور واحد بناءً متيناً فاخراً ومساحة ارضهِ ١٦٨٠٠ متر تحرسهُ فرقة من الجنود وفيهِ ثلثة آلاف عامل ولهُ مدير ينتخب من بين التجار المساهمين كل ٥ سنوات مرة ومجلس ادارة. وهو اقدم بنك في انكلترا أُسس سنة ١٦٩٤ وظلَّ يرتقي حتى صار مخزن اموال الامة والحكومة واشهر مصارف الارض طرًّا يدخل اليهِ من المال ويخرج منهُ كل يوم نحو مليون جنيه وفيهِ من النقود على الدوام نحو ٢٠ مليوناً ومن الاوراق المالية نحو ٢٥ مليوناً واوراقهُ شائعة في كل بلاد تعد احسن من النقود قيمةً وهو على الجملة مركز مال الارض واكبر البيوت الماليَّة فيها. واما البورصة تجاههُ فجل ما يعلم العامة عنها انها بناء عظيم يتضارب فيها الموسرون بالالوف والملايين وقد نقش فوق اعمدتها الضخمة من الخارج صور الحاصلات التي يتجر بها الانكليز في جميع الاقطار وفي صدر الساحة تمثال الملكة ڤكتوريا واما الدخول الى البورصة فغير مباح الاَّ للمشتركين واعمالها سريَّة محضة خلافاً لمعظم البورصات الاوروبيَّة فالذي يريد التأمل بعظمة لندن عليهِ بهذهِ النقطة والشوارع المحدقة بها لا سيما شارع ثردنيدل وهو القائم بهِ تمثال مستر بيبودي المحسن الاميركي المشهور وقد كان من امر هذا الخير الكريم انهُ اتجر في بلاد الانكليز واثرى ورأى شقاء فقرائهم فجاد بنصف مليون جنيه لتبنى بها بيوت صحيَّة لهؤلاء الفقراء بدل اكواخهم العفنة ولم يجد كريم في الايام الحديثة بهبة كبرى كهذه فعظم قدر الرجل عند الانكليز وارادت الملكة ان ترقيهُ الى رتبة سر وتجعلهُ من النبلاء ولكنهُ وهو اميركي لا يعرف للالقاب قيمة اعتذر عن قبول هذا الشرف فارسلت اليهِ جلالتها كتاباً بخط يدها تشكرهُ على مروَّتهِ وارفقت

بالكتاب رسمها الكريم. ولما مات هذا المحسن جمع الانكليز مالاً بالاكتتاب واقاموا هذا التمثال لهُ وبنوا بمالهِ بيوتاً للعمال تضمُّ الآن عشرين الف نفس وتقدر قيمتها بنحو مليوني جنيه وقد كان احسانهُ في وطنهِ بالولايات المتحدة اكثر من احسانهِ في لندن رحمهُ الله رحمة واسعة واكثر من امثالهِ بين الناس

وبعد هذا اتجهت في اليوم التالي الى الرصيف المعروف باسم الملكة ڤكتوريا بني على ضفة التمز من الجهة الغربية وطولهُ ٢٣٠٠ متر وعرضهُ ٩٤ متراً وهو من اعظم شوارع لندن اتساعاً واكثرها جمالاً لانهُ يشرف على النهر وقد زرعت الى جانبيهِ الاغراس وانواع الشجر ورصع الجانب الآخر بافخر انواع البناء مثل نادي الاحرار وفندق ساڤوى وفندق سسل وهو من اهم فنادق لندن وقد جعلوا اوسط هذا الرصيف للعربات بعرض ٦٤ متراً والى كلٍّ من الجانبين طريق للمشاة فترى الناس يتمشون هنا الوفاً في اوقات الصحو ويتنقلون في الحدائق الصغيرة الملاصقة لهذا الممر العظيم ويتأملون ما في النهر من ماء وسفينة وقد انفقوا مليوني جنيه على هذا الرصيف وهم الآن شارعون في تطويلهِ . وهناك المسلة المصريَّة التي نقلها الانكليز بعد عناء وافر من الاسكندريَّة ووضعوها حيث يمكن ان ترى من جهات عديدة كما وضعت المسلات المصريَّة الاخرى في باريس ونيويورك وهي من مشاهد لندن المذكورة ولهذه المسلَّة تاريخ مفيد فانها على ما يظهر من كتابات قديمة عليها صنعت في ايام تحوتمس الثالث في سنة ١٥٠٠ قبل المسيح ونقلت على عهد اوغسطس قيصر الى الاسكندريَّة في بدء التاريخ المسيحي فظلت بها الى ان ملك البلاد محمد علي باشا خديويها الاول وقدمها هدية لحكومة انكلترا فقبلتها ولكنها لم تهتم بنقلها حتى اذا جاءَت سنة ١٨٧٧ تبرع احد رجالها واسمهُ واسون بعشرة آلاف جنيه لنقلها الى لندن فنقلت على صندل من الخشب جرتهُ

باخرة كبيرة ولكنها غرقت في الطريق بسبب نوءٍ اصابها في خليج بسكي فاخرجوها في السنة التالية ووضعوها في الرصيف المذكور وكتبوا على بعض جوانبها ما يشير الى خلاصة تاريخها الذي ذكرناهُ

وقد ركبتُ سفينة بحريَّة من احدى نقط الرصيف هذا وذهبت الى برج لندن المشهور وهو الآن متحف للسلاح والجواهر لهُ حراس من الجنود الطاعنين في السن يلبسون ملابس الحراس القديمة وفي مدخلهِ مدفع جميل منقوش نقشاً تركيًا أُهدي من السلطان عبد المجيد للدولة الانكليزيَّة جزاء اشتراك جنودها في حرب القرم مع جنود الدولة العليَّة . وقد قام هذا البرج على ضفة النهر واحاطت بهِ خنادق حفرت ايام كان يلزم البرج للحرب والحصار فانهُ بناهُ وليم الظافر واستعمل بعد ذلك لحبس الكبراء وتعذيب الناس من اعداء الملك كما استعمل الباستيل في باريس . ولطالما حدثت في هذا البرج اهوال وفظائع لم تزل آثار بعضها باقية الى الآن من ذلك خنق الولدين البريئين ابناء الملك ادورد الرابع بامر عمهما الطاغية رتشارد الثالث وكان ذلك في ايام حروب الوردتين وقد وجدت عظامهما تحت سلم قاعة الاجتماع . وهنا سجنت الملكة اليصابات بامر اختها الملكة ماري وأُغرق الديوك اوف كلارنس اخو الملك ادورد الرابع وقتل هنري السادس . وهنا ايضاً قطع راس الملكة حنه بولن والدة الملكة اليصابات ولم يزل موضع قتلها معروفاً يراهُ كل داخل الى هذا البرج القديم وفيهِ قُتلت الكونتس سولسبري سنة ١٥٤٢ واللورد سيمور الاميرال سنة ١٥٤٩ . هنا أَيضاً سجن الملوك الاجانب الذين اسرهم الانكليز مثل داڤد بروس ملك اسكوتلاندا و يوحنا ملك فرانسا وقد مرَّ ذكرهما في فصل التاريخ وهنا حدثت حوادث كثيرة يتذكرها المرءُ معتبرًا بنوائب الدهر لا محل لسردها الآن

فانت ترى من هذا ان اسم برج لندن كان يرجف الابدان في سابق الزمان واما الآن وهو متحف بديع الى جانب النهر ومن ورائهِ جسر عظيم سبقت الاشارة اليهِ فقد صار من المتنزهات واماكن الفرجة فانهُ متحف للسلاح من قديم وحديث وشرقي وغربي على جميع الاشكال وضعوهُ في غرف شتى مرتباً ترتيباً تسهل معهُ المطالعة والذي يدخلهُ يرى هيئة المحاربين الاول من اهل اوروبا بخوذهم ودروعهم وملابسهم وخيلهم وسلاحهم كلهِ ويلزم للفرجة على هذه الملابس والاسلحة زمان طويل لا سيما اذا عرف المتفرج ان هذا السيف كان في يد الملك هنري يوم اخضع فرانسا وهذا الرمح جاء بهِ ريكاردوس الى فلسطين ايام الحروب الصليبيَّة وهذا الخنجر كان في يد ملك اسكوتلاندا حين اسرهِ وغير ذلك من الآثار العظيمة لا محل لذكرها . ومن اغرب الآثار هنا الرايات القديمة غنمها الانكليز في بعض الحروب وملابس الملوك القدماء من بعد سنة ١٢٧٢ وغير هذا من آثار الاقيال الانكليز ودلائل حروبهم الماضية

وفي البرج قسم هو في منتهى الجمال تؤمهُ الالوف كل يوم اريد بهِ القسم الذي اودعت فيهِ جواهر المملكة الانكليزيَّة في علب من الزجاج احيطت بقضبان من الحديد والنحاس وهي تبهر الانظار بانوارها الساطعة وجمالها الفائق منها تاج الملك تشارلس الثاني ظلَّ الملوك يستعملونهُ الى ايام الملكة الحالية وقد سرق مرة سنة ١٦٧١ واعيد من سارقيهِ بعد عناء كبير. وللملكة فكتوريا تاجٌ آخر صنعتهُ في بدء حكمها وهو عظيم القيمة فيهِ ٢٧٨٣ الماسة غير الجواهر الاخرى . وفي تلك الخزائن ايضاً غير هذين التاجين صولجان الملك من الذهب الخالص مرصعة قبضتهُ بانفس الجواهر وتاج ولي العهد وتاج قرينتهِ ومجوهرات ملوك انكلترا وملكاتها السابقين تبلغ قيمتها نحو ثلثة ملايين جنيه . والى جانب هذه المجوهرات النفيسة امثلة من

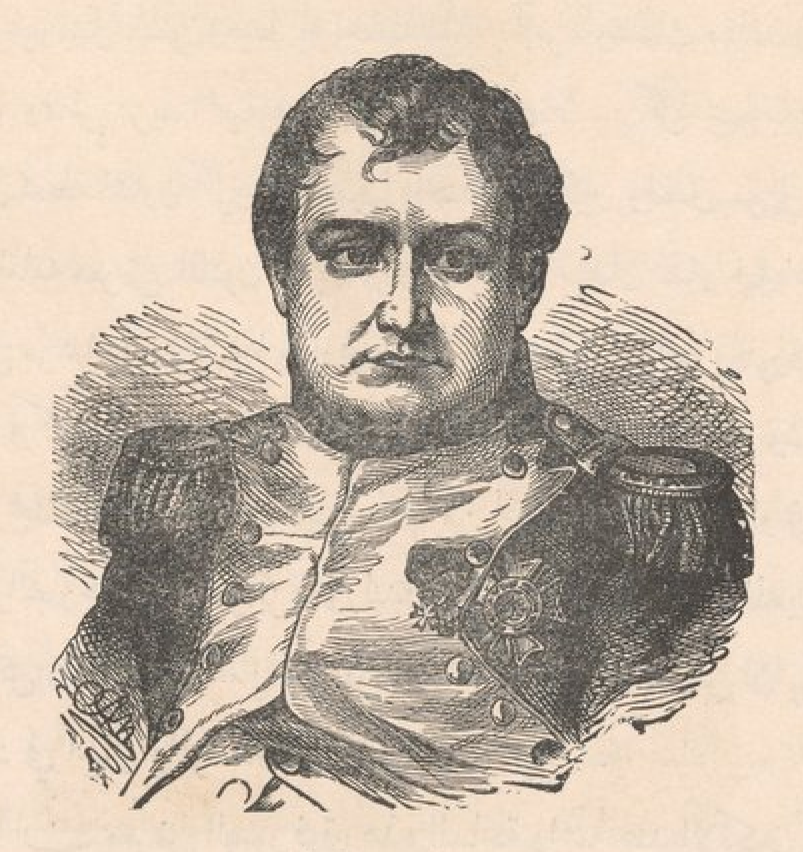
الوسامات الانكليزيَّة والاوروبيَّة فرشت على قطيفة حمراء ولها شكل بهي وقطعة من الزجاج تمثل الالماسة المشهورة كوه النور التي مرَّ ذكرها وغير هذا كثير اعرض عن ذكرهِ حبًّا بالايجاز الذي التزمتهُ في وصف معارض لندن لانها كثيرة لا يمكن التطويل في وصفها



صورة الاميرال نلسن

وقد مرَّ بك ان هذه العاصمة الكبرى مشهورة بكثرة ميادينها البهيَّة واشهر هذه الميادين بلا مراء ساحة ترافلجار سميت بهذا الاسم تخليدًا لذكر نلسون ومعركة ترافلجار البحريَّة التي جرت عند شطوط اسبانيا على مقربةٍ من جبل طارق سنة ١٨٠٥ وقد اقيم في وسطها عمود رفيع باسق وفي اعلاهُ تمثال نلسون والقاعدة من نحاس المدافع الفرنسوية التي غنمها الانكليز في حروبهم البحريَّة لها ٤ جوانب

يمثل احدها معركة ترافلجار هذه وقد كان الانكليز فيها يحاربون اسطولي اسبانيا وفرانسا معاً فخطموهما تحطيماً ونجت انكلترا بهذا النصر من تحكم نابوليون لانهُ كان قد اعدَّ جيشاً مؤلفاً من ١٧٢٠٠٠ من المشاة و ٩٠٠٠ من الفرسان واعدَّ ٢٤١٣ سفينة لنقل هذا الجيش القوي من شطوط بلادهِ الى انكلترا فلولا انتصار الانكليز



صورة نابوليون الاول

في ترافلجار لتمكن نابوليون من الوصول الى انكلترا وسحقها ولا عجب اذا اكبر القوم بعد هذا ذكر نلسون وحروبهِ . ونقش على جانب آخر من القاعدة رسم معركة كوبنهاجن وهي التي انتصر فيها نلسون على الدنمارك كما تقدم في بابهِ. وفي الجانب الثالث رسم استلام السيف من القائد الاسباني بعد معركة سان فنسان وفي الجهة الرابعة رسم معركة ابي قير وكلها كان النصر فيها للانكليز تحت قيادة نلسون ايضاً

ويرى المتأمل في تلك القاعدة جملة صارت من آيات التاريخ يتداولها الانكليز خلفاً عن سلف ويحنون الرؤوس لذكرها لانها كانت شعار نلسون كتبها في اعلى سارية ليراها كل جنوده يوم معركة ترافلجار وهي " ان انكلترا تنتظر من كل فردٍ ان يقوم بالواجب عليهِ " — وفي هذه الساحة تماثيل كبراء كثيرين من القواد والساسة غير تمثال نلسون تحيط بهِ احاطة الهالة بالقمر . وهنالك مقاعد وبرك تتفجر منها المياه وممشٍ تزيد اهميةَّ هذا الميدان لانهُ محاط من كل جهة باعظم مشاهد لندن فان محطة تشارن كروس وفندقها والفندق الكبير وفندق مورلي بنيت على جوانبهِ وامامه معرض الفنون الجميلة ووراءهُ بقليل ميدان لستر فيهِ اعظم مراسح لندن مثل مرسح امباير والهمبرا وغيرهما . ومنهُ يرى مجلس النواب واللوردة ودواوين الحكومة وكثير من النوادي المشهورة ويتفرع منهُ شارع ستراند وشارع فليت وشارع ريجنت وبال مال وبكادلي وكلها من اعظم شوارع لندن او هي اعظمها . فميدان ترافلجار هذا نقطة مركزية في لندن واقع في طرف الستي او المدينة الاصليةَّ ولا بدَّ لكل زائر ان يراهُ من اول يوم كما انهُ لا بد لزائر باريس ان يرى ساحة الكونكورد في الحال والموضعان متشابهان في الاهميةَّ

قلنا ان معرض الصور فوق هذه الساحة واسمهُ عند الانكليز " ناشيونال جالري " وهو من المتاحف العظيمة انفقوا على بنائهِ ثلثماية الف جنيه وما زالوا يزيدونهُ اتقاناً وزخارف من عام الى عام وقد ابتاعوا انفس الصور ووضعوها في غرف هذا المعرض الفسيحة ولو شئنا عد شيء قليل من تحف هذا المعرض لضاق بنا المقام ولكن القارئ يعلم مقدار اهميتهِ من القول ان الحكومة ابتاعت بعض صورهِ بالمال الوفير فانها دفعت تسعة آلاف جنيه ثمن صورة واحدة تمثل السيدة وولدها من صناعة ليولانارود دي فنسي . واهم من هذا صورة العذراء من صنع

رفائيل المصور المشهور اشترتها الحكومة لهذا المعرض بسبعين الف جنيه من الديوك اوف مارلبرو وهي اغلى صورة في الوجود لم تبلغ صورة اخرى ربع ثمنها الى الآن . وقد درت في جوانب هذا المتحف واعجبت باتقان بنائهِ وزخارفهِ ونخامة عمدهِ في المدخل الكبير وهي من الرخام السماقي الثمين تليها درجات من الرخام الابيض عريضة والداخل من تلك الواجهة العظيمة يشعر بالعظمة والوقار قبل ان يرى ما في المعرض من نفيس الآثار

واما الجانب المقابل لهذا المتحف من ساحة ترافلجار ففيه مركز الوزارات الانكليزيَّة وهي ابنية عظيمة نخيمة متوالية بعضها وراء بعض في شارع اسمهُ دونن ستريت يطل على حديقة سان جيمس المشهورة باتقانها واجمل هذه الابنية من الخارج لوزارة المستعمرات ومن الداخل لوزارة الخارجية حيث يستقبل السفراء وامراء الاجانب وتولم بعض الولائم العظيمة . ويلي هذه الابنية الشاهقة قصر سان جيمس مقر ملوك انكلترا الاول لم يزل على حالتهِ القديمة دليل ميل الانكليز الى المحافظة على القديم وامامهُ جنود من الايات الحرس بتلك القامات الطويلة والوجوه الجميلة والملابس الثمينة يخطرون وهم فرجة للناظرين يقضون الوقت بالتمشي لا يلتفتون الى شيء آخر فاذا كلمتهم الف مرة لم يظهروا انهم شعروا بوجودك او سمعوك. وعلى الابواب جنود منهم على الخيل وملابسهم نخيمة جميلة يقف الجندي فوق حصانهِ ساعتين في موضعهِ فلا هو يتحرك ولا الحصان يتقلقل كل تلك المدة ولمنظرهم مهابة ووقار كثير

ووراء هذه القصور بناء البارلمنت العظيم وهو مجلس نواب الامة ولورداتها وعظمتهُ لا تخفى على احد لانهُ مركز قوة الدولة حيث تتلى اعظم الخطب السياسية والمحاورات وقلَّ ان يمرَّ يوم لانسمع فيهِ ان فلاناً قال قولاً خطير الشأن في هذا

المجلس العظيم . والبناء من خارجهِ في غاية الفخامة والجمال يندر ان ترى في الارض اعظم منهُ اتقانًا ومهابة ولهُ برج عظيم في اعلاهُ ساعة كبرى تسمع دقاتها الى بعد باعد وقد بني الى ضفة التمز وصنعت لهُ الماشي والارصفة عند الماء يجلس اليها الاعضاء للسمر وتناول المرطبات حين الفراغ من الاعمال ويكثران يدعوا الى ذلك الموضع اصحابهم من السيدات والرجال فيراهم الراكبون في السفن من النهر ويتأملون عظمة الموضع الذي تدار فيهِ سياسة اكبر الممالك واكثرها نفوذًا . وقصر وستمنستر هذا او مجلس البارلمنت يشغل مساحة ٣٣٩٠٠ متر وفيهِ ١١ ردهة او حوشًا ومائة سلم و١١٠٠ غرفة يمكن للناس ان يدخلوهُ في اوقات معلومة للتفرج على بعض جوانبهِ واما دخول القاعات التي يجتمع فيها اللوردة والنواب وسماع المداولات المهمة فلا يمكن الاَّ باذن من احد الاعضاء . وقد ذهبت الى هذا المجلس العظيم مع صديقٍ قديم لي هو المستر موبرلي بل مدير جريدة التيمس المشهورة ودرت معهُ في تلك الاروقة والقاعات لاعداد لها حتَّى خيل لي انني في بلد انتقل في شوارعهِ ولست في بناء واحد. ورأيت غرفة العرش وغرف الوزراء واللجنات حتَّى دخلت قاعة اللوردة وهي اعلى مجلس في انكلترا وفي الارض كلها ذُهِّبت جوانبها وزخرفت سقوفها وفرشت ارضها بالقطيفة الحمراء وفي جدرانها صور ملوك الانكليز وبعض حوادثهم المشهورة وفي صدر القاعة عرش تجلس عليهِ الملكة حين حضورها وهي الآن لا تفعل ذلك لكبر سنها وقد كانت تجيء لافتتاح البارلمنت وتجلس في هذا العرش مدة الاعوام الاولى من ملكها واما الآن فيتلو الخطاب الملوكي عنها كبير الوزراء او رئيس مجلس اللوردة وحين يتلى هذا الخطاب او غيرهُ من الخطب الملوكية يذهب موظف من مجلس اللوردة الى مجلس النواب في الجانب الآخر من البناء ويدعو النواب الى الحضور لسماع خطاب الملكة فيترك النواب

كل عمل لهم ويبطل كل قول ويتوجه بعضهم لسماع قول الملكة وهي عادة قديمة لم يتحول عنها الانكليز الى الآن. واعضاء هذا المجلس حالاً ٦٥٠ لورداً اكثرهم يرثون هذا اللقب عن الاباء والاجداد وبعضهم يرقى اليهِ باجتهادهِ مثل كرومر وولسلي وكتشنر ولكن لا يحضر المجلس من الاعضاء اكثر من مائة الاَّ في احوال نادرة وليس فيهِ مقاعد لجميع الاعضاء لو حضروا . وفي دائر القاعة من اعلاها مواضع للسفراء والمدعوين واصحاب الجرائد وسنذكر شيئاً من نظام هذا المجلس بعد الكلام عن قاعة النواب

ودخلت بعد ذلك مجلس النواب وهو اقدم المجالس النيابية عمراً واعظمها صولةً تنقل الاسلاك البرقيَّة اقوال اعضائهِ كل يوم الى اقاصي الارض ولكنهُ اذا راهُ الغريب لم يصدق انهُ في ذلك المجلس العظيم لانهُ لا يزيد عن قاعة بسيطة فيها كراسي ومقاعد وفي صدرها محل الرئيس وهم يسمونهُ (سبيكر) او المتكلم عن الشعب بحاجاتهِ . وعدد اعضاء هذا المجلس ٦٧٠ ولكنهم لا يجتمعون كلهم فيهِ الاَّ نادراً ولا يمكن لاكثر من النصف ان يقعدوا فيهِ لصغرهِ وقد ابقوهُ على هذه الحالة لانهُ مجتمع النواب الاول فحافظوا على شكلهِ عملاً بسنة المحافظة التي يميل اليها الانكليز . واعضاء هذا المجلس احزاب كثيرة اشهرها حزب المحافظين ورئيسهم الحالي اللورد سولسبري ويليهِ في الاهميَّة حزب الاحرار رئيسه الحالي السر هنري كامبل بانرمان .ومن احزابهم حزب الاحرار المتطرفين وحزب الاحرار المنشقين والحزب الارلندي وهو يخالف الاحزاب جميعها ويطلب ان تستقل ارلندا في شؤونها الداخليَّة ويكون لها مجلس خاص بها وهي نقطة الخلاف الدائمة بين هؤلاء الاعضاء وزملائهم الانكليز . والنواب ينتخبون كل ٦ سنوات او اقل وهم يجلسون الى كراسيهم ولا ينزعون قبعاتهم مدة الجلسات خلافاً للمتفرجين وهذا امتياز قديم

لاعضاء المجلس حافظوا عليهِ كما انهم حافظوا على عادات قديمة اخرى لا محل لذكرها هنا. وليس لهم رواتب مثل بقية النواب في اوروبا بل هم يخدمون بلادهم بلا اجرة وقد اشتهر عنهم الرزانة والوقار فلا تحدث في مجلسهم الضوضاء واشكال الخصام التي تسمع عن النواب في بعض الممالك الاخرى . وفي مجلسهم مقاعد للمتفرجين وأصحاب الصحف ويتبع محلهم غرف للمداولات وللوزراء واروقة كثيرة فيها رسوم الحوادث التاريخية وتماثيل الرجال العظام من الانكليز

ويقرب من مجلس البارلمنت هذا دير وستمنستر العظيم وهو معبد فاخر يتوَّج فيهِ الملوك ويحتفل بزواج الامراء والكبراء وفيهِ مدفن لمشاهير الامة ايضاً . ويليهِ شارع عظيم اسمهُ شارع فكتوريا يتصل آخرهُ بقصر بكنهام حيث تقيم جلالة الملكة مدة وجودها في لندن وهي لا تقيم فيهِ اكثر من اسبوعين او ثلثة في السنة وبقية ايامها في الضواحي مراعاة لصحتها واشهر مراكزها بالمورال في اسكوتلاندا حيث تقضي زمن الصيف ووندزر وهي قرية مجاورة للندن للشتاء واوسبورن في جزيرة ويط للخريف وجنوبي اوروبا للربيع . والى جانب القصر حديقة جميلة اسمها سان جيمس پارك يليها حديقة اخرى اسمها جرين پارك ويتصل بهذه حديقة اخرى اسمها هيد پارك هي من اكبر حدائق الارض لا تقل مساحتها عن خمسماية فدان ويجتمع فيها الالوف في كل يوم متنزهين لا سيما يوم الاحد حين يخرجون من الكنائس وينقطعون عن العمل وهنالك يخطب الخطباء على السامعين في كل موضوع سياسي او مدني او ديني وتجري العربات الفاخرة لسراة لندن والخيل المطهمة ولا يجوز لعربات الاجرة ان تجتاز طرق هذه الحديقة والذي يريد ان يرى لذة العيش في لندن وثروة سراتها او فقر اوباشها فما عليهِ الاَّ ان يدور في جوانب هيد پارك يرَ ذلك رأي العين

واما شوارع لندن العظيمة فكثيرة ومن العبث ان نصف هنا بعضها ولكننا نذكر منها شارع ستراند اولهُ عند ميدان ترافلجار الذي ذكرناهُ ويليهِ شارع فليت وهو مقر الجرائد واصحاب الاقلام ويقابلهُ في الناحية الاخرى من الميدان شارع بال مال وهو مجتمع النوادي لجميع اشكال الناس وبكادلي وفي آخرهِ قصر نخيم للورد روتشلد الغني المشهور وفيهِ اعظم الحانات والمطاعم الانكليزيَّة ويتصل آخرهُ بشارع ريجنت وهو من حيث غنى المخازن وحسن ابضعتها اعظم شوارع الارض بلا خلاف يشبه اعظم بولفارات باريس وتمرُّ بهِ جميع اشكال الهيئة الانكليزيَّة وفي طرفهِ شارع اوكسفورد لا يقل طولهُ عن ميلين وفيهِ كل اثر للحضارة نخيم ولو شئنا وصف شيء من هذه الشوارع او عد المهم منها كلهِ للزم لذلك المجلدات . يكفي الغريب في لندن ان يتمشى في هذه المثابات الكبرى ويتأمل مخازنها وتحفها فاذا قضى في ذلك عاماً كاملاً لم يملّ الفرجة

واما متاحف لندن ومعارضها فاكثر من ان تعدَّ ايضاً لانها اعظم مدن الارض واشهرها وفيها كل ما يمكن ان يخطر على البال ولعلَّ اشهر معارضها المتحف البريطاني المشهور بالآثار التاريخيَّة لكل ملة وكل امة لهُ منظر من الخارج نخيم وقد قام على عمد بديعة الشكل ومدخلهُ رهيب رحيب يؤمهُ الناس مئات والوفاً حيث يدرسون آثار الامم الدارسة بلا ثمن ويرون بقايا الشعوب الغابرة وقد قسمت اقساماً هنا للروم وهنا للرومان وهنا لمصر وهنا لبلاد اشور والكلدان وليس في الارض معرض آخر فيهِ من الاجسام المحنطة والاثار المصرية البديعة ما في هذا المعرض الاَّ متحف الجيزة. وهنالك من انواع النقود القديمة والحديثة لكل الممالك ما يقصر القلم عن وصفهِ ومحررات وكتب خطت بيد المشاهير من جميع الازمان ومؤلفات غريبة بعضها عربي قديم لهُ قدر وقيمة . هذا غير المكتبة التابعة لهذا المعرض وهي قاعة

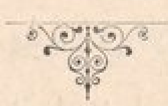
كبرى مستديرة الشكل يدخلها الطالبون باذن خاص من مديرها وفيها نحو اربعماية الف كتاب فاذا دخلها الزائر قعد الى كرسي وكتب اسم الكتاب الذي يريدهُ على ورقة يجدها امامهُ فيأتي خادم من خدمة المحل ويأخذ الورقة ثم يعود بالكتاب ويضعهُ امامهُ بلا حديث ولا لغط فترى العلماء والمنقبين يدرسون هنالك بكل وقار ولتلك القاعة تأثير في النفس عظيم . وقد اشتهر المتحف البريطاني هذَا بما انفق عليهِ من الالوف وما فيهِ من هدايا الانكليز النفيسة والآثار من اشهرها حجر رشيد الذي اهتدى الناس الى العلم باللغة المصريَّة القديمة منهُ وجدهُ العلامة شامبليون الفرنسوي سنة ١٨٠٤ مدة الحملة الفرنسويَّة واخذ منها يوم حاربهم الانكليز فاودع في هذَا المعرض. ومن ذلك آثار بابل ونينوى التي جمعها السر هنري ليارد وغيرهُ وهي اقدم آثار الآدميين وفيهِ غرفة للتحف النفيسة والحلي والجواهر القديمة لا تفتح الاَّ باذن خاص لبعض الزائرين

ومن هذه المعارض متحف كنسنتون نقل من المتحف البريطاني وخص بالفنون الجميلة كالحفر والنقش والتصوير وفيهِ اشكال الآلهة القديمة والرجال العظام كلهم على اختلاف الملل. ومتحف التاريخ الطبيعي وهو بناءٌ جميل في صدرهِ تمثال دارون العلامة المشهور وفيهِ اشكال النبات والطير والسمك والحيوان كلها وهو من المعارض الجميلة في لندن . ومسرح الضواري في حديقة ريجنت ترى فيهِ كل اشكال الحيوانات البريَّة والطيور والزحافات والقرود وهو اكبر معرض لهذه الاشكال وحديقتهُ اجمل الحدائق في لندن واتمها من حيث انها جمعت كل اشكال النبات الغريب وقد كتبت اسماؤُها عليها واعتنى القوم بها اعتناءً كبيرًا . واهل لندن ينتابون هذا المعرض كل يوم الوفًا ليروا اشكال حديقتهِ والحيوانات الكثيرة فيهِ ويتفرجوا على السباع وغيرها حين يقدم لها الطعام عند الظهر . ومن ذلك قصر

البلور في ضواحي لندن بناهُ البرنس البرت زوج الملكة واقام فيهِ المعرض العام سنة ١٨٥٥ وهو اول معرض عام حضرهُ نواب وتجار من كل امم اوروبا وفيهِ الآن غرف تمثل حالة الهياكل المصريَّة وغرف اخرى نقلت عن اشكال المعابد اليونانيَّة وفيها رسوم آلهتهم وقسم مثلت فيهِ سراي الحمراء الاندلسية وحوش القاضي وحوش السباع وهذا المتحف منتزه لاهل لندن تباع في بعض جوانبهِ مصنوعات الفقراء وتعرض بعض الغرائب ينتابهُ الالوف في كل خميس ليروا زينة الانوار في حدائقهِ الفسيحة ولهُ قاعة كبيرة يمكن لعشرين الف نفس ان تقعد فيها يجتمع فيها اولاد المدارس احياناً وينشدون الاغاني المطربة آلافاً مؤَلفة ولمجتمعهم رونق وتأثير عظيم ولا تقل مساحة الحديقة التابعة لهذا القصر عن ٢٠٠ فدان وقد سمي (كرستال بالس) لان بناءهُ من الحديد والزجاج كلهُ وامثالهُ الآن كثيرة في اوروبا . ومن هذا القبيل ايضاً متحف مدام توسو على مقربة من حديقة النبات التي ذكرناها فيهِ تماثيل الرجال والنساء العظام بملابسهم المعروفة وقد اتقن الى حد ان الغريب لا يفرق بين التمثال والشخص الحي . وغير هذه المعارض كثير لا يمكن ان نطيل في وصفهِ

وقد اشتهر من لندن قسماها الشرقي والغربي فاما الشرقي ففيهِ المعامل والمخازن الكبرى واكثر الساكنين فيهِ من الفقراء والعمال ومنظرهُ حقير كثير السواد واما القسم الغربي ففيهِ كل الذي ذكرناهُ من المتاحف والمعارض والقصور والحدائق وهو مسكن الاغنياء واهل الترف وليس في الارض بقعة اعظم من البقعة المحيطة بقصر بكنهام في جمال ابنيتها واتساع شوارعها وفخامة مناظرها وثروة أصحابها وكثرة مشاهدها وما فيها من آيات العظمة والاتقان . ومثلها في الجمال واتساع الطرق بعض الضواحي يسكنها الموسرون والاكابر وهم يقضون اعمالهم في المدينة

واشهر هذه الضواحي هامبستد وبرومتون ورتشموند حيث ترى النزهة في الحدائق ونهر التمز قائمة على قدم وساق ويروق لك منظر تلك القصور والاغراس وهيئة الناس الدالة على الترف والنعمة. وفي لندن من تماثيل الرجال العظام ما لا يعد ولا يعدد تراهُ اينما سرت واحسن هذه التماثيل البرت مموريال او تذكار البرنس البرت زوج الملكة اقيم لهُ بعد وفاتهِ في طرف حديقة هيد بمال الامة وانفق على زخرفهِ وتشييدهِ نحو ١٢٠٠٠٠ جنيه ويليهِ في آخر الحديقة الى الشمال قاعة مستديرة كثيرة الفخامة والزخرف اسمها البرت هول يجتمع فيها الالوف للامور الخطيرة وسماع الخطب المهمة وهي تضم نحو عشرة آلاف نفس. وقلَّ ان تسمع باسم رجل عظيم من الذين نبغوا بين الانكليز وليس لهُ تمثال في هذه العاصمة. واما فنادقها فمحاولة عدها خطاءٌ لان الفنادق هنا بلا عدد وبعضها ضخم كبير الى حدٍّ غريب ومطاعمها ايضاً لا حصر لها ولكن اكثرها يقفل يوم الاحد مثل كل المخازن والاماكن العمومية فترى المدينة ذلك النهار في سكون وهدو غريبين حتَّى يخيل لك انك انتقلت من لندن وهي مركز الحركة الهائلة والضجة الكبرى. هذا قليل من كثير ذكرتهُ هنا عن اعظم مدائن الارض مع الاختصار التام وسأتقدم الآن الى وصف الاحتفال بيوبيل الملكة فكتوريا





المرحوم البرنس البرت زوج الملكة

اليوبيل

ولدت جلالة الملكة فكتوريا في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨١٩ وهي ابنة الديوك اوف كنت ابن الملك جورج الرابع وأمها المانية من آل كوبرج. وربيت هذه الملكة في مهد الفضيلة حتَّى اذا توفي عمها سنة ١٨٣٧ ورثت الملك عنهُ بحسب نظام المملكة الانكليزيَّة واظهرت من ساعة تتويجها رقة وشعوراً بالواجب جذب قلوب الناس اليها وجعلهم يجلون مقامها ويحبونها حبًّا مفرطاً واقترنت سنة ١٨٤٠ بابن عمها البرنس البرت امير كوبرج وغوثا وكان الرجل من انجب اهل زمانهِ واعقلهم وابرعهم طالما قام مقام الملكة في المحافل وارشدها في المهمات وقد رزقت منهُ ٤ بنين و٥ بنات مات منهم ولد وبنت والباقون احياء لهم الاولاد والاحفاد وعدد هذه العائلة لا يقل عن ٧٢ نفساً الآن . وقد حدثت في ايامها اعظم الحوادث من ذلك وفاة الديوك اوف ولنتون سنة ١٨٥٢ وهو البطل العظيم الذي انتصر على نابوليون في معركة واترلو وفلَّ جيوشهُ في كل معركة اخرى وانتشبت حرب القرم المشهورة سنة ١٨٥٥ فاظهر فيها جنود الانكليز مقدرة وبسالة كبرى ولكنهم ذاقوا المرَّ من البرد والعوز وسوء تدبير القواد وعقدت بعدها معاهدة باريس المشهورة سنة ١٨٥٦. وزارها امبراطور فرانسا نابوليون الثالث والسلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٧ وثارت الهند ثورة عامة سنة ١٨٥٧ فعادت الى الخضوع بعد حرب هائلة ثم صارت حكومتها في يد رجال الدولة الانكليزيَّة بدل حكومة الشركة القديمة وتحارب الانكليز واهل الصين بسبب تجارة الافيون سنة ١٨٤٠ فكان النصر للانكليز . وضمت في افريقيا واسيا الممالك الواسعة. وانشئت المستعمرات وصارت الهند سلطنة وملكة الانكليز سلطانتها وتقدمت الامة الانكليزية تقدماً لم يسبق لهُ نظير في ايام

هذه الملكة العظيمة التي اشتهرت بالفضائل ولم تغضب شعبها مرة واحدة مدة حكمها الطويل . ولما بلغت الخمسين من حكمها احتفل الانكليز بذلك العيد احتفالاً عظيماً دعوا اليهِ ملوك الارض وامراءها ولكنهم عادوا الى احتفال اعظم من سنة ١٨٩٧ حين تمَّ على الملكة ستون عاماً وهي فوق العرش وكان هذا هو اليوبيل الذي نحن في شأنهِ

وكانت الحكومة الانكليزيَّة والامة قد استعدت لذلك الاحتفال الباهر قبل زمانهِ بمدة طويلة وظلَّت الجرائد اشهرًا واعواماً تكتب عنهُ وتقدم الآراء في وجوه اظهارهِ وجمع الافراد والجماعات في المملكة الانكليزيَّة والمستعمرات مبالغ طائلة لتنفق على الزخارف والزينات في يوم الاحتفال ولتقدم بها الهدايا لجلالة الملكة او لتنشأ المدارس والآثار الدالة على ذلك العيد العظيم الذي لم يدوّن لهُ التاريخ مثيلاً فانهُ لم يملك في الارض ملك او ملكة ٦٠ عاماً على سلطنة لا تغيب الشمس عنها مثل سلطنة الانكليز الاَّ اثنان هما لويس الرابع عشر ملك فرانسا وجورج الرابع ملك انكلترا وكلاهما لم يكونا على تمام القوى العقليَّة مدة حكمهما الطويل . وارسلت حكومة انكلترا في اوائل سنة ١٨٩٧ كتباً الى ملوك الارض وامرائها ووزرائها تعلنهم ان الاحتفال العظيم بمرور ستين عاماً على حكم الملكة فكتوريا يتم يوم ٢٢ يونيو من تلك السنة فانتدبت كل دولة وفدًا من عظمائها يحضر ذلك الاحتفال بالنيابة عنها وكان رئيس الوفد في اكثر الاحيان من امراء الدولة المالكة او ولي عهدها او اقدم وزرائها وبعض الملوك ذهبوا بانفسهم مثل ملك البلجيك وملك سكسونيا وملك اليونان وملك الدنمارك وغيرهم . وارسلت الوزارة الانكليزيَّة الى سلطنة الهند والمستعمرات تدعوها لحضور هذا الاحتفال فجاء من كل مستعمرة وزيرها الاول مع قرينتهِ واستأجرت لهم الحكومة فندق سسل من اشهر فنادق

لندن في شارع ستراند فاقاموا فيهِ مدة الاحتفال ضيوف دولتهم وكذلك
جاءَ من كل مستعمرة نفر من الجند فكنت ترى العساكر الاوسترالية والكندية
والقبرسية والهندية والصينية والملقية والمالطية والافريقية على اشكالها وانواعاً من
الجند والناس اتت من مشارق الارض ومغاربها حيث يخفق العلم الانكليزي الذي
يتظلل بظلهِ في ايام الملكة فكتوريا نحو خمس البشر جميعهم وهو عدد لم يحكم مثلهُ
واحد من بني آدم قبلها . وكان منظر هؤلاء الاقوام المختلفة ومنظر ضباط الجيش
الهندي بملابسهم المزوقة وعمائمهم المزخرفة يستحق الذكر والاعجاب ويشير اشارة
واسعة الى سعة السلطنة الانكليزيَّة وقوتها الهائلة . ودعي الى هذا الاحتفال ايضاً
قواد الاساطيل الانكليزيَّة والجيوش البريَّة واعضاء البارلمنت ومجالس الشورى
والبلديَّة والوزراء السابقون وكل ذي حيثيَّة ومقام فكان في ذلك المشهد العظيم من
امراء الارض وملوكها وقوادها ووزرائها واصحاب المقام الخطير فيها ما لم يتفق اجتماعهُ
في نقطة واحدة من عهد تأسيس الحضارة الحديثة ولا غرو اذا قيل ان اليوبيل كان
اعظم اعياد المتمدنين من يوم وجودهم

واما عن استعداد الاهالي والزينات الباهرة في كل جوانب لندن وفي
الشوارع التي تقرر ان يمرَّ بها الموكب العظيم في ذلك اليوم المشهود فحدث ولا تسل
لان حلقات الزهر والاعمدة والقبات والمصابيح والكرات والرايات واشكال الزينة
الاخرى كانت متواصلة متوالية من قصر بكنهام الذي خرجت منهُ الملكة وبقيَّة
الكبراء الى كنيسة مار بولس التي اقيم فيها الاحتفال الديني ومن هذه الكنيسة الى
القصر في شوارع غير التي قدم الموكب منها وقد استغرق مسير الموكب ذهاباً
واياباً ٤ ساعات ونصف ساعة ومر في شوارع طولها ثمانية اميال حتى يتمكن الناس
من رؤية ملكتهم ومشهدها الباهر في ذلك اليوم من عدة اماكن . وكان الناس

قد استأجروا كل شرفة او كوة او نافذة يمكن لهم ان يقعدوا فيها ساعة مرور الموكب حتى ان اجرة الشباك الواحد في تلك الشوارع لم تقل عن ٥٠ جنيهاً و بعضهم دفع الالوف اجرة غرفة برمتها فان اللورد كرو استأجر غرفة في شارع ستراند لها ٣ شبابيك ليقعد فيها مع عائلتهِ ساعة مرور الموكب ودفع الاجرة اربعة آلاف جنيه وهدمت مواضع قديمة بني موضعها مقاعد من الخشب صفوفاً فوق صفوف فما بقي رصيف ولا سطح ولا مكان حتى احتشد فيهِ المئات والالوف وخيل للناظرين في ذلك اليوم الغريب ان شوارع لندن وارصفتها وابنيتها انقلبت الى مراسح فيها صفوف الجالسين بعضهم يلي بعض اولهم في الارض وآخرهم في اعلى السطوح والكل باجمل هندام مع اولادهم واصحابهم فرحين بذلك العيد الذي طبقت الآفاق بذكرهِ مدة الاعوام الماضية وقد تحلوا رجالاً ونساءً بالوان الراية البريطانية وهي الاحمر والابيض والازرق بعضهم لبسوها ازراراً في سترها او رباطاً للعنق او زينة لملابس الراس او بطرق اخرى تظهر وطنيتهم وفرحهم الكثير وتخلل صفوف الناس هذه في كل جانب تلك الرايات المعقودة على اشكال بهيَّة والزينات الباهرة وشعار الدولة الانكليزيَّة في كل جانب وقد كتب اينما سار النظر "الله يحرس الملكة" باحرف مختلفة الاشكال والالوان

وكان الهواءُ في ذلك النهار صحواً بديعاً يوافق ما تعودتهُ الملكة فكتوريا حين خروجها مدة حكمها الطويل فانها لم تخرج لامر خطير مدة ايامها الاَّ والهواء معتدل والمطر قليل مع كثرة وقوعهِ في بلاد الانكليز حَتَّى صار من مصطلحات القوم انهم يسمون اوقات الصحو "بطقس الملكة" . وابتدأ الموكب العظيم بالخروج من قصر بكنهام الساعة ٨ والدقيقة ٤٥ صباحاً بين دق الاجراس وقصف المدافع وعزف الآلات الموسيقية وصياح الناس من كل جانب فكان للبدء في ذلك الاحتفال تأثير يا لهُ

من تأثير . وكان بدء الموكب خروج فرق من الشرطة والجند لبست ابهى الملابس المعروف جمالها وقد تألقت الوسامات الحربيَّة على صدور الرجال ووقفت الجنود في طول الطريق لحراسة اولئك العظام الذين تألف منهم الموكب والمحافظة على النظام بين الذين احتشدوا لمشاهدة ذلك المنظر الغريب وما كاد النظام يتم والوقت يجيء حتَّى برزت من داخل القصر البهي فرقة من الحرس الملوكي وهم جنود تضرب الامثال بجمال وجوههم وقاماتهم وملابسهم ينتقون من طوال الرجال واصحاب المناظر البهيَّة ويلبسون فاخر الثياب من خوذة نحاسيَّة تلمع كالذهب الوهاج فوقها شعار الدولة الانكليزيَّة وريشة بيضاء وسلسلة تربطها الى العنق وكل هذه تسطع وتلمع ومن دونها سترة حمراء بديعة الجمال مزركشة بالقصب والذهب من اعلاها الى اسفلها وبنطلون ابيض متين لهُ حواشٍ من القصب وجزمة صفراء الى الركبتين وقفاز ابيض في اليدين هذا غير ما على الجواد من الادوات الثمينة فكان منظر اولئك الجنود مما يشرح الصدور وترتاح اليهِ النفوس . وتقدم هذه الفرق من الحرس الملوكي ضابط صغير الجسم ضئيل امتطى جواداً ابيض وقد غطي صدر هذا الضابط بافخر الوسامات وكان في يدهِ عصا المشيريَّة وعليهِ امارات العظمة مع صغر جسمهِ فعرف الناس في الحال انهُ بطلهم المغوار والليث الكرار اللورد روبرتس الذي قاد جنود الهند وانكلترا في مواقع الهند وبرما وايران وافغانستان وشاد لدولتهِ صروح الفخار فصاحت تلك الجماهير لرؤيتهِ فرحة مرحبة ونادت الالسن ان ليعش روبرتس وكان بعضهم يقول "براڤو بوب" وهو اسم هذا القائد العظيم عند العامة التي تحبهُ حبًّا مفرطًا فكان بدء الموكب ببروز هذا القائد العظيم استهلالاً بديعًا . وتوالت بعد ذلك فرق لا عدَّ لها ولا حصر من فرق الجيش الانكليزي وجيوش المستعمرات وكان وراء كل فرقة وزير المستعمرة التي جاءَت منها الجنود في

عربة خاصة بهِ مع قرينتهِ . وجاءت بعد هذه فرق من بحرية انكلترا وتلامذة مدارسها البحرية فكانت تلك الجموع تصيح مرحبة بها صياحاً دوت بهِ الآفاق لان الانكليز يفخرون بقوتهم في البحار وهي عنوان ملكهم الوسيع فما رأى البحرية من اكرام الناس لهم مثل ما رأوا في ذلك اليوم العظيم . ومرَّت بعد هذا فرق الجيش الهندي فصفق لها الناس كثيراً وبالغوا في اكرامها مبالغة ثم توالت عربات الوفود القادمة من كل مملكة فكانت الجماهير كلما عرفت اميراً عظيماً او مندوباً سامياً تنادي مرحبة بهِ وتعظم قدرهُ وقد خصوا بالاكرام الجنرال ميلز قائد جنود الولايات المتحدة ومعتمدها في ذلك الاحتفال والبرنس هنري البروسي شقيق الامبراطور ورئيس الوفد الالماني والغراندوق سرجيوس عم القيصر ورئيس الوفد الروسي. وظلَّ القوم يرحبون بهذه الجماعات وقد جاء وراء الوزراء اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب والمجالس البلدية وحكام الولايات وتلامذة المدارس الحربية والبحريَّة حتى اذا تعددت الاشكال ومرَّت فرق العظماء على مثل ما تقدم برز من وراء الجند امراء امتطوا صهوات الجياد وفي جملة هؤلاء الامراء العظام الغراندوق سرجيوس الروسي عم جلالة القيصر والبرنس هنري الروسي شقيق امبراطور المانيا والارشدوق فردناند النائب عن امبراطور النمسا وسمو البرنس محمد علي شقيق الجناب الخديوي وامير الجبل الاسود وولي عهد السويد وولي عهد الدنمارك وملك سكسونيا وولي عهد رومانيا وكثار غير هؤلاء من امراء اوروبا واقيال الهند والممالك الشرقية . وكان من وراء هؤلاء الامراء عربة الملكة ووراءها ولي العهد البرنس اوف ويلس واخوهُ الديوك اوف كونوت وابن عم الملكة الديوك اوف كامبردج والكل بفاخر اللباس العسكري والوسامات العالية على ظهور الجياد فكانت جماهير الناس كلما رأت احد الرجال العظام او كلما وصلت جلالة الملكة الى احد المواضع ترفع اصواتها الى

السماء طرباً وترحيباً بهِ وتكرَّر هتاف الناس وتصفيقهم وطارت في الفضاء قبعاتهم ولاحت في الهواء مناديلهم وظهر لهم من الحماسة والفرح ما لم يروَ نظيرهُ عن الانكليز وكانت جلالة الملكة في عربة فاخرة يجرها ثمانية من جياد الخيل وقد قعدت في صدرها والى يمينها ابنتها البرنسس كرستيان والى يسارها ابنتها الاخرى البرنسس هنري باتنبرج وسار امامها في طليعة هذا الموكب العظيم اللورد ولسلي القائد العام لجيوش انكلترا كلها وصاحب النصرات المتوالية في جهات الارض وهو من اركان الدولة الانكليزية واكبر مشيدي صروح العز والمجد لها في ايام هذه الملكة السعيدة



جلالة الملكة في عيدها الستيني

ويضيق بنا المقام لو وصفنا عشر معشار الذي تلا مركبة الملكة والذي تقدمها او الذي اتتهُ ملايين الناس في ذلك اليوم المشهود ولكننا نكتفي بالقول ان هذا الموكب الهائل وصل كنيسة مار بولس وكان الذين تقدم ذكرهم من وزراء المملكة



جلالة الملكة ووزرائها

ونوابها وقوادها ووزراء المستعمرات الانكليزيَّة وغيرهم قد سبقوا جلالة الملكة الى تلك الكنيسة حيث اقيمت الصلوات شكراً لله على ما انعم على الملكة من طول العمر والتوفيق العجيب لها ولمملكتها الزاهرة وهذه عادة الانكليز يجعلون مدار كل احتفال كبير على الصلاة . وحضرت تلك الوفود هذه الصلاة فسمعت الالوف تنشد نشيداً خاصاً بذلك الاحتفال كتبهُ احد اساقفة الانكليز وحفظهُ الناس حتَّى اذا جاءت ساعة انشادهِ اشترك الجماهير المحيطون بالكنيسة من كل جانب بترتيلهِ فكان لذلك المشهد وقع غريب وتأْثير خارق في جميع النفوس

ولما جاءَ المساءُ اولمت في قصر بكنهام وليمة فاخرة لنحو اربعمائة ضيف من هؤُلاءِ الملوك والامراء والكبراء وتلا الوليمة مرقص بهي حضرهُ نحو ثلثة آلاف نفس من نخبة اهل الارض ظلُّوا الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل في تفتل وتمايل ولهو وسرور وامراءُ الدولة الانكليزيَّة بينهم يلاطفون الجميع . كل هذا ومدينة لندن في زينة من الانوار تبهر الابصار وقد قام قائم المصابيح والاشعة الكهربائيَّة في كل جانب وظهرت صورة الملكة وشعارها والدعاءُ لها وسني حكمها ١٨٣٧ — ١٨٩٧ بالمصابيح الصغيرة المختلفة الالوان فكنت ترى شوارع لندن كلها زينات وراءَ زينات فكأَنما انت في ارض مسحورة تنتقل من آية في الجمال الى آية وقد ازدحمت جماهير الخلق في تلك الميادين الواسعة والشوارع الفسيحة فضاقت بها الارض على رحبها وجعل الناس يمشون كتفاً لكتف وهم بحر زاخر لا يعرف لهُ اول من آخر . ولكن هذا الازدحام العجيب لم يحدث قلقاً ولا اضطراباً فانهُ مرَّ على لندن ثلثة ايام بلياليها وهي في ضجة وحركة ما لها مثيل وتزاحم بين الناس لم يروَ لهُ في تاريخ الاعياد الكبرى نظير وما انتج ذلك شرًّا ولا شكا احد عاقبة سوءٍ بل ان الافراح عمَّت وآيات السرور قامت في كل جانب ولم يقتصر ذلك على دور الحكومة والبنايات

العموميَّة مثل ادارات الصحف وبنك انكلترا وشركات التأمين والمحطات وغير هذا بل ان الزينة تناولت بيوت الخاصة والعامة والفرح تشارك فيهِ الرفيع والوضيع

هذا كلهُ في لندن واما في الجهات الاخرى فان مدن انكلترا والهند والمستعمرات الانكليزيَّة كلها اشتركت في هذا الاحتفال وحيثما وجد انكليز في الارض فهم نظموا لجنة تأتي ما يدل على اشتراكهم في ذلك العيد العظيم . وكان من آيات هذا الاحتفال في انكلترا انهم استعرضوا الجيوش الانكليزيَّة في ضواحي لندن وفي اولدرشوت وسواها من المواقع العسكريَّة وكان تقاطر الالوف لمشاهدة هذه الاستعراضات عجيبًا لاسيما حين استعرضت الفرق التي جاءَت من المستعمرات الانكليزيَّة وهي من كل جنسٍ وملة . واهم من هذا كلهِ استعراض الاسطول العظيم في سبتد وقد جعلوهُ خاتمة الاحتفال دلالة تباهي الانكليز بقوتهم في البحر وكان ذلك الاسطول مركبًا من ١٦٥ قطعة حربيَّة وهو عدد هائل لو تدري فان اكبر اساطيل الدول لا يزيد عدد قطع الواحد منها عن ٢٥ او ٣٠ قطعة وقد تيسر للدولة الانكليزيَّة ان تستعرض كل تلك البوارج والمدرعات والطرادات والنسافات بدون ان تفصل باخرة واحدة من بواخرها الحربيَّة عن مركزها فان اساطيل انكلترا في البحار البعيدة بقيت كلها على حالها وجمع مع ذلك هذا العدد الوفير فاتضح للجميع حينئذٍ ان قوة انكلترا في البحر لا تجارى ولا تبارى. وقد ذهبتُ الى سبتد لمشاهدة هذا الامر المدهش مع الوف سواي اعدت لهم قطارات خاصة قامت من لندن حتى اذا وصلت هذه القُطُر بن فيها انتقل الركاب الى بواخر بحريَّة دخلت انا واحدة منها عظيمة الاتساع اسمها مارغريت فكنا كلما دخل الواحد هذه الباخرة يعطى رسمًا طبع فيهِ شكل البوارج المزمع استعراضها مع اسمائها وطرزها ومدافعها ومركزها بين تلك الصفوف وذلك بانهم رقموا على كل باخرة

نمرة اوضحوها في ذلك الرسم تسهيلاً للاستدلال وكانت تلك الباخرات راسية في البحر صفين عظيمين امتدا مسافة ٢٥ ميلاً فمخرت باخرتنا بين الصفين وجعلت تسير ساعتين ونصف حتَّى وصلت آخر الصفوف ثم عادت فلزم لها ساعتان ونصف ايضاً . واما عن عظمة ذلك المشهد الغريب فلا تسل لاننا كنا بين جبلين او صفين من القلاع الحصينة طفت على وجه الماء وقد زاد على قوتها الهائلة حسن تنسيقها وجمال منظرها وما فيها من عدة وسلاح وهي لو جمع مقدار المال الذي انفق عليها لبلغ ٤٠ مليون جنيه او يزيد . وزاد المنظر رونقاً ان الدول الاخرى ارسلت كل دولة منها بارجة حربية لتشهد هذا الاستعراض فكنا نخترق صفوف هذه الرواسي وكلما دنت باخرتنا من احداها هتف الركاب مسلمين على ضباط تلك البارجة وبحريتها وهم وقوف بالهيئة الرسمية على ظهور بوارجهم ويتبادل القوم الهتاف فرحين حتَّى اتينا على آخر الصف وعدنا وفي النفس من وقار ذلك الاستعراض شيءٌ كثير . ولما انتصف النهار صدر لهذه البوارج جميعها من مركز القيادة العامة اشارة فاطلقت كل بارجة ٦٠ مدفعاً اشارة الى مرور ٦٠ عاماً على حكم الملكة فكتوريا فكان لقصف المدافع دوي هائل تقلقلت لهُ الرواسي وطبقت بهِ جوانب الارض وعدد المدافع التي اطلقتها كل هذه القطع الحربية في تلك الساعة ٩٩٠٠ وكانما هذا كلهُ لم يكفِ القوم حتَّى انهم ابقوا لنا انخر اشكال الزينة برمتها الى الليل حين اضاء الفضاء بما سطع من انوار البوارج الكهربائيَّة فان قطع الاسطول كلها انيرت في لحظة واحدة على حين غرة فظهرت الباخرات كانها شعلة من نار وقد ترقرق الماء من تحتها واتضحت جميع اجزائها وظهرت آيات البهاء كلها فما رأيت دهري اجمل من منظر ذلك الاسطول العظيم وهو لابس حلتهُ الكهربائيَّة . وكان النائب عن جلالة الملكة في هذا الاستعراض ولي العهد سمو البرنس اوف ويلس



البرنس اوف ويلس ولي عهد انكلترا

وظلَّ الفرح قائمًا على مثل هذا في سبتد حتَّى ولَّى الليل وعدنا في الصباح التالي الى لندن في قطر خاصة وكان عمال القطار يهتمون لراحة الصغار والكبار اهتمامًا يذكر لهم مع الشكر فانهُ مع كل هذا الازدحام الهائل لم يشكُ احد الناس تعبًا او مللاً وهذا شأن الموظفين في سكك الحديد من الانكليز في اعيادهم ومواسم سباق الخيل والايام الكبرى يتعبون ليستريح المسافرون ويعودوا الى منازلهم وهم مثل افراد العائلة الواحدة عمهم السرور وشملهم الامن وظهرت عليهم آثار الراحة والارتياح

شأن القوم الذين ترقوا في مدارج الكمال وأُعدَّت لهم كل وسائل الراحة والهناء .
وقد حضرت من بعد هذا اشكالاً كثيرة من الاحتفال بيوبيل الملكة من ذلك انهم مثلوا رواية في مرسح الهمبرا بلندن وهو من مراسحها العظيمة اظهروا فيها تاريخ الملكة فكتوريا بكل ادوارهِ وانفقوا على الاستعداد لهذه الرواية ورسومها وملابسها ومعداتها الاخرى نحو سبعين الف جنيه وكان الممثلون كلهم بنات ذوات حسن باهر لبسنَ الاشكال المختلفة وجعلنَ في بعض الادوار يجتمعنَ للرقص سوية وهنَّ لا يقل عددهنَّ عن مايتي فتاة فكان لرقصهنَّ على الانغام منظر يسحر العقول ويدهش الالباب لا سيما حين جعل بعضهنَّ يتفتل والبعض يترقص وفي الوسط عميدة الممثلات تدور على شكلٍ بهي غريب وقد لبس الكل انفس الاطالس وتحلين بامثلة الجواهر تشع الانوار . وحملت فرقة من هذه الممثلات سعوف النخل ودارت فرقة أُخرى بالمناديل الكبيرة من الحرير الرقيق الملون الواناً بالغة حد الجمال فجعلنَ يقلبنَ في ايديهنَّ هاتيك السعوف والحرائر وهنَّ يرقصنَ ومن فوقهنَّ بنات لهنَّ جمال لا يوصف علقنَ في الفضاء بحبال لم تظهر للرائين وركبت لهنَّ اجنحة فكنَّ يطرنَ فوق الرفيقات كانما هنَّ ملائكة الجنان فوق ذلك الجمع اللطيف الباهر وليس يمكن ان يصف القلم او اللسان جمال ذلك المنظر الفتان . وفي آخر الامر مثلوا جلالة الملكة جالسة على عرشها وفي يدها صولجان الملك وعلى رأسها التاج والكل بهيئة لا تختلف عن الهيئة الحقيقية ودار بجلالتها صفوف الجند وهنَّ من هؤلاء الفتيان بالملابس العسكرية فادينَ بعض الرسوم ثم اشتركنَ في انشاد سلام الملكة وهو النشيد الوطني عند الانكليز وعند ذلك وقف الحاضرون ورفعوا القبعات وطاطأوا الرؤوس اجلالاً لملكتهم واكراماً تلك عادة في الانكليز يظهرونها في محافلهم ومجتمعاتهم دليل حبهم للملكة والوطن ونعم ما يفعلون



البرنسيس اوف ويلس وبناتها

ومن هذا القبيل انهم استدعوا المطربة المشهورة مدام باتي لتغني خمسة ادوار في القاعة المعروفة باسم البرت هول وقد مرَّ ذكرها وهي تضم عشرة آلاف نفس فابتاع تذاكر الدخول عشرة آلاف من الانكليز حال علمهم بالامر ولما جاء موعد الغناء كان كلٌّ في موضعهِ وليس لذلك الخلق الكثير ضجة ولا اضطراب حتَّى اذا بدأت المغنية بالغناء والكل منصتين كأن على رؤوسهم الطير اظهروا لها في آخر كل دور سرورهم بالتصفيق ولم يسمع لاحدهم في اثناء ذلك صوت ولا حركة اخرى يستاء منها الباقون وفي هذا مخالفة ظاهرة لمجتمعات الانس في هذه البلاد حيث يكثر اللغط والكلام في اثناء الغناء وقبلهُ وبعدهُ . ودفع القوم لمدام باتي الف جنيه اجرة غنائها في تلك الليلة

وكان من آيات الاحتفال ايضاً معرض دائم سمي باسم الملكة فكتوريا انشئت فيهِ الاسواق والمخازن لعرض صناعة انكلترا واملاكها وبيع الابضعة النفيسة كان الداخلون اليهِ لا يقلون في اليوم عن خمسين الفاً وفيهِ المطاعم والحانات ومرسح للتمثيل واجواق الموسيقى والعاب جمة اشهرها دولاب كبير لم يصنع الى الآن دولاب مثلهُ تديرهُ الآلات البخارية وقطرهُ ٣٠٠ قدم ركبوا فيهِ اربعين عربة كل عربة تنقل ١٦ شخصاً فكان الراكبون يقعدون في مواضعهم وهذا الدولاب العظيم يدور بهم على شكل الاراجيح المعروفة في هذه البلاد حتى اذا وصل المتفرج اعلى الدولاب من ناحية الفضاء رأى قسماً كبيراً من لندن تحت يدهِ فكان تقاطر الناس على هذا الدولاب عظيماً لا سيما الصغار منهم وأصحاب العائلات. ولقيت المستر موبرلي بل مدير التيمس الذي سبق ذكرهُ فدعاني الى وليمة فاخرة اولمها في منزلهِ لرؤساء الوزراء الذين جاؤوا من المستعمرات الانكليزية وكانوا موضوع اكرام الحكومة والافراد مدة وجودهم في انكلترا . ثم دعيت ايضاً الى دار محافظ لندن التي مرَّ

ذكرها لوليمة شائقة اولمها حضرتهُ لهؤلاء الوزراء ايضاً فكان المدعوون يفدون ويستقبلهم الغلمان المستخدمون للتشريفات في مثل هذه الحفلات وهم يلبسون اثواباً من القطيفة الحمراء مزركشة بالقصب وللسترة ازرارٌ من النحاس كبيرة مذهبة وعلى الكتفين رمانة من القصب تحكي التي يضعها رجال البحرية والعسكرية فوق اكتافهم. والبنطلون من القطيفة الحمراء ايضاً مزركش بالقصب من جانبيهِ وهو ينتهي عند الركبتين بازرار من النحاس المذهب وتليهِ جوارب من الحرير الابيض واحذية من الجلد الاسود اللماع . ويذر هؤلاء الغلمان التراب الابيض (البودره) على شعورهم وهي عادة قديمة كان الرجال جميعهم يأتونها في الاجيال الماضية فبقيت بين امثال هؤلاء الخادمين واذا استقبل الغلمان المذكورون مدعوًّا تقدموهُ الى قاعة الاستقبال ونادوا باسمهِ واسم قرينتهِ بصوت عالٍ حتى يعلم صاحب الدار من القادم ويتقدم للترحيب بهِ فكان كل مدعوٍ الى حفلة محافظ لندن هذه يصل على مثل ما تقدم وكان من حسن حظي اني عرفت جناب السر جورج فودل فلبس محافظ لندن في ذلك العام وحدثتهُ وحدثني بعد الوليمة وشكرني على ما قدمت من المساعدة لنجليهِ حين قدما مدينة الاسماعيلية في الشتاء السابق وانا قائم مقام المحافظ . وقد تعب السر جورج فلبس هذا مدة العيد واحتفالاتهِ نظرًا لمركزهِ في عاصمة الانكليز فانهُ القى مدة هذا العيد نحو ٣٠٠ خطاب وجُمع على يدهِ نحو مليون جنيه بالاكتتاب للزينات وغيرها وضُربت على التجار ضريبة غير اجبارية تعرف بضريبة البني (اي قرش تعريفه) فجمعوا منها عشرة آلاف جنيه لبناء مستشفى خيري . وعلمت من حضرتهِ انهُ يعرف حضرة شكور بك مدير مجلس الاسكندرية البلدي لانهُ دعاهُ الى وليمة وهو يمدح صفاتهِ ويرجو لمدينتهِ الارتقاء



محافظ لندن

ولا ريب ان الذي لقيتهُ انا من اكرام هؤُلاء الاكارم قليل في جنب ما لقيهُ غيري فان الانكليز اهل جود وسخاء وحسن ضيافة مع الغريب لا سيما اذا عرفوهُ من صديق لهم . وقد كان في جملة المصريين الذين شهدوا بذلك حضرة جعفر بك فخري وحضرة حسن بك حسيب من موظفي نظارة المالية وحضرة نجيب بك بحري من موظفي نظارة الاشغال نال التفاتاً كثيراً من جناب السر مونكريف وحضرة اسكندر بك ديمتري من موظفي الداخلية وغير هؤُلاء من كرام الشرقيين حضروا

حفلات اليوبيل ورأوا من كرم الاخلاق وحسن الضيافة ما انطقهم بفضل الانكليز . وفي غد ذلك النهار زرت جناب اللورد كلارندون نجل اللورد كلارندون الذي تقلد وزارة الخارجية غير مرة ولهُ فضل على المرحوم والدي بما انعم عليهِ مدة وجودهِ ڤيس قنصل انكلترا في اللاذقية . وجناب اللورد كلارندون مثل اكثر اشراف الانكليز مقيم في قصر قديم كان قلعة لاجدادهِ فما غيَّر منهُ في ظاهرهِ الاَّ الذي لزم لهُ ترميم او اعادة بناء . وفي هذا القصر آثار ومفروشات باقية من ايام اللوردات كلارندون الاول وقد مرت عليها في تلك القاعات عدة قرون

وجملة القول ان انكلترا واملاكها ومستعمراتها كانت في اعياد تلي اعياداً سنة اليوبيل هذه ولو شئنا عدَّ الهدايا والآثار والاحتفالات التي اشتهر امرها لما كفى لذلك كتب كثيرة . وكان من امر جلالة الملكة انها لما رأت من شعبها كل هذَا الاكرام العجيب لها والحب الخارق جادت في العطاء والولائم والصلات وانعمت بالرتب والوسامات على مئات من نبلاء دولتها وكرام مملكتها وارسلت في آخر الحفلات رسالة خطتها بيدها الكريمة تشكر رعاياها جميعهم على ما اظهروا من الولاء شكراً قلبيًّا وامرت ان تنشر الرسالة هذه في صحف انكلترا والهند والمستعمرات في آنٍ واحد فارسلت الى اقاصي الارض بالتلغراف ونشرت في يوم واحد وقد ورد في ذلك المنشور عبارة فصلت الخطاب في اشاعة تداولتها الالسن من عهد بعيد فان الكثيرين كانوا يظنون ان جلالة الملكة تكتفي بحكم ٦٠ عاماً وتتنازل عن الملك بعد الاحتفال لولي عهدها فورد في منشورها المذكور قول صريح يفهم منهُ انها عازمة على التمسك بالعرش ما ظلَّت حية وكان ذلك ختام عيدٍ ما رأى مثلهُ الاولون والآخرون

اسكوتلاندا

ولما انتهيت من هذه الحفلات برحت لندن قاصدًا مدن اسكوتلاندا وجبالها وهي مصايف الاشراف الانكليز واكثر الاراضي الانكليزيَّة جمالاً وقد مرَّ بك ان اسكوتلاندا هي القسم الشمالي من بريطانيا العظمى وهي جزءٌ من الاجزاء الثلاثة المكونة للمملكة الانكليزيَّة اريد بها انكلترا واسكوتلاندا وارلندا وتاريخها مختلط بتاريخ الانكليز فراجعهُ في الخلاصة التي صدرنا بها هذَا القسم من الكتاب.

وركبت قطارًا وصلت بهِ قبل ان ادخل حدود اسكوتلاندا بلدة (وندرمير) وهي بلدة زاهرة زاهية بنيت على ضفة بحيرة تعدا اكبر بحيرات انكلترا واوفرها جمالاً طولها عشرة اميال وعرضها ميل وثلث ميل والى جانبيها نجاد بهية وهضاب شهية كسيت بالخضرة السندسيَّة وقد رصعت ارضها بالطرق الرحبة والاغراس البديعة وتخللها قصور باذخة شماء وصروح فائقة الاتقان بعضها فنادق ومنتزهات والبعض مساكن لاهل النعمة والترف من الانكليز وهم كثار كما تعلم فما في الارض بلاد يكثر سراتها واغنياؤُها مثل هذه البلاد العظيمة. وقد عُني القوم بهذه البحيرة وما حولها فوضعوا فيها البواخر والزوارق على اشكالها يتنزه بها السيدات والرجال والصغار معجبين بصفاء مائها وجمال ما حولها من المناظر ووسعوا الطرق للعربات والعجلات وجماعة المارة من كل جانب واكثروا من الغرس الشهي والعشب الندي حتَّى اضحت تلك البقعة مثابة اهل العز ومحجة الذين يريدون قضاء مدة ينسون فيها متاعب الدنيا وهمَّ العمل لاسيما المتزوجون حديثًا اذ هم يقضون هنا شهر العسل وهو الشهر الاول بعد الزواج لا همَّ لهم غير التلذذ والتمتع بنعيم الحياة. وقد زرت جناب الخواجا بويل وقرينتهُ وهما والدا المستر بويل سكرتير اللورد كرومر لهما قصر في طرف هذه

البحيرة وسمعت منها الشكوى لان جناب نجلها الوحيد لا يزورها الاَّ قليلاً لكثرة اعمالهِ في القطر المصري ولقيت منها اكراماً وترحيباً كثيراً . واقمت في تلك الجهة اربعة ايام وددت لو تكون اربعة اشهر نظراً لجمالها المفرط ولذة العيش فيها ثم برحتها قاصدًا مدينة ادنبرو عاصمة اسكوتلاندا

☀ وادنبرو ☀ هذه من اجمل المدائن البريطانية وان تكن ليست من اكبرها فهي لها شهرة قديمة وحديثة بمن نشأ فيها من الفلاسفة وفطاحل السياسة ولمدارسها الفلسفيَّة والطبيَّة شهرة ذائعة في الخافقين . والمسافة بين هذه المدينة ولندن نحو اربعماية ميل تجتازها القُطُر السريعة مراراً كل يوم ذهاباً واياباً ولا يقل عدد سكانها عن ٢٥٠ الفاً فهي نظراً الى قلة الساكنين لو قابلتها بغيرها من المدن المشهورة كثيرة النظافة والاتقان يندر ان تلقى مدينة مثلها في نظافة شوارعها وابنيتها كما انهُ يندر ان تلقى في الارض اناساً اطهر سيرة واجمل قلباً وارفع آداباً من اهلها لانهم مثل سكان اسكوتلاندا عامة اهل تقًى وتعقل ورزانة وادب كثير وليس في حاراتها وشوارعها ما في ازقة لندن وباريس وبعض المدن الكبرى من الاجلاف والاوباش الذين يدنسون البقاع بقذر ملابسهم ودنيء الفاظهم كما انهُ ليس فيها من ضجة العربات والحركة الهائلة ما في المراكز التجاريَّة الخطيرة فهي مطمع الطامعين بالعيش الهنيء ومقر البهاء والجمال بين المدائن الشمالية

ولما وصلت ادنبرو ذهبت توًّا الى فندق (سنترال) في شارع اسمهُ برنسز ستريت اي شارع الامراء وهو اهم شوارع المدينة واعظمها يشرف على وادٍ طويل عريض حولتهُ يد الاجتهاد الى مجموع حدائق بهية غرس بها من انواع الزهر والشجر كل ما تشرح الصدور رؤيتهُ وأُنشئت فيها الطرقات الجميلة والبرك البديعة وقد صنعوا لها عدة سلالم تتصل بشارع برنسز هذا حتَّى ينزل الاهالي منها الى الحديقة للتنزه

وسماع الانغام التي تصدح بها مساء كل يوم فيحتشد الناس هنالك الوفا على عادتهم
في كل مكان مثل هذا . وقد لقيت في هذا الشارع تمثال السر ولتر سكوت الراوية
المشهور وهو من أعظم كتاب اللغة الانكليزية ولد في ادنبرو هذه و بني له هذا
التمثال على قاعدة من حجر الصوان وهو بالملابس الاسكوتلاندية الجبلية تحكي ملابس
العساكر الجبليين في فرق الجيش الانكليزي نراها هنا كل يوم ومن فوق التمثال
برج علوه ٢٠٠ قدم من الصوان رسم على جوانبه بعض ملوك اسكوتلاندا
القدماء . والى جانب هذا التمثال اثر آخر يمثل الرحالة المشهور لفنستون صاحب
السياحات المعروفة في افريقيا حيث توفي سنة ١٨٧٣ وهو من اهل هذه المدينة .
وقد ظللت سائرًا في هذا الشارع وهو ملتقى الهيئة الاجتماعية في ادنبرو حتى
وصلت سفح مرتفع يسمى عندهم تل كالتون ارتقيته ورأيت في اعلاه مسلة من
الصوان الاحمر اللامع علوها عن سطح المدينة ٤٤٣ قدمًا وقد اقيمت تذكارًا لبعض
طالبي الاصلاح من اهل المدينة نفوا سنة ١٧٩٤ بسبب مطالبهم . ويشرف هذا
المرتفع على المدينة وضواحيها ولها منظر كثير الجمال . ثم عدت الى شارع الامراء
وتوصلت منه الى شارع آخر في طرفه قصر الملوك القدماء وهو مثل قلعة مصر في
شكله كان منزلاً لهؤلاء الملوك وحصنًا يدفعون منه غارات الاعداء ولطالما ثارت
الفتن وسفكت الدماء في هذا القصر كما حصل في قلعة مصر . وقد دخلت هذا
القصر من باب كبير ورأيت وراءه مدافع صوبت الى المدينة ومنها اثنان غنمتها
الجنود الاسكوتلاندية المشهورة بالبسالة من الروس في حرب القرم ويلي ذلك غرف
القصر في بعضها آثار تاريخية منها تاج الملك جيمس الخامس وسيفه ومنها غرفة فيها
آثار الملكة ماري ستوارت التي مرَّ ذكرها في الخلاصة التاريخية وقتلتها الملكة
اليصابات الانكليزية و كنيسة قديمة العهد بنيت سنة ١١١٠ . وتركت هذا القصر

متوجهاً الى قصر آخر اسمهُ هولي رود فيهِ كنيسة الصليب المقدس وقد دعيت بهذا الاسم لحكاية تاريخيَّة متعلقة بالملك الذي بناها وهو داڤيد الاول قيل انهُ كان واقفاً في تلك البقعة للصيد وهجم عليهِ ثور هائل يريد الفتك بهِ ولكن الملك كان معهُ قطعة من خشب الصليب المقدس اوقفت ذلك الثور كالصنم وكانت تلك القطعة هدية للملك من والدتهِ الملكة مرغريت المشهورة بالتقوى فبنى الملك الكنيسة في تلك الارض تذكاراً لنجاتهِ وبنى من حولها ذلك القصر الذي دخلتهُ ولم ار فيهِ كثيراً مما يستحق الذكر غير انهُ اثر تاريخي جليل حدثت امامهُ عدة حروب ومعارك وفيهِ قاعة عمومية جمعت صور ملوك اسكوتلاندا القدماء وغرفة تحوي آثار الملكة ماري ستورت باقية على حالها الاصلية وحمام لها كانت تمزج ماءَهُ بالنبيذ الابيض حين الاستحمام محافظة على نقاء جسمها وبعض السيدات الآن يفعلنَ مثل هذا ويمزجنَ الماءَ بالحليب او ببعض العطور

وعدت مرة اخرى الى شارع الامراء فدخلت بعض الشوارع الجميلة التي تتفرع منهُ واهمها شوارع القلعة وفردرك وهنوفر وكلها ملآنة بتماثيل الرجال العظام الى درجة لم ارَ لها نظيراً في مدائن انكلترا الاخرى واذكر من هؤُلاءِ الرجال توماس غلادستون وهو من الذين ولدوا في هذه المدينة ولكنهُ رحل بعد ذلك باولادهِ الى مدينة لڤربول للتاجرة ومن اولادهِ المستر غلادستون الرجل العظيم المشهور . ودخلت مدرسة الطب المشهورة التي سبقت الاشارة اليها وهي مجموع ابنية فسيحة بديعة فيها الوف الطلبة وقد نشأَ منها بعض الشبان الشرقيين مثل حضرة الدكتور حبيب خياط وحضرة الآنسة انيسه صيبعه من سيدات طرابلس الشام تلقت فيها الطب بمزيد الاجتهاد . وزرت مدرسة اخرى في الضواحي للمبتدئين وهي مثل القصور الفاخرة في بنائها ووضعها اتقن التدريس فيها كما اتقن في كل مدارس

اسكوتلاندا ولها فرع لتدريس علم اللاهوت يكثر طلابهُ لان الاسكوتلانديين اهل ورع وتدين لا تقل شهرتهم في التقوى والامانة عن شهرتهم في الاقدام والبسالة المعروفة عن جنودهم الجبلية وآثار تدينهم ظاهرة في كثرة الكنائس وفي محافظتهم الغريبة على يوم الاحد فانك ترى ادنبرو في ذلك اليوم كانها في منام وقد اقفلت كل حوانيتها و بطلت كل حركتها فلا عربة ولا قطار حديد ولا شيءٌ امامك الاَّ افواج الناس ذاهبة بالهدو والسكينة الى الكنائس وعائدة منها حتى ان المطاعم الضرورية لا تفتح فيها الاَّ بعد موعد الصلاة في الكنائس والسفر من ادنبرو يوم الاحد غير ممكن لان محطات السكك الحديدية تقفل ابوابها مدة ذلك النهار حتى ان الفنادق وضعوا في كل غرفة من غرفها نسخة من التوراة وترى بعد الظهر شوارع المدينة وفسحاتها ملأى بالمصلين والمرتلين والواعظين يحثون الناس على التزام الفضيلة والناس من حولهم كأَن على رؤُوسهم الطير وفي ذلك ما يشهد للاسكوتلانديين بالتدين الصحيح

وكان معي في الفندق سائحة اميركية الحت عليَّ بالذهاب الى كنيسة روسلن لانها اثر تاريخي في هذه العاصمة جميل فذهبت اليها مع غيري من السائحين في عربة كبيرة يجرها اربعة خيول وسارت بنا نحو ثلاث ساعات في مروج خضراء ومناظر بهيةً حَتَّى وصلت تلك الكنيسة ورأيت بها من انواع النقش على الحجر كالزهر والورد والشجر ما يشهد ببراعة صانعيها . والكنيسة هذه قديمة بنيت سنة ١٤٤٦ واقام اللورد روسلن في قصر الى جانبها كان يدفع منهُ غارات اعدائهِ وقد حارب الانكليز هنا في معركة شديدة انتصر بها انتصارًا تامًّا مع ان جنودهُ كانوا ٨٠٠٠ والانكليز ٣٠٠٠٠ فترى الاسكوتلانديين يفخرون بذكر هذه المعركة في كل حين

وزرت بعد ذلك ثغر المدينة وهو بلد مهم سكانهُ ٧٠ الفاً تقوم منهُ البواخر الى جميع الجهات ويليهِ الى جهة الجنوب جسر عظيم مشهور اسمهُ جسر فورث بني على نهر فورث وهو اعظم جسر في الوجود بني على طريقة هندسيةٍ عجيبةٍ بمعنى انهُ ليس لهُ قناطر وعمد في النهر بل هو قوس واحدة قائمة على قاعدة في الارض من هنا وقاعدة من هنا الى جانبي النهر وطوله ُ ٢٧٦٥ متراً وهو وان يكن اقل طولاً من جسر بروكلن في نيويورك الاَّ انهُ اعظم منهُ متانةً وادق صناعة واغرب شكلاً وقد انفق على بنائهِ اكثر من ثلاثة ملايين جنيه ووضع فيهِ من الحديد والفولاذ ما يكفي لبناءِ خمسين جسراً عظيماً واشتغل بهِ خمسة آلاف عامل مدة سبع سنين فلما انتهى بناؤُهُ سنة ١٨٩٠ احتفلوا بافتتاحهِ احتفالاً عظيماً شائقاً رأسهُ ولي عهد الدولة الانكليزيَّة بنفسهِ وقد شهد الموسيو ايفل مهندس البرج المشهور في باريس ان جسر فورث هذَا اعظم الاعمال الهندسيَّة الحديثة وكان هو من المدعوين يوم الاحتفال بافتتاحهِ . والمهندس الذي بنى هذَا الجسر العظيم هو السر وليم فولر اعطي لقب الشرف حين نجز عملهُ وتقرر في الاذهان انهُ اتمَّ اعظم جسور الارض بلا خلاف وقد جاءَ هذا الرجل مصر على عهد المغفور لهُ اسماعيل باشا لابداء رأيهِ في امور هندسية واكرم مثواهُ وجاءَ من عهدٍ قريب ليبدي رأيهُ ايضاً في اصلاح القناطر الخيريَّة فاعطي على تقريرهِ الف جنيه وهو يقبض في بلادهِ الالوف اجرة راي او تقرير صغير عن كل عمل هندسي ينتدب لمعاينتهِ

وبعد ان قضيت اسبوعاً في هذه المدينة واعجبني منها نظافتها وحسن اخلاق اهلها برحتها مسافراً في سكة الحديد الى ابردين وتسمى ايضاً مدينة الصوان لكثرة هذَا الحجر في نواحيها وهي والحق يقال كلها من هذَا الحجر فانهُ يقطع وينحت من نحو ثمانين موضعاً في جوارها وتبنى بهِ المنازل كلها حتَّى ان الشوارع تبلط بهذا

الحجر واكثر ما يكون البناء هنالك بالحجر الاسمر قطعاً كبيرة ترص بعضها
فوق بعض ولا يدخلها قرميد ولا خشب ولا حديد واما القوائم والعمد والواجهات
فتصنع من حجر اسود ويتكون من ذلك مجموع ابنية غريبة المناظر كثيرة الجمال
تقرب من بعض ابنية بيروت في شكلها ولكنها تخالف ابنية اوروبا بوجه الاجمال
وهم يصدرون الى الخارج شيئاً كثيراً من هذا الحجر الذي جعل مدينتهم زينة بين
المدائن فما رأيت دهري مدينة نظيفة مثل ابردين هذه حتَّى انك لو درت الشوارع
كلها لم تلق شيئاً من الوسخ ولا قطعة صغيرة من الورق في طريقك . ويزيد هذا
البلد جمالاً انهُ يشطرهُ نهران اولهما اسمهُ دي والثاني دون وهما صغيران ولكن تجري
فيهما السفن المتوسطة ويصبان في البحر القريب من ابردين. واكثر منازل هذه المدينة
من دورين فقط وامام كل منزل حديقة جميلة فمنظرها بديع من جميع الجوانب
والساكن فيها يشعر براحة وطانينة وارتياح الى تلك الاشكال لا يتولد في النفس
الاَّ من مثل هذا الجمال المتجمع في ابردين . واني تمشيت في شارع الاتحاد الذي
بني بهِ الفندق حيث نزلت وهو احسن شوارع ابردين طولهُ حوالي ميل وعرضهُ
٧٠ قدماً فالتقيت بتمثال البرنس البرت زوج الملكة فكتوريا وهو كان اهل
اسكوتلاندا يميلون اليهِ لما اظهر من الميل الى المشروعات المفيدة ويليهِ تمثال لجلالة
الملكة نفسها تذكاراً لزيارتها هذه المدينة مع زوجها المذكور سنة ١٨٥٩ وفي طرف
الشارع ايوان كبير حفرت على حجارتهِ صور ملوك اسكوتلاندا القدماء والى جانبهِ
نادي الضباط فمنزل اللورد بيرون الشاعر المشهور حيث عاش وهو طفل صغير
فمدرسة مارشال في ساحتها مسلة من الصوان الاحمر علوها ٧٢ قدماً وهي مصقولة
تضيء كالمرآة وقد بنيت تذكاراً للسر ماكرجور الذي تولى رئاسة المدارس هنا ٣٠
عاماً ولها ايضاً ابراج عالية في الزوايا صعدت اوسطها فاشرفت على المدينة كلها وانت

تعلم ان اوفق محل لرؤية المدن مثل هذه المرتفعات حيث ترى صورة اجمالية ترتسم في الذهن ولا تمحى . ووراء هذه المدرسة مكتبة للعامة مجانية فيها تمثال الجنرال ولس الذي حارب الانكليز ببسالة لا مزيد عليها و يروى عنهُ انهُ لما جاءهُ رسول القائد الانكليزي يطلب المخابرة ارجعهُ قائلاً ان اذهب وقل لمولاك اننا وجدنا هنا للمحاربة بالسيف وليس للمخابرة. ويلي هذه المكتبة مدرسة غوردون للمعوزين والايتام وقد نقشوا على بابها جملة من يوميتهِ هي هذه " اني عملت الواجب عليَّ لشرف امتي. تحريراً في الخرطوم يوم ١٤ دسمبر سنة ١٨٨٤ " . ولغوردون مدارس كثيرة غير هذه في انكلترا واسكوتلاندا اقيمت بعد قتلهِ اظهاراً لاعتراف الامة بفضلهِ وتأثرها من مصابهِ واكثرهم يعتقدون ان الحكومة اهملت امرهُ اهمالاً ادى الى موتهِ ويذكرون ذلك الى اليوم . وقبل ان ابرح المدينة دعاني صديق لي عمرهُ نحو ٧٠ سنة لاذهب الى الحمامات البحريَّة فذهبت وكان البرد يومئذٍ شديداً والمطر منهملاً فاذهلني حين وصولي ان الرجال والنساء كانوا يستحمون في تلك الامواج المتلاطمة والمطر يسقط على رؤوسهم والريح الباردة تهب على اجسامهم وهم لا يبالون حتَّى ان صديقي المسن هذا اشترك في الاستحمام حال وصولهِ ولم يرجعهُ برد ولا مطر . فلا عجب اذا كان الانكليز اقوياء اشداء على ما اشتهر عنهم ما دامت هذه عوائدهم وما دام الكبار والصغار منهم يقضون نصف اوقاتهم في الرياضة والركوب والالعاب على اشكالها فليس في الارض امة تريض الاجسام مثل الامة الانكليزيَّة او تعتني بنظافة الاجسام مثلها وهذا فيما اظن من اكبر اسباب ارتقائها لان الجسم القوي يتبعهُ عقل قوي في اكثر الاحوال

✵ انفرنس ✵ وتركت ابردين بعد هذا في قطار جعل يخترق الهضاب والبطاح ويدخل تارةً بين حراج اسكوتلاندا وحزونها وطوراً يسير على مقربةٍ من

البحر حتَّى وصلت بعد ست ساعات الى مدينة انڤرنس وهي في حدود اسكوتلاندا
على مسافة ٦٠٠ ميل من لندن وقد اضحت هذه البلدة مصيفاً للكثيرين ينتابونها
لاعتدال هوائها في الصيف وجمال مناظرها لانها في وسط جبال اسكوتلاندا
المشهورة بالفخامة والبهاء وقد بنيت على ضفة نهر اسمهُ نس يتخلف منهُ عدة جزر
صغيرة يوصل بعضها ببعض جسور من الحجر والحديد متقنة الصنع وقد اقيم في
احد ميادينها تمثال للجنود الاسكوتلانديين الذين قتلوا في حروب مصر والسودان
وكتب على القاعدة اسماء الضباط والمعارك مثل التل الكبير وجنس وكوشه والاثر
كلهُ من الصوان المصقول. وفي طرف هذه البلدة قلعة قديمة تحكي كل القلاع التي
بناها الملوك الاول في المدائن المتطرفة للدفاع عن حدود المملكة وفيها مدفعان
روسيان غنمها الانكليز في حرب القرم ورايات وآثار حربيَّة تدل الى عدة مواقع
اظهر فيها الجنود الاسكوتلانديون بسالتهم المعروفة. ويبدأ من هذه المدينة نهر كلَيد
المشهور بحسن ضفافهِ وجمال مناظرهِ وكثرة الذين يتنقلون في اسكوتلاندا على
بواخرهِ . وقد ركبت احدى هذه البواخر مع كثيرين غيري في يوم رق هواؤُهُ
وراقت سماؤُهُ والنهر طولهُ ٢٤٠ ميلاً يمرُّ في جبال ووديان ونجاد ووهاد وغياض
ومدن وعمائر شتى ويتكون منهُ جزر وبحيرات كثيرة الانواع فالذي يسير فيهِ يرى
كل محاسن الطبيعة والصناعة وآثار النعمة والحضارة في تلك الجهات السعيدة .
وقد قامت بنا تلك الباخرة ونحن على ظهرها نتأمل تلك المناظر وندرس خرطاً فيها
رسم كل وادي النهر وضواحيهِ حتَّى اذا آن اوان الطعام نزلنا الى قاعة فسيحة صفت
عليها الاواني الفاخرة وقدمت الالوان الشهية وكان اكثر الحاضرين من
الاسكوتلانديين يشربون الوسكي مع الطعام وهو مشروبهم الوطني. وكانت الباخرة
تقف على تلك الضفاف البهيَّة من حين الى حين ليصعد من شاء وينزل من شاء

ورأيت بين المسافرين في تلك الجهات اناساً يذهبون للصيد مع عدتهم وكلابهم وهم يستأجرون الاراضي الفسيحة لذلك بالمال الوفير لمدات معلومة حتَّى ان بعض اللوردة يؤَجرون غابات لهم بآلاف من الليرات كل سنة لهذه الغاية وهم يستحضرون اليها الغزلان والثعالب والارانب ويطلقونها في جوانب الارض ثم يتراكض وراءَها الصيادون وهذَا من ملاهي الانكليز المشهورة

وفي جوانب هذَا النهر صروح نخيمة وفنادق لا تعد وغرف ومنازل مفروشة ومعدة للاجرة يقضي فيها المصطافون بعض زمانهم مستريحين متنعمين . والمناظر تتنوع يرى المسافر اشكالها لا سيما اذ تلتف السفينة مع النهر بين تلك الجبال والغياض ومن اجملها منظر جبل بن نفس وهو اعلى جبال اسكوتلاندا . وبعد هذَا الجبل سرنا في منبسطٍ من الارض بديع زرعوا فيهِ الى جانبي النهر من هنا ومن هنا صفوفاً طويلة من شجر الحور الجميل فكنا في تلك البقعة كمن يتمشى بين جدارين من الخضرة النضرة والشجر البهي يهب بين اوراقها الهواءُ فيسمع لها حفيف ترتاح اليهِ القلوب . وبعد ذلك كثرت في النهر الجزائر والبحيرات فكنا ساعة في نهر وساعة في بحيرة ثم نحن مرة اخرى في النهر ثم ندور حول جزيرة او نقف عند بلدة او نلتفُّ حول غابة ومن فوقها منظر الجبل الفخيم او في وادٍ خصيب رصّعت جوانبهُ بالقصور والحدائق والمناظر المنعشة للنفوس حتَّى وصلنا مدينة غلاسكو العظيمة بعد سفر يومين في هذَا النهر ونحن نتمنى لو تطول تلك السياحة المفرحة في نهر كليد البهي

☆ وغلاسكو ☆ هذه من اشهر مدن الارض وهي ثالثة المدن الانكليزيَّة فان الاولى لندن والثانية لفربول كما لا يخفى . ولا يقل عدد سكان غلاسكو عن مليون نفس وهي لو رآها الغريب ظنها لندن. لانها نظيرة لها في الاتساع وضخم

الابنية وفخامتها وسوادها وكثرة الشوارع والميادين والمشاهد والمتاحف والمعامل
التي لا تعد وفيها سكك الحديد تحت الارض وفوق الارض والجسور والسفن
تمخر في النهر والعمال الوف فوق الوف على مثل ما في مدينة لندن ولكنها نالت
شهرة لم تنلها مدينة سواها في صنع السفن والبواخر من تجارية وحربيَّة على اشكالها
فانها تصنع في معاملها معظم مدرعات الاسطول الانكليزي وشيئاً كثيراً للدول
الثانية وقد تزيد نفقة المدرعة الواحدة من الطبقة الاولى عن مليون جنيه ولا
يقل عدد الباخرات التي تخرج من معاملها في السنة عن ٣٠٠ باخرة ولهذا فهم قد
صرفوا مالاً طائلاً على الاحواض والترسانات وبنوا لها الارصفة والاسوار وكل
ما يلزم مسافة ستة اميال . وهي من قدم مشهورة بعمل السفن فقد كان جيمس واط
اول من ارتأى تسيير السفن بالبخار من اهل هذه المدينة واول باخرة قامت منها
في سنة ١٨١٢ فهي السابقة في هذَا المضمار من اول عهد الناس بالبخار . واني
زرت احد هذه المعامل فرأيت من الوف العمال وادوات العمل ما لا يوصف في
كتاب وسمعت من طرق المطارق وقرقعة الآلات ما يصم الآذان . ومررت في
ذلك اليوم باهم شوارع المدينة مثل شارع ارجيل وبكنان وميدان جورج فيهِ
حديقة وبرك وتماثيل العظام مثل الملكة فكتوريا وزوجها ولفنستون وواط
وارجيل وولتر سكوت ويحيط بهذا الميدان قصور باذخة واندية فخيمة اهمها
سراي المجلس البلدي وهي صرح يندر نظيرهُ في الارض ولا مثيل لهُ في مدن
انكلترا كلها انفقوا على بنائهِ اكثر من نصف مليون جنيه وفتحتهُ جلالة الملكة
بنفسها باحتفال باهر . وقد تفردت هذه المدينة بمجلسها البلدي هذا ونظام اعمالهِ
حتَّى اقرَّ العارفون كلهم ان غلاسكو لها احسن الحكومات المحليَّة من بين مدائن
الارض طرًّا وكل ذلك من حسن التفات رجالها ونظام مجلسها البلدي ومحافظيها .

وقد اسعدني الحظ اني قابلت حضرة محافظها يوم زيارتي للمدينة وكان معي توصية لجنابهِ فلما ارتقيت سلالم ذلك البناء العظيم ووصلت الى مكتب المحافظ ارسلت اليهِ اسمي نخرج لمقابلتي مرحباً مكرماً ودعاني الى حضور مرقص عظيم يقام في دار المحافظة في كل عام وموعدهُ ذلك اليوم فقبلت الدعوة شاكراً ولما حضرت في المساء للمرقص رأيت نحو الفين ما بين سادة وسيدات تردوا بانفس الاطالس وابهى الحلل وقد برزت السواعد والنهود وتحلت الصدور ببارق الجواهر وابرقت الاسرة فرحاً وحبوراً وفاحت من جوانب القصر وقاعاتهِ التي تحكي قاعات الملوك الروائح العطرية وصدحت الانغام الشجية وكان المحافظ واقفاً بملابسهِ الرسمية وهي جبة من القطيفة الحمراء تجر ذيولها وتشبه ملابس الشيوخ الشرقيين بطنت بالفرو الابيض ولها اكمام واسعة مطرزة وقبعة مستطيلة مثل قبعات القناصل الرسمية حملها المحافظ في شمالهِ وسلسلة من الذهب مدلاة من العنق على صدرهِ في آخرها قطعة من الذهب عليها شعار الدولة واسم المجلس البلدي وكان اعضاء المجلس بملابسهم الرسمية ايضاً واقفين حول جنابهِ وقرينتهُ مع بعض قريباتها وصديقاتها يستقبلنَ الضيوف بالترحيب والبشاشة. ولا حاجة الى القول ان الرقص وما تلاهُ من الوان الطعام الشهي بعد منتصف الليل كانا على غاية ما يرام نخرجت من تلك السهرة الشهية وكلي اعجاب بعظمة غلاسكو وانس اهلها وعزمت في اليوم التالي على مبارحتها لازور بعض مدن ارلندا وسافرت في البر والبحر بين مناظر لا تختلف كثيراً عما تقدم وصفهُ حتَّى دخلت جزيرة ارلاندا والقيت رحلي في مدينة بلفاست

بلفاست

ارى قبل التقدم الى الكلام عن مدينة بلفاست هذه في جزيرة ارلاندا وعن عاصمة الجزيرة دبلن وغيرها من الاماكن الارلاندية ان اقول شيئاً عن تاريخ هذه البلاد موجزاً لان اهم ما يقال فيهِ ورد في الخلاصة التاريخية العامة عن انكلترا . غير ان ارلاندا هذه عمرت وتقدمت في الحضارة قبل انكلترا بزمان طويل وكان لها دول زاهرة من قبل ايام التاريخ المسيحي ولما دخل يوليوس قيصر انكلترا واخضعها سنة ٥٥ لم يمكن لهُ ان يخضع ارلاندا لان ملوكها كانوا اقوياء

ولما بدأ الدانماركيون واهل شمال اوروبا ان يسطوا على ممالك اوروبا كانت هذه الجزيرة في جملة ما دخلوا من الاراضي وتمكنوا من الانتصار على ملوكها في اول الامر فدام القتال بينهم وبين الاهالي من سنة ٤٣٨ مسيحية الى سنة ٨٣٨ حين جاء اولاف ستريك ملك الدنماركيين وملك البلاد وظلَّت ارلاندا خاضعة لهُ ولخلفائهِ حتى سنة ١٠٨٤ حين قام بطل من اهلها اسمهُ اوبريان حارب المعتدين وطردهم من البلاد واعاد اليها استقلالها فنمت وتقدمت تقدماً عظيماً

وكانت مملكة انكلترا في ذلك الزمان تقوى وتمتد ايضاً وهي مجاورة لارلاندا فبدأ ملوكها يتطلعون الى هذه الجزيرة واول من حاول فتحها منهم هنري الثاني فانهُ صدر لهُ امر من البابا بضم ارلاندا الى املاكهِ في سنة ١١٥٥ وحارب البلاد فملكها بعد عدة مواقع وولى عليها اناساً من قبلهِ ونقل بعضاً من الانكليز اليها ومن ذلك العهد بدأ العدوان بين الارلانديين والانكليز وتعاظم في ايام ادورد الثالث الذي ضيق على اهل هذه الجزيرة وقمع ثورتهم بعد ان هبوا يريدون الاستقلال وعين حكاماً جائرين شددوا الوطأة على الاهالي واشتدَّ بسبب ذلك الجفاء بين

الامتين . وكان لارلاندا مجلس نواب يسن النظامات الداخلية فصدر امر الملك هنري السابع سنة ١٤٩٥ بان تكون قرارات هذا المجلس كلها قابلة للتغيير لا يعمل بها الا اذا صدق عليها مجلس النواب الانكليزي ثم لما ولي الملك جيمس الاول نقل الى الجهة الشمالية من ارلاندا عدداً كبيراً من اهل اسكوتلاندا وانكلترا واقطعهم الاراضي في ولاية الستر التي تعد مدينة بلفاست عاصمتها وزاد الملوك الباقون على هذا الى ان كانت ايام الثورة الانكليزية سنة ١٦٨٨ وولي الامر بعدها الملك وليم الثالث فنقل كثيرين من الانكليز ايضاً الى الستر وكان القوم من حزبه ضد المنتمين لآل ستيورت المعزولين وعرفوا من ذلك الحين باسم الحزب الاورانجي نسبة الى وليم الثالث وهو في الاصل يعرف باسم امير اورانج وما زالوا حتى يومنا هذا شأنهم في البلاد

وبقيت ارلاندا على هذا النظام وهي تشكو ظلم العمال الانكليز والنظامات التي افقرت الاهالي وجعلت الارض كلها ملكاً لبضعةٍ من الاكابر حتى اول هذا القرن حين سعى وزراء الدولة الانكليزية في ضم ارلاندا ضماً نهائياً الى انكلترا وتم لهم ذلك فابطل البارلمان الارلاندي وصار اعضاؤه من اعضاء البارلمان الانكليزي في سنة ١٨٠١ ولكن الاعضاء الارلانديين شعروا بفقد الاستقلال والخسارة من هذا النظام فبدأوا يطلبون العود الى النظام الاول ويطلبون من مجلس النواب الانكليزي ان ينصف اهل بلادهم ويغير نظام الاراضي فيها حتى قام منهم في العصر الحاضر رجال كبار العقول نظموا الحزب الارلندي وجعلوا له قوة كبرى تحسب الحكومة حسابها وكان رئيس هذا الحزب ايام صولتهِ المستر بارنل المعروف باسم ملك ارلاندا الغير المتوج ولكنهُ تضعضعت احوالهُ قليلاً بعد موت بارنل وما زال افرادهُ على مطالبهم واهمها ان يغير نظام الامتلاك الجائر لان الجزيرة كما

قلنا ملك بعض اللوردة والموسرين ورثوها عن اجدادٍ اخذوها في ايام ملوك انكلترا الذين ذكرناهم في هذه الخلاصات التاريخيَّة واهل البلاد قاعدون في الارض بصفة مستأجرين يزرعونها و يستغلونها و يؤدون مالاً معلوماً عنها للورد كل سنة يتقاضاهُ وهو بعيدٌ عن الارض سواءٌ صحَّت المواسم او لم تصح فاكثر مال البلاد يروح الى انكلترا و ينفق على غير الارلانديين والأُجر التي يؤَديها المستأجرون للوردة كبيرة فاذا عسر في احد السنين عليهم اداؤُها امكن للورد ان يطردهم منها ولو يكونوا قد اقاموا فيها هم واجدادهم الاجيال . وقد حدثت عدة حوادث من هذا القبيل اظهرت جور النظام الحالي وهيجت احقاد الارلانديين فاصروا على مطالبهم حَتَّى رأى المستر غلادستون المشهور ان يجيب سؤْلهم ويمنحهم استقلالاً داخليًّا ولم يوافقهُ جمهور الانكليز على رأْيهِ لما بين الامتين من العدوان ولان الانكليز يخشون ان يتخذ الارلانديون هذا الاستقلال الداخلي وسيلة للاستقلال التام وتجزئة المملكة الانكليزية وما زالت هذه عقدة المسأَلة الارلاندية الى الآن

وارلاندا جزيرة بهيَّة تعرف بمروجها السندسيَّة حَتَّى انهم يسمونها جزيرة الزمرد لكثرة خضرتها الشهيَّة واهلها اكثرهم من الكاثوليك ما خلا سكان ولاية الستر فان اكثرهم من البروتستانت وهم اهل ذكاءٍ وفصاحة وحذق كثير قام منهم عظام الرجال من القواد مثل ولنتون وروبرتس وولسلي و كتشنر وارباب السياسة مثل دوفرن واوبريان و بارنل وغيرهم و كتاب الارلانديين وخطباؤُهم البلغاء في هذه الايام اكثر من ان يعدوا . وقد كانت ارلاندا عامرة بالسكان لا يقل عدد سكانها عن ٨ ملايين نفس في بدء هذا القرن فنزح منهم الوف وملايين الى الولايات المتحدة والمستعمرات الانكليزيَّة بسبب نفورهم من نظام الحكومة الحالي حَتَّى انهم لا يزيدون اليوم عن اربعة ملايين

واما بلفاست فانها حديثة زاهرة عامرة في الجهة الشمالية من ارلاندا لا يزيد عنها في الاهمية في هذه الجزيرة غير العاصمة دبلن التي سيجيء الكلام عنها . وقد اشتهرت بلفاست في الايام الحديثة بما حدث فيها من المظاهرات السياسية ضد الحزب الارلاندي الوطني الطالب الانفصال عن انكلترا لان معظم اهل هذه المدينة من حزب الاورانجي كما تقدم معنا في الخلاصة التاريخية وقام منها بعض فحول السياسة واصحاب النفوذ الكثير . وعرفت ايضاً بين المدائن البريطانية بالنماء السريع والتقدم الباهر مدة الاعوام الاخيرة فانها كانت في بدء حكم الملكة فكتوريا مدينة صغيرة وصارت الآن ثانية مدائن ارلاندا عدد سكانها ٣٥٠ الف نفس ولها شهرة بتنسيق الشوارع وجمال الابنية وغنى المخازن واهمية المعامل الكثيرة المشهورة عنها منها معامل السفن البخارية والشراعية على اشكالها تصنع فيها الباخرات الكبرى لوزارة البحر الانكليزية ولبعض الممالك الاخرى وللشركات التجارية العديدة ولا يقل عدد العمال فيها عن ثلثين الفاً

وامتازت بلفاست ايضاً بصنع الخزف واشكال الفخار وبالمنسوجات الجميلة من الكتان (التيل) والحرير ولاقمشتها الكتانية شهرة ذائعة في الخافقين حتى ان ملوك اوروبا وسراتها يوصون معاملها على ما يلزم لهم من القماش للقمصان والمناديل والفوط وهم يرسلون منها في كل عام مقادير هائلة الى الاقطار الخارجية . ولما كانت صناعة الكتان من الاسرار الخاصة بهذه المعامل على طرقها المعروفة فهم يحرصون على ابقاء سر الصناعة في معاملهم ويحذرون من السرقة وتقليد بضاعتهم فلا يصرحون لزائر ان يزور معاملهم الاَّ اذا وثقوا من امرهِ ولم يخشوا عاقبة زيارتهِ ولهذا فاني لما قصدت التفرج على احد هذه المعامل دخلت مع احد المعارف وكان المعمل في شارع يعرف باسم شارع يورك وهو متسع المجال يشغل من الارض مساحة

اربعة فدادين ولهُ بناءٌ فخيم كبير ذو خمس طبقات فدار بنا اصحاب المعمل في جوانبهِ يروننا كيفية صنع التيل من بدء امرهِ الى آخرهِ فرأينا كيف يغسل التيل ثم ينقى وينظف ثم يسرح ويمشط ثم يجدل ويفتل ثم يغزل ثم ينسج ثم يبيض ويصقل ثم يقطع ويفصل ثم يطوى ويحزم كل نوع منهُ على حدةٍ فكانت الفرجة على طرق هذه الصناعة من الذ ما يمكن للشاهد ان يمتع النظر بهِ ويستفيد من درسهِ. وقد رأيت ابضعة هذا المعمل بعد ان ينتهي العمال منها فاذا هي متينة بيضاء جميلة تشرح الصدر بهيئتها واخص بالذكر منها انواعاً من المناديل البيضاء يرسلون منها المقادير الى جلالة الملكة واهل بلادها وكثار من السراة الانكليز وفي هذا المعمل ٤٥٠٠ عامل وقوة آلاتهِ البخارية ١٤٠٠ حصان وفي قاعة منهُ عظيمة للنسج ٦٥٠٠٠ دولاب تدور عليها خيطان التيل فتغزل وتنسج ولها دوي هائل يصم الآذان

واتجهت بعد هذا الى معمل للحبال وصناعة الحبال في هذا الثغر مشهورة ايضاً حتى ان اكبر معامل الارض للحبال توجد في مدينة بلفاست هذه وكان المعمل الذي دخلتهُ عظيماً يشغل من الارض مساحة عشرين فداناً وفيهِ ثلاثة آلاف عامل ومائة كاتب فدرت في جوانب المعمل ورأيت من ادلة الاجتهاد في هذه الصناعة البسيطة ومن مقدار الربح الوافر ما جعلني افكر في حال الشرق ومصنوعاتهِ التي كادت تنقرض بسبب وجود هذه المعامل الكبرى في مدائن الغرب وتمنيت لو يبدأُ اهل هذه الاقطار بالتعاون على العمل والاشتراك حتى يمكن لهم مجاراة اهل اوروبا في بعض الصناعات وابقاء مقدار من الربح لهم بدل ان يكون النفع كلهُ لمعشر الاوروبيين

وقد اشتهر تجار هذه المدينة بالثروة وبنوا لهم القصور الفخيمة في جوانبها

وتقدموا في العلم ايضاً حتَّى ارتقت مطابعهم وجرائدهم ومدارسهم ارتقاءً كبيراً والذي يرى مكتبة الخواجات اول في هذه المدينة يظنها قصراً فانها في بناء لها ذي ثلاث طبقات وقد ملئت بالمؤلفات والعمال في كل الجوانب . وفي بلفاست من الشوارع الكبرى والحدائق والمنتزهات ما يعسر علينا عدهُ ولا يفيد سردهُ ولكن اهم هذه الطرق الفسيحة شارعا يورك ورويال يتصل احدهما بالآخر وينتهيان في الطرف الواحد بميدان فسيح جميل اسمهُ ميدان دونجال وفي الطرف الآخر بالمينا والاحواض البحرية حيث تبنى السفن وقد سبقت اليها الاشارة . ويمر بهذه المدينة من ناحيتها الجنوبية نهر لاجان فتستقي منهُ الحدائق والمنتزهات يؤمها القوم في اكثر الاحيان ولها منظر كثير الجمال

وقد اقمت في بلفاست اياماً تمكنت فيها من مشاهدة معالمها وآثار عظمتها ثم برحتها الى دبلن عاصمة ارلاندا والمسافة بين البلدين بقطار الحديد ١٠٠ ميل يقطعها المسافر في ارض جميلة تكسوها المزارع والخضرة تحكي مناظر فرانسا في اتقانها ولها دروب جميلة زرع الحور والصفصاف الى جانبيها وقد نمت نماءً عجيباً بسبب خصب الارض وكثرة الامطار فاضافت الى حسن البلاد حسناً

دبلن

بنيت هذه المدينة في سهلٍ فسيح واتسع لها المجال واحاطت بها المناظر الطبيعيَّة الجميلة فكان موقعها من احسن المواقع في المملكة الانكليزية ولها اهمية سياسية كبرى لانها عاصمة ارلاندا من قدم . فيها آثار العظمة الاولى والقوة الحالية وعدد سكانها لا يقل عن ستماية الف نفس جلهم من الكاثوليك فهي مخالفة لبلفاست في هذا الامر لان اهل بلفاست اكثرهم من البروتستانتيين ويزيد هذه المدينة حسناً

انها يشطرها نهر ليفي شطرين ويخترقها من الشرق الى الغرب ثم يصب في خليج مار جرجس الفاصل بين انكلترا وارلاندا وعند مصبهِ احواض ومين عظيمة الاهمية لا يقل عدد السفن التي تنتابها كل عام عن عشرة آلاف سفينة و باخرة وقد نظموا خطوطاً من البواخر تسير بين هذه المدينة وثغور انكلترا والسويد واميركا وروسيا تنقل الركاب والامتعة واهم ما تنقلهُ من ارلاندا الى الخارج حاصلات البلاد الزراعية من مثل البطاطس والماشية والاسماك المقددة تصاد من شطوط البلاد و بحيراتها و بعض الحبوب والزبدة واللبن والبيض والجبنة فان للاهالي عناية بالزراعة و بسباق الخيل مشهورة . وقد بنوا فوق نهر ليفي الذي يخترق المدينة ١١ جسراً تسهيلاً للمرور ووسعوا الشوارع لسبب انبساط الارض ورحبها في تلك الجهة فجاء منظر المدينة بديعاً لا سيما وان لها مميزات كثيرات في مناظرها واهلها. من ذلك ان طول القامة صفة تكاد تكون عامة في رجال هذه المدينة ونسائها حتَّى انك لترى الصبيات والسيدات يمشينَ على عجلٍ ببسيط اللباس في شوارع المدينة ولهنَّ قامات تزري بغصن البان ووجوهٌ طلقة ناصعة البياض وترى الرجال ايضاً اكثرهم طوال لا سيما افراد البوليس فانهم ينتخبون انتخاباً لحسن مناظرهم وتعتني الحكومة بامرهم وتدريسهم في مدارس خاصة بهم حتَّى ان بعض الممالك الاخرى تنسج على منوال ارلاندا في نظامات البوليس وتنقل عنها

وتمتاز هذه المدينة ايضاً بعربات الاجرة فيها فانها بنيت على طرز لا نظير لهُ في اكثر المدائن المعروفة يقعد الراكب فيها الى مقعدٍ طويل ويمد رجليهِ ويسند ذراعهُ الى وسادة في آخرهِ وفي الجانب المقابل لهُ مقعد آخر على شكلهِ والحوذي على منصتهِ بين المقعدين . وهذه العربات كثيرة في كل ناحية من المدينة اخذت واحدة منها حين خرجت من فندقي لادور في جوانب دبلن و كنت قد نزلت في

فندق متربول وهو في شارع ساكفيل اكبر شوارع هذه المدينة يبلغ عرضهُ ستين مترًا وفي وسطهِ عمود شاهق نصب في اعلاهُ تمثال نلسون امير البحر المشهور والعمود مجوَّف في داخلهِ ١٦٨ درجة صعدت اعلى البرج عليها ورأيت المدينة كلها من دوني فاذا بها زاهرة بهية لا يشوه منظرها دخان المعامل الكثيرة لان المعامل متباعدة عنها في الضواحي الفسيحة ثم هبطت الذرى الى قاعدة العمود وسرت في شارع ساكفيل حتى التقيت بتمثال اوكونل وهو من الذين قادوا الافكار في ارلاندا ورأس مجلس نوابها في اواخر القرن الماضي نصبوا لهُ هذا الاثر على قاعدة علوها ٤٠ قدمًا وارتفاع الاثر من فوقها ١٢ قدمًا . ثم ظللت على المسير وانتقلت فوق جسر من الجسور المشهورة في هذا البلد الى الجانب الآخر من الشارع فوجدتني امام بناء قديم فخيم هو مجلس النواب الارلاندي الاول بني سنة ١٧٣٩ ولما الغي نظامهُ على مثل ما ترى في الخلاصة التاريخيَّة صار هذا المجلس مصرفًا وهو الآن موضع بنك ارلاندا المشهور من منذ سنة ١٨٠٢ وقد تركوا في جانب من البناء قاعة الاجتماع على حالها فهي باقية فيها كراسي الرئيس والاعضاء على مثل ما كانت في القرن الثامن عشر وانشأوا على مقربة منهُ مدرسة تدرس بها العلوم العالية ولها مكتبة عمومية طولها ٣٠٠ قدم كلما طبع كتاب مفيد اضيف الى ما فيها من نفيس الكتب حتَّى اضحت من اكثر المكاتب قيمة ونفعًا . وللمدرسة هذه حديقة جميلة يقضي التلامذة فيها اوقات الرياضة وفيها تمثال وليم اوبرين وهو من فصحاء الارلانديين حرض قومهُ على الثورة ومحاربة الدولة الانكليزية سنة ١٨٤٨ حين كانت الامة في هياج على اثر الثورة الفرنسية الثانية فقبض عليهِ اولياء الامر وحكموا عليهِ بعد المحاكمة بالاعدام ولكنهم اشاروا على الملكة ان ترأف بهِ فابدلت الاعدام بالنفي المؤبد وما مرت اعوام حتى صدر العفو عنهُ وعاد الى بلادهِ

ومررت بعد هذا بكثير من الشوارع المهمة مثل شوارع آدم وناسو قامت الى جانبيها المنازل المشيدة والصروح الفخيمة والمخازن الكبرى حتى وصلت حديقة ستيفن جرين في وسط العاصمة وقد أُحيطت بسورٍ من قضبان الحديد وملئت بالاغراس الشهية والاعشاب الندية يلعب عليها الرجال والنساء والاولاد بقصد ترويض الاجسام وفيها برك وتلال وطرق تشرح بمرآها الصدور ومن حول سورها بيوت الاكابر والموسرين كثرت زخارفها واطلت شرفاتها على جوانب الحديقة فهي مرتع الآمنين ومقر اهل اليسار المتنعمين مع انها كانت في الذي مرَّ من الزمان مقرٌّ اللصوص واهل الجرائم ينتابونها على مثل ما كان اشقياء مصر ينتابون الازبكية قبل ان عمرت وصارت مركز العز في هذا القطر السعيد

وتابعت المسير في هذه الجهة حتى اتيت المتحف الارلاندي وهو من مشاهد دبلن المعدودة فيهِ من آثار ارلاندا الاولى شيءٌ كثير من مثل الخلاخل والاساور والجبب والجلاليب على اشكالها وبعضها يقرب في طرزهِ من الشرقي والطبول ظهرها من النحاس كالتي يستعملها العرب حتَّى اليوم في افراحهم والادوات الحربيَّة على انواعها والاقمشة الارلاندية مع آلات الغزل والنسج والحياكة الاصلية وغير هذا كثير مما يستحق الذكر ويضيق عن سردهِ المقام

كل هذَا يراهُ السائح اذا سار على خطٍّ واحد من حيث بدأْنا في شارع ساكفيل حتَّى اذا انثنى من ذلك الطريق رأى بعض الابنية العظيمة مثل بناء المحاكم على ضفة النهر انفقوا عليهِ نحو ٢٠٠ الف جنيه وبناء الجمرك وهو من اثمن ما في هذه العاصمة لا تقل الاموال التي صرفت عليهِ عن ٥٠٠ الف جنيه وكنيسة القديس باترك تضاهي كنائس اوروبا الكبرى في تحفها وجمالها وهي اعظم كنائس ارلاندا طرًّا بنوها على اسم القديس باترك حامي الجزيرة وقديسها الخاص

بها يجل الاهالي ذكرهُ اجلالاً ولهم وسامات رفيعة الشأن باسمهِ ومحافل يدخلها كبراء الناس تعرف باسم القديس باترك ايضاً فهو بمثابة القديس جورجيوس عند الانكليز او القديس نفسكي عند الروس

واني لما انتهيت من هذه المشاهد قصدت اعظم حدائق دبلن واشهرها اريد بها حديقة فنكس العظيمة اشتهرت في الايام الحديثة ببعض الحوادث التي سنذكرها وبالاجتماعات السياسيَّة التي تعقد بعض الاحيان في جوانبها . وتعد حديقة فنكس من اكبر حدائق المملكة الانكليزيَّة تبلغ مساحتها ١٧٥٣ فداناً وفيها من الهضبات والاكام والرُبُض والاجام وحراج الشجر الغضيض ومرابع العشب السندسي وباسق الشجر ويانع الزهر ما يقصر عن وصفهِ قلم البليغ . وقد زادها حسناً ان النهر يشطرها شطرين اذ يمر في وسطها وان فيها من التماثيل والآثار لذكر مشاهير الرجال شيئاً كثيراً اهمهُ مسلَّة من الصوان الاحمر اقيمت لذكر ولنتون القائد العظيم الذي يتباهى الانكليز على ممر الزمان بانتصارهِ على نابوليون وهو من الذين ولدوا في هذه المدينة صرفوا على اقامة هذا الذكر لهُ ٢٠ الف جنيه ونقشوا جوانب المسلة بكتابات مذهبة تدل على انتصارهِ في المعارك المشهورة . والمنزل الذي ولد فيهِ هذا القائد العظيم كائن في شارع ماريون نمرته ٢٤ يقصدهُ السائحون ويذكرون من رؤيتهِ اعمال هذا البطل الكبير . ولوالي ارلاندا قصر صيفي في هذه الحديقة يقرب منهُ موضع فيها وجه الدليل نظري اليهِ لانهُ قُتل فيهِ اللورد كافندش والي الجزيرة والمستر بورك وزيرها سنة ١٨٨٢ في وسط النهار وكان لقتلها رنة ودوي في الاقطار بسبب مكانة الاثنين واولهما اللورد كافندش اخو الديوك اوف دفونشير ومن اكبر البيوت الانكليزيَّة العريقة في شرف المحتد والثاني وهو المستر بورك كان من الخطباء وفحول السياسة . وعدت من هذه الحديقة فرأيت الناس في

استعداد لزيارة الديوك اوف يورك حفيد جلالة الملكة مع قرينتهِ وكان الاثنان قد عزما على هذه الزيارة ليحضرا سباق الخيل وبنوعٍ اخص النوع المعروف منهُ بقفز الخيل من فوق الاسوار في علو عظيم وهو سباق تعطى فيهِ الجوائز الكبرى ويشهدهُ الالوف من اطراف البلاد فهم يعتنون بتربية الخيل عناية خاصة . وكان سمو الديوك يريد من زيارتهِ ايضاً ازالة اثر الجفاء من صدور الاهالي الناقمين على الهيئة الحاكمة وعلى الامة الانكليزيَّة فاحسنت البلاد استقبالهُ وكانت اكثر الجرائد تحرض الناس على اكرامهِ واظهار الاحترام لهُ فعاد الرجل من ارلاندا شاكرًا مسرورًا

ولدبلن من الضواحي الجميلة ما لا يمكن لنا وصفهُ الاَّ موجزين نذكر منها تلال كيلني سرنا اليها بالترامواي البخاري ما بين مناظر البحر من جهة وخضرة الجبال الشهيَّة من ناحية أُخرى حَتَّى اذا وصل الترامواي سفح الجبل قمنا في عربةٍ جعلت تلتف وتتعوَّج بين تلك الصخور حتى وصلت غاية اضطررنا من بعدها ان نترجل ونرتقي قمة التلال على الاقدام وهنالك رأينا منظرًا من اجمل المناظر يحكي في بدائعهِ منظر جبل العصافير في موسكو او كاهلنبرج من ضواحي ڤينا ويزيدهُ حسنًا ان فيهِ صخورًا طبيعيَّة او من بقايا معبدٍ وثني قديم تركت في جوانب الجبل وان في تلك الجوانب قصورًا وحوانيت تلتقي حولها جماعات الناس وتتلذذ بالنظر وسمع الانغام

ومن هذه الضواحي الجميلة موقع اسمهُ كلوندارف ذهبت اليهِ مع غيري من السائحين وهو موقع معركة حربيَّة انتصر فيها اهل ارلاندا على الدنماركيين في العصور الاولى وطردوهم من البلاد . وهنالك قصور وحوانيت وحمامات بحريَّة يأتيها عدد كبير من الناس في فصل الصيف وتقصدها جماعات الناس من دبلن في اكثر الاحيان

ولكن الذي ذكرناهُ لا يعد شيئاً عند بحيرات كيلارني الذائعة الصيت في الآفاق وهي من المشاهد المعدودة في اوروبا قمنا اليها في قطار حديدي جعل يخترق سهولاً فسيحة تزرع فيها البطاطس التي يعول الارلانديون عليها في الغذاء حتى انهم اذا امحل موسمها اصابت بلادهم مجاعة . وينبت في هذه السهول جذور يقطعها الاهالي ويجففونها ويستعملونها وقوداً وهي كثيرة المراعي للماشية تحدها صخور الجبال الزرقاء اللون وتوجد في بعض نواحيها حراج الصنوبر وغيره . وظللنا في القطار حتى وصلنا جهة هي ملك اللورد كيلدرا اكبر اصحاب الارض والمالكين في هذه الجهة لهُ نصف القضاء برمتهِ والنصف الآخر لثلاثة من الموسرين الانكليز ما عدا قليل منهُ للاهالي . ونزلنا في فندق بتلك الجهة فوزع علينا بيان السياحة في البحيرات مطبوعاً وسرنا ذلك النهار مع جماعة كبيرة تقصد البحيرات في عربات كبيرة تنقل الواحدة منها ١٢ راكباً وتسير ساعتين بين الجبال والآكام وكان المطر يهطل يومئذٍ مدراراً ورفاقي من السياح لا يعبأُون بهِ ولا يبالون حتَّى اذا انحبس المطر جعل صبية من اولاد القرى يجرون وراء عرباتنا ويبيعون للسائحين امتعة وجوارب من الصوف يعملونها بايديهم . وبعد مسير ساعتين في هذه العربة تركناها وركبنا خيلاً سارت بنا في وادٍ هائل المنظر كثير الصخور والعقبات لولا اني كنت مع كثيرين مدة سفري فيهِ لحسبت اني في ارض خلت من الآدميين . ثم مررنا باراضي بعض المالكين الكبار وقد فرضوا رسماً على كل عابر طريق يمر في ارضهم قيل انهُ يعطى للخادمين حتى وصلنا ضفة البحيرات وجاءنا الزاد من الفندق لكلٍّ زادهُ في سلةٍ صغيرة عليها نمرة الغرفة المخصصة لهُ فجلسنا نأكل والماء من حولنا وقد لذ الطعام وحلت مناظر البحيرات امامنا وهي ثلاثة تعرف باسم البحيرة العليا والوسطى والسفلى تكثر فيها الجزر الصغيرة

والصخور فلا يمكن المرور الآ في الزوارق الصغيرة وفي البحيرة الوسطى ٢١ جزيرة من هذا النوع تتخللها المياه النقية وقد انعكس عليها لون الجبال الزرقاء المحيطة بها فصيَّر لها منظراً مهيباً عجيباً . ويفصل بين هذه البحيرات شلال تهبطهُ الزوارق ويرتجف من هبوطها بعض السائحين فاثر فينا ذلك السفر البديع لا سيما حين اجتاز زورقنا الشلال ودخل البحيرة السفلى وهي اجمل اخواتها واوسعهنَّ مجالاً ولها منظر مفرط الجمال . ولما وصلت كل الزوارق منتهى البحيرات من ناحية داخلية البلاد رأينا العربات تنتظرنا على الشاطئ فركبناها وعدنا الى الفندق في عربات كانت تنتظرنا . وقد رأيت اثناء سفري هذا ابن اللورد كيلدر الذي ذكرناهُ كانت امرأة فقيرة الحال ترجوهُ ان يأمر وكيلهُ بالرفق بها وتتوسل شاكية وهو لا يرد عليها حتَّى قام القطار وغاب اللورد عن نظرها وبعد سفر اربع ساعات فيهِ وصلنا دبلن ومن ذلك الحين عزمت على السفر الى لڤربول التي ترى الكلام عنها في ما يلي

لفربول

والمسافة في البحر ما بين دبلن ولڤربول ١٢ ساعة اجتزناها في يوم راقت سماؤهُ وصفا هواؤهُ فلما دخلت الباخرة نهر مرزي الذي بنيت عليهِ هذه المدينة رأيت من ضجة الخلق الكثير المزدحم فوق رصيف الميناء وحركة البواخر الذاهبة والقادمة ما يعجز القلم عن وصفهِ لان هذه المدينة اهم مراكز التجارة في الارض برمتها يقوم منها كل ثلاث ساعات باخرة كبرى الى بعيد الاقطار ومن هذه البواخر ١٥٠٠ تذهب الى شطوط اميركا ويأتي مينها الكثيرة اكثر من عشرين الف سفينة في كل عام تنقل اليها حاصلات الارض وتأخذ منها الابضعة الانكليزية

التي اشتهرت هذه المدينة العظيمة بتوريدها حتَّى انهُ لا يخلو بلد صغير في اطراف الشرق والغرب من اثر لمدينة لڤربول

ولقد وصفت كثيراً من مدائن بريطانيا العظمى وارلاندا فلست ارى موجباً للاسهاب في ذكر بقية المدن الآتي ذكرها لان اكثر ما فيها متقارب في نوعهِ لا يخرج كثيراً عن وصف الذي تقدم ايرادهُ عن مشاهد انكلترا وعواصم الممالك الاوروبية الاخرى . غير اني اقول هنا موجزاً ان لڤربول كانت مدينة صغيرة لا تذكر وما عظمت الاَّ من عهد قريب فقد ورد في التاريخ انها كانت قرية لبعض صيادي السمك في ايام الملك تشارلس الاول وكانت ضريبة الدولة على اهلها ١٥ جنيهاً في كل عام وهم يعدونها ثقيلة رابية يريدون خفضها حتَّى انهم لما رفع الملك مقدارها في سنة ١٥٧٢ وجعلها ٢٥ جنيهاً ثاروا على حكومتهِ ونادوا بالانضمام الى الحزب الذي رأسهُ كروموپل وكانت شكواهم من اسباب الحرب التي انتهت بخذلان الملك واعدامهِ . ولكن هذه المدينة كبرت ونمت بعد تلك الايام فمنحها الملك وليم الثالث سنة ١٧٢٣ لقب مدينة وبدأ اهلها من ذلك الحين يتجرون ويرسلون ابضعة ومصنوعات حديدية الى اراضي افريقيا الشرقية في سفن شراعية جعلت تعود من تلك الاراضي محملة عبيداً وراجت تجارة العبيد عندهم زماناً لانهم كانوا يرسلونهم الى جزائر الهند الغربية ويسخرونهم في الزرع وبقية الاعمال فلما بطلت النخاسة من كل الممالك الانكليزية في سنة ١٨٠٦ تحولت الاذهان الى الاتجار والمصنوعات والبضائع ونقل حاصلات الممالك الاخرى الى انكلترا عن طريق ليڤربول . وكان هذا كلهُ يتم في سفن الهواء فلما صنعت البواخر وجرت فوق نهر مرزي تجاه لڤربول كبرت اهمية المدينة وتيسرت احوالها وزادت حركة التجارة فيها حتَّى انهُ بعد ان كان الناس يعبرون البحر ما بين لڤربول هذه ونيويورك

في سفن البخار في ٢٦ يوماً كما فعل احد الاميركيين سنة ١٨١٥ في زورق بخاري اصبح المسير الآن هيناً والمسافة تقطع في خمسة ايام وبعض الساعات وشركات البواخر لا تعد ولا تحصى واهم شركات البواخر مركزها في هذه المدينة منها شركة كيونارد وشركة النجم الابيض وغيرها من الشركات التي تبني البواخر الكبرى لا يقل ثمن الباخرة منها عن اربعماية الف جنيه وتنقل في السنة الوفاً من بعيد الاقطار واليها

ولڤربول الآن ثانية المدائن الانكليزية في العظمة بعد لندن لا يقل سكانها مع الضواحي عن مليون نفس بنيت على شاطيء النهر كما تقدم وهي قريبة من البحر وفيها من محطات سكك الحديد شيء كثير فالاتصال دائم بينها وبين مدن انكلترا والاقطار النائية وقد لا يقل عدد القُطُر التي تقوم منها في اليوم الواحد عن الالف ومن هذا تعلم مقدار اهميتها وعظيم حركتها التجارية . وتجاه المدينة مدن عامرة اهمها نيو بريطن وهي منتزه لطيف على شاطيء البحر فيه مرابض ورمال شهية ينتابها المتنزهون وفيها الاعيب وحانات وهواؤُها جميل . ومنها بركنهد وهي مدينة كبيرة سكانها ماية الف تعد ساعد لڤربول وعضدها في الاعمال التجارية والاتصال بين هذه الجهات والمدينة تام لا ينقطع فان في لڤربول شركات لبواخر خاصة بنقل الناس بين الضفتين كثيرة الجمال تقوم منها كل نصف ساعة وهي ابداً ملأى بالمتنقلين لان عدداً كبيراً من سكان ليڤربول يسكن في هاتين المدينتين والذي يزور ارصفة المينا حيث تقوم هذه البواخر يرى من المهابة والعظمة ما لا مثيل لهُ في الوجود لان ارصفة لڤربول اكبر ما في الارض من نوعها واعظمها وهي كثيرة العدد بعضها للجهات القريبة وبعضها لبواخر الشركات الكبرى فلا يقل عدد الاحواض التي ترسو فيها البواخر عن ٢٦ حوضاً وطول المينا من طرف الى طرف

ثمانية اميال بنوا فوقها الارصفة العظيمة كما قلنا ومدوا خطًا فوقها لعربات الترامواي والى جانبهِ طريق فسيح للعربات والمارة تليهِ البيوت والمخازن والحانات التي لا تعد وهي تشرف نوافذها وكواها على تلك الحياض والمرافيء ويرى الناس منها اعظم مشاهد الحركة التجارية في الارض . ولم يكفِ كل هذا لتسهيل النقل والانتقال حتَّى ان القوم بنوا سكة حديدية فوق قناطر من الحديد تمر من تحتها العواجل والحوافل وعربات النقل على اشكالها ومن فوق القناطر ارتال تقوم بالراكبين وتسير بالقوة الكهربائية اتموا بناءها سنة ١٨٩٢ واحتفلوا بافتتاحها احتفالاً عظيمًا وهي مرتفعة ١٦ قدمًا فوق سطح الارض ومنظرها في غاية المهابة والجمال ومنظر المينا والمدينة منها يستحق الذكر والاعجاب . وهذا كلهُ لم يكفِ ايضًا للحركة الكبرى في اعظم مراكز التجارة حتَّى انهم حفروا نفقًا تحت النهر ومدوا فيهِ سكة الحديد تنقل الارتال وما فيها بين ضفتي نهر مرزي وهم ينزلون هذا النفق في الآلات الرافعة والخافضة او على سلم كثير الدرجات فاذا وصل المرء عميقًا تحت الارض رأى نفسهُ في محطة تنيرها الكهربائية ويأتيها الهواء النقي بمراوح يديرها البخار وفيها الخلق والمناظر البهية والارتال يعبر عليها تحت مجرى النهر الى الجهة الاخرى مسافة الفي متر يتأمل فيها بغرائب الصناعة الحديثة واقتدار جماعة المتمدنين

ومشاهد لفربول كثيرة لا تعد منها البورصة تلي المينا ولها شهرة ذائعة في الخافقين منها بورصة الاقطان وبورصة الحبوب واعمالها تفوق الحصر حتَّى ان المشتغلين بها لا يلقون وقتًا لمناولة الطعام على مهلٍ فهم يتغذون في مطاعم قريبة منها ويقرأون الصحف التجارية والنشرات في حين هم يأكلون ويشربون حتى لا يضيع عليهم شيءٌ من الوقت الثمين . ويمكن الوصول من هذه البورصة الى ميدان القديس جورجيوس في شوارع بهية غنية اهمها اسمهُ لورد ستريت ويليهِ تشرتش ستريت

وغيرها حتى اذا وصل المرء هذا الميدان رأى من عظمة المدينة ما يؤثر في النفس لا سيما تلك القاعة الكبرى في البناء الفخيم المعد للولائم الرسمية وفيهِ دار المحافظة والمجلس البلدي الى جانبهِ من الحانات والكنائس والمكاتب العمومية والشوارع ما يضيق المقام عن عدهِ . وقد صرفوا على هذا البناء العظيم نحو اربعماية الف جنيه واحاطوهُ بالحدائق اللطيفة وتماثيل العظام منهم جلالة الملكة وزوجها في بدء الاقتران وهما على الجياد وهنالك تمثال غلادستون الوزير المشهور والجنرال ارل الذي كان من قواد حملة السودان سنة ١٨٨٥ وقتل في معركة كربكان والرجلان ولدا في هذه المدينة وما زال البيت الذي ولد فيهِ غلادستون يبعد قليلاً عن هذا البناء وهو باقٍ على حالهِ يذكر الناس بفعال هذا الرجل العظيم

مانشستر

ولقد ضربت صفحًا عن ذكر كثير من المعامل والاشياء المهمة في لفربول وانا سأفعل ذلك في مانشستر التي ذاع صيتها في الخافقين بمصنوعاتها والاقمشة القطنية التي تنسج في معاملها العظيمة فهي اشهر مواضع النسج في الارض بلا مراء وليس في الارض كلها بلدة حقيرة تخلو من بعض ما نسج في هذه المعامل الكبرى التي اشتهرت بها مانشستر ولفربول حتَّى صار ذكرها مرادفاً لذكر الشيت والخام وكل ما نسج من القطن . والحق يقال ان اهم ما في مدينة مانشستر هذه معاملها العظيمة واماكن التجارة الكثيرة فيها وهي لا تمتاز بجمال في المنظر والابنية ولو انها من اشهر مدن الارض طرًا فان احسن بناءٍ فيها للمجلس البلدي ويعرف باسم مار جورجيوس ايضاً . ومن اشهر مواضعها البورصة ومحطات سكك الحديد التي يقوم منها عدد يماثل القطرات التي تقوم من لفربول والترعة التي حفروها بين

مانشستر ولڤربول وانفقوا عليها الملايين حَتَّى ترد اليهم البضاعة رأساً من البحار بدل ان تفرغ في لڤربول وتنقل منها الى معاملهم وقد اشتهرت هذه الترعة بكثرة ما انفق عليها وقلة ايرادها وجمال البواخر التي تجري فيها وهي لا تزيد في الطول عن ٣٦ ميلاً وعرضها ١٢٠ قدماً والعمق ٢٦ . وهنالك ابنية ضخمة هي وكالات ومكاتب قد لا يقل عدد المكاتب في بعضها عن الف . واما عن العربات والحركة وقتام المعامل فلا تسل فان ظاهر المدينة كلهُ اسود من كثرة الدخان والجلبة في بعض انحائها لا تطاق والسكن غير ذي لذة الَّا لاصحاب المكاتب والاعمال وهي مع كل هذا تكسي الارض بمنسوجاتها ولا تفوقها في الشهرة مدينة قديمة او حديثة

بريطن

وقد زرت من مدائن الانكليز كثيراً غير الذي ذكرتهُ ولا ارى حاجة الى وصفهِ فلما عولت على الرحيل من هذه البلاد العظيمة قصدت اشهر مصايفها الواقعة على الشطوط الجنوبية وهي مدينة بريطن هذه لا ريب في انها من اجمل المدن الاوروبيَّة منظراً وموقعاً والذين ينتابونها في اشهر الصيف من كبراء الانكليز لا يعدون فهي قائمة بمال المصطافين من اهل لندن وسواهم وفيها من الحوانيت والفنادق ما ليس في غيرها من مدن انكلترا اكثرهُ واقع على البحر صفًّا واحدًا طولهُ اربعة اميال ومن دون هذا الصف البديع طرق جميلة على ضفة الماء يسير فيها المتنزهون وحمامات والعاب ومشاهد بحرية من اشكال شتى اجملها لسان من الخشب ادخلوهُ في البحر مسافة ١١٥٠ قدماً وفي آخرهِ فوق الماء مطاعم وحانات وملاهٍ تشتغل في الليل والنهار ومن حولها الزوارق البهية تنقل المتفرجين في البحر وقد انشرحت منهم الصدور وافترت الثغور وزاد بهجة ذلك الموقع انهم بنوا على مقربة منهُ سكة

حديدية في وسط البحر يغمرها الماء وجعلوا القطار لها قاعة من الزجاج قائمة على عمد
من الحديد ولها من الاسفل عجلات تجري فوق خطوط الحديد التي يغمرها الماء
فهي اذا سارت في البحر بجماهير المتنزهين تظنها قصرًا من البلور سابحًا فوق الماء ولا
تعرف كيفية مسيرهِ وعلوها عن سطح البحر ٣٠ قدمًا تدفعها القوة الكهربائيَّة في
المسير فتجعل النزهة فيها من غرائب المشاهد التي لم ارَ لها نظيرًا في الحمامات البحرية
مع كثرة ما رأيت منها في اوروبا واميركا

ومن مناظر هذه المدينة قصر بناهُ الملك جورج الرابع سنة ١٧٨٧ وانفق
عليهِ ما يتين وخمسين الف جنيه ليكون مصيفًا لهُ وقد باعتهُ جلالة الملكة الحالية
في اوائل حكمها بخمسة وثلثين الف جنيه لانها لم تعول على قضاء فصل الصيف في
هذه المدينة وتقام الآن في هذا القصر بعض الولائم وهو يحيط بهِ عدة ابنية جميلة
التزويق والنقش ترتاح النفس الى السكن فيها وقلَّ ان ترى مدينة مثل بريطن
كهذه تحلو الحياة في منازلها ومنتزهاتها وسكانها نحو ١٥٠ الفًا من النفوس

هنا انتهت سياحتي في مدائن المملكة الانكليزية وبرحت بريطن الى
نيوهافن ومنها الى ديب فباريس حتَّى اذهب منها الى ايطاليا التي ترى الكلام
عنها في الفصل القادم





ايطاليا

خلاصة تاريخية

كانت ايطاليا في الزمان القديم بلاد العز والسوءدد ومقر العظمة والسلطان الواسع حينما عمّ ملك الرومان من رومه وهي عاصمة البلاد من قدمٍ وانتشر نفوذهم في انحاء الارض فما بقي لغير دولتهم ذكر مدة وجودها الى ان سطا عليها برابرة الشمال ودوخوها ومن ثمّ بدا تاريخ ايطاليا الحديث واما التاريخ القديم فمشهور وعلاقتهُ بهذه الرحلة لا توجب اكثر من هذه الاشارة اليهِ

وقد كانت اكثر اجزاء ايطاليا الحالية من ممالك رومه القديمة فلما انقسمت سلطنة الرومان شطرين احدهما غربي قاعدتهُ رومه والثاني شرقي قاعدتهُ القسطنطينية ظلت هذه الاجزاء الايطالية تابعة للمملكة الغربية حتى خلع آخر الامبراطرة سنة ٤٧٦ وتولّى الملك اودتشر زعيم قبائل الغوثة ثم ضاعت المملكة من يدهِ ونالها تيودوريك ملك الاستروغوث سنة ٤٩٣ بعد التاريخ المسيحي ومن ذلك الحين لم يهدأ لبلاد الرومان بال من كثرة الهاجمين والطامعين لا سيما في الجهات الشمالية وهي لم تزل اثار الرومان والقبائل الاولى كثيرة فيها حتى ان اسم الجهة المحدقة بولاية ميلانو تسمى الى الآن لومبارديا نسبة الى قبيلة اللومبارديين الذين دخلوا البلاد من الجهات الالمانية واسسوا فيها مملكة طال عهدها واشتهر امرها زمانًا ولكن ملوكها طمعوا برومه وزحفوا عليها في القرن الثامن فاستغاث البابا وهو يومئذٍ صاحب المدينة بملوك فرانسا واغاثه بين وابنهُ شارلمان وهو الذي اخضع مملكة اللومبارديين وضمها الى املاكهِ وتوّج في سنة ٨٠٠ امبراطورًا للمملكة الغربية في رومه فاعاد عزها الى حين. وقسمت

الامبراطورية على حفدة شارلمان بعد وفاته كما رأيت في تاريخ فرانسا فاصاب لوثاير الولايات الايطالية وظلت البلاد تابعة من بعد هذا لملوك الدولة الكارلوفنجية زماناً كثرت فيهِ الحروب والاهوال لان الملوك كانوا ضعفاء والامراء الذين طمعوا بالاستقلال كثر عديدهم وجاء بعد هذه الحروب اوثو امبراطور المانيا ففتح الجزء الشمالي من ايطاليا سنة ٩٥٠ واما الاجزاء الجنوبية فكانت مرة تستقل ومرة تتبع الدولة الشرقية حتى آل بها الامر الى الاستقلال لما ضعفت الامبراطورية ونشأت جمهوريات وممالك كثيرة لها في تاريخ العمران ذكر كبير اشهرها جمهورية البندقية او فنيس التي وصل تجارها اقاصي الارض وقام منها السياسيون والعلماء والمكتشفون واختلطت بالاقوام الشرقية اكثر من بقية ممالك ايطاليا وحاربت العرب واتصلت بممالكهم زماناً ونال تجارها الامتيازات من سلاطين آل عثمان وملوك اليابان وغيرهم وعظمت قوة بابا رومه في تلك العصور حتى صار الملوك يتذللون لهُ ويعدون رضاءهُ واجباً لبقاء الملك في ايديهم . وكانت الدولة الالمانية السابقة الذكر تخسر بعض املاكها حيناً وتضيف اليها حيناً وساد في كثير من الجهات اشراف اهتضموا حقوق العامة فحاربهم الشعب زماناً حروباً طويلة انتهت سنة ١٣٢٨ بتقسيم البلاد على بعض العائلات المالكة ولا محل هنا لتسميتها كلها . وفي سنة ١٤٩٤ بدأت حروب طويلة بين فرانسا والنمسا على امتلاك ايطاليا فانتهى الحال بانكسار الفرنساويين في معركة بافيا سنة ١٥٢٥ وتخليهم عن البلاد

وبقيت ايطاليا وممالكها في زهاء وحروب متواليين واتسع نفوذ البابوات فحكموا غير رومه اكثر الممالك الاوروبية وقبضوا على سياسة الدول وتصرفوا بحقوق الملوك والامبراطرة وحدث من وراء ذلك حروب كثيرة في ايطاليا ذكر معظمها في تاريخ الدول الاخرى وكان أمراء فسكونتي يحكمون امارة لومبارديا وآل مدسي يحكمون فلورنسا وفرع من آل بوربون يحكم نابولي وصقلية واكثر الجهات الباقية جمهوريات زاهرة نامية يرأس البابا شؤونها رئاسة سياسية ودينية حتى قام نابوليون بونابارت المشهور وسطا على لومبارديا ورومه وبقية ممالك ايطاليا فاخضعها وضمها الى املاك فرانسا سنة ١٧٩٢ ثم انتقضت عليهِ وساعدتها المانيا وروسيا وانكلترا على الاستقلال فعاد اليها بونابارت واخضعها مرة اخرى سنة ١٨٠٠ وتوّج ملكاً عليها وسمي ابنهُ الصغير بعدئذٍ ملك رومه وكان يوم تصرّف بالممالك قد اقام اوجين بوهارني ربيبه ملكاً عليها ثم صار يوسف اخو نابوليون ملكاً لنابولي فما دام هذا الحال طويلاً لان ايطاليا خرجت من قبضة الفرنسويين بعد سقوط نابوليون وعادت الى الاستقلال فقويت شوكة ملوك نابولي وصقلية وهم من آل بوربون وملكت النمسا جزءاً مهماً من شرقي ايطاليا فلم تخلت

عنهُ الآ في اول حكم فرانس جوزف الامبراطور الحالي حين ساعدتها فرانسا على الاستقلال في سنة ١٨٩٩

وبين البلاد في هذه الحالة تتنازعها عوامل الحرب والثورة قام في سردينيا فكتور عمانوئيل ملكها المشهور بالدهاء وبدأ بتحريض الناس على الانضمام الى رايتهِ وساعدتهُ فرانسا وانكلترا لانهُ انضم اليهما في حرب القرم وحارب روسيا معهما وكان من حسن حظهِ انهُ رزق وزيراً عظيم الذكاء واسع العقل اسمهُ كافور وقام على ايامهِ غاريبالدي بطل ايطاليا المشهور فحارب ملوك لومبارديا ونابولي وغيرهم واستخلص البلاد منهم فجعلها مملكة واحدة ثم دخل رومه في ٢٠ سبتمبر من سنة ١٨٦٩ بمساعدة الجنود الفرنسية واغتصب القوة من البابا فصارت ايطاليا كلها مملكة واحدة عاصمتها رومه كما كانت في الزمان الاول . ومات فكتور عمانوئيل اول ملوك ايطاليا بعد اعادة حياتها في ٩ يناير من سنة ١٨٧٨ فخلفهُ ابنهُ اومبرتو وهو جلالة الملك الحالي عرف بين قومهِ بالبساطة الزائدة وحب الرعية والميل الى الاصلاح والعدالة وقد تقدمت ايطاليا في ايامهِ تقدماً يذكر في الصناعة والتجارة وحاولت ان تمد سلطانها وتستعمر الجهات القاصية فلم تنجح في ذلك وابرمت محالفة مشهور امرها مع النمسا والمانيا ومعاهدة بحرية مع انكلترا وهي الآن من الدول العظيمة في الارض ولملكها مكانة في جميع النفوس



اومبرتو الاول ملك ايطاليا

تورين

غادرت باريس ووجهتي المدائن الايطاليَّة اولها مدينة تورين فمرَّ بنا قطار سكة الحديد في عدة مدن فرنسويةً مثل شمبيري ومودان وهذه الاخيرة واقعة على حدود فرانسا وايطاليا فيها جمرك مشترك للدولتين نزلنا من القطار فيها ليفتش العمال ما معنا من امتعة وعفش ثم عدنا الى قطار آخر ايطالي ودخلنا في نفق جبل سيني المشهور وهو من آثار المدنية العظيمة ومن المناظر المشهورة في الارض يعد ندًا لنفق سان غوثار الذي تقدم الكلام عليهِ في باب سويسرا وقد بدأُوا بنقبهِ في الجبل سنة ١٨٦١ فما انتهى عملهُ الاَّ عام ١٨٧٠ واشترك في هذَا العمل أُمتَّا الطليان والفرنسيس فبلغت جملة المال الذي انفق عليهِ ٧٥ مليون فرنك . وطول هذَا النفق ثمانية اميال من جانب في الجبل الى جانب وعرضهُ ٢٦ قدماً وعلو سقفهِ عن سطح ارضهِ ١٩ قدماً وفيهِ خطان لارتال البخار احدهما للقُطُر الذاهبة والآخر للقادمة وهم ينيرونهُ بمصابيح غاز بين الواحد منها والآخر مسافة ٥٠٠ متر فاذا دخل القطار هذَا النفق اقفلت نوافذهُ والكوى ولم يسمح لاحد المسافرين بفتح شيء منها ولا بمد يدهِ او اخراج رأْسهِ مدة وجود القطار داخل النفق لئلا يدخل قتام الآلة البخاريَّة عربات المسافرين او يحدث مكروه بسبب ضيق المجال فكانما المسافر في هذَا النفق محبوس تحت قلب الارض نحو نصف ساعة يأْتيهِ من بعدها الفرج اذ يخرج الى وجه الارض فيرى المرء نفسهُ طائرًا في هذَا القطار محلقًا في تعاريج الجبل البهي يلتف من حول جبال الالب الموصوفة وتتنوع من دونهِ آيات الجمال الطبيعي الرائع فيكون الفرق بين ظلام النفق وقتامهِ وبهاء

هذه المشاهد البديعة مما يزيد تأثيرها في النفس رسوخاً ويبقي لجبل سيني ونفقهِ ذكراً غريباً في الاذهان

ووصلت تورين بعد سفر ٣٠ ساعة في القطار المستعجل ولهذه المدينة اهمية كبرى فانها كانت قاعدة امارة بيامونته في القرون الوسطى ثم علا شأنها حين دخلت في حوزة امراء سافوا سنة ١٤١٨ ولما عاد امراء هذه الدولة الى امتلاك ايطاليا برمتها على عهد فكتور عمانوئيل والد الملك الحالي جعلت هذه المدينة ايضاً قاعدة المملكة الايطاليَّة الجديدة من سنة ١٨٥٩ الى ١٨٦٥ ومن بعد ذلك نقل الملك كرسيه الى فلورانس فاحتج اهل تورين واعترضوا على هذا الابدال لانهم كان لهم اليد الطولى في توحيد المملكة الايطاليَّة فما سكتوا عن الاحتجاج الاَّ لما صارت رومه عاصمة المملكة وهي اكبر مدائن ايطاليا وسيدتها من قدم كما تعلم.
وفي هذه المدينة مع ضواحيها نحو اربعمائة الف نفس وهي مبنيَّة في منبسطٍ من الارض واسعة الميادين مبلطة الشوارع تبليطاً حسناً واكثر شوارعها طويلة لا يقل الواحد منها عن الف مترٍ في طولهِ وكلها تحف بها الاشجار من الجانبين وفيها الابنية الجميلة المنسقة فهي ممتازة بهذا الوضع وبنظافتها عن بقيَّة المدن الايطاليَّة.
وقلَّ ان يخلو شارع او رحبة في هذه المدينة من تمثالٍ لاحد المشاهير الذين نبغوا في تورين او سواها من مدن ايطاليا فترى فيها تماثيل الجنرال لامرمورا قائد عساكر سردينيا في حرب القرم وغاريبالدي وكافور وغير هؤلاء من الذين خدموا بلادهم خدمة خلّدت لهم الذكر والحق يقال ان كل مدن ايطاليا ملأى بهذه الآثار الجميلة

ومن اهم مواضع هذه المدينة ميدان كاستيلُّو واقع في قلب البلد وهو يتفرع منهُ عدة شوارع مهمة كشارع غاريبالدي وشارع پو وشارع رومه وفيهِ قصر قديم يعرف باسم "قصر المداما" او السيدة سمّي بذلك لانهُ كان لوالدة الملك فكتور

اماديوس الثاني . وفي الجهة الشمالية من هذا الميدان قصر آخر للملك يقيم فيهِ
حين يزور المدينة ولا تخلو مدينة مهمة في ايطاليا كلها من قصر للملك او قصرين
كانت للامراء والملوك الاول وهي كاملة الرياش والمعدات ولكن اعضاء العائلة
المالكة لا يقيمون في هذه القصور الآن الاَّ قليلاً . وقد دخلت هذا القصر المنوه
بهِ وهو قديم العهد بني سنة ١٦٦٠ فالفيت رياشهُ جيدًا بسيطًا وقاعاتهُ رحبة واهمها
قاعة السلاح وفيهِ تمثال نابوليون الاول والسيف الذي انتضاهُ في معركة مارنجو
ونسران فرنسويان واسلحة قدمتها مدن ايطاليا للملك فكتور عمانوئيل وسيف قدمتهُ
لجلالتهِ مدينة رومه سنة ١٨٥٩ واكليل من مدينة تورينو قدمتهُ سنة ١٨٦٠ وغير
هذا كثير . وهنالك ملابس آل ساڤوا الحربيَّة الاولى تشبهُ التي وصفناها في غير
هذا الفصل من ملابس فرسان القرون الوسطى واسلحتهم وسروج خيلهم اكثرها من
القطيفة الحمراء المزركشة بالقصب . وتجاه هذا القصر اي في الجهة الجنوبيَّة من
ميدان كاستيلو قصر كارينانو القديم ولد بهِ الملك فكتور عمانوئيل و يليهِ متحف فيهِ
من الآثار المصريَّة ما لا يوجد في المتاحف الاخرى لا سيما البردي او ورق
البابيروس فان فيهِ ما لا يوجد نظير لهُ في متحف الجيزة وفيهِ من تماثيل الفراعنة
الضخمة المصنوعة من الصوان الاحمر ما يستحق الذكر والاعجاب وقد وصل معظم
هذا الى متحف تورين من قنصل لدولة ايطاليا اقام زمانًا في مصر واصلهُ من
هذه المدينة فارسل الى متحفها كل هذه الآثار النفيسة

وفي تورين ميدان آخر يعرف باسم كارلو عمانوئيل نصبوا فيهِ سنة ١٨٧٣
تمثالاً لكافور الوزير المشهور وهو من ابناء هذه المدينة ايضًا وقد وضعوا على راس
التمثال اكليل الظفر وفي يدهِ لوح عليهِ شعار كافور وهو (كنيسة حرة في بلاد
حرة) وما زال كتاب الغرب يتناقلون هذه العبارة عن كافور في كتاباتهم السياسيَّة .

وقد نقشوا على قاعدة هذا التمثال تاريخ استقلال ايطاليا وتاريخ رجوع الجنود الايطاليَّة من حرب القرم وتاريخ مؤتمر باريس وغير هذا مما كان لكافور بهِ دخل كبير. ويتفرع من هذا الميدان شارع باسم كافور ما زال فيهِ البيت الذي ولد فيهِ هذا الوزير سنة ١٨١٠ وتوفي سنة ١٨٦١ والناس يقصدونهُ ويذكرون صاحبهُ العظيم كما يفعلون في كل موضع مثل هذا لذكر الرجال الكبار

على ان اجمل ميادين تورين بلا مراء هو المعروف باسم فكتور عمانوئيل مؤَسس المملكة الايطاليَّة الحاليَّة والشارع الفخيم الذي يتفرع منهُ بهذا الاسم ايضاً فان هذين الموضعين هما نقطة الاهميَّة في المدينة ترى فيهما طبقات الاعيان واهل البزة والترف وفي كل الجوانب قصور نخيمة ومخازن عظيمة وشجر بهي وغرس شهي وماء يتدفق من البرك البهيَّة ومئات من سراة المدينة تخطر متنزهة او تروح وتغدو لشراء البضاعة النفيسة او لقضاء الحاجات وانغام شجية تسمع في جوانب الميدان فهنا ملتقى العز ومركز الحظ وهناء البال في هذه المدينة الحسناء. ويمكنك الوصول من هذا الشارع العظيم الى الحدائق العموميَّة او الى الجسر المبني فوق نهر پو وهو الذي مررت من فوقهِ وذهبت صعدًا الى جبال الكبوشيين البهيَّة سميت بهذا الاسم لان بعض رهبان الكبوشيين بنوا فوقها ديرًا على ارتفاع الف قدم عن سطح الارض والصاعد الى قمة هذا الجبل في الترامواي البخاري يسير في طرق تزينها الصخور الضخمة وتتخللها الاعشاب النديَّة واشجار الصنوبر العطريَّة فاذا ظللت صاعدًا الى جبل هنالك اسمهُ السوبرجا وارتفاعهُ ٢٠٠٠ قدم عن سطح الارض وجدت في اعلاهُ كنيسة ومدفنًا لآل سافوا بناها الدوك فكتوراماديو من امراء الدولة الحاكمة في ايطاليا الآن وفي الكنيسة قبة علوها ١٤٠ قدماً اذا ارتقيت اعلاها رأيت من دونك منظرًا يسحر الالباب لفرط جمالهِ فانك يحيط

بك المدينة والسهل والنهر وسلسلة جبال الالب العظيمة منها جبل روزا ارتفاعهُ ١٥١١٥ قدماً وجبل براديزو علوهُ ١٣٧٨٠ قدماً وغير هذا مما تحلو الفرجة عليهِ وتنشرح لرؤيتهِ الصدور وهو كثير في تورين وفي اكثر المدن الايطاليَّة التي زرنا عدة منها . وكانت وجهتي من بعد تورين مدينة ميلان المشهورة واليك بعض ما يستحق الذكر عنها .

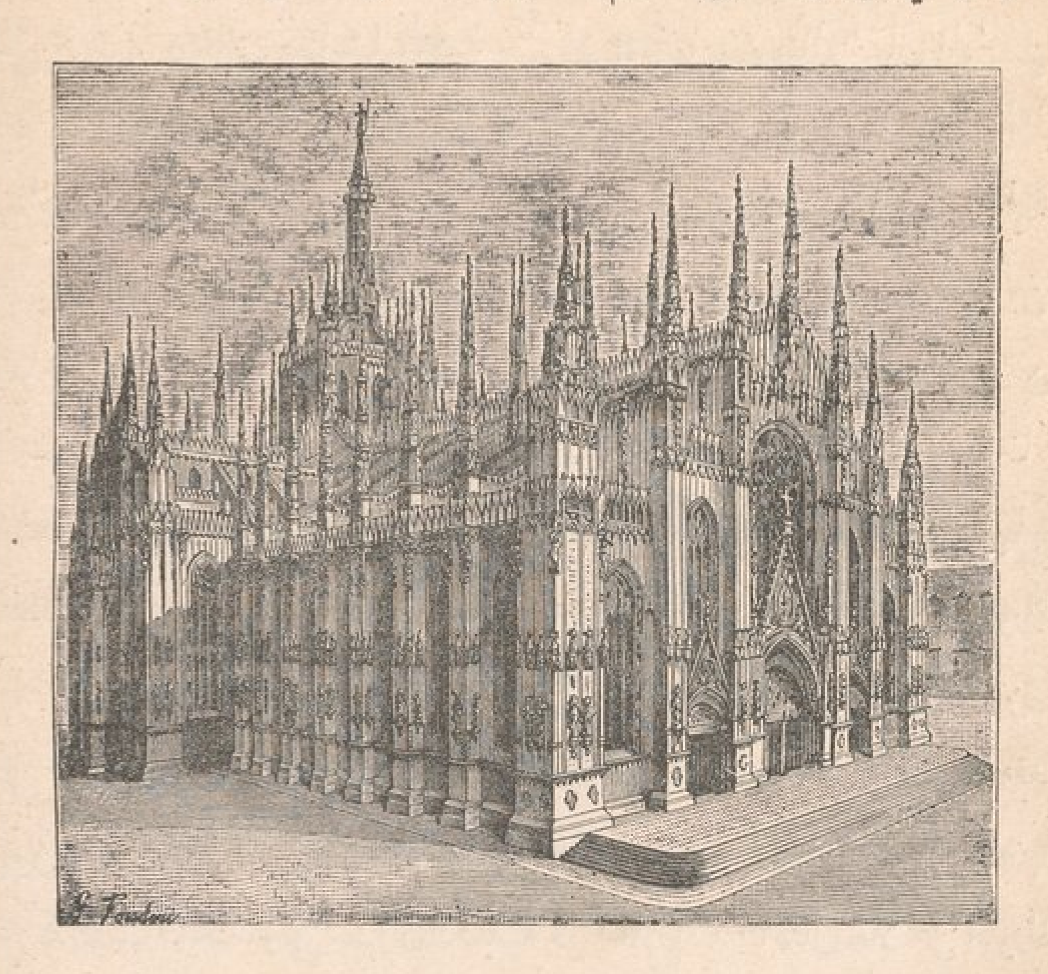


ميلان

هي عاصمة اقليم لومبارديا المعروف بالاقليم العالي في ايطاليا وقد كانت من اهم مدن المملكة الرومانيَّة ولم تقل اهميتها لانها في القرن الحادي عشر كان تعدادها ثلاثمائة الف واشتهرت في القرن الخامس عشر بصناعة التصوير حين قام فيها برامانته وليوناردي فنشي وتلامذتهما الكثار ولها الآن شهرة بالمصنوعات كالمنسوجات الحريريَّة لما يزرع من شجر التوت في اقليم لومبارديا وغيرها من لوازم الاثاث والرياش وهي بوجه الجملة اكبر مدن ايطاليا تجارةً واكثرها ثروةً يبلغ عدد سكانها الآن نصف مليون ويشطرها شارع فيكتور عمانوئيل المتصل بشارع فنسيا وهما يوصلان الى الحديقة العمومية وفيها من اشجار المانيلا شيء كثير يتضوع منها روائح عطريَّة قويَّة وحول البركة زهر ومقاعد وغير هذا مما لا اطيل وصفهُ لانهُ مثل الموجود في الحدائق العمومية الاخرى وقد وصفت كثيراً منها ولكن مدينة ميلان هذه تمتاز باشياء لا نظير لها في الارض من ذلك الدوم او الكنيسة تعد من عجائب الدنيا ولا يزيد عنها في الاتساع الاَّ كنيسة بطرس في روميه وكنيسة جيرالدا في اشبيلية بالاندلس وقد مرَّ ذكرها وتعد كنيسة ميلان

بين كنائس الطبقة الاولى في جمال بنائها وزخارفها وما فيها من تماثيل القديسين المنقوشة على الحجر والرخام في سقفها وجدرانها داخلاً خارجاً وما انفق على تذهيبها ودقائق صناعتها العجيبة حتَّى ان مجموعها يعد مثال الجمال المؤثر في الاذهان ولمنظرها مهابة من الخارج والداخل يشهد بها كل من اسعده الحظ برؤيتها وصورها منتشرة في كل جهات الارض . ومساحة هذه الكنيسة العظيمة ١٤٠٠٠ متر مربع وهي يمكن نحو اربعة آلاف نفس ان يجتمعوا فيها ويبلغ طولها من الداخل ١٦٢ متراً وعرضها ٩٦ متراً وعلوها ٢٢٠ قدماً والكنيسة كلها مبنية من الرخام وهي قائمة على ٥٢ عموداً محيط كل منها ١٢ قدماً وسقفها من الرخام المختلف الالوان ولها عدة شبابيك ونوافذ صنعت الواحها الكبيرة من قطع الزجاج المختلف الالوان على شكل الفسيفساء وهي تمثل حوادث الانجيل والتوراة ولا يقل عدد هذه القطع في كل نافذة عن ٣٥٠ قطعة وهي من اثمن ما نزل على الزجاج من الصور المتقنة يقف المرء امام بعضها ساعات ولا يمل الفرجة وقد يخيل للناظر اليها انهُ يرى رجالاً ومناظر صحيحة طبيعية لولا ان الصور تنقصها حركة الاشياء الحيَّة . وعلى جدران الكنيسة من الخارج ٢٠٠٠ تمثال نقلاً عن التوراة والانجيل في القد الطبيعي ولا حاجة الى القول انهُ كتب مجلد في تاريخ بنائها وعمل المهندسين الذين اشتغلوا بها والنقود التي جمعت وصرفت عليها حتى تمت وتكرست في سنة ١٥٧٧ وهي من ذلك العهد لا تبطل التحسينات فيها سنة بعد سنة حتَّى انهُ اضيف اليها تمثال نابوليون الاول في سقف الكنيسة سنة ١٨٠٥ ولكن العين المجردة لا ترى بدائع النقش والزخرفة في اعلى السقف بالنظر الى ارتفاعهِ ولهذا ترى كثيرين من السياح في يدهم النظارات ينظرون الى ما فوقهم قبل البدء في الصلاة او بعد ختامها . ولهذه الكنيسة برج يصعد الى اعلاهُ على ٣٠٠

درجة ترى من اعلاها جبال الالب مثل الجبل الابيض وجبل برنار وجبل السوبرجا في تورين السابق الكلام عنهُ وغير هذا من المناظر البديعة



كنيسة ميلان

وفي شارع فكتور عمانويل رواق دعي باسمهِ مبني على شكل صليب صرف عليهِ ثمانية ملايين فرنك وهو في طول ٣٢٠ مترًا وعرضهُ ١٦ وارتفاعهُ ٩٤ مترًا وعلو قبتهِ ١٨٠ ينتابهُ خلق كثير بعضهم يجلسون في القهاوي وبعضهم يأكلون في المطاعم والبعض يشترون لوازمهم من مخازنهِ كل ذلك داخل الرواق وهو يمكن الوصول منهُ الى تياترو سكالا المعدود من اكبر مراسح ايطاليا يضم ٣٦٠٠ شخص والقارئ يعلم ان الطليانيين اهل طرب وفن فالفقير منهم لا يتخلف عن الذهاب

الى ملهى لسماع الروايات او الاغاني وهم لاينكرون الغناء اثناء مرورهم في الشوارع فتراهم في ليالي الصيف يجتمعون ومعهم آلات الموسيقى فتدوي الشوارع باغانيهم وهم يعزفون و يطربون . وفي ساحة التياترو تمثال ليوناردو دي فنشي ومن هذه الساحة يبتدئ شارع مانسوني وهو من ابناء ميلان كان من اكبر الساعين في توحيد مملكة ايطاليا بقلمهِ كما سعى غاريبالدي بسيفهِ . وليس بعيدًا من هنا متحف بريرا رأينا في ساحتهِ الخارجية تمثال نابوليون الاول ثم دخلنا قاعاتهِ فرأينا صورًا كثيرة من صنع رفايل وليوناردو وهي تعد في الطبقة الاولى واكثرها دينية بينها صورة مار مرقص يبشر في الاسكندريَّة وصورة موسى وقد وجد طفلاً على ضفة النيل وخروج بني اسرائيل من مصر وخمسون الف قطعة من النقود القديمة والجديدة من الذهب والفضة . ومما يذكر بين مشاهد ميلان مدفنها المشهور مساحة ارضهِ مايتا الف متر وهو يحيط بهِ سور لهُ اعمدة وابواب بنيت بادق صناعة فاذا دخلت المدفن رأيت تماثيل الرخام الابيض قائمة على تلك القبور وهي اشكال كثيرة العدد والاتقان فيها رموز واشارات الى المتوفين فاذا كان المتوفى طفلاً صوّر ووالدتهُ تنوح عليهِ او شابًا فهناك عمود من الرخام قصف قصفًا وغير هذا من ادلة الاعتناء وقد خططت شوارع منظمة فيها الاشجار والزهور والرياحين وبرك الماء فما هذا المكان الاَّ من المتنزهات الموصوفة وليس هو مجموع قبور يأنف من رؤيتها او سمع حديثها السامعون

ومن ضواحي ميلان بلدة مونتزا وهي على مسافة ساعة بالسكة الحديدية واقعة في اخصب بقعةٍ من بقاع الارض في جهة يقل لها النظير بين الجهات المعروفة بجمالها واعتدال هوائها ولهذا اتخذها جلالة الملك الحالي مصيفًا لهُ وقد زارهُ في قصرها رصفاؤُهُ الملوك والقياصرة في السنوات الاخيرة ودبّرت هنالك المهام الخطيرة . والبلدة كلها غياض غضيضة ورياض غناء ملئت بشهي

الشجر ولذيذ الفاكهة وفيها من شجر التوت وجداول الماء العذب وبهي الحدائق ما لا تشبع العين من التمتع بحسنهِ المنعش وقد غرست اشجار الصفصاف والحور في طرقها وجهاتها على طرق هندسية وهم يعتنون باغراس العنب وكرومهِ لانك ترى عروق العنب واثمارها ممتدة ومدلاة من شجرة الى شجرة على نسق يروق للناظرين. وقد كان لوجود قصر الملك هنا تأثير كبير فان سراة ميلان بنوا لهم قصوراً ومنازل فخيمة وبعضهم يقضون فصل الصيف في بحيرة كومو يبلغ طولها ٣٠ ميلاً وتتصل بها بحيرة اخرى تدعى لوكو بنيت على ضفافها القصور والمنازل والفنادق يؤُمها سراة الميلانيين وغيرهم وهذه البحيرات تضاهي بحيرات لوسرن وجنيف في سويسرا وتمخر فيها الباخرات ما بين المدن القائمة على ضفافها ويتخللها غابات واشجار الكستناء والصنوبر فهي من جنات الارض المعدودة والذي يقضي زمن الصيف في هذه الجهة من ايطاليا فانهُ ينشرح صدرهُ من المناظر الطبيعيَّة على اشكالها لا سيما وان الفنادق فيها متقنة ورخيصة الاثمان . وقد عدت من مونتزا بعد ان متعت النظر بآيات جمالها ورجعت الى ميلان ثم برحت هذه المدينة قاصدًا مدينة فنسيا

فنسيا

هي البندقية المشهورة التي تفرَّدت بعجيب موقعها وغريب وضعها حتَّى اطلق عليها الكتاب اسم سلطانة الادرياتيك وضربت بمحاسنها الامثال وتعشق طلاب الادب ذكرها وزيارتها من قدم فنظموا عقود الشعر الرنان في مدحها ووصف غرائبها واشتهر اللورد بيرون الانكليزي وغيرهُ بما نشروهُ من نفثات يراعهم عنها ولا عجب فانها المدينة العجيبة التي بنيت فوق الماء بدل الارض والتي تقوم فيها الزوارق

والقوارب مقام العربات والخيل وتحل الترع محل الشوارع والبرك محل الميادين والرحبات فكل ما فيها خاص بها يميزها عن سواها فانها بنيت على ١١٧ جزيرة تتكون منها احياء المدينة وتفصلها بعضها عن بعض ١٥٠ ترعة هي الشوارع العمومية بنوا فوقها ٣٧٨ قنطرة فسهل المرور من جانب الى جانب واكثر هذه القناطر جميل المنظر واما الاحياء او الجزر المتباعدة فلا بدَّ للوصول اليها من ركوب هاتيك الزوارق المستدقة المعروفة عندهم باسم جوندولا وهم يتقنون عملها ويديرها رجل واحد او رجلان يقعد احدهما في مقدمة القارب والآخر في المؤخرة وترى هذه الزوارق اينما سرت تنقل الناس في ترع البندقية وهي تنثني وتتعرج بين الجدران والمنازل وتحت الفنادق والمخازن او تنساب انسياب الافعى فوق الماء المترقرق واذا تقابل منها عدة تخللت بعضها بعضاً وانسلت هذه من هنا وهذه من هنا ولا صدام ولا قرقعة فيحلو السير فيها لجماعة المتفرجين

ولقد اتيت هذا البلد غير مرة برًّا وبحرًا ومررت هذه المرة على بلدة دزنسو وهي قريبة من سلفرينو التي حدثت فيها المعركة المشهورة بين جنود ايطاليا وجنود فرانسا من جهة والنمسا من جهة اخرى سنة ١٨٥٩ وقد تقدم ذكرها وكان من نتيجة انكسار النمسويين فيها ان دولتهم تنازلت عن اقليم البندقية لايطاليا. وما زال القطار من هنالك يجتاز الابعاد ويخترق المزارع والعمائر مدة عشر ساعات حتَّى دخلنا محطة البندقية وسرنا منها في زورق الى باب الفندق

واهم ما يذكر عن فنسيا ساحة القديس مرقص يبلغ طولها ١٧٥ مترًا وعرضها ٨٢ وهي مثابة الهيئة الاجتماعية ينتابها خلق كثير في اواخر النهار ويكثر الازدحام في الليل حتَّى يتعذَّر المسير مع اتساع تلك الساحة وهم يخطرون في جنباتها لسمع ما تصدح بهِ الموسيقى من الانغام الطليانية الحماسية ويحيط بهذه الساحة من ثلاث

جهات اروقة بني تحتها حانات ومطاعم ومخازن تباع فيها الحلي والجواهر وكثير من مصنوعات فنسيا الزجاجيَّة الملونة وهذه حرفة قديمة العهد حفظ سرها للآن وفوقها منازل كانت لنواب البلاد وهم اصحاب المراكز الاولى في حكم البندقيَّة ولكن قسماً منها آل بالارث الى اربابهِ وقسماً خص بالملك الحالي يقيم فيهِ حين يأتي هذه المدينة . وفي الساحة المذكورة برج قديم بني سنة ١٣٢٩ لاجراس الكنيسة صعدنا الى اعلاهُ على طريق مبلط لا درج لهُ وهو في عرض مترين يدخل النور اليهِ من نوافذ وكوى صغيرة ولما بلغنا القمة رأينا الجزر عشرات ولمنظرها تأثير في النفس . قيل ان نابوليون الاول صعد اعلى هذا البرج ممتطياً جوادهُ . وفي طرف الساحة برج قديم لساعة فلكية ومع انها تخربت فما زال فيها امر غريب فانهُ يظهر من خلف البناء عبد بيدهِ مطرقة يضرب بها المواقيت وفي الساحة اسراب الحمام يقال انهم كانوا في ايام جمهوريَّة البندقيَّة يطلقونها من الكنيسة للساحة في احد الشعانين ابتهاجاً وفرحاً وكان لها مرتبات وهي الى الآن تأوي هذه الرواقات فاذا دقَّت الساعة موعد الظهر اجتمع الحمام لالتقاط الحبوب التي تنثر لهُ في الساحة المذكورة

وفي آخر الساحة من الشرق كنيسة مار مرقص قيل ان عظام هذا القديس نقلت من الاسكندريَّة ودفنت فيها سنة ٨٢٨ وهي مبنيَّة على شكل الكنائس الشرقية (البيزانتية) لها هيكل في داخلها بني في الشرق وهي من اقدم الكنائس انشئت في القرن التاسع وأُدخل فيها نحو خمسماية عمود ما بين كبير وصغير وكلها من الرخام الشرقي فيها من اشغال الفسيفساء مثل ما في كنيسة آيا صوفيا في الاستانة وتقدر مساحتها بخمسة واربعين الف قدم وفيها من الاواني الذهبية كالصلبان والمراوح والمباخر القديمة شيءٌ كثير يعد كنوزاً يباهون باظهارها

للطالبين ويوصل من هذه الكنيسة الى سراي الدوجات وهي قديمة العهد انشئت في القرن الثامن ومن غرائب بنائها انها قائمة على ١٠٧ اعمدة منها ٣٦ عموداً صفت الواحد بعد الآخر في الدور الاول وفوقها هذا العدد في الدور الثاني وذلك في طول واجهة القصر على مسافة ٨٢ متراً وهم كلما تهدم منها شيء اعادوهُ الى مثل حالتهِ الاصلية فدخلنا في قاعاتها الواحدة بعد الثانية وهي كثيرة العدد والزخارف اهمها القاعة التي كان الامراء او الدوجات يقابلون فيها سفراءهم ومندوبي الاجانب وقد نقش على جدرانها وسقفها صور زيتية دينية تمثل حوادث الانجيل والتوراة حتى انك لتفهم منها ولادة المسيح وحياتهِ وصلبهِ وارتفاعهِ او قصة يوسف مع اخوتهِ وابراهيم وولدهُ وفيها ايضاً صور تاريخية تمثل حياة الدوجات في كل ادوارها وقس على ذلك

واحسن اشكال النزهة في هذا البلد ان يدخل المرء زورقاً من الزوارق المبنيَّة على الطرز الحربي القديم فانها مستدقة طويلة وراسها وموُخرها مرتفعان يسمونها جوندولا ولها مقاعد في الوسط مغطاة لوقاية الجالسين من الشمس والمطر وهي تمخر في الترعة العمومية فيرى المرء على الجانبين منازل وقصوراً بنى بعضها الدوجات وبعضها بناهُ نواب المملكة وقد فطن لها جماعة من الامريكان الموسرين فاشتروا بعضها واعتزلوا فيها الاشغال حتَّى ان السر هنري لايارد السياسي والاثري الانكليزي المشهور اشترى قصراً منها لم يزل لورثائهِ . ومن المتنزهات المعدودة في زمن الصيف انهُ يجتمع مئات من هذه الجوندولات او الزوارق في هذه الترعة ويحتشد الناس فيها ازواجاً وافراداً معهم آلات الطرب اخصها النوع المعروف بالماندولين (القيثار) يغنون ويطربون ويأتي بعض الناس لهذه الغاية من البلاد المجاورة في الليالي المقمرة ونظراً الى كثرة الجزر المتباعدة فهم عندهم بواخر صغيرة

تمخر كل نصف ساعة بين البلد وهذه الجزر منها جزيرة ليدو وهي جيدة التربة فيها حدائق غناء واشجار غرست صفوفاً على شاطيء البحر وهناك حانات وملاهٍ صيفية وتراموي توصل الى الحمامات البحرية يجتمع فيها خلق كثير. فزيارة هذه الجزيرة يعدها الغريب من اجمل النزهات لانهُ يتأمل منها حسن موقع ڤنسيا خصوصاً من جهة البحر. ويقال مثل هذا عن جزيرة ثانية تسمى موارنو فيها قسم كبير من معامل الزجاج الملون وهم يعملون منهُ المرائي المعروفة ويحيطونها ببراويز من البلور ملوَّنة بالوان مختلفة. وقد وقفنا امام الصناع وهم يفعلون ذلك ويظهرون الزجاج كالخيط او كالشعر في طول متر واكثر. ويصنعون من خيوط هذا الزجاج ربطات للصدر تلف وتعقد كانها صنعت من القطن وازراراً للقمصان او دبابيس للبرانيط كل ذلك وانت واقف امامهم تتفرج. هذا اهم ما يمكن ان يذكر عن ڤنسيا ولتاريخها لذة وفائدة ما بعدهما لذة كما يعلم القارئون وقد برحتها قاصداً مدينة فلورانس والمسافة بينهما ثماني ساعات فقام القطار يمر في ولاية توسكانا المشهورة بالخمور ووقف في عاصمتها وهي بولونيا الواقعة في اهم مركز حربي فلهذا وضعوا فيها لواءً من الجيش يقيم في حصونها وهي مبنية في منبسط من الارض عند اسفل جبال الالب ويلتقي فيها عدة انهر وهي ايضاً مركز اسقفية ومع ان سكانها لا يزيدون عنماية وثلاثين الفاً فان فيها ١٣٠ كنيسة وهذه حالة اكثر مدن ايطاليا او كلها في كثرة الكنائس

فلورانس

لم تكن هذه المدينة شيئاً يذكر قبل ان قام فيها رجل يدعى جيوڤاني دي ميديسي مؤسس الدولة التي حكمت هذه البلاد واشتهرت في اوروبا وخلفهُ ابنهُ

كوزيمو سنة ١٤٣٤ وهو ادخل اصلاحات شتى حَتَّى ان الاهالي لقبوهُ بابي الوطن ثم خلفهُ ابنهُ بيترو سنة ١٤٦٤ وتلاهُ سنة ١٤٩٦ لورنسو الذي لقّب بالعظيم لانهُ وجه الفكر الى انشاء المدارس وتعليم الفنون اللطيفة واهمها فن التصوير حَتَّى صارت فلورانس على عهدهِ المستودع العام لبيع الصور ولها الفضل الاكبر على متاحف اوروبا كما ان لمدارسها الفضل على اللغة الطليانيَّة لانها اصلحت قواعد نطقها وكتابتها وما زال الفلورانسيون حَتَّى يومنا هذا يحسنون التكلم باللغة الطليانيَّة اكثر من بقية اهل ايطاليا

اما فلورانس الحالية فاسمها عند الطليان " فلورانس الجميلة " يشطرها نهر ارنو الصغير ويرى المتجول فيها جبال الالب العظيمة عن بعد تتقدمها تلال بهية على مقربة من المدينة وهي الضواحي التي اشتهرت عنها فيها قصور عظيمة للموسرين من الاهالي والاجانب لا سيما الانكليز فانهم يستوطنون هذه الضواحي بعد اعتزال الاشغال حَتَّى ان ملكة انكلترا قضت زمناً في احد هذه القصور . وقد مهدوا في هذه التلال شوارع معوجة متعرجة طولها اربعة اميال وعرضها ستون متراً يرى المتجول فيها بالعربة مناظر بديعة تتنوع في كل آونة من صفوف الاشجار واشكال الحدائق لا نظير لها في كل مدن ايطاليا . والمتنزه الآخر في طرف البلد يدعى كاشيني او الحديقة العموميَّة يجتمع فيها خلق كثير وتصدح الموسيقى العسكريَّة فيها كل يوم بعد الظهر . وقد اكثرت في سياحتي هذه من ذكر المتاحف والآثار القديمة وما يقرب منها حَتَّى خشيت ان يملَّ القارئ فلهذا اضرب هنا صفحاً عن بعضها واقتصر على ذكر ميدان واحد يعرف بميدان السنيورة اي السيدة فيهِ تمثال كوزيمو الاول من عائلة ميديسي وقصرهُ القديم بني في القرن الثاني عشر ترى على جدرانهِ شعار الاحزاب القديمة منها حزب جلفه شعارهُ النسر وحزب ميديسي

شعارهُ البندقية . وقد قام من حزب جلفه امراءُ وملوك عظام لهم شهرة في التاريخ واهم فروعهم ملوك هانوفر الذين صاروا بعدئذٍ ملوك انكلترا وجلالة الملكة فيكتوريا سليلة هذا البيت الكبير . واما آل ميديسي فذكرهم اشهر من نارٍ على علم لانهم اختلطوا باكثر العائلات المالكة في اوروبا وقام منهم سيدات حكمنَ مملكة فرانسا زماناً في القرون الوسطى وعرفنَ بالذكاء والاقتدار . وعلى مقربة من هذا القصر رواق قديم قائم على عمد من الرخام كانوا في القرن الثالث عشر يقيمون فيهِ الاحتفالات لرئيس الجمهوريَّة وزوجتهِ فتركنا هذا المكان وذهبنا الى متحف اوفيسي الذي اسس في القرن الخامس عشر على ضفة النهر للصور الزيتية جمعوها قرناً بعد قرن مدة خمسة قرون فلما ضاق بها هذا الموضع بني دهليز طويل من هذا المكان الى الضفة الاخرى سرنا بهِ حتى اذا وصلنا الى الجانب الآخر ذهبنا الى قصر بيتي وقد سمي باسم امير اشتهر بمقاومة آل ميديسي في القرن الرابع عشر ولكنهم فازوا عليهِ واستولوا على هذا القصر واقاموا فيهِ وهو الآن ملك حكومة ايطاليا يقيم فيهِ الملك الحالي حين يزور هذا البلد فدخلناهُ من باب كبير وصعدنا الى الدور الاعلى اهم ما فيهِ القاعات وفيها خمسمائة صورة زيتية ويتبع هذا القصر حديقة بوبولي سميت باسم امير من آل ميديسي وانشئت في القرن الخامس عشر فوق مرتفعات تشرف على البلد . ولما عدنا في الغد الى ميدان المداما ومشينا في شارع كالسايولي رأينا بعض السياح يسيرون حثيثاً وعلمنا من الترجمان الذي كان معنا بانهم يقصدون المنزل الذي ولد فيهِ دانته الشاعر الايطالي المشهور فسرنا معهم لزيارتهِ ورأينا على باب البيت لوح رخام كُتب عليهِ " ان الشاعر دانته ولد في هذا البيت " وليس يؤَجر البيت ولكنهُ يدخلهُ السائحون بدفع فرنك فيجمع صاحبهُ من هذا الرسم مالاً وفيراً وفي غرف المنزل كتب قديمة استعملها ذلك الشاعر

المجيد . ثم سرنا الى متحف الآثار المصريَّة تجد بينها تمثال الالهة هاتور ترضع الملك الطفل هورمهب وجد في الاقصر بالصعيد . وما زلتُ اتردد على منتزهات فلورانس حَتَّى جاءَ موعد السفر فبرحتها وقمت الى روميه والمسافة بينهما ثمان ساعات في سكة الحديد



روميه

هي عاصمة الرومان وكرسي مملكتهم من قدم مرَّت عليها اعوام كانت فيها سيدة الممالك وحاكمة العالم المتمدن وقام فيها اقيال الرومان العظام وقوادهم وفلاسفتهم وقياصرتهم واجتمع فيها كبراءُ كل الممالك المعروفة في الزمان القديم بعضهم اسراءُ وبعضهم تجار او طلاب علم فما سادت مدينة وشادت كما سادت مدينة روميه هذه في ايام صولتها . وتاريخها القديم من الذ فصول التاريخ واكثرها فائدة للعالمين لم نتعرض لذكرهِ لاننا لم نجمل غير تاريخ الممالك الحديثة في هذَا الكتاب ولكننا نذكر القارئَ هنا ان روميه بنيت سنة ٧٥٣ قبل التاريخ المسيحي وكان بانيها رومُلوس قيصرها الاول وظلَّت هي سيدة المدائن الايطاليَّة وقاعدتها الى سنة ٨٠٠ بعد المسيح حين تُوّج شارلمان امبراطورًا للغرب على مثل ما ورد في تاريخ فرانسا وصارت المدينة من ذلك العهد مقرًّا لبابوات الكنيسة الكاثوليكيَّة وما زالت حَتَّى الساعة مركز الملك والرئاسة الدينيَّة معًا . وكانت روميه القديمة محاطة بسورٍ عظيم لا يقل طولهُ عن ١٢ ميلاً ولهُ ٣٧ بابًا يخرج منهُ الجنود ويدخلون واشتهرت من قدم برحباتها الفسيحة وشوارعها الكبرى التي كان القواد العظام يعرضون فيها على الرومانيين غنائمهم ودلائل انتصارهم في الحروب فكم من ملك وامير قادهُ الرومان

في تلك الشوارع اسيرًا ذليلاً وكم من كنز ثمين وملك عظيم غنمهُ اهل روميه وتاهوا بهِ فخرًا ودلالاً في تلك العصور حين كانت هذه المدينة سيدة الارض واهلها لايقلون عن مليونين وخمسمائة الف يعدون امراءَ الزمان وحكام الممالك وموالي الامم في مشارق الارض ومغاربها واصحاب العز العظيم

وقد بنيت روميه الحديثة موضع المدينة القديمة على تلال عشرة فهي كثيرة المرتفعات والمنخفضات في اسواقها وشوارعها ويشطرها نهر تيبر شطرين وقد بنيت على ضفافهِ المنازل والقصور وهي لا تبعد عن البحر غير ١٣ ميلاً ولكن ميناها شيڤيتا ڤيكيا ليست بذات اهميةٍ لان العاصمة قريبة من مدينة نابولي ولها ارتباط بداخليةِ البلاد من كل جانب بواسطة سكك الحديد

ولا حاجة الى القول ان اشهر ما في روميه قداسة البابا ومقرهُ وجلالة الملك ومركزهُ فاما البابا فمقرهُ في الڤاتيكان وهو حيٌّ من احياءِ المدينة قائم بنفسهِ فيهِ القصور والكنائس والحدائق والمنازل صار مقر البابوات من بعد رجوعهم من اڤنيون في فرنسا في القرن الخامس عشر وكان البابوات يزيد الواحد منهم بعد الآخر في قصور هذه الجهة ومحاسنها حتَّى بلغ عدد الغرف في هذه الدائرة العظيمة عشرة آلاف غرفة . وقد اتاح لنا الحظ زيارة الڤاتيكان ورأينا على الباب حرساً سويسيًّا ما زال افرادهُ ينتقون من اهل سويسرا ويلبسون الملابس المزوقة بالالوان الباهرة على مثل ما كان الحرس يلبس في الايام القديمة ودخلنا في القصر فرأينا قاعات رفائيل المصور العظيم حيث كان يشتغل بالهندسة والرسم مع تلاميذهِ واطلنا النظر في هاتيك الصور البديعة التي تشغل جوانب كثيرة من القصر ولها قدر في العيون وقيمة لان مصورها ابرع من اشتهر بهذا الفن اللطيف الى الآن واكثرها صور دينية كما تعلم . والذي يزور متحف الڤاتيكان يلزم لهُ ايام واسابيع حتَّى

يرى نفائسهُ ويدرك مقدار قيمتهِ فقد رأيت هنالك من النقوش والتماثيل وقبور القياصرة والآثار العظيمة المختلفة الاشكال ما يعجز القلم عن وصفهِ اذكر منها تمثال اوغسطس قيصر وجد سنة ١٨٦٣ وتمثال النيل من الرخام وهو عبارة عن بلاطة جميلة حفر عليها ١٦ صبيًّا دلالة الى اذرع النيل في زمن فيضانهِ وغير هذا من الآثار شيءٌ كثير . ولا يخفى ان الڤاتيكان مركز العالم الكاثوليكي وان الزوار يأتون هذه المدينة من كل الاقطار ليروا آثارها وكنائسها وليحظوا برؤْية قداسة البابا اذا امكن وهم يرونهُ حين يحضر للصلاة مرارًا معلومة في السنة ويمكن لوجهاء الناس ان يقابلوهُ مقابلة خصوصيةً بعد المخابرة والاستئذان ولكن يشترط على الامرأة ان تغطي رأسها برداء اسود. ولا تلبس في يديها الكفوف (القفاز) وقد اشتهر قداسة البابا الحالي ليون الثالث عشر بالعلم الواسع والاطلاع الكبير والذكاء المفرط وهو من الذين يعملون لخير الانسانية ويحبون السلام والمسالمة ولهُ مكانة سامية ونفوذ عظيم في العالم الكاثوليكي والدوائر السياسية وديوانهُ غني بما يرد عليهِ من املاك الكنيسة والنذور والاوقاف والهدايا حتى ان الهدايا التي اهديت الى قداستهِ عام ١٨٩٢ حين بلغ السنة الخمسين من صيرورتهِ كردينالاً لم تقل قيمتها عن مليوني جنيه . ولما ملك آل ساقوا روميه واخذوا القصور والاملاك من احبارها قررت الحكومة الايطالية ان تدفع تعويضاً سنويًّا الى البابوات مقدارهُ ١٥٠ الف جنيه فلم يشأ قداسة البابا قبول هذا المال وهو محفوظ في خزائن الحكومة الايطاليَّة مع فوائدهِ من سنة ١٨٦٠ على نية دفعهِ الى البابوات حين يريدون

ولما كان هذا مركز روميه في العالم الكاثوليكي صار لكنائسها شهرة عظيمة وقيمة كبرى واشهر هذه الكنائس بل هي اشهر كنائس الارض طرًّا واوفرها قيمة واكثرها تحفاً واثاراً نفيسة كنيسة مار بطرس الكبرى المعروفة بنيت سنة ١٥٠٦

وما انتهى العمل منها الاَّ بعد ماية عام من ذلك التاريخ واشتغل في الرسم والنقش لها رفائيل وانجلو اللذين ذكرناهما غير مرة وقد سميت باسم القديس بطرس لانهُ دفن في هذا الموضع وبنى الاقدمون كنيسة صغيرة من الخشب فوق قبرهِ ثم شيدت هذه الكنيسة العظيمة موضع الاولى وطولها ١٨٧ مترًا والعرض ١٣٧ ومحيط قبتها ٤٢ مترًا وهي مشهورة بهذه القبة المرتفعة. وقد احيطت القبة باربعماية تمثال من الحجر طول الواحد منها ٢٥ قدمًا وهي يراها الناس من صحن الكنيسة واذا وقف المرء حول سياجها رأى الناس في ارض الكنيسة صغارًا نظرًا الى علوهِ الكثير. وقد وضعوا في صحن هذه الكنيسة قياسًا يعلم منهُ اتساع الكنائس الكبرى في الارض وهاك بيانها

متر	
١١٠	طول كنيسة آيا صوفيا في الاستانة
١٢٨	" " مار بولس في رومية (خارج السور)
١٣٦	" " ميلان
١٥٩	" " مار بولس في لندن
١٨٧	" " مار بطرس الكبرى

هذا في الاتساع واما في العلو فبعض الكنائس تزيد عن هذه الكنيسة العظيمة واشهرها كنيسة كولون في المانيا وكنيسة روين في فرانسا وكنيسة ستراسبورغ في الالزاس. وقد قامت هذه الكنيسة على عمد وركائز عظيمة الضخم وفيها تمثال القديس بطرس الرسول جالسًا على قاعدةٍ من الرخام في يدهِ اليسرى مفاتيح السماء وهو رافع يدهُ اليمنى يبارك بها على الطريقة الشرقية. وقد تقدم القول ان الرسول بطرس دفن في ارض هذه الكنيسة وهنالك دفن كثار غيرهُ من

البابوات والكاردينالية وخرستينا ملكة السويد دفنت سنة ١٦٨٩ بعد اعتناقها المذهب الكاثوليكي . فالمرء حال دخولهِ هذه الكنيسة يشعر بمهابة ووقار ولكن الفائدة لا تتم للمرء الاّ اذا اكثر من التردد فانهُ في كل مرة يرى ما لم يرهُ من قبل لان هذه الكنيسة وغيرها من الكنائس الشهيرة بنيت يوم كان للدين اهم شأناً منهُ في العصر الحالي وليس في الامكان الآن جمع الملايين للقيام ببناء كنائس كالموجودة في روميه وغيرها فضلاً عن كثرة عددها في كل مدن اوروبا وخصوصاً في ايطاليا وروسيا . وامام هذه الكنيسة فسحة قائم في وسطها تمثال بطرس وبولس ومسلّة مصرية من الحجر الصوان الاحمر باعلاها صليب وبجانبها رواق اهليلجي لهُ اربعة صفوف من الاعمدة يبلغ عددها نحو ثلاثمائة تخرقها دروب وفي اعلاها تماثيل كثيرة للقديسين

ومن هذا القبيل كنيسة يوحنا ده لاتران بنيت على احد التلال وهناك مسلّة نقلها قسطنطين الكبير من هليوبوليس اي مدينة الشمس عند مصر الى الاسكندرية ثم نقلها ابنهُ قسطنطينوس الى روميه وقد لا يخلو تل او ميدان في روميه من مسلة مصرية نقلها قياصرة الرومان . وكنيسة ماري ماجيور فيها من الاواني الذهبيَّة ما يبهر البصر واشهر منها كنيسة مار بولس خارج السور فانها من بدائع الزمان قائمة على ٨٠ من الاعمدة الضخمة الصوانيَّة الورديَّة اللون وتيجانها من الرخام الابيض ينشرح الصدر من رؤيتها ولها خمسة اروقة منها الرواق القائم على هذه العمد باعلاهُ صور جميع البابوات بهيئتهم الطبيعيَّة صفَّت صفوفاً وزخرفت بالفسيفساء وفيها عشر نوافذ كبيرة من الزجاج الملون عليها رسوم القديسين والملائكة وهي على ما يقال اجمل من كنيسة مار بطرس وليس فيها مقاعد او كراسي مثل بقية كنائس روميه بل هم يقفون فيها او يركعون لسماع الصلوة

قلنا ان روميه خالية من المنتزهات والميادين والشوارع العظيمة مثل التي في العواصم الكبرى ولكن فيها منتزه البنشيو وميدان الكيرينال على احد التلال بهِ قصر الكيرينال المشهور كان مسكناً للباباوات فاهتمَّ كل منهم في زخرفتهِ وعلى نوعٍ اخص قداسة البابا بيوس التاسع فانهُ انفق عليهِ المبالغ الطائلة والقصر الآن مسكن ملك ايطاليا منذ سنة ١٨٦٠ . ويتصل بميدان الكيرينال هذا شارع ڤكتور عمانويل في قلب البلد فيهِ الفنادق والحوانيت وفيهِ عمود الامبراطور تراجان من قياصرة الرومان العظام علوهُ ٤٣ متراً وفي اعلاهُ تمثال هذا القيصر تذكاراً لانتصارهِ على الداكيين وهو مدفون تحت العمود المذكور ولكن البابا سكستوس الخامس وضع مكانهُ تمثال القديس بطرس . والعمود المذكور اثر جليل حفظ على حالتهِ هذه من ايام الرومانيين وهو من الرخام لبّس بالبرونز وحفر عليهِ من اسفلهِ الى اعلاهُ ٢٥٠٠ رسم تمثّل الرجال والسلاح القديم والخيل والوقائع الحربية وفي جوف هذا العمود سلم لولبي لهُ ١٨٢ درجة يدخل لها النور من ٤٣ نافذة نقبت في جوانبهِ

ومشاهد روميه كثيرة لا اقدر على عدها كلها هنا منها الحمامات التي بناها قياصرة الرومان مثل نيرون وتيطس وكاركلاً في الحمام الواحد منها كثير من المغاطس والاجران والبرك فيها مياه سخنة وباردة وبخارية وكلها من الرخام الطلياني النقي يسع الواحد منها ٢٥٠٠ مستحم في وقت واحد . وهناك بنيت القاعات للتكبيس والتعطير وانشئت الحدائق والالعاب الرياضية . وفي روميه ايضاً آثار الملاعب الاولى بنيت على شكل مستدير (امفتياتر) وضعت فيها المقاعد بعضها فوق بعض صفوفاً متوالية منها ملعب مارشلّس كان يضم ٤٠٠٠٠ وملعب سكاروس ٨٠٠٠٠ وكان الرومانيون القدماء يطلقون الوحوش في هذه الاماكن ويتفرجون من مقاعدهم على قتالها او مصارعة الرجال لها وكثيراً ما كانوا يلقون

الذين اعتنقوا الديانة المسيحية للوحوش في هذا الموضع فتفترسهم وتقطع اجسامهم والمتفرجون يسرون لعذابهم ولا يتأثرون . وما زال في العاصمة آثار الفوروم وهو البارلمان الروماني وقصور القياصرة وهياكل للمعبودات مثل جوبيتر والزهرة والمشتري وهم كلما وجدوا اثراً ينقلونهُ الى المتحف . دخلناه ُفرأينا فيهِ قبور القياصرة من الرخام عليها نقوش بارزة تشير الى وقائعهم الحربية وتاريخ حياتهم في الحروب . ويرى في اطراف المدينة بقايا اقواس النصر التي اقامها القياصرة وقس على ذلك من آثار عظمة روميه الاولى و بقايا اصحابها السابقين



نابولي

اذا عدّت مدن الارض المعروفة بجمال الموقع وغرابة المشاهد كانت مدينة نابولي في مقدمتها بلامراء فان الواصل اليها يذهلهُ فرط بهائها و كثرة غرائبها لانهُ يدخل في جونٍ من البحر مقوس الشكل والعمائر البديعة مرصوصة حولهُ من طرف الى طرف على ضفة الماء وتتصل الابنية والطرق المنظمة من البحر الى هاتيك الروابي والتلال البهيَّة الواقعة وراء المدينة وكلها تتخللها الحدائق والاغراس والرحبات والميادين وبقية اشكال الجمال الموصوف في المدن العظيمة ومن وراء الكل جبل النار (فزوفيوس) يتقد جوفهُ اتقاداً فيقذف النار من فوهتهِ ولطالما اوقع هذا البركان بعمائر الآدميين ولهُ في تاريخهم ذكر كبير اشهر وقائعه تدمير مدينة پومبي الباقية اثارها على مقربةٍ من نابولي وهي من المشاهد العظمى التي يقصدها السائحون من كل جوانب الارض . وعامة الناس هنا يقولون في امثالهم ان " انظر نابولي ومت " ولا عجب فانها من اشهر مواضع الارض في آيات الحسن

وهي اهم مدن ايطاليا واكبرها لا يقل عدد سكانها عن نصف مليون نفس وفيها من المتاحف والمشاهد والآثار ما يقل نظيره ولكن السياح الكثار الذين يفدون على هذه المدينة آلافاً مؤلفة يشكون من الشكوى من اهلها فانهم حالما يصلونها يزحمهم التراجمة والمرشدون والحوذيون والباعون وصغار المنادين هؤلاء يعرضون عليك كبريتاً ويعترضونك في المسير وهؤلاء يصيحون في اذنك باسماء الجرائد والصور التي يحاولون بيعها للذين يتعبون منهم ويتضجرون وهؤلاء يضجون من حولك ويلغطون وبعضهم يقتفي منك الاثر ويضيق صدرك بالحاحه طالباً ان يكون رفيقك ويدور معك على المشاهد بارخص الاجر او يقدم لك ما شئت من الخدم وغير هذا كثير بوجب الملل ويقلل من ميل الغريب الى الاقامة في نابولي فان الذي قال ان اهل المدينة شيء وبقيَّة مشاهدها شيء آخر لم يخطئ في قوله لانك ترى هذه المشاهد البديعة في كل جانب ومن حولها اولاد برث اللباس وقذر الابدان يلتقطون فضلات السجاير او اجلاف من اهل المدينة يبيعون الخبز والسمك والمعكرونه المشهور امرها اينما كان في الارض اثر لجماعة الطليان ورجال واولاد ونساء يتخاطبون عن بعد بفظ الكلام وغريب الاشارات وهم يعرفون بلهجة خاصة ونطق للالفاظ معروف . وعلى الجملة فان نابولي مدينة كثيرة المشاهد والآثار والغرائب يحار المرء في كيف يبدأ بوصفها واحسن ما يكون ان يجعل المتفرج فاتحة الامور زيارة

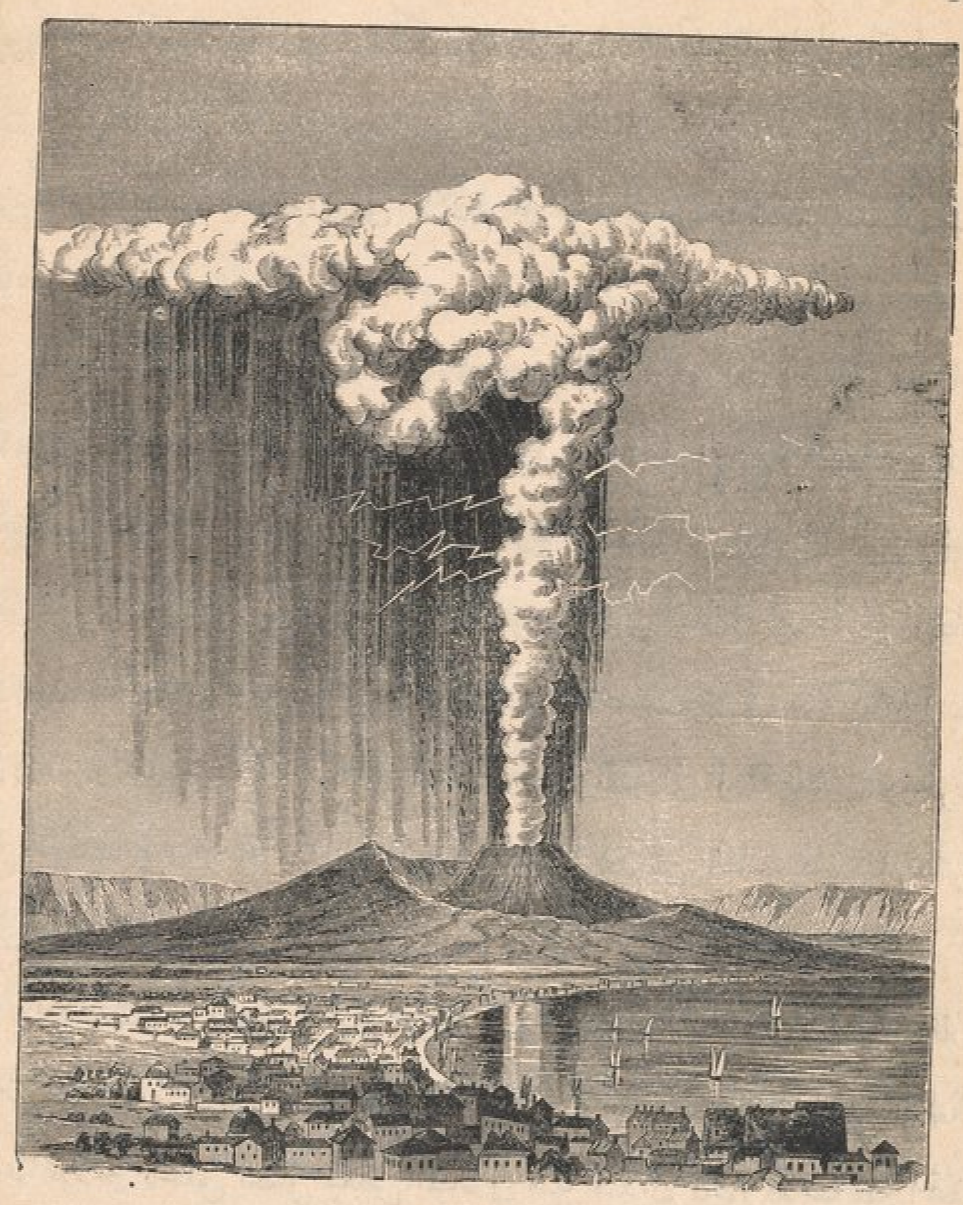
﴿ ڤيلاناسيوناله ﴾ وهو منتزه ممتد بجانب البحر غرست فيهِ الاشجار والازهار وانشئت برك الماء وهناك تصدح الموسيقى كل يوم من بعد الظهر . وفي وسط هذا المنتزه محل الاسماك وهو بناء متسع جمعت فيهِ انواع السمك والوحوش البحريَّة الغريبة الشكل مما يقل نظيره وقد رأيت فيهِ السمك الكهربائي (توربيل)

وهو اذا مسهُ المرء شعر بقوة كهربائية . ورأيت ايضاً المرجان الاحمر والابيض وقلَّ ان يأتي احد الناس الى نابولي ولا يزور هذَا المحل وهو تحت ادارة لجنة لها مرتبات سنويةٌ من حكومة ايطاليا ومن الحكومات الاجنبية ايضاً مثل المانيا وانكلترا تدفع ذلك تنشيطاً لجمع ما يمكن جمعه من الجزر والخلجان من الوحوش والحشرات البحريَّة والاجانب يأخذون الى بلادهم كل نوع غريب الشكل بعد ان يدفعوا رسماً صغيراً

فتركت هذَا المكان وذهبت الى قصر الملك وهو بعد قصر روميه اجمل القصور الملوكيَّة في ايطاليا فيهِ صور وتماثيل ملوك نابولي مدة الثمانماية سنة التي حكموا فيها هذه البلاد وشيء كثير من آثارهم والهدايا التي ارسلت اليهم وبجوار القصر المذكور تياترو او ملهى سان كارلو وهو من احسن الملاهي في شكلهِ وزخارفهِ وغير بعيد عنهُ رواق اومبرتو سمي باسم الملك وهو حديث بني في سنة ١٨٩٠ بمبلغ اثنين وعشرين مليون فرنك يبلغ طولهُ ١٨٥ متراً ويقسم الى اروقة نقشت وزخرفت ولهُ في الوسط قبة جسيمة تحتها المخازن والحانات يزدحم فيها الناس على مثل ماترى في كل مركز مثل هذَا المركز الشهير

وبعد ذلك سرت في شارع توليدو ويقال لهُ ايضاً شارع روميه وهو يخترق البلد من الجنوب الى الشمال في طول ميل ونصف ويمتد من البحر الى الجهات العالية وهو ابداً مزدحم بالخلق يتصل ببعض الميادين منها ميدان كافور يقرب منهُ المتحف وهو احسن متاحف ايطاليا فيهِ غرف كثيرة العدد ملئت بالنقوش على الحجر والتماثيل الرخاميَّة والصور الزيتيَّة مما لا يعد ولا يحصى . وفي نابولي البركان او جبل النار لا ينقطع دخانهُ المتصاعد يبلغ ٤٠٠٠ قدم تقريباً في الجوّ ولما يشتد هيجانهُ يقذف حجاراً وصخوراً ومواداً تشبه الحديد الملتهب ويسمع لهُ صوت كقصف

الرعد او دوي المدافع يخرج من باطن الارض وقد تألفت شركة مدَّت سكة حديدية توصل الى قمة هذا الجبل يصعدون بها الى اعلاه ثم يعودون



جبل النار

وضواحي نابولي كثيرة بهيَّة الجمال منها عدة جزر في البحر ومنها جبال وسهول يمكن ان يقضي الزائر فيها اواقيت الهناء واهمها من وجه تاريخي مدينة پومپه كُتب مجلدات عنها وعن جبل النار وقد كان من امرها انهُ في سنة ٧٢ مسيحيَّة اشتد هياج

البركان وقذف من الحجارة والطين والمواد المحرقة فوق مدينة پومپه طبقة ردمتها وغطتها وسمكها نحو ٢٠ قدماً فمات في هذا الحادث نحو الفين من الاهالي وفر الباقون في جوانب الارض فدفنت المدينة وطمست اخبارها من بعد هذا المصاب. وحدث في القرن الخامس عشر ان بعض المهندسين وجدوا اساس منازل مدفونة ثم عثر بعض الفلاحين سنة ١٧٤٨ ببعض الاواني المنزلية من النحاس وغيره ولذلك تنبهت الافكار الى مدينة پومپه القديمة فصدر امر الملك شارل الثالث بازالة الردم واستمر العمل اعواماً عديدة وكانوا كلما وجدوا اثراً ينقلونهُ الى متحف نابولي من ذلك هياكل الرجال والنساء محجرة وحلي ذهبية وفضية واشكال لا تدخل تحت حصر او قياس . وقد سرت الى هذه الآثار مع احد الادلاء الذين يعينهم المجلس البلدي ولهم رواتب منهُ فدخلت المدينة المتردمة وسرت في شوارعها ومماشيها ورأيت انهُ ما بقي من اثر لهذا البلد الاَّ جدران بعض المعابد الوثنية ومواضع للرقص وافران ومنافذ بعض المنازل فاعتراني من وصف الدليل على ابهامهِ حيرة حين تأملت تلك الخرائب والشوارع المقفرة وذكرني حالها بعبر الدهر وغير الزمان

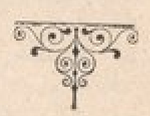
ومن ضواحي نابولي (كاستلاَّ ماره) وهي مدينة صغيرة زاهية زاهرة مبنية على خليج نابولي غرباً تشرف على الخليج وجزرهِ ومنازلها ممتدة على مسافة ميل على طول الشاطيء ومنها يمكن الصعود بالعربة في طرق متعوجة متعرجة الى الجبال او هي تلال كسيت باشجار الكستناء الباسقة صعدنا اليها فرأينا فيها حدائق غناء ودروباً ما بين الغابات يحلو السير فيها وقد اشتهرت هذه الجهة بحسن الموقع وطيب الهواء حتَّى انهُ في سنة ١٨٢٠ لما اشتد الطاعون في نابولي ذهب الملك فردينان الاول الى هذه الجهة وأقام فيها مدة . وينتاب هذه الجهة خلق كثير من اهالي نابولي ونزلائها مدة الصيف للاستحمام في المياه المعدنية التي وجدت فيها . وعلى مقربةٍ منها بلدة

(سورنيته) ذهبنا اليها في طريق جميعهُ محاسن طبيعية وهي مثل شقيقتها مبنية
على شاطيء البحر يصطاف فيها العدد العديد من السكان والغرباء واكثر الغرباء
انكليز وامريكان فانهم يرون في هذه المدينة الصغيرة كل مايوافق ذوقهم من ذلك
الحمامات البحريَّة والتجول في البحر في زوراق شراعية والتنزه على الاقدام او على
الخيل والحمير ما بين الغابات وقلَّ ان يشتد الحر هنا فان الهواء البحري الغربي يرطبهُ
وينعش الاجسام . فلما قضيت زمناً في سورنيته عدت منها الى نابولي وفي الغد
ركبت باخرة صغيرة مع العدد العديد من السياح الى جزيرة كابري وهي ايضاً
من المصايف المعدودة ومع ان عدد سكانها لا يزيد عن ثلاثة آلاف فهم اوجدوا
فيها عدداً كبيراً من الفنادق لكثرة المصطافين فيها والوافدين اليها لرؤية (المغارة
الزرقاء) وقد زرت هذه المغارة في زورق من الزوارق التي تنقل المسافرين في تلك
الجزيرة ووجدت طول المغارة من الداخل ١٧٥ قدماً والعرض ١٠٠ قدم وعمقها
ثمان اقدام وسقفها الصخري لا يزيد عن اربع اقدام فوق رؤوس الداخلين وقد
سميت الزرقاء لان المياه بداخلها زرقاء اللون ولها منظر غاية في الغرابة . ويجتمع
هناك غواصون من الاهالي نزلوا امامنا للقاع فكان لون اجسامهم ازرق كالفيروز ثم
عدنا الى الجزيرة مع السياح وهم يذكرون المآكل اللذيذة ورخص اثمانها لا سيما
النبيذ فان الموجود منهُ في ضواحي نابولي من احسن الخمور وارخصها ثمناً وقد جرت
معامل الخمر في فرانسا على جلب المقادير الوافرة منهُ ومزجهُ مع خمورها وهم
يضعون علامة معاملهم على الزجاج ويبيعونهُ باغلى الاثمان

ومن اجمل ضواحي نابولي مدينة كازرته ونسبتها الى نابولي نسبة فرسايل الى
باريس فان فيها قصراً لملك ايطاليا من انخر قصور الملوك في اوروبا . وهي على نحو
عشرين ميلاً من نابولي يقصدها خلق كثير للنزهة

واما اشكال الخضر والفاكهة فكثيرة في نابولي وثمنها رخيص وقد لا تجد في اوروبا كلها بلدًا لهُ جمال هذه المدينة ورخص المآكل فيها وتنوع المناظر في البر والبحر وغرابة المشاهد الحديثة والآثار التاريخيَّة . وقليل بين الناس ايضاً من كان مثل اهل نابولي في سرعة الاختلاط بالغريب ولعل اهل هذه المدينة اكثر الطليان ميلاً الى الاغتراب والضرب في مناكب الارض فان اكثر الطليان من نزلاء مصر وغيرها من اهل نابولي يعرفهم المرء لاول وهلة اينما كان من اللهجة الخاصة بهم وقد مرَّ عنها الكلام

هذا آخر ما شهدت في بلاد الطليان وقد اوجزت في وصفهِ لاسباب كثيرة اهمها ان ايطاليا معروفة اكثر من سواها عند قراء العربيَّة وان الوصف متقارب في اكثر الفصول والمشاهد هنا تقرب من مشاهد اوروبا التي اطلت الكلام عنها. واني لما انتهيت من هذه السياحة عدت الى القطر المصري وكانت زياراتي لمدائن ايطاليا غير واحدة فاني مررت بها كثيرًا في الذهاب والاياب عند زيارتي للممالك التي سبق الكلام عنها في الفصول الماضية من هذا الكتاب





الولايات المتحدة

خلاصة تاريخية

كانت القارة الاميركية برمتها من مجاهل الارض عند الساكنين في بقية الانحاء الى ان قام المكتشف العظيم خرستوفو كولومبو في اواسط القرن الخامس عشر واذهل باكتشافها العالمين . وقد ولد هذا الرجل العظيم في عام ١٤٣٦ في مدينة جنوا من مدائن ايطاليا وكان والدهُ صاحب معمل للنسج واما هو فعرف من اول عهدهِ بحب السفر وخوض البحار حتى اذا كثرت معارفهُ وزاد ميلهُ الى السفر البعيد خطر لهُ ان يصل الهند من ناحية البحار الغربية وجعل يفكر في ذلك زماناً ويحسب ان لا بدَّ من وجود ارض في الطريق لم يصلها سواهُ فطلب من حكومة بلادهِ ان تعينهُ على اكتشاف تلك الارض ولم يلقَ منها قبولاً. ثم قصد حكومات البورتوغال وفرانسا وانكلترا فكان نصيبهُ منهنَّ الاعراض حتى انهُ طرق باب الحكومة الاسبانية وملكها يومئذٍ فردناند والملكة ازابلا فرضيا بطلبهِ وامرا باعداد سفن قليلة تسير في عرض البحار تحت امرهِ فقام من شطوط اسبانيا في ٧ اوغسطس من عام ١٤٩٢ وبعد سفر ٦٥ يوماً بلا انقطاع ومعاناة متاعب شتى وصل الى جزائر الهند الغربية من مثل كوبا وسان سلفادور وهو اطلق عليها هذا الاسم لانهُ ظنها جزءًا من بلاد الهند المعروفة . وعاد كولومبو بعد هذا الاكتشاف الى اسبانيا فاكرمت وفادتهُ وعُيّن والياً في الارض التي اكتشفها ثم عاد اليها في سياحة ثانية وظلَّ يروح ويجيء ما بين اسبانيا وتلك الجزر حتى اكتشف القارة الاميركية بنفسها في رحلتهِ الرابعة عام ١٥٠٢ عند شطوط فنزويلا في اميركا الجنوبية

وكثر الكارهون للمكتشف العظيم بعد اشتهار امرهِ حتى انهُ حرم لذة اكتشافهِ فمات حزيناً والناس لا يعرفون قدرهُ وتوافد المكتشفون على اميركا من بعدهِ وكان في جملتهم ربان اسمهُ اميركو عرف باكتشاف مصب نهر الامازون في بلاد برازيل وسميت القارة كلها باسمهِ . وظلَّ الناس بعد ذلك في اكتشاف حتى عرفوا جوانب القارة الاميركية كلها في زمان قصير وكان للدولة الاسبانية القسم الاوفر منها لا سيما في القارة الجنوبية ما خلا بلاد البرازيل فانها ملكتها البورتوغال وظلّت في قبضتها زماناً

وكان الهولانديون والفرنساويون والانكليز يومئذٍ في بدءِ قوتهم فاخذوا يملكون الاراضي الاميركية وكان معظم املاك الانكليز في شمالي الولايات المتحدة والى شمالهم الفرنسيس في بلاد كندا والى الجنوب منهم الهولانديون ولكن الانكليز حاربوا هاتين الامتين وانتصروا عليهما فصارت كندا ونيويورك واكثر الولايات المتحدة من املاكهم . ثم تقهقرت الدولة الاسبانية فاستقل معظم البلدان الاميركية التي كانت خاضعة لها وانفصلت بلاد البرازيل عن دولة البورتوغال وصار للقارة الاميركية شان عظيم

اما الولايات المتحدة فانها ظلّت تحت حكم انكلترا الى سنة ١٧٧٦ حين هبَّت للثورة ومعظم سكانها يومئذٍ مهاجرون من بلاد الانكليز ساءهم ان حكومة بلادهم قررت عليهم ضرائب فادحة ولم تنظر الى بعض مطالبهم فارسلوا اليها يطلبون ان يكون لهم نواب في مجلس الامة الانكليزية يناضلون عن حقوقهم اسوة بالانكليز الذين تطلب منهم الضرائب والرسوم فامتنعت حكومة انكلترا عن اجابة هذا الطلب وزادت الضغائن بين الطرفين حتى اجتمع نواب الاميركيين من الولايات كلها وهي في ذلك الحين ثلث عشرة ولاية وقرروا محاربة الدولة الانكليزية والانفصال عنها وتأسيس حكومة مستقلة وجعلوا جورج واشنطون الشهير قائد جنودهم ومن ثم دارت رحى الحرب وكان النصر في اكثر مواقعها للاميركان وساعدتهم فرانسا على الانكليز ففازوا بالاستقلال المرغوب واسسوا جمهورية مستقلة كان رئيسها الاول جورج واشنطون الذي ذكرناهُ وسنوا نظاماً بديعاً لبلادهم هو على حالهِ الى اليوم وسنعود في فرصةٍ اخرى الى بيانهِ

ورقيت الولايات المتحدة بعد استقلالها مراقي العز والفلاح وفتحت ابوابها للراحلين والمهاجرين من كل بلاد حتى تقاطر اليها الالوف والملايين فعمروا البلاد واشهروا خيرها وزادوا قوة البلاد وعظمتها في عهد قريب حتى ان هذه الجمهورية العظيمة اشترت من فرانسا ولاية لويزيانا في الجنوب بعد استقلالها بقليل اي سنة ١٨٠٣ واستولت على فلوريدا وهي في

الجنوب ايضاً عام ١٨١٨ وعلى تكساس وكالفورنيا ومكسيكو الجديدة عام ١٨٤٦ وكانت كلما ملكت ارضاً تجعلها ولاية مثل بقية الولايات المتحدة حتى عظم شأن البلاد وزاد عدد سكانها زيادة عجيبة فان عددهم لم يزد في اول هذا القرن عن خمسة ملايين وصار ١٢ مليوناً في سنة ١٨١٢ و٢٣ مليوناً في سنة ١٨٥٠ و٣٥ مليوناً في سنة ١٨٦٦ و٥٠ مليوناً في سنة ١٨٨٠ وهو الآن لا يقل عن ٧٢ مليوناً وليس في تاريخ الارض ما يقرب من هذه الزيادة الهائلة في عدد السكان



جورج واشنطون

وفي الولايات المتحدة الآن مابة وتسعون الف ميل من السكك الحديدية أُنفق عليها مابتا مليون من الجنيهات تصدر بها قراطيس وهذه في يد الاهالي منها الخط الذي يوصل من نيويورك الى سان فرانسيسكو على شاطئ الباسيفيك وهو يخترق القارة الاميركية من الشرق الى الغرب مسافة ٣٥٠٠ ميل او خمسة ايام ونصف يوم متوالية في القطر المستعجلة

وتحاربت الولايات المتحدة وانكلترا مرتين بعد الاستقلال كان النصر فيهما اكثره للاميركان . وفي سنة ١٨٦١ نشبت في البلاد حرب اهلية هائلة دامت ٤ سنوات بين اهل الولايات الشمالية والولايات الجنوبية بسبب ان اهل الشمال ارادوا ابطال النخاسة واستعباد البشر وخالفهم اهل الجنوب لكثرة ما عندهم من مزارع القطن والسكر والعبيد فتحارب الفريقان حرباً يذكرها معظم كبراء الاميركان الى الآن ففاز اهل الشمال بعد اهوال جمة والغي الاستعباد من تلك البلاد الحرة . وقد اشترت الولايات المتحدة بعد هذه الحرب بلاد الاسكا من روسيا وحاربت اسبانيا سنة ١٨٩٨ ففازت وظهر للملاء اقتدارها وهي اليوم اغنى دول الارض بلا مراء ولها قوة تحكي قوة اعظم الممالك الاوروبية وشان في الخافقين عظيم



السياحة في اميركا

لما اشتهرت مصر وسارت في سبيل الحضارة والارتقاء بعد الذي فعلهُ ولاتها العظام من آل محمد علي باشا صارت الدول العظمى تنظر اليها وتمدها في مصافها عند كل حادثة علمية او تاريخية كبرى لا سيما من بعد ان فتحت ترعة السويس على عهد المغفور لهُ اسماعيل باشا الخديوي الاسبق وما كان من احتفالهِ الباهر بافتتاحها فانهُ كما يعلم الجمهور فاق الاوائل والاواخر في السخاء على الاستعداد لتلك الحادثة المشهورة ودعا اليها ملوك الزمان واعد لهم فوق الذي يليق باهل الابهة والسلطان فجاء هذا القطر السعيد ملوك عظام في مقدمتهم امبراطور النمسا وامبراطورة فرانسا السابقة نريد بها اوجني ارملة نابوليون الثالث وجاء الامراء الفخام من مثل ولي عهد السلطنة الانكليزيَّة والوزراء النائبون عن بقيَّة الملوك فزادت شهرة مصر زيادة كبرى وجعلت الدول من بعد ذلك الحين تدعوها الى معارضها ومؤتمراتها فهي دعيت رسمياً لمعرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ولمعرض فينا الذي تلاهُ . ولما اقامت دولة الولايات المتحدة معرضاً عامًّا في مدينة فيلادلفيا عام ١٨٧٦ احتفالاً بمرورماية عام على استقلالها كما ترى في الخلاصة التاريخيَّة كانت مصر في عداد الدول المدعوة فصدر امر اسماعيل باشا الخديوي بتشكيل لجنة في مصر تعد المعدات اللازمة للقسم المصري في ذلك المعرض وكان رئيس اللجنة توفيق باشا الخديوي السابق رحمهُ الله وهو يومئذٍ ولي عهد الخديويَّة المصريَّة . فجمعت هذه اللجنة شيئاً كثيراً من الابضعة المصرية والحاصلات الطبيعيَّة كسن الفيل وريش النعام والصمغ على اشكالهِ واخذت من المتحف المصري مثالاً للاهرام بديعاً وبعض الحلى والآثار الثمينة ووضعت هذه كلها مع حاصلات البلاد ومصنوعاتها في صناديق

عدتها ماية وخمسون على ان ترسل الى المعرض الاميركي فلما انتهت من ذلك صدر الامر بانتخاب رجال ينوبون عن البلاد المصريَّة في ذلك المعرض وترسل معهم تلك التحف والراميز فوقع الانتخاب على دانينوس باشا و بروغش باشا و بروغش بك اخيهِ وكاتب هذه السطور وورد علينا كتاب من دولتلو نوبار باشا ناظر الخارجيَّة في ذلك الحين يعلننا بالانتداب لهذه المهمة بامرٍ من سمو الخديوي ويشير علينا بالاسراع في السفر الى الولايات المتحدة حتَّى نكون في المعرض يوم افتتاحهِ في اول مايو سنة ١٨٧٦ فصدعنا بالامر ومثلنا بين يدي الخديوي فاوصانا بالاجتهاد واتقان شكل المعرض المصري حتَّى يكون من ورائهِ شهرة لمصر ومقام مذكور ثم تشرفنا بمقابلة ولي عهدهِ توفيق باشا وهو رئيس اللجنة التي مرَّ ذكرها فسر بانتدابنا لهذه المهمة وسألنا ان نرسل اليهِ كل اسبوعين تقريرًا عن المعرض وشؤونهِ واعطانا رسمهُ الكريم فخرجنا من لدن الامير وولي عهدهِ معجبين وبدأنا بالاستعداد للسفر بدون امهال

وتركنا مصر وجهتنا الاسكندرية ومنها ركبنا باخرة من بواخر الشركة الانكليزية الشرقيَّة في ٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وكان ذلك اول عهدي بالسفر الى الغرب فعسر عليَّ امرهُ لا سيما وانهُ كان في فصل الشتاء حين يكثر البرد القارس في جهات اوروبا واميركا ويشعر بهِ الذي يعرف شتاء مصر اللطيف . ووصلنا مدينة برندزي في ايطاليا بعد سفر اربعة ايام نخرجنا من السفينة الى قطار كان في انتظار الركاب والبريد لينقلهُ الى لندن فقام بنا القطار يمر حينًا على المين الايطاليَّة الواقعة على بحر الادرياتيك مثل انكونا وحينًا يوغل في داخل البلاد ويمرُّ بمدائن مشهورة مثل فوجيا واسكندريَّة وبارما حتى وصل بعد ثلثين ساعة الى مدينة تورين وهي من مدائن ايطاليا الزاهرة ترى وصفها ووصف غيرها في باب ايطاليا من هذه الرحلة . وقمنا من تورين على عجل الى مدينة باريس في قطار سريع يغدو

بين الجهتين ويخترق جبال الالب المشهورة ويدخل في نفق تحت الارض نقبوهُ لهذه الغاية عند جبل سيس فلما وصلنا حدود فرانسا عند مدينة مودان خرجنا من القطار الايطالي الى قطار فرنساوي جعل يخترق الهضاب والبطاح ويمر بالاراضي العامرة من مثل بلاد شامبيري وماكون وديجون حَتَّى وصل باريس بعد سفر ٢١ ساعة

وقمنا من باريس في قطار سريع (اكسبرس) الى حدود فرانسا لنبحر منها الى بلاد الانكليز فلما اتينا فرضة كاله وهي اقرب المين الفرنسويَّة الى انكلترا دخلنا باخرة تسير في بحر المانش وشعرنا في الحال بصعوبة السفر في ذلك البحر المزبد الطامي ولهُ شهرة لا يفوقها وصف في كثرة امواجهِ وعلوها لانهُ خليج قليل عرضهُ حصر بين بحرين واسعين فهو آفة المسافرين من بلاد الانكليز واليها اصابنا فيهِ الدوار الشديد كما يصيب سوانا حَتَّى اتينا على آخرهِ ورست الباخرة على مينا دوفر في بلاد الانكليز فخرجنا من الباخرة الى قطار اعد على الشاطئ وسرنا بهِ الى مدينة لندن فبلغناها في اليوم السابع من مبارحة الاسكندريَّة ورأينا على المحطة فيها جناب المستر تيلر قنصل اميركا السابق في مصر فرحب بنا ودعانا الى منزلهِ في ريتشموند وهي من ضواحي لندن وفي اليوم التالي رأينا المرحوم الطيب الذكر سليم بسترس وكان لنا معهُ علاقات ووداد ففرح بوصولنا وسرَّ لمأموريتنا ودعانا الى منزلهِ الفخيم في شارع الملكة . ومرَّت ايام قليلة علينا في لندن اخذنا بعدها تذكرة السفر الى نيويورك في باخرة من بواخر شركة كيونارد ومقرها في لفربول فسافرنا من لندن في يوم كثر ضبابهُ واشتد بردهُ الى درجة جعلتني افكر في مصر وسمائها الصافية وهوائها العليل حَتَّى اذا وصلنا مدينة لفربول سرنا الى الباخرة توًّا وقمنا الى اميركا في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥ فلما وصلت بنا الى كوينستون وقفت قليلاً لتأخذ ما يُرسل الى هذه الفرضة من بريد لندن ثم عادت تمخر في عباب البحر ولا

وقوف من بعد ذلك الموضع حتى تستقر في مينا نيويورك والمسافة بين الجهتين ٣٠٠٠ ميل . وكان يوم سفرنا من بلاد الانكليز الى اميركا جميلاً والهواء معتدلاً فلم نلقَ عناءً كبيرًا ورأينا في اثناء المسير دخانًا يصعد من تحت الماء وبخارًا يخرج من البحر فعرفنا ان ذلك من بركان تحت الماء وحرارة في داخل الارض وكان من امر بعض النوتية انهم القوا ادلية في الماء وانتشلوها ملأى بماء حميم . كل هذا مع ان الماء بارد في هاتيك النواحي ويزيد بردهُ في جهات (نيوفوندلاند) حيث يجمد الماء وتطفو منهُ على وجه البحر قطع كبرى اذا اصطدمت بها البواخر لحق بها اذى كبير واصحاب السفن يحذرون شرها ويحسبون لها فوق حسابهم للانواء والعواصف . وظللنا على مثل هذا الحال الى اليوم السابع حين خيم الغسق وملأ الضباب جوانب الافق فتعذر على باخرتنا المسير فامر الربان بان تسير الباخرة على مهلٍ وجعل يطلق الاسهم النارية في الفضاء والمدافع ايضًا تحذيرًا للسفن القادمة من الاصطدام وتنبيهًا فكان من وراء ذلك اشتغال بالنا زمانًا بهذا الامر حتى اذا خلصنا منهُ وظهر نور الشمس هاج البحر وعلت امواجهُ فتأملتها ووجدتها اشد هولاً من امواج البحر المتوسط وهي تختلف عنها في ان لونها قاتم والفترة بين الموجتين طويلة واما البحر المتوسط فان امواجهُ اصغر ولون مائها ضارب الى الزرقة وهي سريعة التوالي موجة بعد أُخرى . وظل البحر في هياج كهذا يومين كاملين ونحن تارة نصعد مع الباخرة فوق الماء كمن يرتقي جبالاً وطورًا نحط كانما نحن في وادٍ او حضيض حَتَّى اننا لما فررنا من هذا الهول الى غرف النوم وعوَّلنا على تناسي الموج جعلنا ننقلب من هنا ومن هنا ونكاد في بعض الاحيان نخرج من السرير بسبب ميل السفينة مع الامواج ميلاً خطرًا . ولكن الازمة فرجت في اليوم الحادي عشر من هذا السفر حين علمنا اننا صرنا على مقربةٍ من اميركا وخرجنا الى

ظهر الباخرة نتفرج فاذا نحن في مرأى من الشطوط الاميركية وقرب فرحنا في تلك الساعة من فرح كولومبو مكتشف هذه القارة . وكان اول ما رأيناهُ من العالم الجديد منارة جزيرة فاير ثم بعد ان سرنا ثلاث ساعات دخلنا خليج ساندي هوك وسارت الباخرة الى ان دخلت ما بين جزيرة ستاتن وجزيرة أُخرى اسمها لونغ آيلند وبعد حين ظهرت مدينة بروكلين وهي ملاصقة لنيويورك الى جهة اليمين يفصل بينهما نهر ثم ظهرت مدينة جرزي وهي ايضاً ملاصقة لنيويورك الى جهة الشمال فهي مثل الاستانة يرى القادم اليها هاتين المدينتين كما يرى الداخل الى الاستانة قاضي كوى الى اليمين وبرنكبو الى الشمال

نيويورك

وفي اليوم الثامن من شهر دسمبر سنة ١٨٧٥ استقر النوى بالباخرة والقت رحلها في مينا نيويورك وكان ذلك بعد قيامنا من الاسكندريَّة بشهر كامل وهو زمان طويل لو يذكر القارئون . ولكن طرق السفر والاسراع تقدمت في هذه الاعوام الاخيرة حتى صار الوصول من مصر الى نيويورك ممكناً في ١١ يوماً فقط وحين خرجنا من السفينة الى الجمرك واراد عمالهُ ان يفتشوا ما معنا من الامتعة اعلمناهم بالمهمة التي كنا فيها وابرزنا الاوراق اللازمة فرحبوا بنا ترحيباً وسهلوا طرق الخروج ومن ثم استأجرنا عربة توصلنا الى الفندق الذي اخترنا النزول فيهِ وهو (ففث اڤنيو هوتل) وهو الى اليوم اكبر فنادق هذه المدينة العظيمة وافخمها واوفرها استعداداً فلما صرنا فيهِ طلب الينا مديرهُ ان نسجل اسماءنا والجهات التي قدمنا منها حسب العادة المتبعة في اكثر الفنادق المعروفة ثم سألنا ان ندخل غرفة ظننا انها لراحة المسافرين فدخلناها ورأيناها مفروشة بالرياش الكامل وفيها الكراسي

والطنافس والسجف والمرايا وغيرها حَتّى اذا جلسنا فيها تحركت من نفسها وصعدت باكملها الى الادوار العليا من البناء فعلمت حينئذٍ انها الآلة الرافعة التي يستغنون بها عن الدرج وكان ذلك اول عهدي بهذه الآلة واسمها الاسنسور او (لفت) في لغة الاميركان والانكليز وفي فنادق العاصمة المصرية اليوم منها اشكال بديعة وهي من اختراعات الاميركان نقلها عنهم اهل اوروبا وشاع استعمالها على ما تعلم . وبعد ان غيرنا الملابس في غرف النوم نزلنا الى قاعة رحيبة واسعة الجوانب اعدت لموائد الطعام وقد وقف من حولها الخادمون بانظف الملابس وعدتهم ستون من هنود الاميركان فبدأنا بالاكل ورأينا اختلافاً عن فنادق اوروبا في النظام فان الفنادق الاوروبيَّة يجوز في اكثرها للنازل فيها ان يأكل اينما اراد واما في فنادق اميركا فالنازل يدفع اجرة اليوم باكمله ولا بد له من الاكل فيها . غير انهم قد سهلوا ذلك على الناس فجعلوا للفطور وللغداء وللعشاء اوقاتا يمكن معها للاكثرين ان يحضروها فان فطور الصبح يمكن تناوله هنالك من الساعة السادسة في الصباح الى الساعة العاشرة والغداء من الظهر الى ما بعده بساعتين والعشاء من الخامسة بعد الظهر الى السابعة او من السابعة الى التاسعة . وتمتاز فنادق اميركا عن فنادق الاوروبيين الآن في ان اكثرها يأكل فيها الواحد الاصناف التي يختارها من كشفٍ يقدم اليهِ وفيهِ جميع الالوان والمسافر يدفع المطلوب عن الايام التي يقيمها في الفندق ويستريح من دفع الذي يدفعهُ في الفنادق الاوروبيَّة ثمن الشمع او الخدمة او غير هذا ومما ينقده للخادمين على سبيل (البخشيش) فان الرجل قد يدفع في اوروبا الى هؤلاء الخادمين رسوماً على مثل ما ذكرنا تقرب في قيمتها مما يدفعهُ الى اصحاب الفنادق ثمن الطعام واجرة النوم . اما المطاعم (ريس توران) الاميريكيَّة فانها على نسق المطاعم الاوروبيَّة وقد بدأ الاميركان من عهد ليس ببعيد في استخدام البنات للخدمة في

المطاعم فعم هذا النظام في اكثر المحلات المشهورة وصار ذلك مزية لفنادق الاميركان ومطاعمهم وداعياً الى التشويق والاتقان . وتمتاز فنادق الاميركان ايضاً في ان اهل البلاد يجعلونها مساكن للعائلات اكثر من سواهم وفي مدائن الولايات المتحدة عائلات كثيرة تسكن في الفنادق وتؤثر ذلك على استئجار البيوت وادارتها ولو ان فيهِ زيادة في الاسراف . وفنادق الاميركان كاملة العدة في ما يلزم لراحة النازلين فيها من الحمامات ومواضع الغسل والحلاقة وغير ذلك . وفي غرف النوم رفوف مرتفعة قليلاً توضع عليها الصناديق والامتعة ولا ترمى في الارض وفي ذلك حرص على الشيء نفسهِ من التلف وعلى راحة المسافر لانهُ اذا فتح صندوقاً لهُ لم يتكلف الانحناء الى الارض ولم يجد مشقة . وفي اكثرها آلات من الخشب تنزع الاحذية من الرجل بدل ان تتعب الايدي بها وامور أُخرى تدل على انتباه الاميركان واتقان اعمالهم . وفي (الففث افنيو هوتل) هذه اولاد نجباء يلبسون الكساوي المميزة لهم عن سواهم وهم تعينهم البلدية لقضاء الاغراض وايصال الرسائل من الفندق الى انحاء المدينة باجرة تقدّر على نسبة المسافة التي يسيرونها

وكنا قد اتينا بكتب الى بعض الوجهاء اكثرها توصيات ومنها كتاب الى والد المستر تيلر الذي مرَّ بك ذكرهُ وهو من اصحاب الملايين الكثيرة ولهُ منزل في ففث افنيو حيث اقيم الفندق الذي كنا فيهِ وهو احسن شوارع المدينة وابهاها . وجاء على اثر قدومنا كثيرون من مكاتبي الجرائد طلبوا مقابلتي لاخبرهم ما اعلم عن مصر وحصتها في المعرض العام فحدثتهم بما يريدون وانثنوا وهم يشكرون ثم جعلوا يكتبون عن القسم المصري في المعرض وعما سيكون من غرابتهِ اموراً شتى لا سيما اذا ذكروا انهُ سيكون فيهِ آثار بالغة في القدم تشهد باقتدار امة نمت وعظمت من خمسة آلاف عام في حين ان بلادهم لم يمر على استقلالها وبدء عظمتها غير ماية عام

مدينة نيويورك

ولا بد من افراد قسم من هذا الكتاب لوصف نيويورك ولو يكون القسم صغيراً لان هذه المدينة العظيمة اكبر مدائن اميركا برمتها واكثرها حركة ويساراً من بعد مدينة لندن عاصمة الانكليز تبلغ مساحتها ٤٢ ميلاً مربعاً ولا يقل سكانها الآن عن ثلثة ملايين نفس وهم يزيدون زيادة تذهل الحاسبين حتى انهم ليقدرون انها ستزيد عن لندن في عدد السكان بعد عشرين عاماً وتصير اكبر مدائن الارض طرًّا وهي لم يبلغ عمرها مايتي عام . وهي تعد جزيرة لانها واقعة ما بين نهرين يجعلانها كثيرة الطول قليلة العرض احدهما نهر الشمال غرباً وثانيهما نهر الشرق شرقًا ولها مينا جميل وافر الاتساع يكفي للعدد العظيم من السفن التي تصله وتقوم منهُ كل يوم فان طوله ثمانية اميال وعرضهُ يقرب من خمسة وهو يمثّل ما وصلت اليهِ التجارة البحرية في هذه الايام من اتساع النطاق فان نيويورك ولا يخفى اول اسا كل الولايات المتحدة واكبر مراكزها التجارية تقرب تجارتها من ثلثي تجارة البلاد كلها وفي هذا كل الغرابة فقد لا يقل عدد السفن البخارية التي تزورها سنوياً عن ستة آلاف . وهي فوق هذا مركز المهاجرة الى الولايات المتحدة والمهاجرة كما تعلم من اهم الامور هنالك لان البلاد ما عمرت الاَّ بالملايين التي جاءتها من كل صقع وصوب ولا يقل عددهم فيها عن نصف مليون كل سنة واكثرهم يقيمون فيها زماناً ثم يضربون في مناكب الارض ويتفرقون منها في جوانب البلاد ولكن الذين يقيمون فيها اقامة مستمرة كثار وهم يزيدون عدد الساكنين فيها تلك الزيادة التي ذكرناها . وهواء نيويورك جيد بوجه الاجمال ولكنهُ سريع الانقلاب فقد تكون اليوم في حرٍّ يضني الاجسام فتصير في الغد الى برد يلزم معهُ التوقي والتدفئة وهذه

آفة لبعض الجهات سلمت منها مصر وما يجاورها من البلدان الشرقيَّة

وتاريخ نيويورك يقرب من تاريخ الولايات المتحدة كلها او هو بعضهُ فقد قيل ان اول من وطأَ ارضها السنيور فرازاني في سنة ١٥٢٤ ولكن المعروف ان انكليزيًّا اسمهُ هدسن كان من عمال الشركة الهولاندية جاءَ نهر الشمال الذي يحد نيويورك من جهتها الغربيَّة ومعهُ بعض السفائن الهولاندية وقد سمّي النهر ومصبهُ باسمهِ الى هذا اليوم فرفع عليها العلم الهولاندي في سنة ١٦٢٤ وكان اول حاكم هولاندي عليها رجلاً اسمهُ بيتر منوي اشترى تلك الارض التي بنيت عليها المدينة من اصحابها الهنود الاصليين بخمسة جنيهات وسماها امستردام الجديدة على اسم المدينة الكبرى في بلادهِ . وتوالى على نيويورك الحكام الهولانديون بعد من ذكرنا الى سنة ١٦٥٠ وهي لا يزيد عدد سكانها يومئذٍ عن الف نفس اكثرهم يشتغلون بتجارة الخشب والفراء والهنود يتهددونهم من كل جانب حتَّى جاءَها الانكليز في سنة ١٦٦٤ واحتلوها وملكوها وقائد جنودهم اذ ذاك الكولونل نيكولسون سماها نيويورك اي يورك الجديدة . ويورك اسم مدينة مشهورة في بلاد الانكليز . وكان امتلاك الانكليز لهذه المدينة فاتحة الاقبال على الولايات المتحدة لانها مفتاح البلاد ودليل خيرها الوافر وربوعها الواسعة فتوافد عليها الالوف من كل جانب لا سيما من انكلترا وارلندا وتفرقوا منها في جوانب البلاد فعمروا المدائن العظيمة مثل بوسطن وفلادلفيا وهي كلها من المدائن العامرة . فلما رأَت الحكومة الانكليزيَّة ان البلاد التي ملكتها حديثًا وصلت الى هذه الدرجة من الاهمية عنيت بتنظيمها وقسمتها ١٣ ولاية وكان من امرها ما كان الى ان استقلَّت في ٤ يوليو من سنة ١٧٧٦ على مثل ما رأيت في الخلاصة التاريخيَّة وكان لمدينة نيوريوك هذه النصيب الاوفر في المحاربة والاستقلال وهي فتحها واشنطن عنوة وطرد الانكليز منها فكان ذلك داعيًا الى

انسحاب الجنود الانكليزيَّة من البلاد كلها . وكان عدد النفوس في نيويورك في سنة الاستقلال هذه ٢٢ الفاً فصار سنة ١٧٩٠ نحو ٣٤ الفاً وفي اول هذا القرن ٦٠ الفاً وسنة ١٨٢٠ فوق المابة والعشرين الفاً وسنة ١٨٤٠ نحو ٣١٥ الفاً وسنة ١٨٦٠ حوالي ٨١٥ الفاً وسنة ١٨٨٠ نحو مليون وربع وسنة ١٨٩٠ فوق المليون ونصف المليون وهي الآن يزيد سكانها عن ٣ ملايين كما علمت لانهُ صدر قرار من عهد قريب بضم مدينتي بروكلين ولونغ آيلند الى نيويورك واعتبارها جميعها مدينة واحدة وفي نيتهم ايضاً ضم بعض الضواحي ليزيدوا عدد سكان المدينة ويجيء يوم تصير بهِ نيويورك اعظم من لندن ويفخر الاميركان على الانكليز

والذي يجول في شوارع نيويورك يعجب لطولها وحسن انتظامها و يزهد كثرة ما فيها من الابنية العالية الكثيرة الادوار فان بيوت اوروبا لا يزيد اكثرها عن اربعة ادوار في علوهِ او خمسة واكثر ما يكون ذلك في مدينة باريس حتى ان لندن فيها بناءٌ واحد مشهور لهُ ١٢ دوراً فهم يعدونهُ من مشاهد المدينة المذكورة واما مدينة نيويورك هذه ومدائن اميركا بوجه الاجمال فان الابنية التي تزيد ادوارها عن ١٢ كثيرة في كل موضع وقد تفننوا فيها الى حد انهم بنوا للمحفل الماسوني في شيكاغو بناءً لهُ ٢٤ دوراً بعضها فوق بعض وبعض هذه الابنية يؤجر لخمسة وعشرين الفاً من النفوس فهو يعد مدينة قائمة بنفسها . وقد خططت شوارع نيويورك الاصلية من الشرق الى الغرب تقطعها شوارع اخرى من الشمال الى الجنوب على زوايا قائمة فتجعل منظر الطرق الكبرى متشابهاً يضلل الغريب لولا ان لها نمراً فوق كل منزل او باب تدل عليهِ وقد رقمت النمر الزوج على جانب والنمر الفرد على الجانب المقابل لهُ من الشارع ونمّرت الشوارع من واحد الى نمرة ١٥٥ فما على الغريب الاَّ ان يطلب عدد الشارع فاذا وصلهُ رأى نمرة المنزل على اليمين او

على الشمال وهي طريقة بسيطة يسهل حفظها على الغريب . وقد بدأت التفرج على هذه المدينة من شارع وول واولهُ عند البحر ولشارع وول هذا اهمية لان بهِ الاعمال المالية الكبرى وفيهِ الابنية العظيمة اذكر منها البورصة وهي بناء فخيم من المرمر دخلناها مع بعض الاصدقاء وسمعنا فيها من الغوغاء ورأينا من الحركة ما يعسر وصفهُ فانهم قدروا ان قيمة الذي يباع في هذه البورصة من اسهم السكك الحديديَّة وحدها تبلغ مليون جنيه في كل يوم . ولاحظت هنالك لاول مرة ان كثيرين من الاميركان يمضغون الدخان مضغاً وقد وضعت لهم براميل صغيرة في زوايا القاعة ليبصقوا بها . واذكر ايضاً بناءً عظيماً لاعمال التأمين على الحياة وفي داخلهِ ١٥٠٠ عامل والى القرب منهُ مصارف ومحلات تجاريَّة كبرى فيها من الحركة التجارية ما يشهد لهذه المدينة بالتقدم في مضمار الاعمال المفيدة . ويلي هذا في الاهمية شارع عظيم اسمهُ برود واي او الطريق العريض وهو طويل يمتد مسافة خمسة اميال على خط واحد وفيهِ عمارات عظيمة عمومية اذكر منها محل البوسطة وفيها ٢٥٠٠ عامل وخلفها المجلس البلدي والمحكمة التي انفقوا على بنائها وزخرفها نحو مليونين واربعمائة الف جنيه . وقد سرت في هذا الشارع حتى اجتزت نحو ميلين بين صفوف البناء الفخيم ثم وصلت الى محل للابضعة كبير لستوارت وشركاهُ وهو مثل مخازن اللوفر في باريس جامع لكل ما تطلب النفس رحيب الجوانب كثير الموجودات . ووراء هذه المخازن المكتبة العموميَّة التي بناها آل استور الكرام وملأُوها بنفائس المؤلفات ومفيد الكتب وانفقوا عليها حوالي ثلثمائة واربعين الف جنيه وهم من العائلات العريقة في المجد الوافرة اليسار في اميركا تقدر ثروتهم الآن بنحو ستين مليون جنيه او تزيد وتعد من اغنى العائلات في الدنيا وكان عدد الكتب في هذه المكتبة يوم زرناها ٢٨٠ الف كتاب وعدد الذين يدخلونها للمطالعة والبحث عما يفيد ٧٠ الفاً في

السنة والى مقربة من هذا الشارع طريق الاشراف والسراة ومقر آل اليسار والفخامة
نريد بهِ (ففث افنيو) الذي ذكرناهُ وفيهِ الفندق الذي اخترنا النزول فيهِ مدة
اقامتنا بمدينة نيويورك. وفيهِ ميدان ميدسون حيث اقيمت التماثيل لعظماء الاميركان
وقوادهم منهم امير البحر فاراجوت والجنرال ورث والمستر ستورت الذي كان وزير
الخارجية مدة الحرب الاهلية. وواصلنا المسير من هذا الشارع الى شارع ٥١ وفيهِ
كنيسة قديمة يتبعها ارض زادت قيمتها زيادة فاحشة بعد ان تقدمت المدينة وعلت
اسعار ارضها فباعوا جانباً منها باربعمائة الف جنيه انفقوهُ على تجديد بنائها و بقي من
تلك الارض ما يزيد ايرادهُ عن ماية الف جنيه في السنة. والى جانبها بيت الغني
المشهور ڤاندربلت صاحب الملايين الكثيرة كان من اغنى اهل الارض اذا لم يكن
اغناهم وقد عني ببناء هذا القصر جد المستر ڤاندربلت الحالي وهو الذي جمع المال
كلهُ واورثهُ لابنهِ وبناتهِ وكنت قد رأيت الرجل في الصعيد وتعرفت بهِ لما ساح في
مصر فوددت مقابلتهُ ولكنني علمت انهُ غائب فوقفت اتأمل بيتهُ وتلك الزخارف
المدهشة التي انفق الرجل عليها بعض ملايينهِ وظللت على المسير حتَّى وصلت
الحديقة العمومية وهي في عرف الاكثرين من اجمل حدائق الارض تبلغ مساحتها
٨٤٠ فداناً وقد جاءَ في كتاب بادكر انهُ صرف عليها ثلاثة ملايين جنيه فلا عجب
اذا كانت جنة زاهرة وروضة باهرة تحيي بجمالها النفوس وتختلب بمحاسنها العقول.
ذلك مع انها كانت قبل غرسها مستنقعاً تضر روائحهُ بالابدان فصيرها المال وهمة
الرجال جنة تجري من تحتها الانهار وهي يدخل اليها من ٢٠ باباً فيها اربعمائة فدان
غرست بباسق الاشجار ولطيف الازهار و٤٣ فداناً يتدفق منها الماءُ ما بين جداول
وبحيرات تسحر الانظار وبقية ارضها طرق مرصوصة بالحصى او شوارع فسيحة بعضها
للعربات وطولها عشرة اميال وبعضها لراكبي الخيل وطولها ستة اميال وبعضها للمارة

على الاقدام وطولها ثلثون ميلاً وفي قسم منها القناطر البديعة بنيت لوقاية الناس من المطر فاذا زرت الحديقة في احدٍ او عيد رأيت ما ترقص لهُ القلوب طرباً من اجتماع الجمال الطبيعي بجمال الصناعة والتقيت بالوف وعشرات الالوف من المتفرجات والمتفرجين في هاتيك الطرق البهية والموسيقى تعزف بالالحان والناس ما بين راكب وماشٍ يسمعون و ينظرون وآخرون في قوارب بديعة الصنع تجري فوق ماء البحيرات البهيةً وآخرون في المطاعم او فوق الكراسي بين ادغال الحديقة وازاهرها والكل في نعيم يمرحون . وعند باب الحديقة معرض ومسلة مصرية هي التي اهداها الخديوي اسماعيل باشا للجمهورية الاميركيَّة ونقلت من مصر على نفقة المستر ڤاندربلت الغني الذي سبق ذكرهُ وقد كنت واقفاً في الاسكندرية يوم جاء المهندس الاميركي ونزع هذه المسلة من موضعها وهي من ايام الملك توقميس الثالث امر بصنعها قبل المسيح بنحو ١٥٠٠ سنة وعليها الكتابات الهيروغليفية بهذا المعنى . ثم زاد الملك رعمسيس الثاني اسمهُ عليها بعد ثلاثة قرون اي في ايام موسى النبي وهي تبلغ ٦٩ قدماً في طولها ووزنها مايتا طونلاته بلغت نفقات نقلها الى نيو يورك عشرة آلاف جنيه لانهُ صنع لها ادوات خاصة بها و باخرة قامت لهذا الغرض

واما المتحف الذي اشرت اليهِ فلم يكن يوم زيارتي لهُ بالشيء الذي يذكر بل ان فيهِ رسوماً وصوراً تقل كثيراً في العدد والقيمة عما في متاحف اوروبا وسبب ذلك واضح هو ان متاحف الاميركان جديدة لم تمر عليها الاعوام حتى يجتمع فيها مثل ما في متاحف اوروبا من النفائس ولكن القوم ذوو انفة وغيرة اذا قيل لهم ان في اوروبا شيئاً احسن مما عندهم اثر ذلك فيهم ولهذا فهم جمعوا مالاً طائلاً بالاكتتاب لمتحف نيويورك واشتروا لهُ بنحو مليوني جنيه في مدة عشرين سنة ما يفتخر بهِ كل اميركي. وعدت الى فندقي في قطار سكة الحديد الذي يسير فوق الارض وهم يدعون

لذلك القناطر العظيمة قائمة على عمد من الحديد متوالية الوضع فتسير القُطُر فوقها والناس من تحتها في حركتهم واعمالهم فهم في هذا يخالفون نظام الانكليز الذين يبنون سكك الحديد في لندن تحت الارض ونظام الاميركان اوفق للمسافرين لا يضطرهم الى استنشاق الهواء العفن تحت الارض ولا يحرمهم منظر الارض التي يسافرون فيها ولكن نظام الانكليز اوفق لاصحاب الحركة التجاريَّة ولمنظر الشوارع لانهُ لا يشوّه منظرها ولا يقلل سعة الطرق على الساكنين . وقد مدَّ فوق هذه القناطر ثمانية خطوط للسكك الحديديَّة تنقل في السنة اكثر من مليوني نفس في جهات المدينة من مائة وعشرين محطة يقوم منها ٣٠ قطاراً في كل ساعة وهي من املاك المستر ڤاندر بلت المثري الشهير يدخل منها ثلاثة آلاف جنيه في اليوم لهُ ولشركائهِ

وقد علمت ان مدينة بروكلن متصلة بنيويورك يفصل بينهما نهرٌ وفوق النهر جسر يعد من عجائب هذا الزمان في دقة صنعهِ وغرائب شكلهِ لانهُ بني بدون قناطر بل هو معلق على قوائم متينة في الطرفين واسمهُ الجسر المعلق ولعلهُ اجمل الجسور التي بنيت من نوعهِ الى الآن وقلَّ ان تخلو جريدة مصورة او رحلة من رسوم هذا الجسر ووصف بدائعهِ فان طولهُ ٥٩٩٠ قدماً وعرضهُ ٨٥ قدماً وعلوهُ عن سطح النهر ١٣٥ قدماً فهو تسير من فوقهِ العربات على اشكالها والمارة على الاقدام وارتال سكة الحديد فلا يقل عدد الذين يمرون فوقهُ في السنة عن اربعين مليوناً فلا عجب اذا قيل انهُ من عجائب هذا الزمان . ولما كان الوصول الى هذه المدينة لا بد منهُ لسائح زار نيويورك فقد قصدناها ودرنا في جوانبها وتأملنا محاسنها وزرنا احد الاصدقاء عرفناهُ في الاسكندريَّة ثم عدنا الى الفندق في نيويورك استعداداً للسفر الى مدينة فلادلفيا التي اقيم فيها المعرض العام وانتدبنا لحضورهِ .

وكنا نظن اول الامر اننا سنعاني مشقة نقل الصناديق معنا في السفر فعلمنا اننا في غنى عن ذلك لاننا سلمنا هذه الصناديق باشارة العارفين الى شركة آدم واخذنا منها وصلاً بها ثم سافرنا وأُرسلت تلك الصناديق على يد الشركة وعلى ذلك تمت مدة اقامتنا في مدينة نيويورك العظيمة ووصلنا الى مدينة فلادلفيا بعد سفر يسر الخواطر في داخلية الولايات المتحدة فوجدنا صناديقنا في الفندق الذي قصدناهُ واسمهُ اوتل كونتيننتال

فلادلفيا

بني هذه المدينة قوم من طائفة الكويكرس او جمعية الاصحاب وكان ذلك في سنة ١٦٨٢ . واما هذه الطائفة فلها شهرة في اوروبا واميركا وان تكن غير معروفة في القطر المصري وهي من الطوائف البروتستانتية ولها امور كثيرة تمتاز بها عن غيرها من الطوائف منها انها تحرم القسم تحريماً تاماً فلا يقسم افرادها بالله او بغيرهِ ولو يكون ذلك في المحكمة حتى ان انكلترا اضطرت ان تسن اللوائح الخاصة للقسم في المحاكم ومجلس الامة بسببهم . وهم يعدون انفسهم جماعة السلام فلا ينتظمون في الخدمة العسكرية ولا يقبلون حرباً ولا يشربون مسكراً ولا يحفلون بالمراقص والملاهي ولا يتأنقون في الملابس وقد كان من اشهر رجالهم الوزير جون بريط الحر الانكليزي المشهور الذي يعدهُ الانكليز من اكبر اركان النهضة الانكليزية في العهد الحديث دخل مع غلادستون في عدة وزارات واستقال من من الوزارة سنة ١٨٨٢ لانهُ لم يوافق زملاءَهُ على محاربة مصر . وافراد هذه الطائفة لا يعرفون للاشهر وايام الاسبوع اسماء بل هم يقولون اليوم الاول للاحد

والثالث للثلاثاء والسادس للجمعة وقس على ذلك . ويعرفون الاشهر بنمرها ايضاً فيقولون الشهر الاول والشهر الخامس بدل يناير ومايو وفي ذلك مزيَّة لهم مشهورة . وهم يختلفون عن كل طائفة من الطوائف النصرانية في انهم لا يعتدون بالمعمودية وتناول العشاء الرباني او الاشتراك ولهم شهرة صحيحة في الصدق والشهامة والمحافظة التامة على مبادىء الشرف والشهامة فليس بين اهل الارض كلها اناس اشهر منهم في الفضيلة والصدق . ذلك حق يعترف بهِ لهم كل العارفين . وهم ذوو بساطة في معيشتهم وعبادتهم لا ينفقون المال على الزخرف الفاني ولا يشربون الخمور ولا يؤُمون مواضع الرقص والطرب والناس في انكلترا واميركا اذا قلت لهم انك كويكري عدوا ذلك دلالة كافية على سمو آدابك

هذا مجمل الذي يقال عن طائفة الكويكرس التي اسست مدينة فلادلفيا والولاية الملتفة حولها وقد سميت الولاية بنسلفانيا باسم المستر بن رئيس هذه الطائفة في ذلك الحين وسميت المدينة فلادلفيا ومعنى الاسم "بلد المحبة" اشارة الى مبدإ الذين اسسوها وكان ذلك في سنة ١٦٨٢ على ما علمت . وتوارد الناس على هذه المدينة فعمروها ولكنها ظلَّت بلا امتياز بلديَّة حَتَّى سنة ١٧٠١ وكان عدد سكانها يومئذٍ ٤٥٠٠ نفس فقط فجعلت تنمو وتتقدم حَتَّى صار عدد الساكنين فيها الآن فوق مليون وربع مليون من النفوس واصبحت ثالثة مدن الولايات المتحدة في الاهميَّة التجارية واولها في الاهمية الصناعية لانها تمتاز الآن عن مدن اميركا كلها بكثرة ما فيها من المصانع والمعامل . ولهذه المدينة موقع بديع لانها بنيت في سهل فسيح بين نهرين هما نهر دلوار ونهر سكولكل ولها شهرة في اتساع المجال فان طولها ٢٢ ميلاً وعرضها لا يقل عن خمسة اميال واكثر منازلها ذات طبقتين وقلَّ ان تزيد عن اربعة فهي من هذَا القبيل انسب لسكن العائلات

وافضل من حيث الشروط الصحيَّة من كل مدينة كبرى تكثر فيها طبقات البناء.
ولما اسس المستر بن هذه المدينة جعل لشوارعها اسماء تنطبق على ما كان فيها من الاشجار فاحسن طرقها الآن تعرف باسم شارع اللوز او شارع الكرم او شارع الصنوبر وغير هذا. وفي المدينة اربعة ميادين كبرى تعرف باسماء واشنطن وفرانكلن ولوجان ورتنهوس وكل شوارعها فسيحة جميلة واضحة النمر لا يضيع فيها الغريب.
وفي فلادلفيا مركز ادارات سكك الحديد الكبرى ولثغرها اهمية كبرى لانها واقعة على الاوقيانوس الاتلانتيكي ولها خطوط عظيمة من البواخر البحريَّة تمخر بينها وبين بقية البلدان واخصها انكلترا وفرانسا وممالك الشرق الاقصى

ولا بدَّ ان يسأل القارئُ عن السبب الذي حمل حكومة الولايات المتحدة بعد ان تمَّ ماية عام على استقلالها على جعل هذه المدينة مقر الاحتفال بذلك العيد العظيم ومركز المعرض العام الذي بني لهذه الغاية فنخبرهُ ان هذه المدينة كان لها اليد الطولى في حرب الاستقلال المشهورة لان الجمعيَّة التي قررت محاربة انكلترا في ذلك الحين عقدت في فلادافيا وهنالك وقَّع نوَّاب الاميركان على قرار الاستقلال رسميًّا في ٤ يوليو من سنة ١٧٧٦ وهو اليوم الذي يعتبرهُ الاميركان في كل زمان ومكان يوم عزهم وبدء حياتهم ويجعلونهُ عيدهم الوطني الاكبر. ولما انتخب القائد جورج واشنطون رئيساً اول للجمهورية الاميركية بعد استقلالها كان مركزهُ ومركز الجمعية العمومية في هذه المدينة ايضاً وظل الحال على مثل هذا حتى بنيت مدينة واشنطن وهي العاصمة الحاليَّة ونقلت الادارة اليها في سنة ١٧٩٧.
ولم يزل المنزل الحقير الذي أُمضي فيهِ قرار الاستقلال في فلادلفيا على حالهِ والاميركان يحتفظون بهِ ويعدونهُ اجل آثارهم وفيهِ ادوات استعملت في ذلك القرار منها الكراسي التي جلس النواب وواشنطن عليها والمنضدات التي وقَّع فوقها

ومقاعد وبعض الرياش كانت يومئذٍ في ذلك البيت واقلام وجرس رنَّ في ساعة مشهورة علامة الاجماع على المناداة بالاستقلال وعلم كتب عليهِ بالانكليزية عبارة معناها "احذر ان تطأني" وصور الرئيس والاعضاء الاثني عشر ورسوم الثلاث عشرة ولاية التي نالت الاستقلال وغير هذا كثير مما تعدهُ الامة الاميركية كبيرًا غالي الثمن

واما مشاهد هذه المدينة العظيمة فكثيرة تستحق الوصف . صحيح انهُ ليس فيها ولا في غيرها من مدائن الولايات المتحدة ما يقرب من كنائس اوروبا المشهورة مثل كنائس رومه وكولون وميلان وستراسبورغ وهي مضى عليها مئات من السنين في زيادة وتحسين ولكن الاميركان كما قلنا اهل حماس وغيرة وهم يحاولون سبق اوروبا في كل باب ومطلب وقد اوجدوا من غرائب المشاهد ما ذكرنا بعضهُ ومنهُ قصر المجلس البلدي في هذه المدينة كلهُ من الرخام الابيض الجميل وقد اشغل بناؤُهُ ١٢٨٠٠ متر وفيهِ ٧٥٠ غرفة معدة لاعمال المجلس البلدي والمجالس المحلية والاستئناف ويبلغ ارتفاعهُ ٥١٠ اقدام وفوقها تمثال المستر بن مؤسس المدينة . ويلي هذا بناء فخيم للماسون انفق عليهِ ثلاثماية الف جنيه ويقول الخبيرون انهُ لو بناهُ غير هذه الفئة لانفق عليها ضعفي هذا المال الكثير . ومن هذه المشاهد مركز البوسطة وهو بناء عظيم من الرخام الابيض ايضاً بلغت نفقاتهُ مليون جنيه . ومنها مدرسة كبرى تعرف باسم مؤسسها جيرار ولها شهرة واسعة يقصدها طلاب العلم من شاسع الاقطار وكان المسيو جيرار هذا رجلاً فرنسياً رحل الى الولايات المتحدة وهو فقير فاثرى وجمع مالاً طائلاً ثم عاد الى بلادهِ وهو يضمر الخير لاقاربهِ الفقراء وقد عزم على اعطائهم بعض مالهِ ولكنهُ تنكر وجاءهم بلباس الفقراء فنفروا منهُ وتبرأُوا من قرابتهِ ونصحوا لهُ ان يعود الى حيث اتى فلما رأى

الرجل هذا من اقاربهِ اظهر حقيقة امرهِ وعدل عن امدادهم بالمال وشعروا بذلك فجعلوا يعتذرون ويتقربون ولكنهُ لم يقبل لهم عذراً واعلنهم انهُ عائد الى حيث اتى فعاد الى فلادلفيا وتوفي فيها سنة ١٧٥٠ وترك ثروتهُ كلها وقفاً لمدرسة بنيت وسميت باسمهِ وفيها الآن نحو الفي تلميذ ولا تقل الاموال والعقارات الموقوفة لها عن ثلاثة ملايين جنيه

ولهذه المدينة حديقة من اكبر حدائق الارض واجملها تبلغ مساحتها ٢٨٠٠ فدان وهي تمتد مسيرة اربعة اميال على ضفة نهر سكولكل ولها بذلك رونق وبهاءٌ كثير. وكنت اتردد على هذه الحديقة وغيرها من مشاهد المدينة وانا استعد للمعرض الذي جئت من اجلهِ فلما رأيت ان الفندق الذي كنا فيهِ بعيد عن محل المعرض انتقلت الى منزل اقرب منهُ الى المحل المقصود وجعلت اتردد على محل اللجنة المفوضة بالنظر في امور العارضين وابضعة الممالك والولايات واحرر القوائم اللازمة حتَّى فرغت من الاستعداد وقرب يوم افتتاح المعرض . وحصل لي في ذلك المنزل نادرة غريبة وهي ان في كل منزل سلكاً يتصل بادارة الاولاد السعاة الذين سبق ذكرهم اذا ضغط صاحب المنزل او من فيهِ على زر كهربائي في طرف السلك دق جرس في ادارة السعاة فحضر احدهم لقضاء المطلوب . وكان عندي كتاب في ذلك اليوم اريد ارسالهُ الى احد الاصدقاء فضغطت على الزر ولما ابطأ الساعي في الحضور ضغطت مرة ثانية وثالثة فما مضى على ذلك زمان حتى رأيت العربات المعدة لاطفاء الحريق ومعها المضخات والطلمبات يسوقها الرجال المتمرنون بملابسهم المعروفة وخوذهم النحاسيَّة جاؤُوا اليَّ يستعلمون عن محل الحريق فقلت انهُ لم يحصل ذلك على ما اعلم قالوا انك طلبت ادوات اطفاء النار بالضغط على الزر ثلاثاً واوضحوا لي حينئذٍ ان الضغط على الزر مرة معناهُ طلب الساعي ومرتين

طلب البوليس لضبط واقعة وثلاث مرات طلب الرجال والادوات لاطفاء النار وكان ذلك اول عهدي بهذا النظام

ويذكر القارئ ان المغفور لهُ توفيق باشا رئيس لجنة المعرض الذي نحن في شأنهِ كان قد كلفنا ارسال تقرير اليهِ كل ١٥ يوماً فانا قمت بهذا الامر وارسلت اول التقارير بعد ان رأيت المعرض قبل افتتاحهِ وارسلت معهُ رسوماً وجرائد وجعلت ذلك دابي كل ١٥ يوماً وقد اسعدني الحظ بورود كتب بخط يدهِ الكريمة اليَّ رداً على تلك التقارير وهي الى الآن عندي حفظتها كنزاً ثميناً . ووردت الصناديق التي وضعت فيها المعروضات المصرية قبل غيرها فسر لذلك مدير المعرض وسهل لنا الطرق لترتيبها في مواضعها . وكان نواب الامم يتواردون واحداً بعد واحد والناس يدعونهم الى الولائم الحافلة حضرت منها في اول الامر وليمة حضرها من النواب غيري النائبون عن مملكتي الصين واليابان لانهم جاؤا فلادلفيا عن طريق البحر الباسفيكي فلما كان الصباح التالي لهذه الوليمة وفد عليَّ مكاتبو الجرائد الكبرى يطلبون الاستعلام عما سيكون في معرضنا المصري من التحف والآثار فاعطيتهم ملخص الكشف العمومي ونشروه في جرائدهم ومن ذلك الحين كثرت عليَّ الدعوات والزيارات من اعظم العائلات حتى ان ايام الاسبوع لم تعد تكفيني لاجابة كل الدعوات لا سيما وقد اشتهر الاميركان بالكرم وحب الغريب اذا كان من بلاد بعيدة مثل مصر لها شهرة بآثارها القديمة وتميل نفوسهم الى سماع اخبارها ووصف مناظرها . والآن اتقدم الى وصف المعرض العظيم الذي ذهبنا الى فلادلفيا من اجلهِ واجعل الاختصار خطتي في وصفهِ لان التطويل لا يمكن في مثل هذا المقام

المعرض

علمت مما مرَّ بك انهُ لما مرَّماية عام على استقلال الولايات المتحدة اتفق اهلها على الاحتفال بذلك احتفالاً باهرًا ودعوا كل ممالك الارض ودولها الى ارسال من ينوب عنها في حضور معرضٍ اقيم لهذا الغرض وفي عرض ما تريد من الآثار او الاشياء الدالة على منزلتها . وقرروا ان يظل المعرض مدة ستة اشهر من اول مايو الى آخر اكتوبر من سنة ١٨٧٦ . ولما كنت من المندوبين المصريين لحضور الاحتفال والمعرض توجهت لمقابلة مدير هذا المعرض بعد وصولي الى مدينة فلادلفيا بقليل واطلعتهُ على اوراق تعييني وتداولت معهُ طويلاً في ما يلزم للقسم المصري وفي اليوم التالي جاءني هذا المدير مع كاتب يدهِ العام وردَّ لي الزيارة واخذني معهُ الى الحديقة الكبرى التي بني فيها المعرض ومرَّ ذكرها فذهبت ورأيت ارض المعرض وهي داخل دائرة يحيط بها سور ومساحتها ٢٣٦ فدانًا منها الارض المخصصة لعرض البهائم ومليونا قدم مربع لاصحاب الابضعة المطلوب عرضها على الزائرين والمتفرجين . وكان في ذلك المعرض ابنية فخيمة خصصت كل منها لغرض معلوم منها الابنية الآتية

١ القسم العمومي في بناءٍ فخيم مساحة ارضهِ ٢١ فدانًا وطولهُ نحو ١٨٨٠ قدمًا وعرضهُ ٤٦٤ قدمًا وعلوهُ ٧٠ قدمًا وفيهِ قسم لكل حكومة خارجيةٍ دُعيت للاشتراك فِي هذا المعرض وفي جملتها القسم المصري

٢ قسم الآلات الصناعية و (الماكنات) مساحة ارضهِ ١٤ فدانًا وطولهُ ١٤٠٢ اقدام وعرضهُ ٣٦٠ قدمًا وارتفاعهُ ٧٠ قدمًا وهو محاذٍ للقسم العمومي كانهما بناءٌ واحد طولهُ ٣٨٢٤ قدمًا

٣ قسم الزراعة مساحتهُ عشرة افدنة طول بنائهِ ٨٢٠ قدماً وعرضهُ ١٢٥

٤ قسم النبات في فدان واحد من الارض طول بنائهِ ٢٨٣ قدماً وعرضهُ ١٩٣ وعلوهُ ٧٢

٥ قسم الصور والرسوم طولهُ من الداخل ٣٦٥ قدماً وعرضهُ ٢١٠ وارتفاعهُ ٩٥ وفيهِ قبة من الرخام ارتفاعها ١٥٠ قدماً انفقوا على بنائها مليوناً ونصف مليون من الريالات

هذه الاقسام العامة في المعرض واما الخاصة فكان فيهِ بناءٌ عظيم للحكومة عرضت فيهِ الآلات القتالة كالمدافع والبنادق وامثلة على شكل البواخر الحربيَّة . وقسم لكل ولاية من الولايات المتحدة بني اكثرها على الطرز الخاص بتلك الولاية ومليءَ بانواع الابضعة الفاخرة وادلة التقدم العظيم . وكان في ارض المعرض سكة حديدية ينتقل فيها المتفرجون من احد جوانبهِ الى الآخر نظرًا لاتساع ارضهِ واقيمت فيهِ المطاعم البديعة واشهرها للخواجات بروفانسو جاؤُا من باريس لهذا الغرض . وقد بلغت نفقات هذا المعرض ٦ ملايين ريال اميركي جمع الاهالي منها بالاكتتاب خمسة ملايين فلما لم تكفِ ساعدتهم الحكومة بمليون ريال واشترطت ان يرد اليها المليون من ايراد المعرض بعد اشغالهِ

واما افتتاح المعرض هذَا فكان يوم ١٠ مايو من سنة ١٨٧٦ وتم باحتفال عظيم من الحكومة والاهالي معاً فانهُ لما جاءَ اليوم الموعود حضر رئيس الولايات المتحدة وهو يومئذٍ جناب الجنرال غرانت المشهور وجاءَ معهُ من واشنطن عاصمة البلاد وزراءُ الجمهوريَّة ونواب الولايات واعضاءُ مجلس الشيوخ وكبراءُ الحكومة فوصلوا في قطار خاص كثير الزخارف ونزل الرئيس ضيفاً على المستر تشايلد وهو من سراة هذه المدينة وصاحب جريدة لدجر المشهورة التي لا يقل الربح منها عن

مايتي الف ريال في السنة . ذلك فضلاً عن ايراد المستر تشايلد من امواله
واملاكهِ الاخرى وهو مثل اكثر اصحاب الملايين في الولايات المتحدة جاءَ مهاجرًا
يطلب الرزق في بدء عمرهِ فجمع ثروتهُ الطائلة بالجد والدأب وحسن التوفيق .
وكان وصول رئيس الجمهورية ومن معهُ الى فلادلفيا قبل افتتاح المعرض بيوم واحد
فلما كان الغد ازدحمت الطرق من جميع الجوانب بخلق كثير من الاميركيين
والسياح المتفرجين وملئت جوانب الحديقة التي اقيم فيها المعرض بالناس على
اختلاف الاجناس وجاءَ الرئيس الى منصة بديعة في الحديقة امام القسم العمومي
زينت بالازهار والاعلام على شكل يسحر الناظرين وكانت الطرق كلها يحرسها جنود
ارسلوا من كل الولايات لهذا الغرض فرقة من كل ولاية . فلما رقي رئيس الجمهورية
تلك المنصة جلس الى كرسي كبير وضع لهُ في وسطها وجلس الى يمينهِ المدير
العام للمعرض والى شمالهِ المدير المالي للمعرض وجلس من ورائهِ وزراء الجمهورية
وكبراؤُها واعضاءُ مجلس الامة والشيوخ وحكام الولايات والى جانبيهِ من هنا ومن
هنا مندوبو الممالك والدول الاخرى وبعض خاصة المدعوين . وكان في الحديقة
منصة اخرى تجاه هذه المنصة وقف فيها خمسماية سيدة لينشدنَ نشيد الاستقلال
بصوتهنَّ الرخيم. فلما تم عقد ذلك المجلس المهيب وقف جناب رئيس الجمهورية وقال
" اني افتح هذا المعرض بعد مرور مائة عام على استقلالنا مظهرًا لامتنا وللامم
الاخرى نتيجة تقدمنا في قرن واحد من الزمان. واني اسأَل الله تعالى ان يحفظ
ولاياتنا المتحدة". فتصاعدت اصوات التأمين على هذا الدعاء من اربعمائة الف
نفس تجمعت في حديقة المعرض ثم اطلقت المدافع مائة وواحدًا ونزل الرئيس من
تلك المنصة فدخل اقسام المعرض والجموع من ورائهِ وجعل يتفقدها قسماً قسماً وكان
كلما جاءَ قسماً من اقسام الدول الاجنبية يلاطف المندوبين فيها بالكلام الرقيق

حتى اذا وصل قسم الآلات الصناعية صدر امره بتشغيلها فصدع العمال بالامر وجعلت تلك الآلات هذه تدق وهذه تثقب وهذه تخرط وهذه تضغط وهذه تدور وكان لها دوي هائل . ولما زار معرض الزراعة امعن نظره في آلات الزرع والحرث والحصد وغير هذا وكان في ذلك القسم آلات ترفع الماء من حوض وتصبه في حوض وهو يتدفق تدفقاً بديعاً . وكان في كلٍّ من هذه الاقسام جدول ببيان ما فيهِ والناس يتفرجون ويعجبون لاسيما اذا وصلوا الى معرضنا المصري وشاهدوا غرائبهُ ولطالما سألوني وسألوا غيري عن امورٍ لاتخطر على بال المواطنين فهذا يريد العلم بكيفية تربية دود القز اذا رأى الحرير الطبيعي وهذا يسأل ان كيف يفقس البيض ويصير فراخاً بالطرق الصناعيَّة وبعضهم يطلب جريدة عربية ليحفظها عندهُ اثراً من الآثار وهذه تسألنا ان نكتب اسمها بالعربية على بطاقة الزيارة وتلك تستفهم عن طرق الزواج وتعدد الزوجات عندنا وغير هذا مما لا يخطر الاَّ على بال الغريب . وكانت جرائد اميركا تنقل الى قرائها اخبار هذا المعرض بالبيان الوافي واكثرها ترسم صور المناظر والاشخاص وكان اكثر الرسوم شيوعا رسم الرئيس وهو في المنصة يفتح المعرض ومن حولهِ من ذكرنا وفي جملتهم مندوبو الحكومة المصريَّة بملابسنا الرسمية والطرابيش

وقد تشرفنا بمقابلة الرئيس غرانت بعد يوم الافتتاح في بيت المستر تشايلد وكان ذلك بدعوة أُرسلت الى جميع مندوبي الدول فاظهر جنابهُ للجميع لطفاً كثيراً وبعد ان مرَّ على هذه المقابلة يومان ورد الينا كتاب من المستر تشايلد المذكور يقول فيهِ ان قرينة الجنرال غرانت رئيس الجمهورية عازمة على زيارة القسم المصري في المعرض وهو يرجونا ان نستعد لمقابلتها واطلاعها على ما تريد فعملت بهذه الاشارة وكنت في الموعد المضروب مستعداً لمقابلة هذه السيدة الكريمة حتى

اذا حضرت ومعها ابنتها وصهرها درت معها اوضح لها ما في معرضنا من الآثار
والاشكال وهي تطرب وتعجب مدة ساعة من الزمان وتستقصي العلم بكل ما تراهُ
وقد استلفتت انظارها ملاعق صغيرة صنعت على شكل غريب من خشب الابنوس
فرجوت حضرتها ان تقبل تلك الملاعق هدية صغيرة وتذكاراً للمعرض المصري
فقبلتها متلطفة شاكرة ومعها بعض الآثار المصرية القديمة . ثم خرجت بعد ان
تكرمت بدعوتي الى قصرها في واشنطن عاصمة الجمهورية فشكرتها وارسلت تقريراً
خاصاً الى سموّ الخديوي توفيق باشا عن هذه الزيارة التي جعلت للقسم المصري
شأناً كبيراً في هذا المعرض. ومما يريك الفرق بين الحكومات الجمهورية المبنية على
رأي الامة وتوافق الافراد وبين الحكومات الوراثية التي يتعالى امراؤُها عن بقية
الناس ويتشامخون ان رئيس الجمهورية في هذه البلاد العظيمة يعد نفسهُ واحداً
من الناس فينزل في بيت صديق لهُ كما رأيت ويقبل طلب اصدقائهِ فيحضر
سهراتهم وولائمهم ولا فرق بينهُ وبينهم مع انهُ رئيس امة في الطبقة العليا من التمدن
يزيد عدد افرادها عن عدد الناس في كل مملكة اوروبية ما خلا مملكة روسيا وقد
كان من امر الجنرال غرانت ان المستر پول من الوجهاء دعاهُ الى العشاء في
احد الايام ودعانا معهُ ايضاً فذهبتُ الى بيتهِ في الساعة المعينة وكان رئيس
الجمهورية وقرينتهُ وغيرهما في قاعة فخيمة بانتظار ساعة العشاء وقد حدَّثت حضرة
السيدة الكريمة زوجها بما كان من واجب اكرامنا لها عند زيارتها للمعرض المصري
فرحب بي جنابهُ ترحيباً خاصاً وقمنا على اثر وصولي الى المائدة الفاخرة فلما انتهينا
من العشاء دخلنا قاعة التدخين حسب عادة الرجال وكانت السيدات في قاعة
الاستقبال ريثما ينتهي الرجال من التدخين. ولما كنا في تلك القاعة اخبرني رئيس
الجمهورية بعزمهِ على السياحة في مصر في الشتاء التالي فسألتهُ اذا كان يسمح لي

بابلاغ ذلك رسمياً للحكومة المصرية فاجابني بالايجاب واظهر لطفاً لا ينتظرهُ المرء من بطل ضرغام مثلهُ شهد الحروب وحارب الالوف وانتصر على القوات العظيمة فانهُ ولا يخفى كان قائد الجنود الشمالية في الحرب الاهلية التي ورد ذكرها في الخلاصة التاريخية بين اهل الجنوب واهل الشمال وكان لهُ النصر في كل المواقع القاضية . واشتهر جنابهُ بالصمت وكثرة التأمل ولكنهُ لم يقلل الكلام لما تشرفت بمعرفتهِ واذكر انهُ لما ورد اسم السياحة قال لي انهُ لا بدَّ من معاناة المتاعب اذا ساح في فرنسا والنمسا وايطاليا لان لهُ لساناً واحداً فقط هو لسان الصدق فضحك الحاضرون لهذه النكتة . وكان لهُ ولع بالتدخين حتى انهُ لم يترك السيجار من يدهِ الاَّ عند الاضطرار الى تركها وهو يعد من اكبر رؤساء الجمهورية الاميركية واعظمهم

وقد كان احتفال الناس بهذا المعرض وبمرور القرن على استقلالهم عظيماً يعز نظيرهُ فان المدينة كانت مزدانة من جميع جوانبها على نفقة الاهالي والجماهير الوفاً مؤلفة في كل شارع كبير لا سيما في جوانب المعرض وحول ذلك البناء القديم الذي تم فيهِ قرار الاستقلال وذكرناهُ قبل الآن وفي جميع الساحات والحدائق الاخرى . وكان الخطباء يقومون للخطابة في موضوع الاحتفال والوطنيَّة والناس تتألب من كل جانب لسماع اقوالهم حتى اذا فاه الخطيب بقول يوجب الحماس الوطني او اشار الى ما كان من حزم الاجداد الكرام والنصر في الحرب التي ادَّت الى الاستقلال صرخوا مستحسنين متحمسين والقوا قبعاتهم في الهواء رجالاً واطفالاً وفي مثل هذه المظاهر ما يبث روح الوطنيَّة في القوم ويوضح لابناء اميركا منزلتهم الرفيعة من بعد الاستقلال فهم يعدون انفسهم اهل كرامة لما نالوا من الحريَّة التامة وفي ذلك ما لا يخفى من الفخر الصحيح

ولما جاء الليل في يوم الاحتفال سطعت الانوار الباهرة في كل ناحية من

المدينة ودار في شوارعها موكب حافل لهُ منظر موَثر مهيب وتبع ذلك الموكب آلاف من الناس حتَّى ان الذي رأى تلك الليلة في فلادلفيا رسخ في ذهنهِ ذكرها وذكر معرضها واحتفالها الباهر . وقد كان حاكم المدينة في مقدمة هذا الموكب ومن ورائهِ اشكال المحتفلين واغربهم اصحاب الحرف كالنجارة والحدادة والتجارة والفلاحة وغيرها يتقدم كل فئة من اصحاب هذه الحرف شيخها ومعهُ علم خاص بها وموسيقى تصدح بالانغام الوطنيَّة وانوار باهرة وكان عدد المحتفلين كثيرًا جدًّا الى حد انهُ لو وقف المتفرج على الموكب في نقطة من المدينة ومرَّ بهِ الموكب لم ينتهِ من الفرجة الاَّ بعد انقضاء ثلاث ساعات تتوالى فيها المناظر المختلفة والمشاهد العظيمة . وكانت لجنة المعرض قد اقامت وليمة فاخرة في تلك الليلة لكبراء الناس وفي جملتهم نواب الممالك الاخرى فحضرنا تلك الوليمة وسمعنا من بعد الطعام خطبًا رنانة كان اول القائلين فيها رئيس المعرض وهو رحب بالحاضرين واطنب في مدح الحريَّة وتلاهُ غيرهُ من الاميركان والمندوبين الذين شاركوا الاميركان في فرحهم وهنأوهم بما وصلوا اليهِ فاستغرقت تلك الوليمة ثلاث ساعات من الزمان

وظللنا في المعرض نقوم بواجبهِ حتى بلغنا في احد الايام ان رئيس المعرض عقد اتفاقًا مع مديري سكك الحديد على اعداد قُطُرٍ خاصة لمندوبي الدول تأخذهم الى اعظم مشاهد الولايات المتحدة على نفقة الدولة واهم هذه المشاهد شلال نياغارا واقليم البترول (زيت الغاز) والفحم الحجري وغير هذا مما سيأتي وصفهُ .

وبعد قليل وردت الينا اوراق تدعونا الى هذه السياحة الجميلة وشارات خاصة توضع على صدر المدعوين لتميزهم عن سواهم وطبعت اوراق اخرى فيها بيان هذه السياحة وما تم الاتفاق على ان يراهُ المدعوون وانتدب اثنان من اهل الخبرة والمهندسين الاميركيين لمرافقة المندوبين الاجانب في هذه السياحة واطلاعهم على

كل امرٍ يريدون العلم بهِ . فبناءً على هذه الدعوة قمنا في قطار خاص في الساعة السابعة من احد الايام وسرنا في داخلية البلاد نحو ٧ ساعات رأينا في خلالها بلاد لانكاستر ولاندسفل وجاكستون وغيرها حتى بلغنا مدينة التونا وهي شهيرة في انها معمل بناء العربات لشركات السكك الحديدية في ولاية بنسلفانيا وما يجاورها ولهذه الشركة اراضٍ لا تقل في اتساعها عن عشرين الف فدان . ولما وقف القطار في المحطة ركبنا عربات أُعدت للمندوبين وسرنا الى فندق استوُجرت فيهِ غرف لنا ايضاً وكان اهتمام عمال هذا الفندق باكرامنا شديداً حتى ان مدير الفندق كان يخدمنا على مائدة الطعام بنفسهِ ويملأ كؤوس الخمرة لنا بيدهِ وهو يعرب عن سرورهِ باجتماعنا لمشاركة قومهِ في احتفالهم العظيم . وسرنا بعد ذلك بقليل الى معمل العربات والآلات لسكك الحديد وهو محل واسع يشغل من الارض حوالي ١٥٠ فداناً او ٦٣٠٠٠٠ متر وفيهِ عشرة آلاف عامل ويصنع فيهِ من الآلات البخارية التي تجرُّ الارتال مئات كل عام ومن عربات الركاب والابضعة الوفاً كثيرة فلما وصلنا ذلك المعمل دار بنا مديروهُ يشرحون ويوضحون وكانوا يأمرون العمال ان يصنعوا (الوابورات) والعربات على مرأًى منا ونحن نتفرج معجبين لجمال تلك الآلات والعربات التي تمتاز عن العربات الاوروبية بطولها واتقان صنعها والعمل على راحة المسافرين فيها . وليس يخفى ان اهل اوروبا جعلوا يشترون بعض عربات الركوب لقطاراتهم من اميركا او هم يصنعون على مثالها واشتهرت عربات التونا هذه بمحاسنها حتى قام المستر بولمان المشهور واخترع نوعاً من العربات المتينة التي يقل في سيرها الارتجاج وتكثر الراحة للمسافرين واحتكر صناعتها وهو الآن لهُ اكبر معامل العربات في ولاية نيويورك وقد اصبح من اصحاب الملايين وشركات السكك الحديدية في كل بلاد تشتري من عربات بولمان لقطاراتها . ورجعنا الى الفندق بعد ان تمتعنا

بمشاهدة هذا المعمل وغرائبهِ فكنا نرى العربات معدة لركوب من شاء منا بلا اجرة ندفعها حتى اذا شاء احدنا ان يقصد نزهة او فرجة كانت العربات في خدمتهِ متى اراد . وفي تلك الليلة اولموا لنا في العشاء ولمية فاخرة ودعونا بعدها الى موضع للتمثيل وكان كل مندوب يطلب فيهِ وفي الحانات والقهاوي ما اراد من المشروب ولا يؤْخذ منهُ الثمن حتى اني اذكر اني مسحت حذائي ولم يشإِ الصبي ان يأْخذ اجرة لانهُ رأَى من الشارة في صدري اني احد المندوبين واجرة عملهِ واصلة من الحكومة فذكرني هذا بالكرم الحاتمي الذي اظهرهُ ساكن الجنة اسماعيل باشا الخديوي الاسبق عند الاحتفال بترعة السويس، فانهُ اتى مثل ذلك في المطاعم والفنادق التي أَمها المدعوون للاحتفال وذلك غير الذي اتاهُ لاكرام امبراطور النمسا وامبراطورة فرانسا وولي عهد انكلترا على وجه خاص

بتسبرغ

وقمنا في اليوم التالي على قطار يشق الجبال شقًّا ويخترق الاودية والسهول فيمر في مناظر بهجة للغاية ويدور من حول الجبال فلا يخترق قلب الارض في نفق او سرداب الاَّ اضطرارًا وفي هذا مزية للاميركان على الاوروبيين في سككهم الحديديَّة فان اهل اوروبا يحفرون للارتال نفقًا تحت الارض كلما وصلوا الى جبل فاذا ما دخل القطار مثل هذا النفق لم يرَ المسافر غير الظلام الدامس وفاتهُ منظر الجبال وسفحها واما في اميركا فانهم يجتنبون النفق ما امكن ويعرجون من حول الجبل بدل اختراقهِ فيتسنى للراكب في بلادهم ان يمتّع نظرهُ بانخم المناظر الطبيعيَّة. وظللنا على المسير في هذا القطار حَتَّى بلغنا منابع كريسون وهي عيون من الماء الحديدي فيهِ نفع للابدان وعافية يقصدها كل ذي علة يستشفي بمائها المعدني فتفرجنا عليها وشربنا ثم عدنا الى القطار وعاد يخب في الارض خبًّا ويرينا من

اشكال الطبيعة عجباً حتى وصلنا الى مدينة بتسبرغ المشهورة فنزلنا في محطتها ولقينا العربات معدة لنا على مثل ما رأينا في كل موضع زرناه مدة هذه السياحة

ومدينة بتسبرغ هذه ثانية مدائن ولاية بنسلفانيا يبلغ عدد النفوس فيها ثلثمائة الف او يزيد ولها موقع بديع ما بين نهري الجاني ومونونجاهيلا يلتقيان فيها ومنهما يتفرع نهر اوهايو . وتجاه هذه المدينة مدينة اخرى اسمها الجاني على اسم النهر الذي ذكرناه وفيها من النفوس حوالي ١٣٠ الفاً والبلدان يعدان في عرف الاكثرين مدينة واحدة لانهما يفصل بينهما ذلك النهر فقط وفوقه جسور عديدة وطرق شتى للاتصال . وهذه المدينة حديثة العهد مثل اكثر مدن الولايات المتحدة فان تأسيسها كان في سنة ١٧٥٤ حين بنى بها القائد الفرنسي دوكين قلعة سميت باسمهِ واستولى عليها الانكليز بعد ذلك ثم اخلوها بعد انخذالهم في حرب الاستقلال فعمر المدينة لا يزيد عن ١٤٤ سنة وهي في وسط اقليم كلهُ حديد وفحم حجري تكثر فيهِ المناجم لاستخراج هذين المعدنين حتى انهم ليخرجون من اربعة مراكز فيهِ مليونين ونصف مليون طونلاته من الحديد وعشرين مليون طونلاته من الفحم الحجري في كل سنة . ويخرج من الاقليم فوق اربعين مليون من زيت البترول وبذلك تعلم اهمية هذه الجهة من جهات الولايات المتحدة ووفرة غناها في المعادن. ومعلوم ان زيت البترول هذا على شهرتهِ الحالية لم يعرف الاَّ من نحو مائة عام فقط ولم يشتهر استعمالهُ الاَّ في سنة ١٨٢١ وقد حسبوا طول الانابيب التي يسير فيها البترول هنا فاذا هو ١٢٠٠ ميل ومقدار الزيت الذي يجري فيها ٥٠ مليار قدم مكعب

وسرنا بعد هذا الى معامل الحديد العظيمة واشهرها معمل الخواجات تومسون يعمل فيها العاملون بنحو ستمائة الف طونلاته في كل سنة اكثرها قضبان لسكك

الحديد وفيها افران هائلة لتذويب الحديد وسكبهِ وتليينهِ يسميها العمال جهنم وهم يزيدون في هذا المعمل عن ستة آلاف عامل اعتصبوا مرة واضربوا عن العمل بغية ان تقلل لهم ساعات العمل وتزاد الاجور فاقتضى لتسكين هياجهم ان تجرد الحكومة عليهم فرقة منظمة من الجيش ومعها المدافع وقائدها جنرال من قواد الجيش الاميركي . وتجولنا بعد زيارة هذا المعمل في انحاء المدينة وصعدنا الى قسم منها فوق قمة جبل وشنطن وهو مسكن الاكابر واهل اليسار ولما كان الصعود اليهِ والنزول عسراً بسبب علوهِ صنعوا آلات تصعد وتنزل بقوة البخار وتنقل الناس والبهائم والحاجات كلها وهي على شكل الآلات المستعملة في جبال سويسرا الاَّ انها اسرع سيراً لانها تصعد وتنزل على خط مستقيم والركوب فيها يخيف الذي لم يتعود استعمالها . والذي يصعد الى القمة بهذه الطرق يرى منظراً يعز نظيره فانهُ في وسط بلد زاهر فخيم المباني ومن تحتهِ معامل يتصاعد منها الدخان فيحجب منظرها عن العيون والنهر في الجانب الآخر ينساب فيهِ الماء انسياب الافعى فيفتن بجمالهِ الناظرين

وفي هذه المدينة ابنية كبرى أُنفق عليها الملايين وهي تضارع اجمل ما رأينا في مدن اميركا الاخرى من ذلك بناء البنك العمومي والبنك المحلي والبوسطة وغيرها . والبواخر التي تسير فوق الماء من هذه المدينة واليها في داخلية الولايات المتحدة تجتاز مسافة عشرين الف ميل في جوانب البلاد من هنا ومن هنا لانها تجري على ثلثة انهر فيبلغ مجموع ما تنقل مليون طونلاته ونصف مليون في العام وهي كل عام في ازدياد. والذي يسافر على هذه البواخر في هذه الانهر يرى كل ما يسر الخاطر من جمال الطبيعة وتقدم الصناعة في بلاد الحرية . وكان حاكم هذه المدينة شديد الاهتمام بما يسر المندوبين ويريهم اقتدار مدينتهِ حتَّى انهُ امر باضرام النار

في منزل وارسل اليهِ رجال المطافيء بمضخاتهم وطلباتهم على مرأًى منا ومسمع فأرانا كيف يجدُّ اولئك الرجال في المسير على تلك العربات الثقيلة وهي تقرقع وهم يصيحون ويقرعون الاجراس تنبيهاً للمارة حتَّى يفرُّوا من طريقهم ولا تصدمهم العربات في عدوها السريع . واكثر رجال المطافيء في اوروبا يسيرون على مثل هذا عند حصول الحرائق ولكن الاميركان امتازوا بحسن نظامهم وسرعة قيام المطافيء عندهم الى محل النار وايصال المساكن كلها باجراس كهربائيَّة الى مقر العمل حتَّى ان مدينة لندن مع اشتهارها بالنظام والاتقان في كل الاعمال لما ارادت ان توصل اعمال المطافيء الى درجة الكمال ارسلت الكبتن شاو احد رجالها المشهورين الى مدن اميركا ليتعلم فيها طرق الاميركان وينقل المفيد منها الى بلادهِ

وسرنا في صباح اليوم التالي على القطار الخاص الى اقليم الزيت ووقفنا في بلدة تعرف باسم اويل ستي او مدينة الزيت وبعد الغداء في الفندق الذي اعدَّ لنا توجهنا الى مناجم البترول وكنت اظنها في ارض قاحلة قفرة شوَّه الزيت ظاهرها واحرق الكلاء والعشب فلم يبقَ غير منظر قبيح ورائحة كريهة فرأَيت الحال على غير ما ظننت لان الارض هنالك مكسوة كلها بالخضرة البهية وفيها مئات من الآبار يستخرج زيت البترول منها وهي تختلف حجماً وعمقاً فمنها ما يقل عمقهُ عن ثلثمائة قدم ومنها ما يزيد عن ثلثة آلاف وهي كلها تستخدم فيها الطلمبات لاخراج الزيت منها الى اقنية تجري فيها جداولهُ وتصب بعد ذلك في حوض كبير ومنهُ يؤْخذ الزيت ويعلل بالطرق المعروفة عندهم ثم يوضع في الصناديق الصفيحية ويرسل الى جوانب الارض . وهو متى خرج من البئر يعرف بصفائهِ ولكن النزح يؤَثر فيهِ فانهُ يختلط بالاكدار كلما اخذ منهُ شيءٌ وقلَّ الموجود في البئر فاذا كثرت اكدارهُ تركوهُ يوماً او يومين ريثما يعود الى النقاء ثم عادوا الى نزحهِ . وبعض

هذه الآبار تنشف بعد نزحها مرات معلومة فيتركها اصحابها و يحفرون آباراً اخرى
على مقربةٍ منها وهم يربحون منها الاموال الطائلة حتَّى ان اكبر اصحاب الملايين
اليوم هم تجار الزيت واصحاب الاسهم في سكك الحديد . وكان احد المهندسين
الاميركيين مدة وجودنا عند هذه الآبار يشرح لنا طرق استخراجها وشحنها وتنقيتها
ويوضح كل ما اشكل علينا حتَّى اذا انتهينا من هذه الفرجة عدنا الى القطار فعاد
الى المسير في وسط اراضٍ شهيَّة ومناظر بهيَّة ظهر لنا في آخرها بحيرة مشيغان
وهي اكبر بحيرات اميركا وليس لها في اوروبا نظير من حيث الاتساع طولها ٣٦٠
ميلاً وعرضها ١٠٨ وعمقها ٩٠٠ قدم . وتقدمنا الى ما وراء هذه البحيرة فمررنا
ببحيرة اصغر منها تعرف باسم تشور وبعد ١٢ ساعة وصلنا الى بلدة اري بنيت على
بحيرة بهذا الاسم ولها منظر بديع وهي من الاماكن التاريخية في الولايات المتحدة
حصل فيها معركة بين الانكليز والاميركان في الحرب الثانية بعد الاستقلال وكان
النصر في هذه المعركة للقائد الاميركاني بري فانهُ حطم سفن الانكليز وملك الموقع
سنة ١٨١٣ . وبتنا تلك الليلة في فندق ريد بهذه المدينة . وفي ثاني الايام اراد
حاكم المدينة ان يدعو المندوبين الى رؤية البحيرة وجوانبها وهي من البحيرات
المذكورة طولها ٢٩٠ ميلاً وعرضها ٦٠ ميلاً ولها اتصال ببحيرتي هورون وبحيرة
اونتاريو ويخرج منها نهرا دتروا ونياغارا فاستأجروا لهذه الغاية باخرة جميلة قمنا فيها
وسارت تجري في ماء البحيرة تارةً توغل في عرضها وطوراً تتنقل بين الشطوط
وتشرح الصدور بمرأى هاتيك الضفاف البهيَّة والمنازل العظيمة التي رُصّعت بها تلك
الارض الطيبة فعدنا في المساء وكلنا السنة تلهج بحسن تلك المناظر

✻ بفالو ✻ وتركنا هذه البلدة في اليوم التالي فاستقرَّ بنا النوى بعد
ذلك في مدينة بفالو وهي من مدن اميركا العظيمة التي تقدمت تقدماً سريعاً لا مثيل

لهُ في تاريخ المدن الاوروبية لانها بنيت في سنة ١٨٢٥ وعدد سكانها الآن يزيد عن ثلثمائة الف وهي في وسط سهول فسيحة وفيها مروج خضراء وحدائق غناء وقد اطلق عليها اسم بفالو او جاموس لانها كثيرة المرعى ولان هذا الحيوان يستقي من نهرها وهي ذات هواء طيب وماء عذب يقصدها المهاجرون من كل ناحية وتزيد على نسبة كبرى كما تقدم القول وفيها معامل مشهورة للجعة والصابون والنشا يشتغل بها الوف من العمال اكثرهم من الالمانيين والارلنديين و يصدر من معاملها لهذه الاصناف الثلاثة ما تقدر قيمتهُ بمائة مليون ريال كل سنة

❊ نياغارا ❊ ويعلم القارئ ان غاية هذه السياحة اللطيفة الوصول الى نياغارا وهي اعظم شلالات الارض طرًّا واكثرها غرابةً وجمالاً قلَّ ان يجيء الولايات المتحدة زائر او سائح ولا يقصدها وعلى ذلك فنحن عدنا الى المسير حتَّى وصلنا الى هذه الشلالات العظيمة وهي واقعة في حدود الولايات المتحدة من جهة الشمال حتَّى ان قسماً كبيراً منها تابع لبلاد كندا الانكليزية فبعد ان استرحنا قليلاً في احد الفنادق قمنا لنرى اعظم المشاهد التي جئنا لاجلها وهي تلك الشلالات العجيبة التي يلتقي فيها اربع بحيرات كبرى هي اري وهورون ومشيغان وسوبيريور يخرج منها نهر نياغرا في عرض ٤٧٥٠ قدماً وينصب فيهِ من الماء نحو ١٥ مليون قدم مكعب في كل دقيقة وهذا المقدار الهائل من الماء ينحدر من علو ١٦٧ قدماً الى وادٍ كبير الصخور فينحط عليها بقوة لا توصف ويحدث ضجة تصمُّ الآذان ومنظرًا لم تكتحل بمثلهِ عين انسان . هذا هو الجانب الاميركي من الشلال العظيم ومجموع الشلالات المعروف باسم نياغارا وتجاههُ القسم الكندي وهو كثير الاتساع يعرف باسم "نعل الحصان" لانهُ يشبه النعل في تكوينهِ ويجري الماء هنالك في عرض ٣٠٠ اقدام فينحط من علو ١٥٨ قدماً الى وادٍ بهيج

ولشدة انحدار الماء يتكوَّن منهُ قوس من القطرات يحيط بها هالة من الضباب
تزيد منظرهُ رونقاً ومهابةً وما اخطأَ القائلون ان نياغارا انخم ما في الطبيعة من
المناظر ولطالما تغنى شعراء الفرنجة في وصف هذه الاماكن العجيبة وعني المصورون
برسمها حتَّى ان واحداً منهم قضى ١٧ عاماً في رسم وتصوير نقلاً عن بدائع الطبيعة
في ذلك المكان . وقد اهتمَّ الانكليز والاميركان في بناء الحواجز والارصفة حول
هاتيك السيول المتدفقة وبنوا الفنادق والمنتزهات الى جانبها فصارت السياحة
حول نياغارا من الذ ما يمكن التمتع بهِ . هذا غير انهم اهتدوا من عهدٍ قريب الى
استخدام القوة الكبرى الناشئة عن انحدار الماء في تلك الشلالات لتوليد الكهربائية
وهم الآن ينيرون بعض المدن بالقوة الكهربائية المتولدة منها وفي نيتهم ان يتوسعوا
في العمل ويجروا القوات وينيروا الجهات بهذه القوة الغريبة . والذي يقف الى
مقربةٍ من ذلك السيل المنحدر ويتأمل غرائب الطبيعة يضيع في التأمل وينسى
الذي كان فيهِ واذا كان مع صديق الى جانبهِ لم يسمع لهُ قولاً ولو صرخ بملء صوتهِ
لان هدير الماء في انحدارهِ وصوت التطامهِ بالصخور يصمُّ الآذان والماء اذا ما
استقرَّ في تلك الاودية بعد انحدارهِ الغريب سار في النهر الذي يقل عجيجهُ حيناً
وحيناً يصل مقدار الماء الهائل الى مضيق من الارض يجري فيهِ او الى نقطةٍ من
مجراهُ تكثر فيها الصخور فينشأُ عن ذلك منظر يقرب في الغرابة من انحدار ذلك
السيل الغريب لان الماء تتعالى امواجهُ ويشتد في السير هياجهُ فيؤَثر ذلك على
ذهن السامع والرائي تأثيراً لا يمحوهُ الزمان ولو طال

وقد مرَّ بك القول ان القوم اهتموا لتشييد الفنادق واقامة المنتزهات حول
هذه الشلالات وساعدهم على هذا خصب الارض وكثرة الماء يروي الغرس والزرع
حتَّى ان الاشجار التي تنمو على ضفاف تلك المجاري تكبر الى حد عجيب وهم قطعوا

بعضاً منها وعرضوها في المعرض مع غرائب البلاد. وقد كان اجتماع المحاسن الطبيعية في هذا الموضع داعياً الى توافد الافراد والجماعات عليهِ من كل صوب فلا يقل عدد الزائرين كل عام عن نصف مليون و كثير من الذين يتزوجون في الولايات المتحدة يقصدون نياغارا في الشهر الاول بعد الاقتران وهو يعرف عندهم بشهر العسل فيختلي المرء بعروسهِ مدة الشهر في ارض كلها دواعٍ الى الفكر والتأمل وتناسي زحام الدنيا ومشاغلها و يروق للمتزوجين ذلك الشهر . وفوق هذا فان بعضاً من اصحاب الهوس تعلقوا من عهد قريب على امرٍ ينهى عنهُ العقل وهو ان ينحدروا مع الشلال في نياغارا و يصلوا الى طرفهِ الاخير سالمين وفي ذلك من الخطر العظيم ما لا يخفى ولكن كثيرين منهم حاولوا ذلك فراحوا ضحية الهوس والمخاطرة الكبرى وكان اكثرهم يضعون انفسهم في براميل محكمة السد عليها تقيهم من ضغط الماء وفعل الامواج المتلاطمة فما نجا منهم احد وكان في جملة هؤلاء الناس انكليزي اسمهُ الكبتن وب اجتاز بحر المانش الكائن بين فرانسا وانكلترا سباحةً ولم يعبأ بكثرة امواجهِ ونال من وراء ذلك شهرة وجمع لهُ بعضهم مكافأة بالاكتتاب بلغت الف جنيه. فذهب هذا الرجل بعد حين الى نياغارا مع امرأتهِ وهناك اراد فعل المستحيل ولم يصغِ لنصائح امرأتهِ والحاحها وكانت النتيجة انهُ اختنق في عباب ذلك البحر العجاج ولم يقف لهُ الباحثون على اثر وكان قد قصد نياغارا لتمضية شهر العسل مع عروسهِ فخيب منها الآمال . وقد خربت جسور بنيت فوق هذا التيار لقوة سيرهِ فجعلوا الآن كل الجسور من النوع المعلق التي تقف على عمد في طرفي الارض من الجانبين وليس لها قوائم ولا عمد في الماء

ولما انتهينا من التأمل في بدائع نياغارا اجتزنا الحدود ودخلنا مدينة اونتاريو في بلاد كندا التابعة للدولة الانكليزيَّة وكان البعض منا يودون لو تطول

الاقامة هنا زماناً ولكننا عدنا باشارة اولياء الامر الى القطر وسافرنا الى مدينة روتشستر وهي يبلغ عدد النفوس فيها نيف ومائة وثمانين الفاً وقد بنيت على ضفة نهر جنسي وعلى مقربةٍ منها شلالان ينحدر الماء في اولهما من علو ٢٥ قدماً وفي الثاني من ارتفاع ٨٥ قدماً . والماء هنالك عذب نقي يشبه الفضة في لونهِ لذَّ لنا الشرب منهُ . وعلى ضفاف ذلك النهر البهي عدة معامل منها معمل للجعة (البيرا) لما علم صاحبهُ بقدومنا دعانا للتفرج على محلهِ فسرنا اليهِ وهناك فتحت لنا البراميل الصغيرة هديةً من صاحب المعمل فشربنا وشكرنا وعدنا الى المسير حتَّى وصلنا بحيرة سنكا وهي مشهورة بجمالها طولها ٣٨ ميلاً وعرضها يختلف ما بين ٣ اميال و ٦ وعمقها يزيد عن ٦٠٠ قدم ولها مزيَّة انها لا تجلد في فصل الشتاء . وقد بني على شطوطها منازل عظيمة وقصور فخيمة لها الحدائق الغناء فسرحنا الطرف زماناً بمناظرها وتابعنا السفر حتى بلغنا خور واتكنس وهو من المشاهد العجيبة لا مثيل لهُ في اوروبا طولهُ نحو ميلين ونصف وعمقهُ ٣٠٠ قدم وفيهِ صخور هائلة الحجم واعشاب بريَّة بالغة منتهى الضخم فيحار الانسان في وصف غرابتهِ وفخامتهِ ويعلم منهُ مقدار عظمة الطبيعة وتقصير المناظر الصناعية عنها في الفخامة والغرابة . وفوق هذا الخور جسر كبير مررنا عليهِ ثم نزلنا الى قسمٍ من اسفلهِ على سلم من الخشب والصخور ترشح ماءً من فوقنا ولذلك المنظر وقار ومهابة وصعدنا من الناحية الثانية الى فندق بني في ذلك الموقع البديع ومنهُ يرى المرء البحيرة والاودية والشعب والسهول المحيطة بتلك البقعة فبتنا هنالك ليلةً واحدة وقمنا في الصباح التالي الى مدينة وليمسبورت فلما دخلناها اطلق ٢١ مدفعاً وجاء حكمدار البوليس ومعهُ نفرٌ من رجالهِ لاستقبال المندوبين وبتنا في تلك المدينة ليلةً اخرى

وفي اليوم التالي وقف بنا القطار بعد مسير ساعة في احدى القرى الصغيرة

لنرى كيف تقطع الاخشاب وتنقل فرأينا الرجال يقطعون الاشجار ويلقون بها الى النهر من داخل البلاد فتسير من نفسها مع الماء حتَّى تبلغ هذا المكان فيلتقطها اصحاب المعامل بالآلات التي ترفع القطع الكبرى كما يرفع المرء القلم باصابعهِ وتنتشلها من الماء فتدخلها في آلات اخرى في دور اعلى من البناء فتقشرها وتدفعها الى آلات اخرى تنشرها الواحاً وهذه تدفعها الى مكان ترص بهِ بعضها فوق بعض الى ان يجيء زمان ارسالها الى المواضع البعيدة وهي تشحن في قطر خاصة لها والعربات والخطوط وبقية اللوازم في داخل المعمل وقد قطعت امامنا عدة اشجار بالآلات البخارية باسرع من لمح البصر. وفي ذلك المعمل الواح مقطعة واخشاب تشغل مساحة لا تقل عن مائة فدان من الارض. وزرنا بعد ذلك مدينة هارسبرج دعيت على اسم مؤسسها المستر هارس وهي على نهر صغير وفيها حديقة لطيفة في مركزها تمثال للمستر هارس المذكور والى جانبهِ جذع الشجرة التي ربطهُ اليها الهنود حين احرقوهُ حيًّا في سنة ١٧١٨. وكان ذلك ختام السياحة البديعة التي اعدها مديرو المعرض لمندوبي الدول واستغرقت ١٢ يوماً رأينا في خلالها من كرم اصحاب البلاد ولطفهم ومن اعتناء اولياء الامر بشأننا ما اطلق السنتنا بالشكر وغرس ذكر تلك السياحة في اذهاننا الى آخر الزمان

﴿ عودٌ الى المعرض ﴾ ولما عدنا الى اعمالنا في المعرض كان فصل الصيف قد دخل وهجر اهل اليسار فلادلفيا وقصدوا مصايفهم في الجبال او على شاطيء البحر واشهر هذه المصايف فرضة لونغ برانش على المحيط عرفت بحماماتها ويرد اليها نحو ثمانين الف زائر وزائرة كل سنة وفيها الفنادق الكبرى كثيرة العدد على شاطيء الاوقيانوس بطولهِ. وللكبراء قصورٌ في ذلك الموضع منها قصر للجنرال غرانت رئيس الجمهورية وفيها السباق المشهور للخيل يعقد مرةً في العام وتكثر مسابقة الناس

اليهِ وتراهنهم على اي الخيل يسبق فقصدت هذا المحل ونزلت في فندق كان فيهِ بعض عائلات اعرفها . وفي اليوم التالي ذهبت الى الحمامات ورايت هنالك لاول مرة ان الرجال والنساء يستحمون في حمام واحد بعضهم مع بعض فانكرت هذه العادة وهي ينكرها كل شرقي ولكن الذين يألفونها لا يرون فيها نكرًا لاسيما وان المستحمين والمستحمات يسترون الابدان بملابس خاصة للحمام ولا يأتون ما يوجب النفور . وقد كان هذا الامر قاصرًا على الاميركان فصار الاوربيون يأتونهُ في عدة اماكن بحريَّة . وقد شرحت لذة الاقامة في الحمامات البحريَّة عند الكلام على هولندا و بلجكا . وقضيت في تلك الناحية زمانًا الى ان اتصل بي خبر وصول جلالة امبراطور البرازيل الى فلادلفيا وعرفت ان في نيتهِ التفرج على المعرض فعدت اليهِ حتى اكون على استعدادٍ لمقابلتهِ اذا اراد زيارة القسم المصري . وبعد ذلك ابلغنا ولاة الامر ان جلالتهُ سيقابل مندوبي الدول في قاعة المدرسة الجامعة بواسطة سفيرهِ في الولايات المتحدة فذهبنا في الاجل المضروب ولقينا من مؤانستهِ وضعتهِ شيئًا كثيرًا وكان جلالتهُ يحدث كلًّا بما يسرهُ فلما وصل اليَّ اشار عليَّ ان ادقق في درس طرق التعليم ونشر المعارف في الولايات المتحدة لان مصر في حاجة الى ذلك لترقية شعبها . وفي ثاني الايام وصلني كتاب من مندوب دولة البرازيل يخبرني فيهِ ان جلالة الامبراطورة عزمت على زيارة القسم المصري في المعرض فانتظرت قدومها في الساعة المعينة ولما جاءَت مع المندوب البرازيلي درت مع جلالتها افصل لها واشرح وهي تبدي الاعجاب والمسرة حتى انتهت من قسمنا وخرجت شاكرة متلطفة

ودعاني بعد هذه الامور حضرة الصديق المستر ولش مدير المعرض الحالي الى الاقامة في مصيفهِ اياماً في جرمانتون من ضواحي فلادلفيا فلبيت الطلب

واقمت معهُ ومع عائلتهِ ثلاثة ايام وتلك عادة عند هؤلاء القوم الكرام يدعون الغريب الى منازلهم و يرحبون بهِ ترحيباً وهم يعدون كل كلمة يقولها عن بلادهِ علماً ثميناً حتَّى اني لما رأيت مندوب بلاد السويد بعد هذا اخبرني انهُ تعرف بعائلة دعتهُ الى مصيفها اياماً وهنالك تعرف بعائلة اخرى فدعتهُ وعرفتهُ بعائلة ثالثة واستمر على ذلك مدة شهر كامل يتنقل في تلك المصايف معززاً اينما حل. وهم يتبادلون الدعوات بعضهم مع بعض بمعنى ان الذي لهُ مصيف على البحر يدعو صديقاً مع عائلتهِ لهُ مصيف في الجبال ثم يزورهُ مع عائلتهِ فهم يتمتعون بكل اطايب النزهة على اشكالها بمثل هذا النظام اللطيف. وقد كان من حسن حظي اني اقمت تلك الايام في بيت المستر ولش المذكور وهو صار سفيراً لبلادهِ في انكلترا بعد ان انتهت مهمتهُ في المعرض وكان لهُ ابنة لها ولع بركوب الخيل فدعتني في احد الايام الى الركوب والمسابقة على ظهور الجياد وقدمت لي فرساً مثل فرسها فعملت باشارتها ووقف والدها حكماً بيننا يحكم للسابق بالفضل فسبقتها في اول الامر ولكنها جدت في المسير ووصلت الى الشأو الاخير قبلي فصار الواقفون يصفقون لذلك تهنئة للفتاة باحراز قصب السبق. وتمشينا من هنالك الى النقطة التي حصلت فيها المعركة بين اللورد هو الانكليزي والجنرال واشنطن محرر اميركا وكان الفوز فيها للاول. ورافقت مضيفي وعائلتهُ يوم الاحد الى الكنيسة وهم لا يهزأُ شبانهم بالمتعبدين كما يفعل شبان غيرهم بل يعدون ذلك دليل العلم والتهذيب

ودعاني بعد ذلك المستر شاربلس من وجهاء فلادلفيا الى مصيفهِ في شستر فسرت اليهِ وقضيت اياماً مع الرجل وعائلتهُ في هناء ونعيم نقضي الاوقات بلعب الاكر وركوب الخيل والنزهة في قارب بديع يمسك المستر شاربلس دفتهُ ويقذف اولادهُ وبناتهُ ترويضاً لابدانهم. وعدت بعد هذه الدعوات الى مركزي في فلادلفيا

وحصل في هذه الاثناء اني كنت اتمشى في بعض شوارع المدينة وسمعت الناس يجرون ويقولون ان النار اضرمت في المعرض فخشيت ان يكون ذلك في القسم المصري وتضيع الثمنات التي لا تعوَّض فيهِ وركبت عربة اسرعت بي الى جهة المعرض والتقيت بعربات الاطفاء مسرعة فلما دخلت حديقة المعرض علمت ان النار في فنادق بعيدة عن قسمنا ورأيت رجال المطافيء يصبون سيلاً مدراراً على النار ويخربون الابنية المجاورة لها حتى يحصروها في دائرة معينة فاخمدت النار بعد ان اتلفت ثلاثة فنادق بعد اشتغال ساعتين ولم يصب احد الناس بضر . وظللت في تنقل بين ضواحي فلادلفيا حتى جاء الموعد الذي اخترتهُ لزيارة عاصمة الولايات المتحدة وحضرة رئيسها بناءً على دعوتهِ ودعوة قرينتهِ كما رأيت في الفصول السابقة

واشنطن

والآن انقدم الى عاصمة هذه الدولة العظيمة واصف بعض مشاهدها الكبرى ولا بدَّ من ذكر شيء عن نظام حكومتها حتى يكون القاريء على بينةٍ من امرهِ . واني ذاكر هذا النظام على وجه الاختصار وسوف اجعل ذكرهُ في خلال الكلام عن المشاهد حتَّى لا يشعر القاريء بشيء من الملل وتتم الفائدة

فقد مرَّ بك ان حضرة زوجة الرئيس غرانت لما جاءت المعرض دعتني الى زيارة "البيت الابيض" في مدينة واشنطن وهذا اسم القصر الفخيم الذي يقيم فيهِ رئيس الجمهورية مع عائلتهِ مدة تولي الرئاسة بني على نفقة الدولة واكثرهُ من الرخام الابيض وفيهِ كل ما يلزم من لوازم المعيشة المنزلية والخدام تصرف لهم رواتبهم من الحكومة فلا يتكلف الرئيس غير نقل امتعتهِ وخدمتهِ الخاصة فقط

حتَّى اذا انقضت مدتهُ ترك القصر لمن يخلفهُ في المنصب . وفي هذا القصر غرف فسيحة بديعة الاتقان فرشت بالرياش الفاخر على نفقة الدولة ايضاً لاستقبال وفود الناس والسفراء ورجال الامة وغيرهم من الذين لا غنى للرئيس عن مقابلتهم وهو في كل اسبوع يقابل من شاء مقابلتهُ من الناس ويصافح الصغير والكبير ويسير بين رجال الدولة واصغر العمال سيراً واحداً فلا تعرفهُ من بقية الرجال الاَّ اذا دلك اليهِ عارف بحالهِ . ومدة الرئاسة عندهم اربع سنوات يمكن ان يعاد الانتخاب من بعدها ولكن القوم تعودوا من بعد ايام استقلالهم الاَّ يعيدوا انتخاب الرجل للرئاسة اكثر من مرة واحدة لئلا تطول مدة حكمهِ ويستأثر بالامر فيكون في ذلك رجوع الى الحكم الملوكي الذي ينفر منهُ الاميركان نفوراً كبيراً . ويعد الرئيس بمثابة رئيس الوزارة والملك في الممالك الدستورية فهو اوسع سلطة واكبر قوة من ملكة الانكليز او ملك ايطاليا ولهُ حق تعيين الوزراء من اعوانهِ دون سواهم وكذلك هو يعين السفراء والقناصل من اهل حزبهِ . ولهُ راتب قدرهُ ٥٠ الف ريال في السنة اي عشرة آلاف جنيه فقط وكان في ما مرَّ خمسة آلاف . ويجوز لمجلس الشيوخ محاكمتهُ وعزلهُ اذا ثبت عليهِ اثم ولهُ الحق في رفض كل قرار لمجلس الامة الاَّ اذا اصرَّ المجلس على القرار بعد رفضهِ ولم يحصل ذلك الى الآن غير ان احد الروساء السابقين واسمهُ اندرو جونسون اتهم بامور ووقف امام مجلس الشيوخ للمحاكمة فلم يقر المجلس على ادانتهِ

ووكيل الرئيس، قليلة خصائصهُ ولكنهُ ينتخب مثل الرئيس لاربع سنوات وهو يرأس جلسات مجلس الشيوخ الذي سيأتي ذكرهُ واذا مات الرئيس او قضت عليهِ علة بالانسحاب لم ينتخب سواهُ للرئاسة بل قام الوكيل باعمالهِ الى آخر المدة

واني بناءً على دعوة الرئيس غرانت وقرينتهِ تركت فلادلفيا في قطار مرَّ

على ضفة سكولكيل ودلوار وهما النهران المحدقان بالمدينة واخترق بعد ذلك سهولاً فسيحة فوصل واشنطن بعد ست ساعات وذهبت من المحطة توًّا الى فندق فبتُّ ليلتي وقمت في الصباح التالي في عربةٍ الى قصر رئيس الجمهورية فبعد سير قليل وقف الحوذي وقال لي ان هذا هو "البيت الابيض" فاخذني العجب لانني لم ارَ شيئاً من ادلة الرئاسة والملك حول ذلك البيت فلا حراس يخطرون ولا جنود يقيمون ولا رجال بملابس الابهة والزخارف يظهرون وفي ذلك مخالفة لكل الممالك الاوروبية فنزلت من العربة وقرعت الجرس عملاً باشارة الحوذي فظهر لي خادم فتح الباب وقال من تريد فاعطيتهُ اسمي على بطاقة الزيارة وسألني اتريد مقابلة الرئيس نفسهُ ام قرينتهِ ام صهره المستر سارتوريوس وجميعهم خرجوا من المنزل قلت اذاً قدم ورقتي هذه الى جناب الرئيس بنفسهِ وانصرفت وقد اذهلني بساطة الحاكم على دولة من اقوى دول الارض وعجبت لقوة النظام الذي يسود بلا جنود والحرية التي تساوي رئيس الامة الكبرى باحقر افرادها . وعدت الى الفندق اقيم فيهِ فاتاني في اليوم التالي مديرهُ وبيدهِ بطاقة الزيارة باسم الجنرال غرانت رئيس الجمهورية وعليها دعوة للعشاء في الغد عند الساعة السابعة مساءً وعلمت ان احد المعاونين في القصر الابيض احضر اليَّ تلك البطاقة . فذهبت الى البيت الابيض في الساعة المذكورة وادخلني الخادم الى قاعة جميلة ما لبثت فيها قليلاً حتَّى جاءتها زوجة الرئيس ثم حضر هو ومعهُ الجنرال شريدان وزير الحرب وهو من ابطال الحرب الاميركيَّة الاهليَّة ايضاً وذهبت معهم الى قاعة الطعام فوجدنا ابنة الرئيس وصهره وجلسنا جميعاً على المائدة وتناولنا العشاء ونحن نتحدث عن امور كثيرة اهمها عن مصر ومشاهدها واحوالها . ولم ارَ في هذا القصر شيئاً يوجب الذكر غير انهُ في فرشهِ وادواتهِ ونظامهِ ومنظرهِ لا يختلف عن بيوت الاكابر من الاميركان

وكثيرون من اصحاب الملايين لهم قصور اعظم من هذا القصر وانخم انفقوا على زخرفها واتقانها اضعاف الذي انفق على بيت رئيس الجمهورية . ولطالما رأيت هذا الرئيس العظيم مدة اقامتي في واشنطن نازلاً من بيتهِ الابيض او في الشوارع المعروفة يتمشى وحدهُ مثل بقية الناس ويداهُ من وراء ظهرهِ حسب العادة التي اشتهرت عنهُ

واما مشاهد هذه المدينة غير البيت الابيض الذي يقيم فيهِ رئيس الجمهورية فاهمها الكابتول وهو دار الندوة الاميركية حيث يجتمع نواب الامة وشيوخها للبحث في مهام الدولة وما يلزم لها من النظامات والشؤون . ومعلوم ان حكومة هذه الجمهوريَّة مثل غيرها من الحكومات الدستوريَّة لها رئيس هو الذي تقدم ذكرهُ ومجلسان احدهما مجلس الشيوخ يرأسهُ وكيل رئيس الجمهوريَّة كما تقدم واعضاؤهُ ٨٨ كبيرًا ينتدبون من كل ولاية اثنين وعدد الولايات المتحدة الآن ٤٤ ولاية . وتنحصر اعمال هذا المجلس في التصديق على مشروعات النواب ولكن لهم سلطة كبرى ليست لغيرهم من اعضاء المجالس العليا في اوروبا فانهم يعدون المجلس الاعلى في الجمهوريَّة يحاكم امامهُ رئيس الجمهوريَّة والوزراء اذا ارتكبوا في وظائفهم ما يوجب هذه المحاكمة . ولهم حق المعارضة للرئيس اذا انتخب للمناصب العليا غير الذين يليقون لها . وفوق هذا فان لهذا المجلس حق التصديق على المعاهدات او المحالفات التي يبرمها الرئيس والوزراء مع الدول الأُخرى فهم بهذا لهم سلطة فوق كل سلطة في الولايات المتحدة وكبراء الاميركان يتسابقون على احراز العضوية فيهِ ويدفعون الاموال الطائلة لنيل هذا الشرف فترى اكثر الشيوخ الحاليين من الاغنياء اصحاب الملايين. ولكل عضوٍ من اعضاء مجلس الشيوخ هذا او السناتو كما يسمونهُ خمسة آلاف ريال في السنة او الف جنيه وهم ينتخبون لمدة ست سنوات يجوز اعادة انتخابهم من بعدها وفي كل سنة يتغير ثلثهم ويبقى الثلثان الى ان تنتهي

السنوات الست فيتغير الكل او يعاد انتخابهم . وهم يجتمعون في قاعة كبرى من قاعات الكابتول التي نحن في شأنها ولكلٍّ منهم مقعد خاص بهِ امامهُ منضدة صغيرة ودرج لكتابة المذكرات وحفظ الاوراق وفي ناديهم اماكن كثيرة للزائرين على اختلاف انواعهم ولمكاتبي الجرائد فهم في هذا مثل بقيَّة المجالس النيابيَّة في كل الممالك الدستورية

وفي الكابتول ايضاً قاعة كبرى لمجلس النوَّاب وهم الآن ٣٥٦ نائباً ينتخبون من الولايات كلها على نسبة عدد السكان في كل ولاية ولكل نائب راتب مثل راتب الشيوخ اعني الف جنيه في السنة وهم ينتخبون كل اربع سنوات مع رئيس الجمهوريَّة وينتقون من اعضاء المجالس النيابية في كل ولاية فليس يخفى ان الولايات المتحدة مجموع ولايات مستقلة تمام الاستقلال في امورها الداخليَّة ولكلٍّ منها نظام يوجدهُ رجالها وحاكم ووكيل الحاكم واحكام وقوانين خاصة بها ومجلسان لسن القوانين . وبقيَّة ما يقال عن مجلس النواب مثل الذي قيل عن مجلس الشيوخ واسم المجلسين عند الاميركان (كونجرس) كما ان اسم مجلسي النواب والشيوخ عند الفرنساويين والانكليز (بارلمنت)

وفي قصر الكابتول غير هذه القاعات اماكن اخرى لا محل لذكرها هنا . والكابتول بناءٌ بديع اسس على اكمة قائمة بنفسها مرتفعة حوالي ٩٠ قدماً . وطول هذا البناء ٧٥١ قدماً وعرضهُ ٣٢٤ وعلو قبتهِ ٢٨٨ قدماً في رأسهِ تمثال الحريَّة . وتعد هذه الدار من اعظم ابنية المتمدنين فانهُ انفق عليها نحو ثلثة ملايين ومايتي الف جنيه ولها ثلثة مداخل كبرى فالذي يدخلها من الباب الاوسط يرى في صدر البناء تمثال كولومبوس مكتشف اميركا والى يمينهِ من الداخل تمثال الاستقلال الاميركي وعند الباب الشمالي تمثال يشير الى تنصيب واشنطن في رئاسة الولايات

المتحدة وتماثيل اخرى تمثل وصول كولومبوس الى هذه القارة سنة ١٤٩٢ والتوقيع على قرار الاستقلال سنة ١٧٧٦ وتسليم كورنوالس القائد الانكليزي سنة ١٧٨١ ورسم الولايات الاصليَّة وعددها ١٣ وغير هذَا مما يوضح تاريخ اميركا وتقدمها من سنة الاكتشاف الى سنة المعرض الذي كنا في شأنهِ

هذَا كلهُ تجدهُ في بناء الكابتول العظيم ولا بد قبل الانتقال منهُ ان نخبر القارئَ ان حكام الولايات المتحدة ورئيس جمهوريتها والنواب والشيوخ وكل الذين يجتمعون في هذا المحل وذكرنا اسماءَهم ينتمون الى احد الحزبين العظيمين في البلاد وهما حزب (الربوبليكنس) او الجمهوريين وحزب (الدموقراطس) او العاميين وكل من لهُ دخل في سياسة الولايات المتحدة لا بدَّ ان يكون تابعًا لاحد هذين الحزبين ولكن الاكثرية لحزب الجمهوريين من زمان طويل واكثر رؤَساء الجمهورية الذين انتخبوا من بعد الحرب الاهلية منهُ ما خلا المستر كليفلاند رئيس الجمهورية السابق فانهُ زعيم الحزب الديموقراطي . فما دام الحزب الجمهوري لهُ الاكثرية في البلاد فالرئيس يكون منهُ وكذلك السفراءُ والقناصل لان حكومة الولايات المتحدة جرت على عادة تختلف عن عادة الممالك الاوروبيَّة في ترقية سفرائها ونقلهم فان الرئيس هو الذي يعين هؤُلاء القناصل والسفراء في مراكزهم فاذا انتهت مدتهِ وجاءَ رئيس جديد تغير اكثرهم وجاءَ بدلهم اصدقاءُ الرئيس الجديد وفي هذا ما لا يخفى من تسليم المناصب السياسيَّة الى الذين لم يتمرنوا على اعمالها

ويلي الكابتول في الاهمية المكتبة العمومية ولها بناءٌ عظيم تظنهُ قصرًا منيفًا طولهُ ٤٧٠ قدمًا وعرضهُ ٣٦٥ وقد انفقوا عليها مليون ومايتي الف جنيه وفيها اربعة ملايين مجلد يجوز لمن شاءَ ان يطالع الذي يريدهُ فيها وهم كل سنة يزيدون

عدد الكتب حبًّا في ترقية شأن العلم وافادة الجمهور

ودار التحف وفيها من الاواني الصينيَّة الغربيَّة صنعت في الهند والصين واليابان وفرانسا شيءٌ كثير . وفيها قسم للصور من ضمن رسومهِ ستمائة رسم او تزيد تمثل هيئة الهنود ومشايخهم وطرائق معيشتهم ونريد بالهنود هنا اهل اميركا الاصليين وهم جنس منفرد عن غيرهِ من اجناس البشر عرفوا بطول القامة ودقة الانف وحدة النظر واللون النحاسي المميز لهم عن سواهم . وقد كانوا كثارًا في اول الامر ولهم اطلاع واسع على بعض العلوم لا سيما الفلكيَّة منها وآثارهم في بلاد المكسيك وما يليها الى الجنوب تشهد بتقدمهم في العصور الخالية . ولكنهم اصحاب خديعة ومكر وحيلة ينفر الاوروبيون الذين عمروا اميركا منهم وقد حدثت بين الفريقين حروب كثيرة كادت تفضي الى انقراض هؤُلاءِ السكان الاصليين . وفي الولايات المتحدة نحو نصف مليون منهم الآن في الولايات القاصية وهم بلا صوت في ادارة البلاد ولا شأْن ولا نفوذ واكثر اهل الولايات المتحدة يكرهونهم كرهًا شديدًا واذا سجن احدهم لجناية تعمدوا اذيتهُ ولم يصبروا عليهِ الى حين صدور الحكم القانوني . وقد اشتهر هؤُلاءِ الهنود بالفتك الذريع بالفتيات الاميركيات واهاجوا سخط الاميركان عليهم بسبب هذه الفظاعة فصار القوم الآن كلما سجن اثيم لمثل هذه التهمة يتنكر بعضهم ويهجمون على السجن ليلاً فيستاقون الهندي الاثيم ويشنقونهُ بامر انفسهم بدل امر العدالة وهذه عادة غريبة قاصرة على تلك الولايات المتحدة وهم لا يأْتونها الاَّ مع الهنود لاسيما اذا كانت جريمتهم من نوع تعذيب البنات وتعرف هذه العادة الاميركيَّة باسم لينتش وهي من اغرب ما يروى عن الاميركيين

ويلي هذَا المتحف في الاهميَّة بناءٌ عظيم للمتقاعدين او هم ارباب المعاشات

فيهِ قاعات فسيحة تعقد داخلها بعض الجمعيات الحافلة ويمكن ان تضم عشرين الفًا من السامعين

وقصر الاختراعات وهو من اعظم الابنية الانيقة خصَّ بادارة الاختراعات وحصرها في المخترعين وفيها الدلالة الكافية على اتساع نطاق الاختراع والسعي المفيد في بلاد الولايات المتحدة فان عدد الطلبات المسجلة في هذه الادارة لا يقل عن الوف الالوف وفيها مثال او انموذج من كل اختراع يقدمهُ الذين يطلبون ان تحصر منفعة الاختراع فيهم فلا يقل عددها عن نصف مليون مثال متقن الصنع . وقانون الاحتكار والاختراع في الولايات المتحدة كثير المواد ولكنهُ يفي بمراد المخترعين اكثر من قوانين انكلترا وفرانسا وغيرهما واهم موادهِ ان المخترع يحق لهُ ان يحتكر بيع الصنف الذي يخترعهُ او يصنعهُ الى مدة معلومة لا تقل عن عشر سنين وفي بعض الاحوال خمس عشرة سنة لقاء رسوم لا تذكر يدفعها الى خزانة الدولة اقساطًا . فلا عجب اذا نمت الصناعة وكثر الاختراع في ظل دولةٍ هذا نظامها

ويلي ذلك قصور عظيمة للنظارات وهي الخارجيَّة والماليَّة والحربيَّة والعدليَّة والزراعة والبحريَّة والبوسطة وليس للداخليَّة وزارة في واشنطن لان كل ولاية حرة في امورها الداخليَّة ولها وزير خاص بها في قاعدة الولاية . وقد دخلت سراي الخارجيَّة بعد ان ارسلت اسمي الى الوزير وهو يومئذٍ المستر فيش فقابلني وقرأ كتاب توصيةٍ بي جئت بهِ من صديقٍ لهُ في فلادلفيا فرحب بي كثيرًا واراني بعض جوانب الوزارة وفي جملتها قاعة عظيمة حوت رسوم الوزراء الاميركيين جميعهم من يوم تأسيس الجمهورية الى ذلك الحين . وقد دعاني هذا الوزير للعشاء في منزلهِ فلبيت الطلب ووجدت عندهُ المستر سانفورد سفير الاميركان في بلاد البلجيك . وتوجهنا بعد العشاء الى منزل وكيل الوزارة لحضور مرقص واحتفال كبير فلقيت

هنالك النواب والشيوخ والحكام وسراة الاميركان وفي جملتهم بعض من الذين قضوا فصل في الشتاء في مصر وعرفتهم فيها . ودخلت ايضاً وزارة المالية متفرجاً في جوانبها وفيها مطبعة سرية تطبع اوراق الحكومة المتداولة بين الناس كالنقود وعملها سري لا يصل اليهِ العمال انفسهم لان الذي يطبع لا يرى الذي يجمع الحروف والذي يصنع الورق لا يعرف صانع الحبر وهلم جرًّا وفي كل ذلك حذر من التقليد وتحمل الغبن والخسارة . ونظارة المالية هذه تصرف كل ورقة من هذه الاوراق تقدم اليها بقيمتها نقوداً وهي في ذلك مثل بنك انكلترا وبنك فرانسا وغيرهما من المصارف التي تتداول الايدي اوراقها كما تتداول النقود . واذا وجدت اوراق مالية مزوَّرة من هذا القبيل فما على صاحبها الآَن ان يحضر بها الى نظارة المالية فتعطيهِ ورقة بقيمتها وتغير ايضاً الاوراق البالية من كثرة الاستعمال

ومدينة واشنطن مثل الدولاب شكلاً مركزها الكابتول الذي ذكرناهُ ومن هناك تتفرع الشوارع في شكل دائرة وتسمى باسماء حروف الهجاء تسهيلاً واختصاراً . والمنازل والحوانيت كلها منمرة مثل بقية المدن الكبيرة . والشوارع مصقولة بالاسفلت وهي واسعة كثيرة النظافة . وفي المدينة نحو ثلثمائة الف نفس كانوا في اول هذا القرن ٨٠٢٨ فصاروا ٢٣٣٦٤ في سنة ١٨٤٠ وماية وعشرة آلاف في سنة ١٨٧٠ ونحو ماية وخمسين الفاً في سنة ١٨٨٠ . وفي جملة سكانها ٤٠ الفاً من النواب والشيوخ وموظفي الحكومة والسفراء وعائلات هؤلاء الموظفين فلذلك قيل انها مدينة الموظفين والنواب وارتفعت اسعار المأكولات فيها ارتفاعاً كبيراً حتى انها لتعد الآن من اكثر مدن الارض غلاءً . واكثر الخادمين في منازلها من سكانها السود وهم يقربون من خمسين الفاً فيها . وفيها من المشاهد الكبرى غير الذي عددناهُ تماثيل لواشنطن محرر اميركا ومسلة تعرف باسمهِ ايضاً ارتفاعها ٥٥٥ قدماً وكلها من الرخام

الابيض بلغت نفقة انشائها ثلثمائة الف جنيه . ومنها تمثال لافايت القائد الفرنساوي الذي اعان الاميركان على الاستقلال وتمثال مارشال وهو موسس نظام المحاكم والقضاء في الولايات المتحدة

على مثل هذا انقضت زيارتي لعاصمة الولايات المتحدة البهية . واني بعد هذه الزيارة قمت في قطار الى الجهة الشرقية ووصلت مدينة بلتيمور على شاطيء الاوقيانوس الباسيفيكي وهي اسسها ارلندي اسمهُ بلتيمور فأُعطيت اسمهُ وفيها فوق نصف المليون من السكان فهي مدينة عظيمة الاهمية بديعة الموقع . والاميركان يصفون بنات هذا البلد بالجمال كما انهم يصفون بنات غيرهِ بصفات أُخرى فهم يقولون لك ان اذا شئت ان تقترن بفتاة غنية فابحث عنها في نيويورك مقر اصحاب الملايين وان اردت اصلاً كريماً فعليك بمدينة فلادلفيا ومدينة بوسطن واذا كنت تهوى الجمال فاذهب الى بلتيمور . هم يقولون ذلك مع ان اكثر اهل الشرف الباذخ من الاميركان في مدينة نيويورك وضواحيها وهم يعرفون هناك باسم الاربعماية اي انهم من نسل الاربعماية الذين كانوا اول من هجر انكلترا لتعمير تلك الولايات . وقد اشتهر بنات الاميركان بالغنى والمحاسن في هذه الايام الى درجة كبرى لم يسبق لها مثيل وصار اكثر النبلاء والوجهاء من اهل اوروبا يبحثون عن عروس لهم في مدن الولايات المتحدة وبين الالمان والفرنساويين مئات من اصحاب الالقاب تزوجوا الاميركيات وعند الانكليز عدد كبير من اهل الدرجة العليا فعلوا مثل ذلك منهم اللورد راندولف تشرتشل والسر وليم هاركور زعيم الاحرار والمستر تشامبرلن وزير المستعمرات واللورد كرزون والي الهند والديوك اوف مارلبرو من اهل المقام الاعلى عند الانكليز وغيرهم كثيرون . وقد كان في جملة العظماء الذين اسرتهم المحاسن الاميركية البرنس جيروم احد اخوة نابوليون الاول اقترن

بالآنسة باترسون ولم يزل بعض نسلهِ حيًّا الى الآن

وعدت بعد هذه السياحات الى مركزي في فلادلفيا فعلمت من المستر تشايلد ان فيها اثنين من اشراف الانكليز وكبراء مشاهيرهم هما اللورد دوفرن واللورد روزبري . فاما اللورد دوفرن فقد كان مدعوًّا للعشاء في تلك الليلة عند المستر تشايلد ودعيت انا ايضاً وكان اللورد دوفرن يومئذٍ حاكم مستعمرة كندا الانكليزيَّة ثم صار والياً للهند ونقل منها الى الاستانة سفيراً ثم نقل الى رومه فالى باريس ومنها استقال من الخدمة بعد ان شهد جميع الناس انهُ ابرع سفراء هذا الزمان واكثرهم استعداداً لحل المعضلات واوسعهم عقلاً وهو اليوم متقاعد في بلادهِ ولهُ اعتبار عظيم . وقد كان من حسن حظي اني اجتمعت بهِ للعشاء في منزل المستر تشايلد وكان في جملة قولهِ لنا انهُ شديد الميل الى رؤية مصر وآثارها وقد تحققت امنيتهُ هذه لانهُ جاء مصر بعد اخماد الثورة العرابيَّة منتدباً من قبل حكومتهِ لتنظيم حكومتها وتقرير القواعد التي تسير عليها . ويذكر القراء ان مصر سائرة الآن بحسب آرائهِ المنشورة في التقرير المشهور وانهُ كان يدير حركة المسألة المصريَّة مدة وجودهِ في الاستانة. ولما جاء مصر في مهمتهِ المذكورة انتدبني دولتلو رياض باشا يوماً لابلاغهِ كلاماً فلما اجتمعت بهِ ذكرني باجتماعنا في فلادلفيا قبل ذلك الحين بسبعة اعوام . واما اللورد روزبري فاني اخبرني صديقي المستر دركسل الذي مرَّ ذكرهُ ان جناب اللورد هذا ضيف عندهُ ودعاني للعشاء في ذات ليلة فاجتمعت بهذا الرجل العظيم وهو الذي صار بعد ذلك وزيراً للخارجيَّة على عهد غلادستون ثم خلفهُ في رئاسة الوزارة الحرة ولهُ شهرة تدوي بها الآفاق فلست ازيد القراء بهِ علماً . وكان يوم قابلتهُ شاباً تلوح عليهِ ادلة العظمة يكثر من الصمت والتأمل ولكنهُ اذا قال شيئاً كان قولهُ عذباً طليًّا يسحر السامعين

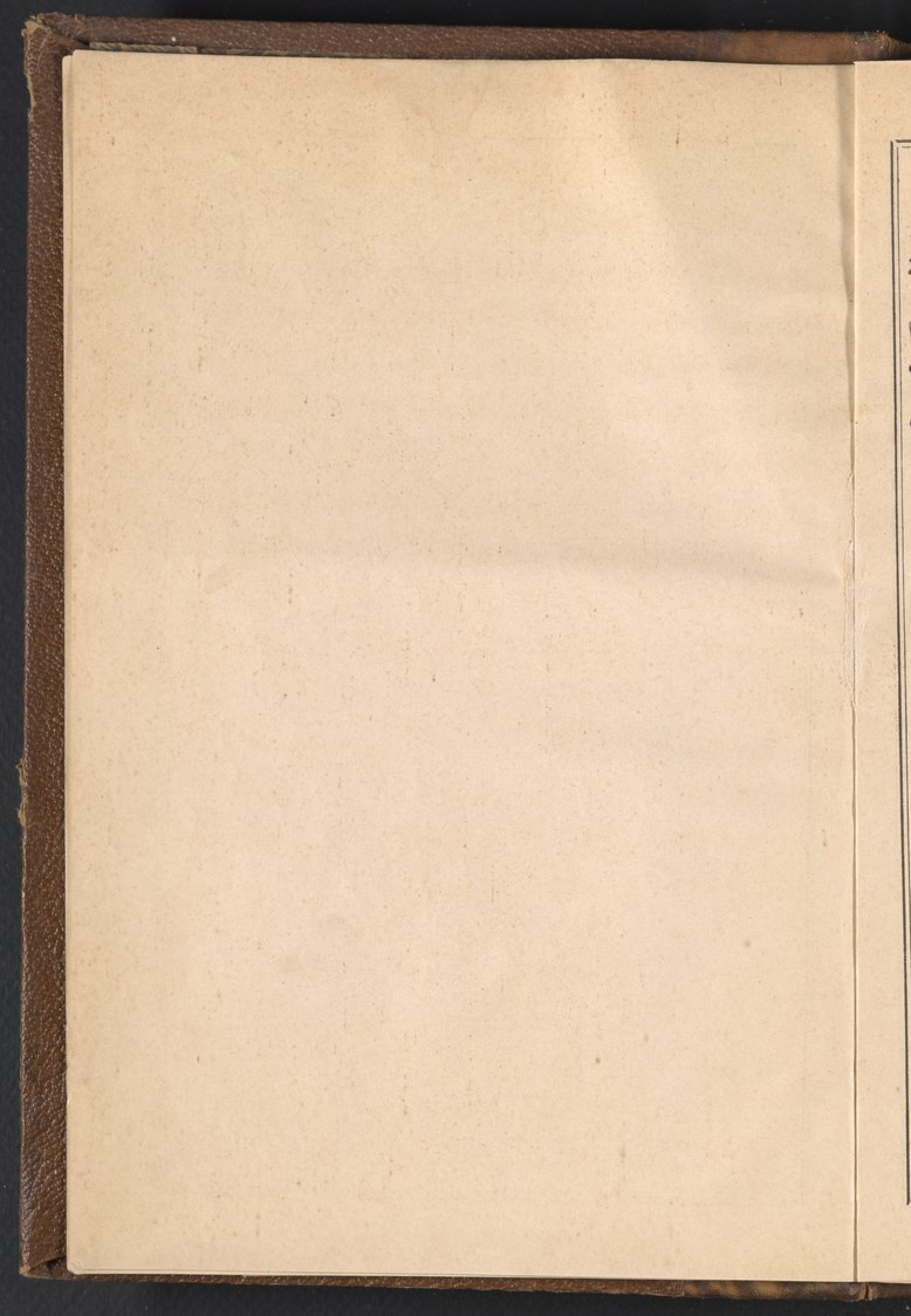
ختام المعرض

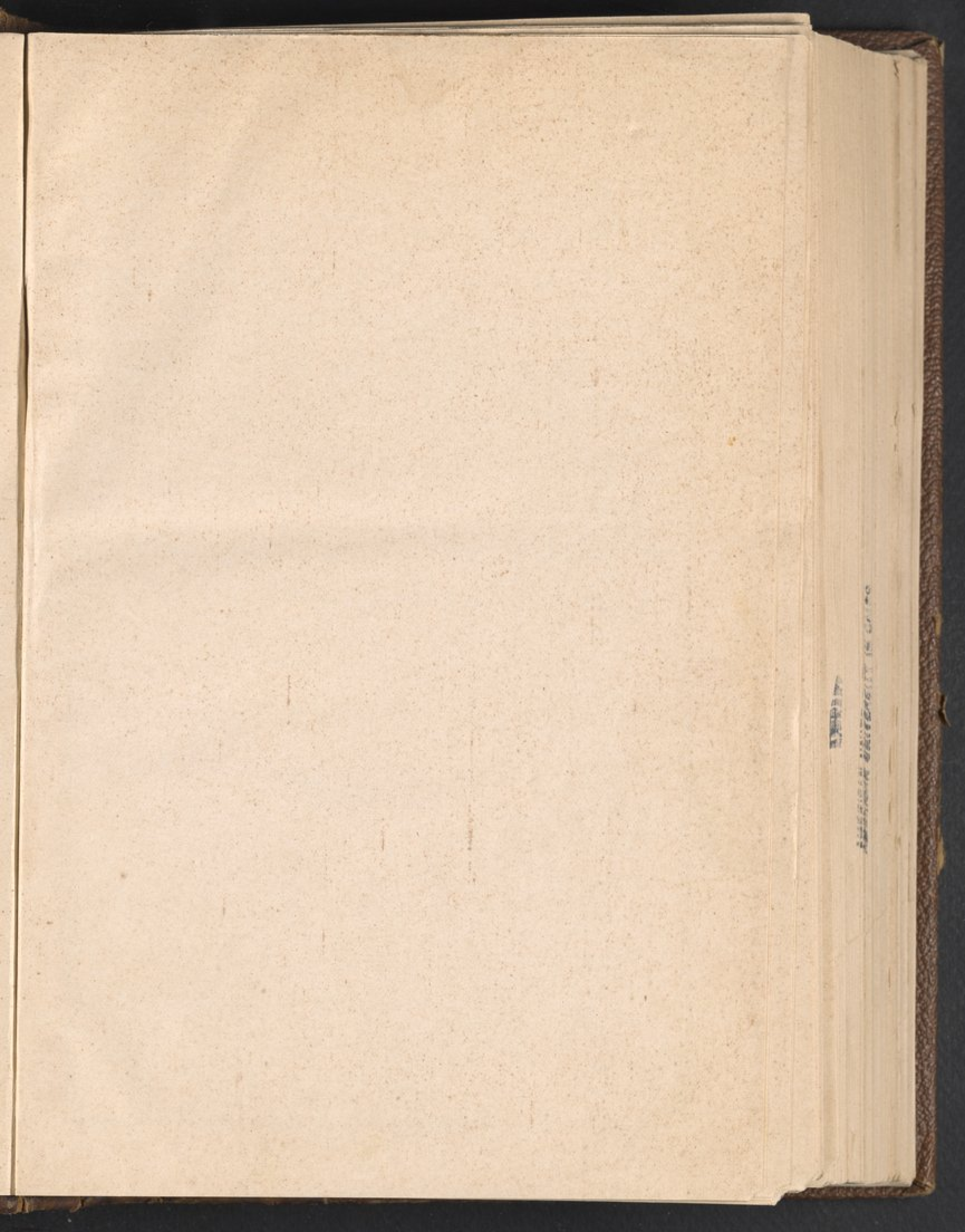
كل الذي مرَّ بك تمَّ في ستة اشهر ونحن في المعرض الاميركي العام حتى اذا قرب ختامهُ بدأْنا بالاستعداد للعود الى مصر ووزعت الجوائز قبل الختام بقليل على اصحاب الصناعة والتجارة وغيرهم ممن عرض شيئًا يستحق الذكر وكان في جملة الجوائز واحدة للمعرض المصري نالها على نوع من القطن . ولما جاء يوم الختام وهو ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧٦ قدم رئيس الجمهوريَّة من العاصمة باحتفال مثل الذي وصفناهُ عند افتتاح المعرض فالقى خطابًا وجيزًا شكر فيهِ الدول المتحابة التي شاركت الولايات المتحدة في احتفالها ومعرضها وذكر مصر معها بنوع خاص واعلن اقفال المعرض فاطلق مائة مدفع ومدفع وصدحت الآلات الموسيقيَّة بالانغام ودار ذكر الوداع والتهاني وكان مدير المعرض وعمالهُ يثنون على الحاضرين ويودعون ويذكرون اوقات الصفاء . وفي مساء ذلك اليوم استقبل رئيس الجمهوريَّة مندوبي الدول للوداع وشكر كلاًّ منهم على حدة وانصرفنا ونحن نذكر اياماً قضيناها بكل ما يفيد العقل والنفس وارسلت آخر التقارير عن المعرض الى سمو الخديوي توفيق باشا وبدأْنا بتوديع اولئك الاصدقاء الذين اظهروا لنا لطفًا وكرماً غير معتاد ثم سافرنا من مدينة فلادلفيا آسفين لفراقها ومن فيها وسرت الى مدينة نيويورك ونزلت في فندق هوفمان اياماً ثم ركبت باخرة من بواخر شركة هوايت ستار الانكليزيَّة ومعنى اسمها النجم الابيض ومركزها في مدينة لفربول ببلاد الانكليز فودعت الاصدقاء وغادرت ربوع الاميركان بعد اقامة ١٤ شهرًا وكان ربان الباخرة رجلاً كريم الاخلاق وفيها كثار من اهل الوجاهة بينهم الموسيو بلتنف معتمد روسيا في المعرض.

ولما كان زمان سفرنا في فصل الخريف او اول الشتاء فان الجو اظلم مدة السفر كلهِ وكثر الضباب والمطر ولكن الامواج لم تزد عن الحد المعتاد فوصلت السفينة الى مينا لفربول ليلة عيد الميلاد من تلك السنة بعد ان مخرت في البحر تسعة ايام اجتازت فيها ٣٠٠٠ ميل وكان بعض الركاب لا يصدقون انها تصل في ذلك اليوم والبعض يصدقون فجعلوا يتراهنون ولما قضي الامر وتمَّ المراد ربح بعضهم من البعض الآخر مالاً وافرًا بهذا الرهان وعوَّل اكثرهم على شراء هدية لربان الباخرة بهذا الربح لانهُ كان كثير الاهتمام براحة المسافرين

وعدت بعد ذلك الى مصر فتشرَّفت بمقابلة سموّ الخديوي وعرضت عليهِ نتيجة المأمورية فاظهر الرضى والارتياح وكان ذلك ختام سياحتي في الولايات المتحدة ومأموريتي في معرضها المشهور والحمد لله على حسن الختام







فهرست الكتاب

فهرس

